خصائص التصور الإسلامي

سيد قطب

فهرس

كَلِمَة في المنْهج

"إنَّ هذا القُرْآنَ يَهْدي للتي هيَ أقْوَمُ"

تحديد "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته[1]" ... مسألة ضرورية، لأسباب كثيرة:

ضرورية لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود .. لابد من تفسير يقرّب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية. وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون. وحقيقة الحياة. وحقيقة الإنسان) .. وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط.

وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني.. فمن هذه المعرفة يتبين دور "الإنسان" في "الكون" وحدود اختصاصاته كذلك. وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعاً.

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج. فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل، ولابد أن ينبثق منه انبثاقاً ذاتياً وإلا كان نظاماً مفتعلاً، قريب الجذور، سريع الذبول. والفترة التي يقدر له فيها البقاء، هي فترة شقاء "للإنسان"، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية، وحاجات "الإنسان" الحقيقية! الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها – بلا استثناء – وبخاصة في الأمم التي تسمى "متقدمة[2] ! "

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد. وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة– وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف

---

(1) هذا البحث هو الذي سبق الوعد بإخراجه تحت عنوان: "فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان".

(2) راجع كتاب "الإنسان ذلك المجهول" تأليف دكتور ألكسيس كاريل، وكتاب: "الإسلام ومشكلات الحضارة" لصاحب هذا البحث.

في الصور والأشكال – وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي، وخصائصه ومقاومته، هو الذي يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز، وعنصراً قادراً على القيادة والإنقاذ. فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني.

* * *

ولقد كان القرآن الكريم قد قدم للناس هذا التفسير الشامل، في الصورة الكاملة، التي تقابل كل عناصر الكينونة الإنسانية، وتلبي كل جوانبها، وتتعامل مع كل مقوماتها .. تتعامل مع "الحس" و "الفكر" و "البديهة" و "البصيرة" ... ومع سائر عناصر الإدراك البشري، والكينونة البشرية بوجه عام – كما تتعامل مع الواقع المادي للإنسان، هذا الواقع الذي ينشئه وضعه الكوني– في الأسلوب الذي يخاطب، ويوحي، ويوجه كل عناصر هذه الكينونة متجمعة، في تناسق، هو تناسق الفطرة كما خرجت من يد بارئها سبحانه!

وبهذا التصور المستمد مباشرة من القرآن، تكيفت الجماعة المسلمة الأولى. تكيفت ذلك التكيف الفريد. وتسلمت قيادة البشرية، وقادتها تلك القيادة الفريدة، التي لم تعرف لها البشرية – من قبل ولا من بعد– نظيراً. وحققت في حياة البشرية– سواء في عالم الضمير والشعور، أو في عالم الحركة والواقع– ذلك النموذج الفذ الذي لم يعهده التاريخ. وكان القرآن هو المرجع الأول لتلك الجماعة. فمنه انبثقت هي ذاتها.. وكانت أعجب ظاهرة في تاريخ الحياة البشرية: ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب! وبه عاشت. وعليه اعتمدت في الدرجة الأولى. باعتبار أن "السنة" ليست شيئاً آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآني. كما لخصتها عائشة – رضي الله عنها– وهي تُسأل عن خلق رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فتجيب تلك الإجابة الجامعة الصادقة العميقة: "كان خلقه القرآن" .. (أخرجه النسائي).

* * *

ولكن الناس بعدوا عن القرآن، وعن أسلوبه الخاص، وعن الحياة في ظلاله، عن ملابسة الأحداث والمقوّمات التي يشابه جوُّها الجوُّ الذي تنزّل فيه القرآن .. وملابسةُ هذه الأحداث والمقوّمات، وتَنسُّمُ جوها الواقعي، هو وحده الذي يجعل هذا القرآن مُدرَكاً وموحياً كذلك. فالقرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالي البال من مكان الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقة، ومن معاناة هذا الأمر العسير وجرائره وتضحياته وآلامه، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع، في مواجهة الجاهلية في أي زمان!

إن المسألة –في إدراك مدلولات هذا القرآن وإيحاءاته– ليست هي فهم ألفاظه وعباراته، ليست هي "تفسير" القرآن– كما اعتدنا أن نقول! المسألة ليست هذه. إنما هي استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك .. معترك الجهاد .. جهاد النفس وجهاد الناس. جهاد الشهوات وجهاد الأعداء. والبذل والتضحية. والخوف والرجاء. والضعف والقوة. والعثرة والنهوض.. جو مكة، والدعوة الناشئة، والقلة والضعف، والغربة بين الناس .. جو الشَّعب والحصار، والجوع والخوف، والاضطهاد والمطاردة، والانقطاع إلا عن الله.. ثم جو المدينة: جو النشأة الأولى للمجتمع المسلم، بين الكيد والنفاق، والتنظيم والكفاح .. جو "بدر" و "أحد" و "الخندق" و "الحديبية". وجو "الفتح"، و "حنين" و "تبوك". وجو نشأة الأمة المسلمة ونشأة نظامها الاجتماعي والاحتكاك الحي بين المشاعر والمصالح والمبادئ في ثنايا النشأة وفي خلال التنظيم.

في هذا الجو الذي تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية.. كان للكلمات وللعبارات دلالاتها وإيحاءاتها. وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويشيع عطره، ويكون فيه هدى ونور ..

لقد كانوا يومئذ يدركون حقيقة قول الله لهم:

"**يَمنُّون عليك أن أسلموا. قل: لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**".. (الحجرات: 17)

وحقيقة قول الله لهم:

"يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحيكم. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذي ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب. واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس. فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون".

(الأنفال: 24-26)

وحقيقة قول الله لهم:

"ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون"..

(آل عمران: 123)

وحقيقة قول الله لهم:

"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداولها بين الناس. وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء. والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تَمَنَّون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون" ...

(آل عمران: 139-143)

وحقيقة قول الله لهم:

"لقد نصركم الله في مواطن كثيرة. ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وَليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا. وذلك جزاء الكافرين" ..

(التوبة: 25، 26).

وحقيقة قول الله لهم:

"لتبلَوُن في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور"..

(آل عمران: 186)

كانوا يدركون حقيقة قول الله لهم في هذا كله، لأنه كان يحدثهم عن واقعيات في حياتهم عاشوها، وعن ذكريات في نفوسهم لم تغب معالمها، وعن ملابسات لم يبعد بها الزمن، فهي تعيش في ذات الجيل..

والذين يعانون اليوم وغداً مثل هذه الملابسات، هم الذين يدركون معاني القرآن وإيحاءاته. وهم الذين يتذوقون حقائق التصور الإسلامي كما جاء بها القرآن. لأن لها رصيداً حاضراً في مشاعرهم وفي تجاربهم، يتلقونها به، ويدركونها على ضوئه.. وهم قليل..

ومن ثم لم يكن بد – وقد بعد الناس عن القرآن ببعدهم عن الحياة الواقعية في مثل جوه– أن نقدم لهم حقائق: "التصور الإسلامي" عن الله والكون والحياة والإنسان من خلال النصوص القرآنية، مصحوبة بالشرح والتوجيه، والتجميع والتبويب. لا ليغنى هذا غناء القرآن في مخاطبة القلوب والعقول. ولكن ليصل الناس بالقرآن– على قدر الإمكان– وليساعدهم على أن يتذوقوه، ويلتمسوا فيه بأنفسهم حقائق التصور الإسلامي الكبير!

على أننا نحب أن ننبه هنا إلى حقيقة أساسية كبيرة. . إننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الإسلامي، مجرد المعرفة الثقافية. لا نبغي إنشاء فصل في المكتبة الإسلامية، يضاف إلى ما عرف من قبل باسم "الفلسفة الإسلامية". كلا! إننا لا نهدف إلى مجرد "المعرفة" الباردة، التي تتعامل مع الأذهان، وتحسب في رصيد "الثقافة"! إن هذا الهدف في اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه! إنه هدف تافه رخيص! إنما نحن نبتغي "الحركة" من وراء "المعرفة". نبتغي أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة، لتحقيق مدلولها في عالم الواقع. نبتغي استجاشة ضمير "الإنسان" لتحقيق غاية وجوده الإنساني، كما يرسمها هذا التصور الرباني. نبتغي أن ترجع البشرية إلى ربها، وإلى منهجه الذي أراده لها، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التي تتفق مع الكرامة

التي كتبها الله للإنسان، والتي تحققت في فترة من فترات التاريخ، على ضوء هذا التصور، عندما استحال واقعاً في الأرض، يتمثل في أمة، تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء.

ولقد وقع – في طور من أطوار التاريخ الإسلامي- أن احتكت الحياة الإسلامية الأصلية، المنبثقة من التصور الإسلامي الصحيح، بألوان الحياة الأخرى التي وجدها الإسلام في البلاد المفتوحة، وفيما وراءها كذلك. ثم بالثقافات السائدة في تلك البلاد.

واشتغل الناس في الرقعة الإسلامية- وقد خلت حياتهم من هموم الجهاد، واستسلموا لموجات الرخاء .. وجدّت في الوقت ذاته في حياتهم من جراء الأحداث السياسية وغيرها مشكلات للتفكير والرأي والمذهبية- كان بعضها في وقت مبكر منذ الخلاف المشهور بين علي ومعاوية- اشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية التي تجمعت حول المسيحية، والتي ترجمت إلى اللغة العربية .. ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضاً، انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامي الأصيل. التصور الذي جاء ابتداء لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات، ومن مثل هذه الاتجاهات، وردها إلى التصور الإسلامي الإيجابي الواقعي، الذي يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة، للبناء والتعمير، والارتفاع والتطهير. ويصون الطاقة أن تنفق في الثرثرة. كما يصون الإدراك البشري أن يطوح به في التيه بلا دليل.

ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لابد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك، وهذا الانحراف، بردود وإيضاحات وجدل حول ذات الله-سبحانه- وصفاته. وحول القضاء والقدر. وحول عمل الإنسان وجزائه، وحول المعصية والتوبة.. إلى آخر المباحث التي ثار حولها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي! ووجدت الفرق المختلفة خوارج وشيعة ومرجئة. قدرية وجبرية. سنية ومعتزلة.... إلى آخر هذه الأسماء.

كذلك وجد بين المفكرين المسلمين من فتن بالفلسفة الإغريقية- وبخاصة شروح فلسفة أرسطو- أو المعلم الأول كما كانوا يسمونه- وبالمباحث اللاهوتية- "الميتافيزيقية" – وظنوا أن "الفكر الإسلامي" لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله، أو مظاهر أبهته وعظمته، إلا إذا ارتدى

هذا الزي- زي التفلسف والفلسفة- وكانت له فيه مؤلفات! وكما يفتن من اليوم ناس بأزياء التفكير الغربية، فكذلك كانت فتنتهم بتلك الأزياء وقتها. فحاولوا إنشاء "فلسفة إسلامية" كالفلسفة الإغريقية. وحاولوا إنشاء "علم الكلام" على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو!

وبدلاً من صياغة "التصور الإسلامي" في قالب ذاتي مستقل، وفق طبيعته الكلية، التي تخاطب الكينونة البشرية جملة، بكل مقوماتها وطاقاتها، ولا تخاطب "الفكر البشري" وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني.. بدلاً من هذا فإنهم استعاروا "القالب" الفلسفي ليصبوا فيه "التصور الإسلامي"، كما استعاروا بعض التصورات الفلسفية ذاتها، وحاولوا أن يوفقوا بينها وبين التصور الإسلامي.. أما المصطلحات فقد كادت تكون كلها مستعارة!

ولما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية.. فقد بدت "الفلسفة الإسلامية" -كما سميت- نشازاً كاملاً في لحن العقيدة المتناسق! ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير، شاب صفاء التصور الإسلامي، وصفر مساحته، وأصابه بالسطحية.

ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط. مما جعل تلك "الفلسفة الإسلامية" ومعها مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة على الإسلام، وطبيعته، وحقيقته، ومنهجه، وأسلوبه!

وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابل بالدهشة – على الأقل!- سواء من كثير من المشتغلين عندنا بما يسمى "الفلسفة الإسلامية" أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية بصفة عامة.. ولكني أقرره، وأنا على يقين جازم بأن "التصور الإسلامي" لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ، إلا حين نلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم "الفلسفة الإسلامية". وبكل مباحث "علم الكلام" وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضاً! ثم نعود إلى القرآن الكريم، نستمد منه مباشرة "مقومات التصور الإسلامي". مع بيان "خصائصه" التي تفرده من بين سائر التصورات. ولا بأس من بعض الموازنات- التي توضح هذه الخصائص – مع

التصورات الأخرى- أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من القرآن مباشرة، وتصاغ صياغة مستقلة .. تماماً.

ولعله مما يحتم هذا المنهج الذي أشرنا إليه أن ندرك ثلاث حقائق هامة:

الأولى: أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية، منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً في لغة سقيمة. مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح!

والثانية: أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تتم عن سذاجة كبيرة، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية، وعناصرها الوثنية العميقة، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساس منهجي واحد. مما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة.. فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير، ولم تخل من العناصر الوثنية الأسطورية قط. فمن السذاجة والعبث -كان- محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس "التوحيد" المطلق العميق التجريد.. ولكن المشتغلين بالفلسفة والجدل من المسلمين، فهموا -خطأ- تحت تأثير ما نقل إليهم من الشروح المتأخرة المتأثرة بالمسيحية أن "الحكماء" – وهم فلاسفة الإغريق- لا يمكن أن يكونوا وثنيين، ولا يمكن أن يحيدوا عن التوحيد! ومن ثم التزموا عملية توفيق متعسفة بين كلام "الحكماء" وبين العقيدة الإسلامية. ومن هذه المحاولة كان ما يسمى "الفلسفة الإسلامية"!

والثالثة: أن المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي – تلك التي أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان -رضي الله عنه- قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية، وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً. فلما بدأ المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية، بحثاً مغرضاً في الغالب ومن ثم لم تعد تلك المصادر- في ظل تلك الخلافات- تصلح أساساً للتفكير الإسلامي الخالص، الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت، في جو خالص من عقابيل تلك الخلافات التاريخية. ومن

ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة! عن مفهومنا الأصيل للإسلام، ودراسته دراسة تاريخية بحتة، لبيان زوايا الانحراف فيه، وأسباب هذا الانحراف، وتجنب نظائرها فيما نصوغه اليوم من مفهوم التصور الإسلامي، ومن أوضاع وأشكال ومقومات النظام الإسلامي أيضاً..

* * *

ولقد سارت مناهج الفكر الغربي في طريقها الخاص. مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقي وما فيه من لوثة الوثنية، ثم مستمدة أخيراً من عدائها للكنيسة، وللتفكير الكنسي في الغالب!

وكان الطابع العام لهذا الفكر منذ عصر النهضة، وهو معارضة الكنيسة الكاثوليكية وتصوراتها. ثم -فيما عد- معارضة الكنيسة إطلاقاً، ومعارضة التصور الديني جملة.. والتصورات الكنسية – بصفة عامة- لم تكن في يوم من الأيام تمثل النصرانية الحقيقية. فإن الملابسات التي صاحبت نشأة النصرانية في ظل الدولة الرومانية الوثنية، ثم التي صاحبت دخول الدولة الرومانية في النصرانية قد جنت على النصرانية الحقة جناية كبرى، وحرفتها تحريفاً شديداً. حرفتها ابتداء بما أدخلت فيها من رواسب الوثنية الرومانية. ثم بما أضافته الكنيسة والمجامع بعد ذلك من التأويلات والإضافات التي ضمت -مع الأسف- إلى الأصل الإلهي في النصرانية، لمجاراة الأحداث السياسية، والاختلافات المذهبية، ولمحاولة تجميع المذاهب وتجميع القطاعات المتعارضة في الدولة الرومانية في مذهب واحد يرضى عنه الجميع[1]! مما جعل "النصرانية" تعبيراً عن "التصور الكنسي" أكثر مما هي تعبير عن الديانة النصرانية المنزلة من عند الله.

ثم كان من جراء احتضان الكنيسة لهذه التصورات المنحرفة، ومن جراء احتضانها كذلك لكثير من المعلومات الخاطئة أو الناقصة عن الكون- مما هو من شأن البحوث والدراسات والتجارب البشرية- أن وقفت موقفاً عدائياً خشناً من العلماء الطبيعيين حين قاموا يصححون هذه المعلومات "البشرية" الخاطئة أو الناقصة. ولم تكتف بالهجوم الفكري عليهم، بل استخدمت سلطانهم المادي ببشاعة في التنكيل لكل المخالفين لتصوراتها الدينية والعلمية على السواء!

(1) يراجع كتاب "الدعوة إلى الإسلام" تأليف "ت. و. أرنولد" الترجمة العربية ص52.

ومنذ ذلك التاريخ، وإلى اليوم، اتخذ "الفكر الأوربي" موقفاً عدائياً لا من الأفكار والتصورات الكنسية التي كانت سائدة يومذاك، بل من الأفكار والتصورات الدينية على الإطلاق. بل تجاوز العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الديني بجملته! واتجه الفكر الأوربي إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير، الغرض الأساسي منها هو معارضة منهج الكفر الديني، والتخلص من سلطان الكنيسة، بالتخلص من إله الكنيسة! ومن كل ما يتعلق به من أفكار ومن مناهج للتفكير أيضاً" وكمن العداء للدين وللمنهج الديني، لا في الموضوعات والفلسفات والمذاهب التي أنشأها الفكر الأوربي، بل في صميم هذا الفكر، وفي صميم المناهج التي يتخذها للمعرفة.

ومن ثم لم يعد نتاج الفكر الأوربي، ولا مناهج التفكير الأوربية تصلح لأن تتخذ أساساً للفكر الإسلامي، ولا لتجديد هذا الفكر – كما يعبر بعض المفكرين المسلمين أنفسهم .. وسيرى قارئ هذا البحث – بعد فراغ منه– أنه لا سبيل لاستعارة مناهج الكفر الغربي، ولا استعارة نتاج هذا الفكر الذي قام على أساس هذه المناهج، للفكر الإسلامي!

* * *

منهجنا إذن في هذا البحث عن: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة – بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً – وأن نستحضر بقدر الإمكان– الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر، والملابسات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية التي كانت البشرية تتيه فيها وقت أن جاءها هذا الهدى. ثم التيه الذي ضلت فيه بعد انحرافها عن الهدي الإلهي!

ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً. لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية – من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته –نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة.

لقد جاء النص القرآني –ابتداء– لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم. وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير، وهذه

الرعاية من الله ذي الجلال –هو الغني عن العالمين– أن يتلقوها وقد فرّغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل، ليقوم تصورهم الجديد نظيفاً من كل رواسب الجاهليات –قديمها وحديثها على السواء– مستمداً من تعليم الله وحده. لا من ظنون البشر، التي لا تغني من الحق شيئاً!

ليست هناك إذن مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى. إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداء، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا! وهذا – وحده– هو المنهج الصحيح، في مواجهة القرآن الكريم، وفي استلهامه خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته.

* * *

ثم إننا لا نحاول استعارة "القالب الفلسفي" في عرض حقائق "التصور الإسلامي" اقتناعاً منا بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة "الموضوع" وطبيعة "القالب". وأن الموضوع يتأثر بالقالب. وقد تتغير طبيعته ويلحقها التشويه، إذا عرض في قالب، في طبيعته وفي تاريخه عداء وجفوة وغربة عن طبيعته! الأمر المتحقق في موضوع التصور الإسلامي والقالب الفلسفي. والذي يدركه من يتذوق حقيقة هذا التصور كما هي معروضة في النص القرآن!.

نحن نخالف "إقبال" في محاولته صياغة التصور الإسلامي في قالب فلسفي، مستعار من القوالب المعروفة عند هيجل من "العقليين المثاليين" وعند أوجست كونت من "الوضعيين الحسيين".

إن العقيدة –إطلاقاً– والعقيدة الإسلامية–بوجه خاص– تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء. الإيحاء بالحقائق الكبيرة، التي لا تتمثل كلها في العبارة. ولكن توحي بها العبارة. كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها. ولا يخاطب "الفكر" وحده في الكائن البشري.. أما الفلسفة فلها أسلوب آخر. إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة. ولما كان نوع الحقائق التي تتصدى لها يستحيل أن ينحصر في منطوق العبارة –فضلاً عن جوانب أساسية

من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه "الفكر" البشري[1] –فإن الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف، كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة!

ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة، ولم تدفع بالبشرية إلى الأمام شيئاً مما دفعتها العقيدة، التي تقدمت البشرية على حدائها في تيه الزمن، وظلام الطريق.

لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، ويطفئ إشعاعها وإيجاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة.

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها.

ولسنا حريصين على أن تكون هناك "فلسفة إسلامية"! لسنا حريصين على أن يوجد هذا الفصل في الفكر الإسلامي، ولا أن يوجد هذا القالب في قوالب الأداء الإسلامية! فهذا لا ينقص الإسلام شيئاً في نظرنا، ولا ينقص "الفكر الإسلامي". بل يدل دلالة قوية على أصالته ونقائه وتميزه!

* * *

وكلمة أخرى في المنهج الذي نتوخاه في هذا البحث أيضاً ...

إننا لا نستحضر أمامنا انحرافاً معيناً من انحرافات الفكر الإسلامي، أو الواقع الإسلامي، ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله. بحيث يصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلي لنا فيما نبذله من جهد في تقرير "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته".. إنما نحن نحاول تقرير حقائق هذا التصور –في ذاتها– كما جاء بها القرآن الكريم، كاملة شاملة، متوازنة متناسقة، تناسق هذا الكون وتوازنه، وتناسق هذه الفطرة وتوازنها.

ذلك أن استحضار انحراف معين، أو نقص معين، والاستغراق في دفعه، وصياغة حقائق التصور الإسلامي للرد عليه .. منهج شديد الخطر، وله معقباته في إنشاء انحراف جديد في التصور الإسلامي لدفع انحراف قديم .. والانحراف انحراف على كل حال !!!

---

(1) يراجع في هذا الكتاب فصل: "الربانية".

ونحن نجد نماذج من هذا الخطر في البحوث التي تكتب بقصد "الدفاع" عن الإسلام في وجه المهاجمين له، الطاعنين فيه، من المستشرقين والملحدين قديماً وحديثاً. كما نجد نماذج منه في البحوث التي تكتب للرد على انحراف معين، في بيئة معينة، في زمان معين!

يتعمد بعض الصليبيين والصهيونيين مثلاً أن يتهم الإسلام بأنه دين السيف، وأنه انتشر بحد السيف.. فيقوم منا مدافعون عن الإسلام يدفعون عنه هذا "الاتهام"! وبينما هم مشتطون في حماسة "الدفاع" يسقطون قيمة "الجهاد" في الإسلام، ويضيقون نطاقه ويعتذرون عن كل حركة من حركاته، بأنها كانت لمجرد "الدفاع"! – بمعناه الاصطلاحي الحاضر الضيق! – وينسون أن للإسلام – بوصفه المنهج الإلهي الأخير للبشرية – حقه الأصيل في أن يقيم "نظامه" الخاص في الأرض، لتستمع البشرية كلها بخيرات هذا "النظام".. ويستمتع كل فرد – في داخل هذا النظام – بحرية العقيدة التي يختارها، حيث "لا إكراه في الدين" من ناحية العقيدة .. أما إقامة "النظام الإسلامي" ليظلل البشرية كلها ممن يعتنقون عقيدة الإسلام وممن لا يعتنقونها، فتقتضي الجهاد لإنشاء هذا النظام وصيانته، وترك الناس أحراراً في عقائدهم الخاصة في نطاقه. ولا يتم ذلك إلا بإقامة سلطان خير وقانون خير ونظام خير يحسب حسابه كل من يفكر في الاعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد في الأرض!

وليس هذا إلا نموذجاً واحداً من التشويه للتصور الإسلامي، في حماسة الدفاع ضد هجوم ماكر، على جانب من جوانبه!

أما البحوث التي كتبت للرد على انحراف معين، فأنشأت هي بدورها انحرافاً آخر، فأقرب ما نتمثل به في هذا الخصوص، توجيهات الأستاذ الإمام الشيخ "محمد عبده". ومحاضرات "إقبال" في موضوع: "تحديد الفكر الديني في الإسلام"[1].

لقد واجه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، بيئة فكرية جامدة، أغلقت باب "الاجتهاد" وأنكرت على "العقل" دوره في فهم شريعة الله واستنباط الأحكام منها، واكتفت بالكتب التي ألفها المتأخرون في عصور الجمود العقلي وهي – في الوقت ذاته– تعتمد على الخرافات والتصورات

(1) ترجمة الأستاذ عباس محمود.

الدينية العامية! كما واجه فترة كان "العقل" فيها يعبد في أوربا ويتخذه أهلها إلهاً، وخاصة بعد الفتوحات العلمية التي حصل فيها العلم على انتصارات عظيمة، وبعد فترة كذلك من سيادة الفلسفة العقلية التي تؤله العقل! وذلك مع هجوم من المستشرقين على التصور الإسلامي، وعقيدة القضاء والقدر فيه، وتعطيل العقل البشري والجهد البشري عن الإيجابية في الحياة بسبب هذه العقيدة ... الخ. فلما أراد أن يواجه هذه البيئة الخاصة، بإثبات قيمة "العقل" تجاه "النص". وإحياء فكرة "الاجتهاد" ومحاربة الخرافة والجهل والعامية في "الفكر الإسلامي".. ثم إثبات أن الإسلام جعل للعقل قيمته وعمله في الدين والحياة، وليس – كما يزعم "الإفرنج" أنه قضى على المسلمين" بالجبر" المطلق وفقدان "الاختيار" .. لما أراد أن يواجه الجمود العقلي في الشرق، والفتنة بالعقل في الغرب، جعل "العقل" البشري ندّاً للوحي في هداية الإنسان، ولم يقف به عند أن يكون جهازاً –من أجهزة – في الكائن البشري، يتلقى الوحي. ومنع أن يقع خلاف ما بين مفهوم العقل وما يجئ به الوحي. ولم يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه، ويسلم بما هو فوق إدراكه، بما أنه – هو والكينونة الإنسانية بجملتها– غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان، بينما الوحي يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان كحقيقة الألوهية، وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث.. وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة، التي لا سبل له إلى إدراكها[1]!.. وساق حجة تبدو منطقية، ولكنها من فعل الرغبة في تقويم ذلك الانحراف البيئي الخاص الذي يحتقر العقل ويهمل دوره.. قال رحمه الله في رسالة التوحيد.

"فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله. والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار الله في الوجود. وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يعارض بعضها بعضاً"..

وهذا صحيح في عمومه.. ولكن يبقى أن الوحي والعقل ليسا ندين. فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل. وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر. والميزان الذي يختبر الآخر عنده مقرراته ومفهوماته وتصوراته. ويصحح به اختلالاته وانحرافاته. فبينما –ولا شك– توافق وانسجام. ولكن على هذا الأساس. لا على أساس أنهما ندان متعادلان، وكفو أحدهما

(1) يراجع هذا البحث فصل: الربانية.

تماماً للآخر! فضلاً عن أن العقل المبرأ من النقص والهوى لا وجود له في دنيا الواقع، وإنما هو "مثال"!

وقد تأثر تفسير الأستاذ الإمام لجزء عم بهذه النظرة تأثراً واضحاً. وتفسير تلميذه المرحوم الشيخ رشيد رضا وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربي لجزء "تبارك" حتى صرح مرات بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل! وهو مبدأ خطر. فإطلاق كلمة "العقل" يرد الأمر إلى شيء غير واقعي! -كما قلنا- فهناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعقل علان .. وليس هنالك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآني إلى "مقرراته". وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة، فإننا ننتهي إلى فوضى!

وقد نشأ هذا كله من الاستغراق في مواجهة انحراف معين.. ولو أخذ الأمر - في ذاته- لعرف للعقل مكانه ومجال عمله بدون غلو ولا إفراط، وبدون تقصير ولا تفريط كذلك. وعرف للوحي مجاله. وحفظت النسبة بينهما في مكانها الصحيح..

إن "العقل" ليس منفياً ولا مطروداً ولا مهملاً في مجال التلقي عن الوحي، وفهم ما يتلقى وإدراك ما من شأنه أن يدركه، مع التسليم بما هو خارج عن مجاله. ولكنه كذلك ليس هو "الحكم" الأخير. وما دام النص مُحكماً، فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم. وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح. ويقيم منهجه على أساسه (وفي صلب هذا البحث تفصيل واف للحد المأمون والمنهج الإسلامي المستقيم).

ولقد واجه "إقبال" في العالم الشرقي بيئة فكرية "تائهة!" في غيبوبة "إشراقات" التصوف "العجمي" كما يسميه! .. فراغه هذا "الفناء" الذي لا وجود فيه للذاتية الإنسانية. كما راعته "السلبية" التي لا عمل معها للإنسان ولا أثر في هذه الأرض. وليس هذا هو الإسلام بطبيعة الحال - كما واجه من ناحية أخرى التفكير الحسي في المذهب الوضعي، ومذهب التجريبيين في العالم الغربي. كذلك واجه ما أعلنه نيتشه في "هكذا قال زرادشت" عن مولد الإنسان الأعلى (السوبرمان) وموت الإله! وذلك في تخبطات الصرع التي كتبها نيتشه وسماها بعضهم "فلسفة"!.

وأراد أن ينفض "الفكر الإسلامي" وعن "الحياة الإسلامية" ذلك الضياع والفناء والسلبية. كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامي واقعية "التجربة" التي يعتمد عليها المذهب التجريبي ثم المذهب الوضعي!

ولكن النتيجة كانت جموحاً في إبراز الذاتية الإنسانية، اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها، كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي. لإثبات أن الموت ليس نهاية للتجربة. ولا حتى القيامة. فالتجربة والنمو في الذات الإنسانية مستمران أيضاً –عند إقبال – بعد الجنة والنار. مع أن التصور الإسلامي حاسم في أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء. وليست هنالك فرصة للنفس البشرية للعمل إلا في هذه الدار. كما أنه لا مجال لعمل جديد في الدار الآخرة بعد الحساب والجزاء.. ولكن هذا الغلو إنما جاء من الرغبة الجازفة في إثبات "وجود" الذاتية، واستمرارها، أو ألـ "أنا" كما استعار إقبال من اصطلاحات هيجل الفلسفية.

ومن ناحية أخرى اضطر إلى إعطاء اصطلاح "التجربة" مدلولاً أوسع مما هو في "الفكر الغربي" وفي تاريخ هذا الفكر. لكي يمد مجاله إلى "التجربة الروحية" التي يزاولها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى. "فالتجربة" بمعناها الاصطلاحي الفلسفي الغربي، لا يمكن أن تشمل الجانب الروحي أصلاً! لأنها نشأت ابتداء لنبذ كل وسائل المعرفة التي لا تعتمد على التجربة الحسية.

ومحاولة استعارة الاصطلاح الغربي، هي التي قادت إلى هذه المحاولة. التي يتضح فيها الشد والجذب والجفاف أيضاً. حتى مع شاعرية إقبال الحية المتحركة الرفافة!

ولست أبتغي أن أنقص من قدر تلك الجهود العظيمة المثمرة في إحياء الفكر الإسلامي وإنهاضه التي بذلها الأستاذ الإمام وتلاميذه، والتي بذلها الشاعر إقبال .. رحمهم الله رحمة واسعة .. وإنما أريد فقط التنبيه إلى أن دفعة الحماسة لمقاومة انحراف معين، قد تنشئ هي انحرافاً آخر. وأن الأَوْلى في منهج البحث الإسلامي، هو عرض حقائق التصور الإسلامي في تكاملها الشامل، وفي تناسقها الهادئ. ووفق طبيعتها الخاصة وأسلوبها الخاص..

*   *   *

وأخيراً فإن هذا البحث ليس كتباً في "الفلسفة" ولا كتاباً في "اللاهوت" ولا كتاباً في "الميتافيزيقا".. إنه عمل يمليه الواقع. وهو يخاطب الواقع أيضاً..

لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الركام الذي كان ينوء بأفكارها وحياتها ويثقلها. ومن التيه الذي كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه. ولينشئ لها تصوراً خاصاً متميزاً متفرداً، وحياة أخرى تسير وفق منهج الله القويم. فإذا بالبشرية كلها اليوم ترتكس إلى التيه وإلى الركام الكريه!

ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة، يسلمها قيادة البشرية،لتنأى بها عن التيه وعنا لركام.. فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة، وتترك منهج القيادة، وتلهث وراء الأمم الضاربة فيا لتيه، وفي الركام الكريه!

ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة، يسلمها قيادة البشرية، لتنأى بها عن التيه وعن الركام.. فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة، وتترك منهج القيادة، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه، وفي الركام الكريه!

هذا الكتاب محاولة لتحديد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، التي ينبثق منها منهج الحياة الواقعي– كما أراده الله– ودستور النشاط الفكري والعلمي والفني، الذي لابد أن يستمد من التفسير الشامل الذي يقدمه ذلك التصور الأصيل. وكل بحث في جانب من جوانب الفكرة الإسلامية أو النظام الإسلامي، لابد له من أن يرتكن أولاً إلى فكرة الإسلام.

والحاجة إلى جلاء تلك الفكرة هي حاجة العقل والقلب. وحاجة الحياة والواقع. وحاجة الأمة المسلمة والبشرية كلها على السواء.

وهذا القسم الأول من البحث يتناول "خصائص التصور الإسلامي" وسيتناول القسم الثاني: "مقومات التصور الإسلامي" [والله الموفق والهادي والمعين].

تيه وركام

"أفمن يَمشي مُكبّاً على وجهه أهدى؟

أم من يمْشي سَوِياً على صراطٍ مُستقيم؟"

جاء الإسلام، وفي العالم ركام هائل، من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال.. يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة.. والضمير البشري – تحت هذا الركام الهائل – يتخبط في ظلمات وظنون، لا يستقر منها على يقين. والحياة الإنسانية – بتأثير هذا الركام الهائل– تتخبط في فساط وانحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان!

وكان التيه الذي لا دليل فيه، ولا هدى ولا نور، ولا قرار ولا يقين .. هو ذلك التيه الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها وصفاتهن وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به، وحقيقة الإنسان، ومركزه في هذا الكون، وغاية وجوده الإنساني، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية .. ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص.. ومن هذا التيه ومن ذلك الركام كان ينبعث الشر كله في الحياة الإنسانية، وفي الأنظمة التي تقوم عليها.

ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون، وفي أمر نفسه، وفي غاية وجوده وفي منهج حياته، وفي الارتباطات التي تقوم بين الإنسان والكون، والتي تقوم بين أفراده هو وتجمعاته.. لم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في شيء من هذا كله، قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدتهن وفي أمر تصوره لإلهه، وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح، في وسط هذا العماء الطاخي، وهذا التيه المضل، وهذا الركام الثقيل.

ولم يكن الأمر كذلك لأن التفكير الديني كان هو طابع القرون الوسطى – كما يقول مفكرو الغرب، فيتلقف قولتهم هذه ببغاوات الشرق! – كلا .. إنما كان الأمر كذلك لأن هناك حقيقتين أساسيتين، ملازمتين للحياة البشرية، وللنفس البشرية، على كل حال، وفي كل زمان:

الحقيقة الأولى: أن هذا الإنسان –بفطرته– لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة مفلتة ضائعة. فلابد من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه. فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله. فهي ضرورة فطرية شعورية، لا علاقة لها بملابسات العصر والبيئة.. وسنرى حين يتقدم بنا هذا البحث كم كان شقاء الإنسان وحيرته وضلاله حين أخطأ هذا الارتباط، وحقيقة هذا التفسير.

والحقيقة الأخرى: هي أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادي، وطبيعة النظام الاجتماعي .. تلازماً لا ينفصل، ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة.. بل إن هناك ما هو أكثر من التلازم.. هناك الانبثاق الذاتي.. فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع. لا يعيش. وإذا عاش فترة شقى به "الإنسان"، ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً.. فهي ضرورة تنظيمية، كما أنها ضرورة شعورية.

ولقد كان الرسل – عليهم الصلاة والسلام– من لدن نوح إلى عيسى .. قد بينوا للناس هذه الحقيقة، وعرفوهم بإلههم تعريفاً صحيحاً، وأوضحوا لهم مركز "الإنسان" في الكون، وغاية وجوده .. ولكن الانجرافات الدائمة عن هذه الحقيقة، تحت ضغط الظروف السياسية والشهوات البشيرة، والضعف الإنساني، كانت قد غشت تلك الحقيقة، وأضلت البشرية عنها، وأهالت عليها ركاماً ثقيلاً يصعب رفعه بغير رسالة جديدة كاملة شاملة، ترفع هذا الركام، وتبدد هذا الظلام، وتنير هذا التيه، وتقر التصور الاعتقادي على أساس من الحق الخالص، وتقيم الحياة الإنسانية على أساس مستقر من ذلك التصور الصحيح. وما كان يمكن أن ينصرف أصحاب التصورات المنحرفة في الأرض كلها، وأن ينفكوا عمّا هم فيه، إلا بهذه الرسالة، وإلا بهذا الرسول .. وصدق الله العظيم:

"**لم يكن الذين كفروا – من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة**".. (البينة: 1، 2)

ولا يدرك الإنسان ضرورة هذه الرسالة، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات التي كانت البشرية تائهة في ظلماتها، وضرورة الاستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة .. حتى يطلع على ضخامة ذلك الركام، وحتى يرتاد ذلك التيه، من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري في كل مكان، وحتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد. التي كانت تتخبط فيها بقايا العقائد السماوية، التي دخلها التحريف والتأويل، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية، والتي التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير سواء!

ولما لم يكن قصدنا –في هذا البحث– هو عرض التصورات، إنما هو عرض التصور الإسلامي، وخصائصه ومقوماته.. فإننا نكتفي بعرض بعض النماذج من التصورات الدينية في اليهودية والمسيحية –كما وصلت إلى عرب الجزيرة– وبعض النماذج من التصورات الجاهلية العربية التي جاء الإسلام فواجهها هناك.

لقد حفلت ديانة بني إسرائيل –اليهودية– بالتصورات الوثنية، وباللوثة القومية على السواء. فبنو إسرائيل– وهو يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام –جاءتهم رسلهم– وفي أولهم أبوهم إسرائيل– بالتوحيد الخالص، الذي علمهم إياه أبوهم إبراهيم. ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى –عليه السلام– بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه. ولكنهم انحرفوا على مدى الزمن، وهبطوا في تصوراتهم إلى الوثنيات، واثبتوا في كتبهم (المقدسة!) وفي صلب (العهد القديم) أساطير وتصورات عن الله –سبحانه– لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين، الذين لم يتلقوا رسالة سماوية، ولا كان لهم من عند الله كتاب..

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أسسها جدهم إبراهيم – عليه السلام– عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت:

"**واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدونه؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين! قال: هل يسمعونكم إذا تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك**

يفعلون! قال: أفرأيتم، ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يميتني ثم يحيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين .. رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعل لي لسان صدق في الآخرين. واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم".

(الشعراء 69-89)

"ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؟ إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون".

(البقرة 130-133)

ومن هذا التوحيد الخالص، وهذه العقيدة الناصعة، وهذا الاعتقاد في الآخرة انتكس الأحفاد. وظلوا في انتكاسهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد.. والقرآن الكريم يذكر أصول هذه العقيدة التي جاء بها موسى –عليه السلام– لبني إسرائيل، ويذكر تراجعهم عنها:

"وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل: لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكين. وقولوا للناس حسناً. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون. وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمائكم، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان...".

(البقرة 83-85)

"ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا. قالوا: سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم. قل: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين".

(البقرة: 92-93)

ولقد بدا انحرافهم، وموسى عليه السلام بين أظهرهم .. من ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه لهم السامري، من الذهب الذي حملوه معهم من حلي نساء المصريين. وهو العجل الذي أشير إليه في الآيات السابقة.. وقبل ذلك كانوا قد مرّوا عقب خروجهم من مصر، على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا إلى موسى عليه السلام أن يقيم لهم صنماً يعبدونه!

"وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبّر ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون".

(الأعراف: 138-139)

وكذلك حكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله سبحانه وشركهم ووثنيتهم:

"وقالت اليهود عزير ابن الله" ..

(التوبة: 30)

"وقالت اليهود: يد الله مغلولة: غُلت أيديهم ولُعنوا بما قالوا: بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء"..

(المائدة: 64)

"لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق. ونقول: ذوقوا عذاب الحريق"..

(آل عمران: 181)

"وإذ قلتم: يا موسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون". (البقرة: 55)

ومن لوثة القومية واعتقادهم أن إلههم إله قومي! لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا في سلوكهم مع بعضهم البعض. أما الغرباء -غير اليهود- فهو لا يحاسبهم معهم على سلوك معيب! .. من هذه اللوثة كان قولهم الذي حكاه القرآن الكريم:

"**ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**".

(آل عمران: 75)

وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلههم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق في وثنيتهم لآلهتم:

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: (بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأمل من الشجرة. وهي كما يقول كاتب الإصحاح: شجرة معرفة الخير والشر):

"وسمعنا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله، في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم. وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان، فختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟.

"وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً! ويأكل ويحيا إلى الأبد.. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان. وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب، لحراسة شجرة الحياة!".

وعن سبب الطوفان جاء في هذا السفر نفسه:

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنهم نساءً من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه. هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة.. كان في الأرض طغاة في

تلك الأيام .. وبعد ذلك أيضاً. إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة، الذين منذ الدهر ذوو اسم!!!

"ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلفته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب".

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين (بعد ما عمرت الأرض بذرية نوح):

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا نعمة في أرض شنعار، وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشويه شيا، فكان لهم اللبن مكان الحجر. وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض.. فنزل الرب المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعى اسمها (بابل) لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض"!!!

وجاء في سفر صموئيل الثاني: الإصحاح الرابع والعشرين: "فجعل الرب وباءً في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد. فمات من الشعب –من دان إلى بئر سبع– سبعون ألف رجل. وبسط الملاك يده على أورشليم. فندم الرب عن الشر. فقال للملاك المهلك الشعب: كفى الآن رويدك!"..

ولم تكن الحال مع النصرانية خيراً مما كانت مع اليهودية. بل كان الأمر أدهى وأمر.. عبرت النصرانية إلى الدولة الرومانية الوثنية في أشد عصور الوثنية والانحلال في هذه الدولة. ثم أخذت تنتشر حتى استطاعت أن تولي قسطنطين امبراطوراً في سنة 305 ميلادية. ومن ثم

دخلت الإمبراطورية الرومانية في النصرانية. لا لتخضع للنصرانية. ولكن لتخضع النصرانية لوثنيتها العريقة. وفي هذا يقول الكاتب الأمريكي: درابر في كتابه: "الصراع بين الدين والعلم"

"دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين، الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومانية، بتظاهرهم بالنصرانية. ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين. ولم يخلصوا له يوماً من الأيام. وكذلك كان قسطنطين .. فقد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره سنة 337 ميلادية.

"إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها. وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء.. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً، ونشر عقائده خالصة بغير غبش.

"وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً، رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المتنافسين – النصراني والوثني– أن يوحدهما ويؤلف بينهما. حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة. ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ونقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها(1)".

ولكن الديانة الجديدة لم تتخلص قط من أناس الوثنية وأرجاسها، وتصوراتها الأسطورية – كما أمّل النصارى الراسخون– فقد ظلت تتلبس بالخلافات السياسية والعنصرية والطائفية، تلبسها بالأساطير الوثنية والتصورات الفلسفية. ووقع انقسام في التصور بغير حد:

قالت فرقة: إن المسيح إنسان محض. وقالت فرقة: إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس. فالله –بزعمهم– مركب من أقانيم ثلاثة: الأب وروح القدس؟ (الابن هو المسيح) فانحدر الله، الذي هو الأب، في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً، وولد منها في صورة يسوع. وفرقة قالت: إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من

---

(1) ترجمة الأستاذ السيف أبو الحسن الندوي في كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين".

قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له. وفرقة أنكرت كون روح القدس أقنوماً .. وقرر مجمع نيقية سنة 325ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة 381 أن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب، وأن روح القدس منبثق من الأب .. وقرر مجمع طليطلة سنة 589 بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً. فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين .. كذلك ألهت جماعة منهم مريم كما ألّهو المسيح عليه السلام ..

ويقول الدكتور ألفرد بتلر في كتابه: "فتح العرب لمصر. ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد":

"عن ذينك القرنين –الخامس والسادس– كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين. نضال يذكيه اختلاف في الجنس، واختلاف في الدين. وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس. إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية. وكانت الطائفة الأولى –كما يدل عليه اسمها– حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد وكانت تعتقد العقيدة السية الموروثة– وهي ازدواج طبيعة المسيح– على حين أن الطائفة الأخرى – وهي حزب القبط الموفيسيين –أهل مصر– كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها حرباً عنيفة. في حماسة هوجاء، يصعب علينا أن نتصورها، أو نعرف كنهها في قوم يعقلون، بله يؤمنون بالإنجيل!".

ويقول "سيرت. و. أرنولد" في كتابه: "الدعوة إلى الإسلام" عن هذا الخلاف، ومحاولة هرقل لتسويته بمذهب وسط:

"ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامي بمئة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة. ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موتهن وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية. ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه.

ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية. فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية.

"وكان مجمع خلقيدونه قد أعلن في سنة 451م "أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين، لا اختلاط بينهما، ولا تغير ولا تجزؤ، ولا انفصال. ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما. بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد، وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين. بل متجمعة في أقنوم واحد: هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة.

"وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع. وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة. وقالوا: إنه مركب الأقاليم، له كل الصفات الإلهية والبشرية. ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم.

"وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام، والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطيةن في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة: Monotheletism: ففي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية. وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد. فالمسيح الواحد، الذي هو ابن الله، يحقق الجانب الإنساني، والجانب الإلهي. بقوة إلهية إنسانية واحدة. ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة.

"لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداًن ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام، ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب. بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد، وجر على نفسه سخط الطائفتين سواء"(1)!

---

(1) ص 52 من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه.

وقد ورد في القرآن الكريم بعض الإشارات إلى هذه الانحرافات، ونهى لأهل الكتاب عنها، وتصحيح حاسم لها، وبيان لأصل العقيدة النصرانية كما جاءت من عند الله، قبل التحريف والتأويل:

"لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار.. لقد كفر الذين قالوا: عن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم؟ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون. قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ والله هو السميع العليم. قل: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل"...

(المائدة: 72-77)

"وقالت اليهود عزير ابن الله. وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواهم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون؟"...

(التوبة: 30)

"وإذا قال الله: يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"...

(المائدة: 116-118)

"وهكذا نرى مدى الانحراف الذي دخل على النصرانية، من جراء تلك الملابسات التاريخية، حتى انتهت إلى تلك التصورات الوثنية الأسطورية، التي دارت عليهم الخلافات والمذابح عدة قرون!

أما الجزيرة العربية التي نزل فيها القرآن، فقد كانت تعج بركام العقائد والتصورات. ومن بينها ما نقلته من الفرس وما تسرب إليها من اليودية والمسيحية في صورتهما المنحرفة.. مضافاً إلى وثنيتها الخاصة المتخلفة من الانحرافات في ملة إبراهيم التي ورثها العرب صحيحة ثم حرفوها ذلك التحريف. والقرآن يشير إلى ذلك الركام كله بوضوح:

زعموا أن الملائكة بنات الله –مع كراهيتهم هم للبنات!– ثم عبدوا الملائكة– أو تماثيلها الأصنام– معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد، وأنهم يتقربون بها إليه سبحانه:

"وجعلوا له من عباده جزءاً. إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين؟! وجعلوا الملائكة –الذين هم عباد الرحمن– إناثاً. أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويسألون. وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم. ما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يخرصون"...

(الزخرف: 15–20)

"ألا لله الدين الخالص. والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار. لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء. سبحانه هو الله الواحد القهار"..

(الزمر: 3–4)

"ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.قل: أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون"..

(يونس:18)

وزعموا أن بين الله –سبحانه– وبين الجنة نسباً. وأن له –سبحانه– منهم صاحبة. ولدت له الملائكة! وعبدوا الجن أيضاً.. قال الكلبي في كتاب الأصنام: "كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن"[1].

وجاء في القرآن الكريم عن هذه الأسطورة:

"**فاستفتهم: ألربك البنات ولهم البنون؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون؟.**

ألا إنهم من إفكهم ليقولون: ولد الله. وإنهم لكاذبون. اصطفى البنات على البنين؟ ما لكم؟؟ كيف تحكمون؟ أفلا تذكرون؟ أم لكم سلطان مبين؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون"...

(الصافات: 149–159)

"**ويوم يحشرهم جميعاً، ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك! أنت ولينا من دونهم. بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون**"...

(سبأ: 40–41)

وشاعت بينهم عبادة الأصنام إما بوصفها تماثيل للملائكة، وإما بوصفها تماثيل للأجداد، وإما لذاتها. وكانت الكعبة، التي بنيت لعبادة الله الواحد، تعج بالأصنام، إذ كانت تحتوي على ثلاثمائة وستين صنماً. غير الأصنام الكبرى في جهات متفرقة. ومنها ما ذكر في القرآن بالاسم كاللات والعزى ومناة. ومنها هبل الذي نادى أبو سفيان باسمه يوم "أحد" قائلاً: اعلُ هبل!

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء في القرآن في سورة النجم:

"**أفرأيتم اللاّت والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى؟ ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزي! عن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى. أم للإنسان ما تمنى؟ فلله الآخرة والأولى. وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً. إلا من بعد أن يأذن الله لمن**

(1) كتاب الأصنام: ص34.

يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً"...

(النجم: 19-28)

وانحطت عبادة الأصنام فيهم حتى كانوا يعبدون جنس الحجر!

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: "كنا نعبد الحجر. فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر! فإذا لم نجد جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه، ثم طفنا به"[1].

وقال الكلبي في كتاب الأصنام: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، فجعله ربّاً، وجعل ثلاث أثافيّ لقدره. وإذا ارتحل تركه"[2].

وعرفوا عبادة الكواكب – كما عرفها الفرس من بين عباداتهم–قال صاعد: كانت حمير تعبد الشمس. وكنانة القمر. وتميم الدبران. ولخمٌ وحذامٌ المشترى. وطيئُ سهيلاً. وقيسُ الشعري العبّور. وأسدٌ عطارد"[3].

وقد جاء عن هذا في سورة فصلت:

"**لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**"...

(فصلت: 37)

وجاء في سورة النجم:

"**وأنه هو رب الشعرى**"...

(النجم: 49)

وكثرت الإشارات إلى خلق النجوم والكواكب وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلائقه. وذلك لنفي ألوهية الكواكب وعبادتها..

---

(1) الجامع الصحيح كتاب المغازي.

(2) الأصنام للكلبي ص34.

(3) طبقات الأمم لصاعد ص430 (نقلاً عن كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

وعلى العموم فقد تغلغلت عقائد الشرك في حياتهم. فقامت على أساسها الشعائر الفاسدة، التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة.. من ذلك جعلهم بعض ثمار الزروع، وبعض نتاج الأنعام خاصاً بهذه الآلهة المدعاة، لا نصيب فيه لله –سبحانه– وأحياناً يحرمونها على أنفسهم. أو يحرمون بعضها على إناثهم دون ذكورهم. أو يمنعون ظهور بعض الأنام على الركوب أو الذبح. وأحياناً يقدمون أبناءهم ذبائح لهذه الآلهة في نذر. كالذي روى عن نذر عبد المطلب أن يذبح ابنه العاشر، إن وهُب عشرة أبناء يحمونه. فكان العاشر عبد الله.. ثم افتداه من الآلهة بمئة ناقة!.. وكان أمر الفتوى في هذه الشعائر كلها للكواهن والكهان!

وفي هذا يقول القرآن الكريم:

"**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً. فقالوا: هذا لله –بزعمهم– وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله. وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون! وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم، ليردوهم، وليلبسوا عليهم دينهم. ولو شاء الله ما فعلوه. فذرهم وما يفترون. وقالوا: هذه أنعام وحرث حِجر، لا يطعمها إلا من نشاء –بزعمهم– وأنعام حرمت ظهورها. وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها –افتراء عليه– سيجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ومحرمٌ على أزواجنا. وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء.. سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله. قد ضلوا ما كانوا مهتدين**"..

(الأنعام: 136–140)

وكانت فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم، هي وفكرة البعث سواء. ذلك مع اعترافهم بوجود الله –سبحانه وتعالى– وأنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما. ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم، وأن يتلقوا منه وحده الحلال والحرام، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة. وأن يتحاكموا في كل شيء إلى شريعته ومنهجه وحده .. الأمر الذي لا يكون بغيره دين ولا إيمان. يدل على ذلك ما حكاه القرآن الكريم من معارضتهم الشديدة لهاتين الحقيقتين:

"**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم. وقال الكافرون: هذا ساحر كذاب. اجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم: أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق**"...

(ص: 4-7)

" **وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل بنبئكم -إذا مزقتم كل ممزق- إنكم لفي خلق جديد؟ أفترى على الله كذباً أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد**"..

هذه هي الصورة الشائهة للتصورات في الجزيرة العربية نضيفها إلى ذلك الركام من بقايا العقائد السماوية المنحرفة، التي كانت سائدة في الشرق والغرب، يوم جاء الإسلام، فتتجمع منها صورة مكتملة لذلك الركام الثقيل، الذي كان يجثم على ضمير البشرية في كل مكان، والذين كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم كذلك[1].

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الأولوهية، وعلاقتها بالخلق، وعلاقة الخلق بها.. فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وآدابهم وأخلاقهم كذلك. فما يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها، إلا أن تستقر حقيقة الألوهية، وتتبين خصائصها واختصاصاتها. وعني الإسلام عناية خاصة بإيضاح طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير .. ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان.. فلقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه العقائد والفلسفات، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر في الضمير البشري وفي الحياة الإنسانية كلها.

---

(1) أما التصورات والفلسفات والمذاهب التي وجدت بعد الإسلام، وبخاصة التي قام عليها الفكر الغربي والحياة الغربية، والتي تعيش بها البشرية اليوم في غرب أوروبا وفي شرقها كذلك.. فلم تجئ بخير من هذا الركام... وسنتناول بعضها بالبيان في مواضعه المناسبة في فصول الكتاب.

ولقد جاء الإسلام –وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل– بما يعد تصحيحاً لجميع أنواع البلبلة، التي وقعت فيها الديانات المحرفة، والفلسفات الخابطة في الظلام. وما يعد رداً على جميع الانحرافات والأخطاء التي وقعت فيها تلك الديانات والفلسفات .. سواء ما كان منها قبل الإسلام وما جدّ بعده كذلك .. فكانت هذه الظاهرة العجيبة إحدى الدلائل على مصدر هذا الدين .. المصدر الذي يحيط بكل ما هجس في خاطر البشرية وكل ما يهجس، ثم يتناوله بالتصحيح والتنقيح!

والذي يراجع ذلك الجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله – سبحانه– وفي صفاته. وفي علاقته بالخلق وعلاقة الخلق به .. ذلك الجهد الذي تمثله النصوص الكثيرة –كثرة ملحوظة– في القرآن المكي بصفة خاصة، وفي القرآن كله على وجه العموم..

الذي يراجع ذلك الجهد المتطاول، دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل، في ذلك التيه الشامل، الذي كانت البشرية كلها تخبط فيه، والذي ظلت تخبط فيه أيضاً كلما انحرفت عن منهج الله أو صدت عنه، واتبعت السبل، فتفرقت بها عن سبيله الواحد المستقيم..

الذي يراجع ذلك الجهد، دون أن يراجع ذلك الركام، قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر في القرآن، وإلى هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير وكل مسالك الحياة.

ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد، كما تكشف عن عظمة الدور الذي جاءت هذه العقيدة لتؤديه في تحرير الضمير البشري وإعتاقه، وفي تحرير الفكر البشري وإطلاقه، وفي تحرير الحياة. والحياة تقوم على أساس التصور الاعتقادي كيفما كان.

عندئذ ندرك قيمة هذا التحرر في إقامة الحياة على منهج سليم قويم، يستقيم به أمر الحياة البشرية، وتنجو به الفساد والتخبط ومن الظلم أو الاستذلال .. وندرك قيمة قول عمر –رضي الله عنه– "ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية".. فالذي يعرف الجاهلية هو الذي يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به.

إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها .. إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل، كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية –السابقة للإسلام واللاحقة– عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة .. رحمة حقيقية .. رحمة للقلب والعقل. ورحمة بالحياة والأحياء. رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق..

وصدق الله العظيم:

"**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم؟**".

* * *

خصائص التصور الإسلامي

"صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة؟"

للتصور الإسلامي خصائصه المميزة، التي تفرده من سائر التصورات، وتجعل له شخصيته المستقلة، وطبيعته الخاصة، التي لا تتلبس بتصور آخر، ولا تستمد من تصور آخر.

هذه الخصائص تتعدد وتتوزع، ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة، هي التي تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص .. خاصية الربانية..

إنه تصور رباني. جاء من عند الله بكل خصائصه، وبكل مقوماته، وتلقّاه "الإنسان" كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته، لا ليزيد عليه من عنده شيئاً، ولا لينقص كذلك منه شيئاً. ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته..

وهو –من ثم– تصور غير متطور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره، وترتقي في إدراكه وفي الاستجابة له. وتظل تتطور وتترقى، وتنمو وتتقدم، وهذا الإطار يسعها دائماً، وهذا التصور يقودها دائماً. لأن المصدر الذي أنشأ هذا التصور، هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان. هو الخالق المدبر، الذي يعلم طبيعة هذا الإنسان، وحاجات حياته المتطورة على مدى الزمان. وهو الذي جعل في هذا التصور من الخصائص ما يلبي هذه الحاجات المتطورة في داخل هذا الإطار.

وإذا كانت التصورات والمذاهب والأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم – في معزل عن هدي الله –تحتاج دائماً إلى التطور في أصولها، والتحور في قواعدها، والانقلاب أحياناً عليها كلها حين تضيق عن البشرية في حجمها المتطور! وفي حاجاتها المتطورة.. إذا كانت تلك التصورات والمذاهب والأنظمة التي هي من صنع البشر، تتعرض لهذا وتحتاج إليه، فذلك لأنها من صنع البشر! الشر القصار النظر! الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع والحاجات في فترة محدودة من الزمان، وفي قطاع خاص من الأرض.. رؤية فيها – مع هذا– قصور الإنسان وجهل الإنسان، وشهوات الإنسان، وتأثرات الإنسان. فأما التصور

الإسلامي –بربانيته– فهو يخالف في أصل تكوينه وفي خصائصه، تلك التصورات البشرية، ومن ثم لا يحتاج – في ذاته– إلى التطور والتغير .. فالذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان. ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور. ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات. ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها .. أصلاً ثابتاً، لتدور الحياة البشرية حوله، وتتحرك في إطاره. وهو مصنوع بحيث يسعها دائماً ويشدها دائماً. وهي تنمو وترتقي. وهي تتطور وتتحرك إلى الأمام.

وهو –من ثم– كامل متكامل. لا يقبل تنمية ولا تكميلا، كما لا يقبل "قطع غيار" من خارجه. فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره. والإنسان لا يملك أن يضيف إليه شيئاً، ولا يملك أن يعدل به دائماً إلى الأمام .. جاء ليضيف إلى قلبه وعقله، وإلى حياته وواقعه. جاء ليوقظ كل طاقات الإنسان واستعداداته، ويطلقها تعمل في إيجابية كاملة، وفي ضبط كذلك وهداية، وتؤتى أقصى ثمراتها الطيبة، مصونة من التبدد في غير ميدانها، ومن التعطل عن إبراز مكنونها، ومن الانحراف عن طبيعتها ووجهتها، ومن الفساد بأي من عوامل الفساد.. وهو لا يحتاج –في هذا كله– إلى استعارة من خارجه، ولا إلى دم غير دمه! ولا إلى منهج غير منهجه. بل إنه ليحتم أن يتفرد هو في حياة البشر، بمفهوماته وإيحاءاته ومنهجه ووسائله وأدواته. كي تتناسق حياة البشر مع حياة الكون– الذي تعيش في إطاره – ولا تصطدم حركته بحركة الكون فيصيبها العطب والدمار !.

وهو –من ثم– شامل متوازن منظور فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية أولاً. ومنظور فيه إلى توازن هذه الجوانب وتناسقها أخيراً. ومنظور فيه كذلك إلى جميع أطوار الجنس البشري، وإلى توازن هذه الأطوار جميعاً. بما أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذي خلق، والذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير. فليس أمامه –سبحانه– مجهول بعيد عن آفاق النظر من حياة هذا الجنس، ومن كل الملابسات التي تحيط بهذه الحياة .. ومن ثم فقد وضع له التصور الصحيح. الشامل لكل جوانب كينونته، ولكل أطوار حياته.. المتوازن مع كل جوانب كينونته ومع كل أطوار حياته. الواقعي المتناسق مع كينونته ومع كل ظروف حياته.

وهو – من ثم– الميزان الوحيد الذي يرجع إليه الإنسان في كل مكان وفي كل زمان، بتصوراته وقيمه، ومناهجه ونظمهن وأوضاعه وأحواله، وأخلاقه وأعماله.. ليعلم أين هو من الحق. وأين هو من الله. وليس هنالك ميزان آخر يرجع إليه، وليس هنالك مقررات سابقة ولا مقررات لاحقة يرجع إليها في هذا الشأن .. إنما هو يتلقى قيمه وموازينه من هذا التصور، ويكيّف بها عقله وقلبه، ويطبع بها شعوره وسلوكه، ويرجع في كل أمر يعرض له إلى ذلك الميزان: "**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً**".

(النساء: 59)

وفي خاصية التصور الإسلامي الأساسية –التي تحدد طبيعته– وفي سائر الخصائص التي تنبثق منها .. يرى بوضوح تفرد هذا التصور، وتميز ملامحه، ووضوح شخصيته بحيث يصبح من الخطأ المنهجي الأصيل محاولة استعارة أي ميزان، أو أي منهج من مناهج التفكير المتداولة في الأرض –في عالم البشر– للتعامل بها مع هذا التصور الخاص المستقل الأصيل. أو الاقتباس منها والإضافة إلى ذلك التصور الرباني الكامل الشامل.

وسنرى هذا بوضوح كلما تقدمنا في هذا البحث. فنكتفي الآن بتقرير هذه القاعدة التي لا بد من مراعاتها جيداً في كل بحث إسلامي، في أي قطاع من قطاعات الفكر الإسلامية أو المنهج الإسلامي .. فهذا هو مفرق الطريق..

والآن فلننظر في هذه الخاصية الأساسية، وفي الخصائص التي تنبثق منها، بشيء من البيان والتفصيل..

* * *

الربانيـة

"قل: إننـي هداني ربي إلى صراط مستقيم"

الربانية أولى خصائص التصور الإسلامي، ومصدر هذه الخصائص كذلك.. فهو تصور اعتقادي موحى به من الله –سبحانه– ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره .. وذلك تمييزاً من التصورات الفلسفية التي ينشئها الفكر البشري حول الحقيقة الإلهية، أو الحقيقة الكونية، أو الحقيقة الإنسانية، والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق، وتمييزاً له كذلك من المعتقدات الوثنية، التي تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية.

ويستطيع الإنسان أن يقول –وهو مطمئن–: إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله "الرباني" وحقيقته "الربانية". فالتصورات الاعتقادية السماوية، التي جاءت بها الديانات قبله، قد دخلها التحريف – في صورة من الصور – كما رأينا. وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة، شروح وتصورات وتأويلات وزيادات، ومعلومات بشرية، أدمجت في صلبها، فبدلت طبيعتها "الربانية". وبقي الإسلام –وحده– محفوظ الأصول، لم يشب نبعه الأصيل كدر، ولم يلبس فيه الحق بالباطل. وصدق وعد الله في شأنه:

"**إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون**" ...

(الحجر: 9)

وهذه هي الحقيقة المسلمة، التي تجعل لهذا التصور قيمته الفريدة.

ومفرق الطريق بين التصور الفلسفي والتصور الاعتقادي –بصفة عامة– أن التصور الفلسفي ينشأ في الفكر البشري – من صنع هذا الفكر – لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به. ولكنه يبقى في حدود المعرفة الفكرية الباردة. فأما التصور الاعتقادي –في عمومه– فهو تصور ينبثق في الضمير، ويتفاعل مع المشاعر، ويتلبس بالحياة. فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود. أو بين الإنسان وخالق الوجود.

ثم يتميز التصور الإسلامي بعد ذلك عن التصور الاعتقادي -في عمومه- بأنه -كما أسلفنا- تصور رباني، صادر من الله للإنسان. وليس من صنع الإنسان. تتلقاه الكينونة الإنسانية بجملتها من بارئها. وليست الكينونة الإنسانية هي التي تنشئه، كما تنشئ التصور الوثني، أو التصور الفلسفي -على اختلاف ما بينهما- وعمل الإنسان فيه هو تلقيه وإدراكه والتكيف به، وتطبيق مقتضياته في الحياة البشرية.

وينص المصدر الإلهي الذي جاءنا بهذا التصور -وهو القرآن الكريم- على أنه كله من عند الله. هبة للإنسان من لدنه، ورحمة له من عنده. وأن الفكر البشري -ممثلاً ابتداءً في فكر الرسول -صلى الله عليه وسلم - أو فكر الرسل كلهم - باعتبار أنهم جميعاً أرسلوا بهذا التصور في أصله - لم يشارك في إنشائه. وإنما تلقاه تلقياً، ليهتدي به ويهدي. وأن هذه الهداية عطية من الله كذلك، يشرح لها الصدور. وأن وظيفة الرسول -أي رسول- في شأن هذا التصور، هي مجرد النقل الدقيق، والتبليغ الأمين، وعدم خلط الوحي الذي يوحي إليه من عند الله بأي تفكير بشري - أو كما يسميه الله سبحانه بالهوى! أما هداية القلوب به، وشرح الصدور له، فأمر خارج عن اختصاص الرسول، ومرده إلى الله وحده في النهاية:

"**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا. وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور**"...

(الشورى: 52-53)

"**والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى**"...

(النجم: 1-4)

"**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين**"...

(الحاقة: 44-47)

"**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك. وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**"...

(المائدة: 67)

"**إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين**"...

(القصص: 56)

"**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء**"...

(الأنعام: 125)

وهذا التوكيد على مصدر هذا التصور، هو الذي يعطيه قيمته الأساسية، وقيمته الكبرى.. فهو وحده مناط الثقة في أنه التصور المبرأ من النقص، المبرأ من الجهل، المبرأ من الهوى .. هذه الخصائص المصاحبة لكل عمل بشري، والتي نراها مجسمة في جميع التصورات التي صاغها البشر ابتداء من وثنيات وفلسفات. أو التي تدخل فيها البشر من العقائد السماوية السابقة! وهو كذلك مناط الضمان في انه التصور الموافق للفطرة الإنسانية، الملبي لكل جوانبها، المحقق لكل حاجاتها. ومن ثم فهو التصور الذي يمكن أن ينبثق منه، ويقوم عليه، أقوم منهج للحياة وأشمله.

ولكن إذا كان الفكر البشري لم ينشئ هذا التصور، فإنه ليس منفياً من مجاله، ولا محظوراً عليه العمل فيه. بيد أن عمله هو التلقي والإدراك والتكيف والتطبيق في واقع الحياة .. غير أن القاعدة المنهجية الصحيحة للتلقي – كما أشرنا في "كلمة عن المنهج" – هي هذه .. إنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة، يستمدها من أي مصدر آخر، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه، ثم يحاكم إليها هذا التصور، ويزنه بموازينها.. إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته، ويتكيف به، ويستقيم على منهجه. كما يتلقى الحقائق الموضوعية في هذا التصور من المصدر الإلهي الذي جاء بها، لا من أي مصدر آخر خارجه. ثم هو الميزان الذي يرجع بكافة ما يعين له، من مشاعر وأفكار، وقيم وتصورات، في مجرى حياته الواقعية كذلك. ليزنها عنده، ويعرف حقها من باطلها، وصحيحها من زائفها:

"**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**"...

(النساء: 59)

وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشري – في ميزان هذا التصور– أداة قيمة وعظيمة، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوّماته – مستقاة من مصدرها الإلهي– وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع. دون زيادة عليها من خارجها، ودون نقص كذلك منها .. ويبذل منهج التربية الإسلامي لهذه الأداة العظيمة من الرعاية والعناية، لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل، في كل ميدان هي مهيأة له .. الشيء الكثير[1].

على أن "الفكر" ليس وحده الذي يتلقى هذا التصور. إنما هو يشارك في تلقيه. فميزة هذا التصور – المنبثقة من خاصية الربانية– أنه يلبي الكينونة الإنسانية بجملتها .. ويدخل كذلك في دائرة إدراكها.. والذي لا تدركه منه إدراك ماهية وحقيقة، أو إدراك عليه أو كيفية .. لا يتعذر عليه التسليم به في طمأنينة. لنه داخل في مفهوم منطقها المعقول. منطقها الذي يسلم بالحقيقة البسيطة: حقيقة أن المجال الذي يتناوله هذا التصور – بما فيه من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها، ومن تعلق إرادة الله بالخلق وكيفيته – أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية بجملتها. فهو مجال السرمدية الأزلية الأبدية الكلية المطلقة. والكينونة الإنسانية – ككل ما هو مخلوق حادث – متحيزة في حدود من الزمان والمكان، لا تملك مجاوزتها على الإطلاق، ولا تملك من باب أولى الإحاطة بالكلي المطلق بأي حال:

"**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا. لا تنفذون إلا بسلطان**"...

(الرحمن: 33)

"**لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير**"...

(الأنعام: 103)

---

(1) يراجع بتوسع فصل: "تربية العقل" في كتاب: "منهج التربية الإسلامية" (لمحمد قطب).

ومن ثم فلا قدرة للكينونة البشرية بجملتها – لا الفكر وحده– على العمل خارج هذه الحدود. إنما وظيفتها أن تتلقى من الذات الإلهية المطلقة المحيطة بالوجود. وأن تتلقى في حدود طبيعة الإنسان، وفي حدود وظيفته.

ونزيد هذه الجملة الأخيرة إيضاحاً.. فالإنسان محكوم أولاً، بطبيعته: طبيعة أنه مخلوق حادث. ليس كلياً ولا مطلقاً. ليس أزلياً ولا أبدياً. ومن ثم فإن إدراكه لابد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته .. ثم هو محدود بوظيفته. وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبادة لله فيها –كما سيجئ– ومن ثم فقد وهُب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة. بلا نقص ولا زيادة .. وهناك أمور كثيرة لا يحتاج إليها في وظيفته هذه. ومن ثم لم يوهب القدرة على إدراكها –إدراك ماهية أو إدراك كيفية– وإن كان موهوباً أن يدرك إمكانها. وأن يحيل هذا على معرفته بطلاقة المشيئة الإلهية من ناحية، ومن ناحية أخرى على معرفته بأنه هو مخلوق حادث، غير كلي ولا مطلق، فلا يمكن –من ثم– أن يحيط بخصائص الأزلي الأبدي، الذي هو بكل شيء محيط.

والقرآن الكريم يشير إلى بعض هذه الجوانب، التي لم يزوَّد هذه الجوانب، التي لم يزوَّد الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها .. بماهيتها أو بكيفيتها .. إما لأنها لا تدخل في حدود طبيعة البشرية المحدودة. وإما لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة كذلك .. كما يشير إلى طريقة الفطرة السليمة المؤمنة في تلقي هذه الجوانب، وطريقة الفطرة المنحرفة الزائغة:

من هذه الجوانب مسألة كنه الذات الإلهية. فالكينونة الإنسانية لا تدركها وليس مما تعرفه شيء يماثلها فيمكن أن تقابلها به، وتقيسها عليه:

"**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**"..

(الأنعام: 103)

"**ليس كمثله شيء**" ..

(الشورى: 11)

"**فلا تضربوا لله الأمثال**" ...

(النحل: 74)

ومنها مسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق:

"**قال: رب أنى يكون لي غلام، وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ قال: كذلك الله يفعل ما يشاء**"..

(آل عمران: 40)

"**قالت: رب أنى يكون لي ولد، ولم يمسسني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**" ...

(آل عمران: 47)

هكذا دون بيان للكيفية، لأنها فوق إدراك الكينونة البشرية. وكل من أراد من البشر بيانا لكيفية تخبط وخلّط، لأنه قاسها على كيفيات عمل الإنسان، وشتان شتان[1].!

ومنها مسألة الروح – سواء كان المقصود بها: "الحياة" أو "جبريل" أو "الوحي":

"**ويسألونك عن الروح. قل: الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**" ...

(الإسراء: 85)

ومنها مسألة الغيب المحجوب عن العلم البشري، إلا بالقدر الذي يأذن به الله لمن يشاء:

"وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو"...

(الأنعام: 59)

"**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول**"..

(الجن: 36، 27)

"**قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب**" ...

(الأنعام: 50)

"**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي ارض تموت**" ...

(لقمان: 34)

---

(1) وكذلك أخطأ أرسطو وأخطأ أفلوطين وغيرهما حينما أرادوا ان يبينوا كيفية تعلق عمل الخالق بالمخلوقات، لأنهم قاسوه بما يعرفونه من كيفية تعلق عمل الإنسان بما يعمله .. والله ليس كمثله شيء..

ومن هذا الغيب خاصة مسألة موعد الساعة:

"**إن الله عنده علم الساعة**"...

(لقمان: 34)

"**يسألونك عن الساعة: أيان مرساها؟ فيم أنت من ذكراها! إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها**"..

(النازعات: 24-46)

"**بل تأتيهم بغتة فتبهتهم، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون**" ...

(الأنبياء: 40)

ويبين الله -سبحانه- كيف ينبغي تلقي هذه وأمثالها، مما هو فوق مدركات الكينونة البشرية:

"**هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب. وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - وما يعلم تأويله إلا الله - والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، كل من عند ربنا- وما يذّكر إلا أولوا الألباب- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**"..

(آل عمران: 7-8)

وفيما عدا هذه الجوانب فإن الفكر البشري - أو الإدراك البشري بتعبير أشمل- مدعو للتدبر والتفكر، والنظر والاعتبار، والتكيف والتأثر، والتطبيق، في عالم الضمير وعالم الواقع، لمقتضيات هذا التصور، والإيجابية في العمل والتنفيذ وفق هذا التصور الشامل الكبير.

وما من دين احتفل بالإدراك البشري، وإيقاظه، وتقويم منهجه في النظر، واستجاشته للعمل، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وتحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة.! وصيانته في الوقت ذاته من التبديد في غير مجاله، ومن الخبط في التيه بلا دليل .. ما من دين فعل ذلك كما فعله الإسلام..

ومن من دين وجه النظر إلى سنن الله في الأنفس والآفاق، وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان، وإلى طاقاته المذخورة وخصائصه الإيجابية، وإلى سنن الله في الحياة البشرية معروضة في سجل التاريخ .. ما من دين وسّع على الإدراك في هذا كله ما وسّع الإسلام.

في تربية وتقويمه وتقويم منهج النظر والحكم:

"**ولا تقف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد. كل أولئك كان عنه مسؤولاً**"..

(الإسراء: 36)

"**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**" ..

(الحجرات:12)

"**وما يتبع أكثرهم إلا ظنا، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً**" ..

(يونس: 36)

"**ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون**" ..

(الزخرف:20)

وفي النظر إلى آيات الله في الأنفس والآفاق:

"**قل: انظروا ماذا في السماوات والأرض**" ..

(يونس: 101)

"**وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم. أفلا تبصرون؟**"

(الذاريات: 20–21)

"**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**" ..

(فصلت: 53)

وفي النظر إلى سنن الله في الحياة البشرية وفي مصائر من قبلهم ودلالتها التاريخية:

"**قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة. إن الله على كل شيء قدير**" ... (العنكبوت: 20)

"**أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أشد منهم وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون**" ...

(الروم: 9–10)

"**أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب**"...

(الرعد: 41)

وأمثال هذه التوجيهات كثير كثرة ملحوظة في القرآن الكريم، يتكون منها منهج كامل لتربية الإدراك البشري وتقويمه وتوجيهه[1]. وستأتي منه نماذج كثيرة في الفصول التالية.

على أن الله، فاطر هذا الإنسان، العالم بحقيقة طاقاته، كان يعلم أنه بقدر ما وهبة من القدرة على إدراك قوانين المادة، والتعرف إلى طاقات الكون في هذا المجال، لتسخيرها في الخلافة .. بقدر ما روى عنه من أسرار "الحياة" – كنهها وكيفية وجودها وتصرفها– وأسرار تكوينه الروحي والعقلي. وحتى تكوينه الجسمي المتصل بنشاطه الروحي والعقلي لا يزال معظمه خافياً على علمه وإدراكه، على نحو ما كشف لنا في القرن العشرين عالم من أكبر العلماء المتخصصين في إخلاص وصراحة. وهو الدكتور "الكسيس كاريل" في كتابه: "الإنسان ذلك المجهول" وهو يقول:

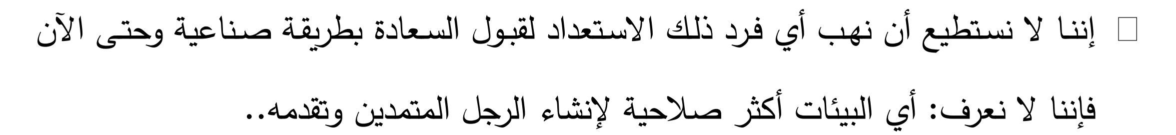
" ...لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه. ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا .. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا! فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة!

---

(1) يراجع بتوسع فصل "تربية العقل" في كتاب: منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب.

"وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة.. فنحن لا نعرف –حتى الآن– الإجابة على أسئلة كثيرة مثل:

- كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية.
- كيف تقر "الجينس" –وحدات الوراثة– الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟
- كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته.
- ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء، والسوائل، والشعور ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزاً..
- إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن "فسيولوجية" الخلايا العصبية..إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية، التي يرثها كل فرد، أن تتغير بواسطة طريقة الحياة، والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام، والمناخ، والنظم النفسية والأدبية؟
- إننا ما زلنا بعيدين جداً من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء، ووجوه النشاط العقلي والروحي.. وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي، ومقاومة التعب، والكفاح ضد الأمراض.
- إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي، وقوة الحكم، والجرأة.
- ولا ما هي الأهمية النسبية للنشاط العقلي الأدبي. كذا النشاط الديني.
- أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر؟
- لا شك مطلقاً في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هي التي تقرر السعادة أو التعاسة. النجاح أو الفشل.. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل.



- إننا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية وحتى الآن فإننا لا نعرف: أي البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدين وتقدمه..
- هل في الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي؟
- كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدينة العصرية؟

بالنسبة لنا. ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب .. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب"(1)..

هذا هو مدى جهلنا بحقيقة "الإنسان" – إحدى الحقائق التي يتألف منها التصور الاعتقادي الشامل – بل جهلنا بأصغر وأظهر جانب من جوانب هذه الحقيقة .. كما يقرره عالم من أكبر العلماء في القرن العشرين، غير متهم في علمه، وغير منازع في مكانته في العالمين: القديم والجديد!

أما أسباب هذا الجهل، من وجهة نظره القائمة على "المنهج العلمي" كما هو معروف في الغرب، وعلى انطباعاته في جو بيئته الغربية وفي جو "البحث العلمي"، وفي حدود "العلم" كما يقرر هو في مقدمة الكتاب .. أما أسباب هذا الجهل من وجهة نظره هذه، التي نوافقه في بعضها ونخالفه في بعضها. فهي كما يقول:

"قد يعزى جهلنا في الوقت ذاته، إلى طريقة حياة أجدادنا. وإلى طبيعتنا المعقدة. وإلى تركيب عقلنا..".

ويتحدث عن السببين الأولين حديثاً دقيقاً، ولكنه لا يعنينا هنا. فننتقل إلى حديثه عن السبب الثالث:

يقول:

---

(1) الإنسان ذلك المجهول: تأليف دكتور ألكسيس كاريل وترجمة شفيق أسعد فريد: ص6-18.

"وثم سبب آخر للبطء الذي اتسمت به معرفتنا لأنفسنا. وذلك أن تركيب عقولنا يجعلنا نبتهج بالتفكير في الحقائق البسيطة. إذا أننا نشعر بضرب من النفور حين نضطر إلى تولي حل مشكلة معقدة مثل: تركيب الكائنات الحية والإنسان.. فالعقل –كما يقول برجسون– يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة .. وبالعكس فإننا نحب أن نكتشف، في جميع العوالم، تلك الأشكال الهندسية الموجودة في أعمال شعورنا .. إن دقة النسب البادية في تماثيلنا وإتقان آلاتنا يعبران عن صفة أساسية لعقلنا .. فالهندسة غير موجودة في دنيانا، وإنما أنشأناها نحن. إذ أن وسائل الطبيعة لا تكون أبداً بالدقة التي تتصف بها وسائل الإنسان !!! فنحن لا نجد في العالم ذلك الوضوح وتلك الدقة التي يتصف بها تفكيرنا .. ومن ثم فإننا نحاول أن نستخلص من تعقد الظواهر، وبعض النظم البسيطة التي تحمل عناصر، لإحداها بالأخرى علاقات معينة، تكون قابلة للوصف حسابياً .. وقدرة الاستخلاص هذه التي يتمتع بها العقل البشري، مسؤولة عن ذلك التقدم الرائع الذي أحرزه علماء الطبيعة والكيمياء..

"ولقد لقيت الدراسة الطبيعية – الكيماوية للكائنات الحية نجاحاً مماثلاً. فقوانين الطبيعة والكيمياء، متماثلة في عالم الكائنات الحية وعالم الجماد – كما خطر ببال كلود برنار منذ أمد بعيد – وهذه الحقيقة توضح لماذا اكتشف علم وظائف الأعضاء الحديث مثلاً أن استمرار قلوية الدم وماء المحيط تفسرها قوانين متماثلة، وأن النشاط الذي تستهلكه العضلات المتقلصة يقدمه تخمر السكر ... الخ .. إن النواحي الطبيعية – الكيماوية للكائنات الحية يسهل تقريباً فحصها، مثل تلك النواحي في الأشياء الأخرى الموجودة في العالم المادي .. وتلك المهمة التي نجح علم وظائف الأعضاء في تحقيقها.

"إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة – أي تلك الظواهر التي تنتج من تنظيم الكائن الحي– تواجه عقبات أكثر أهمية. إذ أن شدة ضآلة الأشياء التي يجب تحليلها، تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمي الطبيعة والكيمياء.. فأي طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيماوي لنواة الخلية الجنسية، والكروموسومات؟ والجينس "ناقلات الوراثة" التي تؤلف هذه الكروموسومات؟.. مهما يكن .. إن المجموع الكلي للمواد الكيماوية شديدة الضآلة،

على أعظم جانب من الأهمية، لأنها تحتوي على مستقبل الفرد والجنس[1] .. كما أن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب، مثل المادة العصبية، عظيمة إلى درجة أن دراستها في حالة الحياة مستحيلة تقريباً .. ونحن لا نملك أي فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه. وعقلنا الذي يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية، ينتابه الفزع حينما يفكر في تلك الأكداس الهائلة من الخلايا والأخلاط والإحساسات، التي يتكون منها الفرد، ومن ثم فإننا نحاول أن نطبق على هذا المخلوط، الأفكار التي ثبتت فائدتها في مملكة الطبيعة والكيمياء والميكانيكيات. كذا في النظم الفلسفية والدينية.. ولكن مثل هذه المحاولة لا تلقى نجاحاً كبيراً. لأن أجسامنا لا يمكن أن تختزل إلى: نظام طبيعي كيميائي. أو إلى كيان روحي.. بالطبع. إن على علم الإنسان أن يستخدم آراء جميع العلوم الأخرى. ولكن عليه أيضاً أن ينمي آراءه الخاصة لأنه علم جوهري، مثل علوم الجزئيات والذرات والإلكترونات".

وينهي هذا الفصل بقوله:

"صفوة القول: أن التقدم البطئ في معرفة بني الإنسان – إذا قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا، يعزى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ. وإلى تعقد الموضوع. وإلى تركيب عقولنا..

"وهذه العقبات أساسية. وليس هناك أمل في تذليلها. وسيظل التغلب عليها شاقاً، يستلزم جهوداً مضنية..

إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة، والتجرد، والجمال، التي بلغها علم المادة. إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرت تقدم علم الإنسان.. فعلينا أن ندرك بوضوح، أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعاً"[2].

---

(1) بذلت أخيراً محاولات في هذا الحقل. ولكن المدى لا يزال بعيداً جداً، رغم الأخبار التي تذاع بقصد الدعاية من مراكز الدعاية للمذاهب المادية!

(2) المصدر السابق ص18-23.

هذا هو تعليل ذلك الجهل بحقيقة الإنسان، أو بأصغر وأظهر جانب من جوانب هذه الحقيقة- من وجهة نظر العالم الغربي الكبير .. ومهما نختلف معه في طريقة النظر إلى القضية كلها .. فإننا نكتفي بهذه الشهادة. ونراه قد لمس فيها السبب الأساسي – وهو طبيعة تكوين عقلنا – فهذا التكوين مرتبط بوظيفة الإنسان في الأرض – وظيفة الخلافة – وهي تقتضي أن يكون تركيب عقله على هذا التصميم لأنه أنسب تصميم للقيام بالوظيفة! وسيتقدم في إدراك قوانين المادة وتسخيرها، كما سيتقدم في معرفة جوانب من "حقيقة الإنسان" أكثر مما عرف. ولكن أسرار التكوين الإنساني ستظل خافية عليه أبداً .. سيظل سر الحياة، وسر الموت، خافيين تماماً. وسيظل سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال إدراكه .. لأن شيئاً من هذا كله لا يلزمه في وظيفته الأساسية.

وعلى أية حال، فإنه من خلال هذه الشهادة –وحدها- تبرز لنا حقيقتان جاهرتان:

أولاهما: حقيقة رحمة الله بهذا الإنسان، حين لم يدعه –بجهله هذا الذي يشهد به عالم كبير من علمائه في القرن العشرين- يصنع تصوره الاعتقادي لنفسه. وهذا التصور يشتمل تفسيراً شاملاً- لا لحقيقة الإنسان المجهولة له فحسب، ولكن كذلك الحقيقة الألوهية الكبرى ولحقيقة الكون وحقيقة الحياة، وسائر الارتباطات بين هذه الحقائق جميعاً .. وحين لم يدعه – بجهله هذا بحقيقة ذاته – يصنع منهج حياته وشكل نظامه، وشريعته وقوانينه ... ولكها تقتضي علماً كاملاً شاملاً. لا بحقيقة الإنسان وحدها. ولكن كذلك بحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان. وبحقيقة الحياة التي ينتسب إليها. ثم بحقيقة القوة الكبرى الخالقة المدبرة لهذا الكون وما فيه ومن فيه ...

وثانيتهما: حقيقة التبجح الذي تبجحه كل من تصدى من جنس البشر- قديماً وحديثاً- لوضع ذلك التفسير الشامل للكون والحياة والإنسان. ولوضع مناهج للحياة وأنظمة للناس وشرائع لحياتهم.. بمثل هذا الجهل، الذي لا يمكن أن يؤدي، إلا لمثل ما أدى إليه من تيه وركام في

التصورات. ومن فساد وقصور في المناهج. ومن شقاء وتعاسة في الحياة.. فهذه كلها هي النتائج الطبيعية والثمار المرة لذلك التبجح الكريه! ولذلك الجهل العميق[1].

إن التصور الرباني الذي يتلقاه الإنسان من "الله" هبة لدنية خالصة.. قد أعفى البشر الضعاف الجهال من الكد فيها، ووفر عليهم همّ إنشائها، وتبديد طاقتهم في هذا المجال الذي لم يهبهم الله دليله ولا أداته.. وذلك ليفرغوا لتلقي هذه الهبة وإدراكها، والتكيف بها، ، واتخاذها أساساً لمنهج حياتهم، وميزاناً لقيمهم، ودليلاً هادياً يصلون به ومعه.. فإذا فارقوه ضلوا وتاهوا، وخبطوا وخلطوا، وجاءوا بما يضحك ويبكي من التصورات والانحرافات، وشقوا وتعسوا بالمناهج والأنظمة التي يقيمونها على أساس من ذلك الجهل العميق! ومن ذلك الخبط والتخليط!

وفي هذا يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين":

"وقد كان الأنبياء –عليهم السلام– أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله. وعن بداية هذا العالم ومصيره. وما يهجم عليه الإنسان بعد موته. وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب. وكفوهم مؤونة البحث والفحص، وفي علوم ليس عندهم مبادئها، ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم، ليتوصلوا إلى مجهول. لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، ولا تعمل فيها حواسهم، ولا يؤدي إليها نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة، وأعادوا الأمر جذعاً، وبدأوا البحث أُنفاً، وبداوا رحلتهم في مناطق مجهولة، لا يجدون فيها مرشداً ولا خِرّيتاً[2] . وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً، وأشد تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول .. من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنساني في الجغرافية، وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه .. على قصر عمره، وضعف قوته، وفقدان آلته .. فلم يلبث أن انقطعت به مطيته، وخانته عزيمته، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة.. وكذلك الذين

---

(1) يراجع بتوسع كتاب. "الإسلام ومشكلات الحضارة" للمؤلف.

(2) خبيراً.

خاضوا في الإلهيات، من غير بصيرة، وعلى غير هدن جاءوا في هذا العلم بآراء فجة، ومعلومات ناقصة، وخواطر سانحة ونظريات مستعجلة.. فضلوا وأضلوا"[1].

على أن أمر الذين حاولوا إنشاء تصورات اعتقادية من عند أنفسهم، أو إنشاء تصورات فلسفية لتفسير الوجود وارتباطاته كانوا أشد ضلالاً من هذا الذي صوره الأستاذ الندوي، وأكثر خطراً على حياة البشرية. أما الأخطر من هذا كله، فكان هو تحريف العقائد السماوية –وبخاصة النصرانية– وقيام كنيسة في أوربا تملك السلطان باسم هذه النصرانية المحرفة، وتفرض تصوراتها الباطلة بالقوة كما تفرض معلوماتها الخاطئة والناقصة عن الكون المادي، وتعارض بوحشية خط البحث العلمي في ميدانه الأصيل، بمقولات تعطيها طابع الدين. والدين منها برئ..

وقد نشأ هذا كله من تدخل الفكر البشري بالإضافة والتأويل والتحريف للأصل الرباني للعقيدة النصرانية وللتصور النصراني. وإلحاق هذا كله بالأصل الرباني والعقيدة السماوية.

فإذا نحن تكرنا أن جميع النزعات الأوربية، التي نشأت معادية للدين وللفكر الديني، كان منشؤها هو هذا الانحراف، وهذه الأوضاع التي قامت على أساس هذا الانحراف.. "من عقلية مثالية" إلى "وضعية حسية" إلى "جدلية مادية" .. إذا تذكرنا هذا أدركنا أن هذا البلاء الذي يعم البشرية كلها اليوم، إنما نشأ من عقابيل تدخل الفكر البشري، في أصل التصور الرباني. وهو بلاء لا يعد له بلاء آخر في تاريخ البشرية الطويل ..

ولعله يحسن – لتكون هذه النقطة واضحة وضوحاً يناسب خطورتها – أن نذكر خلاصة موجزة للخط الذي سار فيه الفكر الأوربي، بوصفه نتيجة طبيعية مباشرة لانحراف التصور الديني. بتدخل الفكر البشري فيه، وبإخضاعه للعوامل السياسية، والخلافات العنصرية والمذهبية.

ولعل هذه الخلاصة أن تكشف لنا عن حكمة الله ورعايته في حفظ أصول التصور الإسلامي بعيدة عن تحريف البشر. وعن خطورة أية محاولة باسم "التجديد الديني" أو "التطور في الفكر الديني" أو غيرهما، لإدخال أي عنصر بشري على التصور الرباني .. فهذا التصور

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص68.

هو الوحيد الباقي من غير أن يعبث به جهل البشر وقصورهم وهو وحده ملاذ البشرية، لتفئ إليه في يوم من الأيام. فنجد عنده الهدى والسكينة والاطمئنان.

وسنكتفي في هذا التلخيص لخط سير الفكر الأوربي – في اتجاه مضاد للكنيسة وتفكيرها الديني – بمقتبسات من الفصل الذي كتبه الدكتور محمد البهي بعنوان: "الدين مخدر!" في كتابه "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي":

"الصراع بين الدين والعقل والحس في تاريخ الفكر الغربي: أربع مراحل في تاريخ التفكير الأوربي، منذ القرن الرابع عشر إلى الآن. شهدت فيها العقلية الأوربية صراعاً فكرياً، واتجاهات عقلية مختلفة، تدور حول "تبرير" مصدر من مصادر المعرفة، التي عرفتها البشرية في تاريخها حتى الوقت الحاضر. وهي: الدين. والعقل. والحس أو الواقع، وفي كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن "قيمة" أي واحد من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة، أو اليقينية. ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً. ومن السؤال وما يدور حوله من جدل، وأخذ ورد، تتكون المذاهب الفلسفية التي تعبر عن قيمة المصدر، الذي وضع للاختبار والتقدير.

"سيادة النص أو الدين" كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائداً في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته، وفي فهمه للطبيعة. وكان يقصد بالدين "المسيحية"، وكان يراد من المسيحية "الكثلكة"، وكانت الكثلكة تعبر عن "البابوية". والبابوية نظام كنسي ركز "السلطة العليا" – باسم الله– في يد البابا، وقصر حق تفسير "الكتاب المقدس" على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسوى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وأفهام الكنيسة الكاثوليكية، وجعل عقيدة "التثليث" عقيدة أصيلة في المسيحية، كما جعل "الاعتراف بالخطأ" و "صكوك الغفران" من رسوم العبادة وغير ذلك مما يتصل بالكاثوليكية كمذهب وكنظام لاهوتي.

"حتى كان القرن الخامس عشر، وحتى ابتدأت الحروب الصليبية تثمر ثمرتها الإيجابية في العقلية الأوربية. فقام مارتن لوثر (Luther) (1453–1546م) وكافح "تعاليم الشيطان" – كما سماها– وهي تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية، فحارب صكوك الغفران، ونظر إليها

كوسائل للرق والعبودية. وحارب عقيدة "التثليث"، كما حارب سلطة البابا. وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية هي الكتاب المقدس، وكلمة الله: "النص" وطالب بالحرية في بحث الكتاب. ولكن ليست أية حرية على العموم. ومع ذلك جعل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان. ثم جعل الإيمان في الاعتبار، سابقاً على أي شيء آخر عداه، من العقل أو الطبيعة.

" وجاء بعد لوثر –في طريقه– كالفن (Calvin) (1509–1564م) واقر لوثر على أن الإنجيل وحده هو المصدر "للحقيقة المسيحية" وأن عقيدة التثليث لا تقبلها المسيحية الصحيحة.

" و بحركه لوثر وكالفن الإصلاحية تعرضت المسيحية للجدل الفكري، وأصبحت موضوعاً للنقاش العقلي، والمذاهب الفلسفية.. والمسيحية التي تعرضت لذلك هي المسيحية التي تناولها لوثر بإصلاحه. أي الكاثوليكية البابوية. ومن أنكر من الفلاسفة على الدين أن تكون له "سلطة" أنكر سلطة البابوية. ومن وضع العلاقة بين الدين والعقل كشيئين متقابلين أو متناقضين، حدد العلاقة بين الكثلكة – وما فيها من عقيدة التثليث ومراسم صكوك الغفران – وبين العقل الإنساني العام. ومن دافع عن المسيحية من الفلاسفة، كهجيل، دافع عن "التعاليم النقية للمسيحية" التي احتضنها لوثر، في مقابل تعاليم الكنيسة الكاثوليكية.

"وهكذا كان "الدين" الذي جعل موضوعاً للصراع العقلي الأوربي، نوعاً خاصاً من الدين، والذي قبل منه باسم الفلسفة، كان جملة خاصة من تعاليمه، والذي رفض منه باسم الفلسفة أيضاً، كان كذلك جملة خاصة من تعاليمه.

"سيادة العقل": استمر اعتبار الوحي، كمرجع أخير للمعرفة، على خلاف في تحديد تعاليمه، حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهو عصر "التنوير" في تاريخ الفلسفة الأوربية. وعصر التنوير له طابعه المشترك في الفكر الألماني والإنجليزي والفرنسي، في الفترة الزمنية التي تحدده، وله فلاسفة في دوائر الفكر الثلاث كونوا الطابع الفكري الذي عرف به..

"وطابعه الفكري:

أ) تزايد شعور العقل وإحساسه بنفسه، وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده، بعد أن يزيل كل عبوديه ورثها هو، حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير[1].

ب) الشجاعة والجرأة التي لا تتأرجح في إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل. وكذلك في تكوين الدولة والجماعة، والاقتصاد، والقانون، والدين، والتربية، تكويناً جديداً، على الأسس السليمة المصفاة، التي لكل واحد منها!

ج) الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع، وبالأخوة في الإنسانية، على أساس من هذه الثقافة العقلية، المستمرة في التطور..

"ومعنى ذلك كله: سيادة "العقل" – كمصدر للمعرفة– على غيره. وغيره الذي ينازعه "السيادة" هو الدين. أي المسيحية الكاثوليكية أولاً. وقد تكون معها البروتستانتية، كمذهب عرف للإصلاح الديني هناك.

"فللعقل الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة، وقانون، ودين، و "الإنسانية" هي هدف الحياة للجميع.

"وكما يسمى هذا العصر بـ "عصر التنوير" يسمى أيضاً بـ "العصر الإنساني"، وكذا بعصر الـ Deism أي عصر الإيمان الفلسفي بإله، ليس له وحي، وغير خالق للعالم. إذ كل مسميات هذه الأسماء تعتبر من خواصه. فالتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل فيه محله. والإنسانية التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضاً عن "القربى من الله" كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة. والإله، الذي ليس له وحي ولا خلق، يتفق مع تحكيم العقل وحده، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها.

"وإذن في عصر التنوير كانت الخصومة الفكرية بين الدين والعقل. واتجه التفكير فيه إلى إخضاع الدين للعقل. ولذلك عد زمن هذا العصر فترة سيادة العقل. كما عد العصر السابق عليه فترة سيادة الدين ..

---

(1) ولقد رأينا فيما اقتبسناه من الدكتور ألكسيس كاريل مدى معرفة العقل الحقيقية بالإنسان، لا في القرن الثامن عشر. بل في القرن العشرين أيضاً.

"ومن هذا يتضح أن صراع العقل مع الدين، هو صراع الفكر الإنساني مع مسيحية الكنيسة. وأن دوافع هذا الصراع هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية. سواء في مجال التوجيه والبحث، أو في مجال السياسة، أو نطاق العقيدة والإيمان...

"سيادة الحس": انتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربي، وبظهور فجر القرن التاسع عشر. وموضوع الصراع واحد لم يختلف عن ذي قبل، هو: الدين، والعقل، والطبيعة. ولكن تميز القرن التاسع عشر بفلسفة معينة. لأن اتجاه الفكر فيه مال إلى "سيادة الطبيعة" على الدين والعقل، وإلى استقلال "الواقع" كمصدر للمعرفة اليقينية إزاء الدين والعقل. تميز القرن التاسع عشر بأنه عصر "الوضعية" (Positivism). والوضعية نظرية فلسفية نشأت في دائرة "المعرفة". وقامت في جو معين، وعلى أساس خاص، أما جوها المعين فهو أولاً وبالذات سيطرة الرغبة على بعض العلماء والفلاسفة في معارضة الكنيسة. والكنيسة تملك نوعاً خاصاً من المعرفة، وتستغله في خصومة المعارضين لنفوذها من العلماء والباحثين. وقد تسود به على هؤلاء المعارضين فترة من الزمن. وهذا النوع هو "المعرفة المسيحية الكاثوليكية" بوجه خاص –كما سبق أن ذكر– أو هو المعرفة الدينية، أو المعرفة الميتافزيقية بوجه عام. يضاف إلى هذه الرغبة القوية في معارضة الكنيسة، ومعارضة ما تملك من معرفة خاصة، أن فلسفة عصر "التنوير" وهي الفلسفة "العقلية" أو "المثالثة" قد أفلست – في نظر فلاسفة "الوضعية" – فيما أرادت أن تصل إليه: وهو إبعاد التوجيه الكنسي كلية عن توجيه الإنسان، وتنظيم الجماعة الإنسانية. فقد مالت هذه الفلسفة على عهد "هيجل" إلى تأييد الوحي والدين من جديد !!!

"فالغاية الأولى للمذهب الوضعي، من منطقة، هي معارضة الكنيسة، أو معارضة معرفتها. ومن باب التغطية باسم "العلم"! هي معارضة الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والمثالية العقلية. وإلا فالمذهب الوضعي في الوقت الذي ينكر فيه دين الكنيسة يضع ديناً جديداً بدله، هو دين "الإنسانية الكبرى"، ويقوم على "عبادة" و "طقوس" – كما تقوم المسيحية – وله قداسة واحترام على نحو ما للكثلكة!

"وأما الأساس الخاص الذي قامت عليه الوضعية فهو تقدير "الطبيعة" والطبيعة، والحقيقة، والواقع، والحس.. كلها سواء في نظر الوضعيين. وتقدير الطبيعة – لا كمصدر مستقل فحسب للمعرفة – بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة. ومعنى تقدير الطبيعة على هذا النحو: أن الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، وهي التي توحي بها، وترسم معالمها الواضحة. وهي التي تكوّن عقل الإنسان. والإنسان –لهذا– لا يملي عليه من خارج الطبيعة، مما وراءها، كما لا يملي عليه من ذاته. إذ ما يأتي من "ما وراء الطبيعة" خداع للحقيقة، وليس حقيقة! وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة، وليس حقيقة أيضاً! وبناء على ذلك: الدين وهو وحي "ما بعد الطبيعة" – خداع. هو وحي ذلك الموجود، الذي لا يحدده ولا مثله كائن من كائنات الطبيعة. هو وحي الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية.. وكذلك "المثالية العقلية" وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعي. إذ هي تصورات الإنسان عن نفسه، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة، التي يعيش فيها، وتدور حوله.

"وإذن ما يتحدث به الإنسان، ككائن شخصي، عن الإنسان، كموضوع للوصف. أو ما يتحدث به الإنسان عن الطبيعة التي يعيش فيها، كموضوع للحكم عليها – مستمداً حديثه عن هذه أو ذاك من معارف الدين، أو المثالية – هو حديث بشيء غير حقيقي، عن شيء حقيقي. هو حديث غير صادق، خضع فيه الإنسان المتحدث إلى خداع الدين بحكم التقاليد، أو إلى "الوهم" بحكم غرور الإنسان بنفسه!

"إن عقل الإنسان –أي ما فيه من معرفة– وليد الطبيعة، التي تتمثل في: الوراثة، والبيئة، والحياة الاقتصادية، والاجتماعية.. إنه مخلوق. ولكن خالقه الوجود الحسي .. إنه يفكر. ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به. . إنه مقيد مجبر. وصانع القيد والجبر هو حياته المادية... ليس هناك عقل سابق، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان. عقل الإنسان ومعرفته بوجدان تبعاً لوجود الإنسان. هما انطباع لحياته الحسية المادية.

"الطبيعة تنطق عن نفسها. ويجب على الإنسان أن يعتمد منطقها. إذا أراد أن يعيش فيها. ومنطقها وحده – لا منطق المؤهلين، ولا منطق العقليين، ولا منطق أصحاب النظرية

السيكولوجية في معرفة الإنسان – هو الذي يخط الطريق المستقيم في حياة الإنسان فيها. وهو الذي يحدد أهدافه فيها!

"وطريق الإنسان في حياته الطبيعية يبتدئ من الفرد، وينتهي بالجماعة، وإذن: الفرد نفسه ليس غاية. وحياته التي يعيشها ليست هدفاً لسعيه. إنما غايته الأخيرة التي يجب أن يسعى إليها، ويذهب فيها – كما يذهب العابد الصوفي، صاحب عقيدة "الاتحاد" فيما يؤهله ويعبده – هي "الجماعة" وطالما كانت الجماعة هي غاية الفرد الأخيرة، فهي معبوده، وتذهب حريته، لتبقى لها الحرية! وتفنى حياته لتبقى لها الحياة![1]".

"الماركسية": –الجدلية المادية– ولماركس نظرية مادية، تأثر فيها بكومت (من فلاسفة الوضعية). وهو لا ينكر وجود "العقل" كما ينكره المذهب المادي الميكانيكي. ولكنه لا يدعي فحسب أن المادة توجد قبل العقل، بل أيضاً المادة أكثر أهمية واعتباراً من العقل متوقف على المادة في وجوده، ولا يمكن أن يوجد منفصلاً عنها. ونتيجة ذلك: ان ماركس لا يرفض فقط أن يبقى العقل (أو الروح) بعد الجسم – كما يذكر الدين– بل يرفض الفكرة الأساسية في الدين. وهي الإيمان بالله. كموجود أزلي مستقل تماماً ومتجرد تماماً على المادة.. وكحقيقة واضحة: كل دين بالنسبة لماركس – من حيث المبدأ– لعنة. وهو يحدثنا أن "كل دين مخدر للشعب"!

"وتبعية العقل للمادة، يصورها ماركس في صورة: أن العقل انعكاس للمادة، وليس كما يصرح "هيجل" بأن المادة انعكاس للعقل. وهذا يعني أن العقل نوع من المرآة العاكسة للعالم المادي. وهذا التصور الماركسي للحقيقة المادية، على أنها الأصل، يشمل عموم منطق الماركسية كل الأحداث الطبيعية وما يحيط بها من وجهة نظر متعددة، هي القوة المادية الرئيسية أيضاً. أما الأحداث السياسية والاجتماعية، والأخلاقية، فهي انعكاس للأحداث الاقتصادية الراهنة. وماركس وإنجلز، عن وجدا مغزى التاريخ في أحداث الحياة الاجتماعية بصفة عامة،

---

(1) ومن هنا مهانة الفرد في النظم التي قامت على أساس هذا المذهب، وإهدار كل مقوماته الذاتية بل مقوماته الإنسانية كذلك! وسيرد الحديث عن هذا بالتفصيل في صلب هذا البحث عند الكلام عن "الإنسان" في التصور الإسلامي (في القسم الثاني من هذا البحث).

لكنهما ينظران إلى الجانب الاقتصادي بالذات، من بين أحداث هذه الحياة. والأحوال الاقتصادية تبعاً لذلكن هي العوامل المحددة في كل الحالات الاجتماعية، وهي التي تكوّن البواعث الأخيرة، لكل الأعمال الإنسانية في تاريخ الجماعة البشرية.

"وتغير الأحوال الاقتصادية وتطورها يؤثر لذلك – وحده – على حياة الدولة، وعلى سياستها، وكذلك على العلم، والدين. وهكذا كل الإنتاج الثقافي والذهني فرع عن الحياة الاقتصادية. وكل التاريخ لهذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد"(1).

وهكذا انتهت محاولة الهروب من الكنيسة، وتصوراتها الدينية لا المحرفة المشوبة بالأفكار البشرية، وسوء استغلالها لسلطانها باسم الدين .. انتهت أولاً إلى الفلسفة العقلية المثالية – على اختلاف اتجاهاتها ما بين معارضة الدين وإعلان سيطرة العقل في رأي فيشته .. وبين تأييد الدين باعتبار أن الله –سبحانه– عقل! في رأي هيجل – ثم انتهت ثانياً إلى الفلسفة الحسية الوضعية على يد كومت واشتين تال. ثم إلى الجدلية المادية على يد كارل ماركس وزميله إنجلز.

وكان هذا الخط الطويل من الانحراف في الفكر الأوربي نتيجة مباشرة لتشويه التصور الديني بمقولات وتصورات بشرية، من صنع الكنائس والمجامع المتوالية. هذه المقولات التي استغلتها الكنيسة ذلك الاستغلال المنفر البغيض.

وإلا فإن نظرة إلى هذا التخبط في خطواته المتعثرة تكشف للباحث المتثبت أن الهاربين من "الله" – لكي يهربوا من قبضة الكنيسة – لم يصلوا إلى أية حقيقة "مضبوطة" يصح أن تكون عذراً أو حجة لمن يريد أن يقول: إنه يلجأ إلى هذا هروباً من معميات ما وراء الطبيعة!

وإلا فأي شيء "مضبوط" وصلت إليه الفلسفة العقلية المثالية مثلاً؟ ما هو هذا "العقل" الذي وكلت إليه أمر المعرفة بعيداً عن الله وعن الطبيعة؟ ماذا تعرف عن ماهية العقل أو عن خصائصه؟ وماذا تعرف عن طريقة عمله وتأثراته وتأثيراته؟ أين يقع هذا العقل؟ أين يوجد؟ ما طبيعته؟ ما قانونه؟ .. كلها أسئلة لا جواب عليها حتى في القرن العشرين!

ثم هذه المقولات التي ابتدعتها هذه الفلسفة، وجعلتها حتمية، وبنت عليها كل قضاياها؟

(1) مقتطفات من ص 283–317.

"مبدأ النقيض" الذي قام عليه المذهب – والذي اعتمد عليه كارل ماركس فيما بعد – ما هو ؟ ما قيمته الواقعية؟ إنه ليس سوى مقولة عقلية مجردة، لا تتعامل مع الواقع في شيء:

استخدم "فيشته" مبدأ النقيض على النحو التالي.

"تصور الإنسان لنفسه –وحده– هو بداية الطريق. وأشبه بالمقدمات التي تستلزم نتائجها، على النحو الذي حدد به غاية فلسفته. فإذا تصور الإنسان نفسه، أي إذا "أنا" تصورت "أنا" نشا عنه أن "أنا" هو "أنا" و "ما ليس أنا" هو "غير أنا" فهنا "أنا" وهنا أيضاً "ليس أنا". ولكن وجود "ليس أنا" منطو في وجود "أنا الحقيقي" وإذن "أنا" باعتبار أنه يطوى في ذاته وجود "ليس أنا" هو "أنا وليس أنا" .. وتصور الإنسان لنفسه أنتج إذن خطوات ثلاثاً في الفكر – أو ثلاثية!

"وبما أنه ليس هناك في الأصل، عندما تصور الإنسان نفسه، إلا "أنا" فالأشياء الخارجة عن أنفسنا – أي الأشياء التي هي "ليس أنا" – نتصورها فقط عن طريق أن "أنا" يطوى في نفسه حقيقة أخرى، وهي: "ليس أنا". وهذه الأشياء الخارجة عن أنفسنا ليست منطوية فقط في "أنا" بل هي عمل لـ "أنا" ومن إنتاجه"[1]!

والآن .. ما الذي يحتم –من الواقع– أن يكون "أنا" هو وحده الموجود. وأن يكون "ليس أنا" لا وجود له ابتداء، إنما هو من عمل "أنا" ومنطو في "أنا"؟ ومن إنتاجه؟

ماذا يحتم هذه المقولة من الواقع؟ لا شيء! وإنما هو مجرد تحكم عقلي من "فيشته" لبناء مذهب! ومن هنا يكون هذا الأساس العقلي "المثالي" لا يتعامل مع الواقع في شيء. وليس له رصيد في حياة البشر! وكان من حق المدرسة الوضعية أن تسخر من هذه "المثالية" التي لا مدلول لها في دنيا الواقع، ولا فاعلية ما في حياة الناس! لولا أنها لم تسخر منها لتأتي بما هو خير. بل بما هو أشد إحالة وأبعد عن الصواب!

إن فيشته يتخذ من المبدأ السابق، الذي لا رصيد له من الواقع كما رأينا، قاعدة يثبت بها أن العقل هو الموجود الحقيقي الذي لا يتوقف وجوده على غيره.

---

(1) عن كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص289–290.

"ومنطق هذا المبدأ – على هذا النحو الذي استخدمه فيشته – أن العقل مستقل تماماً عن غيره. وموجود من أجل نفسه. ووجوده هو وجوده هو، لا وجود غيره. وماهية العقل تتضح إذن من العقل نفسه. وليست مما هو خارج عنه. إذ لو توقف العقل على غيره الخارجي عنه، لكان معنى ذلك أن "ليس أنا" هو نقطة البداية. وفي ذلك إلغاء للعقل نفسه، قبل أن يصل إلى غيره. لأنه لا معنى لوجود "ليس أنا" إلا نفي وجود "أنا" أي نفي العقل"[1]!

فما الذي يحتم –من الواقع– أن يكون معنى وجود "ليس أنا" هو نفي وجود "أنا"؟ ولماذا هذا التحتيم؟ إنه مجرد تحكم ينقضه العقل ذاته، حين يتخلص من إسار المذهب!

فإنه ليس هناك ما يمنع –عقلاً– أن يكون "أنا" موجوداً و "ليس أنا" موجوداً كذلك، و يتوقف وجود أحدهما على وجود الآخر !!

ولكن المسألة كلها كانت هي إقامة إله آخر، غير إله الكنيسة! إله ليس له كهنة ولا كرادلة ولا بابا ولا كنيسة! ومن ثم أقيم هذا "العقل" إلها، لا سدنة له ولا كهنة! وهذا هو الهدف النهائي المقصود !!!

كذلك استخدم هيجل مبدأ النقيض، مع استخدام مصطلحات جديدة غير مصطلحات فيشته:

"وإذا كان فيشته قد استخدم مبدأ "النقيض" في دعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة، مقابل الدين أو الطبيعة –على نحو ما رأينا– فـ "هيدل" استخدم نفس المبدأ لتأكيد قيمة العقل. ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد "الوحي" كمصدر أخير "للحقيقة" على اعتبار أن الله عقل. وبدل المصطلحات الثلاثة التي تعرف لـ "فيشته" في استخدامه مبدأ النقيض، والتي تعبر عن الخطوات الثلاث للفكر عند تطبيقه – يعبر هيجل عن ذلك بعبارات خاصة به، هي: الدعوى. ومقابل الدعوى. وجامع الدعوى ومقابلها.

... "فقد تصور – في مجال "الفكرة" – أن هناك فكرة مطلقة أسماها "العقل المطلق" ولهذا العقل المطلق وجود ذاتي أزلي قبل خلق الطبيعة وقبل خلق العقل المنتهي. هذا العقل

---

(1) المصدر السابق ص290–291.

المطلق هو الله. وقد انبثقت منه "الطبيعة" وهي تغيره. إذ أنها بعيدة متفرقة بينما العقل المطلق واحد وحدة مطلقة من كل قيد. وبوجود الطبيعة ظهرت أو انتقلت "الفكرة" في العقل المطلق غير المحدد، فيما وجوده مقيد محدد. فالطبيعة هي خروج "الفكرة" من دائرتها الأولى. ومن أجل ذلك هي ضرورة وصدفة. وليس فيها حرية واختيار. وتعتبر بذلك مقابلاً ونقيضاً للفكرة في العقل المطلق. وإذا كان العقل المطلق "دعوى" فالطبيعة عندئذ "مقابل الدعوى". و "الفكرة" بذلك انتقلت من المطلق إلى المقيد، أو من النقيض إلى نقيضه. فالفكرة من حيث هي فكرة، انطوت على نقيضها، حتى الآن، ولكن "الفكرة" في الطبيعة، تسعى من جديد لتكسب الوحدة، بعد أن افتقدتها في تفرق الكائنات فيها، وتسعى لتحصيلها وتحقيقها. وتحصيلها هو "العقل المجرد". والعقل المجرد هو نهاية الطبيعة وغايتها. وهو عندئذ جامع الدعوى ومقابل الدعوى!" [1].

وهذا نموذج كذلك من "المثالية" التي ضاقت بها "الوضعية" في أوربا. وحق لها أن تضيق! وهي هكذا تتعامل مع تصورات عقلية مجردة، ومع مصطلحات لا رصيد لها من الواقع ولا علاقة لها بالإنسان الواقعي ولا بالحياة الواقعية!

ولكن السادة الوضعيين حين كفروا بغله الكنيسة، ثم كفروا بإله "العقل"، لم إلى ما هو أهدى. لقد أقاموا من الطبيعة إلها .. ولكن ما هي هذه الطبيعة؟ ما هي هذه الطبيعة التي "خلقت" العقل، والتي كما يقولون: "تنقش الحقيقة في العقل"؟ أهي كائن محدد؟ أهي ذات كلية؟ أم هي هذه "الأشياء" المتفرقة من أجرام وأشكال وحركات وهيئات؟ أهي شيء له حقيقة مستقلة عن تصور العقل الإنساني لها؟ أم هي الصورة التي تنطبع في العقل عن المحسوسات التي يدركها؟ أم هي شيء له حقيقة في ذاته، وما ينطبع منها في العقل قد يطابق حقيقتها وقد لا يطابقها؟

وإذا كانت هذه الطبيعة هي التي "خلقت" العقل البشري، فهل هي "خالق" له إيجابية "الخلق" من العدم؟ ولماذا إذن خلقت العقل في الإنسان ولم تخلقه في الحيوان؟ أو في النبات؟ أهي ذات إرادة مميزة مختارة؟ تختار كائناً بعينه من الكائنات لتمنحه هذه المنحة الفريدة؟

---

(1) عن كتاب: الفكر الإسلامي الحديث وعلاقته بالاستعمار الغربي: 293-295.

أما إذا كانت حقيقتها لا تتجلى إلا في الفكر البشري. أفلا يكون ظهور هذه الحقيقة إذن متوقفاً على وجود العقل البشري؟ فكيف تكون هذه الطبيعة "خالقة" له، بينما هي لا تظهر إلا فيه؟!

ثم إن هؤلاء السادة يحيلوننا على معمى لا ضابط له ولا حدود .. وهم يشيرون إلى الطبيعة !!!

فما الطبيعة؟ أهي مادة هذا الكون؟ وما هي ماهية هذه المادة؟ إن ما كانوا يسمونه "المادة" ويحسبونه شيئاً ثابتاً قد تبين لهم هم أنفسهم أنهم لا يستطيعون تحديد ماهيته. إن المادة تنحل فإذا هي إشعاع. فهل الإشعاع هو الطبيعة. وهو المادة؟ أم إن المادة –والطبيعة كذلك– هي الصورة التي يتجسم فيها هذا الإشعاع؟ إنه لا يثبت على حال هذا الإله! فبينما هو متجسم إذا هو منطلق. وبينما هو منطلق إذا هو متجسم! ففي أي حالة من حالاته يا ترى تكون له القوة الخالقة للعقل البشري؟ وهل هو الذي يخلق كذلك صورة نفسه المتوالية المتحركة أبداً؟ من إشعاع إلى ذرات. ومن ذرات إلى كتل.. ومن كتل إلى ذرات. ومن ذرات إلى إشعاع! – ودع عنك الحياة والخلية الحية والحياة المترقية!– متى يكون لهذا الإله قوة الخلق؟ في أي حالاته؟ ومن الذي خلق الإنسان الذي تخلق الطبيعة عقله؟ أهي خلقته ابتداء؟ أم اكتفت بأن تخلق عقله بعد وجوده؟!

وإذا كانت الطبيعة هي التي "تنقش الحقيقة في العقل الإنساني" .. فلماذا العقل الإنساني بالذات؟ أليست تنطق وتسمعها كل الكائنات الحية؟ فهل يا ترى تنقش هذه الحقيقة كذلك في عقول البغال والحمير والببغاوات والقرود أم لا تنقشها؟ وهل الحقيقة التي نقشتها في عقل الببغاء أو عقل القرد هي ذاتها التي نقشتها في عقل "أوجست كومت" أو عقل كارل ماركس؟!

وإذا كانت الطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في العقل الإنساني فما هي الحقيقة الصحيحة؟ هل كانت هذه الحقيقة والعقل يجزم بأن الأرض مركز الكون؟ أم وهو يجزم بأنها ليست سوى تابع صغير من توابع الشمس؟ هل كانت والعقل يجزم بأن المادة هي هذه الأشياء الصلبة المحسة؟ أم وهو يجزم بأن المادة ليست سوى طاقة متجمعة، في صور متحولة؟ هل

كانت والعقل يجزم بأن الطبيعة ليست شيئاً سوى "عمل العقل"؟ أم هو يجزم بأن العقل ليس شيئاً سوى انطباع المادة؟

أيّ هذه المقررات العقلية كانت هي الحقيقة التي نقشتها الطبيعة في العقل البشري؟ تراها تخطئ في النقش؟ أم أن العقل نفسه هوا لذي يشوه النقش؟ وهل له إذن فاعلية ذاتية وشخصية مستقلة؟ في حين يقول السادة الوضعيون: إنه ليس شيئاً آخر سوى ما تنقشه هذه الطبيعة؟!

وندع الحياة ونشأتها وأسرارها -كما قلنا- إلى موضع مناقشة هذا السر في التصور الإسلامي والتصورات الأخرى.. ندع الحياة وأسرارها فلا نناقشها هنا ونسأل: أي إله هذا الذي يقدمه لنا السادة الماديون؟ إننا لا نجد بين أيدينا ولا في عقولنا ولا في واقعنا منه شيئاً "مضبوطاً" فلماذا يا ترى نختاره ونلوذ به. وهو هباء لا يثبت على اللمس، ولا يثبت على الرؤية، ولا يثبت على النظر العقلي أيضاً؟ نحن – والحمد لله – لسنا هاربين من الكنيسة؟!!

أما هذا المسخ الذي يثير الاشمئزاز في تصور كارل ماركس وانجلز للحياة البشرية ودوافعها ومجالها الذي تتحرك فيه، وحصرها في حجر "الاقتصاد" فإن الشعور بالاشمئزاز منه يزداد، عندما يقف الإنسان أمام عظمة الكون المادي نفسه. وما فيه من موافقات عظيمة عجيبة، يبدو فيها كلها كأنما هي تمهيد للحياة البشرية بوجه خاص: فلا يتمالك نفسه من الاحتقار والاشمئزاز لمثل هذا التفكير الصغير، ولمثل هذا الشعور الذي لا تروعه عظمة هذا الكون ذاته، ولا تروعه الموافقات الكامنة فيه لاستقبال الحياة البشرية.. فإذا به يدير ظهره لكل هذه العظمة، ولكل هذه الروعة، ليخنس في حجر الاقتصاد، والآلة والإنتاج- لا بوصفها غاية للإنسان ومحركاً فحسب – ولكن بوصفها كذلك العلة الأولى، والإله الخالق، والرب المتصرف، المصرّف لهذه الحياة!

ولكنا نعود بعد ذلك كله فنذكر أن هذا البلاء كله – من مبدئه إلى نهايته- إنما جاء ثمرة طبيعية لانحراف الكنيسة والمجامع بالتصور الرباني. ومحاولة الفكر الأوربي أن يأبق من وجه الكنيسة وإلهها الذي تستطيل به! فنحمد الله أن ظل التصور الإسلامي "الرباني" محفوظاً! وإن لم

تقم عليه كنيسة! وإن لم يقع بينه وبين العقل البشري والعلم البشري ذلك الصدام، الذي قادم الفكر الأوروبي إلى هذا التيه وهذا الركام!

ونذكر أن التصور الإسلامي يدع العقل البشري وللعلم البشري ميدانه واسعاً كاملاً – فيما وراء أصل التصور ومقوّماته – ولا يقف دون العقل يصده عن البحث في الكون. بل هو يدعوه إلى هذا البحث ويدفعه إليه دفعاً. ولا يقف دون العلم البشري في المجال الكوني. بل هو يكل أمر الخلافة كله –في حدود التصور الرباني– للعقل البشري وللعلم البشري.. وندرك مقدار نعمة الله ومقدار رحمته في تفضله علينا بهذا التصور الرباني، وفي إبقائه وحفظه على أصله الرباني..

* * *

الثّبات

"فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر

الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم"

من الخاصية الأساسية للتصور الإسلامي – خاصية الربانية– تنبثق سائر الخصائص الأخرى. وبما أنه "رباني" صادر من الله، وظيفة الكينونة الإنسانية فيه هي التلقي والاستجابة والتكيف والتطبيق في واقع الحياة. وبما أنه ليس نتاج فكر بشري، ولا بيئة معينة، ولا فترة من الزمن خاصة، ولا عوامل أرضية على وجه العموم .. إنما هو ذلك الهدى الموهوب للإنسان هبة لدنية خالصة من خالق الإنسان، رحمة بالإنسان..

بما أنه كذلك. فمن الخاصية فيه تنشأ خاصية أخرى.. خاصية: "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت".

هناك "ثبات" في "مقومات" هذا التصور الأساسية، و "قيمه" الذاتية. فهي لا تتغير ولا تتطور، حينما تتغير "ظواهر" الحياة الواقعية، و "أشكال" الأوضاع العملية .. فهذا التغير في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع، يظل محكوماً بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور..

ولا يقتضي هذا "تجميد" حركة الفكر والحياة. ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة –بل دفعها إلى الحركة– ولكن داخل هذا الإطار الثابت، وحول هذا المحور الثابت..

وهذه السمة – سمة الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت– هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله – فيما يبدو لنا– لا في التصور الإسلامي وحده.

"مادة" هذا الكون – سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها، أو أية صورة أخرى – ثابتة الماهية. ولكنها تتحركن فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور.

والذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الإلكترونات في مدار ثابت.

وكل كوكب وكل نجم له مداره، يتحرك فيه حول محوره، حركة منتظمة، محكومة بنظام خاص.

و "إنسانية" هذا الإنسان، المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله.. إنسانية هذا الإنسان ثابتة[1]. ولكن هذا "الإنسان" يمر بأطوار جنينية شتى من النطفة إلى الشيخوخة! ويمر بأطوار اجتماعية شتى، يرتقي فيها وينحط حسب اقترابه وابتعاده من مصدر إنسانيته. ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة "إنسانيته" الثابتة. ونوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من حقيقة إنسانيته.

ونزوع هذا الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأراضي وتطويره .. حقيقة ثابتة كذلك .. منبثقة أولاً من الطبيعة الكونية العامة، الممثلة في حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام في الكون. ومنبثقة ثانياً من فطرة هذا الإنسان. وهي مقتضى وظيفته في خلافة الأرض. فهذه الخلافة تقتضي الحركة لتطوير الواقع الأرضي وترقيته .. أما أشكال هذه الحركة فتتنوع وتتغير وتتطور[2].

وهكذا تبدو سمة: "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت" سمة عميقة في الصنعة الإلهية كلها. ومن ثم فهي بارزة عميقة في طبيعة التصور الإسلامي.

ونحن نسبق السياق هنا، فنستعرض نماذج من المقومات والقيم الثابتة في هذا التصور (سيجئ تفصيل الكلام عنها في موضعه في القسم الثاني من هذا البحث) وهي التي تمثل "المحور الثابت" الذي يدور عليه المنهج الإسلامي في إطاره الثابت.

إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية – وهي قاعدة التصور الإسلامي– ثابت الحقيقة، وثابت المفهوم أيضاً. وغير قابل للتغيير ولا للتطوير:

حقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته –بكل إشعاعاتها– وقدرته، وهيمنته، وتدبيره لأمر الخلق، وطلاقة مشيئته .. إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس..

---

(1) بدأت الدراوينية الحديثة القديمة. فتقرر أن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية، ومن النواحي العقلية والنفسية كذلك. وأنه في هذا يتميز تميزاً تاماً عن جميع الحيوانات .. وبين هذا وبين القول بأن الإنسان خاصية ثابتة فيه منذ البدء .. خطوة .. وإن كان لا يزال يعز على الداورينيين أن يخطوها!

(2) يراجع بتوسع في عرض هذه القاعدة كتاب "معركة التقاليد" لمحمد قطب الطبعة الأخيرة (دار الشروق) ص 82-83.

وحقيقة أن الكون كله –أشياءه وأحياءه– من خلق الله وإبداعه. أراده الله –سبحانه– فكان. وليس لشيء ولا لحي في هذا الكون، أثارة من أمر الخلق في هذا الكون، ولا التدبير ولا الهيمنة. ولا مشاركة في شيء من خصائص الألوهية بحال..

وحقيقة العبودية لله .. عبودية الأشياء والأحياء .. وعموم هذه العبودية للناس جميعاً. بما فيهم الرسل –عليهم الصلاة والسلام– عبودية مطلقة، لا تتلبس بها أثارة من خصائص الألوهية. مع تساويهم في هذه العبودية..

وحقيقة أن الإيمان بالله – بصفته التي وصف بها نفسه – وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.. شرط لصحة الأعمال وقبولها. وإلا فهي باطلة من الأساس، غير قابلة للتصحيح، ومردودة غير محتسبة وغير مقبولة ..

وحقيقة أن الله لا يقبل من الناس ديناً سواه. وأن الإسلام معناه إفراد الله –سبحانه– بالألوهية وكل خصائصها. والاستسلام لمشيئته، والرضى بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته. وأن هذا هو دينه الذي ارتضاه. لا أي دين سواه.

وحقيقة أن "الإنسان" – بجنسه– مخلوق مكرم على سائر الخلائق في الأرض مستخلف من الله فيها. مسخر له كل ما فيها. ومن ثم فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو قيمة هذا الإنسان، أو تهدر نم أجلها قيمته..

وحقيقة أن الناس من أصل واحد. ومن ثم فهم –من هذه الناحية– متساوون. وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها – فيما بينهم– هي التقوى والعمل الصالح. لا أية قيمة اخرى، من نسب، أو مال، أو مركز، أو طبقة، أو جنس .. إلى آخر القيم الأرضية.

وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله .. بمعنى العبودية المطلقة لله وحده. بكل مقتضيات العبودية، وأولها الائتمار بأمره –وحده– في كل أمور الحياة صغيرها وكبيرا والتوجه إليه –وحده– بكل نية وكل حركة، وكل خالجة وكل عمل. والخلافة في الأرض وفق منهجه– أو بتعبير القرآن وفق دينه – إذ هما تعبيران مترادفان عن حقيقة واحدة..

وحقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة، وهي هذا المنهج الإلهي .. لا الجنس، ولا القوم، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة، ولا المصالح الاقتصادية أو السياسية، ولا أي اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية ..

وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل. وأن الآخرة دار حساب وجزاء. وأن الإنسان مبتلى وممتحن في كل حركة، وفي كل عملن وفي كل خير يناله أو شر، وفي كل نعمة وفي كل ضر .. وأن مرد الأمور كلها إلى الله..

... هذه وأمثالها من المقومات والقيم – التي سنعرض لها بالتفصيل في مواضعها في القسم الثاني من هذا البحث –كلها ثابتة، غير قابلة للتغير ولا للتطور .. ثابتة لتحرك ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع في إطارها، وتظل مشدودة إليها. ولتراعي مقتضياتها في كل تطور لأوضاع الحياة، وفي كل ارتباط يقوم في المجتمع، وفي كل تنظيم لأحوال الناس أفراداً وجماعات، في جميع الأحوال والأطوار.

وقد تتسع المساحة التي تتجلى فيها مدلولات هذه المقومات والقيم، كلما اتسعت جوانب الحياة الواقعية، وكلما اتسع مجال العلم الإنساني، وكلما تعددت المفاهيم التي تتجلى فيها هذه المقومات والقيم. ولكن أصلها يظل ثابتاً. وتتحرك في إطاره تلك المدلولات والمفاهيم.

حقيقة أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض –مثلاً– تتجلى في صور شتى .. تتجلى في صورته وهو يزرع الأرض. لأن أوضاع حياته ومدى تجاربه تجعل الزراعة هي التي تفي في ذلك الطور باحتياجاته الضرورية، وبها تتحقق الخلافة.. وتتجلى كذلك في صورته وهو يفجر الذرة، ويرسل الأقمار الصناعية لتكشف له طبيعة الغلاف الجوي للأرض، أو طبيعة الكواكب والتوابع من حوله .. هذه وتلك – وما بينهما وما بعدهما– صور من صور الخلافة في الأرض، قابلة دائماً للزيادة والاتساع. ولكن حقيقة الخلافة في الأرض ثابتة على كل حال. يقتضي مفهومها الثابت ألا يحال بين الإنسان ومزاولة حقه في الخلافة وفق منهج الله المرسوم. وألا يعلوا شيء في هذه الأرض على "الإنسان". وألا تهدر قيمته "الإنسانية" لينشئ قمراً صناعياً، أو ليضاعف الإنتاج المادي ! فهو سيد الأقمار الصناعية، وسيد الإنتاج المادي!

وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة –مثلاً– تتمثل في كل نشاط يتجه به الإنسان إلى الله. وألوان النشاط غير محدودة. فهي تابعة لمقتضيات الخلافة النامية المتجددة .. وتتمثل في عبوديته لله وحده، بالتحاكم إلى منهجه وحده، في كل شؤون الحياة. وهذه الشؤون غير محدودة. فهي كذلك تابعة لمقتضيات الخلافة النامية المتجددة .. ولكن حقيقة الغاية ثابتة لا تتغير . فإذا لم يتجه إلى الله بكل نشاط. وإذا لم يتحاكم إلى منهج الله في كل شأن، فقد أخل بهذه الحقيقة الثابتة، وخرج على غاية وجوده الإنساني. واعتبر عمله باطلاً غير قابل للتصحيح المستأنف، ولا بالقبول من المؤمنين.

وهكذا – على هذا النحو– تتسع مساحة مدلولات هذه المقومات، وتتنوع الصور التي تتجلى فيها .. ولكنها هي ثابتة في التصور الإسلامي، لا يتناولها التغير ولا التطور على كل حال.

وقيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم على هذا النحو، هي ضبط الحركة البشرية، والتطورات الحيوية. فلا تمضي شاردة على غير هدى –كما وقع في الحياة الأوربية عندما أفلتت من عروة العقيدة – فانتهت إلى تلك النهاية البائسة، ذات البريق الخادع واللألاء الكاذب، الذي يخفي في طياته الشقوة والحيرة والنكسة والارتكاس.

وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه "الإنسان" بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات، وبكل ما يجدّ في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات. فيزنها بهذا الميزان الثابت. ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب.. ومن ثم يظل دائماً في الدائرة المأمونة، لا يشرد إلى التيه، الذي لا دليل فيه من نجم ثابت، ولا من معالم هادية في الطريق!

وقيمته هي وجود "مقوّم" للفكر الإنساني مقوّم منضبط بذاته. يمكن أن ينضبط به الفكر الإنساني. فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات. وإذا لم يكن هذا المقوم الضابط ثابتاً. فكيف ينضبط به شيء إطلاقاً! إذا دار مع الفكر البشري –كيفما دار– ودار مع الواقع البشري –كيفما دار– فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة. وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت. يمسك بهذا الفكر الدوّار؟ أو بهذا الواقع الدوّار؟!

إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية، والحياة البشرية، أن تتحرك داخل إطار ثابت، وان تدور على محور لا يدور! إنها على هذا النحو تمضي على السنة الكونية الظاهرة في الكون كله، والتي لا تختلف في جرم من الأجرام!

إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم. وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت، وأفلت زمامها من كل ما يشدها إلى محور. وأصبحت أشبه بجرم فلكي خرج من مداره، وفارق محوره الذي يدور عليه في هذا المدار. ويوشك أن يصدكم فيدمر نفسه ويصيب الكون كله بالدمار.

"**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ..**".

(المؤمنون: 71)

والعاقل "الواعي" الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم. حين ينظر إلى هذه البشرية المنكودة يراها تتخبط في تصوراتها، وأنظمتها، وأوضاعها، وتقاليدها، وعاداتها، وحركاتها كلها تخبطاً منكراً شنيعاً .. يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس! وتتشنج في حركاتها وتتخبط وتتلبط كالممسوس .. يراها تغير أزياءها في الفكر والاعتقاد، كما تغير أزياءها في الملابس، وفق أهواء بيوت الأزياء! .. يراها تصرخ من الألم، وتجري كالمطارد، وتضحك كالمجنون، وتعربد كالسكير، وتبحث عن لاشيء! وتجري وراء أخيله! وتقذف بأثمن ما تملك، وتحتضن أقذر ما تمسك به يداها من أحجار وأوضار!

لعنة! لعنة كالتي تتحدث عنها الأساطير!

إنها تقتل "الإنسان" وتحوله إلى آلة .. لتضاعف الإنتاج!

إنها تقضي على مقوماته "الإنسانية" وعلى إحساسه بالجمال والخلق والمعاني السامية لتحقيق الربح لعدد قليل من المرابين وتجار الشهوات، ومنتجي الأفلام السينمائية وبيوت الأزياء.

وتنظر إلى وجوه الناس، ونظراتهم، وحركاتهم، وأزيائهم، وأفكارهم، وآرائهم، ودعواتهم. فيخيل إليك أنهم هاربون! مطاردون! لا يلوون على شيء، ولا يتثبتون من شيء! ولا يتريثون ليروا شيئاً ما رؤية واضحة صحيحة .. وهم هاربون فعلاً! هاربون من نفوسهم التي بين جنوبهم! هاربون من نفوسهم الجائعة القلقة الحائرة، التي لا تستقر على شيء "ثابت" ولا تدور على محور

ثابت، ولا تتحرك في إطار ثابت.. والنفس البشرية لا تستطيع أن تعيش وحدها شاذة عن نظام الكون كله. ولا تملك أن تسعد وهي هكذا شاردة تائهة، لا تطمئن إلى دليل هاد، ولا تستقر على قرار مربح!

وحول هذه البشرية المنكودة زمرة من المستنفعين بهذه الحيرة الطاغية، وهذا الشرود القاتل.. زمرة من المرابين، ومنتجي السينما، وصانعي الأزياء والصحفيين، والكتاب.. يهتفون لها بالمزيد من الصرع والتخبط والدوار، كلما تعبت وكلت خطاها، وحنت إلى المدار المنضبط والمحور الثابت، وحاولت أن تعود!

زمرة تهتف لها .. التطور .. الانطلاق .. التجديد .. بلا ضوابط ولا حدود .. وتدفعها بكلتا يديها إلى المتاهة كلما قاربت من المثابة .. باسم التطور .. وباسم الانطلاق .. وباسم التجديد..

إنها الجريمة. الجريمة المنكرة في حق البشرية كلها. وفي حق هذا الجيل المنكود[1]!

وفكرة "التطور" المطلق، لكل الأوضاع، ولكل القيم، ولأصل التصور الذي ترجع إليه القيم. فكرة تناقض -كما قلنا- الأصل الواضح في بناء الكون، وفي بناء الفطرة. ومن ثم ينشأ عنها الفساد الذي لا عاصم منه .. إنها تمنح حق الوجود، ومبرر الوجود، لكل تصور، ولكل قيمة، ولكل وضع، ولكل نظام. ما دام تالياً في الوجود الزمني! وهو مبرر تافه، عرضي، لا ينبغي أن يكون له وزن في الحكم على تصور أو وضع أو قيمة أو نظام. إنما ينبغي أن يكون الوزن لمقومات ذاتية في ذات الوضع أو ذات النظام.

ونحن نعرف أن الفكر الأوربي – في هروبه من الكنيسة، ورغبته الخفية والظاهرة في خلع نيرها- قد مال إلى نفي فكرة "الثبات" -على الإطلاق- واستعاض عنها فكرة "التطور" -على الإطلاق- لم يستثن منها أصل العقيدة والشريعة. بل لقد كانت فكرة ثبات مقومات العقيدة والشريعة بالذات هي التي يريد التفلت منها والتملص والخلاص!

---

(1) يراجع بتوسع كتاب: "الإسلام ومشكلات الحضارة"..

وسلوك الفكر الغربي هذا المسلك مفهوم لنا جيداً من خلال الاستعراض السابق. وما يفسره – وإن لم يكن له ما يبرره على إطلاقه – ونحن لا نشتد في لوم الفكر الغربي على موقفه هذا. وإن يكن موقفاً خاطئاً معيباً. فقد صادف عقيدة محرفة مشوهة مشوبة بالوثنيات والأساطير منذ اللحظة الأولى. ثم واجه كنيسة مستبدة فاسدة في الوقت ذاته، تستطيل على الفكر والعلم والناس باسم هذه الخرافات التي تجعلها أساس العقيدة "الثابتة"!

نحن لا نشتد في لوما لفكر الغربي على هذا الموقف. ولكننا –في الوقت ذاته– يجب أن نفطن إلى الأسباب الحقيقية لجنوح الفكر الغربي – أو جموحه– لتغليب فكرة "التطور" المطلق، الذي لا يتقيد بأي أصل ثابت، ولا بأية قيمة ثابتة، ولا بأية حقيقة ثابتة. فليست هذه "حقيقة علمية" وإنما هي شهوة جامحة، وهوى شارد، مبعثه الرغبة في التملص من وثاق الكنيسة الجبار!

إن دارون – وهو يقرر مذهب التطور في خط سير الحياة – لم يكن يبحث، ولم يكن بحثه يتناول، إلا جزئية سطحية من جزئيات هذا الكون، تبدأ بعد وجود الحياة. ولا تمتد إلى مصدر الحياة، ولا إلى الإرادة التي صدرت عنها الحياة.. وحتى على فرض صحة نظريته – والآن توجه معاول الهدم إلى صلب النظرية[1] – فإن خط التطور يثبت أن هناك إرادة ثابتة من ورائه. وأنه يتم وفق خط مرسوم لا مجال للمصادفة فيه. وأنه جزء من "الحركة" التي هي قانون من قوانين الكون. وحركة الكون كما قلنا ليست فوضى، وإنما هي تتم حول قاعدة "ثابتة" وتتم في إطار "ثابت!".

وعلى أية حال فلم يكن لا "المنهج العلمي" ولا "الحقائق العلمية" هي التي أملت على دارون – حين لم يهتد إلى سر الحياة، ولم يستطع تعليلها علمياً– أن يهرب من ردها إلى الله. ووجودها ذاته يحتم الاعتراف بأن موجدها لابد أن يكون مريداً مختاراً فيما يريد، عليماً خبيراً، قادراً على تحقيق ما يريد .. ولكن دارون كان هارباً من "الله" لأنه كان هارباً من الكنيسة وإلهها الذي تصول باسمه وتجول .. ومن ثم رد الحياة إلى "الطبيعة" – التي لا حد لقدرتها كما يقول!

(1) راجع جوليان هكسلي في كتابه: "الإنسان والعلم الحديث"، وكريسي موريسون في كتابه "الإنسان لا يقوم وحده" ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان: "العلم يدعو إلى الإيمان"..

ومن ثم حاول أن يوهم أن لا ثبات لشيء –على الإطلاق– بينما بحثه كله كان في دائرة خط سير الحياة. بعد وجود الحياة. ولم يكن يتناول "كل شيء" على الإطلاق[1]!

والمذهب الماركسي، هو أشد المذاهب "الوضعية" معارضة لحقيقة "الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت"، لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة في طبيعة الكون "المادي" ذاته، يفقد المذهب ركيزته الأولى التي يقوم عليها، ويحطم دعواه في "التقدمية" كما يفهمها!

"وماركس له جدل (Dialektik) ومنطق استخدم فيه مبدأ "النقيض" الذي عرف للفيلسوفين الألمانيين قبله: نيتشه وهيجل. ولكن استخدمه في مجال آخر غير مجال "التصور" عند نيتشه وغير مجال "الفكرة" عند هيجل استخدمه في مجال "الاقتصاد" مستنداً إلى تاريخ الجماعة.

" فكل "شيء" في نظره يتضمن نقيضه. بحيث أن كل "شيء" يهدم نفسه.. وهذا هو التصوير العام لمبدأ النقيض .. ولكن ماركس يستخدمه للتدليل على وقوع انهيار "الجماعات" التي قامت على "الرأسمالية". فالجماعات السابقة عليها. وهي دول الملوك، والجماعات الإقطاعية (أصحاب المزارع الكبيرة) انهارت – بناء على تفكير ماركس – لأنها تضمنت عنصر المقابلة أو النقيض. وعلى هذا النحو كذلك ستنهار هذه الجماعة الحديثة "الرأسمالية" وتتحول إلى المقابل والنقيض. وهو الجماعة "الشيوعية" ذات الطبقة الواحدة من العمال.

"ومع أن مبدأ النقيض لا يقف بتحول الشيء إلى مقابله فقط. بل سيتحول الشيء ومقابله إلى جامع لهما. ثم هذا الجامع يصير إلى "شيء" يتحول أيضاً إلى مقابلة. ثم إلى جامع ... وهكذا. مع أن منطق هذا المبدأ هو الاستمرار في التحول .. فالماركسية تقف بترقب تحول الجماعة. ولا تتحدث – فضلاً عن أن تترقب – عن انهيار الجماعة الشيوعية وسقوطها، وهدم نفسها في جماعة مقابلة. بناء على أن كل شيء يتضمن نقيض نفسه، وفيه عامل الهدم لنفسه!!

... "وكنتيجة لهذا (أي للتحول الدائم الذي يقف به ماركس عند الشيوعية تحكماً وهوىً) أن الذي يعتقد بالقيم الأزلية هو مصدق بأشياء لا توجد. حتى هؤلاء الذين يعتقدون أن بعض

---

(1) يراجع بتوسع كتاب: "الإنسان بين المادية والإسلام" وكتاب "معركة التقاليد" لمحمد قطب.

القيم للوقت الحاضر، أو للحال الراهن، يجب أن يحتفظ بها، هم مصدقون بما لا يقع. فإذا اعتقد شخص أن كل شيء يتغير. فمن السذاجة أن يكون محافظاً"!

"وعلى نحو صنيع هيجل في صياغة مبدأ النقيض، توضح الماركسية أن كل شيء يتضمن قوتين رئيسيتين متقابلتين: واحدة تسمى "الدعوى" والأخرى تسمى "مقابل الدعوى". وهاتان القوتان تهدم إحداهما الأخرى. ولكن ينشأ من الهدم حالة جديدة تسمى "جامع الدعوى ومقابلها" ثم يسقط هذا الجامع ويتحول إلى مقابله. وعندئذ نحصل على دعوى ومقابل الدعوى من جديد. ثم ينشا من تقابلهما وتناقضهما جامع جديد. في تسلسل لا نهاية له(1).

وصياغة مبدأ النقيض في هذه العبارات تناسب تطبيقه في دائرة "الجماعة" التي اختارتها الماركسية مجالاً للتطبيق. كما تناسب "الصراع" بين الطبقات في الجماعة، التي حرصت هي أيضاً على أن يكون مصطلحاً لها، بدلاً عن "التقابل" بين الشيء ومقابله، الذي اصطلح عليه نيتشه وهيجل من قبل في شرح النقيض.

"واستخدام مبدأ النقيض في دائرة "الجماعة" –كما اختارت الماركسية– يعطيها دليلاً على أن الشيوعية –كجماعة– هي أسمى في القيمة من كل جماعة وجدت سابقاً! فالجماعة ذات النظام الملكي سقطت، وتحولت إلى الجانب المقابل– وهو حكام الملك من جانب والعبيد والفقراء من جانب آخر – ومن الكفاح بين الفريقين المتقابلين تكوَّن الجامع بين الشيء ومقابله –وهو الجماعة الإقطاعية– وبعد ذلك سقط الإقطاع في القوة المقابلة – وهي قوة الملاك من جانب والفلاحين من جانب آخر– ومن الكفاح بين الملاك والفلاحين نشأت الرأسمالية .. وتريد الماركسية أن تقول الآن:إن الرأسمالية (في الصناعة) ستسقط في القوة المقابلة – وهي قوة العمال من جانب وأصحاب العمل من جانب آخر – والجماعة الجديدة هي الجماعة الاشتراكية الماركسية ذات الطبقة الواحدة!

---

(1) ولكن الماركسية كما رأينا تقف بقانونها ذاته عند هواها! فلا تعمله إلا فيما قبل قيام "الشيوعية" ثم تبطله بعد أن تبلغ "غرضها" منه! وتسمى هذا تفكيراً علمياً!.. وذلك فوق ما في مبدأ النقيض ذاته من تحكمية نظرية لا رصيد لها من الواقع كما أسلفنا!

"ولكن أيقف "مبدأ النقيض" عند هذه الجماعة الجديدة؟ أم ستسقط هي بدورها في مقابل لها – كما هي ضرورة منطق هذا المبدأ– كضرورة حتمية في الوجود؟!

"وانتقال الجماعة من حال إلى حال يصحبه في نظر الماركسية التطور في "القيمة" فالإقطاع أسمى من دولة الملك. والرأسمالية أسمى من الإقطاع. والشيوعية أسمى من الجماعات الرأسمالية!

"وادعاء أن كل جماعة أسمى من سابقتها مصدر براق للدعاية الشيوعية. وكثير من الناس يصيرون أتباعاً للشيوعية، لأنهم يعتقدون أنهم يعملون من أجل عالم أحسن من أي عالم وجد قبل ذلك"[1]!!!

وظاهر من هذا العرض لأصول المذهب الماركسي أنه قائم على "التحكم" الذي تمليه الرغبة في الوصول إلى نتائج معينة مرسومة من قبل! لا على الواقع. ولا على تتبع هذا الواقع.

فمبدأ النقيض ابتداء – كما هو في فلسفة نيتشه وهيجل – مجرد "تحكم" تصوري فكري، لا رصيد له من الواقع –كما أسلفنا– وحين يطبقه كارل ماركس على تاريخ الجماعة البشرية، يعتمد أولاً أن يسقط جميع "مقومات" الجماعات البشرية، التي يمكن أن يجري فيها التحول – إذا صح مبدأ النقيض – ويعتمد فقط المقوّم الاقتصادي ويشرح التحول فيه – وهو على كل أهمية– لا يمثل كل مقومات الحياة الإنسانية.. ثم هو بعد ذلك كله يعتمد تاريخ جماعة معينة – هي الجماعة الأوربية– ثم هو يتحكم في تاريخ هذه الجماعة الخاصة. فيختار نقطاً معينة فيه. فضلاً على استحالة إدراك فرد واحد، في جيل من الأجيال، لجميع العوامل والمؤثرات التي لعبت أدوارها في حياة هذه الجماعة على مدار القرون! فيختار مظهراً واحداً من مظاهر نشاطها ويهمل سائر المظاهر! ثم يتحكم مرة رابعة أو خامسة أو عاشرة، فيعتبر أن كل وضع تال خير من الوضع السابق له على الإطلاق. ومع ذلك لا يريد أن يدع العجلة تمضي إلى وضع خير من الشيوعية .. بل يوقف سير التاريخ عند هذه النقطة! ويضحي بالخير الآتي !!!

---

(1) "الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" للدكتور محمد البهي ص 311-315.

ومع هذا التهافت في بناء المذهب على مجرد التحكم والهوى، فقد صحبته لوثة في وزن القيم لم تقتصر على معتنقيه، بل تجاوزتهم إلى المعارضين له كذلك: في أوربا وفي أمريكا! لوثة التخلي عن كل ما هو سابق، والتقاط كل ما هو لاحق. ولوثة التحلل من كل قيمة تصد الشهوات عن الانطلاق بلا حدود ولا قيود. ولوثة السخرية من ثبات القيم الأخلاقية وغير الأخلاقية. اللوثة التي كان للماركسية من ورائها هدف خاص، وغاية مرسومة سلفاً. ولم تكن هي بذاتها نتيجة منطقية لأية دراسة "علمية"!

فالتطور المطلق هو مجرد عملية تبرير لكل ما يراد عمله. وهو أولاً وقبل كل شيء عملية تبرير لما تريده "الدولة" بالأفراد، بحيث لا يكون هناك مبدأ ثابت، ولا قيمة ثابتة، يلوذ بها الأفراد في مواجهة الدولة. وبحيث لا يكون هناك "حق ثابت" يفئ إليه الجميع، ولا دستور ثابت يتحاكم إليه الجميع!

وفي نظير إطلاق يد الدولة تجاه الأفراد من كل قيد، تطلق الدولة "شهوات" الأفراد من كل قيد. ليجدوا في هذا الانطلاق "الحيواني" تعويضاً عن قيمهم المسلوبة، وحرياتهم المسلوبة، وحقوقهم المسلوبة!

انطلاق حيواني للشهوات، يقابله انطلاق استبدادي للسلطة.. واحدة بواحدة .. وبدلاً من أن تقوم هذه الصفقة على مجرد الاصطلاح العرفي الصامت بين الفريقين! فإنها تقوم على مبدأ "فلسفي"! وعلى مذهب "علمي"! تقوم على "مبدأ النقيض" وتقوم على "المادية الجدلية"!

وهذا هو المذهب الذي يزعم أن "الدين مخدر" وأن ثبات القيم في الدين مقصود به خدمة الطبقة الحاكمة!

إن "الثبات" في مقومات التصور الإسلامي وقيمه – فضلاً على أنه امتداد للنظام الكوني– هو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت" فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر، بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء.

وهو الذي يقي الفكر الإسلامي ويقي المجتمع الإسلامي مثل تلك اللوثة في الفكر الماركسي وفي الجماعة الشيوعية. وهي اللوثة ذاتها التي أصابت الفكر الغربي والمجتمعات الغربية بصفة عامة – حتى وهي تعارض الماركسية من الناحية المذهبية والسياسية – وذلك منذ أفلتت من نطاق العقيدة، في ظل تلك الملابسات النكدة..

وهو الذي يبث الطمأنينة في الضمير المسلم، وفي المجتمع المسلم .. الطمأنينة إلى ثبات الإطار الذي تتحرك فيه حياته، وثبات المحور الذي تدور حياته حوله. فيشعر أن حركته إلى الأمام، ثابتة الخطو، موصولة الخيط، ممتدة من الأمس إلى اليوم إلى الغد. نامية مطردة النمو. صاعدة في المرتقى المرسوم، بالتقدير الإلهي القويم.

ثم هو –في النهاية– الذي يضمن للمسلم في المجتمع الإسلامي مبادئ ثابتة يتحاكم إليها هو وحكامه على السواء. فلا يطلق هؤلاء أيديهم في مقوماته وحرياته وحقوقه، في مقابل أن يطلقوا هم حرية الشهوات والنزوات الحيوانية للجماهير المكبوتة في قماقم الاستبداد!

وبعد فإن التصور الإسلامي – من ثم– يقوم على أساس أن هناك حالتين اثنتين للحياة البشرية. ولا علاقة للزمان أو للمكان في تقدير قيمة هاتين الحالتين. إنما القيمة لذات كل حالة. ولوزنها في ميزان الله الثابت، الذي لا يتأثر بالزمان والمكان..

حالتان اثنتان تتعاوران الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان: حالة الهدى وحالة الضلال – مهما تنوعت ألوان الضلال – حالة الحق وحالة الباطل – مهما تنوعت ألوان الباطل – حالة النور وحالة الظلام– مهما تنوعت ألوان الظلام– حالة الشريعة وحالة الهوى مهما تنوعت ألوان الهوى – حالة الإسلام وحالة الإسلام وحالة الجاهلية – مهما تنوعت ألوان الجاهلية– حالة الإيمان وحالة الكفر – مهما تنوعت ألوان الكفر – وإما يلتزم الناس الإسلام ديناً (أي منهجاً للحياة ونظاماً) وإلا فهو الكفر والجاهلية والهوى والظلام والباطل والضلال.

"**إن الدين عند الله الإسلام**" ...

(آل عمران: 19)

"**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**" ... (آل عمران: 85)

"**فماذا بعد الحق إلا الضلال؟** ...

(يونس: 32)

"**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**" ...

(الجاثية: 18)

"**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**"...

(الأنعام: 153)

"**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**" ...

(البقرة: 257)

"**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**"...

(المائدة: 44)

"**أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟**"

(المائدة: 50)

"**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**" ..

(النساء: 59)

فإذا ثبت هذا الإطار استطاعت الحياة – فكرة وتصوراً وواقعاً ونظاماً – أن تتحرك في داخله بحرية ومرونة، واستجابة لكل تطور فطري صحيح، مستمد من التصور الكلي الثابت القويم.

والقيمة الكبرى لهذه الخاصية، هي تثبيت الأصل الذي يقوم عليه شعور المسلم وتصوره، فتقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في استقرار وثبات. مع إطلاق الحرية للنمو الطبيعي في الأفكار والمشاعر، وفي الأنظمة والأوضاع. فلا تتجمد في قالب حديدي ميت – كالذي أرادته الكنيسة في العصور الوسطى – ولا تنفلت كذلك من كل ضابط انفلات النجم

الهالك من مداره وفلكه! وانفلات القطيع الشارد في المهلكة المقطوعة! كما صنعت أوربا في تاريخها الحديث، حتى انتهت إلى ذلك التفكير الشائه!

ولعل هذه الخاصية هي التي ضمنت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته مدى ألف عام. على الرغم من جميع الهزات، ومن جميع الضربات، ومن جميع الهجمات الوحشية عليه من أعدائه المحيطين به في كل مكان .. ولم يبدأ تفككه وضعفه إلا منذ أن تخلى عن هذه الخاصية في تصوره، وإلا منذ أن أفلح أعداؤه في تنحية التوجيه الإسلامي، وإحلال التوجيهات الغربية مكانه في العالم الإسلامي[1].

ومما لا شك فيه أن المجتمع الذي يجري دائماً وراء تصورات متقلبة أبداً، لا تستند إلى أصل ثابت إطلاقاً، تنبع من الفكر البشري المحدود المعرفة، الظنى المعرفة كذلك، الذي يبني علمه –مهما علم– على الظن والحدس والخرص، والفروض المتقلبة أبداً .. ثم يجعل من هذا العلم الظني إلهاً، او يجعل من الهوى المتقلب إلهاً، يتلقى منه التصورات والقيم والموازين.

مما لا شك فيه أن مجتمعاً كهذا معرض دائماً للهزات العنيفة، والأرجحة المستمرة، التي تنشئ في عقله الحيرة، وفي ضميره البلبلة، وفي أعصابه التعب، وفي حياته الشرود، وفي كيانه الفساد.

وهذا هو الذي حدث في المجتمعات الأوروبية المفلتة من كل أصل ثابت. وهذا هو الذي تشقى به البشرية كلها اليوم. وهي تخبط في التيه، وراء المجتمعات الأوروبية الشاردة[2]!

لابد من تصور ثابت المقومات والقيم، يجئ من مصدر ثابت العلم والإرادة! مصدر يرى المجال كله، والخط كله، فلا تخفى عليه منحنيات الدرب، ولا يقدر اليوم تقديراً يظهر في غد خطؤه ونقصه، ولا تتلبس به شهوة أو هوى يؤثر في موازينه وتقديراته .. ولا ضير بعد هذا من الحركة، والتغير، والتطور، والنمو والترقي.. بل تصبح كلها مطلوبة، وتصبح كلها مأمونه، وتصبح كلها تلبية للفطرة: القائمة على الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت. ولكنها حركة

---

(1) يراجع كتاب: "هل نحن مسلمون؟" لمحمد قطب.

(2) يراجع كتاب "الإسلام ومشكلات الحضارة".

راشدة واعية، مدركة للغاية الثابتة التي تتجه إليها، في خطو متزن، مستقيم راسخ.. وهذا هو ضمان الحياة الطويلة المدى، المتناسقة التصميم.

ولا نحتاج إلى الحيطة ضد التجمد في قالب حديدي، ونحن نستمسك بهذه الخاصية في التصور الإسلامي – خاصية الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت – فخاطر التجمد لا يرد على مثل هذا التصور، ولا على الحياة التي تتحرك في إطاره. فالحركة كما قلنا هي القاعدة فيه، كما أنها هي القاعدة في التصميم الكوني. والكون لا يتجمد ولا يأسن ولا يفسد ولا يركد. فهو في حركة دائمة، وفي تغير دائم، وفي تطور دائم، وفي تشكل مستمر في كل لحظة. ولكنه يتحرك مع استبقاء حقيقته الأصيلة كما قلنا في مطلع هذه الفقرة.

وحين نطالع مذاهب الفكر الغربي، فنرى الطابع الغالب عليها هو اعتبار "التطور" المطلق – دون الرجوع إلى أي أصل ثابت – فيجب أن نكون واعين للعوامل التاريخية التي جعلت هذا الفكر يجنح –أو يجمح– هكذا. ويجب أن نفطن لما اندس في هذا الفكر من عداء عميق كامن للتفكير الديني على الإطلاق، والأسباب القابعة وراء هذا العداء. ويجب أن ندرك أن مناهج هذا الفكر – بما اندس في صلبها من هذا العداء – لا تصلح للتطبيق على مناهجنا الإسلامية، ولا تصلح للاستعانة بها في بحوثنا الإسلامية كذلك!

إننا نقتبس من هذا الفكر – تارة مناهجه، وتارة النتائج التي وصل إليها، وتارة رقعاً ممزقة منه – ثم نخلط هذا كله بحديثنا عن الإسلام، أو عن المجتمع، أو عن مناهج الفكر والنظر.. وهذه كلها جهالة تتباهي وهي تتبدى في ثياب المعرفة! وأحياناً يضاف إلى الجهالة التفاهة وسوء النية كذلك!

يقول الأستاذ المهتدي محمد أسد (ليوبولدفايس) في كتابه القيم: (الإسلام على مفترق الطرق":

"يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية، وجميع المدنيات، أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية.. إنها تمر في جميع أدوار الحياة العضوية، التي يجب أن تمر بها. إنها تولد، ثم

تشب وتنضج، ثم يدركها البلى في آخر الأمر. فالثقافات كالنبات الذي يذوى ثم يستحيل تراباً. تموت في أواخر أيامها، وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً.

"أهذه إذن حال الإسلام؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية.. مما لا شك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة، وعهداً من الازدهار. وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال، وأنواع التضحية. ولقد غيرت معالم الشعوب، وخلقت دولاً جديدة .. ثم سكنت وركدت، وأصبحت كلمة جوفاء .. وها نحن أولاء اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها .. ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟

"إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأخر، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم، بل هو شرع سنة الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان، فإن الموقف يتبدل تماماً.

"وإذا كانت الثقافة الإسلامية – في اعتقادنا – نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً.. فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول: إنها كسائر الثقافات، خاضعة لمرور الزمن، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية .. ثم إن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا، التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلي .. ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية – مع نموها مع الحاضر – قد استطاعت أن تشب عن الإسلام.. إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي، كما استطاع الإسلام أن يفعل، حينما أتى بفكرة القومية العليا: "الأمة" .. إنها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الاجتماعي الإسلامي .. إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان، ولا أن تزيد في شعوره بالأمن، ولا في رجائه الروحي وسعادته.

"ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري في كل ما وصل إليه، مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهج الإسلامي .. فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة. والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم؟ ولكن إذا رأيناً نظاماً بني على الدين، قد استطاع أن يقدم منهاجاً عملياً للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان، من كل

شيء آخر يمكن العقل البشري أن يأتي به عن طريق الإصلاح والاقتراح .. أفلا يكون هذا نسه حجة بالغة في ميدان الاستشراف الديني؟

"لقد تأيد الإسلام – ولدينا جميع الأدلة على ذلك – بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني، لأن الإسلام كشف عنها، وأشار إليها، على أنها مستحبة، قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل.

"ولقد تأيد أيضاً –على السواء– بما وقع في أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات. لأنه كان قد رفع الصوت عالياً واضحاً بالتحذير منها، من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء.. وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد – من وجهة نظر عقلية محض – كل تشويق إلى أن نتبع الهدي الإسلامي، بصورة عملية، وبثقة تامة"...

.... " نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام – كما يظن بعض المسلمين– لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل. أما الذي نحتاج إليه فعلاً، فهو إصلاح موقفنا من الدين، بمعالجة كسلنا، وغرورنا، وقصر نظرنا، وبكلمة واحدة: معالجة مساوئنا ...

... "إن الإسلام – كمؤسسة روحية واجتماعية– غنى عن كل تحسين. وإن كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته، وعلى تنظيمه الاجتماعي، بافتئات من ثقافة أجنبية –ولو بإشراق ضئيل– سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد، وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن"(1).

ونحن نقول، إن الخسارة لن ترجع علينا – نحن المسلمين وحدنا– ولكنها سترجع على البشرية كلها .. سترجع على البشرية كلها بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الباقي لها من هداية الله. وتكدير – أو تسميم – المورد الوحيد، الذي يمكن أن تستقي منه الهدى الرباني الخالص .. وسترجع البشرية كلها بحرمانها هذه المثابة الثابتة المستقرة، في الأرض المرجرجة التي تمور بالأهواء. والتي ظهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. ولم تعد لها منجاة إلا في هذه المثابة الآمنة المستقرة، الموصولة بالله..

---

(1) الإسلام على مفترق الطرق. تأليف محمد أسد، ترجمة: عمر فروخ ص 109–ص112.

والذين يحاولون زعزعة هذه المثابة .. سواء باسم التجديد والإصلاح والتطور، أو باسم التخلص من مخلفات القرون الوسطى! أو تحت أي شعار آخر، هم: أعداؤنا الحقيقيون. هم أعداء الجنس البشري. وهم الذين ينبغي أن نطاردهم، وأن نطلب إلى الجنس البشري مطاردتهم كذلك!

إنهم يتحدثون باسم "التقدمية" ضد "الرجعية" في حين أنهم لا يزالون يقتاتون على نتاج القرن التاسع عشر، أو القرن الثامن عشر – نتاج أوربا لا نتاجهم! – ولم يصلوا بعد إلى نتاج القرن العشرين" إنهم متخلفون في تفكيرهم نصف قرن على الأقل. لم يعلموا بعد أن التفكير المضاد للماركسية، وللحيوانية، قد أخذ يبدو كظاهرة عامة في الفكر الأوربي نفسه، بينما هم يتعبدون لمادية وجدلية الفكر الماركسي ومشتقاته! ولنشوء وارتقاء دارون ومشتقاته! إنهم "رجعيون" يزعمون أنهم "تقدميون"! بينما "التقدمية" الحقيقية اليوم تجد نفسها مضطرة أن تعود إلى الدين. تتطلب عنده الطمأنينة والراحة واليقين. بعد الحيرة والقلق والشرود خلال ثلاثة قرون!

ونحن الذين وقانا الله شر تلك الملابسات التاريخية التي شردت الفكر الغربي في مجاهل التيه.. نكون أحمق الحمقى إذا نحن شردنا في التيه مختارين بدون عذر ولا سبب ولا ملابسة من ملابسات التاريخ!

ولا نكون مضيعين لأنفسنا في التيه فحسب، بل نكون مضيعين للبشرية كلها، حين نُفقدها المثابة الثابتة، التي يمكن أن تفئ إليها ذات يوم. فنجد عندها الأمن والطمأنينة والاستقرار، بعد طول الشرود والقلق والعثار.

فلنقدر تبعتنا الخطيرة تجاه أنفسنا وتجاه البشرية كلها في هذا الأمر الخطير.

* * *

الشُّمُول

"وكلّ شيء أحصيناه في إمامٍ مُبين"

والخاصية الثالثة من خصائص التصور الإسلامي هي .. الشمول .. وهي كذلك ناشئة من طبيعة الخاصية الأولى: خاصية أنه رباني، من صنع الله لا من صنع الإنسان.. والشمول طابع الصنعة الإلهية الأصيل!

فالإنسان لأنه أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان .. إذ هو حادث زمن، يبدأ بعد عدم، وينتهي بعد حدوث. ومتحيز في مكان، سواء كان فرداً أو كان جيلاً أو كان جنساً، لا يوجد إلا في مكان، ولا ينطلق وراء المكان – كما أنه لا يوجد إلا في زمان ولا ينطلق وراء الزمان – ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك .. يبدأ علمه بعد حدوثه، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كينونته في الزمان والمكان، وحدود وظيفته كذلك –كما أسلفنا– ولأنه فوق أنه محدود الكينونة – بهذه الاعتبارات كلها– محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته – فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله...

الإنسان وهذه ظروفه، حينما يفكر في إنشاء تصور اعتقادي من ذات نفسه، أو في إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك، يجئ تفكيره محكوماً بهذه السمة التي تحكم كينونته كلها .. يجئ تفكيره جزئياً .. يصلح لزمان ولا يصلح لآخر. ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر. ويصلح لحال ولا يصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر .. فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه .. لأنه هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان، وممتدة في الأسباب والعلل، وراء كينونة الإنسان ذاته، ومجال إدراكه .. وذلك كله فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان!

وكذلك لا يمكن أن تجئ فكرة بشرية، ولا أن تجئ منهج من صنع البشرية يتمثل فيه "الشمول" أبداً .. إنما هو تفكير جزئي. وتفكير وقتي. ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع

الاضطراب الذي يختم التغيير، ويتمثل في الأفكار التي استقل البشر بصنعها، وفي المناهج التي استقل البشر بوضعها دوام "التناقض" أو دوام "الجدل" المتمثل في التاريخ الأوربي!

فأما حين يتولى الله -سبحانه- ذلك كله .. فإن التصور الاعتقادي، وكذلك المنهج الحيوي المنبثق فيه، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصنعة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت .. وهكذا كان "الشمول" خاصية من خواص "التصور الإسلامي".

وتتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها هذا التصور في صور شتى:

إحدى هذه الصور وأكبرها: رد هذا الوجود كله .. بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه .. إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة .. هذه الذات. المريدة، القادرة، المطلقة المشيئة، المبدعة لهذا الكون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقة، وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور. بقدر خاص .. وكل انبثاق وليد ..

وهذه هي حقيقة "التوحيد" الكبيرة، التي هي المقوّم الأول للتصور الإسلامي .. وتقرير هذه الحقيقة يشغل مساحة واسعة من القرآن الكريم. لا نملك أن نستعرضها هنا. فسيجئ بعضها عند ذكر خاصية "الإيجابية" في هذا القسم. كما سيجئ بعضها الآخر عند ذكر خاصية التوحيد في نهاية هذا القسم من البحث. ثم يجئ التفصيل الكامل بوصفها المقوّم الأول من مقوّمات التصور الإسلامي، في القسم الثاني من هذا البحث الخاص بالمقومات. فنكتفي هنا بتقدير قيمة هذه الخاصية:

إن هذا التصور – عن طريق خاصية الشمول في صورتها هذه – يملك أن يعطينا تفسيراً مفهوماً. لوجود هذا الكون ابتداء. ثم لكل حركة فيه بعد ذلك وكل انبثاقة ... ويعطينا -على الأخص- تفسيراً مفهوماً لانبثاق ظاهرة "الحياة" في المادة الصماء. وهي بدون شك شيء آخر غير المادة الصماء. شئ هائل. وشئ عجيب. وشئ مقصود. وبين خصائصه المادة الصماء من الأبعاد، ما يلي مباشرة ما بين العدم والوجود من الأبعاد.

إن هذا الكون يواجه الكينونة الإنسانية ابتداء بوجوده! ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا الوجود. ثم يواجهها بتناسقه وتوازنه وموافقاته العجيبة – التي يستحيل أن تأتي بها المصادفة- فللمصادفة كذلك قانون يستحيل معه أن تتجمع هذه الموافقات كلها مصادفة[1]. ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا التناسق والتوازن والموافقات العجيبة!...

والحياة – كذلك تواجه الكينونة الإنسانية بعلامات استفهام كثيرة، لا تقل –إن لم تزد عمقاً- عن علامات الاستفهام التي يثيرها الكون بوجوده وبتناسقه:

هذه الحياة كيف انبثقت في المادة الميتة؟ وكيف سارت –وتسير- سيرتها هذه العجيبة المحوطة بآلاف الموافقات والموازنات والتقديرات المرسومة المحسوبة بهذا الحساب الدقيق؟

إن التصور الإسلامي هو –وحده- الذي يملك أن يقدم لنا التفسير المفهوم لكل هذه الموافقات في "تصميم الكون". هو الذي يملك أن يقدم لنا تفسيراً نواجه به كل علامة استفهام عن وجود هذا الكون ابتداء، وعن كل انبثاقة تقع فيه. كما أنه هو الذي يملك أن يفسر لنا سر انبثاق الحياة في المادة الميتة، وسر سيرتها هذه السيرة العجيبة. دون أن نضطر إلى الهروب من سؤال واحد، أو إلى المماحكة والمماحلة والإحلالة إلى جهات غير محددة المفهوم – كالإحالة إلى الطبيعة!

إن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشري. فكيف وجد هذا العالم؟ كيف وجدت هذه "الطبيعة" إن كانوا يعنون بها الوجود المادي؟ كيف يعبر العقل البشري هذه المسافة الهائلة إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة، التي تقول للشيء: كن فيكون؟ إنه إذا لم يعترف بهذه الإرادة المبدعة عجز تماماً عن التعليل والتفسير. أو تخبط تخبط الفلاسفة في شتى العصور!

(1) راجع فصل "المصادفة" في كتاب: "العلم يدعو إلى الإيمان" تأليف: ا. كريسي موريسون وترجمة محمود صالح الفلكي ص191-194 من الترجمة العربية طبعة مكتبة النهضة: الطبعة الأولى.

والمسافة بين المادة الجامدة والخلية الحية تلي المسافة التي بين الوجود والعدم. إنها كذلك مسافة هائلة لا يعبرها العقل البشري إلا بالإحالة على تلك الإرادة المبدعة، التي تنشئ ما تريد إنشاء، وتبدعه إبداعاً. إرادة الله "الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

والعقل البشري، والكينونة البشرية كلها تجد في هذا الجواب ما يريح. لأنه مفر من أن تجئ الحياة إلى المادة الميتة من مصدر آخر غير المادة الميتة الفاقدة للحياة. ففاقد الشيء لا يعطيه. ولا يمكن القول بأن الحياة خاصية من خواص المادة الكامنة فيها .. وإلا فكيف ظلت كامنة فيها ما لا يحصى من السنين، لتظهر في وقت معلوم، دون مدبر وراءها ودون قصد مرسوم؟!

وحسبنا هذه العجالة عن الكون والحياة في هذا الموضع، فسيجئ الكلام المفصل عنها في موضعه في القسم الثاني. ولنعد إلى خاصية الشمول التي نتحدث عنها، والتي تتجلى في رد كل شيء في هذا الكون إلى الله. وشمول إرادته وتدبيره وهيمنته وسلطانه لكل شيء.. فنورد بعض النصوص القرآنية التي ترسم هذه الخاصية:

"**إنا كل شيء خلقناه بقدر**"

(القمر: 49)

"**خلق كل شيء فقدره تقديراً**"

(الفرقان: 2)

"**وكل شيء عنده بمقدار**"

(الرعد: 8)

"**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**"

(طه: 50)

"**إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**".

(النحل: 40)

"إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين".

(الأعراف: 54)

"وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها. ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون".

(يس: 37–40)

"والله خلق كل دابة من ماء. فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع. يخلق الله ما يشاء. إن الله على كل شيء قدير"

(النور: 45)

"وجعلنا من الماء كل شيء حي"

(الأنبياء: 30)

"إن الله فالق الحب والنوى. يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي. ذلك الله، فأنى تؤفكون! فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً. ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً، نخرج منه حباً متراكباً. ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه. انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون".

(الأنعام 95–99)

وحتى الأحداث التي يبدو فيها سبب قريب ظاهر، يعني التصور الإسلامي بردها إلى إرادة اله من وراء الأسباب القريبة.

"ونحن خلقناكم فلولا تصدقون؟ أفرأيتم ما تمنون؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى، فلولا تذكرون! .. أفرأيتم ما تحرثون! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون! إنا لمغرمون! بل نحن محرومون! .. أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن؟ أم نحن المنزلون؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون! .. أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للموقين .. فسبح باسم ربك العظيم"..

(الواقعة: 57-74)

"فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم. وما رميت -إذا رميت- ولكن الله رمى. وليُبلى المؤمنين منه بلاءً حسناً".

(الأنفال: 17)

ولا نملك في هذا الموضع أن نمضي – أكثر من هذا – في تصوير خاصية الشمول في صورتها هذه – صورة التوحيد – فسيجئ تفصيلها في القسم الثاني من الكتاب عند الكلام عن "مقومات التصور الإسلامي" .. فحسبنا هذا المجمل في بيان هذه الخاصية..

وحسبنا أن نقول: إن التصور الإسلامي – عن طريق هذه الخاصية في صورتها هذه- يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة، واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود – كما هي في عالم الحقيقة والواقع – ويعفى الفكر البشري من الضرب في التيه بلا دليل، ومن الإحالة على أسباب غير مضبوطة – وأحياناً غير موجودة- كالإحالة على "الطبيعة"! أو الإحالة على "العقل"! أو الإحالة على كائنات أسطورية كالتي تصورتها الوثنيات، وتلبست بها الفلسفات، على مدار التاريخ.

وذلك كله فضلاً على العنصر الأخلاقي الذي ينشئه هذا التصور ويثبته، في القلب البشري وفي الحياة البشرية. وهو يرد خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله، ورقابته، وهيمنته، وسلطانه (مما سنفصل الحديث عنه في خاصية الإيجابية).

وصورة أخرى من صور خاصية الشمول في التصور الإسلامي .. فهو كما يتحدث عن حقيقة الألوهية وخصائصها وآثارها وصفاتها، باعتبارها الحقيقة الأولى، والحقيقة الكبرى، والحقيقة الأساسية في هذا التصور.. كذلك يتحدث عن حقيقة العبودية وخصائصها وصفاتها. يتحدث عن هذه الحقيقة ممثلة في الكون، والحياة، والإنسان. فيتحدث عن حقيقة الكون، وعن حقيقة الحياة، وعن حقيقة الإنسان، ويتناول – في هذا الحديث– طبيعتها ونشأتها وصفاتها وأحوالها، وعلاقاتها فيما بينها، ثم علاقتها بالحقيقة الإلهية الكبرى.

ويربط بين مجموع تلك الحقائق، من جميع جوانبها، في تصور واحد منطقي فطري، يتعامل مع بديهة الإنسان وفكره ووجدانه، ومع مجموع الكينونة البشرية في يسر وسهولة.

وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة ودقة وتفصيل، وصورة كاملة شاملة، وتفسير جامع مفصل، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر. بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر. لأنه أوسع وأشمل، وأدق وأعمق، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر..

ولقد وقع الفساد في التصور الإسلامي، ووقع التعقيد والتخليط، حينما شاء جماعة ممن عرفوا في التاريخ باسم "فلاسفة الإسلام" أن يستعيروا بعض التصورات الفلسفية الإغريقية، وبعض المصطلحات – وبخاصة من أرسطو وأفلوطين وبعض اللاهوتيين المسيحيين – ويدخلوها في جسم "التصور الإسلامي"!

إن هذا التصور من الشمول والسعة، ومن الدقة والعمق، ومن الأصالة والتناسق بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه، ولو كان هذا العنصر "إصطلاحاً" تعبيرياً من الاصطلاحات التي تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية. فكل اصطلاح له تاريخ معين، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، ولا يمكن تجريده من هذه الملابسات، والزج به في مجال جديد، منقطع عن تاريخه.. وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقة في طبيعة اشتقاقها اللغوي، وفي ملابساتها التاريخية والموضوعية، مع طبيعته وإيحاءاته .. وهذه ظاهرة دقيقة، تحتاج إلى حس لطيف، يدرك مقتضيات هذا التصور في الشعور، ومقتضياته كذلك في التعبير.

إن هذا التصور يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً يعرّفهم بذاته سبحانه، ويعرفهم بصفاته، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة، التي تَفْرِقها تماماً من خصائص العبودية. كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية في الكون، وفي الناس، وفي جميع العوالم والأمم الحية. ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جداً في القرآن الكريم، يصبح معه الوجود الإلهي في النفس البشرية، وجوداً أكيداً واضحاً، موحياً، مؤثراً، يأخذ النفس من أقطارها جميعاً، وتعيش معه النفس مشدودة إليه، لا تملك التفلت منه، ولا نسيانه، ولا إغفاله، لأنه من القوة والوضوح والفاعلية، بحيث يواجه النفس دائماً، ويتراءى لها دائماً، ويؤثر فيها دائماً:

"**الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين**".

(الفاتحة: 2-4)

"**الله لا إله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وسع كرسيه السماوات والأرض. ولا يؤوده حفظهما. وهو العلي العظيم**".

(البقرة: 255)

"**الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام. إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء. لا إله إلا هو العزيز الحكيم**".

(آل عمران: 2-6)

"**قل: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير. إنك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتُخرج الحي من الميت وتُخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب**" (آل عمران: 26-27)

"قل: لمن ما في السماوات والأرض؟ قل: لله. كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم. قل: أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض؟ وهو يُطعم ولا يُطعم. قل؛ إني أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين. قل: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير. وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. قل: أي شيء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل: لا أشهد. قل: إنما هو إله واحد، وإنني برئ ما تشركون"

(الأنعام: 12–19)

"الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه –من أمر الله– إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد لهن وما لهم من دونه من وال. هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون في الله، وهو شديد المحال. له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيْه إلى الماء ليبلغ فاه – وما هو ببالغه– وما دعاء الكافرين إلا في ضلال. ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال. قل: من رب السماوات والأرض؟ قل: الله. قل: أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟ قل: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار". (الرعد: 8–16)

"وله من في السماوات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون! لا يسأل عما يفعل وهم يسألون".

(الأنبياء: 19-23)

"سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. له ملك السماوات والأرض، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السماوات والأرض، وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو عليم بذات الصدور".

(الحديد: 1-6)

... الخ ... الخ ...

ويعرّف الناس بطبيعة الكون الذي يعيشون فيه، وخصائصه، وارتباطه بخالقه، ودلالته على خالقه، واستعداده لنشأة الحياة فيه والأحياء، وتسخيره لهم بإذن الله... الخ. في أسلوب مفهوم للفطرة، مفهوم للعقل، يجد مصداقه في الواقع المحسوس، كما يجد مصداقه في الفطرة المكنونة.. يعرفهم به على نطاق واسع. ويدعوهم لمعرفته، وإدراك ناموسه وأسراره. والتعامل معه معامله صحيحة، ناشئة عن ذلك الإدراك والتعارف والتجاوب:

"الذي جعل لكم الأرض فراشاً. والسماء بناءً. وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم. فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون".

(البقرة: 22)

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون".

(الأنعام:1)

"الله الذي رفع السماوات والأرض بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".

(الرعد: 2-4)

"هو الذي أنزل من السماء ماء، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه. إن في ذلك لآية لقوم يذّكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرّياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون. أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفلا تذكرون؟".

(النحل: 10-17)

"أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً. لعلهم يهتدون. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون".

(الأنبياء: 30-33)

"ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. إن الله بالناس لرؤوف رحيم".

(الحج: 65)

"ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق، وما كنا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السماء ماء بقدر، فأسكناه في الأرض، وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب، لكم فيها فواكه كثيرة، ومنها تأكلون... ".

(المؤمنون: 17-19)

"ألم تر أن اله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى الودق يخرج من خلاله؟ وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، يكاد سنى برقه يذهب بالأبصار. يقلب الله الليل والنهار. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار".

(النور: 43-44)

"ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً؟ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً. وهو الذي جعل لكم الليل لباساً، والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً. وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً. لنحيي به بلدة ميتاً، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً".

(الفرقان: 45-49)

"وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون؟ سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون".

(يس: 33-40)

"قل: أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض يومين، وتجعلون له أنداداً. ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء، وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا: أتينا طائعين.

فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدر العزيز العليم".

(فصلت: 9-12)

"**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها، ومالها من فروج. والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج**"

(ق: 6-11)

... الخ ... الخ ...

ويحدثهم عن الحياة والأحياء. فيعرفهم مصدر الحياة ومصدر الأحياء، وشيئاً من خصائصها كذلك، بالقدر الذي تسمح مدارك البشر بمعرفته. ويعقد بينهم وبين الأحياء جميعاً آسرة العبودية لله، ووشيجة القرابة في خلقهم كلهم بإرادته، وفي اشتراكهم في بعض الخصائص، التي تشير إلى الإرادة الواحدة المبدعة، وإلى الصنعة الواحدة البارزة. ويذكرهم بنعمة الله عليهم في تسخير الكثير من هذه الأحياء لهم.

"**وجعلنا من الماء كل شيء حي".**

(الأنبياء: 30)

"**والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع. يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير".**

(النور: 45)

"**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء".**

(الأنعام: 38)

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين".

(هود: 6)

"وكأي من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم ... ".

(العنكبوت: 60)

"... وترى الأرض هامدة. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج".

(الحج: 5)

"يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون".

(الروم: 19)

"وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون؟ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تُنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون".

(يس: 33-36)

"فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً، يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

(الشورى: 11)

"والذي نّزل من السماء ماء بقدر، فأنشرنا به بلدة ميتاً، كذلك تخرجون، والذي خلق الأزواج كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين".

(الزخرف: 11-13)

" فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنّا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فهيا حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهة وأبّاً. متاعاً لكم ولأنعامكم".

(عبس: 24–32)

"سبح اسم ربك الأعلى.. الذي خلق فسوى. والذي قدّر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى".

(الأعلى: 1–5)

"ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة، والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون".

(النحل: 49–50)

"ألم تر أن الله يُسبح له ما في السماوات والأرض، والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون".

(النور: 41)

... الخ ... الخ ...

ويحدثهم عن الإنسان حديثاً مستفيضاً، يتناول مصدره ومنشأه، وطبيعته وخصائصه، ومركزه في هذا الوجود، وغاية وجوده، وعبوديته لربه ومقتضيات هذه العبودية. ثم نواحي ضعفه وقوته، وواجباته وتكاليفه. وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياته في هذه الأرض، ومآله في العالم الآخر.

ولما لم يكن قصدنا في هذه الفقرة إلا بيان خاصية الشمول في التصور القرآني، لا بيان حقائق هذا التصور ومقوماته – فهذه لها مكانها في القسم الثاني من الكتاب – فإننا نكتفي بإثبات بعض الآيات عن حقيقة الإنسان – كما أثبتنا بعض الآيات عن حقيقة الإنسان – كما أثبتنا بعض الآيات عن الحقيقة الإلهية، وعن حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، مرجئين الحديث المفصل عنها إلى موضعه في القسم الثاني عن "مقومات التصور الإسلامي".

"ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم. وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين".

(الحجر: 26-31)

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون".

(المؤمنون: 12-16)

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

(الذاريات: 56-58)

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون".

(البقرة: 30)

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً".

(الإسراء: 70)

"قلنا اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدى. فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

(البقرة: 38-39)

"والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر". (سورة العصر)

"ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد".

(ق: 16)

"لقد خلقنا الإنسان في كبد".

(البلد: 4)

"أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين؟!".

(يس: 77)

"وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً!"

(الكهف: 54)

"إن الإنسان خلق هلوعاً. إذ مسه الشر جزوعاً. وإذ مسه الخير منوعاً إلا المصلين...".

(المعارج: 19-22)

"يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً".

(النساء: 28)

"وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً. فلما كشفنا عنه ضره مر كان لم يدعنا إلى ضر مسه!... ".

(يونس: 12)

"ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه، إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن: ذهب السيئات عني. إنه لفرح فخور".

(هود: 9-10)

"ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير. وكان الإنسان عجولاً".

(الإسراء: 11)

"كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى".

(العلق: 6-7)

"ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها".

(الشمس: 7–10)

"لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون".

(التين: 4–6)

وهكذا يجد الإنسان من كثرة النصوص القرآنية وتنوعها حول هذه الحقائق الأساسية ما يشعره بالقصد إلى بيانها وتحديدها، والتوسع فيها، لتكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامي المستقل، الذي يستمد لبناته –كما يستمد تصميمه– من المصدر الرباني المضبوط، الموثوق بصحتهن وبعلمه وخبرتهن فيغنى كامل عن الاستمداد من أي مصدر آخر جزئي المعرفة ظنيّ المعرفة، يضرب في التيه بلا دليل!

وصورة ثالثة من صور الشمول في التصور الإسلامي. فهو إذ يرد أمر الكون كله. وأمر الحياة والأحياء، وأمر الإنسان والأشياء.. إلى إرادة واحدة شاملة.. وإذا يتناول الحقائق الكلية كلها: حقيقة الألوهية – الحقيقة الأولى والكبرى والأساسية– وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، بمثل ذلك الشمول الذي أشرنا إليه ..

هذا التصور إذا يتناول الأمور على هذا النحو الشامل –بكل معاني الشمول– يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وكل اتجاهاتها. ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها. جهة واحدة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها بكل شيء. جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقي غضبها وتبغي رضاها. جهة واحدة تملك لها كل شيء، لأنها خالقة كل شيء، ومالكة كل شيء، ومدبرة كل شيء..

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها، وشرائعها وقوانينها. وتجد إجابة على كل سؤال يجيش فيها، وهي تواجه الكون والحياة والإنسان، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام..

عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة. في شأن العقيدة والمنهج. وشأن الاستمداد والتلقي. وشأن الحياة والموت. وشأن السعي والحركة. وشأن الصحة والرزق. وشأن الدنيا والآخرة. فلا تتفرق مزقاً، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق!

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو، تصبح في خير حالاتها، لأنها تكون حينئذ في حالة "الوحدة" التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها.. فالوحدة هي حقيقة الخالق –سبحانه– والوحدة هي حقيقة هذا الكون –على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال– والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء– على تنوع الأجناس والأنواع –والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات– والوحدة هي غاية الوجود الإنساني –وهي العبادة– على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها– وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود ..

وحين تكون الكينونة الإنسانية في الوضع الذي يطابق "الحقيقة" في كل مجالاتها، تكون في أوج قوتها الذاتية، وفي أوج تناسقها –كذلك– مع "حقيقة" هذا الكون الذي تعيش فيه، وتتعامل معه، ومع "حقيقة" كل شيء في هذا الوجود، مما تؤثر فيه وتتأثر به .. وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار، وأن تؤدي أعظم الأدوار.

وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدواراً، عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كتاب التاريخ الإنساني..

وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى – وهي لابد كائنة بإذن الله– سيصنع الله بها الكثير. مهما يكن في طريقها من العراقيل. ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم: لأنها من صميم قوة هذا الكون، وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً..

ومن مظاهر ذلك التجمع في الكينونة الإنسانية، أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني .. العبادة .. العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شؤون الخلافة..

وهذا التجمع النفسي والحركي هو ميزة الإسلام الكبرى. بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني. ففي الإسلام – وحده– يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين، في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض، وفي تدبير أمر الرزق. ولا يتطلب منه هذا إلا أمراً واحداً: أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي خالجة، وكل عمل وكل نية، وكل نشاط وكل اتجاه. مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة، التي تشمل كل طيبات الحياة.. فالله خلق الإنسان بكل طاقاته لتنشط كلها، وتعمل كلها، وتؤدي دورها.. ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة، يحقق الإنسان غاية وجوده، في راحة ويسر، وفي طمأنينة وسلام، وفي حرية كاملة منشئوها العبودية لله وحده.

وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملاً. منهجاً يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة – لا بدون تعارض بينهما– بل في ترابط وتداخل يعز فصله، لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين، ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى "عبادات" و "معاملات" مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة "الفقه". ومع انه كان المقصود به –في أول الأمر– مجرد التقسيم "الفني"، الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه –مع الأسف– أنشأ فيما بعد آثار سيئة في التصور، تبعته – بعد فترة – آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة "العبادة" إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله "فقه العبادات". بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط، الذي يتناوله "فقه المعاملات"! وهو انحراف بالتصور الإسلامي لاشك فيه. فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي.

ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة. أو يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة، أولاً وأخيراً.

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم، ونظام الاقتصاد والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية وتشريعات الأسرة.. وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج...

ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى "العبادة" في حياة الإنسان .. والنشاط الإنساني لا يكون متصفاً بهذا الوصف، محققاً لهذه الغاية – التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني – إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله –سبحانه– بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية.. وإلا فهو خروج عن العبادة. لأنه خروج عن العبودية. أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله. أي خروج عن دين الله!

وأنواع النشاط التي أطلق عليها "الفقهاء" اسم "العبادات" وخصوصاً بهذه الصفة – على غير مفهوم التصور الإسلامي – حين تراجع مواضعها في القرآن تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها. وهي أنها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم "المعاملات" .. إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ومرتبطة في المنهج التوجيهي. باعتبار هذه كتلك شطراً من منهج "العبادة" التي هي غاية الوجود الإنساني. وتحقيقاً لمعنى العبودية، ومعنى إفراد الله – سبحانه– بالألوهية.

إن ذلك التقسيم –مع مرور الزمن– جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا "مسلمين" إذا هم أدوا نشاط "العبادات" –وفق أحكام الإسلام– بينما هم يزالون كل نشاط "المعاملات" وفق منهج آخر. لا يتلقونه من الله. ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة، ما لم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير. فالإسلام وحدة لا تنفصم. وكل من يفصمه إلى شطرين – على هذا النحو– فإنما يخرج من هذه الوحدة. أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين..

وهذه هي الحقيقة الكبيرة، التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، ويريد في الوقت ذاته، أن يحقق غاية وجوده الإنساني.

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني – وإن كل هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة، يقوم عليها بناء الحياة كله – بل إن أهميتها تتجلى كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق. فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها –صغر أم كبر– جزءاً من هذه

العبادة، أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامل فيه، وهو إفراد الله – سبحانه- بالألوهية، والإقرار له وحده بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه. وهو المقام الذي تلقى الوحي من الله. وحالة الإسراء والمعراج أيضاً:

"تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً".

(سورة الفرقان:1)

"سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حولهن لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير".

(الإسراء: 1)

ويتحدث الأستاذ المهتدي محمد أسد (ليوبولدفايس) في كتابه: "الإسلام على مفترق الطرق" حديثاً دقيقاً عن الفرق بين التصور الإسلامي والتصورات الأخرى في هذا الشأن، وعن أثر ذلك التصور في الشعور بجدية الحياة وأهمية كل حركة فيها، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الإنسان أقصى درجات الكمال الإنساني في هذه الحياة الدنيا. فيقول في فصل بعنوان: "سبيل الإسلام":

"يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر[1] .. إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص، كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول "كل" حياة الإنسان العملية أيضاً. وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم "عبادة الله" فيلزمنا حينئذ، ضرورة، أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها على أنها تبعة أدبية، متعددة النواحي، وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها -حتى تلك التي تظهر تافهة- على أنها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله. تلك حال ينظر إليها

(1) هو يقصد الأديان في صورتها التي صارت إليها وإلا فإن دين الله كله واحد في أساسه. وفي اعتبار العبادة لله بمعنى العبودية له في كل شيء، وإفراده بالألوهية، والتوجه إليه بكل نشاط.

الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟

"إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل. إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى الحياة نفسها. ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية، وحياتنا المادية.. يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا، لتكون "كلاًّ" واحداً متسقاً .. إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.

"هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه. هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة. ذلك أن الإسلام –على أنه تعليم– لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلاة المتعلقة بما وراء الطبيعة. فيما بين المرء وخالقه فقط. ولكن يعرض أيضاً –بمثل هذا التوكيد على الأقل– للصلاة الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية .. إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة، التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معنى ما. ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها. والله تعالى "وحده" لا في جوهره فحسب. بل في الغاية إليه أيضاً.. من أجل ذلك كان خلقه وحده، ربما في جوهره، إلا أنه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد.

"وعبادة الله في أوسع معانيها –كما شرحنا آنفاً– تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية .. هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال – في إطار حياته الدنيوية الفردية– ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام –وحده– يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا .. إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات "الجسدية"، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من "تناسخ الأرواح" على مراتب متدرجة – كما هو الحال في الهندوكية – ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم .. كلا. إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ

الكمال في حياته الدنيا الفردية. وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو"[1].

وبعد فإن هذا الشمول –بكل صوره– فوق أنه مريح للفطرة البشرية، لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة، ولا يكلفها عنتاً، ولا يفرقها مزقاً.. هو في الوقت ذاته يعصمها من الاتجاه لغير الله في أي شأن وفي أية لحظة، أو قبول أية سيطرة تستعلي عليها بغير سلطان الله، وفي حدود منهج الله وشريعته. في أي جانب من جوانب الحياة. فليس الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده في أمر "العبادات" الفردية، ولا في أمر الآخرة –وحدهما – بل الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده، في الدنيا والآخرة. في السماوات والأرض. في عالم الغيب وعالم الشهادة. في العمل والصلاة.. وفي كل نَفَس، وكل حركة، وكل خالجة، وكل خطوة، وكل اتجاه:

"**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله** ... ".

(الزخرف: 84)

* * *

(1) الإسلام على مفترق الطرق ص21–23 من الترجمة العربية بقلم الدكتور عمر فروخ.

التوازن

"ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت"

والخاصية الرابعة في هذا التصور هي .. التوازن .. التوازن في مقوماته، والتوازن في إيحاءاته. وهي تتصل بخاصية "الشمول" التي سبق الحديث عنها. فهو تصور شامل. وهو شمول متوازن.

وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. سوءا التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أو أوّلته تأويلاً خاطئاً، وأضافت هذا التأويل الخاطئ إلى صلب العقيدة

وتتمثل هذه الخاصية في عدة موازنات، نذكر منها أبرزها:

هناك التوازن بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به، وينتهي عملها فيه عند التسليم، والجانب الذي تتلقاه لتدركه، وتبحث حججه وبراهينه، وتحاول معرفة علله وغاياته وتفكر في مقتضياته العملية، وتطبقها في حياتها الواقعية.

والفطرة البشرية تستريح لهذا ولهذا، لأن كليهما يلبي فيها جانباً أصيلاً، مودعاً فيها وهي تخرج من يد بارئها. وقد علم الله أن الإدراك البشري لن يتسع لكل أسرار هذا الوجود، ولن يقوى على إدراكها كلها، فأودع فطرته الارتياح للمجهول، والارتياح للمعلوم، والتوازن بين هذا وذاك في كيانها، كالتوازن بين هذا وذاك في صميم الوجود.

إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها، وأشواقها الخفية إلى المجهول، المستتر وراء الحجب المسدلة .. كما أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعمّيات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة! فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي. والفكر الإنساني لا بد أن يتلقى شيئاً

مفهوماً له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه.. والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة، وهي تجد في العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق.

فإذا كانت ماهية الذات الإلهية. وكيفية تعلق إرادة الله بالخلق وحقيقة الروح .. من الحقائق التي لا سبيل إلى الإحاطة بها –كما أسلفنا–[1]فهناك خصائص الذات الإلهية: من وجود، ووحدانية، وقدرة، وإرادة، وخلق، وتدبير ... وكلها مما يعمل الفكر البشري في إدراكه، ومما يستطيع أن يدرك ضرورته ومقتضياته في الوجود. والإسلام يعرض هذه الخصائص ببراهينها المقنعة.. وهناك "الكون" وحقيقته، ومصدر وجوده، وعلاقته بخالقه، وعبوديته له، واستعداده لاستقبال الحياة، وعلاقته بالإنسان وعلاقة الإنسان به.. وهناك "الحياة" بشتى أنواعها وأجناسها وأشكالها ودرجاتها، ومصدرها، وعلاقتها بطبيعة الكون، وعلاقتها بمبدعه ومبدعها.. وهناك "الإنسان" وحقيقته، وخصائصه ومصدره، وغاية وجوده، ومنهج حياته.. وكلها ترد في منطق مفهوم واضح، مريح للعقل والقلب. مدعم بالبراهين التي تتلقاها الفطرة بالقبول والتسليم:

"**أم خُلِقُوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خَلَقُوا السماوات والأرض؟ بل لا يوقنون**".

(الطور: 35–36)

"**أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون! لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل: هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معي وذكر من قبلي. بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**".

(الأنبياء: 21–24)

"**أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون**".

(يس: 81، 82)

---

(1) راجع خاصية: "الربانية" ص43.

"وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه. قال: من يحي العظام وهي رميم؟ قل: يحيها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم".

(يس: 78، 79)

"أم من خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها! أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون! أم من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون! أم من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكّرون! أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون! أم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين".

(النمل: 60-64)

"ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون".

(الروم: 20-25)

وهكذا وهكذا من الحجج الملزمة، والآيات المعروضة في الأنفس والآفاق، وهي معروضة للنظر والتدبر، كما أنها معروضة للبرهنة والحجة.. والإدراك البشري مطلق للنظر فيها، والتلقي عنها، ومناقشة حجيتها على القضايا المسوقة لإثباتها .. وكلها في دائرة النظر، وفي مستوى الإدراك.

وهكذا تجد الفطرة البشرية في التصور الإسلامي ما يلبي أشواقها كلها: من معلوم ومجهول، ومن غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب. ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاءه جلال الخالق الكبير، ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون وكرامته على الله.

وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذلك، وهي تؤمن بالمجهول الكبير، وهي تتدبر المعلوم الكبير..

والتوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية.. فالمشيئة الإلهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة. وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه. وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد:

"**إنما قولنا لشيء –إذا أردناه– أن نقول له: كن. فيكون**".

(النحل: 40)

"**قال: رب أنّى يكون لي غلام، وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟ قال: كذلك الله يفعل ما يشاء**".

(آل عمران: 40)

"**قالت: رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن. فيكون**".

(آل عمران: 47)

"**وامرأته قائمة فضحكت. فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً؟ إن هذا لشيء عجيب! قالوا: أتعجبين من أمر الله؟**".

(هود: 71–73)

"**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون. الحق من ربك، فلا تكن من الممترين**". (آل عمران: 59–60)

"ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم: أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيراً -بإذن الله- وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى -بإذن الله- وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم، إن كنتم مؤمنين".

(آل عمران: 49)

"أو كالذي مرّ على قرية – وهي خاوية على عروشها- قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه. قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام! فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه. وانظر إلى حمارك -ولنجعلك آية للناس- وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً. فلما تبين له، قال: أعلمُ أن الله على كل شيء قدير".

(البقرة: 259)

"قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين".

(الأنبياء: 68-70)

"فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون. قال: كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم".

(الشعراء: 61-63)

"... لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً"

(الطلاق: 1)

وهكذا. وهكذا. مما يقرر طلاقة المشيئة الإلهية، وعدم تقيدها بقيد ما، مما يخطر على الفكر البشري، مما يحسبه قانوناً لازما، وحتمية لا فكاك منها..

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبدى للناس – عادة – في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة الله – مع هذا- طليقة،

تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جارياً على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة. فسنّة كذلك –وراء السنن كلها– أن هذه المشيئة مطلقة، مهما تجلت في نواميس مطردة وسنن جارية – ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها، والنظر في مآلاتها – بقدر ما يملك الإدراك البشري– والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعة:

"**قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق. فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر**".

(البقرة: 258)

"**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار**".

(يس: 40)

"**سنة الله في الذين خلوا من قبلن ولن تجد لسنة الله تبديلاً**".

(الأحزاب: 62)

"**قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**".

(آل عمران: 137)

"**أو لم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون!**"

(السجدة: 26)

"**ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا. وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**".

(الروم: 47)

"**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا. كذلك نجزي القوم المجرمين**".

(يونس: 13)

"**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا، فأخذنهم بما كانوا يكسبون**"

(الأعراف: 96)

وبين ثبات السنن وطلاقة المشيئة، يقف الضمير البشري على ارض ثابتة مستقرة، يعمل فيها، وهو يعلم طبيعة الأرض، وطبيعة الطريق، وغاية السعي، وجزاء الحركة. ويتعرف إلى نواميس الكون، وسنن الحياة، وطاقات الأرض، وينتفع بها وبتجاربه الثابتة فيها منهج علمي ثابت. وفي الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله، معلق القلب بمشيئته لا يستكثر عليها شيئاً، ولا يستبعد عليها شيئاً، ولا ييئس أمام ضغط الواقع أبداً. يعيش طليق التصور، غير محصور في قوالب حديدية، يضع فيها نفسه، ويتصور أن مشيئة الله –سبحانه– محصورة فيها! وهكذا لا يتبلد حسه، ولا يضمُر رجاؤه، ولا يعيش في إلف مكرور!

والمسلم يأخذ بالأسباب، لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة، لأنه مأمور بمراعاتها. لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج. فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب، بعد أداء واجبه في الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب .. طاعة لأمر الله.

وهكذا ينتفع المسلم بثبات السنن في بناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية، في التعامل مع الكون وأسراره وطاقاته ومدخراته. فلا يفوته شيء من مزايا العلوم التجريبية والطرائق العملية. وهو في الوقت ذاته موصول القلب بالله، حي القلب بهذا الاتصال. موصول الضمير بالمشاعر الأدبية الأخلاقية، التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وتسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى الكمال المقدر لها في الأرض، وفي حدود طاقة الإنسان.

والتوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة.. وهي القضية المشهورة في تاريخ الجدل في العالم كله، وفي المعتقدات كلها، وفي الفلسفات والوثنيات كذلك باسم قضية "القضاء والقدر" أو الجبر والاختيار.

والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة –كما أسلفنا– ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها، ولا معها – كما بيّنا ذلك في خاصية الشمول وكما سيجئ في خاصية الإيجابية – وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية، الإيجابية – كما سنفصل ذلك في خاصية "الإيجابية" – ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها. وهو دور ضخم، يعطي الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير. ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية، من وراء الأسباب الظاهرة. وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة. وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء، وإرادته وعمله، وحركته ونشاطه، داخل في نطاق المشيئة الطليقة، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه (على نحو ما سنفصل في خاصية "الإيجابية").

ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم:

"ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير".

(الحديد: 22)

"قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون"

(التوبة: 51)

"وإن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله. وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل: كل من عند الله. فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً".

(النساء: 78)

"قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم".

(آل عمران: 154)

"أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم في بروج مشيدة".

(النساء: 78)

ويقرأ كذلك في الجانب الآخر:

"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

(الرعد: 11)

"ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

(الأنفال: 53)

"بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره".

"ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها".

(الشمس: 7–10)

"ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه".

(النساء: 111)

ثم يقرأ بعد هذا وذلك:

"كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره. وما يذكرون إلا أن يشاء الله، هو أهل التقوى وأهل المغفرة".

(المدثر: 54–56)

"إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا. وما تشاءون إلا أن يشاء الله".

(الإنسان: 29–30)

"أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنّى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله".

(آل عمران: 165–166)

يقرأ الإنسان أمثال هذه المجموعات المنوعة الثلاثة، فيدرك منها سعة مفهوم "القدر" في التصور الإسلامي، مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط.

لقد ضربت الفلسفات والعقائد المحرفة في التيه -في هذه القضية- ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط. بما في ذلك من خاضوا في هذه القضية من متكلمي المسلمين أنفسهم.. ذلك أنهم قلدوا منهج الفلسفة الإغريقية، أكثر مما تأثروا بالمنهج الإسلامي، في علاج هذه القضية.

في التصور الإسلامي ليست هناك "مشكلة" في الحقيقة، حين يواجَه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه:

إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء .. وهو الذي يصّرف حياة الناس ويكيّفها. شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله.. كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر .. ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم، وما يحدثون فيها من تغييرات.

"**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**".

(الرعد: 11)

وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة، لا يبطل هذا ولا يعطله. فالأمران يجيئان مجتمعين أحياناً في النص القرآني الواحد، كما رأينا في المجموعة الثالثة من هذه النماذج.

ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض، حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا، عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى، وحركة الإنسان في نطاقها. إلا أن المنهج الصحيح: هو ألا نستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة. بل أن نستمد من النصوص مقرراتنا العقلية في مثل هذه الموضوعات، وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الإلهية، في مجال الذي لا دليل لنا فيه، غير ما يطلعنا الله عليه منه ..

فهو قال: "فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً" .. وهو قال: "وما يشاءون إلا أن يشاء الله" .. وهو قال: "**بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**" .. **وهو قال: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء**". (الأنعام: 125)

وهو قال في الوقت نفسه: "**وما ربك بظلام للعبيد**".

(فصلت: 46)

فلا بد إذن – وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه، وشمول مشيئته وقدره – من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث.

كيف؟

كيفيات فعل الله كلها، وكيفيات اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشاؤه كلها.. ليس في مقدور العقل البشري إدراكها. والتصور الإسلامي يشير بتركها للعمل المطلق، والتدبير المطلق – مع الطمأنينة إلى تقدير الله وعدله ورحمته وفضله – فالتفكير البشري المحدود بحدود الزمان والمكان، وبالتأثرات الوقتية والذاتية، ليس هو الذي يدرك مثل هذه النّسَب وهذه الكيفيات، وليس هو الذي يحكم في العلاقات والارتباطات بين المشيئة الإلهية والنشاط الإنساني. إنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة المحيطة والعلم المطلق الكامل .. متروك لله الذي يعلم حقيقة الإنسان، وتركيب كينونته، وطاقات فطرته وعمله الحقيقي، ومدى ما فيه من الاختيار، في نطاق المشيئة المحيطة. ومدى ما يترتب على هذا القدر من الاختيار من جزاء.

وبهذا وحده يقع التوازن في التصور، والتوازن في الشعور، والاطمئنان إلى الحركة وفق منهج الله، والتطلع معها إلى حسن المصير.

كذلك الحال فيما يسمونه: "مشكلة الشر والألم".

ليست هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر.

إن الإسلام يقول: إن الدنيا دار ابتلاء وعمل. وإن الآخرة دار حساب وجزاء. والحياة في هذه الأرض مرحلة محدودة في الرحلة الطويلة. وما يقع للإنسان في هذه الأرض ليس خاتمة

الحساب ولا نهاية المطاف. إنما هو مقدمة لها ما بعدها. واختبار تقدر له درجته هناك في دار الحساب.

بهذا يحل الإسلام الجانب الشعوري من هذه المشكلة في الضمير البشري، ويكسب فيه الطمأنينة والاستقرار. فالألم الذي يلقاه الخيّر في هذه الأرض من جراء وجود الشر والنقص فيها، ليس هو كل نصيبه، فهناك النصيب الذي يعادل بين كفتي الميزان في شطري الرحلة، والشطران موصولان. تسيطر عليهما إرادة واحدة. ويحكم فيهما حكم واحد لا يند عن علمه شيء ولا يختل في ميزانه شيء!

ثم هو يخاطب الحقيقة الشعورية التي يجدها الإنسان في أعمال ضميره ... وهي أن شعور المؤمن الخيّر الذي يحقق منهج الله في حياته، ويجاهد لتحقيقه في حياة البشر، يجد – وهو يعاني الألم من جانب الشر والأشرار – شعوراً مكافئاً من الرضى والسعادة في هذه الدنيا، قبل أن يجد جزاءه المدخر له في الآخرة. شعوراً ناشئاً عن إحساسه بأنه يرضى الله فيما يفعل، وأن الله يرضى عن جهاده الخيّر ... وهي شهادة من ذات البنية الحية، ومن طبيعة الفطرة البشرية، على أن الله جعل التكوين الفطري للإنسان، يجد جزاءه الحاضر في كفاح الشر والباطل، ونصرة الخير والحق، وأن له من التذاذة الكفاح في هذا الطريق، جزاء ذاتياً من كيانه الداخلي، في ذات اللحظة التي يتحمل فيها الألم، وهو يواجه الشر والباطل، ويكافحهما ما استطاع. وأن العوض كامن في ذات الفطرة وفي الاطمئنان إلى حسن الجزاء في الدنيا والآخرة. ولهذا الاطمئنان أثره حتى قبل يوم الحساب الختامي في دار الحساب.

"الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

(الرعد: 28)

"أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين".

(الزمر: 22)

"إن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم".

(فصلت: 30–32)

"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين".

(آل عمران: 139)

"قل: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا. فتربصوا إنا معكم متربصون".

(التوبة: 52)

أما وجود الشر في ذاته، وما ينشأ عنه من الألم في كل صورة. ولماذا يوجد، والله قادر على ألا يوجده ابتداء، ولو شاء لهدى الناس جميعاً، ولو شاء لخلق الناس كلهم مهتدين ابتداء ؟؟؟ أما هذا السؤال فلا موضع له البتة في التصور الإسلامي!

إن الله قادر طبعاً على تبديل فطرة الإنسان – عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه – أو خلقه بفطرة أخرى. ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة وأن يخلق الكون على هذا النحو الذي نراه. وليس لأحد من خلقه أن يسأله لماذا شاء هذا؟ لأن أحداً من خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلم والإدراك – ولا إمكان العلم والإدراك –للنظام الكلي للكون. ولمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود، وللحكمة الكامنة في خلقه كل كائن بطبيعته التي خلق عليها.

والله وحده هو الذي يعلم، لنه وحده هو الذي خلق الكون ومن فيه وما فيه، وهو وحده الذي يرى ما هو خير فينشئه ويبقيه، وهو وحده الذي يقدر أحسن وضع للخلق فينشئه فيه:

"فتبارك الله أحسن الخالقين".

(المؤمنون: 14)

"الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

(طه: 50)

"ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون".

(المائدة: 48)

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولكن الله ذو فضل على العالمين".

(البقرة: 251)

"ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون".

(الأنبياء: 35)

"ولماذا، -في هذا المقام- سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد .. المؤمن الجاد لا يسأله، لأنه أكثر أدباً مع الله – الذي يعرفه من التصور الإسلامي بذاته وصفاته – ولأنه أكثر معرفة بمدى إدراكه البشري الذي لم يهيأ للعمل في هذا المجال .. والملحد الجاد لا يسأله كذلك. لأنه لا يعترف بالله ابتداء فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه -سبحانه- وأن هذا مقتضى ألوهيته، وأن اختياره هذا هو الخير قطعاً.

ولكنه سؤال يسأله مكابر لجوج، أو مائع هازل .. ومن ثم لا يجوز المضي معه في محاولة تبرير هذا الواقع بمعايير عقلية بشرية، لأنه بطبيعته أكبر من مستوى العقل البشري، وأوسع من المجال الذي يعمل فيه العقل. فإدراك أسباب هذا الواقع يقتضي أن يكون الإنسان إلهاً. ولن يكون الإنسان إلهاً. ولا بد له من أن يسلّم بهذه البديهية الواقعية، ويسلم بمقتضياتها كذلك[1].

فأما الباعث على الشر، وتعرض الإنسان لضغطه- وهو ما يدفع إلى الشر والضلال والخطيئة – فالإسلام يقرر أنه أضعف من أن يكون مسلطاً على الإنسان تسليط قهر وغلبة.. إنما هو تسليط امتحان وابتلاء، فهو يتمثل في المعركة بين الإنسان والشيطان. ودون الشيطان والغلبة في هذه المعركة حاجز قوي من الإيمان وذكر الله والاستعاذة به، واللياذ بكنفه.

---

(1) تراجع خاصية "الربانية" ص43.

"قال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين. قال: هذا صراط عليّ مستقيم. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان. إلا من اتبعك من الغاوين".

(الحجر: 39-42)

"قال: اهبطا منها جميعاً: بعضكم لبعض عدو. فأما يأتينكم مني هدى، فمن ابتع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى".

(طه: 123-126)

"وقال الشيطان لما قضى الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان. إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم".

(إبراهيم: 22)

"فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون".

(النحل: 98-100)

"إن كيد الشيطان كان ضعيفاً".

(النساء: 76)

ثم إنه يبقى بعد ذلك أنه إذا كان الله –سبحانه– هو الذي يخلق كل إنسان. باستعدادات معينة، هي التي تجعله يميل إلى الخير والهدى، أو يميل إلى الشر والضلال، فكيف يعذب الله الشرير الضال، ويكافئ الخيّر المهتدي، في الدنيا أو في الآخرة سواء؟

وهو سؤال خادع – في صورته هذه– يقابله ويصححه ما يقرره القرآن من أن الله – سبحانه– خلق الإنسان ابتداء في أحسن تقويم، وأنه لا يزول عن مكانه هذا إلا بغفلته عن الله.

وأنه مبتلي بالخير والشر. وأن فيه الاستعداد للترجيح والاختيار –مع الاستعانة بالله، الذي يعين من يجاهد لرضاه!

"**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فلهم أجر غير ممنون**".

(التين: 4-6)

"**ونفس وما سوّاها، فألهما فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسّاها**".

(الشمس: 7-10)

"**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**".

(الإنسان: 2-3)

"**إن سعيكم لشتى .. فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى**".

(الليل: 4-10)

"**والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**".

(العنكبوت: 69)

ويقابله كذلك ويصححه ما سق تقريره من أن قدر الله في الناس يتحقق فيهم من خلال إرادتهم في ذات أنفسهم، وفي الحياة من حولهم.

ويرد الأمر في النهاية إلى ما أسلفنا من الحديث عن قدر الله في مطلع هذه الفقرة.

على أن التصور الإسلامي يعلّم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف واضحة، ونهاه عن أمور كذلك واضحة. وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا غبش. مكشوفة للعلم الإنساني لا غيب فيها ولا مجهول. وهذه وتلك هي التي يحاسبه عليها. أما أمر الغيب والقدر وما هو مخبوء وراء النظر، فأمور لم يكلف الله المسلم بالبحث فيها، ولم يأمره بشيء يتعلق بها، غير الاعتقاد بقدر الله خيره وشره.

ومن ثم فطريق المسلم الواضح محدد مستقيم .. طريقه أن ينهض بالتكاليف الواضحة – ما استطاع– وأن يجتنب النواهي المحددة كما نُهي. وأن يشتغل بمعرفة ما أمر الله به، وما نهى الله عنه. ولا يبحث في شيء وراءهما من أمر الغيب المحجوب عن إدراكه المحدود.

وما كان الله –سبحانه– ليكلفه شيئاً يعلم أن لا طاقة له به، أو أنه ممنوع بمانع قهري عن النهوض به. وما كان الله –سبحانه– لينهاه عن شيء، يعلم أن لا طاقة له بالامتناع عنه، أو أنه مدفوع بدافع قهري لا يقاوم لإتيانه!

"**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**". (البقرة: 286)

"**وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون؟ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد. وادعوه مخلصين له الدين**".

(الأعراف: 28–29)

وما يؤمن بالله من لا يؤمن بأن الله لا يكلفه بشيء فوق طاقته، ولا ينهاه عن شيء ليس في مقدوره الانتهاء عنه .. وفي هذه الكفاية.

بهذا يتم التوازن في الاعتقاد والشعور، كما يتم التوازن في النشاط والحركة. فيثير التصور الإسلامي في الضمير الرغبة في الخير والاستقامة، وفي الحركة والفاعلية. مع الاستعانة بالله الذي بيده كل شيء.

وبهذا يقطع التعطيل والإرجاء والسلبية، والإحالة على مشيئة الله في المعصية، أو الشلل والجمود والسلب.. وقد علم أن الله لا يرضى لعباده الكفر. وأنه لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. ولا يرضى أن يترك المنكر بلا جهاد، ولا أن يترك الحق بلا نصرة، ولا أن تترك الأرض بلا خلافة. وقد علم أن الإنسان في هذه الدنيا للابتلاء بالخير والشر، وللامتحان في كل حركة وكل حالة. وأنه مجزي على الحسنة وعلى السيئة في دار الحساب والجزاء.. وأنه كذلك مستخلف في هذه الأرض، وأن له مكانه في هذا الكون، وله دوره في ما يقع في هذه الأرض من

تغيير وتطوير. وأنه إما ناهض بهذه الخلافة – وفق منهج الله– فمثاب. وإما ناكل التبعة فمعاقب. ولو كان النكول خوفاً من التبعة، وفراراً من الابتلاء!

والتوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم في الكون.. وقد سلم التصور الإسلامي في هذا الصدد من كل الهزات والأرجحات التي تعاورت المذاهب والمعتقدات والتصورات .. ما بين تأليه الإنسان في صوره الكثيرة. وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة.

إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلاً تاماً كاملاً بين حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية. وبين مقام الألوهية ومقام العبودية. وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية. بحيث لا تقوم شبهة أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم:

الله" **ليس كمثله شيء**"... فلا يشاركه أحد في ماهية أو حقيقة.

والله "**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**" فلا يشاركه أحد في وجود.

و "**كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**" .. فلا يشاركه أحد في بقاء.

والله "**لا يسال عما يفعل وهم يسألون**" .. فلا يشاركه أحد في سلطان.

و "**خالق كل شيء**" .. فلا يشاركه أحد في خلق.

و "**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**" .. فلا يشاركه أحد في رزق.

و "**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**" .. فلا يشاركه أحد في علم.

"**ولم يكن له كفواً أحد**" .. فلا يشاركه أحد في مقام.

"**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟** " .. فلا يشاركه أحد في التشريع للناس ... وهكذا في كل خاصية من خصائص الألوهية.

والإنسان عبد لله ككل مخلوق في هذا الوجود.

عبد لا يشارك الله في حقيقة ولا خاصية.. وليس كما تقول الكنيسة عن المسح –عليه السلام– إن له طبيعة لاهوتية صافية، أو لاهوتية ناسوتية، على اختلاف المذاهب والتصورات.

"**إن هو إلا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل**"

(الزخرف: 59)

"لن يستنكف المسح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون".

(النساء: 172)

"إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمان عبداً".

(مريم: 93)

ولكن الإنسان – بعبوديته هذه لله – كريم على الله. فيه نفخة من روح الله. مكرم في الكون، حتى ليأمر الله الملائكة – وهم عباده المقربون – أن يسجدوا له سجود التكريم.

"وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون".

(الحجر: 28–30)

وهو مستخلف في هذه الأرض، مسلط على كل ما فيها، مسخر له الأرض وما فيها ومحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون:

"وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك! لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم: إني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون؟".

(البقرة: 30–33)

"وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه". (الجاثية: 13)

" وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون"

(النحل: 15)

"ألم تر ان الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره. ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم". (الحج: 65)

والإنسان -كما أسلفنا- يكون في أرفع مقاماته، وفي خير حالاته، حين يحقق مقام العبودية لله. إذ أنه -في هذه الحالة- يكون في أقوم حالات فطرته، وأحسن حالات كماله، وأصدق حالات وجوده.

ومقام العبودية لله هو الذي وصف به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مقام الوحي ومقام الإسراء والمعراج -كما ذكرنا من قبل- وهو الذي جعله الله غاية الوجود الإنساني وهو يقول: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".

كما أن قيام الناس في هذا المقام، هو الذي يعصمهم جميعاً من عبودية العبيد للعبيد، وهو الذي يحفظ لهم كراماتهم جميعاً، على اختلاف مراكزهم الدنيوية، وهو الذي يرفع جباههم فلا تنحني إلا لله، وهو الذي يكفيهم -في الوقت ذاته- عن الاستكبار في الأرض بغير الحق، والعلو فيها والفساد، ويستجيش في قلوبهم التقوى للمولى الواحد، الذي يتساوى أمامه العبيد. ويرفض أن يدعى أحد العبيد لنفسه خصائص الألوهية، فيشرع للناس في شؤون حياتهم بغير سلطان من الله، ويجعل ذاته مصدر السلطان، وإرادته شريعة لبني الإنسان!

ومن ثم فإنه لا تعارض -في التصور الإسلامي- بين رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته، وبين عبوديته لله -سبحانه- وتفرد الله بالألوهية وبخصائصها جميعاً.

ولا حاجة إذن – عندما يراد رفع الإنسان وتكريمه – أن تخلع عنه عبوديته لله، أو تضاف إلى ناسوتيته لاهوتية ليست له، كما احتاج رؤساء الكنيسة والمجامع المقدسة أن يفعلوا، ليعظموا عيسى -عليه السلام- ويكبِّروه!

"**ولقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة. ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقه، كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون**". (المائدة: 72-75)

"إذ قال الله يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".

(المائدة: 116-118)

"لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ".

(النساء: 172)

كذلك لا حاجة إلى تصغير الله –سبحانه وتعالى– كلما أريد تعظيم الإنسان، وإعلان رفعة مقامه في هذه الأرض، وسيطرته وفاعليته. وكلما فتح الله للإنسان فتحاً في أسرار المادة. وكلما سخر له طاقة من طاقات الكون!

إن الله –سبحانه– والإنسان ليسا كفوين ولا ندين! ولا متصارعين! ولا يرجح أحدهما ليشيل الآخر! ولا يغلب أحدهما ليهزم الآخر!

لقد تركت الأساطير الإغريقية، والأساطير العبرية، هذا التصور القبيح التافه في أذهان الأوروبيين. فظل يسيطر على تصوراتهم، حتى بعد ما دخلوا في المسيحية!

الأسطورة الإغريقية التي تصور كبير الآلهة "زيوس" غاضباً على الإله "بروميثيوس" لأنه سرق سر النار المقدسة (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان، وراء ظهر كبير الآلهة. الذي لم يكن يريد للإنسان أن يعرف، لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام كبير الآلهة، ويهبط معه مقام "الآلهة"! ومن ثم أسلمه إلى أفظع انتقام وحشى رعيب!

والأسطورة العبرانية التي تصور الإله خائفاً من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة، – بعد ما أكل من شجرة المعرفة – فيصبح كواحد من الآلهة! ومن ثم يطرد الإنسان من الجنة، ويقيم دونه شجرة الحياة حراساً شداداً ولهيب سيف متقلب!

والأسطورة التي أطلقها "نيتشه" وهو يتخبط تخبط الصرع في كتابه: "هكذا قال زرادشت" ليعلن "موت الإله" ومولد الإنسان الأعلى (السوبرمان!)

"**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**"..

إن الإنسان – في الإسلام– يأخذ مكانه الحقيقي دائماً في هدوء، وفي هوادة، وفي طمأنينة .. إنه عبد الله. وإنه بهذه العبودية أكرم خلق الله. وهو في مقام العبودية في أرفع مقام. وفي أسعد مقام. وفي أصلح مقام.

ويبقى أن نأخذ –من هذه الخاصية– أن التصورات الأوربية التي كمنت فيها تلك التصورات الأسطورية المختلفة، ودخلت في صميمها، بل دخلت في مناهج تفكيرها .. أن هذه التصورات الأوربية، وما قام عليها من مناهج التفكير، وما نتج منها من مذاهب وأفكار.. كلها تصطدم –اصطداماً ظاهراً أو خفياً– مع التصور الإسلامي، ومناهج الفكر الإسلامية، وأن أي استعارة من تلك التصورات، أو مناهج التفكير، أو نتاجها من المذاهب والأفكار، تحمل في صميمها عداء طبيعياً للتصور الإسلامي، وللفكر الإسلامي، ولا تصلح بتاتاً للاقتباس منها أو الاستعانة بها .. بل هي كالسم الذي يتلف الأنسجة، ويؤذي الأعضاء، ويقتل في النهاية إذا كثر المقدار!!!

والتوازن في علاقة العبد بربه، بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال، وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس.. فصفات الله الفاعلة في الكون، وفي حياة الناس والأحياء، تجمع بين هذا الإيحاء وذاك. في توازن تام.

ويقرأ المسلم في كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يخلع القلوب، ويزلزل الفرائص، ويهز الكيان، من مثل قوله تعالى:

"**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وانه إليه تحشرون**"

(الأنفال: 24)

"**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**"

(غافر: 19)

"ولقد خلقنا الإنسان ونعم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"

(ق: 16)

"واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه"

(البقرة: 235)

"واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب".

(البقرة: 196)

"سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم عن كيدي متين".

(القلم: 44–45)

"إن بطش ربك لشديد"

(البروج: 12)

"والله عزيز ذو انتقام"

(آل عمران: 4)

"وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة. إن أخذه أليم شديد".

(هود: 102)

"ذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً. إن لدينا أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً. يوم ترجف الأرض والجبال، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً"

(المزمل: 11–14)

وصور العذاب في مشاهد القيامة رعيبة رعيبة[1].

ويقرأ المسلم كذلك من صفات ربه، ما يملأ قلبه طمأنينة وراحة، وروحه أنساً وقرباً، ونفسه رجاء وأملا. من مثل قوله تعالى:

"وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان".

(البقرة: 186)

(1) يراجع كتاب: مشاهد القيامة.

"أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟".

(النمل: 62)

"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم". (البقرة: 268)

"وما كان الله ليضيع إيمانكم: إن الله بالناس لرؤوف رحيم".

(البقرة: 143)

"يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً".

(النساء: 28)

"ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكراً عليماً".

(النساء: 147)

"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ".

(مريم: 96)

"وهو الغفور الودود"

(البروج: 14)

"الله رؤوف بالعباد".

(البقرة: 207)

"ويبشر المؤمنين الذي يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً".

(الكهف: 2-3)

وصور النعيم في مشاهد القيامة رخية رخية!

ومن هذا وذاك يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس، والفزع والطمأنينة.. ويسير الإنسان في حياته، يقطع الطريق إلى الله، ثابت الخطو، مفتوح العين، حي القلب، موصول الأمل. حذراً من المزالق، صاعداً أبداً إلى الأفق الوضيء. لا يستهتر ولا يستهين، ولا يغفل ولا ينسى. وهو في الوقت ذاته شاعر برعاية الله وعونه، ورحمة الله وفضله، وأن الله لا

يريد به السوء، ولا يود له العنت، ولا يوقعه في الخطيئة ليتشفى بالانتقام منه .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وحين توازن بين هذا التصور الإغريق لكبير آلهتهمن القاسي الحسود الشهوان العربيد، المضطغن الحقود. أو تصور الإسرائيليين المنحرف لإلهتهم الغيور المتعصب، البطاش المتهور. أو تصور أرسطو لإلهة المترفع الذي لا يعني نفسه بأمر الخلق على الإطلاق، ولا يفكر إلا في ذاته، لأنه أشرف الذوات، ولا يليق بالإله أن يكفر إلا في أشرف ذات! أو تصور الماديين لإلههم "الطبيعة" الصماء العمياء الخرساء! .. عندئذ تبدو قيمة هذا الجانب المتوازن في التصور الإسلامي، وأثره الواقعي في حياة البشر، وأثره كذلك في منهج حياتهم وأخلاقهم ونظامهم العملي. (وسيأتي شيء من تفصيل هذا الإجمال في الفصل التالي عن خاصية: الإيجابية).

والتوازن بين مصادر المعرفة: من وراء الغيب المحجوب، ومن صفحة الكون المشهود، أو بتعبير آخر: من الوحي والنص، ومن الكون والحياة.

وقد رأينا في مطلع هذا البحث كيف تقلبت التصورات في أوربة، بين اتخاذ النص (أو الوحي) -وحده- مصدراً للمعرفة، واتخاذ العقل -وحده- مصدراً، واتخاذ الطبيعة -وحدها- مصدراً كذلك! وتعسف كل فريق في "تأليه" مصدره، ونفي المصادر الأخرى إطلاقاً، وإلغاء وجودها إلغاء!

فأما الإسلام في شموله، وفي توازنه، وفي اعتباره لجميع "الحقائق" الواقعة، دون تعسف، ودون هوى، ودون شهوة، ودون غرض، ودون جهل، ودون قصور ...

أما الإسلام – في طمأنينته إلى الحق، الكامل الشامل- فلم يغفل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره، ولم يضعه في مكانه الذي يستحقه، ودرجته التي هي له في الحقيقة، في دقة وتوازن وطمأنينة.

فالإسلام -كما سبق- يرد الأمر كله ابتداء إلى الله وإرادته وتدبيره، يرد الخلق كله إلى إرادة الله الواحد – ومن الخلق هذا الكون وما فيه، وهذا الإنسان وعقله ومداركه- ومن ثم لا يجد تناقضاً في أن يكون للكون – أو للطبيعة كما يسميها الغربيون- وأن يكون للحياة وأوضاعها –

وفيها الاقتصاد إله كارل ماركس – دور في إمداد "الإنسان" بالمعرفة عن طريق "العقل" وسائر المدارك المودعة فيه باعتبار الجميع من صنع الله .. فهي من عنده. كما أن الوحي من عنده كذلك.

نعم إن الإسلام يعتبر مصدر الوحي هو المصدر الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يخضع للهوى، ولا يتأثر بهن ومن ثم فهو أعلى المصادر. ولكنه في الوقت ذاته لا يلغي العقل –عندئذ– ولا يلغي المؤثرات والمعارف التي تتلقاها الكينونة الإنسانية كلها، مما حولها في الكون.. فالكون كذلك كتاب الله المفتوح الذي يصب المعرفة في الكينونة الإنسانية – كما يصبها الوحي – مع فارق واحد: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون، قابلة للخطأ والصواب – بما أنها من عمل الإنسان – أما ما يتلقاه من الوحي فهو الحق اليقين ..

لقد خلق الله هذا الإنسان متوافقاً في فطرته وتكوينه مع هذا الكون، ومع سائر الأحياء. فكلهم من خلق الله، وكلهم يتلقى من الله، وكلهم يتمتع بهداه.

"**قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**".

(طه: 50)

"**سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدّر فهدى**"

(الأعلى: 1-3)

"**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**"

(الذاريات: 49)

"**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**".

(الأنعام: 38)

"**الذي جعل لكم الأرض مهداً، وسلك لكم فيها سبلا**".

(طه: 53)

"**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**". (طه: 55)

"**سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**".

(يس: 36)

"**فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً**"

(الشورى: 11)

وفي التوافق والتناسق والتعاون بين خلق الله جميعاً – وفيهم الإنسان– ترد نصوص قرآنية كثيرة. ذات إيحاء قوي بالوحدة والتضامن والتناسق في طبيعة التكوين وفي الاتجاه العام، نذكر منها القليل:

"**ألم نجعل الأرض مهاداً؟ والجبال أوتاداً؟ وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً. وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً. وبنينا فوقكم سبعاً شداداً. وجعلنا سراجاً وهاجاً. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً. لنخرج به حباً ونباتاً. وجنات ألفافاً**".

(النبأ: 166)

"**أأنتم أشد خلقاً أم السماء: بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم**".

(النازعات: 27–33)

"**فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتوناً ونخلا. وحدائق غلباً. وفاكهة وأبا .. متاعاً لكم ولأنعامكم**".

(عبس: 24–32)

"**والله أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون. وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً. إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى لانحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات، فاسلكي سبل ربك ذللا، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**". (النحل: 65–69)

"والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم بأسكم. كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون".

(النحل: 80-81)

وأمثال هذه النصوص كثير، سنفصل الحديث عنه عند الكلام عن حقيقة الكون وحقيقة الإنسان في التصور الإسلامي..

والمهم الآن أن نقول: إن الإسلام بناء على تقريره أن هناك اتفاقاً وتناسقاً بين الكون والإنسان، جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة لهذا الإنسان – أو عن كتاب الكون المفتوح – وعن الإنسان ذاته. فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة لذاته!

فنجد في التوجيه إلى المصدر الأول الأصيل الصادق، المهيمن على كل مصادر المعرفة الأخرى .. أمثال هذه النصوص:

"إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"

(الإسراء: 9)

"ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون".

(الجاثية: 18)

"إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين".

(يوسف: 2-3)

"وقلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفورا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

(البقرة: 38-39)

"وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا". (البقرة: 93)

ثم نجد في التوجيه إلى التلقي والمعرفة من كتاب الكون المفتوح، ومن كتاب النفس المكنون، الشيء الكثير .. الكثير:

"**وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم. أفلا تبصرون؟**".

(الذاريات: 20-21)

"**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**".

(فصلت: 53)

"**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ وإلى الجبال كيف نصبت؟ وإلى الأرض كيف سطحت؟ فذكر إنما أنت مذكر**".

(الغاشية: 17-21)

"**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**".

(النحل: 79)

"**إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريح بالرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون**".

(البقرة: 164)

وفي التوجيه إلى استخدام العقل للمعرفة، إما بتدبر آيات الله في الكون، وإما بتدبر حقائق الوحي وحقائق الحياة، نجد كذلك في القرآن نصوصاً شتى:

"**قل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا. ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم، بين يدي عذاب شديد**".

(سبأ: 46)

"**أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**".

(النساء: 82)

"**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟ أو آذان يسمعونه بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**".

(الحج: 46)

"**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك!**"

(آل عمران: 190-191)

"**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**".

(النحل: 78)

وهكذا تتوازن هذه المصادر .. كل بحسبه .. وتتناسق في إمداد الكائن الإنساني بالمعرفة. ويتوازن التصور الإسلامي، فلا يشط ولا يضطرب ولا يتأرجح بين هذه المصادر، ولا يؤلّه ما ليس منها بإله!

ومما يلاحظ بوضوح في منهج التربية القرآني كثرة توجيه الإدراك البشري إلى ما في الكون، وما في الأنفس، من أمارات وآيات، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعة الله في الأنفس والآفاق. ذلك أن هذه المصاحبة –فوق أنها تنبه الإدراك البشري إلى معرفة الصانع من صنعته، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه، وحبه بإدراك عظمة أنعمه – فهي في الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنساني بخصائص تلك الصنعة: من دقة وتناسق وانتظام، لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت. كما تطبعه بموحياتها كذلك من سنن وحقائق ومقررات .. وليس بالقليل مثلاً ان ينطبع في حس الإنسان وشعوره من متابعة التغير المستمر في أحوال هذا الكون، وفي أحوال البشر، وفي أحوال النفس، أن الدوام لله وحده، الذي يغير ولا يتغير. وأن كل شيء حائل أو زائل، إلا الحي الذي لا يموت. الصمد الثابت المقصود.. وليس بالقليل مثلاً أن ينطبع في حس الإنسان وشعوره من ملاحظة ثبات السنن التي تحكم ذلك التغير، وثبات الناموس الذي يتم به

التبدل والتحور، أن الأمور لا تمضي جزافاً، وأن الحياة لم توجد سدى، وأن الإنسان غير متروك لقى. وإنما هو التدبير والتقدير، والابتلاء والجزاء، والعدل الصارم الدقيق في تقدير المصير..

وهكذا .. وهكذا .. مما سنذكر منه الكثير.

ومن ثم يكثر التوجيه إلى هذه المصادر، والظاهرة في الكون والمكنونة في النفس، لتلقي المعرفة من كتاب الله المفتوح، كتلقي المعرفة من كتاب الله المقروء. في تناسق وتوازن، يجمع ين مصادر المعرفة كلها، في غير تصادم ولا تعارض، وفي غير تأليه ولا تحقير، وفي غير خصومات صغيرة، كتلك الخصومات التي رأينا أمثلة منها في تاريخ الفكر الغربي الصغير!

ومن ثم لا يقتضي قيام الوحي – كمصدر أساسي للمعرفة – إلغاء الإدراك البشري، كما لا يقتضي وجود الكون إلغاء هذا العقل، أو إلغاء الله – جل وعلا وتنزه عن التصورات المطموسة البائسة، التي يتعبد لها الغربيون! وعبيد الغربيين!

والتوازن بين فاعلية "الإنسان" وفاعلية الكون. وبين مقام الإنسان ومقام الكون. وقد سلم التصور الإسلامي في هذه النقطة من جميع الأرجحات، وجميع التقلبات التي صاحبت الفكر البشري، كلما انحرف عن منهج الله.

وتتضح استقامة التصور الإسلامي تجاه الكون والإنسان، حين يراجع ركام الفلسفات والتصورات والمعتقدات المختلفة.

لقد كان أفلاطون يضع المادة في الدرك الأسفل من القيمة والاعتبار.

"فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة أو "الهيولي". والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من الهيولي. وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بقدر ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي.

"فالهيولي مقاومة للعقل المجرد، وليست موجدة بمشيئته من العدم"[(1)]

---

(1) عن كتاب "الله" للأستاذ العقاد ص137.

وأفلوطين –في الأفلاطونية الحديثة– يجعل المادة في الدرك نفسه. فالواحد الحد خلق العقل، والعقل خلق الروح، والروح خلقت ما دونها من الموجودات، على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور إلى عالم الهيولي، أو عالم المادة والفساد"[1]

والنصرانية –كما صنعتها الكنيسة– اعتبرت الشر كله ممثلاً في عالم الجسد – أي عالم المادة – الخير كله ممثلاً في عالم الروح. ومن ثم اقتضى الأمر احتقار كل ما هو مادي، والهرب منه للنجاة من الشر والفساد.. وكذلك فعلت الهندوكية من قبل في مذهب براهما ..

"وبينما عالم المادة ينبذ هذا النبذ في بعض الفلسفات والمعتقدات، يقوم في القرن التاسع عشر، من يجعل من "الطبيعة" إلهاً، ويجعل من العقل البشري مخلوقاً من مخلوقات هذا الإله! كما فعل "كومت" و "نيتشه" من زعماء المذهب الوضعي، ومن يجعل جانباً من عالم المادة – وهو الاقتصاد – إلها، يخلق العقول والأديان والفلسفات والآداب والأخلاق.. كما فعل كارل ماركس! ويحط من قيمة الإنسان تجاه هذا الإله، فيجعله عاملاً سلبياً لا يقدم ولا يؤخر، وإنما يتلقى فقط ويتأثر!

بين هذه الشخصيات المتأرجحة، وبين هذا الغلو من هنا ومن هناك يقف التصور الإسلامي على قاعدة الحقيقة المستقرة الثابتة.. الله هو الخالق المبدع المهيمن المدبر .. والكون والإنسان من إبداع الله. وبينهما من التفاعل، وبينهما من التناسق، ما يجعل لكل منهما دوراً في حياة الآخر .. والإنسان هو الأكرم، وهو الأكثر فاعلية وإيجابية. وهو المسلط على المادة، يبدع فيها وينشئ، ويغيّر فيها ويطوّر، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله، ويتلقى من هذه الأسرار ما يؤدي إلى العظة والاعتبار.

وتكريم الوجود الإنساني – مع عدم احتقار الوجود الكوني– يكفل لهذا الإنسان مقامه وكرامته، ويجعل حياته ومقوّماته أكرم من أن تمسّ في سبيل توفير أية قيمة مادية أخرى. وذلك مع عدم الإخلال بالقيم المادية وبالإبداع في عالم المادة.

---

(1) المصدر السابق ص188.

وهناك ألوان شتى من هذا التوازن في التصور الإسلامي، لا نملك تتبعها وعرضها هنا بالتفصيل – ولا حتى مجرد الإشارة – إنما نحن نثبت هذه النماذج، لتكون هي الإشارة التي يتبعها الناظر في هذا المنهج، إلى نهاية الطريق[1]...

* * *

(1) يراجع فصل "خطوط متقابلة" في كتاب: "منهج التربية الإسلامية". لمحمد قطب.

الإيجابيــة

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"

والخاصية الخامسة البارزة في التصور الإسلامي هي .. الإيجابية .. الإيجابية الفاعلة في علاقة الله –سبحانه– بالكون والحياة والإنسان. والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته. في حدود المجال الإنساني .. كما أشرنا إلى ذلك من قبل إشارات مجملة..

إن الصفات الإلهية في التصور الإسلامي ليست صفات سلبية. والكمال الإلهي ليس في الصورة السلبية التي جالت في تصور أرسطو. وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس في صفات "هرمز" إله النور والخير واختصاصاته وصفات "أهرمان" إله الظلام والشر واختصاصاته. وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلوطين. وليست محدودة بحدود شعب كتصورات بني إسرائيل. وليست مختلطة أو متلبسة بإرادة كينونة أخرى، كبعض تصورات الفرق المسيحية. وليست معدومة على الإطلاق، كما تقول المذاهب المادية، التي تنفي وجود الإله الحي المريد ... إلى آخر هذا الركام..

ولعله يحسن قبل أن نعرض التصور الإسلامي الواضح الصريح المريح، أن نثبت مجملاً سريعاً لهذه التصورات التي أشرنا إليها. أو لهذا الركام، الذي أشرنا إلى شيء منه في أوائل هذا الكتاب وفي ثناياه:

"مذهب أرسطو في الإله أنه كائن أزلي أبدي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا إرادة! مذ كان العمل طلباً لشيء. والله غني عن كل طلب. وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول. وليس مما يناسب الإله –في رأي أرسطو– أن يبتدئ العمل في زمان، لأنه أيدي سرمدي، لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم. وكل ما يناسب كماله فهو

السعادة بنعمة بقائه، التي لا بغية وراءها، ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه!

"فالإله الكامل المطلق الكمال، لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى –وهي الهيولي– ولكن هذه "الهيولي" قابلة للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود، الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك وتعمل، بما فيها من الشوق والقابلية، ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله، إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار"[1].

والفرس كانوا يعتقدون بالثنوية، ويجعلون للخير إلهاً هو "هرمز". قدرته واختصاصه مقصوران على عالم النور والخير. ويجعلون للشر إلهاً هو "أهرمان" قدرته واختصاصه مقصوران على عالم الظلام والشر. وهما أخوان مولودان لإله قديم اسمه "زروان"!

"وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة. وأهرمان غافل عنه في قراره السحيق. فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه، راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه، فأشفق على نفسه من العاقبة. وعلم أن النور وشيك أن ينتشر ويستفيض، فلا يترك له ملاذاً يعتصم بهن ويضمن فيه البقاء. فثار، وثارت معه خلائق الظلام – وهي شياطين الشر والفساد– فأحبطت سعي هرمز! وملأت الكون بالخبائث والأرزاء[2].. الخ" واحتدمت المعركة وما تزال).

أما "أفلوطين" الذي عاش في السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد .. فإنه يغلو فيما يراه تنزيها لإلهه الأحد، حتى يتجاوز كل معقول. فإذا كان أرسطو يرى أن من كمال إلهه ألا يشعر بغير ذاته، وألا يفكر إلا في ذاته لا يفكر إلا في أشرف الموجودات. وذاته هي أشرف الموجودات. وأنه لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها.. إذا كان تنزيه أرسطو لإلهه وقف

(1) عن كتاب: "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" للأستاذ العقاد: ص 33-34.

(2) عن كتاب: "الله" للأستاذ العقاد ص188.

به عند هذا الحد، فإن أفلوطين راح يزعم أن من كمال إلهه الأحد أنه لا يشعر بذاته كذلك! لأنه يتنزه عن ذلك الشعور!

"وبديه أن المذهب يقتضي وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله "الأحد" المطلق الصفاء، وبن المخلوقات العلوية، وهذه المخلوقات السفلية. ولا سيما خلائق الحيوان المركب في الأجساد.

"وهكذا لزم أفلوطين أن يقول: إن الواحد خلق العقل. وإن العقل خلق الروح. وإن الروح خلقت مادونها من الموجودات. على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور، إلى عالم الهيولي، أو علم المادة والفساد!" [1].

ومن ثم ينحصر اختصاص الإله – عند أفلوطين– في خلق العقل.. ثم تنتهي مهمته عند ذاك!

أما إله بني إسرائيل "يهوا" – كما ترسمه تصوراتهم المنحرفة – فهو إله إسرائيل الخاص! الذي يغار من عبادة شعب إسرائيل للآلهة الغريبة، فيثور ويغضب ويحطم وينتقم. حتى إذا عاد الشعب إليه رضى واستراح. وكف عن النقمة والتدمير. وندم على ما فعل بشعبه المختار!

والتصورات الكنسية عن طبيعة المسيح وإرادته، وتلبسهما باللاهوتية، سبق أن أشرنا إليها في فصل "تيه وركام"، وهي تجعل إرادة الله متلبسة أو متجسمة في إرادة المسيح .. إلى أخر هذا الركام[2]!

وكذلك أشرنا إلى تصورات الوضعيين الماديين المختلفة بما فيه الكفاية. فيرجع إليها هناك[3].

والآن ننتقل من هذا الركام المتناثر إلى التصور الإسلامي المستقيم الواضح المريح:

---

(1) المصدر السابق: ص188.

(2) ص 28–33 من هذا الكتاب.

(3) ص 62–71 من هذا الكتاب

إن الإنسان – في التصور الإسلامي– يتعامل مع إله موجود. خالق. مريد. مدبر. مهيمن. قادر. فعال لما يريد.. كامل الإيجابية والفاعلية.. إليه يرجع الأمر كله. وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء، وكل انبثاقة فيه بعد ذلك، وكل حركة. وكل تغير وكل تطور. ولا يتم في هذا الكون شيء إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره. وهو –سبحانه– مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده، في كل حال من أحواله ولكل حي ولكل شيء وفي هذا الوجود كذلك.

ويحفل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة في التصور الإسلامي، بكل صورها وأشكالها، ويهتم بعرض مظاهرها في كل جانب من جوانب الكون، وفي كل صورة من صورها المتجددة التي لا تحصى:

"**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين**".

(الأعراف: 54)

"**وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، إنه كان عليماً قديراً**".

(فاطر: 44)

"**قل: اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب**".

(آل عمران: 27،26)

"**وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير**".

(الأنعام: 18)

"**الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد. وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات، من بين يديه ومن خلفه –يحفظونه– من أمر الله.**

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد لـه. ومـا لهم من دونه من وال. هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء. وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ... ".

(الرعد: 8–13)

"**يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب**".

(الرعد: 39)

"**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف لـه إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير**".

(الأنعام: 17)

"**لله ملك السماوات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً**".

(الشورى: 50،49)

"**الله يتوفى النفس حين موتها. والتي لم تمت في منامها. فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**". (الزمر: 42)

"**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا. ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة. إن الله بكل شيء عليم**".

(المجادلة: 7)

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الإنسان وفي حياته، يتوقف عليه كل شيء في أمر العقيدة. كما أنه هو الذي يمد الحياة البشرية بكافة المشاعر الأخلاقية. بواعثها وموازينها، والسلطان القائم عليها (وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن حقيقة الألوهية في القسم الثاني من هذا الكتاب).

إن هذه الإيجابية في علاقة الله –سبحانه– بخلائقه كلها، هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة، والعقيدة الصورية السلبية. وشمول هذه الإيجابية وتوحدها، هو مفرق الطريق كذلك، بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني، والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوي.

وتصور الإنسان لإلهه، وتعلق صفاته بالحياة الإنسانية، هو الذي يحدد قيمة هذا الإله في نفسه، كما يحدد نوع استجابته لهذا الإله!

وفرق كبير بين الإنسان الذي يتصور أن إلهه لا يحفل به، ولا يحس بوجوده – أو لا يعلم بوجوده أصلاً كما يقول بعض الفلاسفة! – والإنسان الذي يحس ويعلم أن الله هو خالقه ورازقه، ومالك أمره كله في الدنيا والآخرة..

وفرق كذلك بين الذي يتعامل مع إلهين متنازعين – كما يقول الفرس– أو مع آلهة متفرقة كما تقول الوثنيات الأخرى، والذي يتعامل مع إله واحد. له إرادة واحدة، ومنهج واحد. يعلم عباده على وجه الضبط والتحديد ما يريده منهم فيرضى، وما يكرهه منهم فيسخط!

وفرق كذلك بين الذي يتعامل مع إله شهواني. متعجرف. ظالم. متهور. متقلب الأهواء كإله الإغريق –بزعمهم–: "زيوس" أو "جوبيتير" الذي كانوا يصورونه "حقوداً. لدوداً. مشغولاً بشهوات الطعام والغرام. لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات ما يعينه على حفظ سلطانه، والتمادي في طغيانه. وكان يغضب على "اسقولاب" إله الطب –بزعمهم– لأنه يداوي المرضى، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية! وكان يغضب على "برومثيوس" إله المعرفة والصناعة –بزعمهم– لأنه يعلّم "الإنسان" ان يستخدما لنار في الصناعة، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب. وقد حكم عليه بالعقاب الدائم، فلم يقنع بموته، ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له. فقيده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنه، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس ولا يزال هكذا دواليك

في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء"[1] ... " وأنه كان يخادع زوجته "هيرة" ويرسل إله الغمام –بزعمهم– لمدارة الشمس في مطلعها، حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش "الأوليمب"[2]..

فرق بين الذي يتعامل مع إله كهذا ويستمد منه أخلاقهن والذي يتعامل مع "الله" العادل، الكريم، الرحيم الذي يكره الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وينهى عن السوء. ويحب التوابين ويحب المتطهرين..

وأخيراً .. فهناك فارق هائل بين الإنسان الذي يظن أن إلهه هو "الطبيعة" الخرساء الصماء، التي لا تطالبه بعقيدة ولا شعيرة، ولا منهج ولا نظام حياة، ولا خلق ولا أدب، ولا ضمير ولا سلوك. ولا تحس بوجوده أصلاً. وليس لها هي إدراك ابتداء. ومن ثم فهي لا تحس ولا تعي، ولا تدري بخير أو شر. ولا تحاسب –من ثم– على خير أو شر .. والإنسان الذي يعرف أن إلهه "الله" الحي الذي لا يموت. الصمد المقصود في الحاجات. الرقيب الذي لا يغفل. الحسيب الذي لا ينسى. العادل الذي لا يظلم. الرحيم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. إلى آخر صفات الله وأسمائه الحسنى..

إن الأمر مختلف جداً .. ومن ثم هذه القيمة الكبرى لهذه الخاصية في التصور الإسلامي .. ولقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة في تصور المسلمين وتوكيدها. وتقرير "وجود" الله سبحانه في حياتهم وتوسيعه وتعميقه .. وكانت حياة الجماعة المسلمة الأولى في ظلال الوحي المتلاحق، المتعلق بواقع حياتهم، وبما يهجس كذلك في ضمائرهم، مثلاً حياً، وترجمة عملية، لهذه الحقيقة.. فقد رأينا يد الله –سبحانه– تتدخل جهرة، وعينه تلحظ، وسمعه يرعى، أحوالهم اليومية، وأعمالهم الشخصية، وحياتهم الفردية والجماعية.

لقد شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية في شأن أسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر حكم الله في قضية بين امرأة وزوجها. حين لم يجد الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيها رأياً:

---

(1) من كتاب: "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" للأستاذ العقاد ص 40-41.

(2) المصدر السابق.

"قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله. والله يسمع تحاوركما. إن الله سميع بصير... الخ".

(المجادلة: 1)

كما شهدناها في شأن الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم، مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في هذه الصورة الرائعة:

"عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى فأنت له تصدّى! وما عليك ألا يزّكى. وأما من جاءك يسعى وهو يخشى. فأنت عنه تلهّى؟ كلا! إنها تذكرة. فمن شاء ذكره".

(عبس: 1–12)

وشهدنا هذا التدخل في الأحداث الكرى سواء بسواء:

شهدناه في الهجرة .. حيث يقول الله تعالى:

"إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا، ثاني اثنين إذ هما في الغار. إذ يقول لصاحبه لا تحزن. إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها. وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا. والله عزيز حكيم".

(التوبة: 40)

وشهدناه في بدر .. حيث يقول الله تعالى:

" كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكمن ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم. وما النصر إلا من عند الله. إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمَنةً منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك

إلى الملائكة إني معكم، فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرب، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان".

(الأنفال: 5–12)

وشهدناه في "أحد" حيث يقول الله تعالى:

"**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون: منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم، فأثابكم غما بغم، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون. ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟ قل: إن الأمر كله لله. يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم. وليبتلي الله ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور".**

(آل عمران: 152–154)

وشهدناه في كل موقف من مواقف المسلمين الكبرى.

ولم يكن هذا التدخل الإيجابي وقفاً على هذه المجموعة من المسلمين. فهو شأن الله في كل موقف، وفي كل أمر، وفي كل حال .. وقد كان منه ما كان في شأن الرسل جميعاً – عليهم الصلاة والسلام– مما قصه الله –سبحانه– على كل الجماعة المسلمة في هذا القرآن..

كان منه في شأن موسى عليه السلام، مع فرعون وملئه، ما يصور هذا التدخل السافر المباشر:

"**نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم. إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين.**

ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون. وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليمن ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأة فرعون: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً – وهم لا يشعرون– واصبح فؤاد أم موسى فارغاً، إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأخته قصيه، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. وحرمنا عليه المراضع من قبل، فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون؟ فرددناه إلى أمه، كي تقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق، ولا أكثرهم لا يعلمون".

(القصص: 2–13)

وكان منه في شأن نوح عليه السلام:

"كذبت قبلهم قوم نوح، فكذبوا عبدنا وقالوا: مجنون، وازدجر. فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر".

(القمر: 9–14)

وكان منه في شأن إبراهيم عليه السلام:

"قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين"

(الأنبياء: 68–73)

كذلك شهدناه في أمر الكون كله، وفي شأن سائر الخلائق والأحياء فيه:

"**إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده. إنه كان حليماً غفوراً**".

(فاطر: 41)

"**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**".

(النحل: 79)

"وكأيٍّ من دابة، لا تحمل رزقها. الله يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم".

(العنكبوت: 60)

"**أفرأيتم ما تحرثون؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون**"... (إلى آخر الآيات)

(الواقعة: 63-73)

"**أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؟ والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب**".

(الرعد: 41)

والقرآن كله معرض هذه "الإيجابية" وهي أساس التصور الإسلامي –بعد التوحيد– وهي التي تتجلى فيها حقيقة التوحيد. فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير وليس مجرد التوحيد السلبي الذي يصفه أرسطو، أو يصفه أفلوطين!

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذي أنشأ هذه المجموعة الفريدة الممتازة في تاريخ البشرية كله على الإطلاق، وبدون استثناء. فقد عاشوا هذه الحقيقة. عاشوها حية في نفوسهم. عاشوها ليل نهار، وصباح مساء. عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعة. عاشوا مع الله. يحسون وجوده في نفوسهم وفي حياتهم أعمق من حس اللمس والرؤية. عاشوا في كنفه وفي رعايته. وعاشوا تحت عينه وفي رقابته. والتمسوا يده –سبحانه– تتدخل تدخلاً مباشراً في الصغير والكبير من أمورهم، وتنقّل خطاهم، وترقبها، وترشدهم، وتعقّب عليهم

في الصغيرة وفي الكبيرة.. ومن ثم كانوا هذا الذي كانوا: من الحساسية والطمأنينة معاً. ومن اليقظة والراحة معاً. ومن التوكل والفاعلية معاً. ومن الخوف والطمع معاً. ومن التواضع والعزة معاً –التواضع لله والعزة بالله– ومن الخضوع والاستعلاء معاً – الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله – ومن ثم صنع الله بهم في هذه الأرض ما صنع من الصلاح والعمار، ومن الرفعة والطهارة، مما لم يسبق ولم يلحق في تاريخ بني الإنسان ...

والصفحة الأخرى للإيجابية في التصور الإسلامي .. هي إيجابية الإنسان في الكون. وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص.

إن هذا التصور ما يكاد يستقر في الضمير، حتى يتحرك ليحقق مدلوله في صورة عملية، وليترجم ذاته، في حالة واقعية. والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة. فاعلة في ذات نفسه، وفي الكون من حوله.

إن التصور الإسلامي ليس تصوراً سلبياً يعيش في عالم الضمير. قانعاً بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية! أو تصوفية روحانية! إنما هو "تصميم" لواقع مطلوب إنشاؤه، وفق هذا التصميم. وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته، إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ لتحقق ذاته.

هذا ما يثيره التصور الإسلامي في شعور المسلم... ومن ثم يجد دائماً هاتفاً ملحاً في أعماقه، يهب به إلى تحقيق هذا التصور في دنيا الواقع، ويؤرقه، حتى يهب للعمل، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء. وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.

وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون، ذكر العمل، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان، فليس الأمر مجرد مشاعر. إنما هو مشاعر تُفرَّغ في حركة، لإنشاء واقع، وفق "التصميم" الإسلامي للحياة، أو وفق التصور الإسلامي للحياة ..

"**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله – ثم لم يرتابوا– وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اله. أولئك هم الصادقون**". (الحجرات: 15)

"وعد الـه الـذين آمنـوا مـنكم وعملـوا الصـالحات ليسـتخلفنهم فـي الأرض كمـا اسـتخلف الـذين مـن قـبلهم، وليمكـنن لهـم ديـنهم الـذي ارتضـى لهـم، وليبـدلنهم مـن بعـد خـوفهم أمنـاً. يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك، فأولئك هم الفاسقون".

(النور: 55)

"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله".

(آل عمران: 110)

"فاستجاب لهـم ربهـم أنـي لا أضيع عمـل عامـل مـنكم مـن ذكـر أو أنثـى، بعضكم مـن بعض، فالـذين هـاجروا، وأخرجوا مـن ديـارهم، وأوذوا فـي سـبيلي، وقـاتلوا وقتلـوا لأكفـرن عـنهم سـيئاتهم، ولأدخلـنهم جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنـهـار، ثوابـاً مـن عنـد الله، والله عنـده حسـن الثواب".

(آل عمران: 195)

"والعصر. إن الإنسـان لفـي خسـر. إلا الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات، وتواصـوا بـالحق وتواصوا بالصبر".

(سورة العصر)

فليس هنالك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان، أو تصورات في الذهن، لا ترجمة لها في واقع الحياة. وليس هنالك إيمان هو مجرد شعائر تعبديةن ليس معها عمل يكيف منهجا لحياة كله ويخضعه لشريعة الله[1].

ثم يحس المسلم – من وحي تصوره الإسـلامي أنـه –شخصـياً– مطالـب بـأداء شـهادة لهذا الـدين، لا يسـتريح ضـميره، ولا يطمـئن بالـه، ولا يستشـعر أنـه أدّى حق نعمـة الله عليـه بالإسـلام. وأنـه يطمـع –من ثم– في النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة ... إلا أن يؤدي هذه الشـهادة كاملة، بكل تكاليفها في النفس والجهد والمال[2].

---

(1) تراجع خاصية الشمول: ص95–118 من هذا البحث.

(2) تراجع رسالة "شهادة الحق" للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان.

"**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً**".

(البقرة: 143)

"**ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؟**".

(البقرة: 140)

وهو يؤدي هذه الشهادة .. أولاً .. في ذات نفسه: بأن يطابق بين واقع حياته الشخصية، في كل جزئية من جزئيات نشاطه، وبين مقتضيات التصور الذي يقوم عليه اعتقاده. فليست هنالك حركة واحدة من حركات حياته، إلا وهو مطالب بأن يشهد فيها لهذا الدين. شهادة عملية. لا شهادة اللسان وحده، ولا شهادة القلب معه كذلك. ولكن شهادة العمل المصدق للإيمان، المجسّم للعيان، المنشئ لآثاره في عالم الواقع وفي دنيا الناس.

وهو يؤديها –ثانية– في دعوة الآخرين إلى هذا المنهج، وبيانه لهم. مسوقاً في هذه الدعوة وهذا البيان بدوافع كثيرة أولها: دافع أداء الشهادة لينجو من الله، وليؤدي حق نعمته عليه بهدايته إلى الإسلام.. وثانيها: حب الخير للناس، وهدايتهم إلى هذا الخير الذي هُدِيَ هو إليه، والذي لا يحتجنه لنفسه، ولا لأسرته، ولا لعشيرته، ولا لقومه، ولا لجنسه. لأنه يتعلم من هذا التصور ذاته أن البشر كلهم إخوة.. وثالثها: شعوره بأن تبعة ضلال الناس – إذا ضلوا– إنما تقع على عاتقه هو، ما لم يبين لهم –بعد ما عرف وتبين– وهي تبعة ثقيلة تنوء بضميره، وتنوء بكاهله، وقد علم أنها تبعة الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم– وأنه هو مستخلف فيها عن الرسل، ومسؤول عنها بعدهم.

"**رسلاً مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**" ..

(النساء: 165)

"**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**".

(الإسراء: 15)

وهو يؤديها .. أخيراً .. بالعمل على تحقيق منهج الله في حياة الناس، وإقامة النظام الذي ينبثق من ذلك التصور، وإقامة حياة الجماعة الإنسانية على أساس هذا النظام. باعتبار أن هذا

التصور هو "تصميم" لعالم واقعي، يراد إخراجه وتحقيقه، ليتحقق وجود الإسلام في الأرض، ولتخلص الألوهية لله، إذ لا وجود للإسلام بدون قيام مجتمع يعيش بهذا النظام، ويعترف لله وحده بالألوهية، فلا يتلقى في منهج حياته الأساسي إلا من الله. ثم ليستحق المسلمون نصر الله وتأييده الذي وعدهم إياه. وشرط له شرطاً واضحاً لا عوج فيه:

"**ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور**".

(الحج: 40، 41)

وفي طبيعة التصور الإسلامي ذاته ما يحفز الإنسان لمحاولة الحركة الإيجابية، لتحقيق هذا المنهج في صورة واقعية. فالمسلم يعرف – من تصوره الإسلامي– أن "الإنسان" قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وأنه ليس عاملاً سلبياً في نظامها فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها. وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية: لينشئ ويعمر، وليغيّر ويطوّر، وليصلح، وينمّي. وهو معانٌ على هذه الخلافة: معانٌ من الله سبحانه بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه معاونة له.

"**وهو الذي أنزل من السماء ماء، لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً. وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون**".

(النحل: 10–16)

وهو مُعان من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الذاتية، وهو يكلفه أمر الخلافة:

"**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**".

(النحل: 78)

وشرط هذه الخلافة عند المسلم معروف:

"**قلنا اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**".

(البقرة: 38، 39)

وشعوره بأنه مكلف بالعمل، ومعانٌ عليه، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون – سواء بالقياس إلى القوى الكونية، أو بالقياس إلى قدر الله تعالى –فهنالك الاستعدادات الذاتية الموهوبة له، وهناك تسخير القوى الكونية لمساعدته، وهناك التوازن بين مشيئة الله المطلقة وحركة الإنسان الإيجابية. كما أسلفنا.

وانتفاء الشعور بالسلبية يهيئه للحركة والتأثير والفاعلية. غير أن الإسلام لا يكتفي بأن يدفع عن المسلم الشعور بالسلبية. بل هو يمده بدوافع الحركة الإيجابية كذلك. إذ يعلّمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله، عن طريق حركته هو ذاته:

"**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**". (الرعد: 11)

"**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء، والله عليم حكيم**".

(التوبة: 14، 15)

"**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً**".

(الأحزاب: 60)

"**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**".

(البقرة: 251)

"**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون**". (الروم: 41)

كما يعلّمه ان الله لا يرضى منه الشعور في الضمير، والكلمة على اللسان. ولا يدعه حتى يترجم ذلك في حياته واقعاً، يحاسبه عليه، ويجازيه بحسبه .. حتى الهدى من الله إنما يناله جزاء على الجهد فيه:

"**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين**".

(العنكبوت: 69)

"**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**".

(آل عمران: 142)

"**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون. وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**".

(التوبة: 105)

بهذا كله يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عابرة، إنما هو قدر مقدور، مرسوم له طريقه ووجهته وغاية وجوده ... وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملاً إيجابياً، في ذات نفسه. وفي الآخرين من حوله. وفي هذه الأرض التي هو مستخلف فيها، وفي هذا الكون المحسوب حسابه في تصميمه ... وأنه لا يبلغ شكر نعمة الله عليه بالوجود، ونعمة الله عليه بالإيمان، ولا يطمع في النجاة من حساب الله وعذابه، إلا بأن يؤدي دوره الإيجابي في خلافة الأرض، وفق شرط الله ومنهجه، وتطبيق هذا المنهج في حياته وفي حياة غيره، والجهاد لدفع الفساد عن هذه الأرض التي هو قيم عليها والفساد في الأرض إنما ينشأ عن عدم تطبيق منهج الله في عالم الواقع، ودنيا الناس، حياة الجماعات – وأن وزر هذا الفساد –حين يقع– واقع على عاتقه هو، ما لم يؤد الشهادة لله في نفسهن وفي غيره، وفي الأرض كلها من حوله.

وتصوّر المسلم للأمر على هذا النحو، لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه، كما يرفع من اهتماماته. بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه، وبثقل العبء الذي يحمله،

ويكدح فيه حتى يلاقي الله ربه، وقد أدى الأمانة، وأدى الشهادة، ووفى بحق النعمة – فيما يملك من الطاقة– وطمع في النجاة من عذاب الله، وزحزح عن النار...

* * *

الواقعيــة

" **قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا؟** "

والخاصية السادسة من خواص التصور الإسلامي هي .. الواقعية[1] .. فهو تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي. لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع "مثاليات" لا مقابل لها في عالم الواقع، أو لا وجود لها في عالم الواقع.

ثم إن "التصميم" الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية...

ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية، أو مثالية واقعية، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج، تملك البشرية أن تصعد إليه..

وسنحاول هنا شرح هذين المدلولين من مدلولات الواقعية، في التصور الإسلامي:

إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية. ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي..

يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية، وفاعليتها الواقعية ... ويتعامل مع الحقيقة الكونية، متمثلة في مشاهدها المحسوسة، المؤثرة. أو المتأثرة ...

ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناسّي كما هم في عالم الواقع.. الإله الذي يتعامل معه هذا التصور هو "الله" المتفرد بالألوهية، وبكل خصائص الألوهية. ولكن هذه الخصائص كلها من عالم الواقع، ذات أثر في عالم الواقع، يمكن إدراك آثارها الواقعية، ولا يضرب العقل البشري في التيه ليتمثلها على هواه، في سلسلة من القضايا المنطقية المجردة – على طريقة "الميتا فيزيقا" بصفة عامة –ولكنها تتمثل في آثاره –سبحانه– في هذا الكون..

---

(1) نحن نستخدم هذا التعبير بمعناه الذي يعطيه لفظه العربي، مجرداً من كل ما علق به من معنى اصطلاحي تاريخي في البيئات الأخرى .. ونقصد به على الأخص: التحقق في عالم الواقع. ومن مراجعة الفصل كله يزداد هذا المعنى جلاء وتحديداً.

فالألوهية وخصائصها واقعية الأثر في هذا الكون. والإدراك البشري يحال إلى هذه الآثار الواقعية، ليرى فيها خصائص الألوهية، ممثلة في الصنعة الإلهية:

"فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تُظهرون. يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون. ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينزل من السماء ماء، فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. ومن آياته أن تقوم السماوات والأرض كل له قانتون. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده – وهو أهون عليه– وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم".

(الروم: 17–27)

" إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.. ذلكم الله .. فأنى تؤفكون؟ فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً .. ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً، نخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون والرمان، مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وجعلوا لله شركاء الجن –وخلقهم– وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟ وخلق كل

شيء، وهو بكل شيء عليم.. ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء، فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير".

(الأنعام: 95–103)

"**قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. الله خير أم ما يشركون؟. أم من خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون. أم من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أم من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكرون. أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى عما يشركون. أم من يبدأ الخلق ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين".**

(النمل: 59–64)

"**فاطر السماوات والأرض، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً، ومن الأنعام أزواجاً، يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء. وهو السميع البصير. له مقاليد السماوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم".**

(الشورى: 11–12)

"**إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده".**

(فاطر: 41)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع إله "موجود"، يدل خلقه على وجوده، "مريد". "فعال لما يريد" تدل حركة هذا الكون وما يجري فيه على إرادته وقدرته.

ومن ثم يفترق تصور الإله في الإسلام افتراقاً رئيسياً عنه في تصورات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين. حيث تتعامل تصوراتهم مع إله "مثالي" يفرضون هم عليه "مثالية" من صنع عقولهم، ومن تصورات أحلامهم. وهو إله لا إرادة له ولا عمل. لأن هذا من مقتضى كماله أو مثاليته! ثم

يضطرهم هذا الافتراض إلى افتراض وسائط شتى بين الإله والخلائق، وإلى تصورات وثنية وأسطورية كالتي كانت سائدة في الوثنية الإغريقية:

"فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة الأولية أو الهيولي "Hyle" والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من الهيولي .. وبين ذلك كائنات على درجات، تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي.

"وهذه الكائنات المتوسطة، بعضها أرباب، وبعضها أنصاف أرباب، وبعضها نفوس بشرية. وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة، ليعلل بها ما في العالم من شر ونقص وألم، فإن العقل المطلق كمال لا يحده الزمان والمكان، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة. فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولت الخلق، لتوسطها بين الإله القادر والهيولي العاجزة.. فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين !!! ".

"وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع، لأنها تتغير وتتلون، وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال".

" وإنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره. وفي العقل المجرد تستقر الموجودات "الصحائح" أو المثل كما سميت في الكتب العربية. وهي كالعقل المجرد خالدة دائمة. لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد !!! "

" وهذه الصحائح هي المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولي. فكل شجرة مثلاً فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية. فأين هي الشجرة التي لا نقص فيها؟ هي في عقل الله منذ القدم. وكل تلبس بالمادة من خصائص الشجرية، فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى"[1].

"والله عند أرسطو هو العلة الأولى، أو المحرك الأول.

---

(1) عن كتاب "الله" للأستاذ العقاد ص 137.

" فلا بد لهذه المتحركات من محرك، ولابد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه. وهكذا حتى ينتهي العقل إلى محرك بذاته، أو محرك لا يتحرك، لأن العقل لا يقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية.

"وهذا المحرك الذي لا يتحرك لابد أن يكون سرمداً، لا أول له ولا آخر، وأن يكون كاملاً منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد، وأن يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود.

" وهذا المحرك سابق للعالم في وجوده، سبق العلة لا سبق الزمان، كما تسبق المقدمات نتائجها في العقل، ولكنها لا تسبقها في الترتيب الزمني. لأن الزمان حركة العالم، فهو لا يسبقه. أو كما قال: "لا يُخلَق العالم في زمان".

"وعلى هذا يقول أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذي يقارب اليقين. إلا أنه يقرر في كتاب "الجدل" أن قدم العالم مسألة لا تثبت بالبرهان.

"وإجمال براهينه في هذه القضية: أن إحداث العالم يستلزم تغييراً في إرادة الله. والله منزه عن الغير. فهو إذا أحدث العالم، فإنما يحدثه ليبقى –جل جلاله– كما كان. أو يحدثه لما هو أفضل. أو يحدثه لما هو مفضول. وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو في حق الله. فإذا حدث العالم وبقي الله كما كان، فذلك عبث. والله منزه عن العبث. وإذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان، فلا محل للزيادة على كماله. وإذا أحدثه ليصبح مفضولاً، فذلك نقص يتنزه عنه الكمال!

"وإذا كانت إرادة قديمة لا تتغير، فوجود العالم ينبغي أن يكون قديماً كإرادة الله. لأن إرادة الله هي علة وجود العالم. وليست العلة مفتقرة إلى سبب خارج عنها، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذي لا سبب غيره.

"فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنجازه، لنقص الوسيلة، أو لعارض طارئ، أو لعدول عن الإرادة. وكل ذلك ممتنع في حق الله!

"وقد أفرط أرسطو في هذا القياس، حتى قال: إن الله -جل وعلا- لا يعلم الموجودات، لأنها أقل من أن يعلمها. وإنما يعقل الله أفضل المعقولات. وليس أفضل من ذاته، فهو يعقل ذاته، وهو العاقل والعقل والمعقول. وذلك أفضل ما يكون !!! "[1].

"وقد بلغ أفلوطين غاية المدى في تنزيه الله. فالله عنده فوق الأشباه. وفوق الصفات، ولا يمكن الإخبار عنه بمحمول يطابق ذلك الموضوع.

"بل هو عنده فوق الوجود !

"وليس معنى ذلك أنه غير موجود، أو أنه عدم – لأن العدم دون الوجود وليس فوق الوجود – وإنما معناه أن حقيقة وجوده لا تقاس إلى الجواهر الموجودة، ولا تدخل معها في جنس واحد، ولا تعريف واحد. فهو "أحد"[2] بغير نظير في وجوده، ولا في صفاته، ولا في كل منسوب إليه.

"ويغلو أفلوطين أحياناً فيقول: إن الله لا يشعر بذاته. لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها. ولكنه لصفات وجوده يتنزه عن ذلك التمييز، ويتنزه عن ذلك الشعور !!!"[3].

وهكذا نجد في هذه التصورات، وهي أعلى ما وصل إليه الفكر البشري في تصور كمال الله وتنزيهه – إلهاً من "صنع" الفكر البشري! إلهاً لا وجود له في عالم الحقيقة والواقع! لأن صفاته وخصائصه منتزعة من فروض عقلية مجردة، لا من النظر في واقع الوجود، وما يوحى به من صفات الخالق لهذا الوجود. ولا من الوحي الذي يصف الله -سبحانه- كما هو في الحقيقة!

ومن ثم تشتط هذه التصورات في "مثالية" لا رصيد لها من الواقع. لأنها لم تؤخذ من الواقع. إنما أخذت من التجريد العقلي. والفروض العقلية. وتنتهي هذه المثالية إلى نقص وعجز

---

(1) المصدر السابق ص139-140.

(2) وهو ينفي عن إلهه الصفات. مبالغة في "أحديته" لأن الصفة إضافة على الذات تخل بالأحدية!!

(3) المصدر السابق ص 187-188.

في تصور الكمال الإلهي – كما نرى من المقتبسات السابقة – في الوقت الذي تريد أن تبالغ في تقرير هذا الكمال.

وحين تقاس هذه المحاولات إلى التصور الإسلامي، يتبين معنى "الواقعية" التي تعنيها. فالحقيقة الإلهية في التصور الإسلامي، حقيقة فاعلة في هذا الوجود، وتلتمس خصائصها وصفاتها في آثارها الواقعية في هذا الوجود. وهذا ما يفصله القرآن الكريم وهو يصف الحقيقة الإلهية للناس، وهو يعرّفهم بربهم تعريفهاً يسيراً عميقاً واضحاً، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس، في منطق فطري واقعي جميل.

بمثل هذه الواقعية يواجه التصور الإسلامي الكون.. فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد. وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار وقوى وطاقات. لا مع الكون الذي هو "فكرة" مجردة عن الشكل والقالب. أو الكون الذي هو "إرادة" ممثلة في شكل وقالب. ولا مع الكون الذي هو "هيولي" ومادة أولية غير مشكلة، أو الكون الذي هو "صورة" أو "مثال" في العقل المطلق! أو الكون الذي هو "الطبيعة" الخالقة! التي تطبع الحقائق في العقل البشري! ولا مع الكون الذي هو عدم أو شبيه بالعدم.. إلى آخر هذه الأسماء، التي ليس لها مدلول "واقعي" يتعامل معه "الإنسان".

الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان، ويوجه إليه قلبه وعقله في القرآن. هو هذه السماوات والأرض. هذه النجوم والكواكب.. هذه الكائنات الميتة والحية. والظواهر الكونية هي هذه الحياة وهذا الموت. وهذا الليل وهذا النهار. وهذا النور وهذا الظلام. وهذا المطر والبرق والرعد.. وهذا الظل وهذا الحرور. وهذه الأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي، وذات الآثار الحقيقية.

وحين يوجه الإسلام الإدراك الإنساني إلى هذا الكون .. كدليل على وجود خالقه ووحدانيته، وقدرته وإرادته، وهيمنته وتدبيره، وعلمه وتقديره... فإنه يوجهه إلى هذا الكون ذي الكينونة الواقعية، والآثار الواقعية .. ولا يوجهه إلى كون هو "فكرة" مضمرة، أو "إرادة" منفّذة، ولا يوجهه إلى كون هو صورة في عقل الإله، أو "هيولي" تعارض تلك الصورة، أو تشوهها عندما

تتلبس بها! ولا يوجهه إلى كون هو من صنع العقل، أو إلى كون هو صانع العقل.. إلى آخر هذه التصورات البحتة التي تتعامل مع نفسها، ولا تتعامل مع الواقع الكوني إطلاقاً!

الكون في التصور الإسلامي هو هذه الخلائق التي أبدعها الله، وقال لها: كوني فكانت، والتي نسقها الله بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتي هي خاضعة لله، عابدة له، مسخرة لأمره، مؤدية لما أراده منها، ولما سخرها له، على أحسن وجه من الأداء:

"**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**".

(الأنعام: 1)

"**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يدبر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه. ذلكم الله ربكم فاعبدوه، أفلا تذكرون؟" ... " هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون. إن في اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون**".

(يونس: 3-6)

"**الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى. يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يُغشي الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**".

(الرعد: 2-4)

"**ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين" ... "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وغن**

من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه، وما أنتم له بخازنين. وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون".

(الحجر: 16-23)

"**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكنانا".**

(النحل: 81)

"**أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي. أفلا يؤمنون؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون. وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون".**

(الأنبياء: 30-33)

"**وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق. وأنه يحي الموتى، وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور".**

(الحج: 5-7)

"**ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم. وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم. إن الإنسان لكفور".**

(الحج: 65-66)

"**ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق، وما كنا عن الخلق غافلين، وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض، وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات ونخيل وأعناب، لكم فيها فواكه كثيرة، ومنها تأكلون".**

(المؤمنون: 17-19)

"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها، وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه، إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور".

(فاطر: 27–28)

"أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها، وما لها من فروج، والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً. كذلك الخروج"..

(ق: 6–11)

"تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت. فارجع البصر. هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئاً، وهو حسير، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح، وجعلناها رجوماً للشياطين".

(الملك: 1–5)

"ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل؟ ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً. وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً، وجعل النهار نشوراً. وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً. لنحيي به بلدة ميتاً، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً".

(الفرقان: 45–49)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع كون له وجود واقعي. يختلف بطبيعة الحال عن "وجود الله" سبحانه. ولكنه وجود له خصائص مدركه من واقع هذا العالم، وليست منتزعة من تصورات ذهنية مجردة، ولا من دعاوى يمليها الهوى من غير دليل!

وتتضح واقعية هذا الكون في التصور الإسلامي، حين نستعرض –على سبيل المثال– تصور "البراهمية". واعتبارها أن الوجود الواحد هو وجود "براهما" – الإله الأعظم – أما هذا الكون المادي فهو "عدم محض يقابل ذلك "الوجود" .. غير أن "الوجود" حلّ في "العدم" ومن ثم وجد الشر في العالم. لأن الوجود خير محض وكما محض. أما العدم، فهو شر محض أو نقص محض. وخطة الإنسان للتخلص من الشر –وهو كل ما له جسم– تنحصر من هذا الجسم، لكي يعود "الوجود" الذي فيه إلى وصفه المطلق. وينطلق من إسار هذا "العدم" الناقص الشرير الذي حل فيه!.

كذلك تتضح واقعية الكون في التصور الإسلامي، حين نراجع تصور أفلاطون لهذا الوجود المادي. وأنه مجرد ظل لعالم المثل. فالشجرة التي تراها هي ظل لمثال الشجرة المكنون في العقل المطلق! وهو ناقص لا يمثل كمال المثال الذي هو في عقل الإله و "النفس الكلية" – التي هي من عالم المثل– هي الصلة بين الأشياء "المثالية" كما هي في العقل المطلق، والأشياء الصورية ظلال المثل –غير الحقيقية– التي هي في عالم المادة، الذي نلمسه ونراه!

وأفلوطين – كما تقدم– يرى أن هناك "الأحد" وهو الإله. وقد صدر عنه "العقل" وعن العقل صدرت الروح أو "النفس الكلية" وهذه أوجدت العالم المحسوس نيابة عن العقل! – وهذا العالم المحسوس أصله المادة. وهي أحط الموجودات. وهي "ظلام" ! وهي شر وفساد!

... الخ ... الخ.

وحين توازن هذه التصورات المنتزعة من لا شيء! إلا من خيالات العقل البشري وتأويلاته، دون تلبس بواقعيات هذا الكون وحقائقه الموضوعية .. حين توازن هذه التصورات بالتصور الإسلامي، كما تمثله تلك النصوص القرآنية التي سردناها –وراءها في القرآن كثير– يتبين معنى "الواقعية" الذي نعنيه في التصور الإسلامي.

كذلك يتعامل التصور الإسلامي مع الإنسان .. مع هذا الإنسان الواقعي، الممثل في هؤلاء البشر كما هم، بحقيقتهم الموجودة!. مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والكينونة الخاصة. الإنسان من لحم ودم وأعصاب. وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق،

والرغائب والضرورات. الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ويحيا ويموت. ويبدأ وينتهي. ويؤثر ويتأثر. ويحب ويكره. ويرجو ويخاف. ويطمع وييأس. ويعلو وينحط. ويؤمن ويكفر. ويهتدي ويضل. ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل. إلى أخر سمات الإنسان الواقعي، وصفاته المميزة:

"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيباً".

(النساء: 1)

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير".

(الحجرات: 13)

"سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون".

(يس: 36)

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً. ثم أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين".

(المؤمنون: 12-14)

"هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً".

(الإنسان: 1-3)

"قتل الإنسان! ما أكفره! من أي شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره. ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره".

(عبس: 17-22)

"وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً. فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه. كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون".

(يونس: 12)

"وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذاً لهم مكر في آياتنا. قل الله أسرع مكراً. إن رسلنا يكتبون ما تمكرون".

(يونس: 21)

"ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة، ثم نزعناها، إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته، ليقولن: ذهب السيئات عني. إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير".

(هود: 9-11)

"ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد" ... "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد"...

(البقرة: 204-207)

وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع "الإنسان" الذي هو كائن واقعين له خصائصه، وله مشخصاته وله فاعليته وله انفعاله، وله تأثره وله تأثيراته.. لا مع معنى مجرد، أو فرض من الفروض لا رصيد له من الواقع.

إنه لا يتعامل مع "الإنسانية" كمعنى مجرد، ولا يتخذها إلهاً يتوجه إليه بالعبادة[1] بينما هذا المعنى المجرد لا وجود له، أو لا ضابط لهن في عالم الواقع.. ولا يتعامل مع "العقل

(1) كما يرى فيرباخ من فلاسفة المذهب الوضع.

المطلق"[1]. ككائن مشخص، لأن العقل المطلق ليست له كينونة واقعية. إنما هناك العقل المفرد، في كل فرد على حدة. ومن ثم فليس هو الذي يخلق الكون أو يخلق الروح[2].

إنـه يختلـف عـن "المثاليـة العقليـة" التـي تتعامـل مـع مقولات عقليـة بحتـة، لا صـلة لهـا بالموجودات المؤثرة والمتأثرة في الكون والحياة.

وفي الوقت نفسه يفترق عن "الوضعية الحسية" التي تتخذ من الطبيعة إلهاً يخلق العقل! ويخلق المدركات العقلية! فالله –في التصور الإسلامي– هو خالق "الطبيعة" وخالق "الإنسان"! والعقل الإنساني يدرك نواميس الطبيعة، ويتعلم قوانينها، ويتعرف إلى طاقاتها ومدخراتها، ويؤثر فيها تأثيراً إيجابياً، ويتأثر بها تأثراً حسياً وعقلياً .. في توازن واعتدال.

وكأنما كان الإسلام –بل هو كان– ينظر من وراء القرون إلى هذه اللوثات التي ستصيب البشرية، على أيدي "الفلاسفة" و "المفكرين" المحدثين .. من "مثالية عقلية" إلى "وضعية حسية" إلى "مادية جدلية" ... فصاغ تصوره في هذا التوازن العجيب. الشامل المتكامل. ليستقر منه الضمير البشري على قرار ثابت. وليعود إليه الإدراك الفصل. ويجد عنده الهدى والنور في متاهات العقول والأهواء؟

وصدق الله العظيم:

"**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**"

(الإسراء: 9)

" **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال: إنني من المسلمين**".

(فصلت: 33)

فأما المدلول الثاني للواقعية في التصور الإسلامي، فيتعلق بطبيعة المنهج الذي يقدمه للحياة البشرية. وواقعية هذا المنهج، مع طبيعة الإنسان، وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته في الكون، ومدى طاقاته الواقعية الحقيقية:

---

(1) كما يرى نتشه من فلاسفة المثالية العقلية.

(2) كما يرى أفلوطين زعيم الأفلاطونية الحديثة.

إن "الإنسان" -في التصور الإسلامي- هو هذا "الإنسان" الذي نعهده. هذا الإنسان بقوته وضعفه. بنوازعه وأشواقه. بلحمه ودمه وأعصابه، بجسمه وعقله وروحه ... إنه ليس الإنسان كما يريده خيال جامح، أو كما يتمناه حلم سابح مع قضايا ذهنية من قضايا المنطق الشكلي! كما أنه ليس الإنسان الذي يضعه المنطق الوضعي في أسفل سافلين، ويجعله مخلوقاً من مخلوقات هذه "المادة" الصماء! أو من مخلوقات "الاقتصاد"!

إنه الإنسان الذي خلقه الله ليستخلفه في هذه الأرض، فيقوم فيها بالخلافة الحركية الإيجابية، التي تنشئ وتبدع في عالم المادة ما يتم به قدر الله في الأرض والأحياء والناس.

إنه الإنسان "الواقعي" كما أسلفنا. ومن ثم فإن المنهج الذي يرسمه له الإسلام منهج واقعي كذلك. منهج حركي. تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان، وتكوينه وواقعية لحمه ودمه وأعصابه، وجسمه وعقله وروحه. الممتزجة في ذلك الكيان.

والمنهج الإسلامي للحياة -على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته- هو في الوقت ذاته منهج لهذا الإنسان- في حدود طاقاته الواقعية- ونظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش على هذه الأرض. ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج ويتناسل ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله.

وهو يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله ورذائله وقوته وضعفه .. فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يحتقر دوره في الأرض، ولا يهدر قيمته في صورة ما من صور حياته. كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يخلع عليه شيئاً من خصائصها. كذلك لا يتصوره ملكاً نورانياً شفيفاً لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادي، ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري.

ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، وأكمل وضع، يبلغ إليه الإنسان، في أي زمان وفي أي مكان.

وليس هنا مكان تفصيل هذه الحقيقة. فسيجئ موضعها في القسم الثاني من هذا البحث عند الكلام عن حقيقة الإنسان.. فنكتفي هنا بهذا القدر. لنخلص منه إلى بعض النصوص، التي

تصور واقعية المنهج الإسلامي، وانطباقها على واقعية الكائن الإنساني، مع الهتاف له دائماً بالرفعة والطهارة، وبلوغ أقصى كماله المقدر له في حدود فطرته.

"وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ لولا أنزل إليه ملك، فيكون معه نذيراً! أو يلقى إليه كنز! أو تكون له جنة يأكل منها؟ وقال الظالمون: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا، فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك: جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصوراً".

(الفرقان: 7–10)

"وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب. فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً. أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف. أو ترقى في السماء. ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه! قل: سبحان ربي! هل كنت إلا بشراً رسولاً؟".

(الإسراء: 90–93)

"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"..

(البقرة: 286)

"ويسألونك عن المحيض. قل: هو أذى. فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم، وقدموا لأنفسكم، واتقوا الله، واعلموا أنكم ملاقوه، وبشر المؤمنين".

(البقرة: 222–223)

"كتب عليكم القتال وهو كره لكم. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكمن والله يعلم وأنتم لا تعلمون".

(البقرة: 216)

"زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل: أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله، والله بصير بالعباد".

(آل عمران: 14-15)

"وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – ومن يغفر الذنوب إلا الله – ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون: أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين".

(آل عمران: 133-136)

"الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن الله كان علياً كبيراً".

(النساء: 34)

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيراً. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت. فقتلوا أولياء الشيطان. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً".

(النساء: 74-76)

"**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى. واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون**".

(المائدة: 8)

"**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين. قل: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل: إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**".

(الأعراف: 31-33)

وكلما مضينا هكذا مع النصوص القرآنية التي تقرر تكاليف الحياة الإسلامية، وتضع حدود المنهج الإسلامي للحياة، لاحظنا "الواقعية" في هذا المنهج وانطباقها على واقعية الفطرة الإنسانية، وحدود طاقاتها الموهوبة لها، وحدود الاستعدادات المهيأة للعمل والنشاط. بحيث لا تكبت طاقة واحدة، ولا تكف عن العمل، وبحيث لا تكلف كذلك أكبر من وسعها، ولا تكلف ما ليس من طبعها وفطرتها.

وتتجلى هذه الواقعية بوضوح حين ننظر مثلاً فيما تتطلبه العقيدة البراهمية من معتنقيها وحين نراها تطلب إليهم الكف عن كل ما ينمي أو يصون تكوينهم الجسدي، وذلك كي تسارع أرواحهم في الانطلاق من قيد الجسد، والخلاص من هذا "العدم" المظلم الناقص الشرير، والعودة إلى "الوجود" الكامل الخير المنير!

كذلك حين ننظر إلى التصورات الكنسية التي اصطبغت بها النصرانية، ونراها تعامل التكوين الإنساني – المؤلف من المادة والروح– في حالة ازدواج مركب كامل –كما لو كان غلطة منكرة! يجب التخلص منها، والتطلع إلى هذا الخلاص في انفصال عالم الروح عن عالم الجسد، وفي استقذار كل ما هو جسدي على الإطلاق. فضلاً على تكليف الإنسان ما لا يطاق.. على سبيل المثال، معاشرة زوجة لا يطيق عشرتها. أو الانفصال عنها –دون طلاق– مع عدم معاشرة

زوجـة أخـرى بعـدها! .. وغيـر هـذا كثيـر فـي التصـورات الكنسـية، التـي تصـادم فطـرة الإنسـان وتكوينه الواقعي!

إن الإسلام دين للواقع. دين للحياة. دين للحركة. دين للعمل والنتاج والنماء دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان. بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذي خلقت من أجلـه. وفـي الوقـت ذاتـه يبلـغ الإنسـان أقصـى كمالـه الإنسـاني المقـدر لـه، عـن طريـق العمـل والحركـة، وتلبيـة الطاقـات والأشـواق، لا كبتهـا أو كفهـا عـن العمـل، ولا إهـدار قيمتهـا واسـتقذار دوافعها..

ومن ثم تتحقق صفة "الواقعية" للمنهج الإسلامي الموضوع للحياة البشرية، تحققها للتصور الإسلامي ذاته عن الله والكون والحياة والإنسان. ويتطابق التصور الاعتقادي والنهج العملي في هذا الدين تطابقاً لا تفاوت فيه.

ومن ثم ينطلق الإنسان بكل طاقاته، يعمّر في هذه الأرض ويغيرن وينمي في موجوداتها ويطوّر، ويبدع في عالم المادة ما شاء الله له أن يبدع. لا يقف في وجه حاجز من التصور الاعتقادين ولا من المنهج العملي. فكلاهما "واقعي" مطابق لواقعية الكينونة الإنسانية وللظروف الحقيقية المحيطة بها في هذا الكون من حولها. وكلاهما صادر من الجهة التي صدر عنها الإنسان، والتي زودته بطاقاته واستعداداته.

ومن ثم يتسنى للإنسان، المؤمن بهذه العقيدة، المدرك لحقيقة التصور الإسلامي، وللمنهج الإسلامي المنبثق منه، أن ينشئ من الآثار الواقعية في هذه الأرض، وأن يحقق من الإبداع المادي فيها، وفاق ما ينشئه من الصلاح الأخلاقي، وكفاء ما يحققه من الرفعة والتطهر. في تناسق وتوازن وشمول وإيجابية وواقعية:

"**فطرة الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**".

(الروم: 30)

التوحيـد

"وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ

نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون"

التوحيد هو المقوّم الأول للتصور الإسلامي، بما أنه هو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور، بما أن التصور الإسلامي يتفرد بهذه الصور الخالصة من التوحيد، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في الأرض جميعاً.. وبهذا الاعتبار نتحدث هنا عن "التوحيد" ضمن "خصائص التصور الإسلامي" كما سنتحدث عنه في القسم الثاني من هذا البحث، ضمن "مقومات التصور الإسلامي"..

نتحدث عنه هنا ضمن الخصائص، لنبين نوع تفرد التصور الإسلامي بهذه الخاصية، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في جنبات الأرض.

ونبادر فنقرر أن "التوحيد" كان هو "الخاصية" البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول. كما أنه كان "المقوّم الأول" في دين الله كله .. وأن "الإسلام" – على إطلاقه– كان هو الدين الذي جاء به كل رسول. بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده، واتباع منهج الله –وحده– في كل شؤون الحياة، والتلقي من الله –وحده– في هذا الشؤون كلها، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعبادة لله وحده سواء في الشعائر التعبدية أو في نظام الحياة الواقعية .. ولكن التحريفات والانحرافات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات، لم تبق في الأرض كلها من تصور ديني صحيح، إلا التصور الذي جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم– وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس .. ومن ثم أصبح "التوحيد" خاصية من خصائص هذا الدين.

هنالك اعتبار آخر يجعل من حقنا أن نقرر هذه الحقيقة .. حقيقة أن التوحيد خاصية لهذا التصور. وهو المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في العقيدة الإسلامية، والجوانب التي تمتد

إليها في هذا التصور، وفيما يقوم على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسلوك وتنظيم لجوانب الحياة الواقعية .. فقد امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة على حياته هو بحذافيرها. كما أمتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها: خافيها وظاهرها. صغيرها وكبيرها. حقيرها وجليلها. شعائرها وشرائعها. اعتقاديها وعمليها. فرديها وجماعيها. دنيويها وأخرويها .. بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة.. كما سبق أن بينا في خاصية "الشمول" .. وكما سنبين بالتفصيل في القسم الثاني من هذا البحث عند الكلام عن "حقيقة الألوهية".

يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية .. ألوهية يتفرد بها الله سبحانه. وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه.. وكما يتفرد الله – سبحانه– بالألوهية، كذلك "يتفرد" –تبعاً لهذا– بكل خصائص الألوهية .. وكما يشترك كل حي وكل شيء– بعد ذلك – في العبودية، كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية.. فهناك إذن وجودان متميزان. وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله. والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد..

هذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي .. ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى .. وقيام التصور الإسلامي على هذه القاعدة الأساسية هو الذي يجعلها إحدى خصائصه كما أسلفنا.

ولقد سبق القول بأن "التوحيد" كان هو قاعد كل ديانة جاء بها من عند الله رسول. والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة، ويؤكدها، ويكررها في قصة كل رسول، كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين:

"**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**".

(الأعراف: 59)

"وإلى عاد أخاهم هوداً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون؟".

(الأعراف: 65)

"وإلى ثمود أخاهم صالحاً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم.. ".

(الأعراف: 73)

"وإلى مدين أخاهم شعيباً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم ... ".

(الأعراف: 85)

"وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا، فقال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً، لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاهم نودي: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا غله أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري".

(طه: 9-14)

"وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم. أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به. أن اعبدوا ربي وربكم. وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".

(المائدة: 116-118)

"وما أرسلنا من قبلك من رسول، إلا نوحي إليه: أنه لا إله إلا أنا فاعبدون".

(الأنبياء: 25)

ولكن هذا التوحيد الذي جاء به الرسل جميعاً، حرف ودخلت فيه الأساطير في شتى المعتقدات. سواء في الديانات التي تنسب إلى السماء، أو في الوثنيات التي اختلطت فيها بقايا

الديانات السماوية بالأساطير في شتى الأزمان. والتي ذكرنا طرفاً منها في فصل "تيه وركام" ... وأطرافاً أخرى في بعض الفصول السابقة من هذا البحث.

ولكي ندرك حقيقة أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامي –وقبل أن نعرض المساحة التي تشغلها حقيقة التوحيد في هذا التصور– يحسن أن نلم ببعض التصورات الأخرى فيما يختص بتصور الألوهية والعبودية ... وبخاصة بعض التصورات التي اشتملت على تصور وجودين متميزين، أو على نوع من التوحيد للإله:

الهندوكية مثلاً اعترفت بواحد هو وحده "الموجود" وهو "براهما" وجعلت من صفاته: التفرد بالكمال، والتفرد بالخير، والتفرد بالدوام، والتفرد بالأزلية..

وجعلت ما عدا هذا الواحد الموجود "عدما" لا وجود له .. فهذه الأكوان وما فيها عدم!

ولكنها من جانب آخر جعلت "الوجود" الذي هو الخير والكمال يحل في "العدم" الذي هو الشر والنقص .. فبراهما حالٌّ في كل جزءِ من أجزاء هذا العالم –الذي هو عدم– فكل جزءِ من أجزاء هذا العالم– بما في ذلك الإنسان– مؤلف إذن من وجود وعدم. من خير وشر. من كمال ونقص. من بقاء وفناء!

ومهمة الهندوكي المؤمن إذن هي المحاولة المستمرة لتخليص الوجود والخير والكمال والبقاء الذي في كيانه، من العدم والشر والنقص والفناء، "ليصير" براهما .. ومن هنا حرصه على إفناء جسمه –الذي هو العدم– لينطلق "الوجود" الحالّ فيه، ويصبح طليقاً .. وهذه هي درجة "النرفانا" وهي تمثل الخلاص والعودة "براهما"!

ومع ذلك فقد شاب هذا التوحيد –على ما به من حلول– شائبة من "التثليث".. إذ اعتبر "براهما" صورة من صور ثلاث للإله الواحد: الإله "براهما" في صورة الخالق. والإله "فشنو" في صورة الحافظ. والإله "سيفا" في صورة الهادم.

ثم جعلوا "الكارما" هي "القدر" الغالب على الآلهة وعلى الأفلاك. وهو الذي يكرر على العالم دورات الخلق والفناء .. فلم تسلم عقيدة التوحيد حتى في صورتها تلك المليئة بالإحالات!

واشتملت ديانة أخناتون على لون من التوحيد. إذ وصف أخناتون إلهه "أتون" بأوصاف الوحدانية، والفاعلية، ومنها خلق هذا الكون وحفظه وتدبيره. وكان هذا أعلى تصور عرفته البشرية في غير الديانات السماوية– وإن كان ينبغي ألا تغفل أثر الديانات السماوية في عقيدة أخناتون هذه– ولكن مع ذلك شابتها شائبة من عقائد الوثنية. إذ جعل هذه الشمس المادية رمزاً لإلهه، وجعل اسمها مرادفاً لاسمه. فاختلطت عقيدة التوحيد بهذا الأثر الوثني الغريب!

وفرق أرسطو بين إله "واجب الوجود" وكون "ممكن الوجود" .. غير أنه جعل إلهه هذا الواحد، سلبياً تجاه الكون. فهو أولاً لم يخلق الكون. ولا علاقة له بتدبيره. إنما هذا الكون يتحرك بشوق كامن فيه إلى واجب الوجود، تقل من حالة "مكان الوجود" إلى حالة "الوجود".

وكان التوحيد ديانة إبراهيم عليه السلام، ووصى به إسماعيل وإسحاق. وكان يعقوب ابن اسحاق يدين بالتوحيد، ووصى به بنيه كذلك في ساعة موته، كما يحكي ذلك القرآن الكريم:

"**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ: يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنت مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت. إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق –إلهاً واحداً– ونحن له مسلمون**".

(البقرة: 130–133)

فلما جاء موسى رسولاً لبني إسرائيل جاء بالتوحيد – وما تزال اليهودية تعتبر ديانة توحيد– إلا أن بني إسرائيل من قبل موسى ومن بعده، شوهوا هذا التوحيد، وحرفوا الكلم عن مواضعه. فجعلوا إلهاً خاصاً لبني إسرائيل وحدوه. ولكنهم جعلوه إلهاً قومياً ينصرهم على أصحاب الآلهة الآخرين! وذلك فوق ما افتروا على "إله إسرائيل" ذاته فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه. وهو لا يعذبنا بذنوبنا، وقالوا: "عزير ابن الله" وقالوا عنه: إن له أبناء تزاوجوا مع بنات الناس فولدوا العمالقة، الذين خاف الإله منهم أن يصبحوا آلهة مثله، فنزل وبلبل ألسنتهم! وقالوا: إن يعقوب صارع هذا الإله مرة، وضربه فخلع حقوه! وقالوا عنه: إنه يتمشى في ظلال الحديقة ويتبرد

بهوائها، وقالوا عنه: إنه يحب ريح الشواء... إلى آخر هذه الأساطير التي شوهت وطمست عقيدة التوحيد.

وجاء عيسى عليه السلام بالتوحيد.. ثم انتهت عقائد النصارى إلى التثليث، الذي يحاولون أن يصفوه بالتوحيد، بين الأقاليم الثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس. مع الاختلاف على طبيعة الأقنوم الابن ومشيئته .. مما يجعل "التوحيد" في هذه الديانة، كما تفرقت بها الطوائف، دعوى لا حقيقة لها من واقع التصورات المتنوعة للكنائس المتعددة[1]..

وهكذا نستطيع أن نقول باطمئنان: إن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد الذي بقي قائماً على أساس التوحيد الكامل الخالص. وإن التوحيد خاصية من خصائص هذا التصور، تفرده وتميزه من بين سائر المعتقدات السائدة في الأرض كلها على العموم.

والآن –بعد هذا البيان– نستطيع أن نبين –في اختصار– طبيعة وحدود هذا التوحيد.

تقرر العقيدة الإسلامية –كما تقدم– أن هناك ألوهية وعبودية. ألوهية يتفرد بها الله –سبحانه– ويشترك فيها كل حي وكل شيء. كما تقرر تفرد الله –سبحانه– بخصائص الألوهية، وتجرد العبيد من هذه الخصائص.. ومن ثم ترتب على هذا التصور كل مقتضياته وكل نتائجه في الحياة الإنسانية..

فالله –سبحانه– واحد في ذاته، متفرد في كل خصائصه ..

"**قل: هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد، ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد**".

(سورة الإخلاص)

"**ليس كمثله شيء**"

(الشورى: 11)

"**فلا تضربوا لله الأمثال**"

(النحل: 74)

والله –سبحانه– خالق كل شيء:

---

(1) يراجع فصل تيه وركام من هذا البحث

"ذلك الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء. فاعبدوه. وهو على كل شيء وكيل".

(الأنعام: 102)

"وخلق كل شيء فقدره تقديراً".

(الفرقان: 2)

"قل: أرأيتم ما تدعون من دون الله. أروني ما خلقوا من الأرض؟ أم لهم شرك في السماوات! أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين".

(الأحقاف: 4)

والله –سبحانه– هو مالك كل شيء:

"قل: لمن ما في السماوات والأرض؟ قل لله"

(الأنعام: 12)

"ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما"

(المائدة: 17)

"الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك"

(الفرقان: 2)

والله –سبحانه– هو الرازق لكل من خلق وكل ما خلق:

" يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم. هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون؟".

(فاطر: 3)

"وكأي من دابة لا تحمل رزقها. الله يرزقها وإياكم"

(العنكبوت: 60)

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها".

(هود: 6)

والله –سبحانه– هو مدبر كل شيء، ومصر كل شيء، وحافظ كل شيء:

"إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده".

(فاطر: 41)

"ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره"

(الروم: 25)

"وكل شيء أحصيناه في إمام مبين"

(يس: 12)

والله –سبحانه– هو صاحب السلطان المسيطر القاهر على كل شيء:

"وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون. ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق. ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين".

(الأنعام: 61–62)

"قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض".

(الأنعام: 65)

"قل: أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من إله غير الله يأتيكم به"؟

(الأنعام: 46)

وكل خلائق الله –سبحانه– تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت:

"... ثم استوى إلى السماء وهي دخان. فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين".

(فصلت: 11)

"ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره. ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السماوات والأرض. كل له قانتون".

(الروم: 25–26)

"**ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون**".

(النحل: 49)

"**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**".

(الإسراء: 44)

ونكتفي بهذا القدر من مجالات التوحيد في التصور الإسلامي، حيث يتبين منها إفراد الله-سبحانه- بالألوهية، وتقرير عبودية كل من عدا الله وكل ما عداه لألوهيته. وقيام العلاقات بين الخلق والخالق على أساس العبودية وحدها. لا على أساس نسب ولا صهر. ولا مشاركة ولا مشابهة، في ذات ولا في صفة ولا في اختصاص... وهذا القدر يكفي في بيان أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامي. وهي الحقيقة التي نريد تقريرها في هذا القسم الأول من البحث. أما تفصيل هذه الحقيقة فموضعه في القسم الثاني عند الكلام عن "حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية".

غير أن الحديث عن خاصية التوحيد لا يتم حتى نشير كذلك -بمثل هذا الاختصار- إلى مقتضيات هذا التوحيد المطلق الكامل الشامل الحاسم الدقيق، في الحياة الإنسانية ... وهذه المقتضيات تمثل كذلك كيف أن التوحيد خاصية من خصائص التصور الإسلامي:

إن من مقتضيات توحيد الألوهية -في التصور الإسلامي- إفراد الله -سبحانه- بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر، كإفراده -سبحانه- بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء.

وكما أن المسلم يعتقد أن لا إله إلا الله، وأن لا معبود إلا الله، وأن لا خالق إلا الله، وأن لا رازق إلا الله، وأن لا نافع أو ضار إلا الله، وأن لا متصرف في شأنه -وفي شأن الكون كله- إلا الله... فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى ..

كذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الإنسان من جنسه إلا الله .. فيتلقى من الله وحده

التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات .. سواء..

فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية، والطلب والرجاء والخشية والتقوى، كالتلقي من الله وحده في التشريع والتوجيه، ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات .. كلاهما من مقتضيات التوحيد –كما هو في التصور الإسلامي– وكلاهما يصور المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في ضمير المسلم وفي حياته على السواء..

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الضمير وفي الحياة ربطاً وثيقاً، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود، كل ما يكلفه المسلم، سواء ما يكلفه من شعور في الضمير، أو ما يكلفه من شعائر في العبادة، أو ما يكلفه من التزام في الشريعة.. وفي السياق الواحد يرد ذكر التوحيد، وآثار الفاعلية والسلطان، في الكون وفي الحياة الدنيا والآخرة، ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله، باعتباره مقتضى توحيد الألوهية والسلطان:

"**وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .. إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .. ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله .. ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين أُتُّبعوا من الذين أتّبعوا ورأوا العذاب، وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتّبعوا: لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار.. يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون. وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء**

ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون .. يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم"...

(البقرة: 163-172)

وبالتأمل في هذا السياق القرآني نجد أنه بدأ بتقرير وحدانية الله، ووحدة الألوهية. ثم أتبع هذا التقرير بعرض المشاهد الكونية التي تتجلى فيها القدرة الإلهية. ثم أعقبها بعرض مشاهد القيامة التي يتدلى فيها السلطان الذي لا سلطان غيره ... فلما انتهى من ذلك كله أمر الناس باتباع شريعة الله في التحليل والتحريم، ونهاهم عن اتباع الشيطان، ونـدد بمن يتلقون في هذا الشأن عن عرف الجاهلية، حيث لا يجوز التلقي فيه إلا من الله. ثم أمر الذين آمنوا أن يأكلوا من الطيبات التي شرع الله حلها. إن كانوا يعبدون الله وحده –وبين لهم ما شرع لهم حرمته، لأنه هو وحده الذي يحلل ويحرم كما أنه هو وحده الذي يعبد، وهو وحده الذي يصرف هذا الكون، وهو وحده صاحب السلطان يوم القيامة. وتوحيده –سبحانه– لا يتم حتى يتجلى في الشعائر وفي الشرائع وفي الدينونة سواء.

ومثل هذا السياق القرآني المتماسك المتشابك يرد كثيراً في القرآن للدلالة على معنى "التوحيد" ومجاله. ولعله يحسن أن نذكر هنا مثالاً آخر يزيد الأمر جلاء. ويبين كذلك طريقة القرآن في عرض "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" عرضاً شاملاً متكاملاً:

"**وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق في الجنة وفريق في السعير. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ولا نصير .. أم اتخذوا من دونه أولياء؟ فالله هو الولي، وهو يحي الموتى، وهو على كل شيء قدير... وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله. ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ... فاطر السماوات والأرض، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. له مقاليد السماوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم ... شرع لكم من الدين**

ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم – بغيا بينهم– ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب.. فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا، وإليه المصير"...

(الشورى: 7–15)

وبالتأمل في هذا السياق نجد أنه بدأ بتقرير الوحي والرسالة، لينذر الرسول بيوم الجمع والدينونة في الآخرة. واختلاف مصائر المؤمنين والظالمين في الآخرة وفاقاً لاختلاف طرائقهم في الدنيا. وإعلان وحدانية السلطان في يوم الحساب. ثم اتبع ذلك ببيان وحدة الولاية ووحدة القدرة المتجلية في إحياء الموتى. ثم أعقب هذا بتقرير وحدة الحاكمية وقصرها على الله –سبحانه– كما أن عليه وحده يكون التوكل، وإليه وحده تكون الإنابة. ثم عرض مظاهر قدرته في فطر السماوات والأرض وخلق الناس أزواجاً والأنعام، مع تفرده سبحانه. "ليس كمثله شيء" ... وتفرد سلطانه "له مقاليد السماوات والأرض" وتفرده بالرزق: "يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر"... ثم عقب على هذا التفرد في الذات والصفات والفاعلية والسلطان بأنه هو وحده الشارع لا منذ هذه الرسالة ولكن منذ فجر الرسالة: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى" ونص على أن الشرع هو الدين والاستقامة عليه ونهاه عن اتباع أهواء الناس. وقرن إقراره بالإيمان إلى أمره بالعدل – وهو الحكم بين الناس وفق ما شرع الله– وأنهى السياق بالمفاصلة الكاملة بين المؤمنين الحاكمين بما شرع الله من الدين وغيرهم، والرجعة في النهاية إلى الله الذي إليه المصير...

ونحسب أن في هذين النموذجين الكفاية لبيان ذلك الارتباط الكامل في التصور الإسلامي بين توحيد الألوهية والحاكمية، ولبيان معنى التوحيد ومجاله في الحياة الإنسانية، ولتقرير أن "التوحيد" بهذا المعنى وفي هذا المجال خاصية من خصائص التصور الإسلامي.

ويبقى بعد هذا البيان لمعنى التوحيد في التصور الإسلامي ولمجاله في الحياة الإنسانية أن نقول: إن هذا التصور ينشئ في العقل والقلب آثاراً متفردة، لا ينشئها تصور آخر، كما أنه ينشئ في الحياة الإنسانية مثل هذه الآثار كذلك.

إنه ينشئ في القلب والعقل حالة من "الانضباط" لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك.

فالذي يتصور الألوهية على هذا النحو، ويدرك حدود العبودية كذلك، يتحدد اتجاهه، كما يتحدد سلوكه، ويعرف على وجه الضبط والدقة: من هو؟ وما غاية وجوده؟ وما حدود سلطاته؟ كما يدرك حقيقة كل شيء في هذا الكون، وحقيقة القوة الفاعلة فيه. ومن ثم يتصور الأشياء ويتعامل معها في حدود مضبوطة، لا تميع فيها ولا تأرجح. وانضباط التصور ينشئ انضباطاً في طبيعة العقل وموازينه، وانضباطاً في طبيعة القلب وقيمه. والتعامل مع سنن الله بعد ذلك والتلقي عنها يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقويه.

ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدبر المتصرف، وبين غيره من أصحاب التصورات التي أشرنا إليها. سواء من يتعامل مع إلهين متضادين: إله للخير وإله للشر! ومن يتعامل مع إله موجود ولكنه حالٌ في العدم! ومن يتعامل مع إله لا يعنيه من أمره ولا من أمر هذا الكون شيء! ومن يتعامل مع إله (المادة) الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يثبت على حال! إلى آخر الركام الذي لا يستقر العقل أو القلب منه على قرار.

وإن هذا التصور لينشئ في القلب والعقل "الاستقامة" ... فالإنسان الذي يدرك من حقيقة ربه ومن صفاته ومن علاقته به ذلك القدر "المضبوط" لا شك يستقيم في التعامل معه بقلبه وعقلهن ولا يضطرب ولا يطيش!

والمسلم يعرف من تصوره لربه، وعلاقته به، ما يحب ربه وما يكره منه، ويستيقنه أن لا سبيل له إلى رضاه إلا الإيمان به، ومعرفته بصفاته، والاستقامة على منهجه وطريقه. فهو لا يمت إليه -سبحانه- ببنوة ولا قرابة، ولا يتقرب إليه بتعويذة ولا شفاعة، ولا يعبده إلا بامتثال أمره ونهيه. واتباع شرعه وحكمه.

ومن شأن هذه المعرفة أن تنشئ الاستقامة في قلبه وعقله. الاستقامة باستقامة التصور. والاستقامة باستقامة السلوك.

ذلك إلى الوضوح والبساطة واليسر في التصور في السلوك.. يدرك هذا كله من يوازن بين التصور الإسلامي القائم على التوحيد -بمعناه هذا ومجاله- وبين التصور الكنسي للأقانيم الثلاثة للإله الواحد. والبنوة التي لا سبيل للنجاة إلا بالاتحاد بها. والخطيئة الموروثة التي لا يغفرها إلا الاتحاد بالابن الذي هو المسيح عليه السلام! ... إلى آخر هذه المعميات في هذه الدروب!

مثل هذا يقال عمن يتعامل مع "الطبيعة!" التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنهى ولا تأمرن ولا تطالب عبادها بفضيلة ولا عملن ولا تنهاهم عن رذيلة ولا خلق! فأنى يستقيم هؤلاء العباد على منهج أو طريق؟ وأنى يستقيم لهم عقل أو قلب، وهم لا يعلمون من حقيقة إلههم ذاك شيئاً مستقيناً على الإطلاق، وهم كل يوم على موعد لكشف شيء عنه جديد، ولمعرفة صفة أو طبع لم يكونوا يعرفونه. ولا يعرفونه إلا بالمصادفة أو بالتجريب!

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضي في استعراض الحال مع سائر التصورات التي سبق لنا عرضها في فصل، "تيه وركام" في أول هذا البحث، وفي الفصول المتفرقة بعد ذلك. وكلها لا يمكن أن توحي لأصحابها بضبط ولا استقامة في تصور أو في سلوك. كما أنها جميعاً تتسم بالغموض والتعقيد والتخليط.

ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية، هو الاستقامة والبساطة والوضوح.. وهذه هي السمة التي تجتذب الأفراد الذين يدخلون في هذا الدين من الأوروبيين والأمريكيين المعاصرين، فيتحدثون عنها، بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين.

وهي ذاتها السمة التي تجتذب البدائيين في أفريقيا وآسيا في القديم والحديث.. لأنها سمة الفطرة التي يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين.

وإن هذا التصور ليكفل تجمع الشخصية والطاقة في كيان المسلم الفرد والجماعة، وينفي التمزق والانفصام والتبدد، التي تسببها العقائد والتصورات الأخرى..

فالكينونة الإنسانية – التي هي وحدة أصل خلقتها– تواجه ألوهية واحدة تتعامل معها في كل نشاط لها. تتعامل مع هذه الألوهية اعتقاداً وشعوراً. وتتعامل معها عبادة واتجاهاً. وتتعامل معها تشريعاً ونظاماً.. وتتعامل معها في الدنيا والآخرة أيضاً..

إنها لا تتوزع في الاعتقاد بآلهة مختلفة. أو بعناصر مختلفة في الألوهية الواحدة! أو بقوى مختلفة بعضها داخل في حوزة الإله وبعضها خارج عليه مضاد له! أو بعوامل مختلفة فيها ما يقهر الإله ذاته، وليس لها هي قانون يعرف فيتفاهم معه! أو بقوى "الطبيعة" التي ليس لها كيان محدد ولا ناموس مفهوم!

وهي لا تتوزع في التوجه بالاعتقاد والشعور والعبادة إلى جهة. والتلقي في نظام الحياة الواقعية من جهة أخرى. إنما هي تتلقى من مصدر واحد في هذا وذلك، وتتبع ناموساً واحداً يحكم الضمير والشعور، كما يحكم الحركة والعمل..وهو ناموس لا يحكم الكينونة الإنسانية وحدها، إنما يحكم الكون كله كذلك.. فالكينونة الإنسانية حينما تعامل مع هذا الكون تتعامل معه في ظل هذا الناموس الواحد، بلا توزع ولا تمزق كذلك في هذا المجال.

وهذا التجمع ينشئ طاقة هائلة، لا يقف في وجهها شيء. وهذا بعض أسرار الخوارق التي أنشأتها العقيدة الإسلامية في الحياة والتاريخ البشري. فمن هذا التصور انبثقت تلك الطاقة الموحدة. التي صنعت هذه الخوارق .. الطاقة المتجمعة في ذاتها، المتجمعة كذلك مع الطاقات الكونية المتصالحة معها، لأنها تتجمع وإياها في الناموس الواحد، المتجه إلى الألوهية الواحدة. كما بينا قبل في الحديث عن خاصية الشمول.

ثم نجئ إلى الأثر المتفرد الذي ينشئه التصور الإسلامي في ضمير المسلم وفي حياته، وفي كيانه المجتمع المسلم وفي نشاطه بخاصية التوحيد التي يتضمنها ويقوم عليها ..

إنه .. تحرير الإنسان .. أو هو بتعبير آخر .. ميلاد الإنسان ..

إنه توحد الألوهية وتفردها بخصائص الألوهية، واشتراك ما عدا الله ومن عداه في العبودية وتجردهم من خصائص الألوهية .. إن هذا معناه ومقتضاه: ألا يتلقى الناس الشرائع في أمور حياتهم إلا من الله. كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلا لله. توحيداً للسلطان الذي هو أخص خصائص الألوهية. والذي لا ينازع الله فيه مؤمن، ولا يجترئ عليه إلا كافر..

والنصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى وتحدده وتجرده. بما لا يدع مجالاً لشك فيه أو جدال:

"**إن الحكم إلا لله. أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه. ذلك الدين القيم**".

(يوسف: 40)

"**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟**".

(الشورى: 21)

"**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**"

(المائدة: 44)

"**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**".

(النساء: 65)

ولا يفرق التصور الإسلامي –كما أسلفنا– بين التوجه لله بالشعائر، والتلقي منه في الشرائع .. لا يفرق بينها بوصفهما من مقتضيات توحيد الله، وإفراده –سبحانه– بالألوهية. كما أنه لا يفرق بينهما في أن الحيدة عن أي منهما تخرج الذي يحيد من الإيمان والإسلام قطعاً. كما رأينا في النصوص السابقة.. وكما يثبته نص قرآني يجمع بين المعنيين وتفسير الرسول –صلى الله عليه وسلم– لهذا النص:

"**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله –والمسيح ابن مريم– وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**". (التوبة: 31)

فأهل الكتاب الذين تتحدث عنهم الآية، اتخذوا المسيح ابن مريم رباً بمعنى ربوبية العبادة والشعائر. واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً- لا بهذا المعنى ولكن بمعنى التلقي عنهم في الشرائع والأوامر -ولكن الآية جمعت بين اتخاذهم المسيح ربا واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً. وقررت أن هذا كله مخالف لما أمروا به من عبادة إله واحد. ودمغتهم بالشرك بسبب اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً للتشريع .. ولهذا دلالته التي لا تقبل الجدال.

ثم جاء تفسير الرسول -صلى الله عليه وسلم- للآية قاطعاً في هذا الاعتبار وفوق كل جدال:

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير -من طرق- عن عدي بن حاتم -رضي الله عنه- أنه لما بلغته دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فر إلى الشام. وكان قد تنصر في الجاهلية. فأُسِرت أخته وجماعة من قومه. ثم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم – على أخته وأعطاها. فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام، وفي القدوم على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقدم عدي إلى المدينة -وكان رئيساً في قومه طيئ- فتحدث الناس بقدومه. فدخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي عنقه (أي عدي) صليب من فضة. وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله".. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: "بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم"..

وقال السدى في تفسير ذلك: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً" أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ..

والتصور الإسلامي بهذا القطع الحاسم في هذه المسألة يعلن "تحرير الإنسان" بل يعلن .. ميلاد الإنسان..

إنه بهذا الإعلان يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. "والإنسان" بمعناه الكامل لا يوجد في الأرض، إلا يوم تتحرر رقبته، وتتحرر حياته، من سلطان العباد –في أية صورة من الصور– كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء.

والإسلام –وحده– يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده– هو الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

إن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر –في صورة من الصور– يقعون في عبودية العباد .. وفي الإسلام –وحده– يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده.

وهذا هو "تحرير الإنسان" في حقيقته الكبيرة .. وهذا –من ثم– هو "ميلاد الإنسان".. فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده "الإنساني" الكامل، بمعناه الكبير، الوحيد ..

.. وهذه هي الهدية الربانية التي يهديها للناس في الأرض بعقيدة التوحيد ... وهذه هي النعمة الإلهية التي يمن الله بها على عباده وهو يقول لهم: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً"..

وهذه هي الهدية التي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أنه يهدوها –بدورهم– للبشرية كلها. وهذه هي النعمة التي يملكون أن يفيضوا منها على الناس، بعد أن يفيضوها على أنفسهم، ويرضوا منها ما رضيه الله لهم.

وهذا هو الجديد الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم، كما تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد. ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك، فهو شيء آخر غير كل ما لديها من تصورات وعقائد، وأفكار وفلسفات، وأنظمة وأوضاع .. بكل تأكيد ..

لقد قال ربعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس، وهو يسأله ما الذي جاء بكم؟ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة، وطبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها، كما تصور طبيعة تصور أهلها لها، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها ..

قال لـه: "الله ابتعثنـا، لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

وفي هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة، وتتجلى طبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها، وانطلقت بها ..

إنها إخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ... ورد أمرهم إلى الله – وحده– في المحيا والممات، في الدنيا والآخرة. وإفراد الله سبحانه بالألوهية وبخصائص الألوهية –والسلطان والحاكمية والتشريع، هي أولى هذه الخصائص التي لا نازع الله فيها مؤمن، ولا يجرؤ على منازعته إياها إلا كافر –ولا توجد حرية للإنسان، بل لا يوجد "الإنسان" ذاته، إلا بخلوصها لله.

وأصحاب عقيدة التوحيد – حين يفيئون اليوم إليها، وحين يرفعون رايتها وحدها– يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما قاله ربعي بن عامر. فالبشرية –من هذه الناحية– اليوم كما كانت يوم قال ربعي بن عامر كلمته.. إنها كلها غارقة في عبادة العباد. والتوحيد –بمعناه الشامل– هو الذي يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك وحده "يتحرر الإنسان" بل "يولد الإنسان".

وأصحاب عقيدة التوحيد –حين يفيئون إلى منهج الله الذي من به عليهم وينادون به– يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشيء الذي تفقده جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع في الأرض كلها æلا استثناء. ومن ثم يكون لهم اليوم وغداً دور جديد، ودور عالمي إنسانيبكر. ودور قيادي أصيل في التيارات العالمية الإنسانية. ودور يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني –كالدور الذي منح العرب الأميين في الجزيرة العربية، سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، وللقيادة العالمية الإنسانية.

إنهم لا يملكون أن يقدموا للبشرية اليوم أمجاداً علمية، ولا فتوحات حضارية، يبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقاً ساحاً على كل ما لدى البشرية منها .. ولكنهم يملكون أن يقدموا لها

شيئاً آخر. شيئاً أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية. إنهم يقدمون "تحرير الإنسان" بل "ميلاد الإنسان"...

وهم حين يقدمون للبشرية هذه الهدية يقدمون معها منهجاً كاملاً للحياة منهجاً يقوم على تكريم الإنسان، وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية إطلاقه بكل طاقاته لينهض بالخلافة وهو حر كريم، يملك إذن أن يقدّم وأن يقوم الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية، وهو في أوج حريته، وفي أوج كرامته، فلا يكون عبداً للآلة، ولا عبداً للبشر .. على السواء.

ألهمنا الله السداد.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

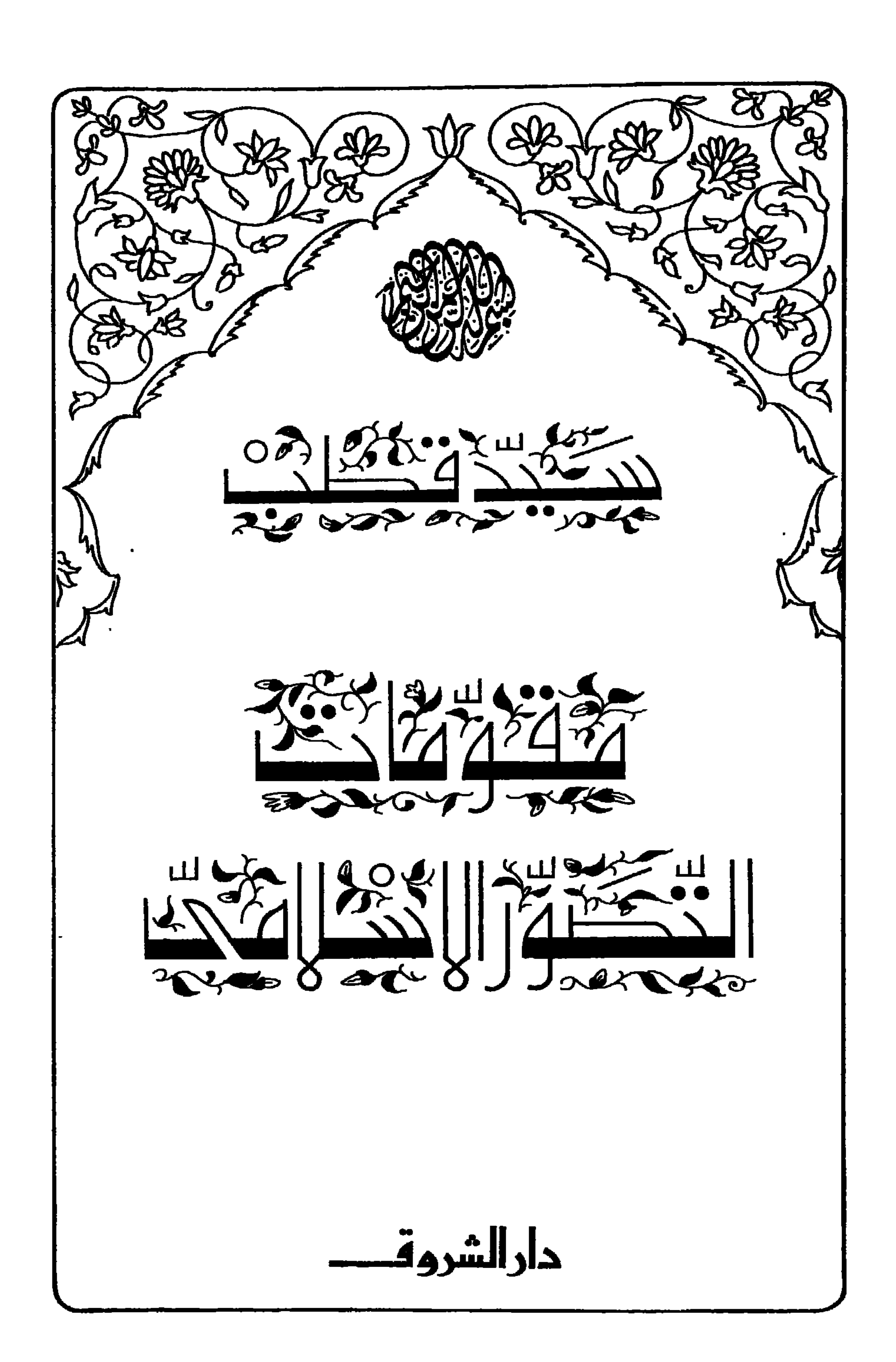
مُقَوِّمَاتُ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ

سَيِّد قُطْب

الطبعـــة الثالثـة
١٤٠٨ هـــ ١٩٨٨ م
الطبعـــة الرابعـــة
١٤١٤هـــ١٩٩٣م
الطبعـــة الخامســة
١٤١٨ هـــ١٩٩٧م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)


سيد قطب
مقومات التصور الإسلامي
دار الشروق

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تأخر هذا الكتاب كثيرًا عن موعده الذى قدرناه له ، والذى توقعه كثير من الناس الذين علموا بوجود مخطوطته . . حتى شاء الله له أن يصدر في اللحظة التى قدرها ـ سبحانه ـ لصدوره .

كان الشقيق الشهيد قد انتهى من كتابته فى الأيام الأخيرة من وجوده فى السجن ، قبل تنفيذ الحكم عليه من قبل الطغاة المتربصين بالإسلام . وبدعاته الذين أقضوا مضاجعهم بكلمة الحق التى لم يطقها طاغية فى التاريخ ، ولم يصبر على دعاتها طاغية فى التاريخ . . كلمة « لا إله إلا الله » التى تعنى أن الولاء والعبودية والطاعة ينبغى أن تكون كلها الله ، لا لأحد من أولئك الطغاة .

وكان كتاب « المعالم » [1] قد بلغ مبلغه من إثارة حنق الذين لا يطيقون « لا إله إلا الله» ، ليس فقط لأن الكتاب كله مركز حول المعنى الحقيقى للا إله إلا الله ، وكونها منهج الحياة ، ولكن لأن الشهيد ـ فى هذا الكتاب بالذات ـ أراد أن يردّ لها مدلولها الحقيقى . الذى نزلت به من عند الله ، والذى صنع الله به ما صنع فى واقع الأرض ، من إخراج الأمة المثالية التى وصفها خالقها سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وانطلاق هذه الأمة بهذا الرصيد الهائل تحطم الطواغيت فى الأرض ، وتقيم مكانهم حكم الله وشريعته ومنهجه ، وتجعل الدين كله لله . ولأنه أراد أن يبين للناس أن « لا إله إلا الله » التى يدخل الله الناس بها الجنة فى الآخرة ، ويزيل بها الجاهلية من الأرض ، ويقيم بها دولة الحق فى الحياة الدنيا ، ليست هى الكلمة التى تُنطق باللسان دون أن يكون لها رصيد من يقين القلب وواقع السلوك ، إنما هى تلك التى تُنطق باللسان ، ويملأ اليقين بها القلب

(١) « معالم فى الطريق » آخر كتاب صدر للشقيق قبل اعتقاله الأخير عام ١٩٦٥ م .

وتتمثل فى سلوك واقعى يقيم المنهج الربانى والشريعة الربانية ، ويجاهد الأنظمة الجاهلية ولا يرضى بها ولا يرضى عنها ، وإلا فهى كلمة بلا رصيد ، لا يقبلها الله فى الآخرة ، ولا تغيّر شيئًا فى واقع الأرض ؛ لأنها لم تبرأ من الشرك المتمثل فى إقرار حاكمية البشر بدلاً من حاكمية الله . والبراءة من الشرك هى الشرط لقبول لا إله إلا الله فى الآخرة ، تلك البراءة التى قال عنها الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة »[1] كما أنها شرط التمكين فى الأرض لقول الله سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا »[2].

ولقد كان أعداء الإسلام حين جاسوا خلال الديار الإسلامية قد نحوّا شريعة الله عن الحكم ، وحكّموا بدلاً منها شرائع البشر ، ثم قالوا للناس : لا بأس عليكم ! فأنتم مسلمون مادمتم تصلون وتصومون وتقومون بشعائر العبادة . ثم سلطوا عليهم من الأفكار والمعتقدات والأنظمة وأنماط الحياة الواقعية ما يصرفهم عن الصلاة والصوم والعبادة ، ثم قالوا لهم : لا بأس عليكم ! فأنتم مسلمون مادمتم تقولون : لا إله إلا الله !

فلما جاء كتاب « المعالم » يقول للناس : إنها ليست هذه هى التى تعطى الناس صفة الإسلام ، إنما هى تلك التى ينطقها الناس بلسانهم ، وتستيقن بها قلوبهم ، ويعملون بمقتضاها فى واقع حياتهم[3] . . لم يطق أعداء الله أن يفسد عليهم الكتاب جهد قرن كامل من الزمان ، ظلوا فيه يبعدون الناس عن حقيقة الإسلام ، وهم يوهمونهم طول الطريق أنهم مازالوا مسلمين !

لذلك صدر الحكم ـ من أكثر من مكان فى الأرض ـ بقتل صاحب الكتاب !

* * *

---

(١) أخرجه مسلم ، ونصه : عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل فقال يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة . ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار » .

(٢) سورة النور [٥٥] .

(٣) جاء فى رسالة التعاليم للإمام الشهيد حسن البنا : « لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض برأى أو معصية . . . الخ » .

أما هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم ، الذى انتهى منه صاحبه فى الأيام الأخيرة فى السجن قبل تنفيذ الحكم ، وكتب القسم الأخير منه على أوراق الادعاء التى أعطيت له قبل المحاكمة ، فهو الجزء الثانى من كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وهو يحوى مقدمة وعددًا من الفصول أشار إليها المؤلف أكثر من مرة فى ثنايا الكتاب : المقدمة بعنوان « وجهة البحث » ثم فصل بعنوان « مقومات التصور الإسلامى » وفصل بعنوان «ألوهية وعبودية » وفصل بعنوان « حقيقة الألوهية » وفصل بعنوان « حقيقة الكون » ، ثم فصلان بعنوان « حقيقة الحياة » و « حقيقة الإنسان » ولكن الذى وصل إلينا منه هو المقدمة والفصول الأربعة الأولى . أما الفصلان الأخيران « حقيقة الحياة » و « حقيقة الإنسان » فهما مفقودان . . ولقد ظللنا فترة طويلة امتدت إلى سنوات نبحث عن الفصلين الضائعين، أو ننتظر أن يعثر عليهما أحد الأصدقاء فى أى مكان فيرسلهما إلينا ليكتمل الكتاب . ولكن انتظارنا طال بلا جدوى . فرأينا آخر الأمر أن ننشره فى صورته الراهنة ، بدون الفصلين الأخيرين ، على أن نعيد نشره فى صورته الكاملة فى أية لحظة نعثر فيها على بقية الكتاب . . إن كان ذلك فى قدر الله [1] .

* * *

قال لى كثير من الأصدقاء ونحن فى فترة الانتظار : لماذا لا تكتب أنت الفصلين الناقصين على نسق الفصول الأربعة الموجودة ، وتخرج الكتاب كاملاً للناس ، وأنت أقرب الناس إلى مؤلفه ، وأولى الناس أن تقوم بهذا العمل من بعده ؟!

وكنت أقول لهم دائمًا ، كما أقول فى هذه اللحظة : « رحم الله امرءً عرف قدر نفسه » . وإن معرفتى بقدر نفسى ألا أتعرض لهذا العمل الذى لا أحسنه . فلست أحسن إلا ما أكتبه لنفسى ، وعلى المستوى الذى أكتب به ، ولست أبلغ مستوى الشقيق ، وخاصة فى هذا الكتاب بالذات ، الذى أودعه عصارة تجربته الإيمانية ، كما بلغ فيه قمته التعبيرية ، التى تعبر عن قضايا غاية فى العمق ، فى سيولة متدفقة كأنما هى « نشيد » ينشد ، لا«فكرة» تصاغ !

---

(١) أبلغنى الأصدقاء أن هناك كتيبًا ظهر فى السوق يحوى كلامًا يشبه أن يكون هو الفصلين الضائعين . وأنا أستبعد ذلك ، ولم يقع فى يدى لأحكم عليه . ولكنى أرجو ممن يجد شيئًا كهذا أن يتفضل مشكورًا فيطلعنى عليه .

إن هذه القضايا حين تتناولها الفلسفة تحيلها تجريدات ذهنية باردة تنطلق فى الذهن، أو تتعثر بداخله ، ولكنها تظل فى برودها هناك ـ فى داخل الذهن ـ لا تنبض بالحياة الحقيقية التى تحولها إلى تجربة نفسية متكاملة ، يعيشها الإنسان بكيانه كله لا بذهنه فحسب .

وحين يتناولها الوجدان يحيلها رفرفات روحية طائرة ، تأنس الروح لها لحظة ، ولكنها تذهب مع إشراقة الروح الموقوتة ، ولا يتبقى منها شيء يمسكه الإنسان بفكره ؛ ليعود إليه فيتدبره ويتملاه . فكأنها هى تجربة لحظة عابرة ليس لها استمرار محسوس فى داخل النفس!

أما تناول هذه القضايا فى صورة يمكن أن يمسكها الفكر؛ ليتدبرها ويتملاها حين يريد، فى ذات اللحظة التى تنطلق بها الروح فى رفرفتها الشفيفة ، فتلك قمة نفسية وقمة تعبيرية فى ذات الوقت ، لا يقدر عليها إلا من فتح الله عليه بنور من عنده ، فبلغ غاية إشراقه الذهنى وغاية إشراقه الروحى فى آن واحد . وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، فى الوقت الذى يشاء ، وبالقدر الذى يشاء ، وقد أفاض الله منه على الشقيق بالقدر الذى يلمسه من يقرأ الكتاب .

* * *

أمر آخر كنت أرد به على السائلين والمقترحين . . هو أننى آليت على نفسى دائماً وأنا أعيد نشر مؤلفات الشقيق أن أبقيها كما هى بلا زيادة ولا حذف ولا بيان ، ليقرأها قراؤها كما كتبها بنفسه دون تعديل . .

حتى حين كان هناك ـ فيما يبدو لبعض الناس ـ ما يحتاج إلى تعديل بالحذف ، أو الإضافة ، أو الشرح ، أو التعليق .

حتى حين شغل بعض الناس أنفسهم بقضايا لا وجود لها فى الحقيقة ، كقضية «وحدة الوجود» . .

حقيقة إن هناك فى « الظلال » عبارات موهمة ، توهم من يأخذها وحدها أنها مما يستخدمه أصحاب « وحدة الوجود » ولكن الباحث المنصف ، حين يجد فى الظلال فى أكثر من مائة موضع عبارات صريحة حاسمة تقطع بإيمان كاتبها أن الله غير مخلوقاته وأنه لا مجال للخلط بين الخالق والمخلوق فى صفة واحدة من الصفات ، ولا فعل واحد من الأفعال ، فإنه ينبغى أن يحمل تلك العبارات الموهمة على العبارات الحاسمة القاطعة فيزول ما بها من إيهام .

أرأيت لو أن إنسانًا قرأ فى كتاب الله قول الحواريين ـ والمقامات محفوظة لأصحابها ـ «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » فقال إن الحواريين يشكون فى قدرة الله! هل يكون لقوله حقيقة ؟!

كلا بالطبع ! إننا نعلم يقينا من كتاب الله أنهم مؤمنون ، والمؤمن لا يشك فى قدرة الله فوجب إذن تأويل هذه العبارة الموهمة وهى قولهم « هل يستطيع ربك » بما يصرفها عن ظاهرها ؛ لتتناسق مع مقتضى اليقين الثابت بإيمان الحواريين . كذلك الشأن فى العبارات الموهمة التى وردت فى « الظلال » فى تفسير سورة الحديد وسورة الإخلاص . . ينبغى أن تؤول على مقتضى العبارات الحاسمة الواردة فى الكتاب نفسه . بما ينفى ما يمكن أن توحى به من إيهام بوحدة الوجود . .

وعلى أى حال فقد جاء فى هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم ما يزيد هذا الأمر وضوحًا وينفى أى لبس من هذا القبيل .

جاء فى فصل « ألوهية وعبودية » (ص ٨٣) :

« إن التصور الإسلامى يفصل فصلاً تامًا بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية ، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية ، وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية ، فهما لاتتماثلان ولا تتداخلان » .

وجاء فى نفس الفصل (ص ١١٨) :

« لقد اعتبر الإسلام قضية التوحيد هى قضيته الأولى وقضيته الكبرى . توحيد الألوهية وإفرادها بخصائصها ، والاعتراف بها لله وحده ، وشمول العبودية لكل شىء ولكل حى ، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعًا . . فالتوحيد ـ على هذا المستوى وفى هذا الشمول ـ هو « مقوّم » الإسلام الأول » .

وهى كما ترى عبارات قاطعة حاسمة . يحمل عليها أى تعبير ـ جاء بلا قصد ـ فيه لبس ، أو إيهام .

* * *

وحتى حين قيل إن فكر سيد هو فكر الخوارج !

إن المعروف عن الخوارج أنهم يكفّرون الناس بالمعصية ، ويأخذون ظاهر العمل بصرف النظر عن النية المصاحبة له . ويحكمون على من شاءوا بالكفر لمجرد اختلاف فى الرأى أو

خلاف فى السلوك ، دون رجوع إلى القواعد الشرعية فى هذه الأحكام !

وفى الكتاب الذى بين أيدينا يجد القارئ الفهم الواضح الصحيح للقواعد الشرعية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قضية « الحاكمية » التى هى مدار الحديث . .

يقول سيد فى فصل « ألوهية وعبودية » (ص ١٧٠) بمناسبة الحديث عن الآيات الكريمة من سورة النساء : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » إلى قول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . » :

« إننا أمام جماعة من الناس ، فى المجتمع المسلم ، فى دار الإسلام ، « يزعمون » أنهم آمنوا بما أنزل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . . أى أنهم يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وأن الرسالات كلها حق ، وأنما ما بها من الشرائع حق ، وأن الملائكة حق ، وأن الآخرة حق ، وأن القدر خيره وشره حق . . فهذا هو الإيمان بما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . وهم يزعمون أنهم آمنوا بهذا كله .

« ولكن الله ـ سبحانه ـ لا يقبل منهم هذا الزعم ، ولا يعتبر قولهم هذا إيمانًا ، بل يعجّب من أمرهم وأمر زعمهم هذا !

« لماذا ؟ لماذا لا يقبل الله منهم هذا القول وهذه الشهادة ولا يعتبرهما ؟ » .

« ذلك أنهم يقولون هذا بينما هم « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » لا إلى شريعة الله ، ولا يرجعون فيما اختلفوا فيه إلى الله والرسول . . والطاغوت ـ كما يفسره الإمام ابن جرير الطبرى ـ هو « كل ذى طغيان على الله ، فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانًا كان ذلك المعبود ، أو شيطانًا ، أو وثنا ، أو صنمًا ، أو كائنًا ما كان من شىء » . . فهؤلاء الناس يريدون أن يتحاكموا إلى شىء من شريعة هذا الطاغوت ولا يريدون أن يتحاكموا إلى شريعة الله ، فيعدهم الله « زاعمين » لا صادقين . . مع قولهم إنهم آمنوا بما أنزل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . مما يقطع بأن القول باللسان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وأن الرسالات كلها حق ، وأن الملائكة حق ، وأن الآخرة حق ، وأن قدر الله خيره وشره حق . . أن هذا القول لا يقبل ، ولا يعتبر هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول

الله . التى تدخل قائلها فى الإسلام ، وتعطيه صفة المسلم ، وتعصم دمه وماله بالإسلام . . متى صحبها إرادة[1] التحاكم إلى غير شريعة الله ، وعدم الرجوع فيما يختلف فيه ـ فى كل شأن من شئون الحياة الإنسانية ـ إلى الله» .

ثم يقول (ص ١٧٣) :

« وبعد أن يقرر أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله . بدلالة أنهم « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » فهذه الإرادة وهذا الاتجاه يكذبان قول اللسان ويبطلان قيمته . . بعد ذلك يصمهم بالنفاق » .

ثم يقول (ص ١٧٤) :

« والتقرير الأخير فى السياق ، هو النص الصريح على شرط الإيمان وحده ، فى صورة من صور التوكيد الشديدة :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا » .

« وهو نص صريح قاطع . لا مجال للمماحكة فيه ، ولا قول بعده لقائل ، لأنه من المحكم الذى لا رأى ـ مع النص ـ فيه :

« ومفاده أن أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله ، الذين قد يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وأن الرسل حق ، وأن كتب الله حق ، وأن الملائكة حق ، وأن اليوم الآخر حق ، وأن القدر خيره وشره حق . . أن هؤلاء إذا اتجهت إرادتهم إلى التحاكم لغير شريعة الله ، أو حتى إذا تحاكموا إلى شريعة الله وسنة نبيه ولكن لم ترض نفوسهم ولم تسلّم قلوبهم ، لم يعتبر قولهم ذاك ، ولم تعتبر شهادتهم تلك ، ولم يدخلوا فى عداد المؤمنين ، ولم يكتسبوا صفة الإيمان . إن شهادة اللسان تؤخذ وتعتبر إذا لم تصحبها إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله ، وإذا لم يصاحبها عدم الرضى والاستسلام لحكم الله ورسوله فى أى شأن من شئون الحياة » .

ويقول أخيرًا (ص ١٨١ ـ ١٨٢) :

---

(١) التوكيد على كلمة « إرادة » ليس من عندى وإنما هو من كتابة الشقيق .

« على أنه بالرجوع إلى أصل القضية . . وهى أن الحاكمية وحق تعبيد الناس ، وتشريع الشرائع لهم » هى أولى خصائص الألوهية ، التى لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ، ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك . . وأن الذى يدعى حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه ، إنما يدعى حق الألوهية ، وأن الذى يقره على هذا الادعاء ، أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه ـ إلا مكرها كارها منكرًا باليد ، أو اللسان ، أو القلب ـ فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية . . وأن من يرفض تحكيم شريعة الله فى كل شأن من شئون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله ـ سبحانه ـ ولو فى جانب من جوانب هذا الكون هو الحياة البشرية ـ وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه فى رفض ألوهية الله سبحانه فى هذا الجانب ، وإن الذى يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه : إنه مسلم لله ـ مهما يزعم ذلك بلسانه ـ طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله ، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، وعدم التحاكم إلى شريعة الله . ومن باب أولى الحكم بالطاغوت وعدم الحكم بما أنزل الله . .

« نقول بالرجوع إلى هذه الأصول التى تقررها نصوص القرآن الصريحة لا مفهوماته المستنبطة ، لا تبقى حاجة إلى بيان جديد ، ولا يبقى مجال للجدل الجاد . . وإنما هو المراء الذى لا يستحق الاحترام ! » .

من هذه النصوص التى توسعنا فى إثباتها يتبين بوضوح أنه يشترط ـ لإطلاق حكم الكفر فيما يتعلق بقضية الحاكمية ـ إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، والرضى بغير حكم الله . وهذا هو الذى اتفق عليه علماء المسلمين فى جميع الأمصار وجميع الأعصار ، وبخاصة علماء السلف من هذه الأمة رضى الله عنهم وأرضاهم .

أما الحكم على هذا الجيل من الناس ، وهل هم مريدون للتحاكم إلى الطاغوت ، راضون بغير حكم الله ، أم لا تتوفر فيهم الإرادة والرضى . . فمسألة قد تختلف فيها وجهات النظر . ولكن العبرة ليست بهذا الاختلاف ، وإنما العبرة بالقواعد الشرعية التى تنبنى عليها الأحكام .

* * *

وحتى حين قيل : إن الشقيق ـ فى دعوته ـ يجافى أمر الله باستخدام « الحكمة والموعظة الحسنة » فى الدعوة ! وأمره تعالى باستخدام « القول اللين » . . !

لقد أصبح كثير من الناس يتصورون من الحكمة والموعظة الحسنة أنها تعنى التربيت على أخطاء الناس وانحرافاتهم ، وعدم مواجهتهم بها خشية أن ينفروا من الدعوة ولا يستجيبوا لها !

فمن أين جاءوا بهذا الفهم لهذا التوجيه الربانى الكريم ؟!

هل هناك من هو أكثر فهما لهذا التوجيه الكريم من الرسل الذين وجه القول إليهم ؟!

فكيف فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الأمر المنزل إليه من ربه أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وكيف فهم موسى وهرون عليهما السلام توجيه الله لهما أن يقولا لفرعون قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ؟

فأما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صدع بما أمر . . فقالت عنه قريش : لقد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا وكفّر آباءنا وأجدادنا !!

وأما موسى وهرون عليهما السلام فقد بدآ بأن قالا : السلام على من اتبع الهدى . ولم يقولا لفرعون : السلام عليك ! وفى ذلك إشارة ملحوظة إلى أن فرعون غير متبع للهدى . ثم ثنيا بأن قالا : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » . وفى ذلك تهديد واضح لفرعون وقومه بالعذاب الذى ينتظرهم إن هم كذبوهما وتولوا عن الحق الذى يعرضانه عليهم ! وكان هذا هو « القول اللين » الذى أمرا بتوجيهه إلى فرعون !

إن التلطف واجب . ولكنه التلطف فى إظهار الحق . وليس التلطف فى إخفاء الحق ! فهذا الأخير هو الذى قال عنه تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وَدُّوا لو تدهن فيدهنون » ! [1] .

وسيد لم يقل لأحد من النا س : أنت كافر !

إنما كان دائماً يقول : إن للإيمان صفات معينة وردت فى كتاب الله وسنة رسوله ، وللكفر صفات وردت كذلك فى كتاب الله وسنة رسوله . فمن وجد فى نفسه صفات الإيمان فليحمد الله على ما أنعم عليه . ومن وجد فى نفسه الصفات الأخرى فليرجع إلى الله ويتخلص من الصفات التى تخرجه من الإيمان . . وذلك هو مقتضى الحكمة

---

(١) سورة القلم [٩] .

والموعظة الحسنة بالنسبة لأحوال الناس فى الغربة التى يعيشها الإسلام اليوم ، تلك الغربة التى أشار إليها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديثه : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء »[1] .

* * *

ولكن حتى حين قيل هذا وذاك ، أو غيره من القضايا المتوهمة، أو المفتعلة بغير أساس، فإننى لم أرغب مرة واحدة أن أتدخل فى النص الذى تركه الشقيق . بحذف ،أو، إضافة ،أو شرح ، أو تعليق . .

كذلك كان موقفى بالنسبة لهذا الكتاب . . فلم أفكر فى أن أضيف شيئًا من عندى يحل محل الفصلين المفقودين . ولكنى أضع بين يدى القارئ إشارات ربما تعينه على تصور شىء مما ضاع من أفكار الكتاب .

إن فصل « ألوهية وعبودية » هو فى الحقيقة محور الكتاب كله ، المحتوى على الفكرة الشاملة فيه ، وفيه الخطوط العريضة للفصول التالية جميعًا كما أشار الشقيق أكثر من مرة فى ثنايا الفصل ، وكما هو متحقق بالفعل فى الفصل الموجود بعنوان « حقيقة الألوهية » والفصل الآخر بعنوان « حقيقة الكون » فهما فى الحقيقة شرح مفصل لما جاء عن موضوعهما من خطوط عريضة فى فصل « ألوهية وعبودية » . وكذلك نستطيع أن نتصور محتوى الفصلين المفقودين على ضوء ماورد من خطوط عريضة عن موضوع كل منهمافى ذلك الفصل الأساسى ، فصل « ألوهية وعبودية » .

كذلك فإن الشقيق كان يجمّع قبل البدء فى كتابة كل فصل ما يريد أن يعرضه فيه من الآيات القرآنية ، وكذلك النقاط الرئيسية التى يريد أن يتناولها بالحديث . وقد فعل ذلك بالنسبة للفصلين المفقودين ، وخاصة بالنسبة للفصل الأخير « حقيقة الإنسان » ، فقد أورد فيه نقاطا تفصيلية . وسنثبت فى نهاية الكتاب ما كان قد دونه من الآيات والنقاط تحت عنوان « حقيقة الحياة » و « حقيقة الإنسان » لعلها تلقى ضوءًا على ما كان يريد من البيان .

ونرجو من الله التوفيق .

محمد قطب .

---

(١) أخرجه مسلم .

وجهة البحث

« إن الدين عند الله الإسلام »

للتصور الإسلامى « مقوماته » التى يتألف منها قوامه ، ويقوم عليها كيانه ، مثلما أن له « خصائصه » التى تتميز بها ملامحه ، وتنفرد بها شخصيته .

هذه « المقومات » كما قلنا فى القسم الأول من هذا البحث [1] ثابتة ، غير قابلة للتعديل، وغير قابلة للتطوير ؛ لأنه بها يأخذ ملامحه المستقلة ، التى جاء ليطبعها فى الضمير البشرى ، وليقيم عليها منهجه الواقعى ، ونظامه العلمى ، وليحوّل بها خط سير التاريخ الإنسانى ، وليعلن بها ميلاد « الإنسان الجديد » إذ يعلمه إلغاء عبودية الإنسان للإنسان ، كما يعلمه إلغاء عبودية الإنسان للأشياء والأحياء ، فى كل صورها وأشكالها ، وذلك بإعلان عبودية الإنسان لله وحده بلا شريك . . ثم ليقرر الموازين التى يرجع إليها البشر فى هذا كله ، ولا يرجعون إلى غيرهافى شأن واحد من شئون الحياة الإنسانية إلى آخر الزمان .

ومن ثم لم يكن بد من ثبات تلك المقومات ؛ كى لا ترتد البشرية بعدها إلى التيه الذى لا دليل فيه [2] وقد جاءها الإسلام ـ ابتداء ليخرجها من ذلك التيه ، وليقيم لها المعالم على طول الطريق ، وليضع لها الموازين التى ترجع إليها بجملة تصوراتها ومناهجها ، وجملة قيمها واعتباراتها ، وجملة أنظمتها وأوضاعها ولتنظر ـ فى كل وقت ـ أين هى بواقعها كله من الصورة التى رضى الله ـ سبحانه ـ أن تكون البشرية عليها ، منذ أن قال للأمة المسلمة :

---

(١) فصل « الثبات » من القسم الأول .

(٢) فصل « تيه وركام » من القسم الأول .

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا» . .

(المائدة : ٣)

هذه الصورة التى لا تملك البشرية أن تختار لنفسها سواها إلا أن تعلن خروجها من دين الله كله . . على إطلاقه . .

إن « الإسلام » ليس دينا . . من أديان . . يختار الإنسان من بينها واحدًا منها . . إنما هو « الدين » . . الدين الواحد الذى يرضاه الله للناس ، ويرضاه من الناس ، ولا يرضى لهم دينًا غيره ، ولا يرضى منه دينًا سواه :

« إن الدين عند الله الإسلام » . .

(آل عمران : ١٩)

« ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . . .

(آل عمران : ٨٥)

ومن ثم فإن « المقوّمات » التى يتألف منها التصور الإسلامى ، هى وحدها التى يرضاها الله من الناس ، ولم يجعل لهم فى شأنها خيارًا .

والالتزام بهذه المقومات ـ دون غيرها ـ هو الالتزام بالإسلام ، وعدم الالتزام بها هو الرفض للإسلام ـ والرفض لدين الله أصلاً ـ وليس هنالك من طريق وسط ، وليس هنالك من صورة أخرى تتحقق بها صفة « المسلم » لإنسان .

وليس هو مجرد الالتزام . وإنما هو كذلك الاستمساك والاعتزاز . .

لقد جاء الإسلام ـ ابتداء ـ ليفرض تصوره ومقوماته ، وليجعل موازينه الخاصة هى التى يرجع إليها الناس وحدها فى شئون حياتهم كلها . . وهذا الوضع مستمر ودائم . ليس موقوتًا بزمان ، ولا مرهونًا بمكان ، ولا مقيدًا ببيئة ، ولا محددًا بفترة من فترات التاريخ!

ولن يكون الإنسان مؤمنًا بهذا الدين حتى يعمل مقوماته وموازينه هى الحاكمة فى كل أمر وفى كل حال . ولن يكون مؤمنًا بهذا الدين وهو يرى أن هناك تصورًا آخر ، أو ميزانًا آخر ، من وضع البشر واصطلاحهم ، يجوز أن يتحاكم هو إليه ـ مع ما جاء به هذا الدين ـ فضلاً عن أن يحاكم إليه هذا الدين !

ومن باب أولى لن يجد المسلم نفسه لحظة واحدة فى موقف المعتذر عن حكم من

أحكام دينه ، أو مقوم من مقومات تصوره . . لن يجد نفسه ـ بدينه ـ فى موقف الدفاع !

إن دينه هو الأصل . هو « الدين » الذى لا يقبل الله من الناس غيره . هو الميزان الذى ليس معه ميزان . .

وهو حين يعتذر لحكم من أحكام دينه ، أو حين يقف ـ بدينه ـ موقف الدفاع ، إنما يفترض أن هناك ميزانًا آخر ـ غير الميزان الذى يقيمه دينه ـ يجوز الاعتراف به بل يقبل أن يحاكم دينه إليه ! ثم يعتذر ، أو يدافع ، أن يبرر شيئًا من دينه عند هذا الحكم الذى يحاكم دينه إليه !

والأمر هنا يتعلق مباشرة بالعقيدة . . . يتعلق بها وجودًا وعدمًا . . وهو من ثم مزلق خطر يستحق الانتباه !

إن دينه هو الذى يقرر . لأن ما يقرره دينه هو ما يقرره الله . . دون سواه . . وفى هذا فصل الخطاب . .

* * *

والبحث عن « مقومات التصور الإسلامى » على هذا النحو لا يكون بحثًا « لاهوتيًا » ولا بحثًا « ميتافيزيقيا » ، ولا بحثًا « فلسفيًا » . . كما أنه لن يكون بحثًا « ثقافيًا » ولا «نظريًا» على العموم !

كلا ! إنما هو بحث واقعى عملى تطبيقى . . هو بحث عن القاعدة التى يقوم عليها نظام للحياة الإنسانية الواقعية يرضاه الله للإنسان . . ولا يرضى له نظامًا سواه . . وبحث عن المقومات والموازين التى يرجع إليها فى كل حالة لضمان استقامته على هذه القاعدة وعدم ردته إلى الجاهلية .

ومن ثم فنحن ـ كما قلنا فى التعريف « بمنهج البحث » ـ فى القسم الأول منه ـ : «لا نبغى بالتماس حقائق التصور الإسلامى مجرد المعرفة الثقافية . لا نبغى إنشاء فصل فى المكتبة الإسلامية يضاف إلى ما عرف من قبل باسم « الفلسفة الإسلامية » ، كما أننا لا نهدف إلى مجرد « المعرفة » الباردة ، التى تتعامل مع الأذهان ، وتحسب فى رصيد «الثقافة» . . إن هذا الهدف فى اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه ! إنه هدف تافه رخيص ! إنما نحن نبتغى « الحركة » من وراء « المعرفة » . نبتغى أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها فى عالم الواقع . نبتغى استجاشة ضمير « الإنسان » لتحقيق غاية وجوده

الإنسانى ـ كما يرسمها التصور الربانى[1] نبتغى أن ترجع البشرية إلى ربها ، وإلى منهجه الذى أراده لها ، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التى تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان والتى تحققت فى فترة من فترات التاريخ ، على ضوء هذا التصور ، عندما استحال واقعًا فى الأرض ، يتمثل فى أمة تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء »[2] .

لقد جاء الإسلام ؛ ليغير واقع البشرية ، لا ليغير معتقداتها وتصوراتها ومفاهيمها ومشاعرها وشعائرها فحسب . . . جاء لينشئ لها واقعًا آخر غير واقع الجاهلية ـ التى كانت تعيش فيها ، والتى يمكن أن ترتد إليها فى أى طور من أطوارها ، وفى أى تاريخ من حياتها كذلك . . فالجاهلية وضع من أوضاع الحياة لا فترة محددة من الزمان . . وهى تتمثل ـ ابتداء ـ فى عبادة الناس بعضهم لبعض ، وفى عبادة الإنسان لهواه على وجه العموم . . وعبادة الناس بعضهم لبعض تتمثل فى أن تكون الحاكمية فى الأرض والتشريع للحياة حقًا لبعض العباد على بعض . . وعبادة الإنسان لهواه تتمثل فى استقلاله بوضع التصورات والمذاهب والتشريعات والمناهج لحياته ـ فى معزل عن منهج الله وشريعته ـ ثم ما يعقب هذا وذلك من آثار فى واقع الحياة ، تنشئ « الجاهلية » فى أى طور من أطوار التاريخ البشرى بلا استثناء !

إن الإسلام هو ـ قبل كل شىء ـ « نظام » . . نظام للحياة البشرية ، ذو خصائص مميزة ، نظام يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها ـ كما هى مبينة فى كتابه وفى سنة رسوله ـ فى أوضاع الحياة كلها . . وهذا التحكيم هو المقتضى الأول لشهادة : أن لا إله إلا الله . بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، المدلول الذى لا يتحقق لهذه الشهادة بدونه وجود فى ضمير الإنسان ولا فى حياته سواء .

إن الناس فى جميع الأنظمة الأرضية يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ، حين يتحاكمون إلى غير شريعة الله . . يقع هذا فى أرقى الديمقراطيات ، كما يقع فى أحط الديكتاتوريات سواء !

إن أولى خصائص الألوهية هى حق تعبيد الناس ، وتطويعهم للشرائع والأوامر . حق

---

(١) واضح أننا نقصد بوصف التصور الإسلامى بأنه « تصور ربانى » أنه مأخوذ من مصدر ربانى وهو القرآن الكريم والسنة الشريفة ، كما بينا فى القسم الأول فى فصل « الربانية » .

(٢) ص ٨ القسم الأول .

إقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع ، والقيم والموازين ، وحمل الناس على اتباعها وهذا الحق فى جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس ـ فى صورة من الصور ـ ويرجع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس ـ على وضع من الأوضاع ـ وهذه المجموعة التى تخضع الآخرين لأنظمتها وأوضاعها ومناهجها وشرائعها ، وقيمها وموازينها . . هى الأرباب الأرضية التى يتخذها الناس فى جميع أنظمة الأرض أربابًا من دون الله ، ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبية . . عن طريق السماح لها بادعاء الحاكمية ومزاولتها . ومزاولة ابتداع الأنظمة والأوضاع ، والمناهج والشرائع ، والقيم والموازين ـ كما يسمحون لها برفض ألوهية الله سبحانه وربوبيته فى الأرض ـ وذلك عن طريق السماح لها بتنحية شريعة الله عن الهيمنة وحدها على حياة الناس كلها ـ وهم بذلك يعبدون هذه الآلهة والأرباب من دون الله ـ وإن لم يركعوا لها ويسجدوا ـ ويسلمون لها بأن ترفض ألوهية الله وربوبيته فى الأرض ، حتى لو اعترفت بألوهية الله وربوبيته فى السماء ، وفى الحياة الآخرة ، وفى الضمائر والشعائر . . فالإقرار بألوهية الله ـ سبحانه ـ وربوبيته لا يقوم إلا حين تقر النفس بألوهيته وربوبيته فى السماء وفى الأرض ، فى الحياة الآخرة ، فى ضمائر الناس وشعائرهم وفى حياتهم وواقعهم سواء . بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية ـ فى الدنيا ، أو فى الآخرة ـ عن سلطان الله إلى سلطان سواه . . وهذا هو مدلول قول الله سبحانه :

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » . . .

(الزخرف : ٨٤)

إن هنالك فى جميع أنحاء الأرض ، فى جميع الأزمنة والأعصار ، قاعدتين اثنتين لنظام الحياة ؛ لأن هنالك ، فى جميع أنحاء الأرض فى جميع الأزمنة والأعصار ، قاعدتين اثنتين لتصور الحياة :

قاعدة تفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان . . ومن ثم يقوم عليها نظام للحياة يتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ، ويعترفون بها لله وحده ، فيتلقون منه التصور الاعتقادى ، والقيم الإنسانية والاجتماعية

والأخلاقية والمناهج الأساسية للحياة الواقعية ، والشرائع والقوانين التى تحكم هذه الحياة ، ولا يتلقونها من أحد سواه . وبذلك يشهدون أن لا إله إلا الله .

وقاعدة ترفض ألوهية الله ـ سبحانه ـ وربوبيته وقوامته وسلطانه . . إما فى الوجود كله ـ بإنكار وجوده ـ وإما فى شئون الأرض ، وفى حياة الناس ، وفى نظام المجتمع ، وفى شرائعه وقوانينه . فتدعى أن لأحد من البشر : فردا ، أو جماعة . هيئة ، أو طبقة . أن يزاول ـ من دون الله ، أو مع الله ـ خصائص الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان فى حياة الناس . . وبذلك لايكون الناس الذين تقوم حياتهم على هذه القاعدة قد شهدوا أن لا إله إلا الله . .

هذه قاعدة . وتلك قاعدة . . وهما لا تلتقيان . . لأن إحداهما هى «الجاهلية» والأخرى هى «الإسلام» . بغض النظر عن الأشكال المختلفة ، والأوضاع المتعددة والأسماء المتنوعة . التى يطلقها الناس على «جاهليتهم» . . يسمونها حكم الفرد ، أو حكم الشعب ! يسمونها شيوعية ، أو رأسمالية ! يسمونها ديمقراطية ، أو ديكتاتورية ! يسمونها أوتوقراطية ، أو ثيوقراطية !

لا عبرة بهذه التسميات ولا بتلك الأشكال ؛ لأنها جميعها تلتقى فى القاعدة الأساسية : قاعدة عبادة البشر للبشر . ورفض ألوهية الله ـ سبحانه ـ وربوبيته وقوامته وسلطانه ـ منفردًا فى حياة البشر .

فلا عبرة بتغير الأشكال . وتنوع الأسماء . إذا اتحدت القاعدة التى تقوم عليها الأشكال والأسماء !

إن العبرة فى اعتبار أى نظام ، أو عدم اعتباره إسلاميًا . هو الجهة التى يصدر عنها هذا النظام . فإن كان صادرًا عن الله ـ سبحانه ـ فهو إسلامى . والإسلام هو الدين السائد يومذاك . وإن كان صادرًا عن غير الله . فهو جاهلى والجاهلية هى السائدة يومذاك . . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام . فى كل وضع وفى كل نظام . دون دخول فى جزئيات وتفصيلات هذا النظام !

فى جميع الأنظمة الأرضية ـ إذن ـ يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابا من دون الله وفى النظام الإسلامى ـ وحده ـ يتحرر «الإنسان» من هذه الربقة . ويصبح حرًا . حرًا يتلقى

التصورات والمناهج ، والشرائع والقوانين ، والقيم والموازين ، من الله وحده شأن كل إنسان آخر على سواء . كلهم يقفون فى مستوى واحد ، ويتطلعون إلى سيد واحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابا من دون الله .

وفى جميع الأنظمة الأرضية ـ إذن ـ تبرز « الجاهلية » حتى على فرض أن المناهج والنظم والشرائع والقوانين والقيم والموازين ، تتخذ بمشاورة الأفراد جميعًا . وبرضى الأفراد جميعًا ـ وهو ما لا يمكن تحقيقه فى أى نظام على وجه الأرض ـ ذلك أن « هوى » الناس . «وجهل» الناس ، و « قصور » الناس ، و « شهوات » الناس . هى التى ستتمثل ـ حينئذ ـ فيما يتخذونه لأنفسهم من أنظمة فى معزل عن هدى الله ومنهجه للحياة . وهى الصورة التى يقول عنها الله ـ سبحانه ـ :

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » . . .

(الجاثية : ٢٣)

والتى يقول عنها كذلك :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن» . . .

(المؤمنون : ٧١)

ولكى ينشئ الإسلام الواقع الجديد ـ الذى ارتضاه الله للبشر ـ ولكى يغير الواقع الجاهلى الذى يعبد الناس فيه بعضهم بعضًا . ويتخذون إلههم هواهم فتفسد الأرض ومن فيها . . ثم لكى يقيم الضمانات دون ارتداد البشرية فى أى طور من أطوارها إلى الجاهلية . . لم يكن بد أن يغير تصوراتها الجاهلية ، وينشئ لها تصورا آخر ربانيًا ، يقوم عليه واقعها ، أو بتعبير أصح وأدق ينبثق منه واقعها ـ إذ الواقع الحيوى لا يقوم ـ بل لا ينبثق ـ إلا من تصور اعتقادى . مهما بدا فى بعض الحالات أن الواقع الحيوى هو الذى ينشئ التصور الاعتقادى .

وهذا الذى نقرره فى الفقرة السابقة ، هو جانب من « التفسير الإسلامى للتاريخ » . . وهو التفسير الذى يجعل « الإنسان » ـ ومن ورائه قدر الله ـ هو المؤثر الأول فى خط سير التاريخ وفى الأطوار التى تتقلب فيها الحياة . والذى يجعل كل تغير وكل تطور إنما يبدأ أولاً فى ضمير الإنسان ، وعقله ، ثم يتخذ طريقه للتحقق فى عالم الواقع . باعتبار أن

« الإنسان » هو الكائن المستخلف في هذه الأرض ، الذي ينفذ قدر الله في الأرض وفي الحياة الأرضية من خلال نشاطه الشعوري والحركي ، والذي خلق ابتداء ؛ ليتولى الخلافة عن الله في الأرض بإذن الله ، والذي سخر الله له كل مدخرات الأرض وطاقاتها ، وأودعه القدرة على معرفة نواميسها وقوانينها ، لينهض بهذه الخلافة ، وليحقق قدر الله فيه وفي الحياة من حوله بعمله وحركته ونشاطه . . وإن كان هذا التفسير لا يغفل - في الوقت ذاته - أثر الأحوال المادية - ومنها الأحوال الاقتصادية - على الإنسان ، في الحدود التي لا تخل بأولوية الإنسان في التغيير والتطوير . إذ أن الأحوال المادية بجملتها - لكي تنشئ أي تغيير - لابد لها أن تمر من خلال « وسط إنساني » وتتكيف هي ذاتها بهذا « الوسط » بينما تعطي أثرها له مكيفًا في الوقت ذاته به !

والواقع التاريخي للمجتمع الذي أنشأه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يدع مجالاً للشك في صحة هذا التفسير . فإن المجتمع العربي يومئذ لم يدخل حياته عامل جديد ، ينقله تلك النقلة الهائلة من مجتمع « قبلي » ممزق متخلف في كل جانب من جوانب الحياة ، إلى مجتمع « عالمي » متجانس ، متقدم تقدم التفوق على سائر المجتمعات البشرية التي كانت يومئذ ، ومتفوق في أسس تناسقه وأخلاقه وإنسانيته على سائر المجتمعات البشرية إلى اليوم أيضًا . . . لم يدخل حياته عامل جديد ينقله تلك النقلة الهائلة في كل جانب من جوانب الحياة وفي كل مقوم من مقومات الحضارة ، إلا ذلك التصور الاعتقادي الجديد . . ذلك التصور الذي جاء إلى « عالم الإنسان » بقدر من الله ، والذي انبثق منه ميلاد للإنسان جديد ، ونظام للحياة الإنسانية جديد ، وواقع للمجتمع البشري جديد ، يختلف في أسسه وفي ملامحه عن مجتمعات الجاهلية [1] .

ومن ثم فإن البحث عن « مقومات التصور الإسلامي » هو بحث عن القاعدة التي يقوم عليها نظام للحياة الإنسانية ، في أكمل صورة ، بل هو بحث عن الأصل الذي ينبثق منه هذا النظام . .

* * *

لقد بعدت المجتمعات الإسلامية ، أو بتعبير أصح وأدق : التي كانت يومًا ما إسلامية ! - عن « التصور الإسلامي للحياة » . ومن ثم بعد واقع هذه المجتمعات عن

---

(١) سيجيء بعض التفصيل عن « التفسير الإسلامي للتاريخ » في فصل « حقيقة الإنسان » .

« النظام الإسلامى للحياة » . . ثم إن بعد حياتها الواقعى عن النظام الإسلامى أخذ بدوره يبعدها عن التصور الإسلامى من جديد . . .

وهكذا ظلت هذه المجتمعات تدور فى هذه الحلقة المفرغة ، ويتم فى حياتها ذلك التفاعل النكد ، بفعل عوامل داخلية كامنة فى تركيبها التاريخى من ناحية ، وبفعل عوامل خارجية تهاجمها بكل وسيلة وتستغل وتنشئ عوامل التمييع والتمزيق فى كيانها من ناحية أخرى . . حتى انتهت إلى أن تصبح غريبة غربة كاملة عن الإسلام : تصوره الاعتقادى ونظامه العملى على السواء . وأن ترتد - ردة يتفاوت مداها - عن حقيقة الإسلام ، وإن ظلت تظن نفسها مسلمة ، وتدعى لنفسها هذه الصفة . ومن ثم تؤدى بهذا الدعاء وبواقعها السيئ المتخلف أسوأ شهادة يمكن أن يؤديها فرد ، أو مجتمع ضد الإسلام !

ولقد كان التصور الإسلامى إنما جاء يوم جاء؛ لينشئ واقعًا غير الواقع الجاهلى الذى كان سائدًا - لا فى الجزيرة العربية وحدها ولكن فى الأرض كلها - وأنشأ هذا الواقع بالفعل . أنشأه متفردًا متميزًا عن كل واقع جاهلى ، كما أنشأه متفوقًا ومهيمنًا على كل واقع جاهلى . . ولقد حقق الإسلام ذاته فى أكمل صورة فى حياة المجتمع الإسلامى ، وامتدت تياراته وتأثيراته كذلك فى المجتمعات البشرية الأخرى - حتى التى حاربت الإسلام حربًا جائرة - حقبًا متطاولة [1] .

والمرجو اليوم من وراء جلاء هذا التصور مرة أخرى ، وإبراز خصائصه ومقوماته ، كما هى فى مصدرها الأول . . القرآن الكريم . . هو استقرار هذا التصور فى قلوب العصبة المؤمنة فى الأرض ، وانطلاقه لتحقيق ذاته فى صورة واقع بشرى ، يختلف اختلافًا أصيلاً وكليًا عن كل واقع للبشرية اليوم .

إن واقع البشرية اليوم يتفق مع واقعها قبل الإسلام فى الصفة الرئيسية المميزة للجاهلية : صفة عبودية البشر للبشر - فى صورة من الصور - وعبادة الإنسان لهواه ، واتخاذه إلها من دون الله ، ورفضه لألوهية الله - سبحانه - فى الأرض وفى حياة الناس الواقعية - سواء اعترف بوجـود إله أم لم يعترف - مادام يغتصب اختصاص الله فى الحاكمية، ويدعيه للبشر - فى صورة من الصور - ومهما تعددت أشكال الأنظمة

---

(١) يراجع فصل « منهج مؤثر » « رصيد الواقع » فى كتاب « هذا الدين » .

والأوضاع ، فإنها تلتقى فى هذه الصفة الرئيسية المميزة للجاهلية . . إنه تعدد فى الأشكال المتغيرة مع التوحد فى الصفة الثابتة . . ومن ثم فهى « الجاهلية » التى ينكرها الإسلام أصلاً ولا يعترف بحقها فى الوجود ابتداء ، ولا بشرعيتها فى مباشرة خصائص الألوهية المدعاة .

والمسافة بين عبودية البشر للبشر ـ فى كل صورها وأشكالها ـ وبين تحررهم من هذه العبودية ـ بعبوديتهم لله وحده ـ مسافة هائلة هائلة . بحيث لا يمكن تصويرها فى هذه التقدمة . فهى تؤثر تأثيرًا عميقًا وكليًا فى كل جزئية من جزئيات الحياة الإنسانية ، وفى كل جانب من جوانب الأوضاع التى تتخذها هذه الحياة فى عالم الواقع . فتفرق فى النهاية تفرقة كاملة بين حياة تقوم على أساس التصور الإسلامى والمنهج الإسلامى ، وحياة تقوم على غير هذا التصور وغير هذا المنهج ، حتى لو قامتا فى رقعة من الأرض واحدة ، وفى فترة من الزمان واحدة !

إن كل جزئية من جزئيات المعرفة ، وجزئيات الحركة ، وجزئيات الواقع فى الاقتصاد والسياسة والحكم والخلق والسلوك والأدب والفن إلى آخر جوانب الحياة الإنسانية . . . تتأثر تأثرًا عميقًا وكليًا يصعب تصويره فى هذه العجالة .

ومن هنا تلك الأهمية البالغة التى نعلقها على بيان « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فى هذا البحث ، واستحياء حقائق هذا التصور فى ضمير العصبة المؤمنة فى الأرض . . إنها الأهمية النابعة من استهداف التغيير الكلى الأصيل للحياة البشرية : تصوراتها وقيمها . أنظمتها وأوضاعها . شرائعها وقوانينها . تشكيلاتها التنظيمية فى كل حقل من حقول الحياة . . مع تغيير أهدافها وغاياتها وبواعثها واهتماماتها . ووسائلها وأدواتها . . باعتبار أن إنشاء واقع جديد ، رفيع كريم ، نام متجدد للحياة البشرية لابد أن يسبقه إنشاء تصور جديد يتسم بهذه السمات . . ونحن ـ بحمد الله ـ لا نحتاج أن ننشىء اليوم هذا التصور . فقد أنشأه الله . ولكننا نحتاج إلى استحياء مقومات هذا التصور فى ضمير العصبة المؤمنة فى الأرض ، وتحويله إلى حركة إيجابية دافعة ، لا إلى معرفة ثقافية باردة ! .

إن طبيعة هذا الدين ترفض اختزال المعارف الباردة فى ثلاجات الأذهان الجامدة ! . . إن « المعرفة » فى هذا الدين تتحول لتوها إلى « حركة » وإلا فهى ليست من جنس هذا

الدين ! وحين كان القرآن يتنزل ، لم يتنزل بتوجيه ، أو حكم إلا لتنفيذه لساعته . . أى ليكون عنصرًا حركيًا فى المجتمع الحى . . إن كل نص قرآنى يمثل استجابة حية لحالة واقعة ، أو دفعة حية لإنشاء حالة مطلوبة . . ومن ذلك تنزلت الأحكام التشريعية كلها فى المدينة كحركة فى المجتمع المسلم الذى قام هناك ، ولم يتنزل حكم واحد منها فى مكة ، ليختزن ـ كمعرفة مجردة ـ حتى يجىء وقت التنفيذ فى المدينة ! . . إن المعرفة للمعرفة ليست منهجًا إسلاميًا . . فى الإسلام المعرفة للحركة . والعلم للعمل . والعقيدة للحياة .

واليوم لا قيمة للمعرفة التى لا تتحول ـ لتوها ـ إلى حركة . لا قيمة للدراسات الإسلامية فى شتى مناهجها وشتى معاهدها . . لا قيمة لا كتظاظ رفوف المكتبات بالكتب الدينية ، ولا باكتظاظ الأدمغة بمضمونات هذه الكتب . . إن هذا ليس هو الإسلام . وليس هو العلم الدينى ! العلم الدينى شىء يزاول فى الحياة ، ويطبق فى المجتمع ، ويعيش فى الواقع ، ويتمثل فى نظام . . والإسلام هو سيادة هذا النظام . . وليس للإسلام من صور أخرى يعرفها الإسلام ويرضاها الله . .

وحين نحاول ـ فى هذا البحث ـ أن نستجلى خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ، فإننا لا نهدف ـ كما قلنا مرارًا ـ إلى الاستزادة من قوالب الثقافة الدينية المثلجة ! كلا ! إنما نحن نريد إبراز المسافة الهائلة التى تفرق بين التصور الإسلامى للحياة ، وسائر التصورات الأخرى الجاهلية التى تسود الأرض كلها . وذلك لإبراز المسافة الهائلة بين الواقع الإسلامى المرجوّ ، وكل واقع للبشرية اليوم ؛ لكى يقوم على أساس هذا الوضوح المطلق كل تفكير فى إعادة إنشاء الواقع البشرى على منهج قويم ، وكل محاولة لوضع « التصميم » الجديد لتلك النشأة المبتغاة . بعدما انتهت الأرض كلها إلى جاهلية مطلقة كالتى عرفتها الأرض قبيل ظهور الإسلام . منذ قرابة أربعمائة وألف عام !

والأرض قد عرفت جاهليات كثيرة . عرفتها فى دورات تاريخية مكررة . ففى فترة بعد فترة من تاريخ البشرية كانت تتنزل من الله رسالة ، يحملها من عند االله رسول . وكانت كل رسالة تضىء ما حولها ، وتقدم للناس الإسلام ممثلاً فى العبودية لله وحده ! وتقوم على هذا الإسلام جماعة كثيرة ، أو قليلة ، ويدمر الله على المكذبين ، ويأخذهم بذنوبهم ويخلى وجه الأرض منهم . . كما يقص الله سبحانه علينا من أمر قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وفرعون وملئه :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . . . » .

(العنكبوت : ٤٠)

ثم يطول الأمد على الجماعة المسلمة ، فتتسرب الانحرافات إلى عقيدتها الربانية . . الإسلام . . ومن ثم تمتد إلى واقع حياتها . . وتظل كذلك حتى تجىء رسالة جديدة ، ويجىء رسول جديد . . بالإسلام . . ثم تعقب الإسلام جاهلية أخرى[1] . . وهكذا . . حتى كانت الرسالة السماوية الأخيرة ، وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين . وارتفع لواء الإسلام عاليًا وظل مرفوعًا أكثر من ألف عام ، بل حوالى مائتين وألف عام . . ممثلاً فى النظام الإسلامى فى كل الأقطار الإسلامية ، وهو النظام الذى يرجع الناس فيه إلى شريعة الله وحدها ، ولا يحكم قضاة هذه الأمة إلا بالشريعة الإسلامية فى كل أمر من أمور الحياة ، ولا يتحاكم الناس إلى غير هذه الشريعة فى شأن واحد من شئون المعاش . ثم تسربت الجاهلية من جديد ، مدفوعة ـ هذه المرة ـ إلى جانب العوامل الداخلية فى جسم المجتمع الإسلامى ، بدافع الغزو الصهيونى الصليبى ، الظاهر والباطن ، الممثل فى تنحية شريعة الله على الحكم ، ورد أمر الناس إلى الدساتير والقوانين التى يصنعها البشر للبشر . ثم انتهى الأمر إلى أن تعم الجاهلية وجه الأرض كله ، كما كانت تعم وجه الأرض من قبل فى دورات التاريخ المتكررة .

ولم يعد بعد الرسالة الأخيرة رسالة . ولم يعد بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول فمن إذن لهذه الجاهلية الجديدة التى تسود اليوم ؟ من لهذه الجاهلية الممثلة فى التحاكم إلى غير شريعة الله ، والحكم بغير ما أنزل الله . . أو بتعبير آخر : الممثلة فى رفض ألوهية الله فى الأرض وفى حياة الناس ، وفى إقامة آلهة وأرباب أخرى من دون الله ؟ . . إن لها حركات البعث الإسلامى التى تجدد للناس أمر دينهم ، والتى تعيد استحياء « مقومات التصور الإسلامى » فى قلوب العصبة المؤمنة فى الأرض ؛ لكى تعيد على أساسها إنشاء «الواقع الإسلامى » من جديد .

---

(١) هذه النظرية تخالف تمامًا نظرية « تصور العقيدة » كما تعرضها جميع المذاهب الغربية (يراجع ما سيجىء فى فصل « ألوهية وعبودية » عن هذا الخلاف) .

إن هذا الواقع الجاهلى الذى يطغى على البشرية اليوم ، قد نشأ من فساد فى التصور ، عملت فيه جميع القوى وجميع المعسكرات ذات العداء التقليدى للإسلام . . ثم هو ـ بدوره ـ يضاعف فساد هذا التصور من جديد ، ويضغط بثقله على قلوب الناس فى هذه الجاهلية ، ومعه جميع أجهزة التوجيه العالمية ! فلا تجد هذه القلوب فى ذاتها من التصور الصحيح ما تدفع به ثقل هذا الواقع ، وضغط هذاالتوجيه ، ولا تجد فى رصيدها من الدوافع والحوافز ما تحاول به إنكار الواقع ، فضلا عن محاولة تغييره . . فلا بد إذن من رواد ، فيهم من القدرة والطاقة ، والإدراك والكفاية ، والاستعلاء والحماسة ، والإصرار والصلابة ، بقدر مافيهم من الإيمان ، والثقة بهذا الإيمان ؛ لكى يخلصوا أنفسهم من ضغط هذا الواقع وضغط هذا التوجيه ، وآثار هذا وذلك فى التصور ، ولكى يملكوا ـ على الرغم من الواقع المضلل والتوجيه المضلل ـ أن يروا . . رؤية واضحة . . آخر أرفع وأكمل ، وأعمق حيوية ، وأكثر طموحًا ، من كل التصورات الجاهلية ، وأن يتحركوا ـ بعد ذلك ـ فى وجه هذا الواقع ، والتصورات المصاحبة له ، والتوجيهات المنوعة الأساليب ، لإنشاء واقع آخر . .

وهى محاولة ـ ولاشك ـ مرهقة وشاقة ، وهائلة التضحيات . . ولكنها تستحق ما ينفق فيها من جهد ، وما يبذل فى سبيلها من تضحية . . ذلك أنها تعنى شيئا عظيمًا جدًا . . أعظم من كل ما يتخيل الإنسان من غايات واهتمامات وأهداف . . إنها تعنى ميلادا جديدا للإنسان . . ميلادًا يرفعه إلى الأفق الذى يرضاه الله للإنسان . . يرفعه إلى هذا الأفق من الوهدة التى ارتكس فيها والتى يرتكس فيها دائمًا كلما ضل عن هدى الله ، ومنهجه الذى ارتضاه للحياة :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . . .

(التين : ٤ ـ ٦)

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . . .

(العصر : ١ ـ ٣)

* * *

ولقد يبدو أن ضخامة الواقع الذى تعيشه البشرية اليوم ، وضخامة الأسس التصورية والعلمية والحضارية التى يستند إليها ، وبعد الشقة بين هذا كله وبين التصور الإسلامى للحياة ، والواقع الحيوى الذى يمكن أن ينبثق من هذا التصور ويقوم عليه . . قد يبدو أن هذا كله من شأنه أن يجعل المحاولة عبثًا ضائعًا ، وأن يجعل التضحيات الهائلة التى تبذل فى سبيله إسرافًا لا مبرر له !

ولكن هذا وهم !

إن هذا الوضع ذاته هو أنسب وضع للمحاولة ! فالدعوة الجديدة جدة كاملة هى أقرب أن تسمع ـ فضلاً على أنها أوجب أن توجه ! ـ وتكوين النفس البشرية الفطرى يجعلها أشد إصغاء للجديد ـ حين تكون جدته كاملة تثير دهشتها ـ منها للإصغاء إلى المألوف ، أو نصف المألوف ، أو للتعديلات الجزئية القريبة ! والتصور الإسلامى ، والواقع الإسلامى الذى يمكن أن ينبثق منه ، كلاهما ـ بالقياس إلى الجاهلية فى القديم ، أو فى الحديث ـ هو شىء جديد جدة كاملة . شىء يختلف اختلافًا أصليا وكليا عن الجاهلية ! إنها بعيدة جدا . . بُعد السماء عن الأرض . . لا ! بل بُعد صنعة الله عن صنعة العبيد ! !

ويجب أن يضاف إلى هذا ما فى هذه الحضارة الجاهلية الحاضرة من عوامل التدمير والفساد التى تنخر فى أساسها . . سواء فى أساس التصورات التى تقوم عليها ، أو أساس الأنظمة والتشكيلات التى تمثلها . . هذه العوامل المدمرة التى يفطن لها بعض العقلاء من الغارقين فى هذه الجاهلية أنفسهم ، ولكنهم أعجز من أن يقتحموا الأسوار العالية التى أقامتها الحضارة الجاهلية حول عقولهم وقلوبهم وطاقاتهم . فأصبحوا سجناءها وهم صانعوها ! كما أن تاريخهم الدامى مع «الكنيسة» يطاردهم دون الرجوع إلى الله ! الذى يجدونه فى نهاية كل طريق يسلكونه للخروج من تلك الأسوار البائسة ، فيرتدون مذعورين إلى داخل الأسوار ، مخافة أن يجدوا الله فيجدوا الكنيسة رابضة لهم ، تتلقفهم من جديد ! ولولا هذا الذعر التاريخى من الكنيسة لأمكن أن يحطموا هذه الأسوار ، ويقتحموها ويفروا إلى الله من هذا النكد الذى يلقونه ، وهم يحسون عوامل التدمير والفساد تنخر فى بناء الحضارة وتأكلها ، وتأكلهم معها ، حين تأكل « إنسانيتهم » وهم شاعرون ، أو غير شاعرين . . أقول : يجب أن يحسب حساب هذه الحقيقة حين ننظر إلى مظاهر الحضارة ،

وضخامة الأسس التصورية والعلمية والحضارية التى تقوم عليها [١] .

كذلك قد يبدو من ضخامة الواقع الجاهلى ، وضخامة الأسس التصورية والعلمية والحضارية التى يستند إليها ، أنه لا بد للتصور الإسلامى ـ الذى يراد أن ينبثق منه ويقوم عليه ـ أن يتصالح مع الواقع الجاهلى ـ إن لم يتصالح مع التصور الجاهلى ذاته ـ فيلتقى معه فى منتصف الطريق ، كى يمكن أن يختط طريقه . . ويسير . .

وهذا كذلك وهم !

إن الإسلام لا يمكن أن يلتقى مع « الجاهلية » لا فى منتصف الطريق ولا فى أول الطريق ! إن طبيعته ليست من طبيعتها . ومن ثم فإن طريقه ليس عن طريقها . وليس هنالك من طريق مشترك ـ ولو فى خطوة واحدة ـ بين الإسلام والجاهلية ، ولا بين التصور الإسلامى والتصورات الجاهلية . . وكذلك يبدو مثل هذا الاقتراح وليست له صورة عملية يمكن أن يتخذها !

وفضلا على كونه وهما ، فإنه هزيمة فى أول الطريق . والهزيمة لاتنشئ نصرا ؛ لأنها عندئذ هى هزيمة الإيمان ذاته . هزيمة الثقة فى أحقية الحق بأن يوجد ويسيطر ، وأحقية الباطل بأن يزهق ويندحر . كما أنه هزيمة الإدراك لطبيعة التصور الإسلامى وطبيعة الفطرة الإنسانية . إدراك أن لهذا التصور جذوره الفطرية فى كينونة النفس الإنسانية . مهما غطى عليها الركام [٢] . وجذوره فى نظام الكون كله يوم خلق الله السموات والأرض وما بينهما بالحق [٣] .

والهزيمة على هذا النحو ، ومنذ أول الطريق ، لا يمكن أن تنشئ نصرًا فى أية مرحلة من مراحل الطريق . وأولى للذين يريدون أن يتصالحوا مع الواقع الجاهلى ، أو مع التصور الجاهلى ، وأن يلتقوا معه فى منتصف الطريق كخطة للوصول إلى النصر فى النهاية أن

---

(١) يراجع فصل « الفصام النكد » وفصل « انتهى دور الرجل الأبيض وفصل « صيحات الخطر » فى كتاب «المستقبل لهذا الدين » . كما يراجع فصل « تدمير الإنسان » وفصل « تخبط واضطراب » وفصل «طريق الخلاص » فى كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة» .

(٢) يراجع فصل « رصيد الفطرة » فى كتاب « هذا الدين » .

(٣) يراجع فصل « منهج متفرد » فى كتاب « هذا الدين » .

يستسلموا للجاهلية منذ اللحظة الأولى . وأن يكفوا عن المحاولة أصلا ، وألا يحسبوا على الإسلام محاولة هازلة فاشلة كهذه المحاولة !

إن الالتقاء مع الجاهلية فى أيه مرحلة من مراحل الطريق معناه ـ ابتداء ـ الاعتراف للجاهلية بشرعية الوجود . والجاهلية بجملها باطلة بطلانا شرعيا من أساسها . ليس لها حق الوجود ابتداء . فهى بجملتها صادرة عن ادعاء البشر لخصائص الألوهية ـ وهو ادعاء باطل فيما يقوم عليه باطل ـ واغتصابهم لاختصاصات الربوبية ـ وهو اغتصاب لا يترتب عليه حق ـ ورفضهم لألوهيه الله سبحانه فى الأرض وفى حياة الناس ـ وهو رفض يخرج صاحبه من دين الله ـ ولا يجعل له ـ من ثم ـ ولاية على من يؤمن بالله .

وإنه ليستوى أن يعترف المسلم للجاهلية بشرعية الوجود فى الأمر الكبير وفى الأمر الصغير . فهو الاعترف بالشرعية على كل حال . وهو الإقرار بألوهية غير الله فى الأرض وفى حياة الناس من ناحية المبدأ. ولن يجتمع فى قلب واحد : الإسلام لله والتمرد على الله! كذلك لن يجتمع فى قلب واحد : الإسلام لله والاعترف لهذا التمرد على الله بشرعية الوجود وحق البقاء .

ومن ثم فإنه لالقاء بين الإسلام والجاهلية فى مرحلة من مراحل الطريق . إنما المفاصلة الحاسمه عند مفرق الطريق . المفاصلة الحاسمة التى لاهزل فيها ولامواربة . ولمثل هذا يقول الله سبحانه « فلا تخشوا الناس واخشون . ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . . .

(المائدة : ٤٤)

ثم إنه قد تتراءى لبعض المخلصين ـ تحت ضغط الواقع الجاهلى وضخامته ، وضغط التوجيه الإيجابى وبراعته ! ـ شبهة يلتبس فيها الحق بالباطل . . شبهه « التطور » . . تطور أوضاع الحياة وأفكار الناس . ومن ثم تطور القيم والموازين ! وأن الحياة البشرية لم تقف ولم تكف عن النمو والتجدد ، والتعقد والتركيب ، منذ أن جاءها التصورالإسلامى أول مرة . . بل هى قد نمت وتجددت عن طريق هذا التصور ذاته ، ثم تابعت نموها وتجددها وفق ما جدَّ من تصورات وأفكار وعلوم ونظريات ، وما جدَّ فى الحياة من حضارة صناعية مادية ، وأوضاع سياسية واجتماعية . . . إلخ . . . فكيف يفرض على هذه الحياة

« المتطورة » تصور معين ، عمره أربعة عشر قرنًا ؟ ثم كيف يفرض عليها واقع معين ينبثق من هذا التصور ؟!

وهى شبهة تبدو عويصة ! ولكنها ليست سوى أحد الأوهام التى يقررها الواقع الجاهلى والتصورات الجاهلية ! ويفرضها على عقول الناس وعلى أعصابهم ! بحكم أنهم يعيشون فى هذا الواقع ، ويجترون ما حوله من تصورات وقيم ، وما يفرزه كذلك من تصورات وقيم ! فضلاً عن التخطيط الواسع الشامل لأجهزة الإعلام والتوجيه العالمية ، المسخرة لتقرير هذه الأوهام فى عقول الناس وأعصابهم !

والأمر أيسر بكثير مما تصوره هذه الأوهام المقررة ! وهنالك جملة حقائق ينبغى أن تكون واضحة ومفهومة :

أولاً : أن فى النفس الإنسانية وفى الحياة الإنسانية أصولا ثابتة ـ على الرغم من جميع الأوضاع والأشكال المتغيرة ـ وأن حكاية « التطور » المطلق فى كل شىء ، هى حكاية مختلفة لتثبيت قوائم مذهب خاص . أو لإنشاء هذا المذهب أصلاً . وليست « حقيقة علمية » كما يريد الموجهون العالميون لأجهزة التوجيه والإعلام ـ من العصبة الصهيونية ـ أن يوهموا الناس ! إنما ينال التجدد والنمو والتغير والتعقد والتركب « أشكال » الحياة لا أصول الفطرة الإنسانية ولا سنن الحياة البشرية [1] . . ومن ثم فإن التصور الإسلامى الثابت المقومات ، يقابل الفطرة الإنسانية الثابتة المقومات ، والحياة الإنسانية الثابتة السنن . . كما أنه يقابل كذلك ـ بما فيه من طبيعة الحركة وأجهزتها كما سنبين فيما يلى ـ كما فى الحياة البشرية من تغير وتجدد ونمو وتعقد وتركيب فى « أشكالها » وفى « أوضاعها » .

ثانيًا : أن التصور الإسلامى ـ بما أنه ربانى ـ جاء كاملاً ، وشاملاً ، ومطابقًا للفطرة البشرية السوية ، وملبيا لحاجاتها الحقيقية ، غير مقيد فى هذه التلبية بمكان ولا زمان ، ولا بمستوى معين من النمو ، ولا بمرحلة خاصة من مراحل هذا النمو . لأن صانعه العليم الحكيم ، يعلم من أمر البشرية كله يوم أنزله . ما يعلمه من أمرها كله اليوم وغدًا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . يعلم طبيعتها كلها ، ويعلم حاجاتها كلها ، ويعلم كيف يمكن أن تلبى هذه الحاجات المتجددة فى ظل هذا المنهج الذى لم يوقت

---

(١) سنفصل القول فى هذه الحقيقة فى فصل « حقيقة الإنسان » .

ـ سبحانه ـ بوقت ، ولم يخصصه بمكان ، ولم يقل : إنه يعمل به إلى عام كذا من الهجرة أو من الميلاد ! ثم يبحث الإنسان بنفسه لنفسه عن منهج آخر ! وهو ـ سبحانه ـ لا يعلم بعد جهل ! ولا ينتظر نتائج التجارب ؛ الواقعية ليعدل منهجه على ضوئها ! ولا يغيب عنه جانب من خط سير البشرية الطويل فلا يحسب حسابه فى منهجه حتى يظهر هذا الجانب فى دنيا الواقع ! . . إلى آخر ما يعرض للتصورات والمناهج التى يصطنعها البشر لأنفسهم، والتى تحتاج إلى « التطور » والتحور فى أصولها كلما نما الإدراك البشرى وازدادت تجارب البشرية ، وتغيرت الأوضاع البشرية كذلك[1] !

ثالثًا : أن هذا التصور إنما جاء ابتداء لينشئ « واقعًا » جديدًا للبشرية غير الواقع الجاهلى الذى وجده ، ثم لينمى الواقع الجديد الذى جاء لينشئه فى حركة دائبة . ولكن حول محور ثابت وفى إطار كذلك ثابت ، يسع نمو الحياة الإنسانية شكلاً وحجمًا ، كما وكيفًا ، ولكن يحفظها فى الوقت نفسه من نكسات الجاهلية فى كل صورها وأشكالها . . وموقفه من التصورات الجاهلية ومن الواقع الجاهلى ـ المتمثل فى عبودية البشر للبشر ـ هو موقف لا يتبدل : رفض الاعتراف بشرعية وجوده أصلاً ؛ لأنه صادر من غير الجهة التى تملك شرعًا حق إصداره ـ وهى جهة الألوهية الواحدة التى لا يشاركها فى خصائصها أحد من العبيد ـ ولأنه مهدر لشهادة أن لا إله إلا الله ، التى يقوم الإسلام عليها ، ويستهدف إقرارها فى حياة الناس بعد إقرارها فى ضمائرهم . وعنصر الزمن ـ من هذه الناحية ـ غير داخل فى تركيب هذا التصور ـ بما أنه ربانى ـ شأنه فى هذا شأن النواميس الكونية التى يقوم عليها نظام الكون كله . فهى نواميس ثابتة، وظيفتها حفظ هذا الكون من الاختلال والفساد ، ومنع أى عبث يتدخل فى خط سير هذا الكون . . وهى نواميس سارية ـ بمشيئة الله وقدره فى غير حتمية آلية[2] ـ منذ أن خلق الله الكون ، ولا علاقة لها بمرور الزمن ـ على الرغم مما يحدث فى الكون فى إطارها بمشيئة الله وقدره ، من تغيرات وتحولات ـ وإلا فما علاقة الزمن مثلاً بالنواميس التى تشد الأجرام الكونية ؟ أو التى تضمن الموافقات الدائمة فى هذا الكون لبزوغ الحياة وبقائها ونموها ؟ إنها نواميس تواجه الحاجات الدائمة المتجددة دون أن تضيق عنها ، أو تقصر دونها ، ودون أن تحتاج إلى تغيير ، أو

---

(١) يراجع فصل « الثبات » فى القسم الأول من هذا البحث .

(٢) سنفصل القول فى هذه الحقيقة عند الحديث عن « حقيقة الألوهية » وعن « حقيقة الكون » أيضًا .

تجديد . . والتصور الإسلامى ـ بما أنه ربانى ـ واحد من هذه النواميس ، صادر من ذات المصدر ، ومتناسق كذلك مع هذه النواميس ، ومنسق لحياة البشر معها .

رابعًا : أن هذا التصور يتضمن فى تركيبه الذاتى وسيلته الخاصة لمواجهة الأحوال المتغيرة والأوضاع المتجددة فى الحياة البشرية النامية . . فنمو الحياة وتجدد أشكالها هو أحد النواميس الإلهية . وهو ـ من ثم ـ مرعىّ فى التصور الذى قرره ، والمنهج الذى وضعه الله ـ خالق الحياة ـ لتنمو وتتجدد فى إطاره الثابت ، مشدودة إلى محوره الثابت . فلا تعارض بين ثبات مقومات هذا التصور ـ التى يقابل ثبات الفطرة الإنسانية وثبات السنن الحيوية ـ وبين تجدد أوضاع الحياة فى إطاره . لأنه بطبيعة تكوينه مهيأ لهذه الحركة ! متضمن وسيلته الذاتية التى يواجه بها هذه الحركة ، وهو فى هذا لا يستعير من الواقع الجاهلى ، ولا من التصور الجاهلى ـ لا فكرة ولا وسيلة ـ إنما هو يعمل بمنهجه الخاص ، وبوسيلته الخاصة فى حرص تام على إبعاد المؤثرات الجاهلية إبعادًا تامًا :

* « إن الدين عند الله الإسلام » . . .

(آل عمران : ١٩)

* « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . . . .

(آل عمران : ٨٥)

* « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . . . .

(المائدة : ٤٤)

* « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . . .

(النساء : ٦٥)

* « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » . . . .

(النساء : ٥٩)

والآية الأولى تحدد المنهج الذى يرضاه الله ويعتبره هو « الدين » ، والدين هو المنهج الذى تسير عليه جماعة من الناس . فإن كانت حياتهم تسير على منهج الله فهم فى دين

الله . وإن كانت حياتهم تسير على منهج من صنع غير الله فهم على غير دين الله [1] .

والآية الثانية تقرر أن الله لا يقبل من أحد دينا ـ أى منهج الحياة ـ إلا الإسلام . فمن ابتغى غير منهج الله منهجًا ، وغير نظام الله نظامًا ، وغير شريعة الله شريعة ، فلن يقبل منه هذا الدين . ولن يكون بحال فى دين الله .

والآية الثالثة والآية الرابعة مدلولهما هو مقتضى مدلول الآيتين الأولى والثانية . فمن لم يحكم بما أنزل الله كافر . ومن لم يرض حكم الله لم يدخل فى الإيمان . لأن حكم الله هو دينه ، وهو منهجه الذى ارتضاه للحياة . وهو « الإسلام » الذى لا يقبل الله من الناس « دينا » سواه .

وهذه الآيات الأربع تتضمن الأصول الثابتة ، الكفيلة بإبقاء الحياة البشرية دائمًا فى إطار المنهج الإلهى وحول محوره ، أما الآية الخامسة فتتضمن وسيلة هذا المنهج الذاتية لمواجهة نمو الحياة وتجددها ، وبروز الحاجات الجديدة المتجددة أبدًا : .

« فردوه إلى الله والرسول » . .

أى فردوه إلى أصول التصور الإسلامى الذى جاءكم من عند الله ، وإلى أصول الشريعة الإلهية التى جاءكم بها رسول الله . . لا إلى أى أصل آخر . ولا إلى أى تصور آخر. ولا إلى أى ميزان آخر ، له حق الحاكمية ، وله حق تعبيد الناس لما يشرعه لهم فى أمور الحياة المتجددة بغير إذن الله :

« أم لهم شركاء [2] شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » . . .

(الشورى : ٢١)

وهنا ، وفى هذه الحدود البينة ، يجىء دور الاجتهاد لاستنباط الأحكام الفرعية وتطبيقها على الأقضية المتجددة فى واقع الحياة البشرية .

إن وقائع الحياة وأقضيتها ماتنى تتجدد ، وماتنى تحتاج إلى معرفة حكمها فى دين الله . وفقه الفروع هو هذه الأحكام التى يستنبطها المجتهدون ، برد هذه الوقائع والأقضية

---

(١) يراجع الفصلان الأول والثانى من كتاب « المستقبل لهذا الدين » للمؤلف . كما يراجع فصل « الدين » فى كتاب « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للسيد أبى الأعلى المودودى .

(٢) شركاء : أى آلهة شركاء لله !

التى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة ، إلى الله والرسول . أى إلى الأصول التى سنها الله للحياة ويلغها عنه رسول الله . .

خامسًا : أن هذا المنهج ، المتوافق فى طبيعته ووسيلته مع الحياة البشرية الثابتة الأصول النامية الفروع المتجددة الأشكال ، المهيأ لاستقبال نموها وتجددها وضبطه بموازينه الخاصة ، فى إطاره الخاص ، يقبل من النمو والتجدد كل ما هو امتداد لنشاط الفطرة البشرية السوية ، وما هو تلبية للحاجات الحقيقية الناشئة عن هذا الامتداد السوى ، ويحافظ فى الوقت ذاته على مقومات الفطرة البشرية السوية وخصائصها التى تميزها وتفردها فى الكون كله بمقامها الكريم . ومن ثم لا يسمح أن يكون النمو والتجدد على حساب هذه المقومات والخصائص العزيزة ، . فهو حينئذ لا يكون نموًا سويًا ، ولا تجددًا حقيقيًا . كما أنه لا يكبت ولا يحطم ولا يعوق طاقة واحدة من الطاقات البانية ، ولا يحوّلها عن طريقها القويم . . بينما هو يرفض من النمو والتحور كل ما هو منحرف ، أو مصطنع ، وكل ما يجوز أن يتلف ، أو يعوق طاقة من الطاقات البناءة ، أو خصيصة من الخصائص الإنسانية الكريمة . . وهو فى هذا كله يزن بموازينه هو . . الموازين الربانية . . . ويعمل بمنهجه هو . . المنهج الربانى . . ويواجه الحياة بوسيلته هو . . كما بينها الله . . ولا يستعير من الجاهلية منهجًا ولا فكرة ولا وسيلة تتعارض مع منهجه وأهدافه .

* * *

وبناء على هذه الحقائق الخمس الرئيسية لا يحتاج الإسلام ـ لكى ينشىء واقعًا إسلاميًا ـ فى أية فترة من فترات التاريخ ، أن يهادن الجاهلية ، ولا أن يعترف لها لحظة بشرعية الوجود جملة وتفصيلاً ، ولا أن يستعير شيئًا من قيمها وموازينها ، أو مناهجها ووسائلها . . إنما يحتاج الإسلام فقط إلى العصبة المؤمنة التى ترتفع إلى مستواه . العصبة التى تدرك طبيعته وتعرف وسيلته ، كما تدرك طبيعة الفطرة البشرية وحاجاتها الحقيقة ، فى حياة نامية متجددة . . حياة الحركة إحدى خواصها ، والنمو فطرة فيها ، والتنويع والتركيب وظيفة من وظائف الخلافة فيها . . مستمدة إدراكها لهذا كله من تصورها الإسلامى ذاته ، مستعزة بهذا التصور ومقتضياته . لكى تواجه به الجاهلية وتصوراتها وقيمها وأوضاعها ، منكرة على هذه الجاهلية العالمية الأرضية شرعية وجودها ابتداء جملة وتفصيلاً ، ثم تعمد

إلى واقع البشرية الجاهلى ، فتحذف منه ما تحذف وتضيف إليه ما تضيف ، وفق هذا التصور، وبمنهجه الذاتى ، وبوسيلته الخاصة ، كما صنع الإسلام أول مرة مع الواقع الجاهلى العربى ، والواقع الجاهلى العالمى . مع اليقين المطلق بأن كفاءة هذا التصور لمواجهة جاهلية اليوم لا تنقص عن كفاءته لمواجهة جاهلية الأمس ، لأنه ـ بربانيته ـ مطلق لا نسبى . « والمطلق » تستوى كفاءته بالقياس إلى أى « مقيد » فى أى زمان وأى مكان .

وهذا النمو والتجدد ، والتنوع والتركب ، الذى حدث فى الحياة البشرية . . منه الكثير هو مقتضى النمو الفطرى فى الحياة البشرية ، ومن ثم فالإسلام يقبله ، ويضيف إليه أيضًا ، بعد استبدال الأسس التصورية والاعتقادية التى يقوم عليها و إعادة ربطه بالتصور الإسلامى الصحيح . . وعلى سبيل المثال نذكر أعظم ما فى هذه الحضارة القائمة من عناصر البقاء والنماء . . وهو الأساس العلمى فى التفكير والأساس التجريبى للنمو الحضارى . . فهذا الأساس نشأ ابتداء بفعل التصور الإسلامى والمنهج الإسلامى ذاته . . بدأ فى جامعات الأندلس وفى جامعات المشرق ، ونقله عنها « روجر بيكون » ثم «فرنسيس بيكون » ـ كما يقرر « دوهرنج » و « بريفولت » و « دريبر » و « جب » من كتاب الغرب أنفسهم ـ حيث لم يكن للتفكير العلمى ولا للمنهج التجريبى جذور تذكر لا فى الفلسفة الاغريقية التجريدية ولا فى اللاهوت النصرانى ، اللذين يعدان التربة الأصيلة للحياة الأوربية وللفكر الأوربى . قبل اقتباسه من المنهج الإسلامى فى جامعات الأندلس وفى جامعات الشرق أيضًا . . ولم ينشأ هذا الاتجاه فى جامعات الشرق والأندلس إلا بتأثير «واقعية » التصور الإسلامى و « إيجابيته » ، وتوجيهه الفكر الإنسانى إلى التعامل مع النواميس الكونية ، والقيام بالخلافة فى الأرض على أساس من هذه النواميس . . وقد حدث أن استعارت أوربا فى نهضتها هذه الأسس من جامعات الأندلس أولاً . ومن جامعات المشرق أيضًا بعد الحروب الصليبية . فواجهتها الكنيسة وواجهت العلماء الأوربيين ـ المتلمذين على المنهج الإسلامى ـ بوحشية وعنف بالغين ! ولكن الحركة العلمية مضت فى طريقها ، واتخذت العداء للكنيسة ولدين الكنيسة شعارًا لها . ثم اتخذت العداء للدين كله شعارًا . غير مدركة أن جذور اتجاهها هذا الذى عارضته الكنيسة تكمن فى منهج دينى ! ولكنه ليس « دين الكنيسة » إنما هو « دين الله » ! الدين الذى واجهته أوربا بالعداء الوحشى ، ووجهت إليه حملاتها الصليبية البربرية ، وطاردته

فى الأندلس بمذابح محاكم التفتيش المروعة ، ثم حاربته ـ وما تزال تحاربه ـ فى كل مكان على وجه الأرض اليوم بروح العداء الصليبى ، فى حملة واسعة شاملة . . . وواصلت تلك الحركة العلمية نموها حتى وصلت خلال القرون الثلاثة الأخيرة إلى النتائج الباهرة التى وصلت إليها . بينما هى تجهل جذور هذا الاتجاه ، وتعادى أصول هذا الاتجاه ، وتشن عليه وعلى حركات البعث والإحياء التى تنبثق منه حرب الإبادة والتنكيل فى كل مكان على وجه الأرض حتى الآن ! . . ذلك بينما راح المجتمع « الإسلامى » يتخلى عن منهجه الأصيل وهو يتخلى عن حقيقة تصوره وحقيقة « إسلامه » !

غير أن اتجاه الفكر الأوربى إلى معاداة الكنيسة ، بسبب وقفة الكنيسة بعنف بالغ فى وجه المنهج العلمى ، المستعار ابتداء من الفكر الإسلامى ، ولأسباب أخرى كثيرة[1] ـ قد جعل الفكر الأوربى يجمح إلى « المادية » فى النهاية ، فلا يبقى على « التوازن » الذى امتاز به التصور الإسلامى والفكر الإسلامى . . ومن هذا الجموح تسرب الفساد إلى الحياة الإنسانية . . لا من المنهج العلمى ذاته . . وهذه حقيقة ينبغى الانتباه إليها ونحن نقوم الحضارة الراهنة ، ونقوّم المنهج العلمى .

وحين يعود الإسلام إلى مواجهة الجاهلية الحاضرة ـ فى عالم الواقع ـ فإنه سيستنقذ «المنهج العلمى » من « الجموح المادى » . . وهو جموح انفعالى ناشئ من وقفة الكنيسة بوحشية فى وجه الحركة العلمية ، ومن وراثات أوربا الرومانية كذلك[2] ! وليس منبثقًا من المنهج العلمى فى ذاته ، ولا الحقائق العلمية تقضى به ، أو تقود إليه . إنما هى الرغبة الجامحة تلوى أعناق الحقائق العلمية الصحيحة ! . . كذلك سيستبقى الإسلام من النمو الحضارى كل ما هو امتداد فطرى وحقيقى لدوافع الحياة الإنسانية ـ التى يقرر هذا التصور ذاته أن النمو والتجدد والتنوع والتركب من طبيعتها ومن فطرتها ـ ويرد هذا النمو إلى التوازن السوى ، وإلى المحافظة على خصائص الكينونة الإنسانية الفريدة . وسيكافح الجموح الانفعالى الذى يخرج عن سواء الفطرة ، والانحرافات الشاذة الناشئة عن هذا

---

(١) يراجع فصل « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

(٢) يراجع كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف « محمد أسد » وترجمة « عمر فروخ » وكتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » تأليف السيد « أبو الحسن الندوى » وكتاب « المستقبل لهذا الدين » للمؤلف .

الجموح . ويرد أمر الحياة كله إلى الاعتدال الذى يكفل النمو السوى المطرد المتوازن لكل جوانب الحياة الإنسانية .

ولا نملك أن نستطرد من هذا - فى هذا الفصل التمهيدى - لبيان الحدود التى يعمل فيها التصور الإسلامى والمنهج الإسلامى المنبثق منه ، عندما يواجه الواقع الحضارى الجاهلى القائم ! فذلك الغرض يحتاج إلى بحوث مستقلة خاصة ، تقوم على أساس من : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » التى نستهدف جلاءها فى هذا الكتاب بقسميه ، وتقتصر عليها مباحث هذا الكتاب[1] .

* * *

بهذه الروح ، وبهذا القصد ، نقدم هذا القسم الثانى من هذا البحث عن : «مقومات التصور الإسلامى » كما قدمنا القسم الأول منه عن « خصائص التصور الإسلامى » مستلهمين هذه المقومات من المصدر الربانى لهذا التصور . . القرآن الكريم . . باعتبار أن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذا المجال ليست إلاّ البيان المباشر ، المطابق للقرآن الكريم .

وقد نتطرق فى بعض المواضع إلى بعض الموازنات مع مقومات التصورات الجاهلية - فى القديم ، أو فى الحديث - عندما يستدعى الأمر ذلك ، لبيان النقلة البعيدة التى ينقلها التصور الإسلامى للبشرية . . وإنها لنقلة بعيدة حقًا . . بعيدة بعد السماء عن الأرض . . لا ! بل بعد صنعة الله عن صنعة العبيد !!

وقبل أن ننهى هذا التقديم نحب أن نقول كلمة عن منهجنا فيه فى التعامل مع القرآن الكريم - بوصفة المصدر الأول الذى نستمد منه مقومات هذا التصور - تضم إلى ما قلناه من قبل عن منهجنا فى التعامل مع هذا المصدر فى تقديم القسم الأول[2] :

إننا لم نكتب هذا البحث إلا لأن الناس قد بعدوا عن التعامل المباشر مع القرآن فى أمور دينهم ودنياهم - كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتعامل - وبعدوا عن الحياة فى مثل الجو الذى تنزل فيه هذا القرآن أول مرة - كما بينا ذلك فى صدر القسم الأول منه فى « منهج

---

(١) يراجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

(٢) ص ١٥ - ١٦ من القسم الأول .

البحث » ـ جو نشأة الدعوة ، ثم نشأة المجتمع والدولة . ومن ثم بعدوا عن تذوق هذا القرآن ، والاعتماد عليه مباشرة فى استقاء الحقائق .

وكذلك أصبح الناس فى حاجة إلى من يحدثهم عن « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » بعبارة بشرية ، تقرب إليهم هذه الخصائص والمقومات كما هى فى مصدرها الربانى . . فى القرآن الكريم . .

غير أننا نعلم ـ علم التذوق واليقين ـ أن العبارة البشرية كائنة ما كانت ، وأن المناهج البشرية فى تناول تلك الحقائق كائنة ما كانت ، وأن طرائق العرض البشرية فى هذا الباب ، كائنة ما كانت ، لن تبلغ شيئًا مما تبلغ إليه العبارة القرآنية والمنهج القرآنى ، وطريقة العرض القرآنية . . وهى ليست قاصرة عن أن تبلغ مما يبلغه القرآن فحسب ، بل ربما كانت مبعدة من الحقيقة ـ كما هى فى صورتها القرآنية الفريدة البهيجة ـ مهما بلغ الكاتب من تحرى المنهج القرآنى وإدراك خصائصه .

هذا يقين نستمده من طول الصحبة لهذا القرآن . وطول الصحبة كذلك للمحاولات البشرية فى البيان . وطول المزاولة الشخصية للكتابة فترة من العمر طويلة .

وهذا اليقين يدفعنا دفعًا ـ لا نملك له ردًا ـ إلى محاولة ترك النصوص القرآنية ذاتها تتحدث فى هذا البحث عن « مقومات التصور الإسلامى » ما كان ذلك ممكنا . . ولو كان الخيار لى لجمعت الآيات التى تتحدث عن هذه الحقائق ونسقتها وتركتها تتحدث ـ وحدها وبذاتها ـ حديثها الفريد البهيج .

ولكن الناس ـ كما قلنا ـ قد بعدوا عن القرآن ، وعن جوه الذى لا تدرك حقائقه إلا فى مثله . . جو الحركة والكفاح لإقامة الحياة على أساس الإسلام لله وحده . . ولم يعد بد من مساعدتهم على تذوق المنهج القرآنى بشروح من البيان البشرى والعبارات البشرية .

وتوفيقًا بين تلك الرغبة الملحة ، النابعة من التذوق والتجربة واليقين ، فى ترك النصوص القرآنية وحدها تتحدث بالحقائق فى هذا البحث عن « مقومات التصور الإسلامى » . . وبين الضرورة الملحة كذلك فى مساعدة الناس على تذوق المنهج القرآنى بشروح من البيان البشرى والعبارات البشرية . .

توفيقًا بين تلك الرغبة وهذه الضرورة سلكت منهجًا قد يكون غريبًا بعض الشىء على القارئ الحديث الذى تعود ـ حتى فى البحوث الإسلامية الخالصة ـ أن يرى الآيات القرآنية

تساق لمجرد الاستشهاد فى مواضع من البحث ، على القضية التى يقررها الكاتب بعبارته ، ولا يتجاوز دور الآيات القرآنيـة دور الاستشهاد على الحقيقة التى يكون الكاتـب قد قررها بأسلوبه البشرى وعبارته البشرية !

المنهـج الذى سلكنـاه هنا على النقيـض مـن هذا . . منهجنـا يحاول أن يجعل النـص القرآنى هو الأصل الذى يتولى تقرير الحقـائق التى يتألف منها البحث ، وأن يجعل عبارتنا البشرية مجرد عامل مساعد ، يجعل النص القرآنى مفهومًا ـ بقدر الإمكان ـ للقارئ .

إننا نريد أن نعقد الألفة بين قارئ هذا البحث وبين القرآن ذاته فى النهاية . . نريد لهذا القارئ أن يتعود التعـامل مع القرآن ذاته تعـاملاً مباشرًا . كلما أعوزته حقيقـة فى شأن من شئون الحياة كلهـا ، وأراد أن يصل فيها إلى الحق . . نريـد له أن يشعر ـ كما نشعـر ـ أن فى هذا القرآن غناء كاملاً شاملاً فى كل حقيقة من حقائق الوجود الأساسية ، وأن ليس وراءه إلا البحوث العلمية البحتة التى تتناول الجزئيات التجريبية وتطبيقاتها العملية . . للتعرف على بعـض النواميـس الكونيـة التـى أودعها اللـه هـذا الكون ، وللتعـرف على الطاقـات والأقوات المدخرة فى هذا الكون ؛ كى تسـاعد الإنسان على النهوض بالخلافة فى الأرض . والإبداع المادى فى الانتفـاع بهذه الطاقـات والأقوات والمدخـرات ، وفق تلـك النواميـس الإلهية . . فأما سائر ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية من عقيدة وشريعة ، ونظام مجتمع ، وتربيـة نفس ، ومنهج فكر وفـن ، وسياسة وحكـم . . . إلى آخر ما يتعلق بتصـور الحياة وتنظيمها . . فحقائقه الكلية الكبرى فى هذا القرآن . وكـذلك المنهج العقلى للتعامل مع نواميس الكون وطـاقاته ومدخراته . . فـلا يبقى إلا البحث التجريبى فى مجاله الـذى تركه الله للعقل البشرى المقوّم بذلك المنهج القويم .

ومن ثم فقارئ هذا البحث لابد له أن يدرس النصوص القرآنية المطولة فيه باعتبارها هى الأصل . . إنها لم تجئ هنا للاستشهاد . . إنما جاءت للتحدث هى بذاتها عن الحقيقة. وعبارتنا حولها هى العنصر الإضافى . ولابد أن يصبر على تملى هذه النصوص كلمة كلمة ، فلا يتخطاها حتى لو كان ممن يحفظون القرآن من قبل ! إنها هنا تمثل شيئًا آخر . . إنها تمثل كيف يتحدث القرآن عن موضوعات كاملة ، لا يحتاج القارئ فيها إلى شىء بعده . .

والله الهادى والموفق والمعين . .

مقوّمات التصور الإسلامى

« ومـن أحسـن قـولاً ممن دعـا إلى اللـه
وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين »

مقومات التصور الإسلامى هى مجموعة الحقائق العقيدية الأساسية التى تنشئ فى عقل المسلم وقلبه ذلك التصور الخاص للوجود ، وما وراءه من قدرة مبدعة وإرادة مدبرة، وما يقوم بين هذا الوجود وهذه الإرادة من صلات وارتباطات .

ولابد قبل أن نتحدث عن هذه « المقومات » فرادى ـ كما تضطرنا طبيعة البحث ومنهج العرض البشرى ، الذى قلنا : إن بعد الناس عن القرآن وجوه ، وعن طريقة العرض القرآنية الفريدة ، هو الذى يضطرنا إليه ـ أن نقول كلمة مجملة عن هذا التصور فى عمومه .

إن التصور الإسلامى لذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته وعلاقته بالخلق وعلاقة الخلق به ، ولعالم الغيب وعالم الشهادة ، وما يحتويه من أشياء وأحياء . . والإنسان واحد منها . . وما يقع فيه من أحداث ، وما يتعاوره من ظواهر ، وما يمكن فيه من أسرار ، وما يقوم بينه من علائق . . . إن هذا التصور بكل مقوماته ، جميل جمالاً أخاذًا . سواء فى التعبير القرآنى عن الحقائق التى يقوم عليها ،أو فى المشهد الفريد الذى يرسمه هذا التعبير لهذه المقومات فى تناسقها الرائع .

إن جمال هذا التصور يتمثل ـ أول ما يتمثل ـ فى كماله . . فى تكامله وتناسقه . . . إنه ليس مجموعة قضايا منفصلة . ولا مجموعة حقائق منعزلة . . إن كل حقيقة من الحقائق التى يقوم عليها . . . كل مقوم من مقوماته . . يؤدى دوره فى « الكل » المتكامل

المتناسق. وهو يفقد قوام حقيقته وروحها حين ينفصل من هذا الكل . . إنه ليس أجزاء وتفاريق يمكن تناول أى جزء منه ـ أو أى جانب من جوانبه ـ وحده ، بعيدًا عن بقية الجوانب المنسوقة . . إن انفصال هذا الجزء ـ أو هذا الجانب ـ يذهب بجماله ، ويذهب بجمال الكل . بل يذهب بحقيقته وحقيقة الكل أيضًا !

ومن ثم فإنه لا يمكن تناول جانب بمفرده من جوانب هذا التصور ، أو مقوم بمفرده . . لعرضه وحده فى عزلة عن سائر الجوانب أو سائر المقومات ، أو لعقد موازنة بينه وبين الجانب الذى يقابله من أى تصور آخر ، أو أية فلسفة أخرى ، لأن هذا الجانب ـ وهو معزول ـ لا يمثل ذاته كما هو فى الكل . ولا يعطى حقيقته كما هو فى الكل أيضًا !

وبعض الأمثلة يوضح هذه الحقيقة الكبيرة . وإن كنا سنضطر أن نسبق بها السياق هنا قبل مجيئها فى مواضعها :

لنأخذ مثلاً . . الحقيقة الإلهية . .

إن المنهج القرآنى يجلّى هذه الحقيقة بآثارها الفاعلة فى هذا الوجود . . فى الخلق والتدبير فى تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه . فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . فى إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل . فى إرسال الرياح لواقح وإنزال الماء من السماء . فى انبثاق الحياة من الموات وانبثاق الصبح من الظلام . فى إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى . فى بدء الخلق وإعادته . فى القبض والبسط . فى البعث والنشور . فى النعمة والنقمة . فى الجزاء والحساب . فى النعيم والثواب . . . فى كل حركة وكل انبثاقة ، وكل تغير وكل تحور فى عالم الغيب ، أو فى عالم الشهادة فى هذا الوجود الكبير . . . ونادرًا ما يتحدث المنهج القرآنى عن الذات الإلهية والصفات فى الصور التجريدية التى تتحدث بها الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام !

فإذا نحن عمدنا إلى الحقيقة الإلهية فعزلناها ـ فى التصور والحديث ـ عن هذا الوجود ، لم تتجل لنا قط بصورتها الفاعلة المؤثرة الموحية للضمير البشرى . ولم تكن هى ـ كما هى ـ فى التصور الإسلامى .

إن الوجود هو المعرض الحى الذى تتجلى فيه هذه الحقيقة تجليها الموحى فى التصور الإسلامى .

ونأخذ مثلاً آخر . . حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فى التصور الإسلامى :

إن هذا التصور يقوم ـ كما سنفصل فى الفصول التالية على أساس أن هناك ألوهية واحدة لهذا الوجود ، ذات خصائص غير قابلة للشركة . وعبودية شاملة تتمثل فى جميع الخلائق من أشياء وأحياء .

عن مشيئة الله الواحد سبحانه صدرت كل هذه الخلائق ، وبقدر الله تقوم وتتحرك لا شرك فى هذه الألوهية . . لا فى حقيقتها ولا فى خصائصها ، ولا فى سلطانها . .

فماذا لو فصلنا ـ فى التصور والحديث ـ بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فتصورنا كلا منهما مقطوعة الصلة بالأخرى ؟ ماذا لو فصلنا فى التصنور والحديث بين الحقيقة الإلهية وهذا الكون بما فيه ومن فيه ، ثم رحنا نحاول تصور هذا الكون وارتباطاته ، ونواميسه وحركاته بدون نظر إلى الحقيقة الإلهية ؟

إنه لا يكاد يبقى فى أيدينا شىء من حقيقة الوجود على صورته فى التصور الإسلامى ، ولا نعود نملك أن نتصور ، أو نفسر شيئًا مما كان فى هذا الوجود وما يكون تفسيرًا صحيحًا . . إنه يبدو لنا حينئذ خلوا من حقيقته ـ كما هى فى التصور الإسلامى ـ ومن سر نشأته ، ومن أسباب حركته ! وذلك بغض النظر عن اختفاء الالتزامات والارتباطات التى تنشأ من دينونة العباد كلهم لله الواحد فى النشأة والمصير ، فى المحيا والممات ، فى الرزق والحركة ، فى الدنيا والآخرة . .

ثم لنأخذ مثلاً آخر . . حقيقة هذا الوجود ذاته . .

إن الوجود ـ فى التصور الإسلامى ـ يشمل عالم الغيب وعالم الشهادة . وهما عالمان متداخلان متفاعلان لا ينفصلان .

من عالم الغيب ـ على سبيل المثال ـ كل ما يهجم على الإنسان بعد الموت ، وكل ما يلم به من قبل الميلاد .

فى التصور الإسلامى يولد المولود ـ كما يوجد الموجود ـ بقدر غيبى خاص ، وتودع فطرته ما تودع من الاستعدادات الفطرية قبل أن يظهر فى عالم الشهادة . وهذا كله غيب لا يطلع عليه الناس وليس لهم يد فيه ، ولا يقدرون على شىء منه . . ثم يبتلون بالحياة فى هذه الأرض . . ثم يموتون . . فلا تنتهى الرحلة ولا تطوى الصفحة . . إنما يتعرضون بعد ذلك لما قدمت أيديهم ، ويحاسبون على ما قدموا فى حياتهم الدنيا . . فإما إلى جنة ، وإما إلى

نار . . رحلة متصلة . تبدأ قبل الميلاد . ولا تنتهى بالممات . . يصرفها قدر مغيب ، وتنتظرها عاقبة فى الغيب أيضًا . .

وهو تصور خاص لطبيعة الحياة الإنسانية من جانب ، ولهذا الوجود كله من جانب آخر . إنه الامتداد فى الشخصية ، والفسحة فى جنبات الوجود ، والسعة فى رقعة الحياة ، والامتداد فى ساحة الزمان .

هذا من ناحية « التصور » مجردًا . ودع عنك الآثار الشعورية والخلقية والحركية لهذا التصور فى ضمير الفرد ، وفى سلوك الجماعة ، وفى نظام الحياة . . وهو أمر هائل تقف أمامه التصورات المختلفة عند مفرق الطريق .

فكيف لو عزلنا ـ فى التصور والحديث ـ عالم الشهادة عن عالم الغيب ؟ ما الذى يبقى على أصله وعلى صورته فى عالم الشهادة ذاته ؟!

إن « الغيب » ليس « جانبًا » من جوانب التصور الإسلامى ، يمكن عزله والحديث عنه مستقلاً . . وكذلك عالم الشهادة . .

. . . وهكذا كل مقوم من مقومات التصور الإسلامى ، وكل جانب من جوانبه . .

ومن ثم فنحن لا نملك أن نقابل مثلاً بين التصور الإسلامى « للكون المادى » أو «للحياة الأرضية » أو « للوجود الإنسانى » . . الخ ، وبين أى تصور آخر لهذه «المقومات» يفترض عدم وجود حقيقة إلهية . أو يفترض أى شرك فى ذات الله ـ سبحانه ـ أو فى خصائصه ، أو يتصور هذه الحقيقة فى أية صورة تختلف عن صورتها فى التصور الإسلامى ، أو يتصور أن لا وجود لعالم الغيب . أو لا وجود لعالم الشهادة[1] ! وكذلك لا نملك أن نستعين بأى من هذه التصورات فى إدراك « مقومات التصور الإسلامى » !

إن أى « مقوم » من « مقومات التصور الإسلامى » إن هو إلا جانب من جوانب صورة متكاملة . لا يفهم وحده ، كما لا تفهم بقية جوانب الصورة ، حين يعزل منها هذا الجانب . . كما أنه لا يستعان فى إدراكه بتصور آخر ، ولا بمنهج آخر غير المنهج الإسلامى .

---

(١) كما يقول « اللا أدريون » أو كما يقول « المثاليون العقليون » .

إنه ـ فى الحقيقة ـ لا « أجزاء » ولا « جوانب » فى هذا التصور . إنما هو « الكل » الذى تأخذ الجوانب سمتها منه . كما أنه هو يأخذ سمته من تكامل الجوانب . .

* * *

هذه المقومات ليست من « صنع » العقل البشرى . وليس فى مقدور العقل البشرى أن « يصنعها » ! كما أن هذا العقل « لا يتلقاها » ـ فى صورة كاملة شاملة متناسقة ـ إلا من المصدر الربانى ـ كما قررنا ذلك من قبل ، فى فصل : « الربانية » فى القسم الأول من هذا البحث[1] .

إن العقل البشرى ليس هو الذى يصنع مقومات التصور الإسلامى ـ كما هو الحال فى الفلسفة ـ إنما هو الذى « يتلقاها » ، من مصدرها الربانى ، « يدركها » صحيحة ، حين يتلقاها وهو متجرد من أية « مقررات » سابقة فى هذا الباب ـ سواء من مقولاته الذاتية ، أو من مقولات العقائد المحرفة ، ولو كان لها أصل ربانى ـ وعليه أن يتقيد فيما يتلقاه من ذلك المصدر الصحيح بالمدلول اللغوى أو الاصطلاحى للنص الذى وردت فيه هذه المقومات ـ بدون تأويل ـ ما دام مُحْكَمًا . وأن يصوغ من هذا المدلول مقرراته هو ومنهجه فى النظر أيضًا . فليس له أن يرفض هذا المدلول ، أو يؤوله ـ متى كان متعينًا من النص ـ بحجة أنه غريب عليه ، أو صعب التصور عنده ، أو أن منطقه لا يقره ! فهو ـ العقل البشرى ـ ليس حكمًا فى صحة هذا المدلول ، أو عدم صحته ـ فى عالم الحقيقة والواقع ـ إنما هو حكم فقط فى فهم دلالة النص على مدلوله ـ وفق المفهوم اللغوى ، أو الإصطلاحى للنص ـ وما دل عليه النص فهو صحيح ، وهو الحقيقة ، سواء كان من مألوفات هذا العقل ومسلماته ، أم لم يكن . . ويستوى فى هذه القاعدة العقيدة والشريعة :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . . .

(الحشر : ٧)

وصدق على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه » . . . (أخرجه أبو داود) .

ومن ثم فإن محاكمة التصور الإسلامى ، أو محاكمة مقوماته التى يقوم عليها ـ ومنها ما

---

(١) ص ٤٩ ـ ٨٢ من القسم الأول .

هو غيب ، كالملائكة والجن والقدر ، والقيامة ، والجنة والنار ـ إلى العقل البشرى ومقرراته الذاتية ، منهج غير إسلامى .

وهذا لا يعنى أن التصور الإسلامى مناقض أو مصادم للعقل البشرى . فإن مقرراته كلها نوعان : نوعٌ الإدراك البشرى قادر على تصوره ـ عند تلقيه من المصدر الربانى ـ ونوع هو غير قادر على إدراكه ولكن منطقه ذاته يسلم بأن طبيعته أكبر من حدود إدراكه ، وأن «وجود » ما هو أكبر من حدود إدراكه داخل فى قدرة الله تعالى ، وأن إخبار الله عن وجوده هو بذاته برهان هذا الوجود ، وبرهان صحة الإخبار . .

ومن ثم لا يقع التناقض ، أو التصادم أبدًا ، متى استقام العقل البشرى والتزم حدوده !

وحيثما حاول العقل البشرى أن يسلك طريقًا غير هذا الطريق ، طريق التلقى من المصدر الربانى بدون مقررات سابقة له فيما يتلقى ، والالتزام بمدلول النص متى كانت دلالته اللغوية ، أو الاصطلاحية محكمة .

نقول : حيثما حاول العقل البشرى أن يسلك طريقًا غير هذا الطريق ، جاء بالخبط والتخليط الذى لم يستقم قط فى تاريخ الفكر البشرى . . يستوى فى الخبط والتخليط تلك الجاهليات الوثنية التى انحرفت عما جاء به الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ والجاهليات اللاهوتية التى أدخلت على الأصل الربانى الإضافات والتأويلات التى اصطنعها العقل البشرى ـ وفق مقولاته الذاتية ، أو اقتبسها من الفلسفة وهى من مقولات هذا العقل أصلاً . والجاهليات الفلسفية التى استقل الفكر البشرى بصنعها ، أو أضاف إليها تأثرات من الديانات السماوية !

وحيثما نظر الإنسان فى هذه التصورات طالعته بالمضحكات ! نتف من هنا ونتف من هناك . رؤية ناقصة دائمًا تلتقط من زاوية واحدة . حقائق صغيرة متناثرة فى ثنايا هذه التصورات ولكنها ليست هى « الحقيقة » !

وهذا المشهد يتجلى بوضوح كامل حين يراجع الإنسان ـ على وجه خاص ـ ذلك الجهد الطويل للفلسفة فى شتى عصورها ، وفى شتى مذاهبها ! وإن الإنسان ليتملى حقائق العقيدة الإسلامية فى القرآن ، والتصور الإسلامى الذى تنشئه فى إدراك المسلم ، ثم يحاول أن يتلمسها فى الفلسفة . فكأنما يخرج من الروض النضير ، الحى ، المكشوف ، المتفتح ، الطليق . . إلى القلعة الكثيبة من قلاع القرون الوسطى المليئة بالمنعرجات والسراديب ،

والمنعطفات ذات الهواء الراكد المكتوم ، والدروب المسدودة ، والجدران الصلدة فى نهاية كل درب مسدود ! حيث لا يصل أبدًا إلى « الحقيقة » فى هذه المنعرجات والسراديب والدروب .

لقد عجزت الفلسفة دائمًا ـ بجميع مذاهبها ـ عن الاهتداء إلى الإله الحق . . و«واجب الوجود » أو « السبب الأول » أو « الأحد » . . . الذى اهتدت إليه الفلسفة لم يكن أبدًا هو « الله » الحق ، الذى يهدى إليه « الإسلام » فى جميع الرسالات التى جاء بها الرسل من عند الله .

إن الإله الذى تبحث عنه الفلسفة ـ حين تبحث عن الله ـ هو الذى يقول عنه « ول ديورانت » وهو يتحدث عن موضوعات الفلسفة :

« وأخيرًا فإنها (الفلسفة) تتعلق بالله . ولسنا نعنى إله اللاهوتيين الذى يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة . وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته . فلو كان ثمة عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه . حتى تسايره ـ فى الفكر ـ مع الاحترام . فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر ، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضًا حتى نواجهه بغير خوف . . . » !

هذا هو إله الفلسفة . وهو لا يعنينا فى شىء . لأن بحث الفلسفة عنه على هذا النحو لم يقدها يومًا إلى « الحقيقة » !

إن الإله الحق هو « الله » الذى هدى إليه الإسلام . هو خالق هذا الكون وليس هو «قانون العالم وهيكله وحياته ومشيئته » ! هو « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . . (طه : ٥٠) وهو الذى يدبر هذا العالم ويحركه بقدره ، ولا يدرى أحد كيف يتعلق قدره بهذا العالم ؛ لأن أحدًا لم يزود بمعرفة كيفيات فعل الله ! إنما الإنسان مزود فقط بإدراك آثار فعل الله . .

لذلك عجزت الفلسفة عن الاهتداء إلى حقيقة العلاقة بين الله والعالم ، وإلى كيفية تعلق مشيئته بما يجرى فى هذا العالم ؛ لأنها حاولت دائمًا أن تفسر هذه العلاقة ، وأن تصور هذه الكيفية فى حدود المألوف للعقل البشرى فى عالم الخلائق . . والله ليس كمثله شىء . . فكيفيات أفعاله لا تكون أبدًا ككيفيات أفعال الخلق . . وكذلك جاء كل ما تصوره الفلسفة مختلاً ، لأن القاعدة التى قام عليها مختلة !

وبمثل هذا العجز عالجت حقيقة أفعال الإنسان ، والعلاقة بين الإنسان والكون وضربت فى التيه فى قضية « الجبر والاختيار » كما ضربت فى التيه فى قضية « المعرفة » . . ووقفت بالعقل فى مقابل الحس . وبالعقل فى مقابل الغريزة . كما وقفت بالحياة فى مقابل المادة . وبالفعل فى مقابل المادة . . وسارت بهذه القضايا فى تلك الدروب المسدودة ، داخل القلعة الكثيبة قرنًا بعد قرن ، ومدرسة بعد مدرسة . . وما تزال . . !

ولقد حدث فى تاريخ الفكر والاعتقاد أن أخذ بعض « المعتقدين » لعقيدتهم من الفلسفة . وأن أخذ بعض « الفلاسفة » لفلسفتهم من العقيدة . . وكان من وراء هذا وذلك ظاهرة لم تتخلف قط . . أنه حيثما أخذت الفلسفة من العقيدة أفادت واهتدت إلى بعض جوانب الحقيقة . وحيثما أخذت العقيدة من الفلسفة خسرت وأصيبت بالتخليط والانحراف والتعقيد !

ولا تبدو هذه الظاهرة واضحة كما تبدو فى تلك الصورة الكابية المعقدة الكثيبة التى تسمى : « الفلسفة الإسلامية » ، أو فى « علم الكلام » ، أو « علم التوحيد » . . البعيدة عن طبيعة التصور الإسلامى ، وعن طبيعة المنهج الإسلامى ! ذلك عندما شاء ناس من «المسلمين » أن يخلطوا التصور الإسلامى بمقولات الفلسفة ! وأن يعقّدوا المنهج الإسلامى بمنهج الفلسفة !

وأعجب العجب ما يصادفه الإنسان من الإعجاب المبهور الذى يبديه بعض الناس بالحقائق الصغيرة الجزئية الناقصة المحدودة ، التى يتمثلها العقل البشرى أحيانًا فى محاولاته للوصول إلى الحقيقة عن طريق الفلسفة ، متنكبًا طريق الهدى الربانى القويم . وهى إلى جانب المشهد الرائع المتكامل المتناسق للحقائق التى يقوم عليها التصور الإسلامى تبدو جانبية هزيلة . . إن هذا يذكرنى بذلك الإعجاب المبهور ، الذى يكاد يجن ، أو يطير ، حين يطلق الناس قمرًا صناعيًا صغيرًا ، يدور حول الأرض ، أو حول الشمس فترة محدودة من الزمان ، بينما هم يمرون على الأرض والشمس والقمر - وعلى الكون كله - فى غفلة بليدة ، فلا يلقون إلى هذا المشهد الرائع الفائق الباهر إلا نظرة عابرة ساذجة ، أو مطموسة !!

وأعجب العجب أيضًا أن بعض عشاق الفلسفة يلحون علينا فى ترك التصور الكامل الواضح البسيط المشرق الجميل ، الذى تنشئه العقيدة الصحيحة ، ويهبه لنا الله -

سبحانه ـ رحمة منه وفضلاً . . إلى التصورات الجزئية الجانبية الغامضة المعقدة الكئيبة التى تعطيها لنا الفلسفة !

ومن الغريب أن بعض هؤلاء العشاق يعدوننا منذ البدء بالخيبة والفشل فى الوصول إلى « الحقيقة » عن طريق الفلسفة . . ولكنهم يزعمون لنا أن المتاع العقلى بالبحث عن الحقيقة فى هذه القلاع الكئيبة وفى دوربها المسدودة يساوى قضاء العمر فيه ! أما حين توهب لنا الحقيقة فى جلالها الرائع وجمالها الباهر ، هبة خالصة من لدن صاحب الهبات المنعم المتفضل ، فإنها لا تستحق أن نتلقاها شاكرين ، لنفرغ بعد ذلك إلى البناء والعمارة والخلافة فى الأرض وفق هذه الحقيقة الواضحة المشرقة الكاملة الجميلة !

نأخذ من هؤلاء العشاق ـ عشاق الفلسفة ـ الذين يعرضون على البشرية هذه الصفقة الخاسرة . . « ول ديورانت » الأمريكى المعاصر . . إنه يشنها حربًا على العقيدة جملة ـ وبخاصة حين تكون هذه العقيدة هى العقيدة الإسلامية ! ـ ويدعو البشرية إلى التخلص منها جملة ، والاستمتاع بما يسميه « مناهج الفلسفة »[1] ، أو « قصور الفلسفة » ! ولكنه فى الوقت ذاته يمنينا بخيبة الأمل ، وباليأس والفشل ، من الوصول إلى « الحقيقة » عن طريق الفلسفة . . فهو يقول فى كتابه ذاك :

« ما طبيعة العالم ؟ ما مادته وما صورته ؟ وما مكوناته وهيكله ؟ وما مواده الأولى وقوانينه ؟ ما المادة فى كيفها الباطن ، وفى جوهر وجودها الغامض ؟ ما العقل ؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها ؟ أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها ؟ أيكون كلا العالمين : الخارجى الذى ندركه بالحس . والباطنى الذى نحسه فى الشعور ، عرضة لقوانين ميكانيكية ، أو حتمية ، كما قال الشاعر : « ما يكتبه الخالق فى مطلع النهار نقرؤه فى آخر النهار » ؟ أم ثمة فى المادة ، أو فى العقل ، أو فى كليهما ، عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية ؟ . . . هذه أسئلة يسألها قلة من الناس ، ويجيب عليها جميع الناس . وهى منابع فلسفاتنا الأخيرة ، التى يجب أن يعتمد عليها فى نهاية الأمر كل شىء آخر ، فى نظام متماسك من الفكر . . إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة على امتلاك سائر خيرات الأرض .

---

(١) عنوان كتاب نقله إلى العربية الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى . ونشرته مكتبة الأنجلو مع مؤسسة فرنكلين .

« ولنسلم أنفسنا فى الحال لإخفاق لا مناص منه . لا لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج فى إتقانه إلى معرفة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والميكانيكا وعلم الحياة وعلم النفس ، فقط ، بل لأنه ليس من المعقول أن نتوقع من الجزء أن يفهم الكل . فهذه النظرة الكلية ـ وهى فتنتنا فى هذه المغامرات اللطيفة ـ ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن . ويكفى أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشىء من الأمانة ؛ لنتأكد من أن الحياة والعالم فى غاية التعقيد والدقة ، بحيث يصعب على عقولنا الحبيسة إدراكهما ، وأكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلاً قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العليمة بكل شىء [1] . فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا ! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنا ؛ لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة ، وشكوك جديدة « فالجزىء » يتكشف عن « الذرة » والذرة عن الالكترون (الكهيرب) والالكترون عن الكوانتوم(Quantum) « الكويمية » . ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا (Categories) وقوانيننا وينطوى عليها . والتعليم تجديد فى العقائد وتقدم فى الشك . وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالمادة ، وحواسنا بالعقل . . وفى خلال هذا الضباب يجب علينا نحن « الزغب على الماء » أن نفهم البحر . . . (ص٦١ـ ٦٢ من الترجمة العربية) .

وهذا الاعتراف يمثل حقيقة ما حاولته الفلسفة وما بلغته فى جميع المذاهب فى جميع العصور ، من تلك القضايا الكبيرة التى تعرضت لها بغير آلتها ، وعالجتها بغير أداتها ! فقد اتخذت الفكر البشرى ـ وحده ـ أداة لها . وهى أكبر من هذا الفكر وأبعد مدى . وما هو ببالغ منها شيئًا إلا حين يتلقاها من مصدرها الربانى . ولكن هذا الفكر كان فى أوربا شاردًا من الكنيسة ومن إله الكنيسة ، منذ عصر النهضة . ثم اشتد شروده عنها منذ عصر التنوير هربًا مما ذاقه من العذاب الأليم من جراء احتكار الكنيسة للمصدر الربانى ، وتشويهه وتحريفه بما أدخلته إليه من مفهومات بشرية خاطئة . سواء كان ذلك فى العلم ، أم فى الدين ! ومن ثم لم يجد الحقيقة أبدًا فى محاولاته الشاردة فى التيه ، ولم يحاول كذلك أن يثوب . . ولعل له العذر . . فإلى أين يثوب ؟؟ إلى التصورات الكنسية وهى قد نشأت

---

(١) هذا نموذج من التعبيرات الساخرة المنثرة فى الكتاب . وهى كذلك أحد رواسب الجاهلية الاغريقية فى الفكر الغربى .

محرفة وما تزال محرفة ؟ أم إلى التصور الإسلامى ؟ وقد أقيم بينه وبين هذا التصور سور من العداء البغيض منذ الحروب الصليبية ؟ وما يزال الصليبيون والصهيونيون حتى اللحظة ينفخون فى هذا السور ، فيحيلونه نارًا ودخانًا يصعب اقتحامه ـ إلا على من عصم الله وهدى فاهتدى إلى النبع الأصيل ـ وما يزال عملاء الصليبية والصهيونية فى العالم ـ الذى كان يومًا ما إسلاميًا ـ يحطمون حركات البعث الإسلامى ، التى تهدف إلى جلاء هذا النبع الأصيل ، وإلى إقامة المجتمع الإسلامى الذى تتمثل فيه مقومات هذا التصور تمثلاً حيًا . وهى لا تتمثل على حقيقتها إلا فى مجتمع إسلامى صميم !

* * *

وكما يلح علينا بعض عشاق الفلسفة فى أن نهجر التصور الإيمانى المشرق الصادق الواضح الجميل ، إلى التصورات الفلسفية الكثيبة الغامضة المعقدة الجانبية ، التى لا تصل بنا أبدًا إلى « الحقيقة » . . كذلك يلح علينا بعض عشاق « العلم » . . تارة مع التواضع والاعتراف بأن العلم لن يصل إلى هذه الحقيقة ، وتارة مع الادعاء العريض بأن فى العلم الكفاية والغناء عن « الدين » !

نأخذ من هؤلاء « العلماء » المتبجحين الذين يعرضون على البشرية هذه الصفقة الخاسرة فى استهتار واضح ليس فيه وقار « العلم » ولا يرتكن كذلك إلى نتائج هذا العلم ، إنما يرتكن إلى مجرد الرغبة والهوى . من هؤلاء « جوليان هاكسلى » . . إنه يتحدث عن التصورات الدينية الجاهلية المستندة إلى الجهل والخرافة ، ليوازن بينها وبين « العلم » ، أو ليبين أنها خرافة لا ضرورة لها فى عصر العلم ! وفى التواء ينقصه ما يسمونه « الإخلاص العلمى » ينفذ إلى طعن « الدين » كله ، من وراء طعن الديانات الخرافية ! وإلى إمكان ـ بل وجوب ـ الاستغناء عن الدين كله !

يقول فى كتابه : « الإنسان في العالم الحديث [١] » فى مقال : « الدين كمسألة موضوعية » :

« . . . هل يستطيع العلم أن يلقى ضوءًا على الأزمة الحالية فى الدين ، وعلى حلها الممكن فى المستقبل ؟ .

---

(١) ترجمة حسن خطاب من مجموعة « الألف كتاب » بإشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم . نشر مكتبة النهضة .

« والحالة الخاصة التى تواجه الدين فى المدنية الغربية هى : أن الاعتقاد فى الله أدى كل ما يستطيع من فائدة ، وليس فى وسعه أن يفعل أكثر من ذلك . والإنسان خلق القوى الخارقة للطبيعة ؛ ليلقى عليها عبء ما لا يستطيع فهمه . فاعتقد الإنسان البدائى فى السحر ، ثم فى الأرواح الشخصية ، ثم انتقل من الأرواح إلى آلهة كثيرة ، ومن الآلهة الكثيرة إلى إله واحد . . وبعبارة بسيطة انتهى التطور . والمرحلة الخاصة التى تهمنا فى هذا التطور هى مرحلة الآلهة . ولقد كانت الآلهة فى عصر ما من حضارتنا الغربية تخيلات ضرورية ، وفروضا نافعة تساعد على الحياة .

« إلا أن الآلهة ليست ضرورية ، أو مفيدة إلا فى إحدى مراحل التطور ، ولكى يكون للآلهة قيمة عند الإنسان ، لابد من ثلاثة أشياء : يجب أن تبقى كوارث العالم الخارجى غير مفهومة ، وألا يمكن منعها حتى تكون مزعجة للغاية ، أو أن تكون قسوة الحياة العامة وعجزها بحيث يحولان دون تصديق أن فى الإمكان تحسين هذا العالم . . وعندئذ يستطيع الإله ـ ولا تستطيع الحياة الاجتماعية ـ أن يهيئ من الوسائل ما يلزم لإصلاح الحال . ويجب أن يظل الاعتقاد فى السحر ساريًا حتى ولو فى صورة مهذبة . ويجب أن يكون الإنسان فى حالة عقلية غير متقدمة ، حتى يستطيع تشخيص القوى اللاشعورية لضميره الشعورى وقواه اللاشعورية كأنها كائنات بعيدة عنه .

« ولقد أوصلنا تقدم العلوم ، والمنطق ، وعلم النفس ، إلى طور أصبح فيه الإله فرضًا عديم الفائدة ، وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا حتى اختفى كحاكم مدبر للكون ، وأصبح مجرد « أول سبب » ، أو أساسًا عامًا غامضًا . ولقد أدت زيادة المعرفة إلى إدراك أن السحر عقيدة باطلة ، وأن منع الكوارث لا يتحقق إلا بالعلم وتطبيقاته ، وأن الطقوس الدينية التى تصحب تقديم القرابين ، وصلاة الاستغفار ، عديمة المعنى . وأن تحليل العقل البشرى ، وما كشفه عن قدراته على رسم الخطط وإشباع الرغبات ، وما كشفه عن العقل الباطن والكبت ، يجعل ألا داعى للاعتقاد بأن الانحراف وما إلى ذلك يرجع إلى قوة روحية خارجية ، وأنه ليس من العلم فى شىء أن ننسب التوفيق فى الأعمال إلى هداية من الله .

« ولقد أدى المنطق اللاهوتى إلى الاعتقاد بوحدانية الله . . وهذا غير مفهوم . . ومن بعض النواحى أقل قيمة عملية من الشرك !

« وإذا سلمنا بوجود إله من أى نوع ، فالنتيجة المنطقية لذلك ، الاعتقاد بوحدانية الله. ولكن لم هذا الاعتقاد فى وجود الله ؟ ولماذا الاعتقاد فى كائنات خارقة للطبيعة لها صلة بمصير الإنسان وأمانيه ؟ ويتوقف الاعتقاد فى وجود الله على تشخيص الظواهر غير الشخصية ، والتشخيص مقدمة للاستدلال على وجود إله . ولكن هذا ليس إلا مجرد فرض . وإنه إذا كان مفيدًا فى العصور الأولى فإنه الآن غير مفيد . ثم إنه يثير من الصعاب أكثر مما يحل . ويجب على الدين - لكى يستمر عنصرًا هامًا فى حياة المجتمع - أن يتخلى عن فكرة الله . أو على الأقل يقصيها إلى مركز ثانوى ، كما حدث للسحر الذى سيطر على العقول فى الزمن الماضى .

« والإله ، والآلهة ، والملائكة ، والجن ، والأرواح . وغيرها من الأشياء الصغيرة الروحية . من عمل الإنسان ، وناشئة حتمًا عن نوع من الجهل ، ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية .

« وبإحلال المعرفة محل الجهل فى هذا الميدان ، وزيادة سيطرة الإنسان على بيئته نتيجة لتفكيره ، يتلاشى الإله كما تلاشى الشيطان قبله ، وآلهة الدنيا القديمة ، وجنيّات الغابات والبحيرات ، والأرواح المحلية » . . (ص ٢٢١ - ص ٢٢٣ من الترجمة العربية).

ولا نناقش - مؤقتًا - هذه الادعاءات المضطربة . ولا هذا الخلط المتعمد بين التصور الاعتقادى الحق ، والتصورات الأسطورية الباطلة ، كما لا نناقش حكاية تطور الاعتقاد الدينى ، وهل كان ذلك تطورًا لعقيدة التوحيد السماوية ، أم إنه تطور للانحراف عن هذه العقيدة فى دورات تاريخية متكررة ؟ (فسيأتى تفصيل رأينا فى مثل هذه الخلط فى فصل تال) . ولكننا فقط نناقش هذه الدعوى العريضة عن (العلم) الذى سيحل محل (الجهل) فلا تعود بنا حاجة إلى الدين وتصوراته !

ولن نتحدث نحن عن هذا « العلم » ، ولكننا سندع « ول ديورانت » الفيلسوف الأمريكى يتحدث . . إنه يقول عن « العلم » فى معرض الدفاع عن تخبطات الفلسفة ، وعدم استقرارها على رأى فى تاريخها الطويل ، وتعارض مناهجها وتناقضها . . ما يأتى :

« ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار ، مع تتابع مذاهبها ، وأن الفلاسفة جميعًا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة ؟! فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس

يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟! وكيف يجد الإنسان ، المشغول بالحياة ، من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية ؟ أو ما يهدئ به هذه الحرب ؟

« انظر إلى عمر الخيام يقول فى تجربته :

« كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء .

« وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه .

« فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر .

« وكنت أخرج من الباب الذى أدخل منه » . .

« وأكبر الظن أن عمر الخيام كان يجنح للخيال . ولعله لم يخرج من الباب نفسه الذى دخل منه . اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع نعليه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع [1] . ولست تجد أحدًا يغشى صحبة عظماء الفلاسفة دون أن يغير عقله ، ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف المسائل الحيوية . فماذا بدّل إيمان طفولة عمر ، إلى عبادة ـ مشوبة بالشك ـ للجمال والخمر ؟ أليست الفلسفة هى التى تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة [2] ؟ .

---

(١) تتكرر مثل هذه التهجمات العدائية المكشوفة على الإسلام بصفة خاصة فى كتاب ديورانت . ولم أجد من الدكتور المترجم ولا من الدكتور الذى قدم الترجمة لفتة واحدة لرد هذه التهجمات ـ مع الأسف ـ وهى واضحة البطلان والتفاهة كذلك ! ومن العجب ـ ولعله ليس عجيبًا ـ أن هذا « الفيلسوف » الذى يفزعه شبح الدين ويخشى أن يكون راصدًا له حتى من خلال العلم ـ كما سيجىء فى كلامه متهكما ـ يؤدى فى كتابه هذا شهادة لصالح اليهود واليهودية ـ كدين ـ ويتدسس لأداء هذه الشهادة ، فيذكرها فى ثنايا حوار ، على لسان شخصية يهودية . غير أنه يتركها بلا أي تعقيب من تعقيباته التهكمية ، لتستقر فى نفس القارئ كحقيقة . . إنه يدع (إستير) إحدى شخصيات الحوار تقول :

« لقد أعطى اليهود للعالم التوحيد . وأول تبشير بالعدالة الاجتماعية » !

كذلك يدع (إستير) هذه تقول عن المسيح : « إننى أقبله كيهودى عظيم » . . وندرك ما فى هذه العبارة من خدمة ، إذا نحن أدركنا خطة اليهود الجاهدة لإذابة حقد العالم المسيحى على اليهود بسبب ذكرى موقفهم النكد من المسيح . . ومحاولة ديورانت هى إحدى محاولات الخطة !

(٢) وهذه أخرى ! فإن العظمة ـ فى نظر ديورانت ـ هى أن يتحول إيمان طفولة عمر إلى عبادة ـ مشوبة بالشك ـ للجمال والخمر !

« فليدرس أحدنا تاريخ العلم ، وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد فى غمار سعة وعمق إجماع العلم الأساسى واتفاق كلمته !

« وإلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة ؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث ، أو يسخر من وجهها المغبر [1] ؟

« وأين ذهبت قوانين نيوتن العظيم حين قلب إينشتين ومينكوفسكى وغيرهما الكون رأسًا على عقب ، بمذهب النسبية غير المفهوم ؟!

« وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة فى الفيزيقا المعاصرة ، وما يكتنفها من فوضى وتنازع ؟!

« وأين إقليدس المسكين اليوم ، وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية ، ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعادًا جديدة بحسب أهوائهم ، ويبتدعون لامتناهيات يحتوى أحدها الآخر كجزء منه ، ويثبتون فى الفيزيقا ـ والسياسة كذلك ـ الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين ؟!

« وأين علم الأجنة ليرى « البيئة الناشئة » تحل محل « الوراثة » التى كانت إله العلم ؟ وأين « جريجورى » و « مندل » الآن ليشهدا انصراف علماء الوراثة عن « وحدة الصفات » ، وأين « داروين » الهدام الدقيق ليرى كيف حلت طريقة « التغيرات السريعة » محل «الاختلافات الذاتية والمتصلة فى التطور » ، وهل هذه التغيرات هى الثمرة المشروعة لاختلاط الهجائن ؟ وهل نضطر إلى الرجوع فى تفسيرنا للتطور إلى الوراء عند نظرية : «انتقال الصفات المكتسبة » ؟ أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضى نعانق رقبة زرافة « لامارك » ؟

---

(١) هذه النظرية السديمية التى يتهكم بها الكاتب الأمريكى لظهور بطلانها ـ بظهور نظرية أخرى تهدمها وقد تكون هى الأخرى باطلة ! ـ هى التى يريد بعض السذج عندنا فى إثباتهم لعلمية القرآن أن يحملوا عليها قول الله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ومثلها كثير من النظريات المتقلبة التى يحاولون ـ فى سذاجة الغيرة على الإسلام ـ أن يحملوا عليها آيات القرآن . . كأن العلم المتقلب هو الأصل الحق الذى يشرف القرآن ويعظم بمطابقته !

« وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ فونط Wundt وباختبارات « ستانلى هول » حين لا يستطيع أى عالم نفسانى من أتباع السلوكيين أن يكتب صحيفة واحدة فى علم النفس الحديث ، دون أن يلقى بمخلفات أسلافه فى الهواء ؟!

« وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم فى تاريخ قدماء المصريين كشفا بالأسرات وتواريخها على هواه ، ولا يختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة آلاف السنين؟! وحيث يسخر علماء الأجناس البشرية من « تيلور » و « وسترمارك » و «سبنسر»؟ وحيث يجهل « فريزر » كل شىء عن « الدين البدائى » لأنه قد رحل إلى العالم الآخر ؟!

« فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون « قوانين الطبيعة » ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين ، أو استقرار فى العلم ؟ » . .

(ص ٢٢ ـ ص ٢٤ من الترجمة العربية)

ولا ضير ـ فى رأينا ـ فى تقلب العلم على هذا النحو الذى يتندر به « ديورانت » طالما هو يعمل فى ميدانه ولا يتعداه ، ويعالج الاهتداء إلى حقائقه الجزئية فى التعامل مع الكون المادى ، ولا يحاول أن يتعدى ميدانه ، فيتصدى لتقديم تصور كلى للوجود ، أو تفسير شامل له . مما لا يملك أدواته . والعلم الطبيعى يتعامل مع الكون ـ بعد وجوده ـ ولا يمكن أن يعلم شيئًا عن « كيفية » وجوده ، فضلاً على أن يعلم ماذا وراء وجوده !

إن العلم الحديث بجملته يتناول بطبيعة منهجه وأدواته ظواهر الوجود لا ماهية الوجود، ويسجل ما يقبل التجربة ـ فى حدود أدواته الميسرة له ـ فكيف يمكن أن يتصدى إذن للماهية والكيفية ؟ ثم بأى حق يتصدى لعالم الغيب ، إن صح أن له أن يتصدى ـ فى تلك الحدود الضيقة ـ لعالم الشهادة ؟

إنه بطبيعته وبأدواته لا يصلح أداة لمعرفة هذا النوع الكلى من الحقائق . . ثم يضاف إلى هذه الحقيقة اعتبار آخر له وزنه فى تقييم هذا العلم الذى ولد وله اتجاه عدائى محدد تجاه «الدين » على وجه الإجمال ، وتجاه المنهج الدينى فى المعرفة ، وذلك بسبب ذلك « الفصام النكد » الذى وقع بين الدين والعلم فى أوربا ـ للأسباب التاريخية المعروفة وأدى إلى الفصل المتعمد بين « الله » سبحانه ، وبين العالم فى فكر العلم الحديث وقلبه ! وسواء صرح العلم الحديث بهذا الفصل ، أم لم يصرح فإن إيحاءاته الكامنة فى طبيعة الاتجاه الذى اتخذه

منذ مولده فى جو ذلك الفصام النكد ، ترسب فى المشاعر هذا الفصل المتعمد ، وتغفل كل أثر يدل على أن هناك قوة مؤثرة وراء عالم المادة . . حتى بعد ما أفلتت « المادة » من أصابع العلماء فلم يعودوا يمسكون منها بشىء محدد !

ومرة أخرى لا نتحدث نحن ولكن ندع عاشقًا من عشاق الفلسفة يتحدث عن العلم والمادة .

إنه « ول ديورانت » نفسه يسأل : « ما المادة ؟ » ثم يستعرض آراء « العلماء » فيها .

« وأول شىء نكشفه هو أن المادة القديمة غير المتحركة التى وصفتها طبيعيات القرن التاسع عشر قد ذهبت . وكانت « مادة » تندال وهكسلى غير فاسدة . فهى تقعد وتنام أنى وضعتها ، كذلك الصبى البدين فى قصة « أوراق بكويك » [1] وهى تقاوم بكل ما فيها من وقار الحجم والثقل كل جهد لتحريكها ، أو لتغيير وجهة حركتها متى أخذت فى الحركة . وبيّن « برجسون » فى يسر شديد أن مادة فى مثل هذا الخمود لا يمكن أبدًا أن تفسر الحركة ومن باب أولى لا تحدث الحياة والعقل . ولكن رجال الطبيعة مع ذلك ، كما كتب برجسون ، كانوا فى سبيلهم إلى هجر تصور المادة خامدة ، وإلى الكشف فيها عن حيوية لا ريب فيها . فهذه مثلاً الكهرباء لا يمكن تفسيرها فى صيغ من الخمود والذرات، فما هذه القوة الخفية التى تضاف إلى الكتلة فتزيد فى طاقاتها ولكنها لا تضيف شيئًا إلى أبعادها وثقلها ؟ وكيف تسرى الشحنة الكهربائية فى سلك أو فى الهواء اللاسلكى؟ أهى شىء يتحرك فى داخل السلك والذرات ؟ فهناك إذن ذرات أصغر من الذرات ؟ وما الذى يتحرك فى تلك الموجات الكهربية التى تكاد تبلغ فى سرعتها الضوء نفسه ؟ أهى الذرات أو « الأثير » أو لا شىء؟ وفى أشعة إكس، عندما تمر شرارة كهربية فى فراغ باعثة أشعة تنفذ من جدران الأنبوبة وتغير من اللوح الحساس كيمائيًا، فما هذا الذى يمر خلال الفراغ أو الجدران ؟ وعندما بدت المادة نشيطة لا تفرغ ، كما هو الحال فى الراديوم، وبدت الذرات (التى لا يمكن أن تنقسم) منقسمة إلى ما لا نهاية، وأصبحت كل ذرة نظامًا كوكبيا من الشحنات الكهربية تدور حول شىء لايزيد جوهره عن شحنة كهربية

---

(١) قصة مشهورة لشارل ديكنز ، وكان مستر بكويك بطل القصة (المترجم) .

أخرى . . فأى مأزق وقعت المادة فيه حين فقدت كتلتها ووزنها وطولها وعرضها وعمقها وعدم قابليتها للنفاد ، وسائر تلك الخصائص الثقيلة التى ظفرت باحترام كل مفكر واقعى ؟ أفكان الخمود أسطورة ؟ أيمكن أن تكون المادة حية ؟ [١] .

« لقد كانت هناك دلائل من قبل على وجود هذه الطاقة فى المادة : فالتماسك والتآلف، والتنافر . كانت توحى بها . ويبدو اليوم من المحتمل أن تكون هذه الصفات ، وكذلك الكهربية والمغناطيسية صوراً من « الطاقة الذرية » . وهى ظواهر ترجع إلى حركة الإلكترونات الدائبة فى الذرة . . ولكن ، ما الإلكترون ؟ أهو جزء من « المادة » يظهر فى ثوب من الطاقة ؟ أو هو مقدار من الطاقة منفصل تمام الانفصال عن أى جوهر مادى ؟ ولا يمكن أن نتصور الفرض الأخير ! ويقول ليبون : « قد يمكن ولا ريب لعقل أسمى من عقلنا أن يتصور الطاقة بغير مادة . . . ولكن مثل هذا التصور فى غير مقدورنا . نحن لا نستطيع أن نفهم الأشياء إلا بوضعها فى الإطار المشترك لأفكارنا . ولما كانت ماهية الطاقة مجهولة فنحن مضطرون إلى صوغها صياغة مادية حتى نفكر فيها [٢] » فنحن كما يقول برجسون ، ماديون بالطبع . فقد ألفنا التعامل مع المادة والأمور الميكانيكية . وإذا لم ننصرف عنها كى ننظر فى أنفسنا فإننا نتصور كل شىء كآلة مادية . ومع ذلك فإن أوستوالدOstwal يصف المادة على أنها صورة من الطاقة وحسب . ويرد رذرفورد الذرة إلى وحدات من الكهرباء الموجبة والسالبة . ويعتقد لودج أن الإلكترون لا يشتمل على نواة مادية أكثر من شحنته . ويقول ليبون ببساطة : « المادة صورة مختلفة من الطاقة » . ويقول ج . ب . س . هالدين : « يعتبر بعض الناس من أقدر المفكرين فى العالم اليوم المادة كمجرد ضرب خاص من الاضطراب التموجى » . ويقول إدنجتون : « إن المادة مركبة من

---

(١) هذه المحاولات الجاهدة من « ديورانت » فى نسبة « الحياة » إلى « المادة » وتلمس الأدلة على « حياة المادة » فى « حركة الذرة » هى محاولات للهروب من الله ! لعله إن استطاع أن يجد أن فى المادة بذاتها حياة يستغنى عن الاعتراف بوجود إله يمنح الحياة ! ولكن « الله » يلاحقه . . فإنه على فرض أن فى المادة حياة فإنها ستظل فى حاجة إلى واهب للحياة ! وليس هذا ما يهمنا هنا ، إنما الذى نستعرضه هو « الجهل » الذى قاد إليه « العلم » بماهية المادة !

(٢) ليس يعيبنا نحن البشر أن يكون فى غير مقدورنا أن نتصور الأشياء إلا بوضعها فى الإطار المشترك لأفكارنا . . ولكن الذى يعيبنا أن نعلم طبيعة تفكيرنا هذه ، ثم نفرضها على الأشياء ونقول إن هذه هى حقيقة الأشياء . ثم نرفض أن نعترف بأن هناك ما يخفى علينا من هذه الحقيقة !

بروتونات والكترونات ، أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء . فاللوح : « هو فى الحقيقة مكان فارغ مشتمل على شحنات كهربية مبعثرة هنا وهناك » . ويقول هوايتهد : «إن مفهوم الكتلة فى طريقه إلى فقدان امتيازه الوحيد باعتبارها المقدار الواحد الدائم فى النهاية . . . فالكتلة الآن اسم لكمية من الطاقة فى علاقتها ببعض اثارها الديناميكية » . وإلى هذه المرتبة الوضيعة سقط الجبار ، ورجعنا إلى بوسكوفيتش Boscovich[2] الجزويتى القديم ، إلى تلك العبارة غير المفهومة من أن المادة التى تشغل « المكان » مركبة من نقط لا وجود لها ! وفى ذلك يقول نيتشة : « لقد كان بوسكوفيتش وكوبرنيق حتى الآن أعظم خصمين وأكثرهما نجاحًا فى دحض شهادة العيان » . فلا غرابة أن يستنتج « ديوى» أن «مفهوم المادة الذى يوجد بالفعل فى تطبيق العلم لا يمت بصلة إلى مادة الماديين » !

« أيمكن أن يكون شىء أكثر غموضًا وغرابة من هذا القول الذى يقوله علماء الطبيعة من أن « المادة » بمعنى الجوهر المتحيز Spatial قد بطلت عن الوجود ؟ فهم يقولون : إن الإلكترونات ليس فيها شىء من خصائص المادة : فهى ليست صلبة ، ولا سائلة ، ولا غازية وهى ليست كتلة ، أو صورة . وانحلالها إلى نشاط إشعاعى يلقى شكوكًا على أعز عقيدة فى العلم الحديث ، أى عدم قابلية المادة للفناء . . ولنسمع رأى أحد علماء الطبيعة مرة أخرى :

« إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تمامًا ، فهى تفقد كل صفة للمادة ، بما فى ذلك الثقل ، وهو أكثر صفاتها أساسية . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ، لا شىء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة ، فقد اختفت فى عظمة الأثير . . . والحرارة والكهرباء ، والضوء إلى غير ذلك . . تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها فى الأثير . . والمادة التى تخرج عن ماديتها بمرورها فى حالات متتابعة تنتزع منها تدريجيًا صفاتها المادية ، حتى تعود فى النهاية إلى الأثير الذى لا يمكن وزنه ، ذلك الأثير الذى يبدو أنها نشأت عنه .

« الأثير ؟ . . . ولكن ما هو هذا الأثير ؟ لا أحد يعرف ! ليس الأثير فيما يقول لورد سالسبورى إلا اسمًا على الفعل (يتموج) . والأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث ! فهو غامض غموض الشبح ، أو الروح ! وافترض أينشتين وجود الأثير

---

(٢) فيلسوف يوغسلافى من دلماشيا أذاع فى بلاده فلسفة نيوتن (المترجم) .

حين أعاد تفسير الجاذبية ، وعزم أخيرًا أن يدخره إلى حين مع تحديد سلطانه ! وكلما يعجز عالم من علماء الطبيعة ويتحير يقول : « الأثير » !

« ويقول الأستاذ إدنجتون أحدث حجة فى هذا الموضوع :

« ليس الأثير نوعًا من المادة ، فهو لا مادى » . .

« ومعنى ذلك أن شيئًا لا ماديًا يحيل نفسه إلى مادة بوساطة بعض الالتواءات (Contortions) الغامضة (دوامات Vortices كما سماها كيلفن) . ويصبح ذلك الذى لم يكن له بعد أو ثقل ، بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض ، مادة متحيزة ، ويمكن أن توزن . أهو اللاهوت قد أعيد ؟ أم هو علم مسيحى جديد ؟ أم هو صورة من البحث الطبيعى ؟ وفى الوقت الذى يحاول علم النفس بكل سبيل أن يتخلص من « الشعور» حتى يرد « العقل » «للمادة » يأسف علم الطبيعة فى تقريره أن المادة لا توجد ! ولقد قال نيوتن متعجبًا : « أيتها الطبيعة احفظينى مما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) . فيا للأسف لن تقدر الطبيعة أن تفعل أكثر من ذلك !

« يقول برتراند رسل : « يقترب علم الطبيعة من المرحلة التى يبلغ فيها الكمال » . وجميع الدلائل تدل على العكس من ذلك . . أما هنرى بوافكاريه فيرى أن علم الطبيعة الحديث فى حالة من الفوضى ، فهو يعيد بناء جميع أسسه ، وفى أثناء ذلك لا يكاد يعرف أين يقف . وقد تغيرت الأفكار الأساسية عن الطبيعة تغيرًا تامًا فى العشرين السنة الأخيرة ، فيما يختص بالمادة والحركة كلتيهما . ولم تعد تسمح أعمال كورى ورذرفورد وسودى وأينشتين ومينكوفكس لأى تصور قديم عن الطبيعة النيوتونية بالبقاء . وكان لابلاس يحسد نيوتن ؛ لأنه كشف النظام الوحيد للعالم » ، وحزن على عدم وجود نظم أخرى تكشف ! ولكن عالم نيوتن قد انتحى اليوم جانبًا . ولم يعد التثاقل (Gravitaation) مسألة « جاذبية » (Attraction) وتمزقت « قوانين » الحركة فى كل جهة بنظرية النسبية . وقد كانت الفلسفة تبحث ذات يوم فى « الأشباح » والمجردات ، وكان العلم يبحث فى «المادة » ، أى «المحسوس » و « الحقائق الواقعة » . . أما الآن فعلم الطبيعة مجموعة مستورة Esoteric من القوانين المجردة ، « وفكرة المادة مفقودة بالكلية فى الدوائر العلمية »[1] . وكان على

---

(١) إدنجتون ص ٢٧٤ .

الفلسفة أن تتنحى جانبًا (ولا يزال بعض الناس يتوقعون موتها خلال خمسين عامًا) أما العلم فعليه أن يحل مشكلاتنا . والآن ـ فى الوقت الذى يحمِّل رجل الشارع العلم والعلماء جميع أفكار الإلهام واليقين التى كانت متصلة ذات يوم بالإنجيل والكنيسة ـ يقال لنا فى تواضع : إن « البحث العلمى لا يفضى إلى معرفة طبيعة الأشياء الباطنة »[1] . . .

(ص ٦٨ ـ ص ٧٣ من الترجمة العربية)

وبعد ، فإن هذا هو موقف العلم من المجهول . . . بل من المنظور . . . ! وهو الذى يحيلنا عليه أمثال جوليان هاكسلى من « العلماء » المتبجحين المستهترين بقيمة الكلمة فى الحقيقة ! . . فأما الفلسفة فقد دلنا أحد عشاقها « ول ديورانت » على موقفها من قبل ! لقد ظلت هذه الفلسفة تتأرجح بين اعتبار العقل هو الموجود وإنكار العالم المادى (كما فى المثالية بكل مذاهبها) ، وبين اعتبار العالم المادى هو الموجود وإنكار الوجود المستقل للعقل (كما فى المذاهب الوضعية الحسية المادية) وبين اعتبار « الحياة » هى القدرة المبدعة التى تستخدم المادة والعقل، أو تنشئهما (كما فى مذاهب الحيوية .. شوبنهور وبرجسون . . .) . . وظل هذا التأرجح يمثل مذاهبها الأساسية بغض النظر عن التفرعات الثانوية . حتى جاء العلم الطبيعى أخيرًا يقول : إن المادة تنتهى إلى ما يشبه أن يكون هو العقل . وإنها تنشأ ابتداء منه ! بينما علم النفس يحاول أن يتخلص من الشعور حتى يرد العقل إلى المادة !

ويبقى « الإنسان » يريد أن يركن إلى « الحقيقة » . يريد أن يستقر على قاعدة فى التعامل مع هذا الوجود . يريد أن يعرف مركزه فى الكون وغاية وجوده الإنسانى . يريد أن يرى «الكل » ويطمئن إليه قلبه . . .

وليس هناك إلا دين الله يريه « الكل » . ولم يعد دين الله يتمثل فى غير « الإسلام» . . فهو وحده العقيدة التى سلمت من الإضافات والتحريفات البشرية . وهو وحده الذى يملك أن يقدم للبشر هذه الهدية الإلهية التى لا تقوّم بثمن . وهو وحده الذى يتلقى منه الفكر البشرى مقومات التصور الوحيد الصحيح . . مقومات التصور الإسلامى . .

* * *

إن التصور الإسلامى وحده ـ بما أنه ينشأ فى إدراك المسلم ويقوم على حقائق ذات

---

(١) إدنجتون ص ٣٠٣ .

مصدر ربانى ـ هو الذى تتجلى فيه (الحقيقة) فى منهج متناسق ، متوافق مع الفطرة البشرية ، مقابل لكل أجهزة الاستقبال والتلقى والاستجابة فيها ، مخاطب لها بلغتها التى تدرك كل إيحاءاتها وإيماءاتها .

ولقد تحدثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب ـ بما فيه الكفاية ـ عن « خصائص هذا التصور » التى تميزه وتفرده من كل تصور آخر ، لا يستمد مقوماته ، أو حقائقه من حقائق العقيدة الإسلامية من مصدرها الربانى . وبقى أن نتحدث هنا عن خصائص أسلوب العرض القرآنى لهذه المقومات . . . ولكننا قبل أن نأخذ فى هذا الحديث ، نلم إلمامة مجملة بما فصلناه فى القسم الأول عن « خصائص التصور الإسلامى » ذاته ؛ لنرى كيف تتناسق خصائص أسلوب العرض مع خصائص هذا التصور !

إن أبرز هذه الخصائص هى الثبات والشمول والتوازن . . فكيف تتجلى هذه الخصائص فيه ؟

إن التصور الإسلامى يوحى بأن الحركة الدائبة ، والتحول المستمر ، هو الناموس الثابت المطرد لهذا الوجود الحادث الفانى . وهو بصفة خاصة ، قانون الحياة وقاعدتها . . ومن ثم يوجه النظر إلى هذه الحركة الدائبة ، وهذا التحول المستمر فى الكون والحياة ، وما يطرأ عليهما دائماً من تقلبات وأطوار . . ولكنه ينسب هذه الحركة الدائبة وهذا التحول المستمر إلى مشيئة الله وقدره . وينفى عنها الجبرية الآلية ـ مع ثبات السنن التى تنفذ كل مرة بقدر خاص طليق ـ ويخرج بذلك من كل المتناقصات التى تعانيها الفلسفة والتى لم تجد لها حلاً شاملاً . وهى تضع « المشيئة الإلهة» فى مواجهة الجبرية الآلية فى قوانين المادة وقوانين الحياة ، فتقع فى إشكال ! أو تضع تلك المشيئة المطلقة فى مواجهة حرية الاختيار البشرية ، فتقع فى إشكال كذلك !

إن التصور الإسلامى يقوم على أساس أن الله سبحانه خلق كل شىء فى هذا الوجود . وأودعه قانونه الثابت الذى يؤدى على أساسه وظيفته التى خلق لها ، فكما أنه ـ سبحانه ـ أعطاه وجوده وهيئته ، قدر له كذلك وظيفته وأودعه القانون الذى يهديه لأداء هذه الوظيفة :

« الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى » . . . . . .

(طه : ٥٠)

« سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . . .

(الفتح : ٢٣)

ولكن ـ مع ثبات هذه السنن ممثلة فى القوانين الكونية التى تحكم العالم المادى والعوالم الحية على السواء ـ فإن الاعتقاد الإسلامى يرد كل « حدث » يقع فى هذا الوجود إلى مشيئة الله وقدره . وكلما نفذت السنة وجرى القانون ، جرى بقدر خاص يخلق به الحدث كما يخلق به الشىء سواء :

« إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . . .

(القمر : ٤٩)

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . . . .

(آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧)

فليست هناك جبرية آلية فى الخلق والإنشاء ، ولا فى الحركة والحدث . والنواميس التى يراها الناس مطردة فى الكون ـ بوجه عام ـ ليست قوانين آلية أنشأها الله وسلطها ؛ لتعمل بذاتها آليًا وحتميًا . ولكنها تطرد ـ على الجملة[1] ـ لأن قدر الله فى شأنها يطرد ـ فى غير جبرية آلية فيها ، وفى غير حتمية على الله ـ سبحانه ـ فى اطرادها . إنما هى مشيئته وحكمته تجريها هكذا كما أرادها . وقد يجرى غيرها تتعلق مشيئته وحكمته بهذا ، فيجرى قدره بما يشاء . وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية . فالنار قد أودعها الله خاصية حرق الأجسام ، كما أودع الأجسام خاصية الاحتراق بالنار . ولكن مشيئته جرت بقدر غير هذا فى حادث إبراهيم عليه السلام :

« قلنا : يانار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين» . . .

(الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠)

والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة ـ فى جملتها ـ وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين

---

(١) سنفصل هذه القضية ـ إن شاء الله ـ فى موضعها من « حقيقة الكون » وغيرها .

على إدراك بعض هذه النواميس ، والتعامل معها على ثبات نسبى فيها ، يسمح لهم باستخدام حصيلة تجاربهم فى تعاملهم مع سنة ثابتة ، وإن تكن لا آلية ولا حتمية ، لا بالقياس إلى الله ـ سبحانه ـ ولا بالقياس إلى ذاتها كذلك ! (وسنتحدث بتفصيل أوفى عن الحتمية والاحتمالات فى مواضعها عند الكلام عن حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان) . .

وفى تصور المسلم لا يقوم « السبب » ولا العادة ، ولا المألوف من النواميس ، حاجزاً بين العبد وإرادة الله به ، وبالوجود كله من حوله ، فى كل حالة ، وفى كل لحظة . . . فالمشيئة الإلهية فى تصوره ـ كما هى فى الحقيقة ـ طليقة من وراء تلك النواميس . . ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة ، ويأخذ بالأسباب التى تتلاءم مع هذه النواميس، لأنه مأمور أن يأخذ بها ـ وأخذه بها عبادة وطاعة ـ ويتعامل مع سنة الله ، وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله ، لا بسبب حتميتها على الله ، ولا بسبب جبرية آلية فيها هى ذاتها ، ولكن الله أراد ألا يبدلها ، وجرى قدره باطرادها ـ إلا أن يشاء غير ذلك ـ مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه . . وفى هذا يختلف التصور الإسلامى تمامًا ويتميز عن كل تصور آخر ، كما أسلفنا فى القسم الأول من هذا الكتاب فى فصل «التوازن» . . كما أن إيحاء هذا التصور يختلف ويتميز . فهو لا ينتهى إلى إهمال الأسباب ، أو إقامة النشاط بلا قواعد ، ولا إلى جهل النواميس وإهمال التعامل معها . كما أنه لا ينتهى إلى إغلاق الأبواب دون مشيئة الله الطليقة ، وقدره الجديد ، أمام واقع الأسباب والنواميس ، ولا يختنق بالجبريات الآلية والحتميات الطبيعية والتاريخية !

« لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا » . . .

(الطلاق : ١)

وعندما يعيش الإنسان فى الجو القرآنى ، وفى جو الجماعة المسلمة الأولى ، يتنسم عبير هذا التصور الخاص المتميز بكل خصائصه ، وترتفع الحواجز الآلية بين حياته وقدر الله ـ سبحانه ـ ويرى الوجود وكل ما يجرى فيه بعين أخرى ويستشعر قدر الله ، وهو يعمل فى كل حادث . . . فى كل خفقة قلب . بل فى كل خفقة ذرة ، تدور كهاربها السالبة حول نواتها الموجبة ، وتنبض نبض القلب البشرى ، بقدر خاص بكل نبضة[1] . . وإنه لمشهد

---

(١) أخيرًا فى مطالع هذا القرن اتجه العلم إلى نظرية « الاحتمالات » التى تتفق مع هذا التأويل . وسنفصل الكلام عنها عند الحديث عن « حقيقة الكون » .

لاحد لروعته وجماله ، يتجلى لقلب المسلم ، ويستشرف له ويحيا . .

كذلك تتجلى تلك الخصائص فى التفسير الإسلامى لظاهرة اشتراك المادة والأحياء جملة والإنسان . فى سمات ، وافتراقها فى خصائص . وكذلك فى مسألة « وجود » العقل، و«وجود » المادة . . . وأيها هو « الوجود الحقيقى » تلك المسألة التى تثيرها الفلسفة حينا ، ويثيرها العلم حينا . ولا يجد لها كلاهما حلاً شاملاً .

إن التشابه ـ أو الاشتراك ـ الذى يلاحظه البيولوجى (عالم الحياة) والفسيولوجى (عالم الوظائف الحيوية) فى بعض التراكيب والتفاعلات والعمليات ، بين المادة والأحياء بصفة عامة ، تميل بالهاربين من الله إلى افتراض الميكانيكية الآلية فى نشاط الكائنات الحية! كما أن ملاحظة التشابه ـ أو الاشتراك ـ أحيانًا بين الحيوان والإنسان فى الغرائز الأساسية للأحياء ، كالبحث عن الطعام ، أو التكاثر ، يجعلهم يميلون إلى افتراض حيوانية الإنسان!

والتصور الإسلامى لا يجد إشكالاً فى هذه الظواهر . فالخالق الواحد سبحانه :

« أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . .

(طه : ٥٠)

« ومن كل شىء خلقنا زوجين) . . .

(الذاريَات : ٤٩)

« وجعلنا من الماء كل شىء حى » . . .

(الأنبياء : ٣٠)

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء » . . .

(النور : ٤٥)

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

(الأنعام : ٣٨)

فلا غرابة أن تتشابه ، أو تتماثل بعض التركيبات والاتجاهات وبعض ألوان النشاط .

ولكنه ـ سبحانه ـ بعد كل السمات المشتركة بين المادة والأحياء ، وبين الأحياء جملة والإنسان ، جعل الإنسان خلقًا آخر ، ومتميزاً بخصائص يتفرد بها دون المادة والأحياء :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . . .

(الإسراء : ٧٠)

بذلك تنتهى تلك الحيرة كلها ، ويرتسم تصور كامل شامل متوازن ، يشمل جميع الجوانب ، وجميع الحقائق ، وجميع الظواهر ، فى تناسق ويسر وتوافق .

وحسبنا هنا هذه اللمحة المجملة عن طبيعة التصور الإسلامى .

* * *

والآن نملك أن نتحدث عن « المنهج القرآنى » فى عرض « مقومات التصور الإسلامى» فى صورتها الجميلة الكاملة الشاملة المتناسقة المتوازنة ، وأن نذكر أبرز خصائص هذا المنهج فى العرض .

إنه يمتاز عن كل المناهج :

أولاً : بكونه يعرض « الحقيقة » كما هى فى عالم الواقع ، فى الأسلوب الذى يكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها . وهو مع هذا الشمول ، لا يعقّد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ! بل يخاطب بها الكينونة البشرية فى كل مستوياتها . . ولم يشأ الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور ، أو إدراكهم لها ، متوقفًا على درجة معينة من العلم؛ لأن العقيدة هى حاجة حياتهم الأولى ، والتصور الذى تنشئه فى عقولهم وقلوبهم هو الذى يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله ، ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أى علم ، ولطلب أية معرفة . . لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفًا على علم سابق . . ولسبب آخر كذلك . هو أن الله يريد أن يكون التصور الذى تنشئه العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم؛ بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم ، ولما يجرى فيه ولما يجرى فيهم ـ كى يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذى ليس هنالك غيره حق مستيقن . ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه ـ عن غير هذا المصدر هو معرفة ظنية ونتائج « محتملة » لا « قطعية » . حتى ذلك « العلم التجريبى» . فطريق العلم التجريبى هو القياس ، لا الاستقراء والاستقصاء . فما يتسنى للبشر الاستقراء والاستقصاء فى أية تجربة . هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات والأحكام البشرية على الظواهر ! إنما قصارى « العلم » أن يقوم بعدد من التجارب ثم

يقيس على نتائجها . والعلم نفسه يسلم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنية محتملة لا يقينية قطعية (وذلك بالإضافة إلى أن نتيجة كل تجربة على حدة تقوم على ترجيح أحد «الاحتمالات» لا على القطع الحتمى) . فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذى يأتيهم من عند العليم الخبير ، والذى يقصه عليهم من يقص الحق، وهو خير الفاصلين . . .

وثانيًا : بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين فى الدراسات « العلمية » والتأملات « الفلسفية » والومضات « الفنية » جميعًا ، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية . وإنما هو يعرض هذه الجوانب فى سياق موصول ، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة ، وحياة الناس فى الأرض بحياة الملأ الأعلى . . . فى أسلوب تتعذر مجاراته، أو تقليده ؛ لأن الأسلوب البشرى عندما يحاول تقليده فى هذه الخصيصة ، تبدو فيه الحقائق مختلطة غامضة مضطربة ، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة كما تبدو فى المنهج القرآنى !

وهذا الاتصال والارتباط فى عرض جملة الحقائق فى السياق القرآنى الواحد قد يختلف فى التركيز على أى منها بين موضع وموضع . ولكن هذا الترابط يبدو دائمًا . فعندما يكون التركيز فى موضع من السياق القرآنى مثلاً على تعريف الناس بربهم الحق ، تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة فى آثار القدرة الإلهية الفاعلة فى الكون والحياة والإنسان . فى عالم الغيب وعالم الشهادة سواء . . وعندما يكون التركيز فى موضع آخر على التعريف « بحقيقة الكون» ، تتجلى العلاقة بين « حقيقة الألوهية » وحقيقة الكون ، ويتطرق السياق كثيرًا إلى حقيقة الحياة والأحياء ، وإلى سنن الله فى الكون والحياة . . . وعندما يكون التركيز على «حقيقة الإنسان » يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية ، وبالكون والأحياء ، وبعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء . . وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله ، وبسائر الحقائق الأخرى . . وكذلك عندما يكون التركيز على قضايا الحياة الدنيا . . إلى آخر هذا النسق من العرض ، الواضح الملامح فى القرآن .

ثالثًا : بكونه ـ مع تماسك جوانب « الحقيقة » وتناسقها ـ يحافظ تمامًا على إعطاء كل جانب من جوانبها ـ فى الكل المتناسق ـ مساحته ، التى تساوى وزنه الحقيقى فى ميزان الله ـ وهو الميزان ـ ومن ثم تبدو « حقيقة الألوهية » وخصائصها وقضية « الألوهية والعبودية »

بارزة مسيطرة محيطة شاملة ، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة ، وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسى . . وتشغل حقيقة عالم الغيب بما فيه القدر والدار الآخرة مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، أنصبة متناسقة تناسق هذه الحقائق فى عالم الواقع . . وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق، ولا تهمل ، ولا تضيع معالمها ، فى المشهد الكلى الذى تعرض فيه هذه الحقائق . . وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض فى التصور الإسلامى ذاته ـ كما بينا فى فصل « التوازن » فى القسم الأول ـ حيث لا ينتهى الإعجاب بالكون المادى ودقة نواميسه ، وتناسق أجزائه وقوانينه . . إلى تأليهه ـ كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثًا ! ـ ولا ينتهى الإعجاب بعظمة الحياة ، واهتدائها إلى وظائفها ، وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكونى إلى تأليهها ـ كأصحاب المذهب الحيوى ! ـ ولا ينتهى الإعجاب بالإنسان وتفرده فى خصائصه والاستعدادات الكامنة فى كيانه ، المنطلقة فى تعامله مع الكون . . إلى تأليه الإنسان ، أو « العقل » فى صورة من الصور ـ كالمثاليين فى عمومهم ! ـ ولا ينتهى الإجلال للحقيقة الإلّهية ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية ،أو احتقارها ، أو احتقار الكائن الإنسانى ـ كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرفة!ـ . . كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامى ذاته ، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآنى لمقومات هذا التصور والحقائق التى يقوم عليها . بحيث تبدو كلها واضحة فى المشهد الفريد الذى يرسمه للكل فى السياق القرآنى الواحد ! وهى خصيصة قرآنية لا يملكها الأداء الإنسانى! .

رابعًا : بتلك الحيوية الدافقةالمؤثرة الموحية ـ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم ـ وهى تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعًا وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهج البشرى فى العرض ، ولا الأسلوب البشرى فى التعبير . ثم هى فى الوقت ذاته تعرض فى دقة عجيبة ، وتحديد حاسم ، ومع ذلك لا تجوز الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجوز التحديد على الإيقاع والروعة !

ولا يمكن أن نصف نحن ، فى الأسلوب البشرى ، ملامح المنهج القرآنى فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج . كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن «خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » شيئًا مما يبلغه القرآن فى هذا الشأن . . وما نحاول تقديم هذا البحث للناس إلا لأن الناس قد بعدوا عن القرآن ببعدهم عن الحياة فى

مثل الجو الذى تنزل فيه القرآن ، ولم يعودوا يزاولون تلك الملابسات ، ولا يعانون تلك الاهتمامات ، التى كان يزاولها ويعانيها من كان يتنزل عليهم القرآن ، بينما هم ينشئون المجتمع المسلم فى وجه كل الملابسات القائمة حينذاك ، والتى أشرنا إليها فى « منهج البحث » فى القسم الأول . . ومن ثم لم يعد الناس قادرين على تذوق المنهج القرآنى ذاته ، والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته ، واستجلاء « مقومات التصور الإسلامى » فى صورتها الفريدة فى المنهج القرآنى .

لذلك نؤثر قبل الدخول فى محاولة عرض هذه « المقومات » بالأسلوب البشرى . الذى لا يملك إلا فصلها مقوّمًا مقوّمًا ! ، أن نعرض بعض النماذج القرآنية لهذه المقومات ، فى ترابطها وفى جمالها القرآنى .

* * *

يعنى المنهج القرآنى عناية واضحة بتجلية « حقيقة الألوهية » وخصائصها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها وتثبيتها فى الضمير البشرى ، وذلك ليقيم على أساسها ضرورة عبودية الناس لله وحده ، وإقامة حياتهم كلها على أساس وحيه ومنهجه وشرعه . . . ومن خلال تعريف الناس بتلك الحقيقة يجىء تعريفهم بسائر الحقائق الأخرى التى تنشئ « التصور الإسلامى » الكامل الصحيح ، وبكل الارتباطات القائمة بين هذه الحقائق . . مبتدئة ومنتهية بحقيقة الألوهية . . ومن ثم نجد أن معظم النصوص القرآنية الواردة فى تعريف الناس بربهم الحق ، الذى يستحق أن يكون ـ وحده ـ ربًا لهم ، مربيًا لهم وموجها ، وحاكمًا ومشرعًا ، تتضمن الكثير عن حقائق الكون والحياة والإنسان وسائر العوالم المغيبة والمشهودة . كما أن النصوص الواردة للتعريف بهذه الحقائق تربطها بحقيقة الألوهية ، ومشيئة الله الفاعلة فى هذا الوجود ، وقدر الله الذى تجرى به المشيئة فى الخلق والحركة الدائبين . . على هذا النحو القرآنى الفريد :

« المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل والنهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع

متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ـ صنوان وغير صنوان [1] ـ يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وإن تعجب فعجب قولهم : أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ـ وقد خلت من قبلهم المثلات [2] ـ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب ، ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ولكل قوم هاد . الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه ـ يحفظونه ـ من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق، فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال[3] . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ـ وما هو ببالغه ـ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرها . وظلالهم بالغدو والآصال . قل : من رب السموات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟! قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » . . .

(الرعد : ١ ـ ١٦)

فإذا نظرنا فى هذا السياق الواحد ، الذى يبدو للوهلة الأولى ـ كما هى الحقيقة ـ أنه يتجه إلى تجلية حقيقة الألوهية ، وتعريف الناس بربهم الذى يستحق منهم العبودية ، فماذا نجد فى ثناياه ؟ إننا نكاد نجد كل حقائق العقيدة الإسلامية ، أى كل المقومات التى يقوم عليها التصور الإسلامى . .

---

(١) مزدوج ومفرد . (٢) الأحداث التى فيها عبرة . والبارزة يضرب بها المثل . (٣) الحول والقوة .

والسياق القرآني ناطق بذاته ، وقريب الفهم ، وميسر الذكر ـ فيما نحسب ـ حتى للقارئ العادى ـ ولكننا نحاول أن نستعرض الحقائق التى يتضمنها فى إجمال شديد . . ونرجو الله ألا نشوه هذا السياق الجميل ، باستعراضنا البشرى القاصر ! كما نرجو قارئ هذا البحث أن يعيد قراءة النص القرآنى الجميل ، بعد أن ينتهى مباشرة من استعراضنا البشرى القاصر ، ليستعيد ـ بمساعدة هذا الاستعراض ـ تذوق الأصل المشرق الكامل :

إنه يبدأ بتقرير حقيقة الوحى ، وحقيقة أن ما جاء به الوحى هو وحده الحق . وتقرير واقع البشر ـ أكثرهم ـ فى مواجهة هذا الحق : « ألمر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

ثم يأخذ فى عرض حقيقة الألوهية . وتعريف الناس بربهم . فيعرف الناس بهذه الحقيقة متمثلة فى آثارها المتجلية فى الكون ، وفى سلطان الله المتمثل فى الهيمنة على الوجود من فوق عرشه الأعلى ، ويريهم هذه الآثار فى رفع السموات بغير عمد . وفى تسخير الشمس والقمر وفق تقدير محكم ، وفى تمهيد الأرض وتثبيتها وإجراء الأنهار فيها ، وإعدادها بهذا كله لاستقبال الحياة . وفى نشأة الحياة على قاعدة الزوجية التى يتم عن طريقها امتداد الحياة ، وهو التدبير المقصود الواضح . وفى تداول الليل والنهار فى الأرض، وهو ذو علاقة واضحة بالحياة . وفى مشاهد هذه الحياة المنبثقة وهى منوعة بهيجة يشهد تنويعها بالقصد والإرادة : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارًا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل والنهار ، إن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل ـ صنوان وغير صنوان ـ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لايات لقوم يعقلون » . . وظاهر ما فى هذا العرض من حقائق عن الكون ، وحقائق عن الحياة ، وحقائق عن الإنسان أيضًا الذى يرى أكثره هذا كله ثم لا يهتدى ولا يستيقن ! كما أن فيه إشارة خفيفة إلى حقيقة الآخرة وحقيقة لقاء الله بعد انقضاء هذه الحياة .

وأمام هذه الحقائق يتحدث السياق عن موقف المكذبين منها ، وموقفهم من حقيقة لقاء الله خاصة ، وتكذيبهم بالإحياء وقد رأوا نشأة الحياة أول مرة ، وطلبهم للخوارق المادية وأمامهم هذه الآيات الكونية ! ويبين حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول فيميز بينها

وبين حقيقة الألوهية وخصائصها . فالله ـ سبحانه ـ هو الذى يقضى بها يشاء فى أمر العباد ، وليس الرسول . فالرسول منذر ولكل قوم نبى يحاول هدايتهم ، ثم ينتهى اختصاصه ، ويذكرهم ما حل بغيرهم ممن كذبوا من قبل ، ويرد الأمر لله كله : « وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابًا أإنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ـ وقد خلت من قبلهم المثلات ـ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وإن ربك لشديد العقاب ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » . .

ثم يعود إلى تعريف الناس بحقيقة الألوهية . . متجلية هذه المرة فى علم الله الشامل بكل شئون العباد ، وفى إحاطته بهم فى سرهم وجهرهم ، فى استخفائهم وظهورهم ، ويصورهم فى قبضته ـ سبحانه ـ يوكل بهم حفظة يحصون عليهم كل شىء ، ولا يغير واقعهم الخارجى حتى يغيروا هم واقعهم الروحى وواقعهم الخلقى وواقعهم فى العباد والسلوك والمعرفة والتنظيم ، وحتى يخلصوا أنفسهم كلها وواقعهم كله لله . . أو العكس أيضًا . . ! وكل ذلك يقوله القرآن الكريم فى بهجته وإشراقه وجماله وإيحائه الذى أفسده هذا التلخيص . . إنه يقوله هكذا : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات [1] من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ من أمر الله ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءً لا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال » . . . وظاهر أنه إلى جانب بيان حقيقة الألوهية ، يرد طرف من التفسير الإسلامى للتاريخ الإنسانى فى قوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » مرتبطًا هذا التفسير بقدر الله وفعل الإنسان .

ثم يستمر بتعريف الناس بحقيقة الألوهية ، متجلية هذه المرة فى الأحداث الكونية والظواهر الطبيعية ، ومتجلية كذلك فى تسبيح الرعد والملائكة ، فيدل بهذا على جانب من طبيعة الكون المؤمن المسلم ، ومن طبيعة الملائكة ، وهم جانب من حقيقة الغيب فى

---

(١) حفظة من أمر الله يتعقبون كل مستخف وسارب ، أى ظاهر ، وهى من أسماء الأضداد .

التصور الإسلامى : « هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » . .

وهنا على ضوء هذه الحقائق المتجلية فى بنية الكون وظواهره ـ فى عالم الغيب وعالم الشهادة ـ يقرر أن دعوة الله هى الحق ، وأما دعوتهم للالهة الزائفة فهى ضلال وضياع : «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ـ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ـ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

ثم يقرر حقيقة الألوهية متجلية فى عبودية العوالم كلها لله ، فيعرض حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية من خلال معنى واحد جامع : « ولله يسجد من فى السموات والأرض ـ طوعًا وكرها ـ وظلالهم بالغدو والآصال » . . .

وينتهى السياق القرآنى بإعلان حقيقة الألوهية لتقرير ربوبية الله وحده للوجود ومن فيه وما فيه ، على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ متجلية فى القدرة على النفع والضر ، ومتجلية كذلك فى الخلق والإنشاء ، كما بدأ فى مطلعه بهذه الحقيقة التى تشهد بها الأرض والسماء ، ويشهد بها كل شىء فى الأرض والسماء : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل يستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » . .

ويتحدث القرآن عن هذا الكون المادى ومصدره ، وطبيعته ، ونشأته ، وخصائصه ، واستعداده لاستقبال الحياة . . . . الخ . . يتحدث عن هذه الجوانب لتكوين التصور الصحيح عن هذه الخليقة من خلال الحقائق الاعتقادية التى يقررها المصدر الوحيد المستيقن فى هذا الشأن كله . . ولكنه فى أثناء الحديث عن الكون يتحدث عن الحقائق الأخرى بجملتها تقريبًا . . يتحدث عن القدرة المبدعة التى أنشأت هذا الكون ، وعن المشيئة النافذة التى يجرى قدرها فى كل انبثاقة وفى كل حركة منذ النشأة . وعن بناء هذا الكون على قاعدة الحق وجعله عنصرًا ثابتًا فى بنائه ، وعن تناسق هذا الكون مع نفسه بلا تفاوت فى تكوينه ولا تصادم ، وعن موافقاته كذلك لنشأة الحياة فيه ، وعن النشأة الآخرة والبعث والنشور الخ الخ . . على هذا النحو الفريد :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا

إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ، وله من فى السموات والأرض . ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدًا ، سبحانه ! بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ، أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ! وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » . . .

(الأنبياء : ١٦ ـ ٣٣)

فإذا نظرنا فى هذا السياق الذى يتحدث فى قطاع منه عن نشأة الكون كله ونشأة هذه الأرض بصفة خاصة ، والموافقات فى الكون كله ونشأة هذه الأرض بصفة خاصة ، والموافقات فى الكون وفى الأرض لنشأة الحياة . . فماذا نحن واجدون ؟

إننا نجد قضية « الألوهية والعبودية » هى قوام هذا السياق . كما نجد ذكر الملائكة وذكر الرسالة والرسل . وشيئًا من التفسير الإسلامى للتاريخ الإنسانى من جانب ما يقع من الصراع بين الحق والباطل ، ونتيجة المعركة مرتبطة بالحق الكامن فى طبيعة خلقة الكون وقوامه على النحو التالى :

إن السياق يبدأ بتقرير قاعدة الجد والقصد والحق فى بناء هذا الكون بينما هو يعرض حقيقة الألوهية : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا . إن كنا فاعلين[1] . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو

(١) إنْ هنا بمعنى « ما » النافية . أى : وما كنا فاعلين ذلك . تعالى الله عن اللهو واللعب علوا كبيرًا .

زاهق. ولكم الويل مما تصفون » . وفي هذه الآية الأخيرة جانب من التفسير الإسلامى للتاريخ . . فالحق أصيل وغالب في النهاية .

ثم يقرر عبودية من فى السموات والأرض لله الواحد ، ويستنكر مايدعيه المشركون من آلهة زائفة . لا تبعث ميتًا ولا تنشره ، وينفى تعدد الآلهة الذى يتنافى مع انتظام سنن الكون ووحدتها ، إذ لو كانت هناك آلهة متعددة لتعددت السنن وتعارضت وفسدت السموات والأرض : « وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . وهكذا نرى جانبًا من جوانب حقيقة هذا الكون ـ وهو أنه كون مخلوق ، كما أنه كون موحد الناموس ومن ثم هو منتظم لا فساد فيه ولا تفاوت ـ كما نرى ذكرًا للبعث والنشر كعمل من أعمال الألوهية الدالة عليها ، وذلك إلى جانب الإشارة للملأ الأعلى وعبادتهم وتسبيحهم . . .

ثم يواصل مواجهتهم بحقيقة الألوهية ، متجلية فى التوحيد الذى نادى به كل رسول ، والذى يشهد به كل كتاب : « أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

ويعرض تصوراتهم الباطلة عن الملائكة ـ فى معرض تقرير حقيقة التوحيد ـ فيتعرض بهذا إلى تقرير جانب من جوانب « حقيقة الغيب » فى التصور الإسلامى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ! بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزى الظالمين[1] » .

بعد هذه التقريرات كلها لتلك الحقائق المرتبطة بحقيقة الكون . يعود للحديث عن حقيقة الكون . فيقرر ـ فى صيغة سؤال استفهامى ـ أن السموات والأرض كانتا رتقا ملتحمتين ، ثم فتقهما الله بعضهما عن بعض ـ وجائز أن يكون كذلك قد فتق أجزاء كل

(١) أى المشركين . فهذا التعبير فى القرآن غالبًا مرادف لكلمة «المشركين» .

منهما . فجعل فى السماء نجومًا وجعل هنالك أرضين[1] ـ كما يقرر حقيقة أصالة الماء فى نشأة الحياة واستمرارها . وحقيقة إعداد الأرض لاستقبال الحياة . وحقيقة السماء وطبيعتها، وأنها سقف محفوظ ممتنع على تدخل أهواء العباد فى نظامه وإفساده بأهوائهم . وحقيقة الظواهر الكونية ـ كالليل والنهار فى الأرض ـ والأجرام ذات العلاقة بأرضنا وبالحياة التى عليها : « أو لم ير[2] الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفًا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » . .

* * *

كذلك يتحدث عن نشأة الحياة ، وأنواع الأحياء ، مرتبطة بالألوهية ، دالة عليها ، مرتبطة بالموافقات الكونية ، متناسقة معها ، فى مثل هذا النموذج القرآنى . . ومثله فى القرآن كثير . .

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض ، وإلى الله المصير ، ألم تر أن الله يزجى سحابًا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركامًا ، فترى الودق[3] يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » . . .

(النور : ٤١ ـ ٤٥)

فإذا نظرنا فى هذا السياق القرآنى الذى يبدو أن موضوعه هو نشأة الحياة وتنويع الأحياء ، فماذا نرى ؟ إننا لا نجد هذه الحقيقة وحدها . إنها مسبوقة ـ بل إنها كلها مسوقة ـ فى السياق بحقيقة الألوهية ، وبموقف العبودية منها ، ثم متلبسة بحقائق كونية مساعدة على نشأة الحياة .

---

(١) ستتحدث عن هذا بشىء من التفصيل فى موضعه فى « حقيقة الكون » فنحن هنا نعرض فقط طريقة القرآن فى عرض هذه الحقائق ، ولا نتعرض مباشرة لهذه الحقائق .

(٢) أو لم يعلم .   (٣) المطر .

تبدأ أولاً بتوجيه النظر إلى حقيقة العبودية الكاملة لله . المتمثلة فى تسبيح من فى السموات والأرض والطير صافات له وحده . وعلمه بكل ما يفعلون . وتفرده بملك السموات والأرض . وبمصير الجميع إليه . فى نهاية المطاف : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض . والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض ، وإلى الله المصير » . .

ثم تتحدث عن آثار القدرة الإلهية ، متمثلة فى ظواهر كونية ، ذات علاقة بالحياة والأحياء ، وعن قدر الله ، وتصريفه لهذه الظواهر وفق تقدير وتدبير : « ألم تر أن الله يزجى سحابًا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركامًا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . . » .

وفى نهاية السياق يجيء الحديث عن نشأة الحياة ، من خلق الله ، وعن تنويع الأحياء بقدرته وقدره : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير » .

* * *

ويبرز المنهج القرآنى « حقيقة الإنسان » ومنشأه ومصيره ، ودوره فى هذه الأرض ، وغاية وجوده ، واستعداداته الكامنة التى يواجه بها هذا الدور ، ويحقق بها هذه الغاية ، والتناسق بينه وبين الكون من حوله ، وتسخير هذا الكون ـ بإذن الله ـ له؛ لينهض بالخلافة عن الله فى الأرض ، معانًا عليها من الله ـ سبحانه ـ ثم من الكون المتوافق مع استعداداته، والعلاقات بينه وبين خلائق الله فى عالم الغيب وعالم الشهادة ، والصراع الذى لابد أن يواجهه مع « الشيطان » ومع نفسه ، والكدح الذى لابد أن يكدحه فى الأرض ؛ ليؤدى دوره ، وينجح فى ابتلائه بالحياة والموت، ويرجع إلى ربه كاسبًا مأجورًا . . (إلى آخر ما سنفصله عند الحديث عن حقيقة الإنسان) . . .

وهذا نموذج واحد من النماذج الكثيرة فى السياق القرآنى . . وفى هذا النموذج كما فى نماذج أخرى كثيرة نلحظ أن السياق قبل أن يتكلم عن الإنسان ، يعرض المسرح الكونى الذى يتحرك فيه ـ فى عالم الغيب وعالم الشهادة ـ ونجد حديثًا عن الكون وما حشد فيه من موافقات لحياة هذا الكائن وحركته واحتياجاته ، ونجد الآفاق والعوالم التى يتعامل معها ،

ويأخذ منها ويعطى ، ويؤثر فيها ويتأثر بها .. مرتبطًا ذلك كله بالألوهية والمشيئة والقدر. على النحو الذى لابد أن يلحظه من يلقى انتباهه إلى هذا النموذج :

« ولقد جعلنا فى السماء بروجًا ، وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم . ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرًا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال : هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم . إن المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين . لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » . . .

(الحجر : ١٦ـ٤٨)

ونحسب أن المنهج القرآنى أصبح الآن واضحًا عند قارئ هذا البحث ، بهذه النماذج التى أثبتناها هنا ، وبالتعليقات عليها ، بحيث لا نحتاج إلى تكرير التعليق على هذا النموذج . فهو ينقسم إلى ثلاثة مقاطع رئيسية :

الأول من الآية ١٦ إلى الآية ٢٥ وهو يتضمن حديثًا عن طبيعة الكون ، والموافقات المقدرة فى السماء والأرض ، لحياة الكائن الإنسانى ، ولاستقبال هذه الحياة . كما يتضمن هيمنة المشيئة الإلهية على هذه المقدرات ، والتصرف فيها بقدر الله المرسوم وعلمه وحكمته .

والثانى من الآية ٢٦ إلى الآية ٢٨ وهو يتضمن تقرير فعل الله فى الحياة والموت ، ووراثة الخلق والأرض ، وعلمه المحيط بالمستقدمين والمستأخرين ، وحقيقة الربوبية التى إليها يحشر المخلوقون . .

والثالث من الآية ٢٩ إلى نهاية المقطع . وهو يروى قصة خلق الإنسان ، وعلاقته بالعوالم المغيبة من الملائكة والجن ، وخط سير الإنسان فى المعركة مع الشيطان . ومصير المعركة . منتهيا بمصائر حزب الله وحزب الشيطان فى الآخرة . .

والمقاطع الثلاثة بما تتضمن من حقائق ، مترابطة متناسقة .

ويحرص المنهج القرآنى حرصًا ظاهرًا على تعليق حس الإنسان وقلبه وعقله بكتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون ، حيث تتجلى فيهما آيات الله المبدعة ، وصنعة الصانع الحكيم . . وكذلك يصبح الكون بكل مجاليه ، موحيًا دائمًا ، ومحركًا دائمًا ، إلى التدبر والتأثر ، وتصبح النفس الإنسانية ـ بكل ما فيها من دلائل القدرة والإبداع ـ مجموعة هواتف حية ، تذكر بصاحب القدرة والإبداع . فوق ما تطبعه هذه الصحبة للصنع الإلهى فى حس المسلم من التوفز والحساسية واللطف ، وما تطبعه فى عقله من الاستقامة والوضوح والعمق ، وما تطبعه فى روعه من الشفافية واللماعية والانطلاق . ثم من الأنس بهذا الكون المأنوس ، والأنس بصاحب هذا الكون المأنوس ، والصداقة العميقة بين القلب البشرى وهذا الوجود الحى الجميل المتجدد الصديق[1] . .

ويمضى السياق القرآنى فى مواضع منه كثيرة على هذه النحو الفريد :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسًا ، والنوم سباتًا ، وجعل النهار نشورًا . وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورًا . لنحيى به بلدة ميتًا ، ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسى كثيرًا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا . ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرًا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا . وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات وهذا

---

(١) على عكس التصورات التى تقيم بين الإنسان والكون عداء ومعركة ، وتسمى كل تعرف من الإنسان على نواميس هذا الكون انتصارًا على الطبيعة ! أو تظن أن هذا الكون لا يحفل بهذا الإنسان أو أنه عدو له يتربص به . ثم تتصور أن الإنسان مضيع مغلوب لا ناصر له من قوانين الطبيعة القاسية !

ملح أجاج، وجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورًا . وهو الذى خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا ، وكان ربك قديرًا . ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرًا . وما أرسلناك إلا مبشرًا ونذيرًا . قل : ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً . وتوكل على الحى الذى لا يموت ، وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرًا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورًا . تبارك الذى جعل فى السماء بروجًا ، وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يَذَّكر أو أراد شكورًا » . . .
(الفرقان : ٤٥ ـ ٦٢)

* * *

ولا نملك أن نمضى فى عرض شتى النماذج ، عن سائر الجوانب ، فإن هذا كله سيجىء فى موعده، عند تفصيل القول فى « مقومات التصور الإسلامى » فى ثنايا هذا القسم من الكتاب .

إنما نقول هنا : إن هذه الحقائق الأساسية ، التى سلفت الإشارة إليها ، والتى وردت مجملة فى النماذج القرآنية ، تؤلف فى مجموعها ما نطلق عليه « مقومات التصور الإسلامى » بمعنى أنها مجموعة الحقائق الأساسية التى تنشئ للمسلم تصورًا خاصًا للوجود كله ، يتعامل معه على أساسه . كما أنها تقدم له تفسيرًا صحيحًا لهذا الوجود بما فيه الحياة الإنسانية والتاريخ الإنسانى .

وقد أشرنا إليها فى هذا الفصل التمهيدى المجمل تلك الإشارات السريعة فى انتظار تناولها بالتفصيل الكافى ـ بعون الله ـ فى الفصول الأساسية التالية .

وحسبنا هنا أن نقول : إن القرآن الكريم ، وهو يتناول هذه الحقائق والمقومات ، وهو يقيم على أساسها التصور الإسلامى للوجود ، ويقدم على أساسها التفسير الصحيح لهذا الوجود أيضًا . لم يدع جانبًا منها يراود الفكر البشرى عنه سؤال إلا وقد أجاب على هذا السؤال ، ولم يدع انحرافًا فى تصورها يخالط الفكر البشرى إلا وصحح هذا الانحراف . بحيث يستقيم فى القلب والعقل ، وفى الكينونة البشرية بجملتها ، تصور كامل من وراء هذا البيان الشامل ، وتفسير صحيح للوجود كله وللتاريخ الإنسانى .

. . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . .

ألوهيّـــة وعبُوديـــة

« إن كـــل مـــن فى السمـــوات
والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا »

تتنوع « مقومات التصور الإسلامى » التى أشرنا إليها إشارة سريعة فى الفصل السابق وتتوزع ، ثم تتضام بعد ذلك وتتجمع ؛ لتكوّن « الكلّ » الذى يشخّص ويمثّل ذلك التصور . . هذا « الكل » هو : العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، وشمول هذه العبودية لكل شىء ، ولكل حى فى هذا الوجود ، فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة ، فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة ، فى نظام الكون وفى حياة الناس ، وتفرّد هذه الألوهية الواحدة بخصائصها ، وتجرُّدُ هذه العبودية من هذه الخصائص ، وقيام هذا الوجود على هذه القاعدة الشاملة الحاسمة ، التى تمثل قاعدة التصور الإسلامى الأساسية، كما أنها هى إحدى خصائصه المميزة التى يتفرد بها من بين سائر التصورات : سواء منها التصورات الوثنية والأسطورية . والتصورات اللاهوتية التى كانت أصلاً عقائد سماوية ، ثم دخلها التحريف والتأويل . والتصورات الفلسفية على إطلاقها فى الفلسفة القديمة؛ أو الحديثة . . ومنها ما يسمى باسم « الفلسفة الإسلامية » !

إن التصور الإسلامى يفصل فصلاً تامًا بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية ، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية ، وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية ، فهما لا تتماثلان ولا تتداخلان . . كذلك يبين التصور الإسلامى بيانًا حاسمًا : من هو « الله » صاحب الألوهية ، ومن هم « العبيد » الذين تتمثل فيهم العبودية .

إن الألوهية واحدة لا تتعدد . . هى ألوهية الله سبحانه . . والعبودية تتمثل فى كل ما وراء ذلك . . وكل ما وراء ذلك فهو من خلق الله ، لم يوجد بذاته ، كما أنه لا يقوم بذاته . . إنما هو مخلوق أوجده الله . وهو مكفول يكفله الله . وهو متأثر يتحرك ويتغير بقدر الله .

ولقد ركز المنهج الإسلامي - كما يتمثل فى القرآن الكريم - تركيزاً شديدًا على تقرير هذه الحقيقة الكبرى ، وتعميقها فى الضمير البشرى . وسلك بها إلى هذا الضمير كل مسالك الكينونة البشرية ، واتبع شتى أساليب الاستجاشة والتأثير ، والإبانة والتقرير ؛ ليقرّ فى النفس البشرية حقيقة العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، باعتبار أن هذه العبودية وهذه الدينونة شاملتان للوجود كله ، غير مقصورتين على الكائن الإنسانى .

ولقد توسع فى عرض جوانب هذه الحقيقة ، وتغلغلها فى كل مناحى الكينونة الإنسانية، وكل مناحى الحياة الإنسانية . كما كشف عن الآماد والآفاق التى تمتد إليها ، وتهيمن عليها ، فى جنبات الوجود كله . فى عالم الغيب ، وفى عالم الشهود . . كل أولئك بصورة ليس لها نظير . .

ولقد عرّف البشر بإلههم الواحد تعريفًا موحيًا عميقًا مريحًا - على النحو الذى سنعرض له فى فصل « حقيقة الألوهية » - لتكون هذه المعرفة موحية باقتضاء العبودية منشئة لمشاعرها الخفية ، ومقتضياتها العملية .

كل ذلك لأن هذه الحقيقة هى القاعدة التى تقوم عليها عقيدة المسلم ، والتى ينبثق منها تصوره . . إنها حقيقة فى ذاتها - كما هو الأمر فى عالم الواقع - وفوق ذلك فإن تأثيرها فى حياة الكائن الإنسانى بجملتها وتفصيلها لا يعدِله تأثير .

إنها ذات أثر حاسم فى تكوين اعتقاده وتقويمه ، وفى سلامة تصوره وتطهيره ، وفى تصحيح كل انحراف أصاب الضمير البشرى ، أو يصيبه . وحين يراجع ركام التصورات الخابطة فى الظلام بلا دليل ، الشاردة فى التّيه بلا زمام ، المجادلة فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . حين يراجع هذا الركام - سواء فى الفلسفات ، أو اللاهوت ، أو الوثنيات . على مدار التاريخ - يتضح أن غموض هذه القاعدة ، أوتخلخلها ، أو فقدانها، كان هو السبب الرئيسى لكل ذلك الخبط والتخليط والشرود !

وهى ذات أثر حاسم فى الشعور والخلق والسلوك . فما يمكن أن يستقيم شعور ، أو خلق ، أو سلوك ، وهذه القاعدة غامضة ، أو مخلخلة ، أو مفقودة فى الضمير . . وحين تراجع جميع الانحرافات والمزالق والانحلالات فى خلق الفرد والجماعة ، وفى سلوك الفرد والجماعة، على مدار التاريخ ، يتبين أنه من المنبع الردىء ينبثق الشر والفساد والانحلال فى جميع العصور . . مصاحبة عوامل أخرى اجتماعية وسياسية واقتصادية ، ما كانت كلها

لتنحرف ابتداء ، فتنشئ الشر والفساد والانحلال ، لو لم تقم هي ذاتها على غموض ، أو خلخلة ، أو فقدان لتلك القاعدة ، التي لا يقوم بدونها للحياة الإنسانية كيان !

وهي ذات أثر حاسم في الحياة الواقعية للبشر ، بكل ما فيها من قيم وموازين ، ومن مبادئ وتقاليد ، ومن أنظمة وأوضاع ، ومن سياسة واجتماع واقتصاد ، ومن ثقافة وعلم وفن ، ومن نشاط منوع المظاهر والجوانب . . ذلك أن هذه القاعدة هي التي تحدد للبشر، التحديد الوحيد الصحيح ، قواعد التعامل مع شتى الآفاق والعوالم التي يتعامل معها الكائن الإنساني . . سواء في ذلك تعامله مع ربه ، أو مع الكون من حوله ، أو مع الأحياء عامة ، أو مع بني جنسه في جميع الارتباطات والأوضاع . فمن القاعدة تنبثق كل قواعد التعامل مع كل تلك الآفاق والعوالم ، وعليها تقوم . . وحين تراجع الانحرافات والمفارقات والمتناقضات ، وتراجع معها التخبطات والشرور والمفاسد التي تذوق منها البشرية أسوأ ما تذوق ، يتبين أن غموض هذه القاعدة ، أو تخلخلها ، أو فقدانها كان منبع هذه الالام ، ومعين هذه الشرور في حياة الإنسان ! ويتبين أن البشرية دفعت الثمن غاليًا ـ وما تزال تدفعه ـ من أرواحها وأجسادها ، ومن مشاعرها وأخلاقها ، ومن سعادتها واستقرارها ، ومن أقواتها وأرزاقها كذلك ، لانحرافاتها المتوالية ، عن قاعدة العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، والتزام منهجه للحياة ، إقرارًا بألوهيته وحده ، وإقرارًا بالعبودية والدينونة له وحده ! [1] .

وسنحاول فيما يلي أن نتناول عناصر هذه التقدمة بشيء من التفصيل .

لقد كانت قضية العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، هي قضية الاعتقاد الأولى والحقيقية، في جميع الرسالات السماوية ، على مدار العصور والقرون .

هذه هي الحقيقة التي يقررها الله ـ سبحانه ـ في كتابه الصادق الكريم . . وهي تختلف اختلافًا أصيلاً عن كل ما يخبط فيه الباحثون في تاريخ الأديان من ظنون ! وعن كل ما يقرره من يسيرون على منهج علماء « الدين المقارن » ، أو يتأثرون بهذا المنهج . . ومنهج بعض من يكتبون عن الإسلام شارحين ، أو مدافعين . .

إنه منذ عهود سحيقة ، مجهولة من « التاريخ » . . ذلك الطفل الحدث الذي لم يع من تاريخ الإنسانية إلا القليل ! ولم يستيقن بعد من شيء في هذا القليل ! وما يزال ما يعلمه عنه في حدود الظن والتخمين ! . . نقول : منذ عهود سحيقة لا علم لهذا « التاريخ »

---

(١) يراجع كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » فصل « تخبط واضطراب » .

بها ، جاء الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وتنزلت الرسالات من عند الله ـ سبحانه ـ لتقرير هذه الحقيقة الكبرى . . حقيقة التوحيد . . توحيد الألوهية ، واختصاص الله سبحانه بها وبخصائصها . . وتوحيد العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع . ولم يكن « التوحيد » ـ فى الرسالات السماوية ـ قط «تطورًا» فى العقيدة انتهى إليه التعدد والتثنية ، أو انتهت إليه العقيدة فى الأرواح ، ثم الآلهة الكثيرة ، أو انتهت إليه شتى المدارج والخطوات التى يختلف « علماء الأديان المقارنة » فى ترتيبها وفى تعليمها كذلك ، ويذهبون فى شأنها كل مذهب . وبخاصة بعد ما سيطر مذهب النشوء والارتقاء فى عالم الأحياء . حوالى قرن من الزمان ـ بعد دارون ـ وما جره على الفكر الأوربى من لوثة فى تعميمه على كل ما فى الوجود وكل من فى الوجود !

لقد أرسل الله الرسل ـ منذ فجر البشرية ـ بالتوحيد الخالص الكامل . . وقد عرف التوحيد ـ فى صورته الخالصة الكاملة ـ هؤلاء الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ وعرفه كذلك منهم أتباعهم الذين آمنوا بهم ، على مدار الرسالات . . ولكن الذين لم يؤمنوا كانوا يظلون فى جاهليتهم . . وهؤلاء نستطيع أن نوافق علماء الأديان المقارنة فى أن عقائدهم كانت تختلف فى طور من حياتهم عن طور ، وكان من أولى المؤثرات فى ارتقائها نحو التوحيد ـ إلى جانب ما يكون من مؤثرات أخرى سياسية واجتماعية وثقافية مما تذكره هذه الدراسات ـ هو بدون شك ما تتركه رسالات التوحيد السماوية من تأثرات وموجات ورواسب فى جاهلية الجاهليين . . على أن الارتقاء نحو التوحيد فى معتقدات الجاهليين لم يكن خطا ثابتًا ، صاعدًا . فقد كانت الانتكاسات فيه تلى الاندفاعات . وكانت الموجة تصل إلى ذروتها فى عقائد أتباع الرسل الموحدين ، ثم يخلف من بعدهم خلف يرتكس إلى الجاهلية ، ويعود إلى التعدد ، ويعود إلى الخرافة ، وينشئ حول عقيدته ما ينشئ من الأساطير !

وما لنا نبعد كثيرًا ، ونبحث فى عقائد القبائل المتخلفة فى أستراليا وأفريقيا . . ونحن نملك أن نوازن اليوم بين عقيدة المسلمين الأوائل ، وعقائد هذه الخلائف من بعدهم فى شتى أنحاء هذه الديار التى كانت يومًا ما إسلامية ! لنرى كيف تقهقرت فى شتى جوانب عقيدة التوحيد ، وبخاصة ما يتعلق منها بإفراد الله سبحانه بالحاكمية والتشريع . وهى أولى خصائص التوحيد ! وذلك بعدما تمثلت عقيدة التوحيد فى نظام حكم ودولة ، وبعدما تمثلت فى شريعة مفصلة وفقه مفصل ، وبعدما تمثلت قبل ذلك كله فى كتاب محفوظ . صانه الله من التبديل والتحريف . . ومع ذلك كله فقد انحرفت الخلائف

وارتدت إلى جاهلية بينها وبين التوحيد أمد بعيد ! . . وكذلك كان يقع ـ فى صور أشد ـ بعد كل رسالة ، عندما يطول الأمد حتى يبعث رسول جديد . . بالتوحيد . .

إن هذا الذى نقرره فى هذه القضية هو ما يقرره القرآن الكريم . وبينه وبين ما يقرره علماء الأديان المقارنة والمتأثرون بهم . . فرق بعيد . . والمنهج القرآنى أولى أن يتبع ، وقول الله أولى أن يصدق . ولا سيما من الذين يكتبون عن الإسلام شارحين ، أو مدافعين !

لذلك سنحاول هنا أن نجعل النصوص القرآنية ذاتها تتحدث عن المنهج القرآنى فى هذه القضية ، وتقول قول الله ـ سبحانه ـ وتقص الحق الذى لا حقّ بعده . وسنقتبس من السياق القرآنى حلقات كاملة من قصص الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ يتبين فيها كيف كان التوحيد الخالص الكامل هو الحقيقة التى أرسلوا بها إلى أقوامهم فى شتى العصور والقرون ، وكيف كان استقبال الجاهلية لدعوتهم بهذا الحق الذى أرسلوا به .

ونحن نستهدف من عرض الاقتباسات الطويلة من نصوص القرآن ـ سواء فى هذا الموضع ، أم فى غيره ـ عدة أهداف ، نحب أن تكون معروفة لقارئ هذا البحث ، وملحوظة منه ، فهى تمثل منهج البحث ووجهته كما بينا فى كلمتنا الافتتاحية عن وجهة البحث وكما نعاود هنا التنبيه ونجملها فيما يلى :

أولاً : إننا نعتقد أن هناك فرقًا بعيدًا بين منهج القرآن وطريقته فى عرض أية حقيقة من الحقائق التى يقوم عليها التصور الإسلامى ، وأى منهج بشرى وأية طريقة بشرية .
ومن ثم نحب أن ندع القرآن ذاته يعرض هذه الحقائق بقدر ما نستطيع ، ونحب أن يألف القارئ منهج القرآن وطريقته ، ويتعامل مباشرة مع النصوص القرآنية .

ثانيًا : إننا نعتقد ـ بالدراسة الطويلة ـ أن هذا القرآن فيه غناء فى بيان الحقائق التى يقوم عليها التصور الإسلامى . فلا يحتاج إلى إضافة من خارجه فى هذا البيان . ونحب أن يتعود قارئ هذا البحث أن يلجأ إلى القرآن وحده ، ليجد فيه تبيانًا لكل شىء .
ومن ثم فإن النصوص القرآنية هنا هى الموضوع ذاته ، وليست عنصرًا مساعدًا كما اعتاد الناس أن يجدوها فى كثير من البحوث الإسلامية . . ومن ثم فلا بد للقارئ أن يعتمد عليها فى تفهم الموضوع الأساسى للبحث . ولا يتخطاها سريعًا . ولا يعتبرها عنصرًا إضافيًا . فهى مادة البحث الأساسية . وعلى ضوء هذا البيان نمضى فى عرض قصة التوحيد فى الرسالات . . من القرآن . .

* آدم ـ عليه السلام ـ أبو البشر . . عرف إلهه الواحد . . الله رب العالمين . . ودان

له بالتوحيد ، وعرف أنه متخلف فى الأرض عنه ، وأنه مأمور باتباع هديه وحده ، وشريعته وحدها هو وذريته من بعده ، وأن هذا هو شرط استخلافه فى الأرض وغاية وجوده ، وأن من يحيد عن هذا الهدى ، ومن يتلقى من غير الله فى الشريعة ، لا يجد إلا الشقوة الكبرى فى الدنيا وفى الآخرة ، ولا يكون لسلطانه ولا لعمله شرعية ، ولا يصح له وضع ولا يقبل منه شرع فى إباحة ،أو تحريم . . وهذه كلها هى حقيقة التوحيد ، وصلب مقتضيات هذا التوحيد : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلاً ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين. قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال : اخرج منها ـ مذءوما مدحورًا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين. فدلأهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم وريشًا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ، يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة ،

إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون . يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق [1] . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

(الأعراف : ١٠ ـ ٣٦)

وإذا كان الخطاب فى هذا السياق إلى « بنى آدم » فإن هذه الشروط ذكرت فى سياق سورة البقرة وسورة طه ، وموجهة إلى آدم نفسه . . إنما اخترنا هذه النصوص هنا ندل بها على معرفة آدم ـ عليه السلام ـ أن هذا الخطاب بالتوحيد وهذه الشروط بمقتضيات التوحيد، موجهة له ولبنيه على السواء .

ونوح ـ عليه السلام ـ أبو البشر الثانى . . عرف إلهه الواحد ، الهادى ، الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، القاهر فوق عباده ، الذى إليه المرجع والمصير . . وعرف أن توحيد الله هو الآصرة التى إن انقطعت بينه وبين ولده لم يعد ولده هذا من أهله . . وأرسله الله إلى قومه بهذا التوحيد ، وكانت قضية هذا التوحيد هى التى دارت عليها المعركة ، التى انتهت بالطوفان ، فلم ينج بعدها إلا الموحدون :

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرًا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ـ بادى الرأى ـ وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعمّيت

---

(١) يستنكر ما شرعته الجاهلية من تحريم بعض المآكل والمشارب والملابس دون أن تستند إلى شريعة الله . ويبين فى الآية التالية ما حرمه الله . ويرد أمر التشريع لله . . (يراجع تفسير هذه الآيات والتعليق عليها فى « ظلال القرآن » المجلد الثالث ص ١٢٧٦ ـ ١٢٨٦ طبعة دار الشروق .

عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين امنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قومًا تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم : عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنى ملك ، ولا أقوم للذين تزدرى أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرًا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين . قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله ـ إن شاء ـ وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى ـ إن أردت أن أنصح لكم ـ إن كان الله يريد أن يغويكم . هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون : افتراه ؟ قل : إن افتريته فعلىّ إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون . . وأوحى إلى نوح : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون . ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا أمرنا وفار التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك ـ إلا من سبق عليه القول ـ ومن آمن ـ وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه ـ وكان فى معزل ـ يا بنى اركب معنا . ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله ـ إلا من رحم ـ وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين . وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماءُ ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودىّ ، وقيل بعدًا للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . . قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » . . .

(هود : ٢٥ ـ ٤٨)

وهود ـ عليه السلام ـ عرف إلهه الواحد ، الفاطر الرازق ، واهب القوة ، القاهر ، الآخذ بناصية كل دابة ، الذى يستخلف فى أرضه من يشاء . . وأرسله الله إلى قومه بهذا

التوحيد ، ودارت المعركة على هذه القضية ، وعليها كان التحدى ، وفيها كانت النهاية . . وقوم هود إن هم إلا ذرية من أولئك الموحدين الناجين مع نوح :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ، إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك . وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [1] . قال إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى جميعًا لا تُنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قومًا غيركم ، ولا تضرونه شيئًا ، إن ربى على كل شيء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هـذه الدنيا لعنةً ويـوم القيامة . ألا إن عادا كفروا ربهم . ألا بعدًا لعاد قـوم هـود ؟» .

(هود : ٥٠ ـ ٦٠)

وصالح ـ عليه السلام ـ كذلك عرف إلّهه الواحد الخالق المستخلف عباده فى الأرض ، القريب ، المجيب ، الهادى ، الرحيم ، القوى العزيز ، الذى ليس من دونه ولى ولا نصير ، والذى يحقق وعده ويفعل ما يريد . . وأرسل إلى قومه بهذا التوحّيد ، وعلى هذه القضية دارت المعركة ، وكانت النجاة للموحدين والدمار للمشركين . . وثمود هم كذلك من ذرية الموحدين مع نوح . وكانوا من سكان الجزيرة العربية فى الشمال ، وقد عرف آباؤهم التوحيد الذى عرفه قوم هود فى الجنوب ، ولكن انحرفوا عنه مع الأيام :

« وإلى ثمود أخاهم صالحًا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ، هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب . قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا : أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ،

---

(١) وكذلك نرى كيف دب الشرك فى عقيدة الخلائف بعد توحيد الآباء المؤمنين مع نوح .

فذروها تأكل فى الأرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها ، فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا والذين آمنوامعه ، برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأنْ لم يَغْنَوا فيها ! ألا إن ثمود كفروا ربهم . ألا بعدًا لثمود ! » .

(هود : ٦١ ـ ٦٨)

وشعيب ـ عليه السلام ـ عرف إلّه الواحد ، الرازق ، الموفق ، الرحيم ، الودود ، المشرع بالخير والصلاح ، الذى عليه الاتكال ، وإليه الإنابة ، المحيط بالعباد ، المنتقم من المكذبين . . وبهذا التوحيد أرسل إلى قومه ، الذين كانوا يعرفون مصائر عاد وثمود وقوم لوط فى الجزيرة العربية قريبًا منهم . . وقد عُرف التوحيد فى الجزيرة قبلهم ، ولكنهم وإباءهم كانوا قد انحرفوا عن التوحيد . وفسدت حياتهم وفشا فيها الظلم فى التعامل بسبب ذلك الانحراف . وعلى هذه القضية دارت المعركة ، وهلك من هلك ونجا من نجا . . وعرف التوحيد من جديد :

« وإلى مدين أخاهم شعيبًا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد اباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء[1]؟ إنك لأنت الحليم الرشيد !! قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقًا حسنًا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح. وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود. قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفًا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريًا ؟ إن ربى بما تعملون محيط. ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه

---

(١) يستنكرون تدخل الدين فى أمور الحياة الاقتصادية شأنهم شأن من ينكرون هذا اليوم . ثم يظلون يدعون أنهم مؤمنون بالله ومسلمون !

عذاب يخزنه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها . ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود ! » . . . .

(هود : ٨٤ـ٩٥)

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء ، وأبو الأمة المسلمة ، وأبو نبيها الكريم ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ عرف إلهه الواحد ، بصفاته التى عرفته بها الأمة المسلمة فى آخر الزمان :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ! قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

(الشعراء : ٦٩ـ٨٩)

وقد أقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهذا التوحيد منارته الباقية فى بيت الله العتيق ، وعلّم بنيه هذا التوحيد . فكان إسماعيل وإسحاق ولداه مسلمين موحدين . وآمن له ابن أخيه لوط ودان بهذا التوحيد ، وأرسل به إلى قومه . وعرفه كذلك حفيده يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وعلّمه لبنيه كما علّمه إبراهيم لبنيه ، ووصاهم به فى ساعة موته وصيته الأخيرة . .

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين[1] . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات ـ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ـ قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى

(١) يعنى : المشركين غير الموحدين كما هو الغالب فى التعبير القرآنى الذى يعبر عن المشركين والكافرين مرة « بالظالمين » ومرة « بالفاسقين » .

عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن مالة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ : يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، إلهاً واحدًا ونحن له مسلمون .

(البقرة : ١٢٤ ـ ١٣٣)

وممن سمعوا وصية يعقوب فى ساعة الموت بأن يكونوا عبادًا لله وحده . وبالإسلام له وحده . . يوسف عليه السلام . . ودان بهذا التوحيد . وبه كانت رسالته للمصريين . ولا يمكن أن تكون إقامته فيهم حاكماً مدبرًا ، لم تنشر بينهم ديانة التوحيد . . وإن كان فرعون وملؤه فى عهد موسى ـ من بعد ـ كانوا قد عادوا إلى الجاهلية ، وإلى عباداتهم المنحرفة ، بعد ما عرف فيهم ذاك اللون من التوحيد ، المتمثل فى دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ كما يقصها القرآن الكريم فى هذه الآيات :

« . . . قال : رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأو الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرًا ، وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب . ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم

إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . » .

(يوسف : ٣٣ـ ٤٠)

وبعقيدة التوحيد هذه أرسل موسى عليه السلام ـ من نسل يعقوب ـ وعليها دارت المعركة . وأنجى الله المؤمنين . . الموحدين . . وأغرق المتجبرين الذين عبدوا الناس لهم من دون الله ، واعتدوا على ألوهية الله سبحانه . وقد عرفوها من قبل في رسالة يوسف عليه السلام ـ وبقى منهم من يدين بها إلى أيام موسى ـ عليه السلام ـ كما جاء في دفاع أحد كبار الملأ من آل فرعون عن موسى حين تآمر الملأ على قتله ، مما قصه القرآن الكريم في سورة غافر في هذه الآيات :

« وقال رجُل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربى الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبًا فعليه كذبه ، وإن يك صادقًا يصبْكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن : يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فماله من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . وقال فرعون : يا هامان ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبًا ـ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل ، وما كيدُ فرعون إلا فى تباب ـ وقال الذى آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى

الله : إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيًا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .
(غافر : ٢٨ _ ٤٦)

فأما التوحيد الذى أرسل به موسى عليه السلام ، فنحب أن ندع السياق القرآنى يعرضه ، ويبين صورته ومداه . . فمنهج الدين المقارن يخلط فى هذا بين ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من عند الله ، من التوحيد الخالص . ونوع التوحيد الذى كان قد توصل إليه أخناتون فى مصر ـ وكان ما يزال مشوبًا بعبادة الشمس وتعبيد الناس من قبل هذا الإله لفرعون فى الأرض !!! ـ ولا يستبعد أن يكون من أثر موجة من موجات التوحيد فى الرسالات السماوية ثم أضيفت إليه هذه التحريفات التى لا يعرفها دين الله . . كما أنهم يخلطون كذلك بينه وبين الانحرافات والانتكاسات المتعددة التى تفشت فى عقائد العبرانيين بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبنيه ، وعقائد بنى إسرائيل بعد يعقوب والأسباط ـ وهم حفدته ـ ثم من بعد موسى كذلك . . فهذه الانحرافات والانتكاسات لا تمثل العقيدة فى الرسالات السماوية التى جاء بها إبراهيم ، وورثها عنه إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب ويوسف ـ عليهم السلام ـ ولا تمثل هذه العقيدة فى رسالة موسى ـ عليه السلام ـ ولا يجوز أن يقال : إن هذه العقيدة « تطورت » إلى التوحيد ! إنما الذى يقوله الله ـ سبحانه ـ أنه أرسل رسله هؤلاء بالتوحيد . . ثم وقعت الانحرافات عنه فى العبرانيين بعد إبراهيم ، وفى بنى إسرائيل من قبل موسى ومن بعده . . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . . وهذا هو التوحيد الذى جاء به موسى عليه السلام والذى آمن به من آمن من السحرة ومن بنى إسرائيل ، كما يتجلى فى قصته فى السياق القرآنى :

« وإذ نادى ربك موسى : أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون ؟ قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فأرسل إلى هارون . ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلاّ فاذهبا بآياتنا ، إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال : ألم نربّك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين[1] ؟ قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكمًا وجعلنى من

---

(١) يذكره بقتله للقبطى الذى كان يتعارك مع واحد من بنى إسرائيل .

المرسلين . وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدّت بنى إسرائيل ! قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ قالوا أرجِهْ وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم وإنكم إذن لمن المقربين . قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال : أمنتم له قبل أن اذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أنْ كنا أول المؤمنين . وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبّعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(الشعراء : ١٠ـ ٦٨)

هذا هو التوحيد الذى جاء به موسى ، والذى أدركه من آمنوا به . فإذا كان بنو إسرائيل قد ارتكسوا إلى الجاهلية من بعد موسى كما ارتكسوا إليها من قبل موسى ، وإذا كانوا قد دونوا فى أسفار العهد القديم ما دوّنوا من وثنيات لا ترتفع على وثنية الاغريق والرومان . وإذا كانوا قد قالوا : إن إلههم خاص بهم ـ وليس رب العالمين ـ ووصفوه

بأوصاف وثنية أسطورية ، وكذبوا على الله وقالوا : عزير ابن الله . وقالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . وقالوا : إن يد الله مغلولة ـ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ! بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ فهذا كله لا يمثل مراحل فى العقيدة السماوية التى جاءهم بها أنبياؤهم ، والتوحيد لا يمثل طورًا من أطوار هذه العقيدة جاء متأخرًا . إنما الانحرافات والارتكاسات والتعرج فى الخط والصعود والهبوط . .

وبالتوحيد دان عيسى ـ عليه السلام ـ وبه أرسل ، وكان آخر أنبياء بنى إسرائيل ـ وإن لم يعترف برسالته اليهود ـ وهموا بقتله وصلبه . عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وإذا كان مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب ، ومعجزاته ، ونهايته ، قد أشرك بسببها من بعده الكثرة ممن دخلوا فى النصرانية بعد أن حرفها « بولس » ثم حرفتها المجامع الكنسية المتعاقبة [1] . . إذا كان هذا الشرك قد وقع ، فإن عيسى ـ عليه السلام ـ منه برىء . . وهو إنما جاء بالتوحيد الخالص . كما جاء به أنبياء بنى إسرائيل من قبله . وكان دوره هو نفخ الروح فى العقيدة ، بعد ما جمدها اليهود ، وصبوها فى قوالب من الشعائر ليس وراءها قلوب ، وليس فيها حرارة تشع من هذه القلوب . وجاء يعلن الحب والسماحة والانطلاق من قيود المادة إلى ملكوت الروح . . ولكن هذا كله إنما يقوم ـ فى رسالة عيسى عليه السلام ـ على أساس التوحيد الخالص ، الذى لا يحتمل شيئًا من ذلك الغبش الكثير الذى غشى على هذا الحق فى نفوس أتباعه الكثيرين . والقرآن الكريم يقص عليهم أكثر الذى هم فيه يختلفون :

« إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه ، فيكون طيرًا ـ بإذن الله ـ وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقًا لما بين يدىّ من التوراة ، ولأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم ، وجئتكم

---

(١) يراجع فصل « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين. إذ قال الله : يا عيسى إنى متوفيك، ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا فى الدنيا والآخرة ، وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون » .

(آل عمران : ٤٥ـ ٥٩)

هذا هو التوحيد ـ كما جاء به عيسى عليه السلام ـ ولا عبرة بالانحرافات والانتكاسات التى وقعت فى عقائد النصارى من بعده . ولا علاقة لها بخط العقيدة فى الرسالات السماوية .

وإلى هذا التوحيد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعوهم :

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله . ولا نشرك به شيئًا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابًا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » .

(آل عمران : ٦٤)

وقال لهم ربهم فى القرآن :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا » . . .

(النساء : ١٧٢)

وأما عقيدة التوحيد ـ كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ـ وقفت الجاهلية فى الأرض كلها تعارضها وتحاربها . ووقف المشركون فى مكة ـ وهم من أبناء إسماعيل بن إبراهيم صاحب ذلك التوحيد ، وصاحب الدعوة التى دعا لله بها وهو يبنى البيت ليجعل من أبنائه أمة مسلمة لله ـ وقفوا بعد ما انتهت الأجيال المتلاحقة إلى الشرك بعد

توحيد إبراهيم وإسماعيل ، وقفة عنيدة أمام الدعوة . حتى لكانوا يرونها من العجب العاجب ، الذى يعجّبون منه ويشهرّون به ! كما يحكى عنهم القرآن الكريم :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الالهة إلها واحدًا ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » .

(ص : ٤ ـ ٧)

وكانوا يعنون بالملة الآخرة التى لم يسمعوا فيها عن التوحيد ، ملة أهل الكتاب حولهم فى الجزيرة . وكان قد شابها الشرك ، ولم يعد يتبين فيها التوحيد .

ومع أن العرب هؤلاء لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولم يكونوا ينكرون أن الله هو الخالق الرازق القوى الذى يجير ولا يجار عليه ، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وتكون شفعاء لهم عنده . . (كما سنفصل فى الفقرة التالية) إلا أنهم كانوا يقابلون دعوة التوحيد بهذا العجب وهذا الاستنكار !

وكذلك تتجلى فى المنهج القرآنى قصة قضية التوحيد فى تاريخ البشرية كله . وكيف كان التوحيد قاعدة دين الله كله فى الرسالات كلها ، على مدار العصور والقرون . فيتبين من هذا الخط الذى توسعنا عامدين فى عرضه فى القرآن الكريم :

أولاً : أهمية هذا الأصل . باعتباره قاعدة التصور الإسلامى . . كما أسلفنا فى أوائل هذا الفصل .

ثانيًا : خطأ منهج علم الأديان المقارنة عن « تطور » عقيدة التوحيد ، بدون استثناء الرسالات السماوية . ، بل بالإغفال المتعمد لاستقلال هذه الرسالات عما صاغته العقول البشرية من ركام العقائد والتصورات ، واعتبار ما جاءت به الرسالات مجرد تطور فى المحاولات البشرية فى مجال الاعتقاد .

ثالثًا : خطر هذا المنهج على العقيدة الصحيحة . لمناقضته للمنهج القرآنى ، ومخالفته عن قول الله فى هذه القضية . وخطورة وقوع بعض الشارحين للإسلام أو المدافعين عنه فى هذا المزلق الذى تحفره الداروينية ، والمناهج الأوربية الشاردة من الكنيسة . ثم قراءة الراغبين فى الإسلام لمؤلفات هؤلاء المنزلقين ، وهم يحسنون الظن بهم ، لأنهم يرونهم متحمسين للإسلام ، مدافعين عنه . فينزلقون وراءهم فى منهج مناقض لمنهج القرآن . . والأمر هنا أمر عقيدة . فما يؤمن بالله من لا يصدق قوله فى قضية العقيدة . وما يؤمن بالقرآن من يتخذ منهجًا مناقضًا لمنهج القرآن !

لقد كانت قضية توحيد الله ـ سبحانه ـ وإفراده بالألوهية ، والعبودية له وحده بلا شريك . والدينونة له بلا منازع ، هى قضية الاعتقاد الأولى والحقيقية ، فى جميع الرسالات، فى جميع العصور . .

ولقد كانت عقيدة التوحيد هبة خالصة من الله للبشر ، عرّفها لهم عن طريق الرسل ، ولم تكن من صنع هؤلاء البشر ، ولا هم تدرجوا فى كشفها حتى كشفوها ، كما تدرجوا فى العلوم والصناعات حتى أتقنوها . . فقد جاءتهم فى الرسالات السماوية منذ فجر التاريخ كاملة حاسمة .

وجائز أن يقال : إن البشرية تقبلت عقيدة التوحيد التى جاءت بها الرسالات تدريجيًا. رسالة بعد رسالة . وكانت كل رسالة تترك فى ضميرها استعدادًا أكبر لقبول عقيدة التوحيد ، وكان الترقى فى هذا الاستعداد يتطور وينمو كلما تهيأ لها مزيد من المعرفة والتجربة والنمو الاجتماعى والسياسى . وكان عدد أتباع الرسل يزداد ، ومجال التوحيد يتسع ، واثاره فى الحياة الواقعية للبشرية تنمو ، كما تنمو آثاره فى ضمائرها وأخلاقها . . .

جائز أن يقال هذا ـ بتحفظ وليس على إطلاقه ـ لأن الخط ـ كما قلنا من قبل ـ لم يكن مطردًا دائمًا ولا صاعدًا دائمًا . وكانت هنالك دائمًا انتكاسات وارتكاسات . وكان الخط صاعدًا عند الرسالة هابطًا عندما يطول الأمد . . ودليلنا هذا الذى فيه خلائف الأمة المسلمة اليوم ، وصورة التوحيد فى مجالاته كلها ، بينها وبين صورته عند الجماعة المسلمة الأولى فرق هائل بعيد ، يجعل الأمة المسلمة على دين وخلائفها هذه على دين آخر ، لا علاقة له بالإسلام إلا فى الاسم . فلكل منهما ملة ، ولكل منهما دين !

ولكن القول على ذلك النحو جائز . ولا مناقضة فيه للمنهج القرآنى .

أما غير الجائز فهو أن يقال : إن عقيدة التوحيد لم تعرف إلا بعد أن قطعت إليها البشرية أشواطًا من « التطور » . . كأن عقيدة التوحيد كانت صناعة بشرية ! ـ وهى هبة إلهية ـ وكأن الرسل لم يكونوا إلا صورة للتطور البشرى فى العقائد التى جاءوا بها ـ متطورة ـ ولم يكن يوحى إليهم ! أو كأن الله ـ سبحانه ـ كان يوحى إليهم بالاعتقاد فى الأرواح والطواطم والآلهة المتعددة ، ثم يوحى إلى المتأخرين منهم فقط بعقيدة الإله الواحد ! وذلك وفق استعداد البشر فى الأطوار المختلفة لإدراك صورة من صور الاعتقاد !

وما كان الأمر كذلك أبدًا . . إنما كانت عقيدة واحدة ، ودينا واحدًا ، قاعدته هى هذه : توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها ، وتعبيد الناس لربهم الواحد بلا شريك .

ثم تختلف الشرائع وتنمو حتى تكتمل فى الرسالة الأخيرة . . أما أصل العقيدة فلا تغيير فى جوهره . لأنه بدونه لا تكون عقيدة فى الله ولا تستقيم .

لقد كان هذا القصص الذى قصه الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الأمة المسلمة فى شأن قضية التوحيد فى دين الله كله . . طرفًا من العمل العظيم الذى قام به المنهج القرآنى لتوضيح هذه القاعدة الاعتقادية ، وتقريرها وتعميقها فى الضمير البشرى وفى الحياة الإنسانية . . ولقد مضى القرآن يقرر هذه الحقيقة ويعمقها ، ويقيم عليها كيان العقيدة كله كما أسلفنا .

وقبل أن نمضى فى عرض هذا الجهد الطويل مع الجاهلية ، سواء مع مشركى الجزيرة العربية ، أو مع أهل الكتاب ، أو الوثنيات الأخرى ، نحب أن نقرر حقيقة تنفعنا فى تجلية وجهة الإسلام الأساسية ، وتؤدى دورها فى إيضاح دور هذا الدين ، وموقفه من سائر المعتقدات والتصورات . . اليوم وغدًا . . .

إن مسألة « وجود » إله لم تكن قط قضية جدية من قضايا الاعتقاد فى تاريخ البشرية إنما كانت القضية الجدية دائمًا هى تصور حقيقة الألوهية وبخاصة ما يتعلق منها « بصفة التوحيد » الذى جاء به دين الله كله كما تبين . . كانت المعركة الجدية دائمًا بين الاعتقاد الحق والاعتقادات الباطلة . . لا بين « الإيمان » ، على إطلاقه « والإلحاد » على إطلاقه كما تظهر فى صورتها الخادعة فى هذا العهد الأخير . . ومن ثم لم يكن موقف الإسلام قط موقف العطف على مجرد « الإيمان » أو مجرد « التدين » . . أيا كانت صورته المنحرفة المتكسة . . بل كانت حربه كلها مع « المعتقدات » الباطلة ؛ لأنها لا تقوم على أساس التوحيد المطلق ، الذى جاء ليوضحه ويقرره ويثبته ويعمقه ، ويجعله قاعدة الحياة البشرية ، سواء فى مجال الاعتقاد والتصور ، أو فى مجال الشعور والعبادة ، أو فى مجال الحكم والنظام . وستظل معركته الأساسية كذلك مع « المعتقدات » التى لا تقوم على هذا الأساس !

إن لوثة إنكار وجود الله أصلاً ، ونبذ الاعتقاد والتدين إطلاقًا ، لوثة حديثة عارضة شاذة . ليس لها فى ضمير البشرية جذور ، وليس لها فى الفطرة البشرية روافد ، وليس لها فى الكينونة البشرية ولا فى الحياة البشرية عوامل بقاء ولا امتداد . . إنها لوثة نبعت ابتداء من تحريف النصرانية فى أوربا ، بحيث لم تعد هى النصرانية التى جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ من عند ربه ـ ولم تعد تحتوى عنصر الحق الذى تعرفه الفطرة فى دين الله . ثم بعد

ذلك من الصدام الذى وقع بين الكنيسة بعقائدها المحرفة ، وسلوكها الشائن ، وبين النهضة العلمية فى أوربا . وامتدت موجتها فى فلسفات عصر « التنوير » ثم فى المذاهب «الوضعية المادية » ، وفى « الداروينية » القديمة والحديثة . كما امتدت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بعد نشأة « القوميات » فى أوربا ، وتفلتها من سلطان كنيسة رومة ؛ لتقيم كنائسها « القومية » منذ حركات الإصلاح الدينى ، التى لم تكن البواعث الدينية وحدها هى حافزها ، إنما كانت كذلك النزعة القومية للاستقلال عن سلطان رومة بالاستقلال عن سلطان البابوية . . ثم انتهت هذه العوامل كلها مجتمعة متداخلة متفاعلة إلى هذه اللوثة التى تبدو أعراضها فى هذا الإلحاد المطلق ، الذى طنينه أكبر من حجمه ، وضجته أكبر من حقيقته !

وهى لوثة طارئة عارضة ، وشاذة منافية للفطرة البشرية ، ولم يكد القرن العشرون يستهل حتى بدأت موجة جديدة فى أوربا ذاتها ، تبحث عن الله . بل تواجه الله ـ سبحانه ـ فى نهاية كل درب تسلكه وهى فى هروبها من الله !

ولم تخرج هذا الموجة فى هذه المرة من الكنيسة ـ على الرغم من الجهود اليائسة التى تبذلها الكنيسة لاسترداد سلطانها ـ وإنما خرجت من معامل العلماء ، ومن وراء المناظير المكبرة ، التى رأت فى عوالم الخلايا والأحياء ، وفى عوالم الذرات والأفلاك ، ما يثير ألف علامة استفهام ، لا جواب عليها إلا فى تصور إله ![1]

ولم تكن علامات الاستفهام هذه وحدها هى المحرك الوحيد للعودة إلى الله . . إنما كانت من ورائها الفطرة التى لا تصبر على جوعة الاعتقاد ، إلا بقدر ما تصبر البنية الحية على جوعة الطعام والشراب !

وينبغى ألا تأخذنا ضجة الإلحاد والملحدين ، فنظن أنها موجة كاسحة ، أو نظن أنهم كثيرون !

لقد ذرّ قرن هذه الظاهرة الشاذة العابرة خلال قرن من الزمان . فى نقط متباعدة متناثرة فى الأرض والناس . عند أفراد معدودين فى هذه الزوايا الصغيرة . . أما الملايين من البشر

---

(١) يمكن مراجعة كتب : « حدود العلم » ـ « العلم يدعو إلى الإيمان » ـ « الله يتجلى فى عصر العلم » كنماذج لهذه الظاهرة وذلك مع الاحتراس من رواسب الجاهلية الكامنة فيها فى التصور وفى التعبير أيضًا ، وبخاصة رواسب الفلسفة والوثنية الاغريقية .

فى البقاع ذاتها التى ترتفع فوقها راية الإلحاد ، فلم يتحولوا عن أصل الاعتقاد فى الله . . وهذه روسيا نفسها ـ قلعة الإلحاد الرسمى ، المزود بالحديد والنار ، والسجون والمعتقلات ، والجواسيس والمخابرات ـ لا يملك أحد أن يدعى عنها أن الشعب الروسى بجملته غير متدين ! وآية ذلك هذه السجون والمعتقلات ذاتها ، وهذا الحديد والنار ، وهذه الجواسيس والمخابرات ! إنها كلها تقف لحراسة الإلحاد الرسمى النابع من النظرية ، وتطبيقاته فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية ، فى وجه هجوم الفطرة فى كيان الملايين . . وآية ذلك كذلك أن هذا الإلحاد « الرسمى » ذاته ، بكل سجونه ومعتقلاته ، وكل حديده وناره ، وكل جواسيسه ومخابراته ، قد أحنى رأسه ، فى ساعة العسرة ، للعقيدة ، عندما فشلت البواعث الأخرى ، وعجزت الأجهزة البوليسية الرهيبة ، كما عجزت النظرية ودعاياتها الضخمة ، عن حمل الشعب الروسى على الصمود فى وجه الهجوم الهتلرى . فلم يبق أمام الإلحاد الرسمى ، وأمام الدولة الملحدة ، إلا الالتجاء إلى الدين ! ولوت الشدة عنق الدولة المتجبرة ، ومعها عنق الإلحاد الطاغى ، فاستدار إلى الكنيسة وإلى الآباء الروحيين !

إن الدين حاجة فطرية فى النفس البشرية كحاجة الطعام والشراب لحفظ الذات ، وحاجة النسل لحفظ النوع سواء . . هو حاجة فطرية أودعها الله كينونة الإنسان ، وإرادته ـ سبحانه ـ تدفع به إلى مسرح الوجود ، رحمة منه سبحانه بهذا الكائن ، الذى لا يملك الحياة فى هذا الكون الهائل ذرة تائهة ، لا تربطه به آصرة ، ولا يعرف له مصدراً ولا ملجأ ولا وشيجة ! وكذلك خرج إلى الحياة وهو مزود بأجهزة الاتصال بهذا الوجود ، والاتصال ببارئ الوجود ـ سبحانه ـ عن طريق الاستعدادات الفطرية المودعة فيه . وكان هذا هو الضمان الواقى من الضياع والدمار . . والقرآن الكريم يصور الوشائج بين هذا الكائن وبين هذا الوجود ، وبينه وبين بارئ الوجود ، ويتحدث عن هذه الوشائج حديثاً واضحًا محددًا منيرًا سيرد تفصيله فى موضعه عند الحديث عن « حقيقة الإنسان » . .

والكائن الذى تتعطل فى كينونته أجهزة الاتصال الفطرية بالكون وبارئه ـ بينما هو يعيش فى هذا الكون ، ويزاول نشاطه فيه ، وبينما قدر بارئ الكون محيط به وبكل شىء وكل حى فيه ـ هو مسخ لا تكتب له الحياة طويلاً ، كما أنه لا يكتب له الامتداد . . ككل مولود مسيخ ! . . ومن ثم يعد ظهور هذه الكائنات ـ التى لا تعتقد بوجود إله ـ فلتات عارضة لا يؤبه لها . إن مصيرها محتوم ، ومحدد سلفا ، كمصير الأمساخ دائمًا من المواليد !

ومن ناحية أخرى فإن الذى يضرب عن تناول حاجيات الحياة الضرورية ، كالطعام والشراب ، يموت . والذى يضرب عن وسائل الامتداد بالنسل ينقطع عقبه . . كذلك الذين يضربون عن الاعتقاد ـ بوصفه حاجة فطرية ـ غير أن آثار الإضراب عن الطعام والشراب والنسل تظهر فى حياة الفرد الذى يزاول هذا الإضراب، أو هذا الانتحار . . أما آثار الاضراب عن الاعتقاد فتظهر فى حياة الجماعة ، وفى حياة الفكرة التى تتخذها بديلاً من الاعتقاد . . والتفكير المادى بكل مناهجه هو إضراب عن حاجة فطرية فى محيط الجماعة والفكرة . . هو انتحار . . وعاقبته محتومة ، ومحددةسلفا . . كمصير كل مضرب عن ضروريات الحياة . . الانتحار . .

إن المعركة الحقيقة لم تكن قط بين الاعتقاد والإلحاد . . ولن تكون . . فالإلحاد يقضى على نفسه بنفسه . . إنه عملية انتحار . . والإلحاد تقاومه الفطرة . والفطرة أغلب ، ولكن المعركة كانت وستكون دائماً ، بين الاعتقاد الحق والاعتقادات الباطلة . . بين الدين الحق والديانات الباطلة . . بين توحيد الألوهية واتخاذ الأرباب المتفرقة . بين العبودية لله وحده بلا شريك والدينونة لله وحده بلا منازع ، وبين توزيع خصائص الألوهية على الأرباب المتفرقة ! والعبودية التى تتوزعها شتى الأرباب !

ولعل وضوح هذه الحقيقة . . حقيقة أن الاعتقاد حاجة فطرية ضرورية ، وحقيقة مغالبة الفطرة للإلحاد المطلق . . هى التى جعلت الأجهزة الصهيونية والصليبية التى تعمل فى المنطقة الإسلامية ـ أو التى كانت إسلامية بتعبير أصح وأدق ـ تعدل عن محاولة «اللادينية » ، التى جربتها فى تركيا على يد كمال أتاتورك ، بعدما أقامت منه بطلاً وألبسته أردية البطولة الضخمة ؛ ليؤدى لها الدور المطلوب فى إلغاء الخلافة وإعلان «العلمانية»، أو «اللادينية » ، أو « الكمالية » ! . . تعدل عنها إلى تجارب أخرى يقوم بها أبطال آخرون ، تجارب لا تعلن الحرب السافرة ـ كطريقة أتاتورك ـ على العقيدة الإسلامية فى المنطقة ، ولكن تحاول تبديلها وغرس « عقيدة » أخرى وضعية من صنع العبيد تتمحك فى الإسلام وتتسلق عليه ، ريثما تقضى على الإسلام ، وتقوم هى بنفسها منفردة عنه ! فلقد كان من المتعذر إلغاء العقيدة الإسلامية جملة وإعلان العقيدة الجديدة . فقامت المحاولة على أساس أن العقيدة الجديدة تعترف « بالدين » ـ هكذا إجمالاً ـ وإذن فإن « الدين » ـ ولا داعى لتحديد أن هذا الدين هو الإسلام ! ـ يستمد وجوده وشرعيته ذاتها من اعتراف العقيدة الجديدة به ضمن مقوماتها ! وهكذا بدلاً من أن يكون الإسلام هو المهيمن على

الحياة ، وبدلاً من أن تكون العبودية لله وحده هى قاعدته ، يصبح الإسلام تابعًا صغيرًا يدور فى فلك العقيدة الجديدة ، ويستمد شرعية وجوده فى المنطقة ـ وهو دين الله ـ من إرادة العبيد ! إنها حركة التفاف تحسَب الأجهزة الصهيونية الصليبية فى المنطقة أنها بارعة ومستورة ! ولكننا نعدهم جميعًا بالفشل والإخفاق والافتضاح . فالإسلام أعمق من هذا وأقوى . وكيد الله أمتن من كيدهم « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » !

والتصور الإسلامى يقوم على أساس أن الفطرة البشرية لا تحتاج فقط إلى مجرد التدين . ولا إلى مجرد الاعتقاد فى ألوهية ، بل إنها تحتاج إلى إله واحد ، تتجه إليه بعبوديتها خالصة ، وأنها مفطورة على هذه العقيدة التوحيدية :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » . . .

(الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣)

ولكنها تنحرف وتضل تحت شتى المؤثرات . لأن فيها الاستعداد الفطرى أيضًا للهدى والضلال ، والاستقامة والانحراف . وهذا الاستعداد المزدوج هو مناط الحساب والجزاء فى الاخرة :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرًا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا . . . » .

(الدهر : ٢ ـ ٥)

ولكن هذه الفطرة تنتفض وتنفض عنها الركام ، وتلتجئ إلى الألوهية الواحدة العميقة فى كيانها ، تُخلص العبودية لله بدافع ذاتى فيها ، وذلك فى مواقف معينة تبلغ فيها الشدة ، أو تبلغ فيها الروعة ذروتها . فترد الكينونة المنحرفة إلى الهدى والاستقامة ، وتستجيش الكينونة المستقيمة إلى الاستشراف والابتهال .

والقران الكريم يصور النفس البشرية المنحرفة ، حين تتعرى فطرتها أمام الهول الذى يجاوز طاقتها ، ويهز أعماقها . وينفض عنها الركام ، ويردها إلى الرؤية الصحيحة ، والاستقامة القاصدة ، فى مثل هذا السياق :

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة

وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين . . لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق » . . .

(يونس : ٢٢ ـ ٢٣)

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده ـ بغيا وعدوا ـ حتى إذا أدركه الغرق قال : امنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟! » .

(يونس : ٩٠ ـ ٩١)

والسياق القرآنى فى هذين النموذجين ناطق بذاته ، وواضح فى تصوير النفس المنحرفة حين تواجهها الشدة ، فينكشف عنها قناع التمويه . .

كذلك يصور النفس البشرية المستقيمة ، حين تواجه روعة الإبداع الإلهى فى الكون ، تخاطب فطرتها بالحق الكامن فيها ، فى مثل هذا السياق :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم ، فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفّنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » . . .

(آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٤)

إن التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية فى الإدراك السليم : وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار فى صميم الكون ، بالليل والنهار .

والسياق القرآنى يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهار فى مشاعر « أولى الألباب » تصويرًا دقيقًا ، وهو فى الوقت ذاته تصوير إيجابى يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون ، وفى التخاطب معه بلغته ، والتجاوب مع فطرته وحقيقته ، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته .

ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب « معرفة » للإنسان المؤمن الموصول بالله ، وبما تبدعه يد الله .

إنها لحظة تمثل صفاء القلب ، وشفافية الروح ، وتفتح الإدراك واستعداده للتلقى . كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع .

إنها لحظة العبادة . وهى بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال . فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ، وأن يكون مجرد التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثًا ولا باطلاً . . . [1] .

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصنامًا آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغًا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا ، وسع ربى كل شىء علمًا . أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » . . .

(الأنعام : ٧٤ ـ ٨٣)

وفى أول هذه القصة يتجلى إنكار الفطرة السوية ـ ابتداء ـ للديانة الباطلة وبحثها عن الدين الحق ، بمجرد مواجهتها بهذه الصورة المنحرفة من العقيدة ! . . وفى ثناياها تتجلى هواتف الفطرة إلى الهدى ، وإدراكها الداخلى لحقيقة الألوهية ورفضها لخلع صفة الربوبية على الخلائق الآفلة ، وإحساسها اللدنى بعدم المطابقة بين ما هو مركوز فى كيانها من صفة الربوبية الحقة وهذه الخلائق الآفلة ! . . وفى أواخرها تتجلى « الرؤية » الداخلية . والاهتداء الناشىء من تلاقى الحقيقة المكنونة فى الفطرة بحقيقة الألوهية الصحيحة

---

(١) مقتطفات من « ظلال القرآن » المجلد الأول ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦ طبعة دار الشروق .

وتطابقها ، مصحوبة هذه الرؤية بالشعور الواضح الكامل بهذا التلاقى وهذا التطابق متمثلة تلك الرؤية وهذا الشعور فى قول إبراهيم : « يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا ، وما أنا من المشركين » . . . ثم بالإحساس الكامل بالبرهان الداخلى الذى وجده إبراهيم فى أعماق كينونته وهو يقول لقومه : « أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ » . . فهو يلمس فى قرارة نفسه ، ويستشعر فى أعماق كينونته ، الإشارة التى وصلت إليه من ربه فهدته إليه ووصلته به فوجده هناك فى أعماقه . . واستراح واطمأن للقاء بين فطرته والحقيقة التى وجدها ، بل التى أحس ـ بل رأى ـ يد الله ـ سبحانه ـ تلمسه بها . عندما استيقظت فطرته على مشاهد هذا الكون وإيحاءاته . . .

إنها تجربة شعورية إيمانية كاملة . تبدأ بالتصادم بين الحق الكامن فى الفطرة وبين التصورات الباطلة ، والبحث عن هذا الحق فى عدة مشاهدات وتلمسات . والإحساس كذلك بعدم التطابق بين النتائج والحق الكامن . . ثم « الرؤية » الواضحة بعد ذلك والانطلاق مع الحق النابض !

وما كانت الجاهلية العربية التى واجهها الإسلام أول مرة فى الجزيرة العربية تنكر الله البتة وما كانت تجهل أن الله هو الخالق ، الرازق ، القوى ، الذى يجير ولا يجار عليه ـ كما أسلفنا ـ ولم يدعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاعتقاد بوجود الله ، ولكنه دعاها إلى توحيد الله . . دعاها إلى الاعتقاد بأن الله وحده هو الإله والرب والقيم . ودعاها إلى عبادة الله وحده والتقدم إليه بالشعائر . ودعاها إلى التحاكم إلى شريعة الله وحده والدينونة له بالعبودية وكانت هذه الدعوة بمضموناتها هذه كاملة ، هى معنى شهادة أن لا إله إلا الله . التى هى الإسلام .

والقرآن الكريم يقص علينا فيما يقص تسليم أهل الجاهلية العربية بوجود الله تعالى ، وبأنه الخالق الرازق القوى القاهر فى مثل هذه النصوص :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون ! الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شىء عليم . ولئن سألتهم : من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » . . .

(العنكبوت : ٦١ ـ ٦٣)

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله : أفلا تتقون . قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون » . . .

(المؤمنون : ٨٤ـ٨٩)

ولكن الانحراف كان يجيء من ناحية الاعتقاد فى أن للآلهة الصغيرة التى يتخذونها ـ سواء كانت الملائكة أم الجن أم النجوم أم الأصنام التى يتخذونها رموزاً للملائكة ، أو رموزاً للأجداد ـ مقام الشفاعة التى لا ترد عند الله ، وكانوا يجعلون بعضها ـ كالملائكة ـ بنات الله ! . . وهو لون من ألوان الانحراف الذى يتسرب إلى شتى الجاهليات ، بعد فترة التوحيد الخالص الذى كانت تنشئه الرسالات .

ولقد كانوا ـ من ثم ـ يظنون كما ظن كثير من أهل الجاهليات من قبلهم ومن حولهم ، أن هذه الآلهة ـ بهذه الصفة ـ تملك أن تؤثر فى إرادة الله بهم ، وفى عالم الأسباب الكونية من حولهم ، فتملك ـ إذن ـ أن تنصرهم وأن تحميهم ، وأن تمنع الضر عنهم ، وأن تجلب الخير لهم . . إلى آخر ما يدخل فى اختصاصات الرب المسيطر للأمر كله . . . مما تولى القرآن الكريم وصفه وتصحيحه بأساليب كثيرة ـ سيرد تفصيلها فى فقرة تالية ـ فنكتفى هنا بالتمثيل لها :

« واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » . . .

(مريم : ٨١ـ٨٢)

« واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » . . .

(يس : ٧٤ـ٧٥)

« ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون» . . .

(الأحقاف : ٢٧ـ٢٨)

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا

أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب » . . . .

(هود : ١٠٠ ـ ١٠١)

كذلك كان الانحراف عن التوحيد عند عرب الجاهلية يتجلى فى مجال آخر غير مجال الاعتقاد ـ وإن كان متصلاً بقاعدة الاعتقاد ـ ذلك هو مجال الحاكمية والسلطان ، الذى يجعله الإسلام مظهر التوحيد وعلامة الإسلام . فقد كانوا يتحاكمون إلى عرف الجاهلية ، المؤلف من فتاوى الكهان ، وشيوخ القبائل ، وكبار المشركين ، ومخلفات الآباء والأجداد . ومن عجب أنهم كانوا يزعمون أنها « شريعة الله » ! وأنها دين إبراهيم عليه السلام ! وجاء الإسلام ليرد الأمر كله إلى سلطان الله وشرعه ، ويجعل هذا هو المدلول الواقعى العملى لشهادة أ ن لا إله إلا الله ، الذى لا تقوم هذه الشهادة ولا تعتبر ، إذا صحبها التحاكم إلى الطاغوت ، وهو كل ما لم يشرعه الله . . ولكن هذه قضية سنعرض لها فيما بعد بتفصيل طويل . . إنما نحن هنا نشير فقط إلى طبيعة الدين الباطل الذى حاربه الإسلام . .

ولقد حدثت هذه الانحرافات بعد ظهور عقائد التوحيد ، التى تفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان ، وتجعل العبودية لله وحده بلا شريك ، والدينونة له وحده بلا منازع ، هى قاعدة العقيدة . والمعركة التى خاضتها الرسالات السماوية كلها ـ ومنها الإسلام ـ كانت بين عقيدة التوحيد فى صورتها هذه وعقائد الأرباب المتفرقة . ولم تكن قط بين « الاعتقاد » ـ أيا كان ـ و « الإلحاد » ! .

ولن نعجب إذا رأينا القرآن الكريم لا يكاد يقف أمام قضية الاعتقاد بـ « وجود » الله ، بينما الحديث كله عن توحيد الله سبحانه ، والتعريف بصفاته الحقه . ذلك أن قضية وجود الله ـ كما أسلفنا فى أول هذه الفقرة ـ لم تكن ولن تكون قضية جدية من قضايا العقيدة . فالفطرة ـ حتى فى انحرافها وجاهليتها ـ لا تكاد تلم بهذا الخاطر العارض الشاذ الذى انتهى إليه بعض الشاردين من الكنيسة فى أوربا فى القرون الثلاثة الأخيرة وهم قلة ـ كما أسلفنا ـ وضجة الإلحاد المطلق أعلى بكثير من حقيقتها ، وقيمتها أقل بكثير من مظهرها !

لقد كانت الفطرة ـ حتى فى الجاهليات الموغلة فى ظلمات الزمان ـ أقوم وأهدى من فطرة هؤلاء « التقدميين » ، وفطرة بعض « العلماء » المحدثين ! وكانت أجهزة الاتصال الفطرية فى كيان أهل الجاهلية أعمق وأصفى ، وكان إدراكهم لحقيقة الوجود أقوم وأرقى !

وكذلك نستطيع أن تقرر أن كل دعوة للإسلام اليوم أن يتعاون مع معسكرات

«التدين»ـ أيا كان هذا التدين ـ للوقوف فى وجه « الإلحاد » . . هى دعوة قائمة على الجهل بطبيعة الإسلام ومنهجه وهدفه . وهى معركة فى غير ميدان يدعى إليها الإسلام ؛ ليصرف عن وجهته الحقيقية . ووجهته الحقيقية هى تقرير « التوحيد » فى صورته الربانية ، ومكافحة الانحراف عنه فى كل صورة من صوره . . ومنها الإلحاد . .

وما يؤكد هذه الحقيقة وقفة الإسلام من اليهودية المحرفة ، ومن النصرانية المحرفة ! وهى لا تقل عن وقفته من جاهلية العرب ، ولا جاهليات غيرهم من الوثنيين . . . إنه لم يقر معتقدات الجاهلية ـ وهى لم تنكر الله قط ـ ولكنها كانت معتقدات باطلة ، وكان الإسلام يريد المعتقد الحق . وكذلك لم يقر معتقدات اليهود والنصارى ـ وهى لم تنكر الله قط ـ ولكنها كانت كذلك معتقدات باطلة لا نحرافها عن الأصل السماوى ، والإسلام لا يقبل إلا الحق وحده . . وكما لم يتعاون الإسلام مع معتقدات الجاهلية ، فكذلك لم يتعاون مع معتقدات اليهود والنصارى . . ولا أقرها ولا سكت عنها . .

ونحن نقرأ فى القرآن الحشد الحاشد من النصوص فى هذه المعركة بين عقيدة الإسلام الصحيح وعقائد اليهود والنصارى المحرفة الباطلة :

لقد دعاهم جميعًا إلى التوحيد الكامل الخالص :

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله . فإن تولوا . فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . . .

(آل عمران : ٦٤)

وندد بما هم عليه من الانحراف وسماه كفرًا وشركًا . سواء كان ما هم عليه هو الفساد فى العقيدة والتصور ، أو هو إشراك الأحبار والرهبان فى سلطان الله ، بإقرارهم على حق التشريع والحاكمية (كما سيأتى فى الفقرة التالية) وقرر أن دين الحق وحده هو هذا الدين الذى جاء ليظهره الله على الدين كله :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا. لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى

الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . . .

(التوبة : ٣٠-٣٣)

« وقالت اليهود يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفاها الله . ويسعون فى الأرض فساد . والله لايحب المفسدين » . . .

(المائدة : ٦٤)

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » . . .

(المائدة : ٧٢-٧٣)

ولقد كان آخر ما نزل من القرآن فى شأن أهل الكتاب جميعًا فى سورة براءة هو :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . . .

(التوبة : ٢٩)

ولعله ليس من المصادفات أن يكون الإسلام قد عانى من جاهلية العرب أقل من ربع قرن . بينما ظل يعانى من جاهلية أهل الكتاب أربعة عشر قرنا . ويتلقى الضربات الوحشية والحرب التى لم تضع أوزارها يومًا منذ ذلك التاريخ !

إن الإسلام لا يكافح لمجرد « الاعتقاد » ومجرد « التدين » ولكنه يكافح لإقرار الاعتقاد الواحد الصحيح !

« إن الدين عند إله الإسلام » . . .

(آل عمران : ١٩)

« ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه . . . » . . . .

(آل عمران : ٨٥)

ولعله يحسن هنا أن نجلو بعض الشبهات فيما يتعلق بموقف الإسلام من عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى . . فقد رأينا أنه لم يقر عقائدهم المحرفة قط . وأنه صحح لهم هذه العقائد فى جدل طويل . وأنه دعاهم إلى الدخول فى الإسلام . وأنه اعتبر هذه العقائد شركا وكفرا . وأنه فى نهاية الأمر فى أواخر مانزل من القرآن فى شأنهم أمر بقتالهم حتى يدينوا دين الحق ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وفى الوقت نفسه عاملهم من الناحية التنظيمية معاملة تختلف عن معاملته للمشركين . .

جعل طعامهم حلا للمسلمين دون طعام المشركين . وأباح للمسلمين نكاح العفيفات من نسائهم دون المشركات . وقبل منهم الجزية ولم يقبلها من المشركين . وجعلهم من أهل الذمة - بعد استسلامهم وأدائهم للجزية - وأوصى بهم فى هذه الحاله خيرا ، وجعل لهم من الحقوق فى دار الإسلام ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . ولم يجعل ذلك للمشركين . . .

فماذا ؟ إن كتاب الله - سبحانه - لا يناقض بعضه بعضا . وشريعة الله - سبحانه - لا يناقض بعضها بعضا . فلا بد من بيان :

إن الإسلام لما كان بصدد تقرير العقيدة الصحيحة ، قرر أن عقيدة الإسلام القائمة على توحيد الله - سبحانه - وإفراده بالألوهيه والربوبية والقوامة والسلطان ، بالاعتقاد فى ألوهيته وحده ، والتقدم إليه بالشعائر التعبدية وحده ، والاعتراف بالحاكمية له وحده ، والحكم بشريعته وحدها ، والتحاكم إلى هذه الشريعة دون سواها . . جعل هذا كله هو الدين . . الذى لا يقبل الله من الناس غيره . وأن كل ماعداه باطل . وشرك ، أو كفر . . ومن ذلك عقائد أهل الكتاب . بما فيها من نسبة بنوة عزير وعيسى لله ، ومن تأليه عيسى مع الله ، ومن قبول الشرائع من الأحبار والرهبان . . وحسم فى هذا الحكم بالنصوص القاطعة الصريحة لأنه - إذ ذاك - كان بصدد تحرير العقيدة . والعقيدة لا تقل لبسا ولا هوادة .

ولكنه لما كان بصدد تنظيم التعامل معهم فى المجتمع المسلم فى دار الإسلام ، بذل لهم من السماحة ومن الرعاية ، ومن العدالة ، ما لم يوفره قط نظام من الأنظمة التى عرفتها البشرية لمن يخالفونه فى العقيدة والمذاهب والاتجاه .

عاملهم بالمبدأ الإسلامى العام : « لا إكراه فى الدين » . . فترك لهم حرية اختيار الدخول فيه ، أو البقاء على دينهم بعدما بين لهم ما فى عقيدتهم من انحراف يخرجها عن التوحيد إلى الشرك .

فإن أبوا الإسلام ـ بعد هذا البيان ـ أعطوا الجزية . وقيمة هذا الإجراء من الناحية الواقعية أن يعلنوا عدم مقاومتهم لحرية الدعوة إلى الإسلام بينهم ، وأن يكفوا عن فتنة من يختار منهم الإسلام ،أو من غيرهم ، وأن يدينوا بأن الحاكمية لله وحده لا لأحد من البشر، وبهذا يكون الدين كله لله . فهذا معنى أن يكون الدين كله لله . وأن يخضعوا للنظام العام للإسلام ـ على أن يكون لهم فى أحوالهم الشخصية القضاء بها فى دينهم وشريعتهم ـ ومعنى خضوعهم للنظام العام للإسلام ـ مع تعاملهم فى أحوالهم الشخصية وفق شريعتهم ـ هو أن تطبق عليهم الحدود الاجتماعية والسياسية . تطبق عليهم حدود السرقة والزنا ، ويمنعون من مزاولة الفاحشة والميسر وسائر الجرائم التى تؤذى النظام الإسلامى العام .كما يمنعون من عقد محالفات،أو معاهدات مع معسكرات معادية للمعسكر الإسلامى . . وهذا كله على سبيل التمثيل للبيان لا للاستقصاء الفقهى فليس هذا موضعه . .

والمهم أن الإسلام ضمن لأهل الذمة فى مقابل هذا حمايتهم من الاعتداء الخارجى ، وكفل لهم حقوقهم كاملة فى دار الإسلام . وكفل لهم أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . كما كفل لهم الضمان الاجتماعى لمعاشهم عند العجز والفقر كالمسلمين سواء . وعاملهم ـ فى هذه الحالة ـ بالحسنى ، بإباحة الصهر إليهم . . وبإباحة طعامهم للمسلمين . وأوصى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه خير وصية .

وحفظ الواقع التاريخى للإسلام مستوى رائعًا من العدالة والنظافة والرعاية والسماحة فى معاملة أهل الكتاب . .

ولكن هذا الواقع التاريخى حفظ كذلك لأهل الكتاب ـ سواء فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أو من بعده إلى اللحظة الحاضرة أنكر ردٍّ وأقبحه وأبشعه على هذه المحاسنة ـ بوجه عام ـ فقد كان اليهود ألأم خلقٍ كاد للإسلام منذ دخوله المدينة . وما زالوا يكيدون له حتى الآن . . واختلف هذا الواقع مع النصارى الذين دخلوا فى ذمة الإسلام فى المشرق . . فعاشوا ـ فى الغالب ـ فى وئام مع المجتمع الإسلامى الذى رعاهم بما لم يرعهم به إخوانهم فى الدين من الرومان ! ولكنّ الرومان والشعوب الأوربية التى ورثت الإمبراطورية الرومانية ، والشعوب الأمريكية المتولدة من المهاجرين الأوربيين ، دخلت فى معركة حامية مع الإسلام منذ واقعة اليرموك إلى اللحظة الحاضرة . ووجدت خططها مع خطط اليهود

(الصهيونية العالمية) فى الكيد الخفى والحرب الظاهرة لهذا الدين . ولم تكن الحروب الصليبية ، ولا مذابح الأندلس الوحشية ، ولا الاستعمار الحديث . . إلا قمما للموجات العاتية فى خضم الحرب الشاملة التى أعلنها أهل الكتاب بجملتهم على هذا الدين وأهله . . هدفهم الأول والأظهر منها سحق هذا الدين وأهله ، وردهم عن دينهم إن استطاعوا . . بل لم تكن كارثة التتار فى هجومهم على بغداد وتدمير الخلافة فيها إلا من كيد اليهود والنصارى المستمتعين فى دار الإسلام بكل الضمانات !

ولم تكن هذه نتيجة مفاجئة ولا مجهولة . فقد بينها الله للمسلمين فى كتابه الذى انبثقت الأمة المسلمة من بين صفحاته ، وتعلمت منه ، وتحركت به ، وعاشت عليه ، حتى إذا تركته تداعت عليها الأمم وأكلتها أكلاً لما .

لقد قال الله فى كتابه لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمسلمين :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير » . .

(البقرة : ١٢٠)

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم . من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره . إن الله على كل شىء قدير» . . .

(البقرة : ١٠٩)

كما قال لهم عن المشركين سواء :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . . .

(البقرة : ٢١٧)

فأعلن لهم وحدة الهدف بين المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى فى حرب الإسلام والمسلمين حربًا لا هوادة فيها ، ولا تضع أبدًا أوزارها . ولقد مضى التاريخ الواقعى كله يصدق تعليم الله لرسوله وللأمة المسلمة . . كما لابد أن يكون . .

وقد نزل الأمر الربانى آخر الأمر بالمفاصلة فى التعامل الواقعى ، كالمفاصلة فى الواقع الاعتقادى . . وذلك فى قول الله ـ سبحانه ـ فى سورة « براءة » آخر ما نزل فى شأن أهل الكتاب :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا

يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . . .

ومع هذا فقد كفل الإسلام لهم ما كفل من السماحة والعدل والرعاية والكفالة حين يهادنونه ، ويدخلون فى ذمته . على النحو الذى أسلفنا . ولكنهم هم منذ واقعة اليرموك لم يسالموه . ووقفت أوربا وربيبتها أمريكا موقف العداء البشع لهذا الدين وأهله . . وليس ما نحن فيه اليوم إلا هذه الحرب المعلنة التى لم تكف لحظة منذ موقعة اليرموك !

كذلك لابد من تجلية شبهة أخرى تقوم فى نفوس بعض المسلمين أنفسهم ممن لا يعرفون حقيقة دينهم ولا تاريخه كذلك !

تلك هى شبهة الخلط بين السماحة والكفالة والرعاية التى يبذلها الإسلام للداخلين فى ذمته من أهل الكتاب بصفة عامة ، وبين جواز الولاء بين المسلمين وأهل الكتاب لدفع الإلحاد ، أو لغير هذا من الشئون المتعلقة بالعقيدة .

فإلى جانب الأمر بالسماحة والرعاية والكفالة لأهل الكتاب الداخلين فى ذمة الإسلام . . هنالك النهى القاطع عن الولاء بين المسلمين وأهل الكتاب فيما يختص بشئون الدين والعقيدة وحياة المسلم كلها قائمة على الدين والعقيدة .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . . .

(المائدة : ٥١)

والولاية المنهى عنها تشمل ولاية التناصر والتحالف . فالولاء والتحالف والتناصر فى حياة المسلم تتجه ابتداء إلى إقرار عقيدة الإسلام فى الأرض ، وتحقيق منهج الإسلام فى الحياة . ففيم الولاء والتناصر والتحالف بين المسلم وغير المسلم فى شأن من هذه الشئون ؟

والحياة الواقعية : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية والعلمية والفنية ، إن هى إلا الترجمة العملية للعقيدة فى الإسلام . . فلا انفصال بين أىٍّ منها وهذه العقيدة . فكيف يكون الولاء والتناصر والتحالف بين المسلم وغير المسلم فى شأن من هذه الشئون ؟

إن الإسلام يبسط حمايته ورعايته وكفالته وسماحته للداخلين فى ذمته . على أن يكون هو الذى يحكم الحياة بشريعة الله (كما سيجىء تفصيل هذا فى الفقرات التالية فى هذا الفصل وفى بقية فصول الكتاب) وعلى أن تكون الدينونة لله وحده فى الأرض ، كما أن الدينونة له وحده فى السماء .

إن الإسلام لا يعرف التعصب الذميم الذى تزاوله الصليبية والصهيونية والوثنية ضد الإسلام والمسلمين فى جنبات الأرض ، على مدار التاريخ . . إنه لا يعرف إكراه أصحاب المعتقدات الأخرى على اعتناق عقيدته . . ولكنه كذلك لا يقر هذه المعتقدات ولا يعترف بصحتها ، وهى باطلة من الأساس ،أو منحرفة عن دين الله كما نزله على رسله . . إنه لا يعرف اضطهاد أصحاب المعتقدات المخالفة له وهم يعيشون معه فى الإسلام فى دار الإسلام التى يحكمها الإسلام . بل يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . ويكفل لهم الرعاية والكفالة . . ولكنه كذلك لا يتعاون معهم فى شأن من شئون العقيدة ، إذ أنه لا محل لهذا التعاون ولا موضوع ! . . إنه لا يعرف المذابح الوحشية التى قامت بها محاكم التفتيش فى الأندلس والصليبيون فى بيت المقدس ، والأحباش فى الحبشة وأرترية والصومال ، وفرنسا فى الجزائر ، وروسيا والصين فى التركستان والقرم وخوزستان وأزبكستان، ويوغسلافيا فى أقاليمها المسلمة ، والهند فى أرضها ضد المسلمين ، حيث ذبحوهم بعشرات الملايين . بل إن الإسلام هو الذى حمى أهل مصر والشام المسيحيين من مذابح إخوانهم المسيحيين الرومانيين . . ولكنه كذلك لا يداجى ولا ينافق ، ولا يميّع التميز العقيدى ، ولا يقيم التجمع إلا على آصره العقيدة . فالمتجمعون على عقيدة التوحيد الخالصة هم الأمة المسلمة . والأمة المسلمة تعايش ـ فى دار الإسلام ـ كل من يربطهم بها عقد ذمة وتعاملهم بذمة الله الوفية العادلة الكريمة .

وفى هذا البيان الذى استطردنا إليه بيان للحق فى منهج هذا الدين بلا مواربة ولا مداجاة !

بعد هذه اللفتة نملك أن نمضى مع المنهج القرآنى لنرى كيف عالج قضية الألوهية والعبودية ، فى كل مجالاتها ، وكيف سلك بها إلى النفس البشرية كل مسالكها ، وكيف أصّل عقيدة التوحيد فى « الاعتقاد » و « العباد » و « الحكم » وفى كل ركن من أركان النفس وأركان الحياة . .

* * *

لقد اعتبر الإسلام قضية التوحيد هى قضيته الأولى وقضيته الكبرى . توحيد الألوهية وإفرادها بخصائصها والاعتراف بها لله وحده ، وشمول العبودية لكل شيء ولكل حى ، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعًا . . فالتوحيد ـ على هذا المستوى وفى هذا الشمول ـ هو مقوّم الإسلام الأول . كما أنه انتهى إلى أن يكون من خصائصه المميزة ، ، ذلك أن

ديانات التوحيد كلها وقد ألممنا بها من قبل ـ ومنها ما هو قائم كاليهودية والنصرانية ـ قد دخلها التحريف ، وشابتها شوائب الوثنية ـ فى أصولها ونصوصها ـ بسبب الإضافات والتأويلات البشرية ، وبقى الإسلام وحده محفوظا من التحريف فى أصوله ونصوصه ، فبقيت له سمة التوحيد خصيصة له مميزة . .

ولقد سلك الإسلام بهذه الحقيقة الكبيرة إلى النفس البشرية كل مسالكها ، وواجهها بها فى كل مجالاتها ، وجعلها قاعدة الاعتقاد والعبادة ، وقاعدة الخلق والسلوك ، وقاعدة الحكم والنظام ، وقاعدة النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى والعلمى والفنى ، وقاعدة العمل والجزاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء . . وناط بها ـ فى كل هذه الصور والمجالات جملة ـ قضية الكفر والإيمان ، فجعل الإقرار العملى الإيجابى بها ـ فى كل هذه الصور والمجالات جملة ـ هو الإسلام ، وجعل رفضها ـ فى أىٍّ من صورها هذه ومجالاتها ـ هو الكفر ، الذى لا يتحقق معه إيمان ولا إسلام ، ولا يقبل معه عمل فى دنيا ولا فى آخرة، ولا يعترف معه بشرعية لعمل ، أو حكم ، أو عبادة أو نظام . . . وجعل سواء أن يعتقد الإنسان فى ضميره أن ليس هناك إله ، أو أن هناك الهة مع الله ، أو أن لله أبناء وأصهارًا ، أو أن الإله هو هذا الحجر ، أو هذا القمر . . جعل سواء أن يعتقد الإنسان فى ضميره شيئًا من هذا كله ، وأن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله ـ معه ، أو من دونه ـ وأن يحكم بغير شريعة الله ، وأن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله ـ معه ، أو من دونه ـ وأن يتحاكم إلى غير شرع الله ـ إلا وهو منكر لا يملك غير إنكار القلب ، أو اللسان ـ فكل هذه وسواء فى أنهاتنفى عن صاحبها صفة الإيمان ، وتخرجه من الإسلام ، وبالنصوص المحكمة والأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين .

فلننظر كيف عالج القرآن الكريم هذه الحقيقة فى مجال الاعتقاد والعبادة أولاً . ثم كيف عالجها فى مجال الحاكمية والسلطان أخيرًا :

كان العرب ـ كما كان غيرهم ـ فى جاهليتهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله ، ويتزلفون ، بتلك الآلهة المدعاة التى يدعون لبعضها البنوة لله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ وكانوا ـ من ثم يتقربون إلى هذه الآلهة المدعاة بالشعائر ، فيقدمون ، لها القرابين ، ويجعلون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم ـ وأحيانًا من أبنائهم ـ ومن بين هذه الآلهة المدعاة بعد القرآن رجالاً من البشر ، كالكهان والأحبار ، ممن كانوا ينطقون باسم تلك الآلهة ، ويشرعون لعبادهم الشرائع ، وهى من اختصاص الألوهية (كما أنه يعد من هذه الآلهة الحكام الذين

يشرعون للناس ـ بغير سلطان من الله ـ فيقبلون شرائعهم ويطيعون أوامرهم ويتبعون تعليماتهم . ولكن هؤلاء سنفصل القول فى شأنهم عند الكلام عن الحاكمية والسلطان) . .

وعالج القرآن هذا كله بشتى الأساليب وشتى المؤثرات :

قص عليهم قصص الرسل من قبلهم ، وما أرسلهم الله به من التوحيد الخالص . وموقف الجاهليات من هذه الرسالات ، وسنة الله فى أخذ المكذبين . . على النحو الذى عرضناه فى الفقرة الأولى فى هذا الفصل . .

وعالج ظنهم أن هذه الآلهة تقربهم من الله زلفى ، وتشفع لهم عنده ، وتملك لهم ـ عن هذا الطريق ـ العز والنصر ، والنفع والضر . . بنفى هذا الظن ، وبيان صفة الله الحق ، وطبيعة الألوهية المتفردة التى يستحيل معها أن تكون هذه آلهة ، وبتوجيه القلب والعقل إلى كتاب الكون المفتوح ـ وهو شاهد بصفة الله الواحد ـ وبلمس الفطرة وتذكيرها بموقفها فى ساعة الشدة ، ودعوة الله وحده عندها ، وبالتحذير من النار والإطماع فى النجاة ، فى مثل هذا السياق الفريد .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدِّين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار . لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لا صطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه هو الله الواحد القهار . خلق السموات والأرض بالحق ، يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ، وسخرّ الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو، فأنى تصرفون ؟ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور . وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه ، ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله ، قل . تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار . أمّن هو قانت اناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب . قل : يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ،

وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصًا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه . قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون . والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب» . . .
(الزمر : ١ ـ ١٨)

يبدأ السياق بتقرير مصدر هذا الكتاب وأنه من الله العزيز الحكيم . والعرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون الله العزيز الحكيم . وكانوا يكذبون فقط بأن هذا الكتاب من عنده ، على أنهم فى دخيلة نفوسهم كانوا يعرفون أنه ليس من صنع البشر ، فقد كانوا أهل قول وأصحاب لَسَن ، ولم يكن ليخفى عليهم ـ كما لا يخفى على أى إنسان يزاول فن القول ، ويعرف حدود طاقة البشر فيه ـ أن هذا الكلام لا يكون من عند غير الله .

ثم يذكر طبيعة الكتاب ومضمونه والهدف الأول من تنزيله . . إنه نزل بالحق ونزل لإقرار التوحيد . . أولاً فى ضمير الرسول المنزل عليه الكتاب وفى عبادته وفى حياته الواقعية : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق . فاعبد الله مخلصًا له الدين » . . ذلك أن الدّينونة والعبودية لا تكون إلا لله وحده . فهذا هو الحق الذى نزل به الكتاب فى صميمه : « ألا لله الدين الخالص » . .

ثم يواجه ظنونهم فى التقريب إلى الله بهؤلاء الأولياء بأنه ـ سبحانه ـ يكره هذا الكذب وهذا الكفر ، فكيف يستشفع عنده بما يكره : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . .

ويواجه دعواهم ببنوة بعض هؤلاء الأولياء له ـ بزعمهم ـ إنكار أصل الدعوى . فما الذى يجعل الله سبحانه يتخذ أبناء وهو خالق كل شىء وكل أحد . وهو يصطفى من خلقه ما يشاء ، فيكلفهم ما يريد ، ويقرب إليه منهم من يريد . . فما وظيفة البنوة والأبناء عند من يخلق ما يشاء ويصطفى من خلقه ما يشاء ؟ « سبحانه هو الله الواحد القهار» . .

ويعرض عليهم مظاهر قدرته فى الخلق والهيمنة والتصريف فى المجال الكونى المشهود لهم : « خلق السموات والأرض بالحق . يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار » .

ثم يعرض عليهم مظاهر قدرته فى خلقهم هم أنفسهم وتنظيم حياتهم وفق خلقه لهم : « خلقكم من نفس واحدة ، ثم جعل منها زوجها » ـ ويذكر الأنعام لعلاقتها بتصرف المشركين مع آلهتهم بشأنها كما سيجىء فى الحديث عن عبادتهم وشعائرهم ـ ويلمس مشاعرهم لمسة خفية عميقة موحية ، وهو يصور نشأتهم فى بطون أمهاتهم : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » حيث الجنين فى أغلفة بعضها داخل بعض فى هذه الظلمات . الأمر الذى لم يكن معروفًا لعلم البشر يومئذ فأعلمهم به الله . . وفى ظل هذا المؤثر القوى الموحى ، يقرر حقيقة الألوهية وسلطانها : « ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون ؟ » .

وحين يبلغ بهم إلى ذروة الاستجاشة والتقرير ، يلوح لهم بالترهيب والترغيب ، وينفى عنهم رجاءهم فى أن يحمل هؤلاء الأولياء عنهم شيئًا من أوزارهم ، أو يشفعوا لهم فى شىء منها : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى . ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون . إنه عليم بذات الصدور » . .

ثم ينتحى بهم ناحية فيواجههم بفطرتهم ذاتها ، وهى تخلص التوجه إلى الله وحده فى ساعة الشدة ، فتشهد بالحق المكنون فيها حين تعريه الشدة ! وكيف أنهم بعد هذا التوحيد يجعلون لله أندادًا عند الرخاء بدلاً من الشكر والاستقامة : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله » . . وعندئذ يجىء التهديد فى موضعه المناسب « قل : تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار » . .

وعلى الجانب الآخر من المشهد . . المؤمن القانت الساجد القائم الحذر الراجى المنيب . . لتواجه صور الضال المضل الجاحد للنعمة بعد الإنابة فى الشدة : « أم من هو قانت اناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » . . « قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » فالعلم الحق يقود إلى هذه الصورة المهتدية الشفيفة .

والجهالة المطموسة هى التى تقود إلى ذلك الشرك والضلال : « إنما يتذكر أولو الألباب » .

وفى ظلال هذا المشهد بجانبيه ، وظلال التعليق عليه ، تنطلق الدعوة إلى العباد المؤمنين ، لينطلقوا فى أرض الله الواسعة مهاجرين بعقيدتهم فارين إلى الله بدينهم ، تاركين وراءهم فى مكة كل شىء تتعلق به النفس ، متجردين لهذه العقيدة . . فهذا التجرد من هذه العلائق والجواذب والوشائج والمصالح هو من حقيقة التوحيد ومقتضاه . ولهم فى أرض الله سعة ، وفى جزائه عوض ، ولهم فى صبرهم رصيد : « قل : يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . .

ثم التفاتة لتقرير عقيدة التوحيد للألوهية ، والدينونة لله وحده بلا شريك ، والإسلام والعبودية له بلا منازع ، يكلف بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعلنها مدوية ، وليفاصل عليها الناس . فالأمر جد . والمعصية فيه لا نجاة بعدها ولا شفاعة . والخسارة فيه هى الخسارة : « قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين : قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : الله أعبد مخلصًا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه . قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين» . ثم مشهد مروع مفزع من مشاهد القيامة يصور عاقبة هذا الخسران المبين : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . ياعباد فاتقون » . . وعلى الجانب الآخر من المشهد ـ على النهج القرآنى فى عرض مشاهد القيامة ـ أولئك الناجون ، الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، ودانوا لله وحده وعبدوه مخلصين له الدين : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . . وهى صورة رخية ندية وضيئة شفيفة . . .

وتمضى السورة كلها على هذا النسق الفريد . ولكننا لا نملك ـ فى كتاب ـ أن نعرضها بجملتها ، فنكتفى بعرض هذا القطاع منها عرضًا سريعًا على هذا النحو ؛ ليرجع إليها من يشرح الله صدره بهذا القرآن ، ويفتح الله قلبه لهذا الفرقان . . ثم نمضى لنثبت فقط بعض النصوص التى واجه بها القرآن عقيدة الشرك فى بنوة الملائكة لله . وفى شفاعتهم هم، أو غيرهم من الشركاء :

« أفرأيتم اللات والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى : ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن

قسمة ضيزى[1] . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ماتمنى؟[2] فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . ما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا . فأعرض عن من تولى عن ذكرنا . ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . . . .

(النجم ١٩ ـ ٣١)

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون» . . .

(يونس : ١٨)

« أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض ، ثم إليه يرجعون ، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » . . .

(الزمر : ٤٣ ـ ٤٦)

ولم ينف عن آلهتهم المدعاة أن تكون قادرة على عزهم ونصرهم ونفعهم وضرهم فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن عرض لهم الحياة الآخرة ، وجريرة هذه الآلهة عليهم فيها ـ فضلاً على أنها لن تقدم لهم عونًا ! ـ سواء كانت هذه الآلهة مما اتخذوه للعبادة والتأله ، أو ممن اتخذوهم أربابا من البشر يتلقون منهم الشرائع والأحكام ، والتقاليد والأوضاع . من

---

(١) إشارة إلى نسبتهم البنات إلى الله سبحانه ـ وهى الملائكة ـ مع كراهيتهم هم للبنات ! فكيف يقسمون لله ما يكرهون ؟! وليس هذا إلا محاجة بمنطقهم لتسخيف منطقهم . . ثم ينفى الأمر كله فى الآيات التالية .

(٢) يعنى أن الأمر ليس بهواهم ورغبتهم . إنما بالحق والواقع !

الأحياء معهم ومن الموتى الذين يتبعون ما سنّوه لهم . مع تعريفهم فى ثنايا هذا البيان بربهم الحق ، وبخصائص الألوهية الصحيحة :

« والله الذى أرسل الرياح ، فتثيرسحابًا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور . من كان يريد العزة فلله العزة جميعًا . إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزوجًا . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمرّ من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحمًا طريًا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير » . . .

(فاطر : ٩ ـ ١٤)

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا ، وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا : كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » . . .

(البقرة : ١٦٥ ـ ١٦٧)

كذلك تكرر فى القرآن الأمر بتحدى المشركين بالسؤال عن نصيب آلهتهم المدعاة فى الخلق ، أو فى الرزق ، أو فى التأثير فى نواميس الكون وفى حياة البشر ، فى أية صورة من الصور . . ذلك أنه إذا انتفى أن يكون لأحد من هذه العباد دور فى الخلق ، أو فى الرزق ، أو التأثير فى نواميس الكون ، أو حياة البشر على الإطلاق ، بعد ما انتفى أن يكون لها عند الله شفاعة ، أو قبول فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، فقد ظهر السخف وتجلت الحماقة فى اتخاذها أربابا ـ سواء بتقديم الشعائر والقرابين ، أو فى الشرائع والقوانين ـ وهذه نماذج من هذا التحدى :

« قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات : ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين » . . .

(الأحقاف : ٤ ـ ٦)

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون » . . .

(النحل : ١٧ ـ ٢٢)

« قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمّن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده، فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ؟ أمّن لا يَهِدِّى[1] أن يُهدى ! فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ » . .

(يونس : ٣١ ـ ٣٥)

ولم يعالج الإسلام قضية الشرك والتوحيد فى عقائد مشركى العرب والوثنيات كلها فحسب . إنما عالجها كذلك بمثل هذه السعة فى عقائد أهل الكتاب المحرفة عن التوحيد الخالص، بما طرأ عليها بعد الرسل من إضافات وتأويلات بشرية، وبما تسرب إليها من الوثنيات والفلسفات. والنصوص القرآنية فى جدال أهل الكتاب كثيرة. سبق إيراد بعضها، ونورد هنا غيرها. وهى تصور بذاتها طبيعة هذه العقائد المحرفة وتصحيح القرآن لها :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرًا لكم . إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى

---

(١) أى يهتدى : قلبت التاء دالا وأدغمت فى الدال .

السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلاً . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ، ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا » . . .

(النساء : ١٧١ ـ ١٧٣)

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . قل : فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا ؟ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير . وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل . أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شىء قدير » . . .

(المائدة : ١٧ ـ ١٩)

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون . قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا ، والله هو السميع العليم ؟ قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرًا ، وضلوا عن سواء السبيل . لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرًا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرًا منهم فاسقون » . . .

(المائدة : ٧٥ ـ ٨١)

ونلاحظ من الآيات الثلاث الأخيرة من هذه المجموعة الأخيرة آثار الانحراف العقيدى فى السلوك العملى ، وفى السياسة والاجتماع ، وفى الفساد العام الناشىء ابتداء من

الانحراف العقيدى عن دين الله الصحيح . . ولكن هذا موضوع سيجىء . . فنكتفى هنا بما يختص من النصوص بتصحيح انحراف العقيدة فى الله . .

* * *

ثم إنه لما عرّف الناس بصفات الله الحق الذى يستحق أن يكون ربًا للعالمين، وكشف لهم عن تجرد آلهتهم كلها من هذه الصفات ـ فى عالم الواقع والحقيقة ـ أصبح مفهومًا أن الله ـ سبحانه ـ هو المتفرد بخصائص الألوهية ، وأن كل شىء وكل حى داخل فى نطاق العبودية له سبحانه بلا شريك ، ونطاق الدينونة له سبحانه بلا منازع . . ولكن القرآن جعل ينص على هذا نصًا ، ويتتبع كل خالجة مستكنة وكل شبهة كامنة ، فيسلط عليها النور ، ويقضى فيها بالنص والتقرير .

فعن وحدانية الله ـ سبحانه ـ ذاته وصفاته وخصائصه وسلطانه ، وتجرد الشركاء منها جميعًا ، ترد أمثال هذه النصوص الصريحة :

« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوًا أحد » . . .

(سورة الأخلاص)

« وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد . فإياى فارهبون . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون ؟ وما بكم من نعمة فمن الله . ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما اتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » . . .

(النحل : ٥١ ـ ٥٥)

« ولا تدع مع الله إلهًا آخر . لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون » . . .

(القصص : ٨٨)

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون[1] ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . . .

(الأنبياء : ٢١ ـ ٢٣)

« فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ، ذو العرش ،

---

(١) يبعثون الناس من الأرض .

يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منه شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » . . .

(غافر : ١٤ ـ ١٦)

ووراء هذه النماذج القليلة حشد من النصوص القرانية لبيان وحدة الألوهية فى هذا الوجود ـ فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة ـ فى الدنيا وفى الآخرة . فى نظام الكون فى حياة الناس . .

ثم نص كذلك على أن العبودية لله تشمل كل شيء وكل حى ، فلا يخرج عن العبودية لله ـ سبحانه ـ شيء ولا حى فى هذا الوجود . إنما يتجرد كل حى وكل شيء من خصائص الألوهية ، ويقف الكل من الألوهية الواحدة المتفردة موقف العبيد :

● إنها عبودية الكون المادى ممثلاً فى أجرامه الفلكية الكبيرة :

« قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان . فقال لها وللأرض : ائتيا طوعًا أو كرها قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا . ذلك تقدير العزيز العليم » . . .

(فصلت : ٩ ـ ١٢)

وهى عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء فى هذا الوجود ، المغيب منه والمشهود :

« أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدًا لله وهم داخرون[1] ، ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » . . . .

(النحل : ٤٨ ـ ٥٠)

● وهى عبودية الخلائق العاقلة المكلفة فى الكون كله :

« إنْ كل فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا . لقد أحصاهم وعدهم عدًا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا» . . .

(مريم : ٩٣ ـ ٩٥)

---

(١) خاضعون .

● وهى عبودية الملائكة خاصة :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدًا ـ سبحانه ! ـ بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزى الظالمين » . . .

(الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩)

● وهى عبودية الجن والإنس عامة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . . .

(الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨)

● وهى عبودية الرسل والأنبياء خاصة :

« ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبدًا شكورًا » . . .

(الإسراء : ٣)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » . . .

(ص : ٤٥)

« سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين» . . .

(الصافات : ١٢٠ ـ ١٢٢)

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » . . .

(ص : ٤١)

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيًا » . . .

(مريم : ٢ ـ ٣)

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون» . . .

(النساء : ١٧٢)

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » . . .

(الإسراء : ١)

● وهى عبودية الطائعين :

« فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » . . . .

(الزمر : ١٧ ـ ١٨)

● وهى عبودية العصاة :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم» . . .

(الزمر : ٥٣)

كما أنها عبودية هذه الآلهة المدعاة . فكل ما يزعمون أنه إله فهو عبد لله . وهو يرجو لنفسه من الله النجاة . وهو يبرأ من ادعاء الألوهية ، ويتبرأ من تعبيد الناس له ومن عبادتهم إياه :

« أولئك الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورًا » . . .

(الإسراء : ٥٧)

« ويوم يحشرهم جميعًا . ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » . . .

(سبأ : ٤٠ ـ ٤١)

« وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك . إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك . وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . . .

(المائدة : ١١٦ ـ ١١٨)

« وإذ يتحاجون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعًا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد» . . . .

(غافر : ٤٧ ـ ٤٨)

« وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم .

وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى[1] إنى كفرت بما أشركتمون من قبل[2] . إن الظالمين[3] لهم عذاب أليم » . . .

(إبراهيم : ٢٢)

إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة . . قاعدة هذا التصور . ونقطة الاستقرار الثابتة فيه . والسمة المميزة له . ومفرق الطريق بينه وبين كل تصور آخر . . ومن ثم تنال هذه العناية الكبرى ، وهذا الاستقصاء الشامل . على هذا النحو الفريد . . .

وهذه العبودية الشاملة يتعلق وجودها ابتداء ، ويتعلق تدبيرها وكفالتها ، وبالألوهية المتفردة . والعلاقة بين الألوهية المتفردة والعبودية الشاملة هى علاقة الخلق والملك والرزق والهيمنة والقوامة . . القوامة بكل معانيها ووظائفها ومقتضياتها .

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يُغشِى الليل النهار يطلبه حثيثا . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين » .

(الأعراف : ٥٤)

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما مَن أحد من بعده» .

(فاطر : ٤١)

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . كل فى كتاب مبين » .

(هود : ٦)

« يسأله من فى السموات والأرض . كل يوم هو فى شأن » .

(الرحمن : ٢٩)

وفى مواجهة هذا البيان الشامل الكاشف المنير تبدو عبادة الشركاء ـ مع الله سبحانه ـ وتقديم القرابين لها ، وإشراكها فى الأموال والأبناء ـ أيا كان هؤلاء الشركاء من البشر، أم من

---

(١) ما أنا بمنقذكم وما أنتم بمنقذين لى .

(٢) يقول : إنه كفر بإشراكهم له وشركهم به .

(٣) الظالمين : المشركين .

الجن أو من الأحياء والأشياء ـ سخفا لا يملك الدفاع عنه أشد المتحمسين له ! ويندد القرآن بهذه الشعائر والتقاليد الجاهلية ، وينسفها نسفًا، في جو من التحقير لها والازدراء :

١ ـ « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا . فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون . وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم [١] . ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حُرِّمتْ ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين » [٢] .

(الأنعام : ١٣٦ ـ ١٤٠)

٢ ـ « ويجعلون لما لا يعلمون نصيبًا مما رزقناهم . تالله لتسألن عما كنتم تفترون » .

(النحل : ٥٦)

٣ ـ « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب . وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون ؟! » .

(المائدة ١٠٣ ـ ١٠٤)

٤ ـ « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إن الله لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . .

(الأعراف : ٣١ ـ ٣٣)

---

(١) يقول : إن شركاءهم زينوا لكثير منهم قتل أولادهم . وذلك ينتهي بهم إلى الردى والهلاك من ناحية وإلى اللبس والضلال في الدين من ناحية .

(٢) يراجع بيان هذه الشعائر الجاهلية التي تشير إليها الآيات هنا في القسم الأول من هذا البحث ص ٤٢ ويرجع تفسير الآيات في مواضعه من ظلال القرآن .

وهنا نصل إلى مرحلة أخرى يتشابك فيها الاعتقاد الجاهلى الضال ، بالشعائر الجاهلية الضالة ، بالحاكمية الجاهلية الضالة ، ويتمثل « الدين » الجاهلى الضال بكل مقوماته . . الدين بمدلوله الشامل ، فى الاعتقاد ، وفى الشعائر ، وفى الحكم ونظام الحياة الناشىء عن هذا الترابط بين هذه المقومات الثلاثة للدين ، والتى يتضح أنها لا تفترق أبدًا فى أى «دين»! فحيثما وجد تصور اعتقادى ، نشأ عنه شعائر تعبدية معينة ، ونشأ عنه كذلك نظام معين للحياة ، وطريقة معينة للحكم . . وهذه فى مجموعها ـ ولا واحدة منها فحسب ـ هى التى تمثل المدلول المتكامل للدين !

والقوم ـ كما يصفهم القرآن الكريم هنا ـ كانوا يتخذون آلهة شركاء مع الله ، يعتقدون أن لهم عند الله شفاعة لا ترد . ومن ثم يتقربون إلى هؤلاء الشركاء بالشعائر والقرابين ، فيجعلون جانبًا مما رزقهم الله من الزرع والأنعام لله يتقربون به إليه ، ويجعلون نصيبًا آخر للشركاء ! ثم كانوا يقدمون من بين هذه الشعائر ذبائح آدمية ـ وقصة نذر عبد المطلب واحدًا من أبنائه للآلهة إن رزقه الله عشرة أبناء يحمونه مشهورة فى الجاهلية ! ـ كما كانوا يئدون البنات حسب عرف الجاهلية وهو من صنع البشر . وكان الذى يتولى التعبير عن إرادة الآلهة هم ناس من البشر طبعًا ـ الكهان أو الشيوخ ـ ومن ثم يتولون التشريع فى هذه الشئون ، وشيئًا فشيئًا يصبح لهم حق « الحاكمية » فيصفهم القرآن بأنهم « شركاء » ـ أى آلهة ـ إذ أن حق الحاكمية والتشريع وتعبيد البشر للشرع من خصائص الألوهية فى التصور الإسلامى ، من زاوله ـ بغير سلطان من الله ـ فقد ادعى لنفسه الألوهية ، ومن أقره عليه فقد أقره على ادعاء الألوهية . .

وكانوا كذلك يحرمون ركوب بعض الأنعام (وهى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى) التى جاء ذكرها فى السياق الأول والثالث . وكانوا لا يذكرون اسم الله على بعض الذبائح . وهى التى يقسمونها بطريقة الأزلام ، وكانوا يجعلون بعض ما فى الأنعام لذكورهم ـ وهو الأكثر ـ ويعضها لإناثهم ـ وهو الأقل ـ فأما إذا ولد ميتا فيشترك فيه الذكور والإناث ـ وهم كانوا يأكلون الميتة حتى حرمها الإسلام ـ وكانوا ـ كما تشير المجموعة الرابعة من الآيات. يحرمون بعض الثياب فى الحج ، ذلك أن قريشا ابتدعت شريعة تحرم على قاصدى الحج من غير قريش أن يرتدوا للحج إلا ثيابًا مشتراة من قريش ! فإذا حجوا بها أصبحت بعد ذلك حراما عليهم فخلعوها وتركوها لقريش ! فأما إذا لم يشتروا هذه الثياب فيتحتم عليهم أن يطوفوا بالبيت عرايًا ! وطبعًا كان هذا التشريع بفتاوى من الكهان

والشيوخ باسم الآلهة ! أخذوا فيها لأنفسهم سلطة الحاكمية والتشريع ، التى هى من اختصاص الألوهية ! وكانوا ـ بعد الإسلام ـ إذا دعوا إلى التحاكم إلى شرع الله فى هذا كله أبوا ورفضوا : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » ! ويرد السياق القرآنى عليهم متهكما مزدريا : « أولو كان اباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون » ؟!

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا فى الحديث عن هذه النقطة فى هذه الفقرة . فهى موضوع الفقرة التالية فى هذا الفصل . وها نحن أولاء قد وصلنا إلى المعركة الحقيقية ، التى كانت والتى ستكون موضوع الصراع الحقيقى بين الإسلام والجاهلية فى كل صورها وأشكالها . سواء ما كان منها قبل الإسلام ، وما ارتكست إليه البشرية بعده من شتى الجاهليات !

* * *

لقد كانت معركة العقيدة الأصيلة الطويلة على « السلطان » . . على « الحاكمية » . . على « تعبيد البشر » . . وكانت فى صميمها تدور حول الإجابة على هذا السؤال :

لمن تكون الألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية فى نظام الأرض وفى حياة الناس ؟ لله وحده ، أم لشتى الآلهة والأرباب ؟

لقد كان الجاهليون فى كل زمان ومكان ـ بما فى ذلك هذا الذى نحن فيه ـ على استعداد ـ فى معظم الأوقات ـ للاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه فى نظام الكون ، وفى عالم الآخرة . وحتى الماركسيون ـ اللينينيون الملحدون قد تركوا للناس ـ فى شدة الحرب الثانية ـ أن يعتقدوا فى الله كما يحبون ، وأن يذهبوا إليه فى الكنائس !

ولكن المعركة الحقيقة مع الجاهليين قديماً وحديثًا إنما كانت وتكون حول ألوهية الله ـ سبحانه ـ وربوبيته وقوامته وسلطانه هنا فى أنظمة الأرض ، وفى حياة الناس . كانت حول حق الحاكمية . لمن هو ؟ . . حول حق تعبيد الناس لمن هو ؟ حول حق التشريع ابتداء . لمن هو ؟ حول تحديد السلطة العليا التى يرجع إليها الناس فى حياتهم الدنيا ، وفى نظام مجتمعهم ، وفى شكل حكمهم . . ولمن تكون ؟

ونالت هذه القضية ـ من أجل أنها القضية الكبرى والقضية الحقيقية فى معركة العقيدة ـ عناية ملحوظة فى القرآن الكريم . سواء وهو يقص قصة الصراع حولها فى الرسالات السابقة ، أم وهو يقررها فى حياة الأمة المسلمة . بشتى وسائل التقرير ، ويعرضها بشتى

طرائق العرض . ويتتبع مساريبا فى دروب النفس البشرية ، وفى دروب الواقع البشرى على السواء .

ومن ثم لم يكن التصور الإسلامى ـ منذ نشأته فى الرسالات السماوية كلها ـ مجرد تصور اعتقادى ، أو مجرد شعائر تعبدية . . ثم ينتهى الأمر ، ويتم الدين ! . . إنما كان مسألة واقعية حركية . . كان هذا السؤال دائماً معروضا : « لمن الملك فى الأرض ؟ ولمن الحكم فى حياة البشر ؟ ولمن السلطة التى تتعبد الناس ؟ » وحول هذا السؤال والإجابة عليه كانت المعركة . . أولاً فى عالم الضمير . . وثانيًا فى واقع الحياة . . فأما الذين قالوا : إن الملك لله وحده فى الأرض كما أن الملك له وحده فى نظام الكون وعالم الأسباب ، وأن الحكم لله وحده فى حياة البشر ، وإن السلطة التى تتعبد الناس لله وحده ، وإن كتاب الله وحده وشريعته وحدها هى القانون فقد كانوا هم « المسلمين » . . فى كل زمان . . ذلك أن هذا مناط الإسلام لله ، والمدلول المباشر لشهادة أن لا إله إلا الله . . وأما الذين قالوا : إن ذلك كله ـ أو بعضه ـ للبشر لا لله . وإن لله مملكة السماء ومملكة الآخرة . وأن ليس لله ولا لدينه أن يهيمن على أنظمة الأرض ، وحياة الناس ، وأوضاع المجتمع ، وإن لنا أن نتولى بأنفسنا أو ،بتشكيلاتنا البشرية هذا كله ـ أو بعضه ـ غير متقيدين بنص ما شرعه الله ، وغير متحكمين إلى كتابه ـ فقد كانوا هم « الكافرين » . ذلك أن هذا يتضمن رفض ألوهية الله ـ سبحانه ـ وربوبيته وقوامته وسلطانه فى الأرض ـ حتى لو اعترفوا بوجوده وإشرافه على نظام الكون وحياة الآخرة ـ فشهادة أن لا إله إلا الله ، معناها : أنه سبحانه فى السموات وفى الأرض إله . والإله هو وحده الذى له الربوبية والقوامة والسلطان . فى نظام الأرض وفى حياة الناس ، كما أن له هذا كله فى نظام الكون وفى الدار الآخرة !

ومع أننا لا نعرف الكثير عن تفصيلات هذه المعركة فى الرسالات السابقة . . إذ لا نعلم عنها علماً يقينيا إلا ما قصه الله عنها فى القرآن الكريم . إلا أن ما ورد من الإشارات فى قصص الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ عن هذه القضية ، يكفى لتصوير تلك الحقيقة .

ومتى اعتبرنا أن دين الله كله كان هو التوحيد . وأن رسل الله جميعًا جاءوا ـ من ثم ـ بالإسلام ، كما يقرر القرآن الكريم ، مخالفا فى هذا التقرير كل ما تخبَّط فيه علماء الأديان المقارنة من فروض وظنون وأوهام . كان لنا أن نعتبر المعركة حول هذه القضية فى الرسالة الأخيرة ، صورة حقيقية ـ ولكنها فقط واسعة النطاق ـ مما كان فى الرسالات كلها ، وهى

تستهدف ما استهدفته الرسالة الأخيرة ، من تقرير ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وسلطانه . وتجريد العبيد منها ، بوصفها من خصائص الألوهية .

وسنحاول أن نستعرض هنا أولاً لمحات عن هذه المعركة بين الإسلام والجاهلية قبل الرسالة المحمدية ، وسندع النصوص القرآنية تتحدث بذاتها عن القضية على منهجنا الذى بيناه فى هذا البحث كله :

● فى قصة آدم - عليه السلام - نجد شرط عهد الاستخلاف فى الأرض محددًا واضحًا . . وهو « اتباع » الهدى الذى سيجىء إليه وإلى ذريته من الله سبحانه . ونجد التحذير من عواقب عدم « الاتباع » فى الدنيا وفى الآخرة سواء . « قال : اهبطا منها جميعًا ، بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليومَ تُنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

(طه : ١٢٣ - ١٢٧)

● وفى هذا العهد - كما نرى - نجد شرط « الاتباع » ونجد مقابله « عدم الإيمان » . فالاتباع هو مقتضى العبودية ، وهو علامة الإيمان . ومن لا يتبع فإنه يرفض العبودية ، ومن ثم يتعرى من صفة الإيمان . ورفض الاتباع يخالف شرط الاستخلاف ، كما أنه ينفى الإيمان . فيقع كل عمل - إذن - باطلاً لا شرعية له ، لا يقبله الله ، ولا يجوز أن يقره مؤمن بالله ، ولا أن يعرف بشرعيته (وسيرد تفصيل هذا فى موضعه فحسبنا هذه الإشارة هنا) .

وفى قصة نوح - عليه السلام - يرد ما يدل على أن قومه ما كانوا يجحدون الله - سبحانه - ولكنهم كانوا يرفضون أن يكون لله الأمر والسلطان فى حياتهم - إلى جانب شركهم به فى الاعتقاد والعبادة - فإنه لما دعاهم إلى عبادة ربهم وحده لم يردوا عليه بقولهم : إنه ليس هناك إله . أو أن الله ليس هو الإله . إنما هم كذبوا أن يكون الله أرسله إليهم ، لظنهم أن الله لو أراد أن يرسل إليهم رسولاً ما اختاره بشرًا ، وإنما كان يختاره من الملائكة !

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة . ما سمعنا بهذا فى ابائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » . .

(المؤمنون : ٢٤ - ٢٥)

وكان تقرير نوح ـ عليه السلام ـ الذى رفعه إلى ربه فى النهاية بحصيلة جهده ، وبشكواه من قومه ، يتضمن أن القوم رفضوا اتباع ما جاءهم به من عند الله ، واتبعوا الكبراء والسادة ، وهم الذين كانوا يقودون المعركة إبقاءً على سلطانهم وحاكميتهم :

« قال نوح : رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا . ومكروا مكرًا كبارًا » . . .

(نوح : ٢١ـ٢٢)

وظاهر أن السلطة التى « تتبع » كانت هى مدار المعركة . وأن أصحاب المال والولد وهم الكبراء المتسلطون ، هم الذين قادوها ، واتبعهم القوم فيها . .

وهود ـ عليه السلام ـ ترد فى قصته مثل هذه الإشارة :

● « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » . .

(هود : ٥٩)

● وكذلك فى قصة قوم صالح ـ عليه السلام ـ يتضح أنه كان يدعوهم إلى طاعة الله والعبودية له وحده ، والخروج من طاعة الطغاة ، وهو يقول لهم :

فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون» .

(الشعراء : ١٥٠ـ١٥٢)

● وفى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ تبدو القضية واضحة حادة ، فقد كان مدار المعركة على التشريع للمعاملات الاقتصادية ، والسياسية ـ تبعًا لما دعاهم إليه من توحيد الله ـ وكان قومه يستغربون أن يردهم فى أمر هذه التشريعات إلى الله ، وأن يربط بين هذا وبين الإيمان بالله وحده والصلاة . فكانوا يقولون مثلما يقول اليوم ناس ـ وبعضهم يزعمون أنهم مسلمون ، ويحملون أسماء المسلمين ، وقد يذهبون إلى المساجد فيصلون ! ـ: ما للدين ونظام المجتمع ، وماله والتشريع لحياة الناس الاجتماعية والاقتصادية ؟ وما إدخال الدين فى التشريع والسياسة والحياة الدنيا وهو مختص بالاعتقاد والعبادة والدار الآخرة ؟ وإذا سمحوا للدين بالوجود فإنهم يسمحون له عقيدة تستكن فى الضمير ، وعبادة تؤدى بالشعائر . . وهذه وذاك هما نصيب الله فى الحياة عندهم ، وحدود اختصاصه كما يحددونها له ـ سبحانه ـ ثم يزعمون أنهم مسلمون !! وما هم بالمسلمين .

« وإلى مدين أخاهم شعيبًا : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . ولا تنقصوا المكيال

والميزان . إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى آموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! » .

(هود : ٨٤ـ٨٧)

● والأمر ظاهر فى موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من مَلِك قومه ، كما تلهم النصوص القرآنية :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ـ أن اتاه الله الملك ـ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت . قال : أنا أحيى وأميت ! قال إبراهيم : فأن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبُهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين [1] » . . .

(البقرة : ٢٥٨)

وظاهر أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يقول للملك : إن السلطان فى حياة الناس كله لله وأنه لا يتعرف بالسلطان إلا الله . وأن الملك كان يحاجه فى هذا فيقول له : إننى أنا الملك فى هذه الأرض ، فالسلطان على أهلها لى . والربوبية ـ بمعنى القوامة والحاكمية ـ هى من شأنى فى هذه المملكة وحدى ، ومن خصائصى ، بما أننى الملك . . وأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يقول له : إن الرب الذى له حق القوامة والحاكمية على الناس هو الذى يحيى ويميت ـ أى الذى ينشىء الحياة لهم ويتوفاهم ـ وأن الملك كان يقول له : وهذه الصفة متوافرة لى . فأنا أملك أن أحكم بالحياة لمن أشاء وأحكم بالموت على من أشاء ، فيطاع أمرى وينفذ حكمى ! وكان الملك يقصد الإشارةإلى السلطة التى فى يديه ، ويظن أن له أن يستخدمها كيف يشاء ـ بدون الرجوع فى هذه الأحكام إلى الله ـ عندئذ عمد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى محاولة تبصيره بأن الذى يملك أن يحكم على الناس بالحياة أو بالموت ، هو الذى يملك السلطان الأعظم فى نظام الكون ، فهو صاحب الحق الشرعى فى حياة الناس ، أما إذا زاول هو ـ الملك ـ هذا السلطان فى حياة الناس بالإماتة والاستبقاء بينما هو لا يملك السلطان فى نظام الكون ، فإنه يكون متجاوزًا لاختصاصه كعبد ، معتديًا على اختصاص الله : « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من

---

(١) أى المشركين كما يغلب التعبير عن الشرك بالظلم فى القرآن الكريم .

المغرب » . . « فبهت الذى كفر » . . بهت لأنه لا يملك أن يدعى أنه صاحب السلطان فى نظام الكون ، ولا يملك أن يرد برهان إبراهيم من أن الذى يملك السلطان فى نظام الكون هو وحده صاحب الحق الشرعى فى الحكم على الناس : فى شأن الحياة والموت ، وفى غيره من الشئون . وأنه لا يجوز أن يدعى الحاكمية فى حياة الناس إلا من يملك تصريف الكون كله بقدرته ؛ لأن حياة الناس متوقفة على التصريفات الكونية فى جملتها وتفصيلها (وهذا باب من القول سيجىء فى الفقرة التالية فى هذا الفصل) . . والمهم هنا هو ما نستهدفه فى هذه الفقرة من أن الصراع كان حول تقرير حاكمية الله وحده وسلطانه فى الأرض . فى كل رسالة من الرسالات . .

● كذلك كان الحال بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون المتجبر المعتدى على خصائص الله ـ سبحانه ـ وفى هذه القصة نؤثر أن ننقل ـ باختصار قليل ـ ما كتبه عنها المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى (أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان) ، فى كتابه القيم : «المصطلحات الأربعة فى القرآن » فهو أوفى ما يكون ، وأدق ما يكون . . قال ، بعد أن بين بيانًا قاطعًا من نصوص القرآن الكريم ومن أدلة التاريخ أن فرعون لم تكن له دعوى فى أنه إله بمعنى أنه فاطر هذا الكون ، المتحكم فى نواميسه ونظامه . وأنه فى الوقت ذاته ما كان هو وقومه يجحدون الله البتة . فقد كانت ديانة يوسف ـ عليه السلام ـ قد عرفت فى مصر ، وبقيت آثارها ، وبها نطق الرجل المؤمن من آل فرعون فى خطبته الدفاعية عن موسى فى وجه فرعون وملئه :

« وبعد ما قد تبين لنا من هذه الحقيقة ، من السهل علينا أن نبحث : ماذا كان مثار النزاع بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون ؟ وماذا كانت حقيقة ضلاله وضلال قومه ؟ وبأى معانى كلمة « الرب » كان فرعون يدعى لنفسه الألوهية والربوبية ، فتعال نتأمل لهذا الغرض ما يأتى من الآيات بالتدريج :

« إن الذين كانوا يلحون من ملأ فرعون على حسم دعوة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستئصالها من أرض مصر ، يخاطبون فرعون لبعض المناسبات ، ويسألونه :

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك » .

(الأعراف : ١٢٧)

وبخلاف ذلك يناديهم الذى كان قد آمن بموسى عليه السلام :

« تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم »

(غافر : ٤٢)

« فإذا نظرنا فى هاتين الآيتين ، وأضفنا إليهما ما قد زودنا به التاريخ وآثار الأمم القديمة أخيرًا من معلومات عن أهل مصر زمن فرعون ، يتجلى لنا أن كلا من فرعون وآله كانوا يشركون بالله تعالى فى المعنى الأول والثانى لكلمة الرب [1] ، ويجعلون معه شركاء من الأصنام ويعبدونها . والظاهر أن فرعون لو كان يدعى لنفسه الربوبية فيما فوق العالم الطبيعى ، أى لو كان يدعى أنه هو الغالب المتصرف فى نظام الأسباب فى هذا العالم ، وأنه لا إله ولا رب غيره فى السموات والأرض ، لم يعبد الآلهة الأخرى أبدًا .

« أمَّا كلمات فرعون هذه التى وردت فى القرآن :

« يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » . . .

(القصص : ٣٨)

« لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » . . .

(الشعراء : ٢٩)

فليس المراد بذلك أن فرعون كان ينفى ما سواه من الآلهة . وإنما كان غرضه الحقيقى من ذلك رد دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وإبطالها . ولما كان موسى ـ عليه السلام ـ يدعو إلى إله لا تنحصر ربوبيته فى دائرة ما فوق الطبيعة فحسب ، بل هو كذلك مالك الأمر والنهى ، وذو القوة والسلطة القاهرة بالمعانى السياسية والمدنية ، قال فرعون لقومه : يا قوم لا أعلم لكم مثل ذلك الإله غيرى ، وتهدد موسى ـ عليه السلام ـ أنه إن اتخذ من دونه إلها ليلقينه فى السجن .

« . . . ولم تكن دعوى فرعون الأصلية : الألوهية الغالبة المتصرفة فى نظام السنن الطبيعية ، بل الألوهية السياسية . فكان يزعم أنه الرب الأعلى لأرض مصر ومن فيها بالمعنى الثالث والرابع والخامس لكلمة الرب [2] » ويقول : إنى أنا مالك القطر المصرى وما فيه من الغنى والثروة ، وأنا الحقيقى بالحاكمية المطلقة فيه ، وشخصيتى المركزية هى الأساس لمدنية مصر واجتماعها ، وإذن لا يجرين فيها إلا شريعتى وقانونى . وكان أساس دعوى فرعون بعبارة القرآن :

---

(١) الأول بمعنى التربية والإنشاء والإنماء . والثانى بمعنى الجمع والحشد والتهيئة . . كما بين المؤلف فى كتابه عند الحديث عن مصطلح (الرب) فى القرآن .

(٢) الثالث : التعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة . . والرابع العلاء والسيادة والرياسة وتنفيذ الأمر والتصرف الخامس : التملك . . كما بين المؤلف فى كتابه فى شرح معانى كلمة « الرب » فى اللغة وفى القرآن .

« ونادى فرعون فى قومه ، قال : يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ » .

(الزخرف : ٥١)

« وهذا الأساس نفسه هو الذى كانت تقوم عليه دعوى نمرود الربوبية :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك » .

(البقرة : ٢٥٨)

« وهو كذلك الأساس الذى رفع عليه فرعون المعاصر ليوسف ـ عليه السلام ـ بنيان ربوبيته على أهل مملكته .

« أما دعوة موسى ـ عليه السلام ـ التى كانت سبب النزاع بينه وبين فرعون وآله ، فهى فى الحقيقة أنه لا إله ولا رب بجميع معانى كلمة (الرب) إلا الله رب العالمين . وهو وحده الإله والرب فيما فوق العالم الطبيعى ، كما هو الإله والرب بالمعانى السياسية والاجتماعية . لأجل ذلك يجب ألا نخلص العبادة إلاّ له ، ولا تختص الإطاعة والعبدية إلاّ به ، ولا يتبع فى شئون الحياة المختلفة إلا شرعه وقانونه . ثم إنه ـ أى موسى عليه السلام ـ قد بعثه الله تعالى بالآيات البينات ، وسينزل الله تعالى أمره ونهيه لعباده بما يوحى إليه . لذلك يجب أن تكون أزمَّة أمور عباده بيده ، لا بيد فرعون . ومن هنا كان فرعون ورؤساء حكومته يعلون أصواتهم المرة بعد المرة ، بأن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ قد جاءا يسلبانا أرض مصر، وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية ، ليستبدلا بها ما يشاءان من النظم والقواعد :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه . فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد » . . .

(هود : ٩٦ ـ ٩٧)

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم . أن أدُّوا إلىّ عبادَ الله ، إنى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله ، إنى آتيكم بسلطان مبين » . . .

(الدخان : ١٧ ـ ١٩)

« إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلاً » . . .

(المزمل : ١٥ ـ ١٦)

« قال : فمن ربكما يا موسى : قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» . . .

(طه : ٤٩ ـ ٥٠)

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » . . .

(الشعراء : ٢٣ ـ ٢٩)

« قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟» . . .

(طه : ٥٧)

« وقال فرعون : ذرونى أقتلْ موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد » .

(غافر : ٢٦)

« قالوا : إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى » . . .

(طه : ٦٣)

« وبإنعام النظر فى هذه الآيات بالتدريج الذى قد سردناها به ، يتجلى أن الضلال الذى تعاقبت فيه الأمم المختلفة من أقدم العصور ، كان هو عينه قد غشت وادى النيل ظلماته ، وأن الدعوة التى قام بها جميع الأنبياء منذ الأزل ، كانت هى نفسها يدعو بها موسى وهارون عليهما السلام »[1] . . .

فأما فى اليهودية والنصرانية فقد ذكر القرآن الكريم فى معرض انحرافهم عن التوحيد ، وعودتهم إلى الشرك ، أن هذا الانحراف يتمثل فى أمرين : الأول اعتقاد اليهود أن عزيز ابن الله ، واعتقاد النصارى أن المسيح ابن الله ، واتخاذه ربا بمعنى تأليهه . والثانى اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا ـ أى بمعنى قبولهم التشريع منهم على ما فسر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معنى « العبادة » فى الآيات التالية :

---

(١) مقتطفات من ص ٦٦ ـ ص ٧٥ من طبعة المطبعة الهاشمية نشر وتوزيع مكتبة دار الفتح بدمشق تعريب الأستاذ محمد كاظم سباق وتقديم الأستاذ محمد عاصم الحداد .

« وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم . يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ـ والمسيح ابن مريم ـ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . . .

(التوبة : ٣٠ـ٣٢)

فجعل الله قولهم : إن عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله ، مساويا لقبولهم الشرائع من الأحبار والرهبان كلاهما شرك بالله ، وخروج عن توحيده . لأن الأولى شرك فى الاعتقاد والثانية شرك فى الحاكمية . وهذه كتلك شرك بالله سواء . وسنفصل القول فى هذه الآيات ونظائرها فى الفقرة التالية فى هذا الفصل . فحسبنا هذا فى استعراض قضية الحاكمية فى العقيدة الربانية فى جميع الرسالات . فأما المعركة حول هذه القضية الكبرى والأساسية فى العقيدة فى الإسلام . . فموعدنا بها الآن . .

* * *

لقد كان تجريد الشركاء ـ على اختلافهم ـ من كل سلطان فى نظام الكون ، وكل تأثير فى حياة الناس ، ورد الفعل كله إلى الله وحده ، وإعلان عبودية كل شىء وكل حى فى هذا الوجود لله وحده بلا شريك ـ كما هو الأمر فى الواقع ـ وسخافة كل تصور يقوم على أساس أن لشىء ، أو لحىّ شفاعة عند الله لا ترد . . إلى آخر ما تولى القرآن تفنيده ودحضه من الأوهام والأساطير والخرافات فى كل عقائد الجاهلية ، بما فيها عقائد أهل الكتاب المنحرفة وعقائد الأمم الضالة فى الجاهليات كلها ، على عهود الرسالات جميعًا ، وعلى عهد الإسلام أيضًا . . لقد كان هذا كله . هو المقدمة ، أو القاعدة ، التى أقام عليها الإسلام تجريد « الشركاء » ـ بما فى ذلك الشركاء من البشر من الحكام والكهان ـ من حق القوامة والحاكمية والسلطان فى شئون الحياة الدنيا ، وفى تنظيم حياة البشر جملة وتفصيلاً ، ورد الحق لله وحده بلا شريك ولا منازع ، بما أنه هو الخالق . الرازق . المالك . الكافل . المهيمن . الفعال لما يريد . فى نظام الكون وفى حياة الناس على السواء ، بلا معقب ولا شريك .

ومع أن فيما أوردناه من قبل النصوص القرآنية الكفاية لبيان المنهج القرآنى فى تناول هذه

القضية ولتقرير وجه الحق فيها ، فإننا نؤثر أن نضيف إليها بعض النصوص ، وبعض التفصيل :

إن تدبير معاش جماعة من البشر ، بل معاش فرد واحد ، بل جانب واحد من حياة فرد واحد ، كالطعام والشراب والكساء ـ فضلاً على الخلق والإنشاء ـ هو أمر هائل جدًا . . أمر يقتضى تحريك قوى وطاقات وأجرام ، وعوامل كونية متشابكة ، لا قبل لواحد من البشر ـ بل لا قبل للبشر جميعًا ـ بتحريكها ، فضلاً على خلقها وإنشائها . ولا قبل للعبيد أجمعين ـ لا البشر وحدهم ـ بمحاولة شيء من ذلك . . ولا يقدر على تحريكها وتنسيقها ـ فضلاً على خلقها وإنشائها ـ بحيث ينشأ من تلك الحركة المتناسقة تدبير أمر طعام ،أو شراب ، أو كساء لمجموعة من البشر ، بل لفرد واحد من البشر ، بل لحى واحد من الأحياء الدنيا فى هذه الأرض ! إلا الله القادر القاهر ، خالق هذه القوى والطاقات ، والأجرام والأفلاك ، الذى تدين له بالعبودية ، وتخضع لنواميسه ، وتتحرك بإرادته وتعمل بقدره . .

إنها تتطلب خلق هذا الكون بطبيعته هذه ، وبموافقاته التى لا تحصى ، والتى تسمح ـ بتجمعها على هذا النحو ـ بنشأة الحياة ونموها ـ على النحو الذى نمت دون سواه ـ وتتطلب تحريك الشمس والقمر والأرض والرياح ، ومئات العوامل الأخرى ، وفق خطة معينة ، تتوافر فيها آلاف الموافقات ، التى يستحيل أن تنشئها المصادفات ـ إذ أن للمصادفة كما يسمونها قانونًا كذلك لا يسمح قطعًا بأن تتجمع هذه الموافقات كلها تلقائيًا ـ وليست هنالك مصادفات فى الواقع ولا فى التصور الإسلامى . إنما هو « القدر » المرسوم ، والتدبير المعلوم ، سواء عرفه البشر ،أم لم يعرفوه .

فإن نحن تجاوزنا هذه الأرزاق الأولية الضرورية لحياة الإنسان فى أبسط مظاهرها الأولية، ونظرنا فى سائر مقومات حياته من زواج ونسل ، ونوم وصحو ، وملكات وطاقات، وقوى واستعدادات ، يواجه بها هذا الكون ، ويتعامل معه ، ويسخر قواه وطاقاته ومدخراته وأقواته لمصلحته ، وللنهوض بوظيفة الخلافة فى هذا الملك العريض ، والتعامل مع شتى العوالم ، ثم التعامل مع الله ـ سبحانه ـ خالق هذه العوالم . . اتضح ألا سبيل إلى شيء من هذا كله ، إلا بقدر الله وإرادته وتدبيره ، وإلا بعلمه وحكمته ، وإلا بفضله ورحمته .

والقرآن الكريم يواجه الكينونة البشرية بهذه الحقائق ، ويوجه إليها بصيرة الإنسان

وبصره ، وشعوره وفكره ، على النحو الفريد الذى يتميز به الأسلوب القرآنى الفريد . .
فلنصمت نحن ولندع القرآن يقول :

● « أمّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة . ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أم من جعل الأرض قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدىْ رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله[1]. وما يشعرون أيان يبعثون » .

(النمل : ٦٠ ـ ٦٥)

● « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ؟ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لايات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكنانًا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون » . .

(النحل : ٧٨ ـ ٨٣)

● « ألم نجعل الأرض مهادًا ؟ والجبال أوتادًا ؟ وخلقناكم أزواجًا ؟ وجعلنا نومكم سباتًا ؟ وجعلنا الليل لباسًا ؟ وجعلنا النهار معاشًا؟ وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا ؟ وجعلنا

---

(١) يلاحظ أن كثيرا من هذه العوامل والظواهر ترجع إلى الغيب الذى لا يعلم أحد كيف تتم فيه هذه الأحداث ، فخلق السموات والأرض غيب لا يعلم أحد كيف تم . وبدء الخلق غيب لا يعلم أحد كيف كان . وكل ما يقال عنه فروض تقوم عليها نظريات هى مجرد ظنون ، وتعارضها نظريات هى مجرد ظنون . . وكذلك بقية علامات الاستفهام .

سراجًا وهاجًا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجًا ؟ لنخرج به حبًا ونباتا ، وجنات ألفافًا؟». .

(النبأ : ٦ـ١٦)

● « قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمّن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . قل : أفلا تتقون؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟فأنّى تصرفون ؟ » .

(يونس : ٣١ـ٣٢)

● « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ » .

(فاطر : ٣)

ثم إن الله ـ سبحانه ـ كما أنه هو وحده المسيطر على نظام الكون ، الخالق الأسباب والعوامل ، المانح الأرزاق والمواهب ، فهو وحده القاهر فوق عباده ، المتصرف فى أمرهم كله ـ فى عالم الواقع ـ وهم ، أرادوا ، أم لم يريدوا ، آمنوا ، أم كفروا ، خاضعون لسلطان الله المتمثل فى النواميس التى تحكم حياتهم ، وتعمل فى خلاياهم الحية وفى أجهزة تفكيرهم وإرادتهم ، كما أنها تحكم حركات الكون وتصرفاته من حولهم . وهم فى قبضته ـ سبحانه ـ فى كل حال ، وفى كل حين . لا قبل لهم بالفكاك من هذه القبضة ، ولا فى خلجة عين ، ولا فى لمحة ذهن ! ولندع القرآن يتحدث عن هذا كله بأسلوبه الفريد :

● « قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، مَنْ إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون . قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ . . » .

(الأنعام : ٤٦ـ٤٧)

● « قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة ؟ من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل : أرأيتم إ ن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة ؟ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ » . . .

(القصص : ٧١ـ٧٢)

● « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم

بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» . . . .

(الأعراف : ٩٧ ـ ٩٩)

● « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذاكرانا وإناثًا ، ويجعل من يشاء عقيمًا . إنه عليم قدير » . .

(الشورى : ٤٩ ـ ٥٠)

● « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . . .

(الزمر : ٤٢)

● « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » . .

(الأنفال : ٢٤)

ومن أجل أن تدبير أمر حياة البشر ومعاشهم يقتضى تحريك تلك القوى والطاقات والأجرام والأفلاك ، التى لا يقدر على تحريكها هكذا فى تناسق وتوافق إلا الله ، والتى لا يزعم أحد من البشر ـ حتى فى أركان الإلحاد المطلق ـ أنه يحركها ، أو أن له يدا فى تحريكها ـ فضلاً على خلقها وإنشائها ـ ومن أجل أن حياة البشر بجملتها فى قبضة الله وسلطانه ـ شأنها شأن هذا الكون كله ـ فإنه يكون من التبجح الذى لا يقبله عقل ، أن يأتى واحد من البشر ـ عبد من العبيد ـ فيزعم أن له حق « الحاكمية » على جماعة من الناس . أى حق تصريف حياتهم فى الأرض وفق إرادته هو . فى حين أن حياتهم فى الأرض مرهونة بتلك الظروف والملابسات كلها . . وهذا الذى يدعى هذا الحق ـ وهو حق الله ـ غير قادر على خلق هؤلاء الناس وإنشائهم . ولا على أن يرزقهم الذكور والإناث . ولا على أن يهبهم السمع والبصر والإدراك . ولا على أن يودعهم الطاقات والقوى والاستعدادت التى يتعاملون بها مع هذا الكون ، ولا على أن يردها عليهم إن هى سلبت منهم . كما أنه غير قادر على تسخير قوى الكون وطاقاته وأجرامه وأفلاكه ، ليوفر لهم ضروريات حياتهم ، إلا بالقدر الذى شاءه الله وعرفّه للبشر . . فما ادعاء مدع حق تصريف حياة الناس فى جانب من جوانبها ، وهو لا يملك من أمرهم ولا من أمر الكون كله شيئًا ؟!

إنه التبجح المتوقح . وإنه الاعتداء على اختصاص الله . وإنه ادعاء شأن من شئون الألوهية ـ وهو الربوبية والقوامة والسلطان فى حياة البشر ـ ثم هو الفساد فى الأرض ،

والإفساد لحياة الناس . ثم هو النشاز فى نظام الكون ، والخروج عن قاعدة الإسلام ـ بمعنى الاستسلام ـ لله . أو الخروج عن « دين الله » باعتبار أن الدين هو النظام المتحكم الذى يدين له العباد . . وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم فى مثل هذه الآية ، استنكارًا لأمر من يريدون من الناس أن يتحاكموا لغير شريعة الله :

« أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعًا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ » . .

(آل عمران : ٨٣)

على أساس هذه الحقيقة قرر الإسلام أن السلطان والحاكمية والتشريع ـ ابتداء ـ فى حياة البشر ، لا تكون إلا الله . وأن هذه من خصائص الألوهية التى ينفرد بها الله . وأن من يدعى لنفسه هذه الحقوق ويزاولها فإنما يدعى أولى خصائص الألوهية . وأن من يقره على ادعاء هذه الحقوق ومزاولتها ، ويتحاكم إلى ما يسنه له من شرائع وأنظمة وأوضاع وقيم وموازين ـ بغير سلطان من الله ـ فقد أقره على ادعاء أولى خصائص الألوهية . وأن المدعى والمقر كلاهما لا يشهد أن لا إله إلا الله . لأن الأول لو شهد أن لا إله إلا الله لما ادعى الحق فى أولى خصائص الألوهية ولا زاوله ، ولأن الثانى لو شهد أن لا إله إلا الله ، ما أقر المدعى بالحق فى أولى خصائص الله ولا أقره على مزاولته . فضلاً على أن يتحاكم إلى ما يسنه له من شرائع وأنظمة وأوضاع وقيم وموازين بغير سلطان من الله .

وليس هذا « رأيا » لنا نبديه ، كما أنه ليس « رأيا » لغيرنا من البشر . بل إنه ليس موضعًا للرأى لعالم أو مفسر أو مجتهد من الفقهاء . إنما هو النص الذى لا مجال فيه للتأويل . والحكم المعلوم من الدين بالضرورة ، الذى لا مجال فيه للرأى والاجتهاد فلا رأى مع النص . . ولكننا نحب فقط أن نبين أصل هذا الحكم فى العقيدة الإسلامية والمنهج القرانى . وموضع هذا الحكم فى النصوص التى وردت به :

إن « الألوهية » و « الربوبية » و « العبادة » و « الدين » تذكر فى القران فى معرض «الاعتقاد » وفى معرض « الشعائر » . وفى معرض « الحاكمية » على السواء[1] :

وتوحيد الله . . وبالتعبير الاصطلاحى الفقهى . . شهادة أن لا إله إلا الله ـ وهى

---

(١) يراجع بتوسع دقيق كتاب : « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للسيد أبو الأعلى المودودى ، أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان .

التى يدخل بها الإنسان فى الإسلام ، ويكتسب بها هذه الصفة ، ويعصم بها دمه وماله فى الإسلام - تعنى هذه المعانى والمدلولات كلها مجتمعة ، ولا توجد شرعًا إلا بعد توافر هذه المعانى والمدلولات مجتمعة . . تعنى إفراد الله - سبحانه - بالألوهية . وذلك بالاعتقاد فى ألوهيته وحده . وبالتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده . وبالاعتراف له بحق الحاكمية فى تنظيم الحياة البشرية بشريعة وحده . . وهذه المعانى والمدلولات كل منها كالاخر فى إنشاء شهادة أن لا إله إلا الله ، وجعلها قائمة ابتداء ، تدخل قائلها فى الإسلام ، وتعطيه صفة المسلم ، وتعصم دمه وماله بالإسلام . فلا توجد هذه الشهادة ابتداء ، ولا تعتبر قائمة شرعًا ، إلا حين يشهد الشاهد بهذه المدلولات والمعانى مجتمعة . فإن شهد ببعضها دون بعض ، أو تصور أن شهادة أن لا إله إلا الله تعنى بعضها دون بعض ، فإن شهادة أن لا إله إلا الله الصادرة منه ، لا تعتبر منه ، لا تعتبر قائمة ؛ لأنها لا تقوم أصلاً إلا باجتماع هذه المدلولات وقصدها من القائل فى شهادته ، والإقرار بها ، والتعامل على أساسها . . وحتى المنافقون الذين كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله بألسنتهـم - ويبطنون غير ما يظهرون - كانوا يفهمون جيدًا ويدركون إدراكًا لا شبهة فيه ، أنّ لا إله إلا الله تعنى هذه المدلولات كلها ، وكان الذين يسمعونهم يقولونها من المسلمين يفهمون أنهم يعنون الإقرار بها كلها ، وكانوا يتعاملون مع الجماعة المسلمة وحاكمها - سواء كان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم الخلفاء بعده - على أساس هذه الشهادة ومدلولاتها ، فيتحاكمون إلى شريعة الله وحدها ، ولا يطلبون التحاكم إلى غيرها - وإلا اعتبروا مرتدين لا منافقين ، ولم يسمح لهم بالبقاء فى ذلك المجتمع المسلم إلا أن يتوبوا ويعودوا إلى الإقرار بحاكمية الله وحده ، متمثلاً هذا الإقرار فى التحاكم إلى شريعة الله وحدها - أمّا نيتهم الباطنة فلا شأن للناس بها ، إنما يحاسبهم بها الله . ما دام إقرارهم بشهادة أن لا إله إلا الله يعنى مدلولات هذه الشهادة ، وما دام سلوكهم الواقعى مطابقًا لمدلولات هذه الشهادة . .

وضرورة اجتماع هذه المدلولات لشهادة أن لا إله إلا الله فى وعى من يقر بهذه الشهادة ناشئ من أن الألوهية - التى يشهد الشاهد أن الله متفرد بها ، وأن ليس لغيره شىء من خصائصها - تعنى السلطان على إطلاقه . ولا تخص هذا السلطان بنظام الكون وحده دون حياة البشر . والربوبية تعنى القوامة على إطلاقها كذلك . . وسلطان الله وقوامته على البشر هما مقتضى ألوهيته وربوبيته على الكون كله ، وحياة البشر قطاع من نظام الكون ، وقائم على نظام الكون - كما أسلفنا - فالذى يعترف - أو يشهد - بربوبية الله وقوامته

وسلطانه فى نظام الكون ، ثم يرفضها ـ أو لا يعرف حتميتها ـ فى حياة الناس ، فيعترف بها لغير الله من حاكم أو كاهن ، ويدع هذا الحاكم أو الكاهن يزاول هذا الحق ـ وهو راض متابع ، أو هو غير مدرك أصلاً ـ لا يمكن أن يقال عنه : إنه يشهد أن لا إله إلا الله ، وإنه أدى هذه الشهادة متى قالها بلسانه ، وهو لا يقصد منها مدلولاتها مجتمعة ـ كما لو قال أية عبارة أخرى وهو لا يقصد مدلولها ، أو يقصد بها مدلولا آخر ـ ولا يقال عنه : إنه مسلم لله ـ ومسلم أى مستسلم ـ بينما هو رافض لألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه ، فى مجال من مجالات الوجود . أو لا يعرف أن لله وحده هذه الخصائص . . فكيف إذا كان يدعى لنفسه هذا الحق ويزاوله ؟ ! سواء كان هذا الادعاء وهذه المزاولة ناشئين من رفضه الاعتراف بهذا الحق لله وحده ، أو ناشئين من جهله بأن هذا الحق لله وحده ؟ إن الناس فى الجاهلية التى واجهها الإسلام ـ أول مرة ـ كانوا فريقين أيضًا . . فريقًا يعرف أن هذا الحق لله وحده ، ولكنه يرفضه ، لأنه لا يريد أن يتخلى عن سلطانه ومركزه ومنافعه . وفريقا يجهل أن هذا الحق لا ينبغى أن يكون إلا لله . . وكلاهما لم يعتبره الإسلام مسلما . . وقد بين القرآن لهؤلاء وهؤلاء ما هو الحق فى هذه القضية وردهم إلى اصطلاحات لغتهم التى يتكلمون بها كما ردهم إلى اصطلاحه الشرعى . . فكلاهما كان يعلم من اصطلاح لغته التى نزل بها القرآن ما مدلولات كلمة (إله) فمن شهد منهم أن لا إله إلا الله ، شهدها وهو يعلم تمام كامل مدلولها ، وجعّل يتعامل مع الجماعة المسلمة وقائدها ، ، ويتعامل مع معسكر المشركين الآخر ، على أساس هذا المدلول الواضح . ومن رفضها منهم رفضها كذلك وهو يعلم ماذا يرفض منها . وما كان يرفض منها ـ فى الحقيقة ـ إلا رد الربوبية والقوامة والسلطان والتشريع والحكم فى حياة الناس إلى الله وحده ، وكف كل البشر عن ادعاء هذا الحق ومزاولته !

والاصطلاح اللغوى ، والاصطلاح الشرعى ، كلاهما متفقان فى استعمال كلمات : « الرب » و « العبادة » و « الدين » فى مواضع « الاعتقاد بالألوهية » . و« التوجه بالشعائر » . و « الإقرار بالحاكمية » على السواء . كما توضح النماذج القرآنية :

● فيوسف ـ عليه السلام ـ يقول للساقى :

« ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . إن ربى بكيدهن عليم » .
(يوسف : ٥٠)

فيعنى بكلمة رب الأولى : الحاكم الذى يعبّد الناس لشرعه ونظامه وحاكميته

وسلطانه . . ويعنى بكلمة رب الثانية إلهه هو الذى يدين له بالاعتقاد ، ويتوجه إليه بالعبادة ، ويعترف له وحده بالحاكمية .

● ويحكى القرآن عن فرعون وملئه ، وهم يرفضون الاستجابة لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ :

« فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون» .

(المؤمنون : ٤٧)

وهم يعنون أنهم خاضعون لنظام حكمنا ، وشرائع مجتمعنا ، لا أنهم يدينون لنا بالألوهية ، ويتقدمون إلينا بالشعائر . . ولا مجال للشك فيما كانوا يعنونه بكلمة «عابدون» بسبب ادعاء فرعون للألوهية . فقد سبق بيان معنى الألوهية التى كان يدعيها فرعون وهى الحاكمية المطلقة فى هذا القطر وفى حياة سكانه ، فضلاً على أنه إذا كان فرعون قد ادعى الألوهية ـ على أى معنى ـ فإن الملأ من قومه ـ وهم الكبراء والحكماء ـ ما كانوا يدّعونها قطعًا، وإلا قطع فرعون رقابهم لمشاركته فى الحاكمية ! ـ وما كان بنو إسرائيل يعبدونهم بهذا المعنى !

ويأمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن عبادته له وحده :

« قل : الله أعبد مخلصًا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه» . . .

(الزمر : ١٤ ـ ١٥)

بمعنى الاعتقاد بألوهيته وحده ، والتوجه بالشعائر له وحده ، والدينونة بالحاكمية له وحده . .

كذلك يرد استعمال كلمة « الدين » فى معنى الاعتقاد بألوهية الله ـ سبحانه ـ وعبادته والخضوع لحاكميته وبشرعه ونظامه كما هو فى النص السابق ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويرد فى موضع آخر بمعنى نظام الحكم وشريعته إطلاقًا ، سواء كانت من عند الله من عند المتألهة من عباد الله ، وذلك كقول الله ـ سبحانه ـ :

« كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » . .

(يوسف : ٧٦)

يعنى . . كذلك دبرنا الأمر ليوسف فى مسألة احتجاز أخيه . فلو أنه حكّم شريعة الملك ونظامه ما قضى له بأخذ أخيه فى مقابل صواع الملك الذى وجد فى رحله ـ وهو

كأسه ـ إنما أخذه بدين قومه العبرانيين ـ أى شريعتهم ونظامهم ـ الذى كان يقضى بأخذ من توجد عنده سريقة رقيقًا فيما سرقه !

وهكذا يتبين أن الاعتراف بالربوبية لله وحده . والعبادة لله وحده . والدينونة له وحده . تعنى فى مجموعها إفراده بالألوهية ، أو تعنى بالمدلول الاصطلاحى : شهادة أن لا إله إلا الله . وأن الاعتقاد بألوهيته وربوبيته هى كالتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية ، كالاعتراف بحاكميته وحده والتحاكم إلى شريعته وحدها . . . كلها سواء فى تكوين مدلول : أن لا إله إلا الله . وأن الذى يعترف بحاكمية غير الله وشرعه ونظامه إنما يعترف لهذا الغير بالربوبية ، وبالعبادة وبالدين . فلا يقال حينئذ : إنه يشهد أن لا إله إلا الله . ومن باب أولى أن الذى يدعى ويزاول الحاكمية والتشريع والتنظيم ـ بغير سلطان من الله ـ لا يجوز أن يقال عنه : إنه يشهد أن لا إله إلا الله !

وهذا هو الأصل العام ـ المعلوم من الدين بالضرورة ـ الذى يقوم عليه الحكم بكفر من لا يفرد الله سبحانه بخصائص الألوهية كلها مجتمعة ـ لا ببعضها دون بعض ـ وهى : الاعتقاد القلبى بألوهية الله وحده . والتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده . والدينونة له بالحاكمية وحده ممثلة فى التحاكم إلى شريعته وحدها . .

ولكن الله ـ سبحانه ـ لا يدع هذا الحكم ـ المعروف من الدين بالضرورة ـ إلى وضوح هذا الأصل وحده . فقد يمارى فيه بعض الناس ! فهو ينص على هذا الحكم نصًا . . المماحكة فيه وفى تطبيقه على أى مجموعة من الناس فى الحالات التى ينطبق فيها ، لا تمثل إلا عدم الجد فى أخذ كلام الله ـ سبحانه ـ مأخذ الجد ـ . . . وهذا أخف ما يقال فى مثل هذه المماحكات !

إن الله ـ سبحانه ـ يسوى ـ بمنطوق النص القطعى لا بالمفهوم الضمنى الواضح وحده ـ فى الكفر ، بين من يدعى حق الحاكمية ويزاوله . ومن يقبل منه هذا الادعاء ويتحاكم إلى ما يشرعه له ـ بغير سلطان من الله ـ ومن يزعم أن لله شركاء ويعتقد ذلك ، ومن يتوجه لغير الله بالشعائر . .

وهنا يحسن أن نسير مع النصوص القرآنية سواء ما يدل مفهومها على حكم الله فى هذا الأمر ، ونظرة هذا الدين إلى هذه القضية ، أو ما ينص نصًا قاطعًا على الحكم ، فى تعبير لا مجال للمماحكة فيه . . واستعرض هذه النصوص وتلك ضرورى ، لا لبيان القول

الفصل فى هذا الأمر وحده ولكن كذلك لعقد الألفة بين قارئ هذا البحث والمنهج القرآنى فى العرض ، والأسلوب القرآنى فى البيان . وهو فى ذاته هدف كبير . .

وما توفيقى إلا بالله .

* * *

● لنتأمل سياق هذه الآيات الكريمة ، وتتابعها فى عرض قضية الوحى والرسالة وقضية الشرع والدين ، وعلاقتها بقضية الألوهية والخلق والسلطان فى نظام الكون وتوزيع الأرزاق، والإماتة والإحياء ، وقضية الإيمان والشرك فى الحياة ، وقضية الاعتقاد بالآخرة والحساب والجزاء ، وقضية الرسالات والنبوات وعلاقتها بتنظيم حياة البشر ، وإدخالهم فى دين الله ونظامه ومنهجه ، وهى كلها مرتبطة فى السياق القرآنى الواحد كل الارتباط :

« . . كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العلىّ العظيم . تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل . وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًا ، لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير . وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب . فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم . شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد جاءهم العلم ـ بغيا بينهم ـ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ،

لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون فى الله ـ من بعد ما استجيب له ـ حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعلّ الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ، وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ له فى حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب . أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . . .

(الشورى : ٣ـ٢١)

هذا السياق بطوله من سورة مكية . والقرآن المكى موضوعه العقيدة ـ أو فقه الأصول ـ ولم يتعرض لأحكام الفروع لأن « دار الإسلام » التى تنفذ فيها شريعة الله لم تكن قامت بعد . ودار الإسلام لا تقوم إلا حيث تقوم الدولة المسلمة التى تحكم بشريعة الله وحدها ، ويكون للإمام فيها السلطان ـ بحكم الله ـ على الناس ، فيحكم فيهم بما أنزل الله . وتكون هذه الأرض التى يحكمها الإمام بشريعة الله هى دار الإسلام . وهذا ما لم يكن قائماً فى مكة ، فكانت هناك « الجماعة المسلمة » ولم تكن هناك لا الدولة المسلمة ولا دار الإسلام ، التى تحتاج فى حكمها إلى الأحكام الشرعية الفرعية التى تنظم الحكم والمعاملات، كما تنظم الشعائر والعبادات سواء . والمنهج الإسلامى ـ وهو منهج حركى واقعى ـ لم يكن ليجىء بأحكام الفروع فى الفترة المكية ، حيث لا مجال لتطبيقها ، ولم يكن ليشغل بها اهتمام الجماعة المسلمة ، لمجرد المعرفة والحفظ والاشتغال بتنمية فقه الفروع ، لتكون على استعداد بهذه الفروع حينما تواجهها مشكلات التنظيم والحكم فى المدينة ! فهذا ليس منهج الإسلام فى مواجهة الأحوال البشرية . إنما كان يشغل « الجماعة المسلمة » بأمر العقيدة التى هى الأساس لكل الأنظمة والتشريعات ـ فى الفترة التى ليس فيها « دار إسلام » ولا « دولة مسلمة » . . حتى إذا انتقل المسلمون إلى المدينة ، وقامت الدولة المسلمة ، ووجدت دار الإسلام الخاضعة لسلطان الإمام ، المسلمة بتحكيم شريعة الله فى كل شئون الحياة ، تنزلت الأحكام الشرعية ، فى أوانها المناسب ، وبالقدر الذى تتطلبه حركة هذا المجتمع المسلم فى حياته الواقعية ، ولم يتنزل حكم إلا لمواجهة حالة قائمة ، أو

لإنشاء حالة يراد إنشاؤها بهذا الحكم . . وهذا هو منهج الإسلام فى تنمية فقه الفروع . . وهو المنهج اللائق بجدية الإسلام وواقعيته وحركيته وإيجابيته ، وكونه دينا جاء لتنظيم حياة البشر ، لا ليكون جملة من العقائد ، أو جملة من الأفكار ، أو جملة من الأحكام الفقهية المودعة فى كتاب !

ونعود من هذا الاستطراد لنقول : إن هذه السورة المكية إنما تتعرض لقاعدة الحاكمية وحق التشريع للبشر من ناحية أنها أصل من أصول العقيدة ، التى هى موضوع السورة ، والتى هى موضوع القرآن المكى كله ، وهى تتعرض لقاعدة الحاكمية فى معرض الحديث عن أصول العقيدة الأخرى . . الوحى وأنه من عند الله . والتوحيد وأنه نفى الشركاء والأولياء . والقيامة والحساب والجزاء . والاعتقاد بأن الله هو الخالق وهو المالك . وأن ليس كمثله شىء . وأن له مقاليد السموات والأرض . وأنه الرازق الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأنه بكل شىء عليم . . إلى آخر مباحث « العقيدة » المحضة . وعلى أساس أن الحاكمية والتشريع للناس هى من هذه الأصول الاعتقادية ، ومثلها فى الاعتبار، تجىء مرتبطة فى السياق بهذه القضايا كلها على النحو الذى جاءت به فى السياق . . . فلنحاول أن نسير مع خطوات السياق القرآنى وانتقالاته . إذ نحن نملك بأسلوبنا البشرى، فى وصف هذا الأمر وتجسيمه ، أن نبلغ شيئًا مما يبلغه القرآن .

وحين نسير مع السياق القرآنى الفريد نجده يبدأ بقضية الوحى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقرر أنه جاء على سنة الله ـ سبحانه ـ فى الوحى للرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ بحكم ما له من قوة وما له من حكمة : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .

ثم يقرر ملكية الله سبحانه لما فى السموات والأرض ، وعبودية السموات والملائكة له ، وإشفاق السموات من الشرك الذى يجترحه بعض الناس فى الأرض ، حتى لتكاد تنشق من أعلاها ، وإشفاق الملائكة كذلك ، ومبادرتهم بالتسبيح لله والاستغفار لمن فى الأرض: « له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم . تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . .

ثم يقرر أن هؤلاء المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياءهم فى قبضة الله وسلطانه . وهو حفيظ عليهم ـ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ برىء من تبعة شركهم ، وليس مسئولاً

عنهم : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » .

ويبين وظيفة الرسول ـ الناشئة عن الوحى بالقرآن إليه ـ فهى الإنذار ، والتخويف من يوم القيامة ، وبيان مصائر المؤمنين والمكذبين . وقد كان الله سبحانه قادرًا على أن يقهرهم قهرًا على الهدى ، فهم فى قبضته وسلطانه آمنوا أم كفروا . ولكن قدّر أن يتركهم لاستعدادهم المزدوج للهدى والضلال ، ولجهدهم فى حمل أنفسهم على الهدى بعد البيان والإنذار . وليس للمشركين من عاصم يعصمهم من الله من هذه الأولياء التى يتخذونها ، فالله هو الذى يحيى ويميت وهو وحده الولى وهو على كل شىء قدير : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًا ، لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون[1] ما لهم من ولى ولا نصير . أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير » .

وعندما يبلغ إلى هذا الحد من تقرير حقيقة الوحى ، ووظيفة الرسول ، وحقيقة سلطان الله وقدرته ، وحقيقة عجز الشركاء والأولياء ، وتقرير أن الولاية لله وحده ، والقدرة على الإحياء ، وعلى كل شىء بالإطلاق . . عندئذ يقرر وحدة الحاكمية لله إذن فى حياة البشر . ورد كل ما يختلفون فيه من شئون حياتهم لله . ويقرر مع هذه جنبا إلى جنب ، فى آية واحدة ، وحدة « الربوبية » لله سبحانه . . ذلك أن « الرب » هو الذى يحكم ، وهو الذى يرجع إليه عند الاختلاف ، وعليه يكون التوكل ، وإليه تكون الإنابة : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى ، عليه توكلت وإليه أنيب » . .

ويعقب على تقرير الحاكمية لله وحده فى حياة البشر بأن الله هو فاطر السموات والأرض ، وأنه هو خالق الأزواج من الناس ومن الأنعام . تدل صنعته الواحدة فى الخلق على أنه الواحد ، وأنه هو ـ سبحانه ـ فرد لا مثيل له ، وأنه هو صاحب السلطان المطلق فى السموات والأرض ، وأنه هو المتصرف فى أرزاق العباد ، وأنه بكل شىء عليم . . ومن هنا فإن الحاكمية فى حياة العباد . فما يجوز فى حياة الناس إلا من يكون له هذا السلطان فى الكون كله ، ومن هو خالق ومالك ورازق للعباد : « فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجًا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » .

---

(١) الظالمون هنا المعنىّ بهم « المشركون » حسب الغالب فى تعبير القرآن الكريم .

وبما أن هذا شأنه ـ سبحانه ـ فإنه بهذا السلطان شرع للعباد من نظام من لدن نوح ـ عليه السلام ـ وجعل شرعه وهو دينه وهو منهج الحياة الذى يرتضيه ـ واحدًا فى أساسه ، قائمًا على توحيده ، ووصى به الرسول كافة ، وجعل هذا المنهج هو منهج حياة الأمة المسلمة فى آخر الزمان : أن يقيموا ما شرع الله . أى أن يجعلوا له وجودًا قائمًا فى الحياة ، لا أن يكون مجرَّد اعتقاد فى الضمير ، أو شعائر للعبادة ، وإنما يكون قائمًا ذا وجود واقعى .

وهذا هو ما يأباه المشركون ، ويستكبرونه ، وهذا ما تفرق عليه الدين أوتوا الكتاب . فلم يجتمعوا على شىء ولم يعودوا منه على يقين : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبرُ على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » .

وعندئذ . . وقد تقرر أن دين الله واحد ، يقوم على توحيده ـ سبحانه ـ وعلى أساس إقامة شرعه فى الأرض ومنهجه ـ وقد تبين كذلك أن المشركين يستكبرون هذا الأمر ويستهولونه . وأن الذين أورثوا الكتاب من بعد الرسل قد تفرقوا ـ من بعد ما جاءهم العلم ـ بسبب البغى بينهم ، وأنهم لم يعودوا على يقين من شىء فى دينهم ، بسبب هذا التفرق والتحزب . . الآن يجىء الأمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو إلى دين الله هذا ، وأن يستقيم عليه كما أمره ربه . ولا يتبع أهواء البشر . فإنه إما شريعة الله وإما أهواء البشر . وأن يأخذ بيده مقاليد الحكم فيتولى العدل بين الجميع فى الأرض كلها ، ولأهل الملل والأديان جميعها . ويعلن ربوبية الله الواحدة للبشر . فقد قامت الحجة ، وافترق الطريق . أما فى الآخرة فالمصير إلى الله الذى يحشر إليه الجميع ، ويجازى الذين لا يزالون يحاجون فى توحيد الله ، واتباع منهجه الواحد للحياة ، بعد ما استجابت له الفطر السليمة : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب . وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، وإليه المصير . والذين يحاجون فى الله ـ من بعد ما استجيب له ـ حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » .

ويجب أن نلاحظ أن السورة مكية ، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يحكم بالفعل إلا فى المدينة ، وأنه لم تكن لديه شريعة ولا أحكام مفصلة يحكم بها وهو فى

مكة . . ولكن هذا النص إنما جاء فى سورة مكية ليبين الأصل الاعتقادى ، وهو حاكمية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكتاب الله ، لمجرد تقرير هذا الأصل الاعتقادى ، بما أن العقيدة ـ بجملتها ـ كانت هى موضوع القرآن المكى ، ولكى لا تبقى العقيدة غير مبينة إذا تأخر تقرير هذا الأصل الخاص بالحاكمية حتى يجىء أوانه فى المدينة . . ولهذا الاعتبار قيمته الخاصة فى بيان أن مسألة الحكم فى الإسلام مسألة عقيدة قبل أن تكون مسألة نظام .

ولم يكن بد أن تكون كذلك ؛ لأن حياة الإنسان فى الأرض هى مناط حسابه وجزائه فى الآخرة . وحياة الإنسان فى دار الدنيا وفى دار الآخرة وحدة متصلة ، فلا مفر من أن يكون مرد الأمر فى الحياة كلها إلى الله ، وأن تكون حياة البشر فى الحياة الدنيا خاضعة لشريعة الله . وذلك إلى جانب ما سبق بيانه من الارتباط العملى بين حياة البشر ونظام الكون كله الذى يدبره الله . مما يحتم أن تكون مسألة الحكم فى حياة الناس مسألة عقيدة قبل أن تكون مسألة نظام ، تبين وتقرر فى مجال بيان العقيدة وتقريرها ، حتى قبل أن يجىء مجال بيان النظام وتقريره .

ثم يعود ليقرر أن وظيفة الكتاب الذى أنزله الله هى أن يحكم ليقر الحق والعدل . فقد أنزله إليه بالحق ؛ ليحق الحق ويقيم العدل فى هذه الحياة الدنيا . كما أن الله سيقيم العدل ويحق الحق فى الحياة الآخرة . ويربط السياق بين هذين المعنيين فى آية واحدة ؛ ليوحى بأن عدل الله واحد يقيمه فى الدنيا بكتابه وشريعته ، ويقيمه فى الآخرة بحكمه وجزائه . ليوحى كذلك بأنه الشأن فى حاكمية الكتاب فى الدنيا ـ من ناحية الاعتقاد ـ هو الشأن فى حاكمية الله فى الحساب فى الآخرة . كلاهما مسألة اعتقاد . ويندد بالذين يستعجلون بالساعة ، بينما المؤمنون مشفقون منها خائفون . فيدل هذا على استهتار الأولين وتقوى الآخرين : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » . .

ومثل هذا المعنى فى بيان وظيفة الكتاب الذى أنزله الله على الرسل المتعاقبين ، وأنه جاء؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه على الإطلاق ، سواء فى أمور الاعتقاد والعبادة، أم فى أمور الحياة والتعامل . وأن أمر الحكم بكتاب الله انتهى إلى هذه الأمة المسلمة ، جاء بعد ذلك فى سورة مدنية . فالتعجيل هنا بتنزيل المبدأ فى سورة مكية له دلالته ، فى أن هذا الأمر من أمور العقيدة لا مجرد النظام الذى نزل تفصيله فى المدينة .

والآية التى نزلت فى سورة البقرة هى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه، من بعد ما جاءتهم البينات ـ بغيًا بينهم ـ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . .

(البقرة : ٢١٣)

ونعود إلى السياق المكى فنجده يتحدث مرة أخرى عن الرزق ، وعن قوة الله ـ سبحانه ـ وعزته . وذلك بمناسبة الحديث عن الساعة وما فيها من جزاء ، هو من رزق الله كذلك ، كما أن الرزق فى الدنيا من عنده ، وليبين أن للآخرة حرثا وزرعا كحرث الدنيا وزرعها ، وأن الذين يريدون حرث الآخرة ويقدمون له فى الدنيا ينالون ثمرته ، فأما الذين لا يريدون الآخرة ، ويضعون همهم كله فى حرث الدنيا وحدها ، فإن الله لا يبخسهم جزاء همهم وجهدهم هذا ، إنما هو يعطيه لهم فى الدنيا ، وهم محرومون من حرث الآخرة ! وكان فى وسعهم ـ لو أرادوا واهتدوا ـ أن يريدوا حرث الآخرة بحرث الدنيا ، فيبتغوا به وجه الله ، ويزاولوا نشاطهم فيه باسم الله وعلى منهج الله ، فتكون لهم به زيادة الجزاء فى الدنيا كالآخرين ، ومضاعفة الجزاء فى الآخرة ، ولا يفوتهم شىء فى الدارين : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ، وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب » .

ويعقب على الحديث عن الرزق فى الدنيا والآخرة بالحديث عن التشريع ومن له حق ولايته . ليقرر أن الذى يملك الرزق لعباده هو الذى يحق له أن يشرع لحياتهم دون غيره . ويستنكر الحيدة عن هذا الأصل ، ويقرر أن الحيدة عنه أمر عظيم لا يؤخر عذاب الله المدمر عمن يزاوله من العباد إلا وعده لهم بأن يؤخر حسابهم إلى يوم الفصل . وأنه شرك وللمشركين عذاب أليم : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم » .

هذا السياق بطوله ، فى السورة المكية ، وبتتابع القضايا الاعتقادية فيه ، وعرض قضية الحاكمية والشريعة فيه بوصفها قضية اعتقادية ، يتعلق بها التوحيد والشرك ، ويناط بها إقامة دين الله أو هدمه ، ويربط بينها وبين وحدانية الله ـ سبحانه ـ فى ذاته وصفاته وخصائصه وسلطانه فى الكون كله . . غنى عن التعليق ؛ لأنه بذاته ناطق بأحكامه لولا أن الناس بعدوا عن القرآن وعن الحياة فى ظلاله ، فلم يكن بد من هذا التعليق . . .

● ونخلص من هذا النموذج إلى نموذج آخر مكى كذلك . ولكنه أكثر دخولاً فى تفصيلات الحاكمية والتشريع ، ذلك أنه يتعلق بتشريعات جاهلية فى شأن القرابين والنذور والتحليل والتحريم فى الزرع والأنعام والأولاد ، والمطاعم والمشارب ، يستنكر القران الكريم أن تصدر عن غير الله ، وبلا سلطان منه ، ذلك أن حق الحاكمية والتشريع لا يكون إلا لله . . وهذه هى القضية الكبرى التى كانت تواجه أهل الجاهلية فى الحقيقة . . فما كانوا ليقفوا هذا الموقف العنيد من رسالة التوحيد ، لو أنها اكتفت منهم بالتوحيد فى الاعتقاد والشعائر ، ولم تسلب الكبراء والحكام والكهان السلطان ، لترد إلى الله وحده ، صاحب الهيمنة والسلطان :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ـ ولو شاء الله مافعلوه ـ فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حِجرٌ ، لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرّمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ! سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله ـ افتراء على الله ـ قد ضلوا وما كانوا مهتدين . وهو الذى أنشأ جناتٍ معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرّم أم الأنثيين ؟ أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . قل : الذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين[1] . قل : لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه ،

---

(١) الظالمين هنا أى « المشركين » .

إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقا أهِلّ لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ ، فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ـ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أوما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة . فلو شاء لهداكم أجمعين . قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون . قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ـ لا نكلف نفسا إلا وسعها ـ وإذا قلتم فاعدلوا ـ ولو كان ذا قربى ـ وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» . . .
(الأنعام : ١٣٦ ـ ١٥٣)

وهذا السياق الطويل ـ من سورة مكية ـ نستعرضه كذلك لرؤية المنهج القرآنى على طبيعته ـ وهو يعرض الحقائق التى يقوم عليها التصور الإسلامى ـ ولما فيه من دلالة كذلك على طبيعة قضية الحاكمية والتشريع فى كل جزيئات الحياة ـ بما فى ذلك المطاعم والمشارب وتقسيم الأموال بين الذكور والإناث فى الأسرة ، وتقاليد النذور والقرابين والذبائح ـ وربط هذا كله بقضية الاعتقاد الأولى . . قضية التوحيد والشرك . . وتقرير أن هذا صراط الله الواحد الذى يؤدى إليه ، وأن ما عداه سبل متفرقة لا تؤدى إليه . . ثم نستعرضه كذلك لما يصوره من أوهام الجاهلية ، وتداخل العقائد والتصورات فيها ، وافتراء المشرعين للجاهلية على الله ، ونسبة ما يشرعونه من عند أنفسهم إليه ـ سبحانه ـ من غير استناد إلى كتابه . فكلما شاءت لهم أهواؤهم أن يشرعوا تقليدًا أو يسنوا قانونًا ، قالوا : إن الله يريد هذا ! كى لا يقال : إنهم يخالفون عن أمر الله ! فيقولون على الله ما لم يقل ولم يشرع ولم يرد!

ويصوغون من عند أنفسهم دينا لم يشرعه الله ، وهم ينسبون ما فيه إلى الله ، الأمر الذى يقع فى كل جاهلية . . بل يقع اليوم . . حيث يشرع لأنفسهم ما يشاءون ثم يقولون: شريعة الله ! والله يردهم فى هذا السياق القرانى إلى الحجة البالغة : أين وجدتم هذا فى كتاب الله ؟ ومن الذى يشهد أن الله نزل هذا الشرع الذى تدعونه ؟ فإنه ليس لإنسان أن يقول إن الله يريد هذا ، وإنه يأمر بهذا وينهى عن هذا ، إلا بنص من كتابه . وإنا لنرى ناسًا اليوم يقرأون فى كتاب الله ـ عز وجل ـ أن الذين يحكمون بغير شريعة الله هم الكافرون، وأن الذين يتحاكمون إلى غير شريعة الله لا يؤمنون . . ثم يقولون . . ولكن الذين يحكمون بغير ما أنزل الله والذين يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله مسلمون ! . . وإنا لنرى ناسا اليوم يقرأون فى كتاب الله تعالى أن الله يعذب بالنار ويثبت بالجنة . فيقولون : وهل معقول أن الله يعذب عباده بالنار ؟ وهل معقول أن يكون فى الجنة ما ذكره الله فى كتابه ؟ لا يا أخى لا ! ثم يزعمون ـ بعد ذلك ـ مسلمون !! وإنا لنرى ناسا اليوم يقرأون فى كتاب الله تعالى عن النساء : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ويسمعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ـ يقول : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر أيام إلا ومعها ذو محرم » . . .

(أخرجه مسلم)

ثم يقولون : إن الله لا يريد هذا ، لأنه مخالف لمقتضيات الحضارة والتمدين والحياة الحديثة والإنتاج ! ثم يزعمون أنهم ـ بعد ذلك ـ مسلمون !! وإنا لنرى ناسا اليوم يشرعون للناس ـ من عند أنفسهم ـ ما يشاءون ، ثم يقولون : هذه شريعة الله !! ثم يزعمون بعد ذلك ـ ويزعم لهم بعض الناس ـ أنهم مسملون !!

وهى جاهلية المشركين يعرض القرآن تخبطهم وافتراءهم وشركهم فى السياق . . فلننظر نظرة فى السياق القرآنى الفريد :

يحكى القرآن عن أولئك المشركين فى الجزيرة أنهم جعلوا الله ـ مما خلق من الزرع والأنعام ـ نصيبا ، وجعلوا للآلهة المدعاة نصيبا . . على حين أن الله هو الذى رزقهم به كله ، وهؤلاء لم يرزقوهم منه شيئًا ! وأنه مع هذا ، فإن ما خصص لله كان يصل إلى شركائهم ، إذ يتسلمه الكهان كما يتسلمون نصيب الآلهة ! ولا يصل إلى الله منه شىء فالله ـ سبحانه ـ لا يصل إليه إلا ما ينفق فى سبيله وحده بلا شريك . وظاهر أن الكهان كانوا وراء هذه

الشريعة لأن نصيب الآلهة يعود إليهم ! والأنعام والقرآن يستنكر ادعاءهم فى التقسيم كله من أساسه : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأعام نصيبًا . فقالوا هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ! » . .

ثم لقد شرع لهم العرف الجاهلى ، الذى وضعه ناس من البشر ـ ولم يشرعه الله ـ أن يقتلوا أولادهم . إما فى نذر كالذى روى عن نذر عبد المطلب أن يذبح للالهة أحد أبنائه إن رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ! فكان النذر على عبد الله . ثم افتداه من الآلهة بمائة ناقة ! وإما ما كان يحدث وأد البنات وهو الأكثر . . وما كان هذا أو ذلك إلا تزيينا من الشركاء ـ وهم بشر يذكرهم القران فى سياق الالهة ؛ لأنهم يزاولون فى حياة الجاهليين اختصاص الألوهية وهو سن لشرائع وابتدع ليقودوهم إلى الردى ، وليعمّوا عليهم دينهم ، فلا يروا وجه الحق فى الدين ، ولا يرجعوا إلى الله فى شرائع الحياة وتقاليدها . ولو شاء الله ليقهرهم قهرًا على الهدى ، ولكنه ـ سبحانه ـ قدر ابتلاء البشر وأعطاهم الفطرة والبصيرة والعقل والرسالات، ليختاروا طريقهم ويمضوا فيها : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » .

وكانوا يحرمون بعض الثمار والأنعام لا يأكلون منها ، ويقولون إنها حجر ـ أى ممنوعة ويقولون : لا يطعمها إلا من يشاء الله ، يزعمون هذا من عندهم ! وطبعًا يتولى الكهان والحاكم والمشترعون فيهم تحديد من يشاؤه الله ومن لا يشاؤه ! ويمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب ، وهى التى يسمونها : « البحيرة ، والسائبة . والوصيلة . والحامى » كما كانوا يمنعون أن يذكر اسم الله على بعض الذبائح كذبيحة الميسر التى يقسمونها بالأزلام[1] : « وقالوا : هذه أنعام وحرث حجرٌ لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأعام وأنعام حُرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ سيجزيهم بما كانوا يفترون» . . . ولقد كان أعجب شيء فى هذا كله هو زعمهم أن الله يريد هذا !!!

وكانوا كذلك ـ حسب شريعة العرف الجاهلى الذى شرعه لهم ناس منهم ـ يفرقون بين

---

(١) الأزلام : أقداح تحدد نصيب كل من المشتركين فى القسمة مثل « اليانصيب » .

الذكر والأنثى ، فيحرمون الأنثى من كثير مما يتمتع به الذكر من الميراث وغيره . ومن هذا أنهم كانوا يقولون إن ما فى بطون بعض الأنعام من الحمل من حق الذكور ومحرم على الإناث ـ ما لم ينزل ميتا ، وهم كانوا يأكلون الميتة ، فالجنسان فيه شركاء ! ـ وينسبون هذا الشرع الجائر إلى الله : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » .

ويندد السياق بهذه الشرائع ـ التى تنسب إلى الله ولم ترد فى كتاب الله ـ سوا ما يختص بقتل الأولاد وما يختص بتحريم ما فى بطون الأنعام على الإناث : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم ـ سفها بغير علم ـ وحرموا ما رزقهم الله ـ افتراء على الله ـ قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

ثم يردهم إلى الحقيقة الواقعة . وهى أن الله هو الذى رزقهم الزرع والضرع . وهؤلاء الشركاء على اختلافهم بما فيهم المتألهة من البشر ـ بمزاولة التشريع ـ لم يرزقوهم شيئًا ، لا من الزرع والثمار ، ولا من الأنعام المسخرة لهم بإذن الله . فما بالهم إذن يحكّمون فيما رزقهم الله من لم يرزقوهم شيئًا ؟!

ومرة أخرى نجد القرآن يربط بين الخلق والرزق وبين الحاكمية والتشريع للخلق : «وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخيل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حَمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » . . .

وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين إشارة إلى أصل فريضة الزكاة : « وآتوا حقه يوم حصاده » ولكنها تذكر هنا مجملة فى معرض العقيدة ـ بوصفها ركنا من أركان الإسلام ـ ولا تبين أنصبتها إلا فى المدينة ، حين تقوم الدولة المسلمة التى تحكم بشريعة الله ، وتوجد دار الإسلام ، ويقوم الإمام ذو السلطان ، الذى يجبى الزكاة بسلطان الشريعة التى ينفذها فى دار الإسلام . وفى هذه الحالة يكون لبيان الأنصبة جديته فى مجال التطبيق العملى ، باعتبار هذا شأنا يتعلق بالنظام الذى قام .

بعد ذلك يعرض عليهم أنواع الأنعام وهى أربعة : الضأن والمعز والإبل والبقر . وهى ثمانية باعتبار أن كلا منها زوج من ذكر وأنثى . ويسألهم أيها حرمه الله على الإناث ؟ الذكر

من كل نوع أم الأنثى أم ما فى بطن الأنثى من الحمل ؟ وما دليلهم على تحريم الله لها؟ من أين جاءوا به ؟ كتابه لم ينص على شىء من هذا . فمن أين يا ترى أخذوه ؟ هل لهم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا ؟ ثم يندد بهذا الافتراء على الله ، وهو لا يستند إلى نص ولا شهادة : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ، أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل : آلذكرين حرّم أم الأنثيين ؟ أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين! أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

عندئذ يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبين لهم ما حرم الله عليهم حقا من هذه الأنعام مما يحلونه لأنفسهم ! وما حرمه على اليهود خاصة لا يشاركهم فى تحريمه المسلمون ، لأنه حّرم عليهم عقوبة خاصة بهم ، ولم يكن محرما على أبيهم إسرائيل فى ملة إبراهيم ـ وعليها المسلمون ـ إنما حرم بعد ذلك عقوبة لليهود على عهد موسى ـ عليه السلام ـ على ذنب ارتكبوه ، ويوعدهم إن هم كذبوه : « قل : لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتةً ، أو دما مسفوحًا [1] ، أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقا أهل لغير الله به [2] . فمن اضطر ـ غير باغ ولا عاد ـ فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ـ إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا [3] ، أو ما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون ، فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

ثم يعرض لتمحكات الجاهلية وشبهاتها ، إذ يحاول الجاهليون أن يتملصوا من تبعة الشرك ومزاولته بالتشريع لأنفسهم ، وقبوله من الكهان والحكام ، فيلقوا التبعة على قدر الله ! ويزعمون أن الله شاء لهم هذا فهم وفق مشيئة الله ! فالله لو شاء ما ارتكبوا شيئًا من هذا كله ! ومن ثم فلا معصية فيما يفعلون ! ونعم لو شاء الله أن يكون شىء ما كان ، فإنه لا يكون فى هذا الوجود إلا ما يشاؤه الله . ولو شاء الله لقهر الناس كلهم على الهدى ،

---

(١) الدم السائل فيخرج الكبد والطحال .

(٢) ما سمى عليه عند الذبح بغير اسم الله كالذى يذبحونه على النصب وهى الأوثان ويقسمونه عن طريق « اليانصيب » وهو قمار !

(٣) الدهن الملتف بالأمعاء .

فلا يكون هناك مجال لابتلاء . غير أن الله ـ سبحانه ـ شاء أن يودع فطرة الإنسان الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، وأعطاه البصيرة يدرك بها ، والعقل يميز به ، وأرسل إليه الرسل يبينون له . . ثم يختار . . وفى هذا كان الابتلاء . . فإذا اختار لنفسه الهدى أعانه الله عليه ، وكان ما شاء الله ، وإذا اختار الضلالة مَدّ له الله فى الغى . وكان ما شاء الله . لأن هذه مشيئته منذ الابتداء . . وهذه الشبهة ترددها كل جاهلية ، وقد رددتها الجاهليات قبل الجاهلية العربية . وهى ترددها اليوم وغدًا ، ويزيغ بها كثيرون ممن يتبعون الشبهات . وإلى هذا تشير الآيات : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرّمنا من شىء . كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ [٤] . إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلاّ تخرصُون . قل : فلله الحجة البالغة . فلو شاء لهداكم أجمعين . قل : هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » .

وهكذا نرى السياق يقرن مسألة التشريع فى التحريم والتحليل ، بعقيدة الإيمان بالآخرة ، وبعقيدة توحيد الربوبية ، إذ يقرر أن هؤلاء الذين يشرعون هذا الشرع لا يؤمنون بالآخرة ويشركون بربهم ، ويجعلون له عدلاء ونظراء يزاولون اختصاص الألوهية فى التحريم والتحليل .

ومن ثم يدعوهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر من ربه ، ليبين لهم ما حرم الله حقًا ، وما شرعه حقا . وفى أول ما حرم الشرك به . وفى أول ما أمر الإحسان للوالدين ، والكف عن قتل الأولاد ، وكانوا يقتلون البنات من الفقر فأعلمهم أنهم لا يرزقون أنفسهم ولا يرزقون أولادهم ، إنما الله هو الذى يرزقهم هم وأولادهم سواء . كما حرم الفواحش ـ وهى الكبائر التى تفحش وتتجاوز الحد ـ ظاهرها وباطنها ، وحرم قتل النفس ـ إلا بالحق ـ ونهى عن أكل مال اليتيم ، والتعبير القرآنى يقول نهى عن القرب منه ! للإيحار بالتحرج! فلا يقربونه إلا بالحسنى ، ويحفظونه له حتى يبلغ أشده . وأمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط ـ فى حدود الطاقة وبقدر الاستطاعة ـ وأمر بالعدل فى الشهادة والحكم ـ ولو كان أحد المتخاصمين ذا قرابة ـ وأمر بالوفاء بعهد الله جملة : « قل : تعالـوا أتـل ما حـرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانًا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ،

---

(٤) أى هل عندكم من علم بأن الله شاء هذا ! ومن أين ؟ إنما هو الظن ! .

نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ـ حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ـ لا نكلف نفسًا إلا وسعها ـ وإذا قلتم فاعدلوا ـ ولو كان ذا قربى ـ وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون» .

ونقف خاصة عند قوله ـ سبحانه ـ : « وبعهد الله أوفوا » وهو يخاطب مشركين لم يسلموا بعد ، ولم يعاهدوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإيمان ، وليس بينهم وبينه عهود يؤمرون بالوفاء بها فى ذلك الحين . فيتجه الخاطر إلى عهد الله على الفطرة أن تعرفه ربًا وتوحده ، وهو العهد الذى سبقت الإشارة إليه فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا » فقد قيل لهم عندهم إن هذا العهد مأخوذ عليكم خشية ـ « أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين » . « أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون » . . وما الرسالات إلا تذكير للفطرة بهذا العهد المأخوذ عليها من ربها ، رحمة من الله بعباده ، حتى لا يكلهم إلى عقولهم وحدها . ولا يكلهم إلى ذاكرتهم الفطرية فقد تغفل وتنسى !

ومن مقتضيات هذا العهد ألا تشرك بالله ، ومن ثم تتقبل لها شريعة ولا منهجًا للحياة إلا من الله . ومن ثم يختم هذا السياق ، الذى يدور على تحريم بعض المطاعم والمشارب ، وعلى بعض والتقاليد الجاهلية ، وما وراءها من تأليه بعض البشر ، وتلقى الشرائع منهم وتقاليد يختم بإعلان حاسم لمفرق الطرق ، بين طريق الله الواحد ، والطرائق والسبل الشاردة عن الله ، التى لا تؤدى إليه أبدًا : « وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » [1].

ولكل أن يختار . . وطريق الله واحد ، وهو واضح بين ، لا يخطئه من يريد أن يراه !

● ونخلص بعد ذلك إلى سياق قرآنى ثالث ـ فى سورة مدنية ـ سورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم . وهو يتحدث عن كفر اليهود والنصارى وشركهم بسبب ما أدخلوه فى عقيدتهم من إسناد البنوة لله ، وما أدخلوه فى حياتهم من قبول الشرائع من الأحبار

---

(١) يراجع تفسير هذه النصوص بتوسع والتعقيب عليها فى المجلد الثالث من ظلال القرآن ص ١٢١٣ ـ ص ١٢٣٤ طبعة دار الشروق .

والرهبان ، وبسبب اتخاذ النصارى المسيح ربا ، واتخاذهم جميعًا الأحبار والرهبان أربابا . . الأول بمعنى الاعتقاد فى ألوهيته ، والآخرين بمعنى منحهم خصيصة الحاكمية . . فيجعل هذه كتلك سواء فى درجة الكفر والشرك . . مع أن اليهود والنصارى لم ينكروا ألوهية الله قط ، إنما جاءهم الكفر والشرك من هذه الجهة وتلك . . والنص القرآنى القاطع هو :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم. يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا. لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» . . .

(التوبة : ٣٠-٣٢)

ونحب قبل أن نبين دلالة هذا النص القاطعة ، على أن قبول الشرائع من عند غير الله هو الكفر والشرك . شأنه شأن إثبات البنوة لله سبحانه ، وشأن اتخاذ غير الله ربا من ناحية الاعتقاد بألوهيته ، ومن ناحية تقديم الشعائر له . . نحب قبل هذا أن نثبت أن اليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيتهم ، ولا بمعنى تقديم الشعائر التعبدية لهم ، إنما هم اتخذوهم أربابًا بمعنى قبول الشرائع منهم فحسب . وذلك بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبيانه لمعنى ربوبية الأحبار والرهبان عندهم . وليس بعد تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمعنى من معانى القرآن قول لقائل :

« روى الترمذى فى تفسير هذا الحديث ، وحسّنه - بإسناده عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - « أنه دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقه صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية . قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » .

فهذا الحديث قاطع فى أن قبول التشريع من الأحبار والرهبان - ومثلهم كل أحد غير الله ورسوله متى كان يشرع من عند نفسه لا من شريعة الله - هو عبادة لهم وهو اتخاذهم أربابا من دون الله . الشأن فيه كالشأن فى اتخاذ المسيح ربا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيته وتقديم الشعائر التعبدية له . سواء بسواء .

ويمكن وضع القضية كما عرضتها هذه الآيات الثلاث فى معادلة دقيقة على النحو التالى :

قبول الشرائع والأحكام التى يشرعها الأحبار والرهبان من عند أنفسهم ، ومثلهم كل أحد من كاهن أو حاكم = اتخاذهم المسيح ربا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيته ، والقول ببنوة عزير لله وبنوة المسيح لله سبحانه = قول الذين كفروا ـ وهم المشركون ـ إن الملائكة بنات الله . (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) = الكفر والشرك والخروج عما أمر الله به من التوحيد . ومحاولة إطفاء نور الله بأفواههم . . .

وهو قول صريح لا يجادل فيه إلا مماحك !

● ونخلص من هذا النموذج إلى نموذج آخر من القرآن المدنى كذلك فى سورة النساء :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ـ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ـ ذلك خير وأحسن تأويلا . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله : إنْ أردنا إلا إحسانا وتوفيقا؟ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم ـ فى أنفسهم ـ قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » . . .

(النساء : ٥٩ ـ ٦٥)

إننا أمام جماعة من الناس ، فى المجتمع المسلم ، فى دار الإسلام « يزعمون » أنهم آمنوا بما أنزل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . . أى إنهم يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن الرسالات كلها حق ، وأن ما بها من الشرائع حق ، وأن الملائكة حق ، وأن الآخرة حق ، وأن القدر خيره وشره حق . . فهذا هو الإيمان

بما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . وهم يزعمون أنهم آمنوا بهذا كله .

ولكن الله ـ سبحانه ـ لا يقبل منهم هذا الزعم ، ولا يعتبر قولهم هذا إيمانًا ، بل يعجب من أمرهم وأمر زعمهم هذا !

لماذا ؟ لا يقبل الله منهم هذا القول وهذه الشهادة ، ولا يعتبرهما؟

ذلك أنهم يقولون هذا بينما هم « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » لا إلى شريعة الله ، ولا يرجعون فيما اختلفوا فيه إلى الله والرسول . . والطاغوت كما يفسره الإمام ابن جرير الطبرى ـ هو « كل ذى طغيان على الله ، فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانًا كان ذلك المعبود . أو شيطانًا ، أو وثنا . أو صنما ، أو كائنًا ما كان من شىء » . . فهؤلاء الناس يريدون أن يتحاكموا إلى شىء من شريعة هذا الطاغوت ولا يريدون أن يتحاكموا إلى شريعة الله . . فيعدّهم الله زاعمين لا صادقين . . مع قولهم : إنهم آمنوا بما أنزل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . مما يقطع بأن القول باللسان : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . وأن الرسالات كلها حق . الملائكة حق ، وأن الآخرة حق . وأن قدر الله خيره وشره حق . . أن هذا القول لا يقبل ، ولا يعتبر هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، التى تُدخل قائلها فى الإسلام ، وتعطيه صفة المسلم ، وتعصم دمه وماله بالإسلام . . متى صحبها إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله ، وعدم الرجوع فيما يختلف فيه ـ فى كل شأن من شئون الحياة الإنسانية ـ إلى الله .

ولنتتابع السياق القرآنى فى عرضه لهذه الحقيقة الكبيرة فى نصوصه القاطعة الصريحة :

إنه يبدأ بنداء الذين آمنوا ، وأمرهم بطاعة الله ، وطاعة الرسول ، وأولى الأمر ـ بقيد «منكم» ـ أى من الذين آمنوا ـ وسنعرف من سياق الآيات من هم الذين آمنوا مِن هؤلاء ، ومن هم الذين لا يدخلون فى هذا المدلول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » . .

ولما كانت هنالك أقضية فرعية تتجدد بتجدد الحياة ونموها حجمًا وشكلاً ، وظروفًا وأوضاعا . . وكانت الأحكام الفرعية فى هذه الأقضية المتجددة التى تجد ، مما يقع فيه الاختلاف . وكانت حياة الناس بجملتها وتفصيلها يجب أن ترجع إلى منهج الله ، ولا تتخذ لها منهجا آخر فى كبيرة ولا صغيرة ، لأن هذا هو مقتضى إسلامهم لله ، وعبوديتهم

لألوهيته ، ودينونتهم لسلطانه ، ومناط حسابهم وجزائهم فى الآخرة أيضًا . . لما كان الأمر كذلك ، بيّن الله الأصل الذى يرجع إليه « الذين آمنوا » ليحكم بينهم فى مثل هذا الاختلاف . . إنه ليس « الرأى والهوى » ! وليس « العقل البشرى » بلا قاعدة ولا ضابط ! وليس « المصلحة » على إطلاقها كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله ! وليست الاعتبارات « الوطنية » أو « القومية » أو « الإنسانية » ـ أو « الاجتماعية » ـ كما يتصورها الناس ـ وليست اعتبارا واحدا من اعتبارات الأرض المصطلح عليها فى الجاهليات ! . . كلا ! إنما هو « الله والرسول » فما جاء به الرسول من عند الله هو القواعد الكلية التى يقوم عليها التصور الإسلامى للوجود . وفى أولها عبودية الناس لله ، ورد حياتهم كلها إليه ، وعدم استقلالهم بشىء منها يصرفونه على هواهم . ومنها المبادئ العامة لدين الله من المحافظة على « إنسانية » الإنسان . وطهارته . ونظافة الحياة التى يعيشها من كل الوجوه ـ وفق ما يقرره الله وحده ـ وكفاية الضرورات والحاجات ، والترقى فى هذه الكفاية إلى الزينة ـ وهى فوق الضرورة والحاجة ـ بدون إخلال بالنظافة والطهارة . وتجنب الفاحشة وما يؤدى إليها ـ كما تحدد شريعة الله ـ والنهوض بالخلافة فى الأرض ـ فى حدود منهج الله الممثل فى شريعته ـ واستغلال القوى والطاقات والأقوات والمدخرات المسخرة له فيها بإذن الله ، مع شكر الله على ما يسخره منها . . . إلى آخر هذه المقوّمات التى تقرر حدود اجتهاد المجتهدين فى رد ما يختلفون فيه إلى الله والرسول . وتمنع أن يتخذ تشريع جزئى واحد يخالف منهج الله للحياة البشرية ـ كما يحدده الله فى كتابه ـ تحت أى اعتبار من اعتبارات الأرض الجاهلية . هذا حد الإيمان وشرطه وإلا فما الناس بمؤمنين : «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وهذا هو الخير والمصلحة وحسن العاقبة ، لا ما يراه البشر حسب أهوائهم وتصوراتهم المحدودة القاصرة : « ذلك خير وأحسن تأويلا » . . أى أحسن مآلا وعاقبة . . فمن أخذ بهذا الشرط فهو « منكم » . . أى من الذين آمنوا . ومن لم يأخذ به فليس « منكم » وليس داخلاً فى الأمر الذى تتضمنه الآية : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . . بهذا القيد ، الذى لا يجىء عفوا فى التعبير القرآنى الدقيق فى معرض الحكم بالإيمان وعدم الإيمان ، وفى معرض التشريع ، ووضع « أصل » عام من أصول التشريع .

ولما بين أن هذا شرط الإيمان ، عقّب عليه بالتعجيب ممن « يزعمون » أنهم بما أنزل إلى

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . بينما هم « يريدون » أن يتحاكموا إلى الطاغوت ووضع الطاغوت فى مقابل شرع الله ، يدل على معناه فى هذا السياق ويحدده ـ وهو كل ما لم يشرعه الله ـ وقد أمروا أن يكفروا به » . . والنهى عن التحاكم إلى ما لم يشرعه الله ، والتعبير عن هذا النهى بأنه أمر بالكفر بالطاغوت ، له دلالته فى التعبير القرآنى . فالقضية هنا قضية عقيدية . قضية كفر أو إيمان . . بالله أو بالطاغوت . . وهما لا يجتمعان فى قلب إنسان . ومن ثم يذكر الشيطان ، الذى أخذ على عاتقه أن يضل بنى آدم فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدًا» . .

ويعد أن يقرر أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله ، بدلالة أنهم « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » فهذه الإرادة وهذا الاتجاه يكذبان قول اللسان ويبطلان قيمته . . بعد ذلك يصمهم بالنفاق ـ من ناحية أن النفاق مخالفة الفعل للقول ، كما أنه مخالفة القول للنية ، وهو هنا مخالفة الفعل للقول ـ وآية نفاقهم أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى شريعة الله ، صدوا وأعرضوا ، مع إقرارهم باللسان أنهم اعتقدوا وآمنوا : « وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . . فهذا دليل النفاق ، كما أنه سبب تكذيبهم فى دعوى الإيمان . لأنه لا إيمان مع الاتجاه إلى التحاكم إلى غير شريعة الله ، والصد عن الدعوة إلى تحكيم شريعة الله . . الحكم الذى سيجىء فى السياق نصا كما جاء من قبل شرطا . وهو الذى ينطبق على كل حالة مماثلة . .

ويذكر صورة من واقع حالهم ـ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهى فى الحقيقة تصور حال هذا الصنف من الناس فى حالات كثيرة متعاقبة . فهم يعرضون ويصدون عن التحاكم إلى شريعة الله وحكم رسوله . حتى إذا أصابتهم ـ بسبب هذا الأعراض ـ مصيبة، وفسدت الأمور واشتدت الأخطار ، عادوا يعتذرون عن هذا الإعراض ، ويعللون اتجاههم ذاك ، بأنهم إنما أرادوا الإصلاح والتوفيق ! أرادوا تحقيق المصالح ، والتوفيق بين المتناقضات! كأن الطاغوت هو الذى يحقق المصالح ، ويوفق بين المتناقضات. أما شريعة الله فعاجزة عما يقدر عليه الطاغوت ! « فكيف إذا أصابتهم مصيبة ـ بما قدمت أيديهم ـ ثم جاءوك ، يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا » . .

ويوجه الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإعراض عن هؤلاء ـ بمعنى استصغار شأنهم ـ مع موالاة العظة لهم ، والنصح فى أعماق نفوسهم ، ذلك أنهم ، فى هذه الصورة ، لا يواجهون شريعة الله بالحرب والخصومة ، ولا يملكون قوة ولا سلطانا فى المجتمع المسلم والدولة المسلمة فى دار الإسلام . إنما هم أفراد أو جماعات خاضعة للحكم الإسلامى ، الذى كان يقوم عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يشقوا عصا الطاعة ، ولا استعلوا بالسلطان . إنما هم ينافقون ويتحايلون ! « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغًا » .

وعندئذ يقرر القاعدة الأساسية فى إرسال الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ ويحدد وظيفة الشريعة التى جاءوا بها ، على نحو ما حددتها آية سورة البقرة التى أشرنا إليها من قبل . إنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ما أرسلوا لمجرد الوعظ والإرشاد . إنما أرسلوا ومعهم الحكم والسلطان . أرسلوا ليطاعوا ـ بإذن الله وسلطانه ـ لتكون طاعتهم طاعة لله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » . . فالرسول الذى هو مجرد واعظ . والدين الذى هو مجرد عقيدة وشعائر . صور لا يعرفها الإسلام ، ولا يقرها التصور الإسلامى . لأن الله ـ سبحانه ـ لم يردها بإرسال الرسل إلى الناس .

والتقرير الأخير فى السياق ، هو النص الصريح على شرط الإيمان وحدّه ، فى صورة من صور التوكيد الشديدة :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت . ويسلّموا تسليما » وهو نص صريح قاطع ، لا مجال للمماحكة فيه ، ولا قول بعده لقائل ، لأنه من المحكم الذى لا رأى مع النص فيه .

ومفاده أن أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله . الذين قد يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن الرسل حق ، وأن كتب الله حق . وأن الملائكة حق ، وأن اليوم الآخر حق ، وأن القدر خيره وشره حق . . . أن هؤلاء ـ إذا اتجهت إرادتهم إلى التحاكم لغير شريعة الله . أو حتى إذا تحاكموا إلى شريعة الله وسنة نبيه ولكن لم ترض نفوسهم ولم تسلم قلوبهم ـ لم يعتبر قولهم ذاك ، ولم تعتبر شهادتهم تلك ، ولم يدخلوا فى عداد المؤمنين ، ولم يكتسبوا صفة الإيمان . إن شهادة اللسان تؤخذ وتعتبر إذا لم تصحبها إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله . وإذا لم يصاحبها عدم الرضى والاستسلام لحكم الله ورسوله فى أى شأن من شئون الحياة .

وهكذا فهم المسلمون الأوائل ـ رضوان الله عليهم ـ قضية الكفر والإيمان . فحينما جاء الأعرابى الذى أسلم إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ يحكمه فى قضية له ، وعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قضى فيها بحكم ، وعرف منه كذلك أن قضاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قضيته لم يعجبه ! استمهله على بابه ، ودخل داره وخرج بالسيف مسلولا ، يهم أن يقتل الرجل ـ لولا أنه وجده قد نجا بنفسه ! ـ معتبرا إياه مرتدا عن الإسلام ، لأن نفسه لم ترض بقضاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الاحتكام ! والرجل ـ طبعا ـ يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإلا ما استوجب ـ عند عمر ـ القتل . فالقتل للمرتد ـ الذى أسلم ثم ارتد ـ لا لمن لم يشهد ولم يدخل فى الإسلام أصلاً . . لقد كان عمر يعرف حقيقة دينه ، وحكم ربه ، لأنه يأخذ هذا الحكم ويستقى تلك الحقيقة من قرآنه . ولأنه يأخذ كلام الله وحكمه بالجد اللائق بجلال الله ـ سبحانه ـ وبإيمان المؤمن بالله .

● والآن نأتى إلى السياق الأخير الذى نريد أن نستعرضه فى هذه الفقرة . وهو ينص نصا صريحًا قاطعًا كذلك على حكم الله فى هذه القضية . وهو حكم لا يحتاج إلى استنباط . ونص لا مجال للرأى معه ، من كائن من كان ! إنه سياق سورة المائدة، من أواخر ما نزل من القرآن :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ـ للذين هادوا ـ والربانيون والأحبار ـ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ـ فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى موعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .

« وأنزل إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنًا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا

الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعًا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرًا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ؟» .

(المائدة : ٤٤ ـ ٥٠)

هذه الآيات انتزعناها من سياق طويل فى السورة ، لم نكن نملك استعراضه كله ، وإلا طال هذا الفصل من الكتاب طولاً شديدًا . ولكن السياق بجملته لحمة واحدة . ونحن نشير على القارئ بالعودة إليه على الأقل من بدء الآية (٣٢) من السورة . وهو يتحدث عن شريعة القصاص فى التوراة ، وعلاقتها بنبأ ابنى آدم ، وقتل أحدهما للآخر. ويقرر بعض الحدود فى الإسلام . كحد الحرابة ـ وهو الخروج بالقوة على الإمام المسلم الذى يحكم بشريعة الله فى دار الإسلام . ودار الإسلام هى وحدها الأرض التى تحكم بشريعة الله ـ وحد السرقة كذلك . ويربط بين أن الله هو المشرع لهذه الأحكام ، وبين أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قدير ـ كما رأينا من قبل فى السياق القرآنى حين يتناول قضية التشريع ـ ثم يتحدث عن تحايل اليهود على شريعة التوراة وعلى شريعة القرآن ، بأن يرسلوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم من يسأله عن حكم فى حد ، رجاء أن يجدوا عنده حكما أخف مما فى التوراة ، فيأخذوا به محتجين على الله بأنهم أخذوا بحكم نبى ! ويوصى بعضهم بعضا أنهم إن وجدوا عند محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكما أخف أخبروه عن ظروف القضية التى بين أيديهم وأشخاصها , وإن وجدوا حكمه مطابقًا لحكم التوراة فليحذروا أن يخبروه ، حتى لا ينفذ فيهم الحد ! ويخبر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن جاءوا إلى طالبين حكمه فيهم بين أن يحكم بينهم ، أو أن يعرض عنهم ؛ لأنهم كانوا إذ ذاك خارجين عن المجتمع المسلم ، وليسوا قطاعا منه ، فلا حتمية فى تطبيق شريعة الله فيهم . ثم يعجب الله من أمرهم . إذ كيف يحكّمون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجىء حكمه مطابقًا لحكم الله فى التوراة ، ثم بعد ذلك لا يأخذون بحكمه ولا ينفذونه . . ويقرر أنهم بهذا ليسوا مؤمنين : « وما أولئك بالمؤمنين » .

وبعد ذلك يمضى السياق بالآيات التى أثبتناها هنا ، يتحدث فيها عن طبيعة دين الله كله . ووظيفة كتاب الله كله . . ممثلاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ؛ ليقرر أن دين الله كله

هو منهج متكامل للحياة ، فيه التشريع إلى جانب العقيدة إلى جانب العبادة . فيه الهداية وفيه الحكم . وأن ليس دين من هذه اللأديان مجرد عقيدة فى الضمير ، ولا مجرد شعائر تعبدية تقام . . وليقرر إلى جانب هذا أن الحكم بما أنزل الله كان دائماً ـ وفى جميع الأديان والأزمان ـ هو مناط الإيمان والإسلام . وأن الإيمان والإسلام ينتفيان عمن لا يحكم بما أنزل الله . . ولا عبرة بما يقوله لسانه متى صاحب هذا القول عدم الحكم بما أنزل الله ـ كله لا بعضه ولا معظمه ـ فهذه قاطعة فى الكفر البواح الذى عند المسلمين فيه سلطان من الله . بقوله هذا الذى لا يحتمل المماحكة ، ولا رأى فيه لمجتهد ولا فقيه . فليس مع النص المحكم رأى لإنسان !

ويبدأ بالتوراة : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ففيها عنصر الهداية للحق والنور إلى الطريق . ويقرر أنها أنزلت لا لمجرد الهداية إلى الاعتقاد والشعائر ، ولكن كذلك للحكم . وليحكم بها النبيون الذين صفتهم أنهم أسلموا لله . كما يحكم الربانيون والأحبار لليهود بما جاء فيها من الشريعة والأحكام ـ لا بما يشرعونه هم من عند أنفسهم ـ بما أنهم هم المستحفظون الأمناء عليها الشاهدون بأنها من عند الله . . ولأن اليهود كانوا يتأثرون فى أحكامهم بملابسات حياتهم ويحرفون أحكام شريعتهم تملقا لأهواء الناس ! فإن الله يقول للمؤمنين كافة : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلاً » . .

ثم يصدر الحكم النصى القاطع الجامع على كل من لم يحكم بما أنزل الله . بصيغة الشرط والجواب التى تفيد العموم :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . .

فيدخل اليهود الذين لم يحكموا بشريعة التوراة فى هذا النص العام ـ وذلك بطبيعة الحال قبل أن تجيء الرسالة الأخيرة التى تصدق التوراة وتهيمن عليها وعلى الكتاب كله ، والتى هى المرجع الأخير فى دين الله كله وشرعه .

ثم يذكر بعض الأحكام الفرعية التى نصت عليها شريعة التوراة وصدّق عليها القرآن فى القصاص . . ويعقب عليها بالحكم النصى القاطع بالصيغة الشاملة كذلك ، ينفى الإيمان والإسلام عمن لا يحكم بما أنزل الله :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . .

وهو الحكم ذاته ، الذى تضمنته الآية السابقة ـ منظورا فيه إلى لفتة بيانية خاصة ـ فالكفر والشرك والظلم فى التعبير القرانى تجيء مترادفة . والتعبير عن الكفر والشرك

بالظلم هو التعبير الشائع فى القرآن . وقد سبقت فى النماذج القرآنية التى أوردناها أمثلة كثيرة لهذا الاستعمال نبهنا عليها ، بحيث لا يحتاج الأمر فيه إلى بيان. ولكننا سنؤجل البحث فى هذه المسألة إلى نهاية هذه الفقرة . .

ويمضى السياق بعد التوراة إلى الإنجيل ، فيقرر طبيعته . فهو هدى ونور . ويقرر موقفه من التوراة فهو مصدّق لها : « وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقًا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » . .

وهو مصدق لما بين يديه من التوراة عقيدة وشريعة . وأهل الإنجيل مأمورون ـ كانوا قبل الإسلام ـ بالحكم بما أنزل الله فيه ، وشريعة التوراة منه :

« وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » .

ثم يجيء الحكم النصى القاطع ، بصيغته الشاملة ، بنفى الإيمان والإسلام عمن لا يحكم بما أنزل الله :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . .

والتعبير عن الكفر بالفسق شائع كذلك فى القرآن . فهذا ليس حكما آخر ، إنما هو تعبير آخر منظور فيه إلى لفتة بيانية خاصة .

ثم ـ فى النهاية ـ يجيء الحديث عن القرآن . . عن طبيعته ، وعن موقفه من العقيدة والشريعة . وعن موقفه من الكتب السماوية قبله كذلك : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » .

فيعلن عن قاعدة هذا الدين . . « الحق » . . ويعلن كذلك عن انتهاء أمر دين الله كله ، والحكم فى شأن الناس كله ، إلى هذا الكتاب الأخير . . ويرتب على هذا الإعلان الأمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحكم بما أنزل الله إليه ، والنهى عن اتباع أهوائهم ـ وهى كل ما عدا أحكام هذا الكتاب ـ : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » . .

وفى هذا الموضع تجيء لفتة نفسية عميقة ذات قيمة كبيرة ، تواجه ما قد يقوم فى النفس البشرية من حرص على اجتذاب شتى أصحاب الملل والنحل إلى هذا الدين الأخير ، بشيء من المدارة لأهوائهم . . ولكن لا . . لقد جعل الله لكلٍّ طريقه ووجهته . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولقهرهم بأمر كونى على الهدى . . ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ هذا

لحكمة ولابتلاء الناس فيما يختارون فى نطاق مشيئته المتحققة فى كل حالة - كما بينا من قبل - وإذن فهو الحسم فى الحكم بما أنزل الله ، وعدم اتباع الأهواء ، والحذر من التفريط فى «بعض» شريعة الله : «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك» فالبعض كالكل من ناحية أصل المبدأ الاعتقادى . والفتنة عن البعض فتنة عن الكل . وهو توحيد الله بالأخذ بشريعته كلها وعدم إشراك أحد معه فى سلطان الحاكمية ، بأخذ جانب واحد من غير الشريعة ، وهو هذا الإشراك!

فأما إن تولوا عن قبول حكم الله . فهذا نذير بأن الله قد قدّر أن يصيبهم ببعض ذنوبهم والفاسقون يتولون عن حكم الله عادة : «فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون» . .

ويختم هذا السياق برسم مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام . . أى بين الشرك والإسلام . . فإما حكم الله وإما حكم الجاهلية . وإما الإسلام والإيمان ، وإلا فهو الكفر والظلم والفسوق ، ولا وسط بين الطريقين ولا اختلاط :

«أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟» . .

إنهما منهجان متميزان ، وطريقان لا تلتقيان ولا تختلطان ، ولمن شاء أن يختارا!!

وقبل أن نختم هذه الفقرة ننظر فى التعبيرات الثلاثة .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» . .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» . .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» . .

أهو حكم واحد . أم إنها ثلاثة أحكام مختلفات ؟

إن المتمرس بالتعبير القرآنى لا يثور فى نفسه مثل هذا السؤال . . ولا حتى المتمرس بالتعبير العربى فى عمومه . . وإن الإنسان ليعجب : كيف ثار مثل هذا السؤال ؟! إنه ثار؛ لأن الناس لا يتعاملون مع القرآن . لا فى جوه ، ولا فى أحكامه ، ولا فى أسلوبه ، ولا فى تعبيره!

إن هناك فعلا واحدا فى التعبيرات الثلاثة . . هو عدم الحكم بما أنزل الله . وهو فعل الشرط فى الجملة . وهو «بالتعبير البيانى . فلا يمكن من الناحية البيانية - وحدها - أن يجيء وصف هذا الفعل فى جواب الشرط - وهو «المحمول» بالتعبير البيانى - مختلفا فى حقيقته - وهو حكم شرعى - فيكون مرة هو «الكفر» ومرة هو «الظلم» . ومرة هو

«الفسق » . إلا أن يكون المراد بالظلم هو عين المراد بالفكر . مع اعتبار بيانى ـ وواقعى كذلك ـ وهو أن الكفر ظلم . . ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . وأن الكفر فسق كذلك من ناحية أنه خروج عن صراط الله ومنهجه ودينه الذى لا يقبل من الناس سواه . . ومن هنا اختلف اللفظ لا المضمون . فالحكم واحد على من لم يحكم بما أنزل الله . . وهو الخروج من الإيمان والإسلام ، على كل حال .

ولكننا لا نحكّم أسلوب اللغة وحده ـ وإن كان فيه الكفاية ـ إنما نحكّم الاصطلاح القرآنى ذاته فى الاستعمال المتكرر المتداول الغالب . .

إن التعبير عن الكفر أو الشرك أو التكذيب بالظلم ، والتعبير عن الكافرين أو المشركين أو المكذبين بآيات الله ، بالظالمين ، هو الشائع فى القرآن ، وقد ورد كثيرا فى النماذج التى سبقت فى هذا الكتاب ، وهذه بعض الأمثلة :

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم» .

(لقمان : ١٣)

« وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . . .

(الأنعام : ٨١ : ٨٢)

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت . قال : أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» . . .

(البقرة : ٢٥٨)

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات . والله لا يهدى القوم الظالمين» . .

(آل عمران : ٨٥ـ٨٦)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » . . .

(البقرة : ٢٥٤)

وكذلك التعبير عن الكفر والشرك بأنه فسق . والتعبير عن الكافرين والمشركين بأنهم فاسقون . بل إنه ليعبر أحيانا بالفسق عن أشنع أنواع الكفر ، وأبشع ألوان التكذيب . . وهذه بعض النماذج :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . . .

(النور : ٥٥)

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » . . .

(الأنعام : ٤٨ : ٤٩)

« تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » . . .

(الأعراف : ١٠١ _ ١٠٢)

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » . . . عن قوم فرعون . . .

(الزخرف : ٥٤)

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . . .

(آل عمران : ٨١ _ ٨٢)

ولا حاجة بنا إلى مزيد من الأمثلة والنماذج . فهى شائعة فى التعبير القرآنى لا تحتاج إلى بيان . .

على أنه بالرجوع إلى أصل القضية . وهى أن الحاكمية وحق تعبيد الناس ، وتشريع الشرائع لهم ، هى أولى خصائص الألوهية ، التى لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ، ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك . . وأن الذى يدعى حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه ، إنما يدعى حق الألوهية ، وأن الذى يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه _ إلا مكرها كارها منكرا باليد ، أو اللسان ، أو القلب _

فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية . . وأن من يرفض تحكيم شريعة الله فى كل شئون الحياة، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله سبحانه ـ ولو فى جانب من جوانب هذا الكون هو الحياة البشرية ـ وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه رفض ألوهية الله سبحانه فى هذا الجانب . . وأن الذى يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه إنه مسلم لله ـ مهما يزعم ذلك بلسانه ـ طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله ، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت وعدم التحاكم إلى شريعة الله . ومن باب أولى الحكم بالطاغوت وعدم الحكم بما أنزل الله . . وأن الحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله، والرجوع فيما يختلف فيه مما ليس فيه نص إلى الله والرسول ، لا إلى أى مصدر آخر سواه . .

نقول بالرجوع إلى هذه الأصول التى تقررها نصوص القرآن الصريحة لامفهوماته المستنبطة ، لا تبقى حاجة إلى بيان جديد ، ولا يبقى مجال للجدل الجاد. . وإنما هو المرء، الذى لا يستحق الاحترام !

« ولله الحجة البالغة » . . . والحمد لله .

إن قضية الحاكمية والشريعة فى هذا الدين هى قضية عقيدة ودين ، قبل أن تكون مسألة حكم ونظام . هى قضية إيمان بالله ،أو كفر ، قبل أن تكون مسألة صلاح ،أو فساد . هى قضية دخول فى دين الله ،أو خروج من هذا الدين ، قبل أن تكون مسألة شكل من أشكال الحكم ،أو نظام من أنظمة المجتمع . . إنها قضية وجود هذا الدين فى الأرض أصلا ، أو محو هذا الدين !

ولقد صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول ـ عارفا بطبيعة هذا الدين ، ومستشرفا بروحه لما سيكون :

« ينقض هذا الدين عروة عروة ، فأولها الحكم وآخرها الصلاة » .

ولقد نقض هذا الدين عروة عروة . . فلينظر الذين يدعون أنفسهم « مسلمين » أين هم من هذا الدين . . ولتنظر العصبة المؤمنة فى الأرض من أين تبدأ طريقها لإقامة هذا الدين !

* * *

وبعد ، فحين يستعرض الإنسان قضية الألوهية والعبودية بجملتها فى القرآن الكريم، وحين يتمثل حقيقتها ومساحتها فى التصور الإسلامى ـ وما عرضناه فى هذه الصفحات إن هو إلا نماذج ، أشبه بالسهام التى تشير إلى الاتجاهات والآفاق ولا تبلغها ، لا فى القرآن

الكريم ، ولا فى سنة رسول الله الكريم ـ لابد أن يهتف فى نفسه سؤال :

لماذا نالت هذه القضية كل هذه العناية فى كتاب الله الكريم ، ولماذا أنفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم كل هذا الجهد فى تثبيت هذه الحقيقة وتعميقها فى ضمائر المسلمين ، وفى حياتهم كذلك ؟

لماذا شغلت هذه القضية كل هذا الحيز الواسع فى القرآن كله ؟ لماذا وردت فى معرض «الاعتقاد» وفى معرض «العبادة» . وفى معرض «الحكم» فى القرآن المكى والقرآن المدنى سواء ؟

لماذا كانت هذه الحقيقة بكل مدلولاتها هى قاعدة التصور الإسلامى ، ونقطة التقاء ـ بل نقطة انبثاق ـ مقوّماته ؟ ولماذا جعلها الله خصيصة من خصائص هذا التصور ، وأفرده بها فى النهاية ؟

لقد علم الله ـ سبحانه ـ وعلّم رسوله الكريم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أن هذا هو مفرق الطريق بين الصلاح والفساد فى الأرض ، فى ضمائر الناس وفى حياتهم . . وأنه لابد من وضوح كامل ، وبيان حاسم ، لمفرق الطريق . .

فما يمكن أن يستوى «الإنسان» فى مكانه الذى خلقه الله عليه «فى أحسن تقويم» ، ولا يرتكس «إلى أسفل سافلين» . وما يمكن أن تستقيم حياة البشر وأوضاعهم . ولا أن تصلح ضمائرهم وأخلاقهم . ولا أن يتطهر سلوكهم وأعمالهم. ولا أن يحسنوا التعامل مع الكون ونواميسه ومدخراته ، ولا مع الأحياء التى بثها الله من حولهم وسخر لهم منها ما سخر . ولا أن يستقر الأمر بينهم على أساس المساواة الكريمة والعدل الجميل . ولا أن يكف طغيان الطغاة . ولا أن ترتفع جباه المستضعفين . ولا أن تتحقق الكرامة التى أرادها الله لهذا الكائن الكريم . . إلا أن تتمحض الألوهية لله ، ويتجرد منها العبيد أجمعين [1].

وإلا فلا حد لطغيان الإنسان حين يتأله ، ولا حد لهوان الإنسان حين يتعبد لإنسان مثله!

لقد كانت هذه هى رسالة الإسلام فى الأرض ، يعلن بها ميلاد الإنسان الجديد . الإنسان المتحرر المتطهر الكريم . الإنسان الذى لا إله له إلا الله ، ولا معبود له إلا الله ، ولا حاكم له إلا الله . . هذه الرسالة التى عبر عنها فى بساطة عجيبة ، ربعى بن عامر . رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس . وهذا يسأله : ما لذى جاء بكم ؟ فيجيبه للتو واللحظة ، فى هذه البساطة الجامعة :

---

(١) يراجع كذلك ليضاف إلى هذا البيان ما كتب فى فصل «التوحيد» فى القسم الأول من هذا الكتاب ص ١٢٦ـ ص ٢٣٤ وفصل «الشمول» ص ١٢٦ ـ ١٣٣ . وفصل «الإيجابية» ص ١٧٣ـ١٨٢ .

« الله ابتعثنا لنخرج من شاء ، من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده . . . » .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة الشامخة فى ضمائر المسلمين استقرار الفطرة المكينة العميقة البسيطة ، حتى كان الرجل من عامة المسلمين يتحدث عنها عفو الخاطر . بهذه البساطة العابرة ، فينطق - فى كلمات معدودات - بأكبر حقيقة عرفتها البشرية ، وأكبر حدث تم فى تاريخها الطويل . .

« الله ابتعثنا . لنخرج من شاء . من عبادة العباد . إلى عبادة الله وحده . . . » .

وفى عبادة العباد تنطوى جميع الوثنيات والجاهليات التى عرفتها البشرية والتى ستعرفها إلى يوم القيامة . . عبادة الأرواح والطواطم . وعبادة الملائكة والجن ، وعبادة الأصنام والأوثان . وعبادة النجوم والأفلاك . وعبادة الآباء والأجداد . وعبادة الحكام والكهان . وعبادة الأحبار والرهبان . وعبادة الأهواء والشهوات . وعبادة الأصنام التى تتزيا بشتى الأزياء ، فتتبدى تحت أسماء « الطبيعة » و «الإنسان » و « الحياة » و « الاقتصاد » و «الجنس » و « والقوم » و « الوطن » و «الزعيم » . . وشتى هذه الأزياء !

وفى عبادة العباد تنطوى جميع الأنظمة والأوضاع ، وجميع المذاهب والنظريات ، التى تنتهى إلى أن تحكم حياة الناس وسياستهم واقتصادهم واجتماعهم ، وقيمهم وموازينهم ، وعاداتهم وتقاليدهم . . . شريعة من صنع البشر - فى صورة من الصور - غير شريعة الله ، ومنهجه الفريد للحياة .

العبادة بمعنى التأليه والاعتقاد فى قدرة هذه « العباد » على شىء فى عالم ما وراء الطبيعة ، والشفاعة التى لا ترد عن الله سبحانه ، والاستنصار بها والاعتزاز .

والعبادة بمعنى تقديم الشعائر والقرابين ، والدعاء والصلاة ، والضحايا من الثمار والحيوان والإنسان أيضًا ، على اختلاف مراسم الشعائر على مدار الزمان .

والعبادة بمعنى الطاعة والخضوع والاتباع والإذعان ، وقبول الحاكمية والتشريع ، وأنظمة المجتمع وأوضاع الحياة ، والقيم والموازين ، وسائر ما يشكل حياة الإنسان .

إنها كلها عبادة للعباد تختلف أشكالها ومراسمها . ويختلف المعبودون فيها والعبّاد . ولكنها كلها تلتقى فى صفة « العبودية للعبيد » وفى وصف الجاهلية المسفة المزرية بكرامة الإنسان . . وحين ترتد إليها البشرية - بعد إذ نجاها الله منها - فإنما تمثل فى ردتها ، الرجعية البائسة إلى العبودية الذليلة !

إن المقياس الذى لا يخطئ فى قياس مدى « إنسانية الإنسان » . ومدى رقيه وتقدمه .

ومدى حضارته وتمدنه . . هو أن يخرج من عبادة العباد ـ فى كل صورها وأشكالها ـ ومن بينها عبادة هواه . . ولن يخرج الإنسان من عبادة العباد جملة إلا بعبادته لله وحده . . فالفطرة البشرية مجبولة على أن تعبد إلها . . ولابد لها من عبادة إله . . والعبودية لله تلبى هذه الحاجة الفطرية ، وتعصم من العبودية لغير الله . وإلاّ تكن العبودية لله كانت لغير الله . كما نرى من تاريخ البشرية كله . فإنها لم تخل يوما من عبادة إله . إمّا أن يكون هو « الله الحق » وإما أن يكون واحدًا من العباد ـ على اختلاف العباد . وحتى الذين يلحدون الآن فى الله فإنما يؤلهون « الطبيعة » ، أو « الإنسانية » ، أو « الحياة » ، أو « الاقتصاد » ، أو « الجنس » ، أو « الشهوة » ، أو « ماركس » ، أو « لينين » ، أو فلانا من الناس !!! ويتوجهون إلى المعبود الزائف بكل ما فى فطرتهم ، من حرارة التوجه ، ومن انفعال العبادة، ومن الإذعان والطاعة والخضوع والاتباع !!!

وكلها أصنام وأوثان ، لا يفرقها من أصنام الجاهلية وأوثانها إلا الأسماء والأشكال والأزياء !!!

من أجل ذلك كله لا يكافح الإسلام ـ كما أسلفنا ـ لمجرد « الاعتقاد» ولمجرد «التدين»؛ فالتدين فطرة والاعتقاد ضرورة. والإلحاد المطلق نزعة عارضة شاذة. وهو مجرد تحويل لفطرة التدين وطاقة الاعتقاد عن الجهة الصحيحة القويمة، إلى جهة باطلة زائفة . .

إنما يكافح الإسلام لتصحيح الاعتقاد وتصحيح التدين . . يكافح من أجل التوحيد المطلق الشامل ، بكل مدلولاته ، فى كل ركن من أركان الضمير ، وكل ركن من أركان الحياة .

إنه يكافح عبادة الصنم والوثن . وعبادة الشمس والقمر . وعبادة الروح والطوطم . . كما يكافح عبادة الشيطان والملك . والنبى والراهب . وعبادة العبد المتسلط الحاكم بغير ما أنزل الله . . سواء . .

والعقيدة المنحرفة ـ ولو كان لها أصل سماوى ـ هى عقيدة منحرفة ، لا يمدّ لها الإسلام يده ؛ ليتعاون معها فى دفع الإلحاد ، ولا يكون بينه وبينها ولاء . فالعقيدة المنحرفة والإلحاد سواء من ناحية أنهما يناقضان « التوحيد » الذى يريده الإسلام . وهما قريبتان فيما تنشئانه فى ضمائر الناس وأخلاقهم ، وفى حكمهم وأوضاعهم ، من الشر والفساد .

ونظام الحياة المنحرف ـ الذى لا يقوم على إفراد الله سبحانه بالحاكمية ممثلة فى الاحتكام إلى شرعه وحده ـ هو « دين » باطل . . دين غير دين الله . . لا يمد إليه الإسلام يده

ليتعاون وإياه ، لمجرد أنه لا يعلن الإلحاد ! فنظام الحياة المنحرف عن دين الله ، هو والإلحاد سواء ـ من ناحية العقيدة ـ فى كلا منهما ينكر ويرفض ألوهية الله فى الأرض وفى حياة الناس . وهو والإلحاد سواء فيما ينشئانه فى ضمائر الناس وأخلاقهم ، وفى حكمهم وأوضاعهم ، من الشر والفساد .

لقد جاء الإسلام ليرد خصائص الألوهية كلها الله ـ سبحانه ـ فى الاعتقاد والعبادة والحاكمية . وليكف عنها أيدى المعتدين عليها . المدعين للألوهية وهم عبيد . . وليصحح فى الضمائر والعقول ، كل التصورات المنحرفة التى تؤدى إلى عبادة العباد . سواء تمثلت فى وثنية ساذجة ، أم فى ديانة ذات أصل سماوى منحرفة ، أم فى إلحاد فاجر ، أم فى نظام من أنظمة الحكم يحكم الناسَ فيه إلهٌ غير الله ، حين تحكم الناس فيه شريعة غير شريعة الله .

ولقد علم الله أن الشر كله فى الأرض ، والفساد كله فى حياة الناس ، إنما ينبثقان من الانحراف ـ فى شتى الصور ـ عن إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية وكل خصائصها ، وعن السماح لأىٍّ من العبيد ـ فى شتى الصور ـ بادعاء شىء منها . ولا صلاح يمكن أن يقع ، ولا استقامة يمكن أن تنشأ ، إلا إذا بدأت الحركة من ذلك الأصل ، وقامت على هذا الأساس وإلا فكل جهد ضائع ، وكل محاولة هباء . .

ولقد بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجزيرة العربية نهب مقسم بين الرومان فى الشمال والفرس فى الجنوب يضعون أيديهم على أخصب بقاع الجزيرة ، وعلى سواحل البحار ، وعلى موارد الأرزاق والاتجار .

وبعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، تمثل عهد الرق بمعظم سماته المميزة .

وبعث صلى الله عليه وسلم والأخلاق هى أخلاق الجاهلية فى الخمر والنساء والقمار واللهو والشر والفساد . . فلم يبدأ ـ ولم يوجهه ربه إلى البدء ـ بشىء من هذا كله . . وقد كان يملك أن يدعو العرب إلى وحده قومية ، لطرد الرومان والفرس من أخصب بقاع الجزيرة ، ويوجه طاقة القتال فيهم والثارات بينهم إلى أعدائهم القوميين ! فيدينوا له بالزعامة ، وينسوا ما بينهم من أحقاد ، وقد يرتفعون عن حياة اللهو الهابط الهابط شيئاما . وكذلك بعد أن يقودهم من نصر إلى نصر يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، ويعالج التفاوت الفاحش بين الطبقات . . .

وكان يملك منذ البدء أن يقدم للعرب نظاما مفصلا للمجتمع ، وتشريعات محددة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق . ثم يقول لهم : انظروا : هذا خير مما عندكم . . فاتبعونى وتعالوا ننفذ هذا النظام وهذه التشريعات ! فلا يكون اتباعهم له إقرارا لله بالعبودية واعترافا لله بالدينونة ، إنما يكون ذلك استحسانا لما معه من النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والأخلاقى . ويكونون هم الحكم الذى يستحسن ، أو يستهجن ويقبل، أو يرفض ، ما يجيئهم من عند الله . . وينقلب الوضع ، فبدلا من أن تكون دينونتهم لله هى دينونة الرضى والتسليم بعبوديتهم لألوهيته ، يصبحون هم فى موقف الحكم الذى يقبل ، أو يرفض حكم الله !

ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم ، وكان يعلّم نبيه ويوجهه ، أن هذا ليس هو الطريق وأن هذا ليس الأساس . . إنما الأساس أن يعرف الناس ربهم الحق ، ويدينوا له بالعبودية وحده ويتحرروا من عبادة العباد ، ويقبلوا كل ما يجيئهم من عند الله ـ لأنه من عند الله ـ فى استسلام كامل ـ هو الإسلام ـ وفى رضى بما رضيه الله . . ومن ثم ناط الإيمان بألا يجدوا فى أنفسهم حرجا وأن يسلموا تسليما . وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم ، وكان يعلم نبيه ، أن رد الاعتداء على سلطان الله الذى يدعيه العبيد ، والغيرة على جلال الله الذى يتطاول عليه العبيد ، يجب أن يتم قبل رد الاعتداء عن أطراف الجزيرة ، وقبل رد اعتداء بعض الناس على بعض فى الجزيرة ؛ لأنهم لن يردوا الاعتداء عن أنفسهم أبدا وقد ارتضوا الاعتداء على جلال الله . . وانهم إن تحرروا من المعتدين الغرباء ، فإنهم سيستعبدون للمعتدين منهم . كما يستعبدون لهواهم وشهواتهم . وكلها عبودية . والعبودية كلها سواء ! . . وأنهم ينبغى أن يتحرروا أولا من عبادة العباد جملة ، وعندئذ ينطلقون فى الأرض أحرارا محررين ، يخرجون من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده وهذا هو الذى كان . . وهذا هو منهج الله ، الذى لا منهج لمسلم سواه . .

ولم يستثن المنهج الإلّهى فى التحرير الشامل للإنسان عبودية من العبوديات . . وإذا كان القرآن الكريم قد ندد بجاهلية الأصنام والأوثان ، والشموس والأقمار ، والجن والملائكة والأرواح والطواطم . . فقد ندد كذلك بجاهلية الديانات السماوية المنحرفة . وجاهلية الحاكمية البشرية المتألهة . وجاهلية الهوى الذى يتخذه بعض الناس إلها .

وقال سبحانه :

« وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم

يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون » . .

(التوبة : ٣٠)

وقال سبحانه :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » . .

(التوبة : ٣١)

وقال سبحانه :

« وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » . . .

(الأحزاب : ٦٧ : ٦٨)

وقال سبحانه :

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضلّه الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكّرون ؟ » . .

(الجاثية : ٢٣)

إنه كله انحراف عن الصراط المستقيم الواحد الواصل إلى الله . وإنه كله شر وفساد فى التصور لا ينشأ عنه إلا الشر والفساد فى ضمائر البشر وأخلاقهم ، وفى أنظمتهم وأوضاعهم . وقد جاء الإسلام ليصحح كل انحراف فى التصور والضمير ، وليكافح كل شر وفساد فى الحياة . ومن ثم فلا تعاون مع انحراف ولا هدنه مع فساد .

إن المسافة هائلة بين حياة بشرية تقوم على أساس العبودية لله وحده ، وحياة أخرى تقوم على أساس العبودية للعباد . بين حياة تقوم على توحيد السلطة التى يتعامل معها الإنسان فى ضميره وعمله ، وفى سره وجهره ، وفى دنياه وآخرته ، وحياة تقوم على هذا التمزق الذى ينشئه فى النفس والحياة التعامل مع شتى السلطات والأرباب . . .

المسافة هائلة فى « التصور الاعتقادى » ، الذى يفسر حقيقة العلاقات بين الإنسان وخالق هذا الكون ، وبين الإنسان وكل مافى هذا الكون ، وكل من فى هذا الكون . .

والمسافة هائلة فى « المشاعر والأخلاق الإنسانية » ، التى تنبثق من تصور ، الألوهية فيه لله وحده ، وتصورات شتى تؤله شتى القيم وشتى الأشخاص ، وشتى الأصنام المختلفة الأسماء والشارات والأزياء !

والمسافة هائلة فى « أوضاع الحياة الإنسانية » ، التى تنبثق من تصور ، الألوهية فيه لله وحده ، وتصورات شتى ، تقيم آلهة من البشر لهم الحاكمية بإرادتهم وهواهم - فى شتى الصور - آلهة تعبّد الناس لما تشرعه لهم من أنظمة وقيم وأوضاع وأحكام تستمد سلطانها منهم لا من الله . ويخضع فيها العبيد للعبيد . . وهى أحط صورة يرتكس إليها البشر ، وأسفل درك ينحط إليه « الإنسان » .

إن الذين يتحدثون عن « كرامة الإنسان » ، أو عن « حقوق الإنسان » ، أو عن « حرية الإنسان » ، أو حتى عن « إنسانية الإنسان » . . فى ظل أنظمة وأوضاع من صنع البشر ، يعبد فيها العبيد العبيد . . إنما يتحدثون عن خرافة . وإنما يخدعون أنفسهم ، أو يخدعون غيرهم بأن لهم كرامة الإنسان ، وحقوق الإنسان ، وحرية الإنسان ، أو حتى لإنسانية الإنسان !

إن « الإنسان » ذاته ، لا يوجد فى ظل نظام من صنع البشر ، يعبد فيه العبيد العبيد . . إنما يوجد الإنسان يوم يدين الناس كلهم لإله واحد ، يتلقون منه منهج حياتهم، ولا يدين بعضهم لبعض ، فى صورة من صور الدينونة ، فى حال من الأحوال .

وكرامة الإنسان . وحقوق الإنسان . وحرية الإنسان . وإنسانية الإنسان . . لا توجد إلا يوم يوجد الإنسان !

إن جميع المقاييس التى يقيسون بها « التقدم » و « الرقى » ، و « الحضارة » مقاييس سطحية ، وجزئية ، وخادعة . إنها تقيس تقدم الآلة . وترقى السلعة . وحضارة العبيد !

إن « الإنسان » الذى تقاس حضارته ورقيه وتقدمه بمقاييس « الإنسان » لا يوجد فى هذه الأرض، إلا فى ظل وضع خاص . . ذلك يوم أن يخرج الناس من عبادة العباد - جملة - إلى عبادة الله وحده . . عقيدة وعبادة وحاكمية . . ولقد توافر ذلك الوضع الخاص يوم أن لم يكن لأحد على أحد من سلطان - إلا سلطان الله - ويوم لم تكن لأحد ألوهية على أحد . لأن الألوهية كانت كلها الله . ويوم أن كانت الدينونة لله وحده على العباد كلهم فى الدنيا وفى الآخرة سواء .

وحين يتحقق هذا الوضع . . وحينئذ فقط . . يمكن أن تحتسب فتوحات العلم، وتيسيرات الصناعة ، وجمال الفن ، والإبداع فى عالم المادة ، كسبا لـ «الإنسان » . لأن الإنسان يومئذ يكون فى مقامه الكريم ، مقام المستخلف عن الله فى الأرض . العابد لله وحده دون سواه . المتحرر من سلطان غيره ومن سلطان هواه!

ومن هنا ندرك لماذا نالت قضية الألوهية والعبودية كل هذه العناية فى المنهج القرآنى الكريم ، ولماذا تقدمت فى المنهج النبوى على كل إصلاح وكل تنظيم . ولماذا كانت هذه الحقيقة هى قاعدة التصور الإسلامى . ولماذا كانت هى مناط الكفر والإسلام فى هذا الدين . .

إنه تقدير الله الذى لا يخطئ وميزان الله الذى لا يميل .

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول :

« بدأ هذا الدين غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ . فطوبى للغرباء ! » . . .

ولقد بدأ هذا الدين بالتوحيد الخالص فى وجه جاهلية الشرك الشاملة . . ولقد عاد هذا الدين غريبا كما بدأ ، وعاد يواجه جاهلية الشرك الشاملة ـ فى صورها الجديدة ـ بالتوحيد الخالص . . من جديد . . فمن هم يا ترى أولئك « الغرباء » . السعداء بدعاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم بالحسنى ؟ والذين يحملون راية التوحيد الخالص فى وجه جاهلية الشرك الشاملة من جديد ؟ ليبدأوا الجولة الثانية كما بدأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الجولة الأولى ؟ ليخرجوا من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ؟ إن الراية تنتظر العصبة المؤمنة . وهذا القرآن حاضر . . وريح الجنة تفوح . . من بعيد . . لا . . بل من قريب . .

حقيقة الألوهية

« ليس كمثله شىء وهو السميع العليم »

الحقيقة الأولى . والحقيقة الكبرى . والحقيقة الأساسية . والحقيقة الفاعلة . والحقيقة العميقة فى التصور الإسلامى هى . . حقيقة الألوهية . . .

وهى فى طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية . ولكن حسب « الإنسان » منها ما يصح به تصوره ، وما يستقيم به فكره ، وما يصلح به ضميره ، وما تنتظم به حياته ، وما يعرف به حقيقة مركزه ، ودائرة سلطانه ، ومقضيات عبوديته لهذه الألوهية . . وهو قادر على إدراك هذا القدر عن تلك الحقيقة الكلية المطلقة الأزلية والأبدية . . القدر الذى لا يصح له تصور ، ولا يستقيم له فكر ، ولا يصلح له ضمير ، ولا تنتظم له حياة ، ولا يتحدد له اتجاه ، ولا يفلح له سعى ، ولا يقبل منه عمل ، إلا حين يصلح إدراكه له . لا إدراك « الفكرة » أو «النظرية » ببرودتها الساكنة ! ولكن إدراك « العقيدة » بحيويتها الدافعة . وإلا حين يقوم خلقه وسلوكه ، وتقوم حياته وأوضاعه ، وتقوم شرائعه وقوانينه ، وتقوم قيمه وموازينه ، وتقوم معرفته وثقافته ، ويقوم نشاطه فى الحياة كله على أساس هذه العقيدة . .

و « الإنسان » لا يملك أن يكون شيئًا فى واقع هذه الأرض ، ولا يملك أن يكون شيئًا فى حساب هذا الوجود . . سواء فى عالم الغيب أم فى عالم الشهادة . . ولا يستطيع أن يكون قوة فاعلة ، وأن يكون له دور إيجابى ، وأن يحقق غاية وجوده الإنسانى ـ كما أرادها الله ـ إلا أن يمتلئ حسه وضميره ، وقلبه وعقله ، وكينونته كلها بحقيقة الألوهية ، وإلا أن يعرف بالضبط موقفه من هذه الحقيقة ، وموقف سائر العبيد منها ، وموقفه كذلك من إخوانه العبيد[1] .

---

(١) راجع فى معنى العبودية والعبيد المقصود فى التصور الإسلامى فصل « ألوهية وعبودية » السابق ، وكتاب « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للسيد أبى الأعلى المودودى .

و « المسلم » مكلف ـ بصفته الإنسانية ـ خلافة الأرض بعهد الله وشرطه . ومكلف ـ بصفته الإسلامية ـ إنشاء واقع فى الأرض غير واقع الجاهلية ، وتحقيق ميلاد « للإنسان » جديد غير ميلاده فى الجاهلية ! واقع يقوم على عهد الله وشرطه ، ويحكم منهج الله وشريعته . وميلاد يتحرر فيه من عبادة العباد ، وينطلق على سواء مع سائر العباد . . وهو واجد فى طريقه عقبات من الواقع الجاهلى كأداء ، وملاق فى طريقه تضحيات مريرة، وآلامًا هائلة ، ومشقات ضخمة ، على طول الطريق . . وما يمتلئ حسه وضميره، وقلبه وعقله ، وكيانه كله ، بحقيقة الألوهية ، ويدرك على وجه اليقين الواضح، والجزم الحاسم ، ما تتطلبه منه علاقته بهذه الحقيقة ، فإنه لن يقوى على الكفاح والصمود ، والمضى قدمًا فى الطريق الكؤود ، لإنشاء الواقع الجديد ، وليشهد فى نفسه وفى غيره ميلاد الإنسان الجديد !

إنه مطلوب منه أن يغير وجه العالم ، وأن يقيم عالمًا آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ، ويبطل سلطان الطواغيت[1] . عالما يُعبد فيه الله وحده ـ بمعنى العبادة الشامل[2] ـ ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالما يخرج فيه الناسُ . . من شاء الله منهم . . من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ـ كما قال ربعى بن عامر ، رسول قائد المسلمين ، لرستم قائد الفرس الشهير ـ ومطلوب منه أن يقف فى وجه الباطل والظلم والفساد ، وأن يغيّر تصورات وأوضاعا ، وقيما وموازين ، وشرائع وقوانين ، وأن يتعرض للغربة والوحشة ، والأذى والابتلاء . . وهو لا يواجه هذا كله إلا إذا امتلأ كيانه كله بحقيقة الألوهية ، بحيث ترجح فى حسه كل شىء . وإلا إذا امتلأت نفسه « بوجود » الله سبحانه «حضوره» فى حسه وضميره ، وقلبه وعقله ، وفى كيانه كله وحياته كلها .

والمنهج القرآنى يزحم الشعور الإنسانى بحقيقة الألوهية ، ويأخذ على النفس أقطارها جميعًا بهذه الحقيقة . وهو يتحدث عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته ، وآثار قدرته وإبداعه ، فتتمثل فى الضمير البشرى تلك الحقيقة . حقيقة الذات الخالقة لكل شىء ، المالكة لكل شىء المحيطة بكل شىء ، المهيمنة على كل شىء ، المدبرة لكل شىء ،

---

(١) راجع معنى « الطاغوت » فى تفسير الإمام ابن جرير الطبرى المذكور فى فصل « ألوهية وعبودية » السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) راجع فى معنى « العبادة » الشامل كتاب « المصطلحات الأربعة » للمسلم الكبير السيد أبى الأعلى المودودى .

المؤثرة فى كل شىء ، وتشغل مشاعر الإنسان وحسه ، وضميره وعقله ، وكيانه كله . بهذه الحقيقة وخصائصها ، وقدرتها وقوتها ، ورحمتها ورعايتها ، وجلالها ومهابتها ، وأنسها وقربها ، وإحاطتها بالكون والناس فى كل وضع وفى كل حال . بحيث تستشعر النفس ـ كما هو الأمر فى الواقع ـ أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأن ليس مهرب منه ولا فوت ، وأن ليس سواه عون ولا سند ، وأن ليس هناك وجود لشىء ـ قائم بذاته ـ إلا ذات الله سبحانه ، القوامة على جميع الخلائق الحادثة الفانية .

وهذا هو الشعور القوى الغامر الحى الذى يخرج به الإنسان من قراءة القرآن الكريم . . الشعور بوجود الله ـ سبحانه ـ وبحضوره كذلك . . وجوده الذى لا يماثله وجود آخر من وجود الأشياء والأحياء الحادثة الفانية . . وحضوره الذى لا يزايل الإنسان لحظة من ليل أو نهار . فى أى وضع وفى أى حال .

والمنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية منهج فريد . . إنه يوقع على أوتار النفس البشرية جميعها ، ويدخل عليها من منافذها كلها . . يوقع على أوتار الخوف والحذر والرجاء والطمأنينة . وعلى أوتار المهابة والجلال والأنس والود . وعلى أوتار القهر والجبروت والرأفة والرحمة ، وعلى أوتار النقمة والعذاب والنعمة والعطاء ، وعلى أوتار المغايرة الكاملة بين الألوهية والعبودية مع الأنس ، والقرب بين الله وعباده ، ويخاطب وجدان الجمال بما فى الكون والنفس من ألوان وأطياف ، كما يخاطب وجدان المجهول بالغيب وما وراء الأستار من قدر الله[1] . .

وكما يوقع على شتى الأوتار ، ويوقع على الوتر الواحد شتى الإيقاعات ، ويعرض الجانب الواحد ، أو المجال الواحد ، أو المشهد الواحد ، فى شتى الأضواء ، ومن شتى الزوايا ، وفى شتى الأوضاع . .

ويكفل . بهذا التنويع الشامل الفريد ، أن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، تلك الحقيقة الكبرى ، خطابا متفردًا ، يشهد بذاته على أن هذا المنهج من صنع الله ، لا يقدر على مثله سواه .

ويشعر المتدبر لهذا القرآن أن هذا موضوعه ، وأن هذه هى غايته ، وكل آيه فيه وكل

---

(١) يراجع فى الجزء الأول من كتاب « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب فصل « خطوط متقابلة فى النفس الإنسانية » .

فقرة وكل توجيه فيه وكل تعليم . . . هو ـ فى الحقيقة ـ جانب من جوانب التعريف بالله ، تعريف الناس بحقيقة ذاته ـ سبحانه ـ وحقيقة صفاته . . على قدر ما يعلم سبحانه أنهم يدركون منها ويطيقون . .

ويعنى المنهج القرآنى بتجلية حقيقة الألوهية ـ فى ذاتها ـ فى مواضع منه قليلة . ولكنه يكثر من عرض هذه الحقيقة من خلال آثار قدرة الله فى الوجود . . فى عوالم العبودية . . فيبدو الكون والأحياء معرضا لآثار هذه القدرة ، وكتابا مفتوحًا تُقرأ فيه آياتها الباهرة . ومن خلال الكون والحياة والإنسان تتجلى الحقيقة الإلّهية بآثار الإبداع المتفردة . ومواضع التجريد فى التعريف بهذه الحقيقة قليلة قلة ظاهرة فى القرآن ، إذا هى قيست بالمواضع التى يتجلى فيها المبدع ـ سبحانه ـ فى بدائع الصنعة . . وهذا طابع بارز للمنهج القرآنى يجعل التجريدات الفلسفية التى اصطبغت بها الفلسفة المسماة « الفلسفة الإسلامية » ! «والمجادلات المنطقية الذهنية التى اصطبغ بها « علم الكلام » بعيدة تمامًا عن المنهج القرآنى فى تجلية تلك الحقيقة الكبرى . .

لقد جلّى القرآن للناس حقيقة الألوهية من خلال آثار فاعليتها المتجلية فى الكون والحياة المصرفة لأقدار العباد . وعرض لهم من هذه الآثار فى الأنفس والآفاق ما يملأ الكينونة البشرية بالإجلال والحب ، وبالخشية والتقوى ، وبالرجاء والثقة ، وبالأنس والقرب ، وبالحذر واليقظة ، وبالشعور الدائم بوجود الله ـ سبحانه ـ وحضوره ، بحيث لا يملك القلب المؤمن أن ينسى ، أو أن يغفل ، عن ذلك الوجود وعن هذا الحضور لحظة ، فى أى وضع وفى أى حال .

و « شهادة » أن لا إله إلا الله . . تتطلب أن يصل الإحساس بوجود الله ـ سبحانه ـ ووحدانيته حد اليقين الناشئ من مثل الرؤية والمشاهدة . فهى رؤية ومشاهدة لهذه الحقيقة ـ بآثارها ـ فى أغوار النفس المكنونة . وفى صفحات الكون المنشورة . ـ رؤية واضحة ومشاهدة مستيقنة ، تقوم عليها « شهادة » . .

والقرآن الكريم ، بمنهجه ذاك ، هو الذى يستحيى هذه الحقيقة الكامنة فى الفطرة ، حتى يراها القلب البشرى يقينا يشهد به ، ويؤدى هذه « الشهادة » بناء عليه . . وقد بلغ المنهج القرآنى فى هذا شأوًا لا يطاول ، حين صنع العصبة المؤمنة ، التى تحس بحقيقة الألوهية فى مثل اليقين الناشئ من المشاهدة ، وتعيش مع هذه الحقيقة وتراها حيثما كانت، وحيثما توجهت ، فى حساسية مرهفة عجيبة .

ولقد كنت ـ وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى ـ أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله ـ سبحانه ـ وحضوره فى قلوبهم وفى حياتهم ، فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟ كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة فى قلوبهم وفى حياتهم على هذا النحو العجيب ؟ كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟ كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا ، وتكون معهم أينما كانوا وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة وحضورها فى قلوبهم وفى حياتهم . . ولكنى لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟! . . حتى عدت إلى القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل . . تجليه حقيقة الألوهية وتعبيد الناس لها وحدها بعد أن يعرفوها . . وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله ! أدركت ـ ولا أقول أحطت ـ سر الصناعة ! عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد فى تاريخ البشرية وكيف صنع ! إنهم صنعوا هاهنا ! صنعوا بهذا القرآن ! بهذا المنهج المتجلى فيه ! بهذه الحقيقة المتجلية فى هذا المنهج ! حيث تحيط هذه الحقيقة بكل شىء ، وتغمر كل شىء ، ويصدر عنها كل شىء ، ويتصل بها كل شىء ، ويتكيف بها كل شىء .

لقد وُجدت هذه الحقيقة فى نفوس الناس وفى حياتهم كما لو توجد من قبل قط فى نفوس الناس وفى حياتهم . وجدت بكل مقوّماتها ، وبكل إيحاءاتها ، وبكل تأثيراتها . . وجدت حية فاعلة قوية شاملة . . تتعامل مع الناس ـ كما تتعامل مع الوجود كله ـ ويتعامل معها الناس ـ كما يتعامل معها الوجود كله .

الله هو الأول والآخر والله هو الظاهر والباطن . والله هو الخالق والرازق . والله هو المسيطر والمدبر . والله هو الرافع والخافض . والله هو المعز المذل . والله هو القابض والباسط . والله هو المحيى والمميت . والله هو النافع والضار . والله هو المنتقم الجبار . والله هو الغفور الودود . والله هو العلى الكبير . والله هو القريب المجيب . . والله هو الذى يحول بين المرء وقلبه . والله هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . والله هو العليم بذات الصدور . وهو معهم أينما كانوا . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته . وهو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . ولا ملجأ

من الله إلا إليه . وما لهم من دونه من والٍ . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا .

وهكذا . . وهكذا . . . جعلت هذه الحقيقة تملأ على الناس حياتهم ، وتواجههم فى كل درب ، وتتراءى لهم فى كل صوب ، وتأخذ على أنفسهم أقطارها ، وتعايشهم وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو والأسحار ، وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس . بل حين يستخفون من نفوسهم التى بين جنوبهم !

بهذا كله وجدت ـ فى الأرض وفى دنيا الناس ـ حقيقة أخرى . . حقيقة « الربانية » متمثلة فى ناس من البشر . وُجد « الربانيون » الموصولون بالله . العائشون بالله . ولله . الذين ليس فى قلوبهم وليس فى حياتهم إلا الله ، الذين فرغت قلوبهم من حظ أنفسهم ، ولم يعد لهم حظ إلا فى الله . ولله .

وُجدت حقيقة « الربانية » هذه فى الناس ، حينما وُجدت حقيقة الألوهية بصورتها هذه فى عالم الناس . حينما وُجدت بهذه القوة ، وبهذا الوضوح ، وبهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الإحاطة التى تحجب كل وجود غيرها ، وتكشف كل مؤثر سواها ، وترد الأمر كله ـ كما هو فى حقيقته ـ لله . .

وحينما وجدت حقيقة « الربانية » هذه فى دنيا الناس ، ووجد « الربانيون » الذين هم الترجمة الحية لهذه الحقيقة . . حينئذ انساحت الحواجز الأرضية . والمقررات الأرضية والمألوفات الأرضية . . ودبت هذه الحقيقة على الأرض ، حرة من الحواجز . حرة من المقررات . حرة من المألوفات ، وصنع الله ما صنع فى الأرض وفى حياة الناس ، بتلك الحفنة من العباد ، الذين تمثلت فيهم تلك الحقيقة الكبيرة ، التى ليس وراءها حقيقة إلا ما اتصل بها واستمد منها فأصبح له وجود مؤثر فى هذا الوجود !

وبطلت الحواجز التى اعتاد الناس أن يروها تقف فى وجه الجهد البشرى وتحدد مداه . وبطلت المألوفات التى يقيس بها الناس الأحداث والأشياء . وبطلت المقررات التى كان الناس يحكمونها فى الأوضاع والأحداث . وثبتت هذه القيمة الجديدة ـ فى عالم الواقع ـ لأنها وحدها القيمة ذات الوجود الحقيقى الكبير !

ووجد الواقع الإسلامى الجديد . وولد معه الإنسان الحقيقى الجديد !

* * *

ولا يبلغ قول قائل فى تقرير « حقيقة الألوهية » ولا فى تجلية هذه الحقيقة فى الضمير ، ما يبلغ القرآن الكريم ، بمنهجه الربانى الفريد ، وأسلوبه المشرق العجيب . . وليس هذا الذى نحاوله فى هذا البحث ـ من إبراز « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فى النصوص القرآنية المقتطفة المنتزعة من السياق القرآنى الحى ـ ببالغ شيئًا مما يبلغ القرآن الكريم بطريقته المتفردة . ولكنها الضرورة ـ كما ذكرنا مرارًا ـ ضرورة هذا الجيل ، الذى بعد بحسّه وبذوقه ، وبمشاعره وتصوراته ، وبواقعه وملابسات حياته ، عن هذا المصدر الذى ليس فيها دونه غناء .

لذلك نؤثر قبل أن ندخل فى تفصيلات الجوانب المتعددة لهذه الحقيقة الكبيرة ، أن نعرض نماذج من النسق القرآنى الفريد ، فى تعريف الناس بحقيقة الألوهية ، وفى ملء كينونتهم بالوجود الإلّهى ، وملء حياتهم كذلك بالحضور الإلّهى .

ومرة أخرى نريد من القارئ أن يتمهل وهو يتابع السياق القرآنى ، وأن يحاول تذوقه ، وأن يعقد الألفة بينه وبين هذا المصدر الذى لا يغنى مصدر آخر غناءه . . وحتى الذين يحفظون القرآن من قبل ، نراها فى حاجة إلى هذه الصحبة الجديدة لهذا القرآن ، ليسمعوا الله ـ سبحانه ـ يقول لهم فيه ما لا يملك أحد من عباده أن يقول :

● « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجلٌ مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات والأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن[1] مكنّاهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ؟ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون[2] . ولو جعلناه ملكًا لجعلناه

(١) القرن : الجيل من الناس .

(٢) من سنة الله أن يرسل الملائكة ـ إذا أرسلهم للمكذبين بالرسل ـ للأخذ والتدمير فلو أجابهم لما يطلبون لقضى الأمر دون أن يمهلوا .

رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (١) . ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل : سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . قل لمن مّا فى السموات والأرض ، قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار ، وهو السميع العليم . قل : أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعِم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون » . .

(الأنعام : ١ ـ ١٩)

● « قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل : لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل : إنى على بينة من ربى ، وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخفية : لئن أنجانا لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل

---

(١) لو أرسل الله ملكًا لجاءهم فى صورة رجل . وإذن لا لتبس الأمر عليهم واختلط ، ولحسبوه رجلاً ، ولم يكن فى مجيئه لهم من يخرجهم من هذا اللبس الذى هم فيه !

كرب، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض [١] ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » . . .

(الأنعام : ٥٦ـ ٦٥)

● « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فأنى تؤفكون . فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع [٢]، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبًا ، ومن النخل من طلعها قِنوانٌ دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ وخرقوا [٣] له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة [٤] ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . . .

(الأنعام : ٩٥ـ ١٠٣)

● « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن

---

(١) كما أن عذاب المخالفين عن أمر الله قد يكون بالصواعق والزلازل ونحوها ، فهو قد يكون بتسليط بعض هؤلاء المخالفين على بعض ، ليذيق بعضهم بعضًا العذاب ! كما هو مشهود فى أحوال كثيرة .

(٢) ربما كانت هذه الآية تشير إلى مستودع الحيوانات المنوية فى صلب الذكر ، ومستقرها فى رحم الأنثى حيث تتخلق مع البويضة . والتأويل هكذا على سبيل الترجيح لا الجزم هو الأليق بجلال القران ، وبأدب المسلم مع الله .

(٣) خرقوا أى افتروا على الله الفرية الخارقة بنسبة البنين والبنات إليه سبحانه .

(٤) ليست له ـ سبحانه ـ زوجة . فهو « ليس كمثله شىء » خلق الأشياء والأحياء كلها أزواجا وهو واحد متفرد .

جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب [1] بالنهار . له معقّبات من بين يديه ومن خلفه ـ يحفظونه ـ من أمر الله . . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينشئ السحاب الثِّقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال [2] . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل : من رب السموات والأرض ؟ قل : الله، قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » . . .

(الرعد : ٨ ـ ١٦)

● « سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها [3] ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور» . . .

(الحديد : ١ ـ ٦)

وفى هذه النماذج يتمثل ـ على وجه الإجمال ـ وجود الله ـ سبحانه ـ وحضوره ، وقدرته ، وآثار هذه القدرة فى صفحات الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى أحداث الحياة . ويتجلى سلطان الله فى هذا الوجود كله متفردًا فى الدنيا والآخرة . ويستشعر القلب البشرى أن الله ـ سبحانه ـ معه ، مطلع عليه ، ناظر إليه ، عالم بسره وجهره . ويطوّف مع آثار القدرة

---

(١) سارب بالنهار : ظاهر غير مستخف .

(٢) المحال : الحول والقوة .

(٣) يعرج : يصعد .

وبدائع الصنعة ، وأسرار الخلق والتدبير ، فى آفاق السموات والأرض ، وفى آماد الدنيا والآخرة ، وفى أغوار النفس والحياة . ويحيا مع الأول والآخر والظاهر والباطن ، فى هذا العرض القرآنى الموحى المؤثر الفريد .

ولقد أشفقت وأنا أعرض هذه النماذج المشرقة الباهرة أن أمسها بتعليقى البشرى أو شرحى أو تعقيبى ، أو أن أفصل بين كل نموذج منها ونموذج بشىء من الشرح لا يبلغ آفاقها . وحرصت على أن أعيش وأن يعيش معى القارئ هذه اللحظات المشرقة فى هذه الآفاق الوضيئة ، دون أن يطمس بهاءها تدخل من أسلوبى البشرى الفانى ! وما أدرى إن كان القارئ قد تباع هذا الفيض النورانى الموحى ! وتابع هذا السياق الدقيق العميق ، فى التعريف الألوهية . ولعله من الخير له أن يعيد تلاوة هذه النماذج قبل أن نمضى فى متابعة خطوات المنهج القرآنى بالتفصيل فى تجلية هذه الحقيقة . .

* * *

والآن فلنخط الخطوة الأولى فى التعريف بحقيقة الألوهية فى المنهج القرآنى :

إن التعريف بالله ـ سبحانه ـ فى هذا المنهج يبدأ من نبذ كل ما تصوره « الفكر البشرى » أو يتصوره ـ من عند نفسه ـ عن ذات الله ـ سبحانه ـ وخصائصه ، وصفاته وأفعاله ، وكيفيات أفعاله ، وكيفيات تعلق مشيئته بالحوادث . . .

إن « الله » ـ سبحانه ـ فى التصور الإسلامى ليس من « صنع » البشر ـ كما يدعى الماديون والداروينيون وبعض علماء الأديان المقارنة وعلماء الاجتماع ، وعلماء النفس . والفلاسفة ! ليس من صنع أوضاع البشر الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ! وليس من صنع تصوراتهم وأوهامهم النابعة من تركيبهم النفسى ! أو من بدائيتهم وجهلهم وعجزهم عن مواجهة ظواهر الكون الطبيعية أو عجزهم عن تفسيرها !

إن هذه الملابسات كلها يمكن أن تصنع « الآلهة » الزائفة فى الجاهليات المتعددة ـ ومنها جاهلية « الجهل المثقف » الذى تزاوله الحضارات الحديثة ـ كما يعبر « ول ديورانت » عن الواقع ! ولكنها ليست هى التى صنعت « الله » سبحانه ، إله العقيدة الإسلامية الصحيحة وكل خلط بين الديانات البدائية الجاهلية ـ التى نشأت من الانحراف عن العقيدة التى أرسل الله بها الرسل كافة[1] ـ وبين العقيدة الإسلامية ، هو تضليل متعمد

---

(١) يراجع فصل « ألوهية وعبودية » من ص ٨٦ إلى ص ٩٨ ومقدمة قصص الرسل فى سورة الأعراف فى الظلال من ص ١٣٠٢ إلى ص ١٣٠٧ المجلد الثانى من طبعة دار الشروق .

وتلبيس مقصود ، لحمل المطاعن التى توجه إلى التصورات الجاهلية ، وإلقائها كذلك على العقيدة الإسلامية ! وهذه لا تلتقى مع تلك ، لا فى مصدر ولا فى طبيعة .

إن معرفة الله ـ سبحانه ـ فى التصور الإسلامى تبدأ من نبذ كل الصور التى انبثقت ابتداء من تصورات البشر وأوهامهم عن ذات الله ـ سبحانه وصفاته ، لتستقى مباشرة من تعريف الله لعباده بذاته وصفاته ، وخصائصه وأفعاله ، وكيفيات أفعاله ، وهى تُتلقى من هذا المصدر وحده ، ولا تتلقى من مصدر آخر غيره . ذلك أنه ليس لدى البشر مما يعرفونه شىء مثله ـ سبحانه ـ يعرفونه على مثاله ، أو يقيسونه عليه ، ويقيسون أفعاله بأفعاله ، أو يقيسون كيفيات أفعاله بكيفيات أفعاله . . والفكر البشرى يعتمد على ما يعرف ، فما لم يتلق فى هذا الشأن الخطير من المصدر الربانى وحده ، كان عرضة لأن يتلبس بالصورة التى يكوّنها ـ من عند نفسه ـ شوائب مما يعرف من الأشياء والأحوال . . والله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شىء مما خلق على الإطلاق ، ولا يملك الخيال البشرى ـ مهما اجتهد ـ أن يعثر على شبيه له فى صورة أو حال .

« ليس كمثله شىء »

(الشورى : ١١)

« ولله المثل الأعلى » . . .

(النحل : ٦٠)

« فلا تضربوا لله الأمثال » . . .

(النحل : ٧٤)

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » . . .

(الأعراف : ١٨٠)

وبتحكيم هذه النصوص الجازمة تسقط كل التصورات التى جاءت بها الوثنيات ، والتى جاءت بها الفلسفات ـ بما فيها تلك التى تسمى « الفلسفة الإسلامية » ـ والتى جاء بها « اللاهوت » ، والتى يتمحلها بعض الملحدين أو غير الملحدين باسم « العلم » الذى ليست العقيدة بجملتها من موضوعاته . . كما تسقط كل محاولة لا تستقى مباشرة ولا تتقيد تمامًا ، بما عرّف الله به نفسه ، فى المصدر الواحد الصحيح ، الذى لم يعد على ظهر الأرض كلها من مصدر صحيح سواه . . ذلك كله خرص وظن وافتراء على الله لا يرضاه . .

ولقد كان من الممكن أن نمضى شوطا طويلاً فى استعراض نماذج من تلك الوثنيات والفلسفات واللاهوت فى شتى العصور ، لبيان مدى الزيف فيها والخلط والتناقض والاختلاط . ولقد مضيت فعلاً فى هذا فى « مسودة » لهذا الفصل . . ولكنى آثرت فى النهاية أن أستغنى عن هذا الاستعراض كله ، وأن أنبذ هذا الركام جملة ، وأن أكتفى هنا بعرض هذه الحقيقة الكبرى ، كما عرضها المنهج القرآنى وحده ، مستقاة من المصدر الربانى وحده . فهذا المصدر هو وحده الذى ينبغى أن يستفتى فى هذه الحقيقة الكبيرة . .

وفى القسم الأول من هذا البحث ـ وهو الذى تناول خصائص التصور الإسلامى ـ إشارات ومقتطفات عن نماذج من ركام العقائد والتصورات والفلسفات . وليس وراء هذا الركام إلا ركام مثله ، على مدار العصور ، وفى شتى الجاهليات . . والتصورات الفلسفية ـ القديم منها والجديد ـ هى أشدها كآبة واضطرابا وتناقضًا بدون استثناء ! أما « العلم » فليس هذا مجاله على الإطلاق ، والذين يتترسون به ويتحدثون باسمه فى هذه القضية يفترون على الله ، ويفترون على « العلم » ، ويدخلونه فى غير مجاله باعترافهم هم أنفسهم فى بعض الأحيان !

إن معرفة الله سبحانه تبدأ بالخروج من تلك القلاع الكثيبة الضيقة ، الراكدة الهواء ، الكثيرة الدروب والمنعرجات التى تعيش فيها الفلسفة . . إلى الروض المشرق الأريج الجميل ، المكشوف للبصر والبصيرة ، المجلو للقلب والفكر ، الذى يخاطب الكينونة البشرية بجملتها خطابا واضحا بسيطًا ، عميقًا كذلك دقيقًا . . كما تقتضى المباحث الدينية من رواسب الوثنيات والأساطير . . ومن أسطورة « العلم » أيضًا . والعلم حين يحاول الدخول فى قضية العقيدة يصبح أسطورة من الأساطير ! ذلك أن مجاله الوحيد هو هذا الكون المادى ، وقوانينه التى تحكمه . . وهو لا يستطيع بطبيعة أدواته وطبيعة مجاله أن يتجاوز هذا الكون وقوانينه إلى الله الذى أنشأه وأودعه هذه القوانين . . فهذا خارج كلية عن طاقته واختصاصه .

* * *

إن المنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الكون والحياة معرضًا رائعًا تتجلى فيه هذه الحقيقة . . تتجلى فيه بآثارها الفاعلة ، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة . . إن هذا المنهج لا يجعل « وجود الله » ـ سبحانه ـ قضية يجادل عنها . فالوجود الإلهى يفعم القلب البشرى ـ من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على

السواء ـ بحيث لا يبقى هنالك مجال للجدل حوله . إنما يتجه المنهج القرآنى مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود فى الكون كله ، وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك فى الضمير البشرى وفى الحياة البشرية .

والمنهج القرآنى فى اتباعه لهذه الخطة إنما يعتمد على حقيقة أساسية فى التكوين البشرى، فالله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق . .

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . . .

(ق : ١٦)

والفطرة البشرية ـ كما أسلفنا الحديث فى إحدى فقرات الفصل السابق ـ بها حاجة ذاتية إلى التدين ، وإلى الاعتقاد بإلّه ـ بل إنها حين تصح وتستقيم تجد فى أعماقها اتجاها إلى إله واحد ، وإحساسًا قويًا بوجود هذا الإلّه الواحد ـ ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست هى إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه ، فهذا مركوز فى الفطرة ، ولكن وظيفتها هى تصحيح تصور الإنسان لإلّهه ، وتعريفه بالإلّه الحق الذى لا إلّه غيره . تعريفه بحقيقته وصفاته ، لا تعريفه بوجوده وإثباته ، ثم تعريفه بمقتضيات وجود الله فى حياته . والشك فى حقيقة الوجود الإلّهى أو إنكاره ، هو بذاته دليل قاطع على اختلال بيّن فى الكينونة البشرية ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها . وهذا التعطل لا يعالج ـ إذن ـ بالجدل ، وليس هذا هو طريق العلاج !

إن هذا الكون ـ كما سنعرف فى فصل « حقيقة الكون » بالتفصيل ـ كون مؤمن مسلم ، يعرف بارئه ويخضع له ويسبح بحمده كل شىء فيه وكل حى ـ عدا بعض الأناسىّ ـ و «الإنسان» يعيش فى هذا الكون الذى تتجاوب جنباته بأصداء الإيمان والإسلام ، وأصداء التسبيح والسجود . وذوات كيانه وخلاياه تشارك فى هذه الأصداء ، وتخضع فى حركتها للنواميس التى قدرها الله . فالكائن الذى لا تستشعر فطرته هذه الأصداء ، كلها ، ولا تحس إيقاع النواميس الإلّهية فيها هى ذاتها ، ولا تلتقط أجهزته الفطرية تلك الموجات الكونية ، والإيقاعات المتجاوبة بين الكون والكينونة البشرية ، هو ـ كما قلنا من قبل ـ كائن مسيخ ! كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . ومن ثم لا يكون هنالك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه ، واستجاشة كوامن الفطرة فى كيانه لعلها تتحرك ، وتأخذ فى العمل من جديد .

ويصور القرآن الكريم تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة واختلالها ، وموت القلوب وعماءها . . . فى مثل هذه الكائنات تصويرًا واقعيًا صادقًا ، وهو فى الوقت ذاته جميل موحٍ ، فى مثل هذه الآيات :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون» . . .

(الأعراف : ١٧٩)

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى صدور » . . .

(الحج : ٤٦)

« وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات . إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير » . . .

(فاطر : ١٩ ـ ٢٣)

« فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إنْ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . . .

(الروم : ٥٢ ـ ٥٣)

« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وأن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنّدة » . . .

(المنافقون : ٣ ـ ٤)

لذلك يبدأ المنهج القرآنى علاجه لهذه الفطرة المختلة المعطلة المشلولة باستجاشتها واستحيائها واستثارة كوامن الحيوية فيها ، ونداثها من الأعماق لتتفتح وتنظر وترى ، ولتتأثر وتنفعل وتستجيب ، عسى أن تعود إلى مزاولة وظائفها التى تزاولها فى الفطرة السليمة ، فلو دبت فيها الحياة لحظة لتحركت فيها كوامن الفطرة ، ولبدأت أجهزة الاستقبال فيها والاستجابة بالعمل ، ولالتقت ـ من ثم ـ بالوجود الإلهى الذى تتجلى آثاره فى الوجود الكونى ، حيثما واجهته الكينونة البشرية ذات الفطرة الحية .

ويسلك المنهج القرآنى فى هز هذه الفطر واستحيائها مسالك شتى ، لا نملك هنا

استعراضها بتنوعها ، فحسبنا لون واحد من ألوانها ، وهو توجيه هذه الفطرة إلى مجالى الكون والحياة ومشاهدها ودلالتها[1] :

إنه يهتف بهذه النفوس الغافلة :

« كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شىء عليم » . . .

(البقرة : ٢٨ـ٢٩)

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لايات لقوم يعقلون» . . .

(البقرة : ١٦٤)

« وآيه لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها : مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذ هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . . .

(يس : ٣٣ـ٤٠)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ؟ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » . . .

(ق : ٦ـ١١)

« ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . . .

(النحل : ٧٩)

---

(١) يراجع بالتفصيل فى هذا الموضوع الجزء الأول من كتاب : « منهج التربية الإسلامية » لمحمد قطب .

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده» . . .

(فاطر : ٤١)

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبًا وعنبًا وقضبا . وزيتونًا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبًا ، متاعًا لكم ولأنعامكم » . . .

(عبس : ٢٤ـ٣٢)

« فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فماله من قوة ولا ناصر » . . .

(الطارق : ٥ ـ ١٠)

ومع أن هذه الآيات وأمثالها الكثيرة ـ فى مواضعها من السياق القرآنى ـ لم تسق ابتداء لإثبات « الوجود الإلهى » إنما كان مساقها للتعريف بالإله الحق ، وصفاته ، وآثار قدرته فى الكون والحياة ، ولاستحضار هذه الحقيقة فى القلب البشرى ، وتحريكه بها إلى «التوحيد»، وإلى « العبودية » لله الحق وحده بلا شريك . . إلا أنها ـ بذاتها ـ تتضمن مواجهة كل إنكار للوجود الإلهى ـ على النحو الذى يتفرد به التصور الإسلامى لا على أى نحو آخر ـ ولعلاج كل فساد فى الفطرة وكل تعطل أو شلل لأجهزة الاستقبال والإدراك فيها .

إنها تواجه هذا الإنكار بآثار الوجود الإلهى : فى خلق هذا الكون على الهيئة التى خلق بها ، والتى تتضمن تناسق أجرامه وظواهره ، وتوافيها على ناموس واحد يحكمها[1] ، كما تتضمن الموافقات المقصودة فى تصميم هذا الكون ـ والتى يستحيل أن تتجمع مصادفة بهذه الكثرة التى تناقض قانون المصادفة ـ لتسمح بنشأة الحياة فى أجزاء من هذا الكون بكل مستوياتها[2] . . ثم فى نشأة هذه الحياة بالفعل على الهيئة التى نشأت بها ، والتى تتضمن ما ركب فى تصميمها من وسائل لا متدادها ، وضمانات لتجددها وتكاثرها ـ عن طريق

---

(١) مجموعة الآيات : الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والخامسة ، والسابعة .

(٢) مجموعة الآيات : الأولى، والثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، والسابعة .

الزوجية فيها والتناسل [1] ـ ثم فى تلك الموافقات بين عالم النبات وعالم الحيوان التى تكفل إعالة كل منهما للآخر ، وإعالتهما معًا للحياة بكل مستوياتها [2] .

ثم تتجاوز مجرد تقرير « الوجود الإلهى » الصحيح ، وآثاره الإيجابية فى الكون والحياة ، إلى ما يقتضيه هذا الوجود ، وهذا التدبير المحكم المقصود ، من ضرورة البعث والخروج [3].

وهى تواجه الكينونة البشرية بمشاهد وآثار تحمل للعقل البشرى ذاته براهين مقنعة ، لأن فيها منطقًا صادقًا قويًا وواقعيًا . ولكنها فى الوقت ذاته لا تسلك إليه طريق الجدل الذهنى ، ثم تتجاوز هذه المرتبة من مراتب الإقناع إلى تحريك الفطرة لتعمل ؛ لتتلقى وتلتقط ، وتنفعل وتستجيب . ذلك أنه بدون استحياء الفطرة ، واستجاشتها للعمل ، يظل البرهان العقلى معطلاً لا فاعلية له . بل يظل البرهان الحسى معطلاً كذلك . كما يصور القرآن الكريم بعض النماذج الإنسانية المعطلة الفطرة ، المطموسة الضمير :

« ولو نزّلنا عليك كتابًا فى قرطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » ! . . .

(الأنعام : ٧)

« ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا: إنما سُكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . . .

(الحجر : ١٤ ـ ١٥)

وهذا هو الفارق الأصيل بين خطاب المنهج القرآنى للكينونة البشرية بجملتها ، خطاب استحياء واستجاشة ، وتنبيه لأجهزة الاستقبال المعطلة أو المشلولة . وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية أو بالجدل البارد ، الذى لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيى للقلوب والعقول .

إن المنهج القرآنى يخاطب الكينونة البشرية فى تلك النماذج القرآنية التى سقناها ـ وفى أمثالها الكثيرة ـ ببرهان الخلق ، مع التنسيق والقصد . . وما من شك أن وجود هذا الكون بتصميمه هذا وموافقاته ، ثم وجود هذه الحياة بتصميمها هذا وضماناتها ـ فى ذاتها وفى

---

(١) مجموعة الآيات : والثالثة ، الرابعة ، والخامسة ، والسادسة والثامنة ، والتاسعة ، والعاشرة .

(٢) مجموعة الآيات : الرابعة ، والخامسة ، والثامنة .

(٣) مجموعة الآيات : الأولى ، والخامسة ، والعاشرة .

الكون من حولها ـ كلاهما يواجه الكينونة البشرية بفيض متدفق من الإيقاعات ذات الإيحاء التقريرى الذى لا سبيل لصده . والكينونة البشرية إن هى إلا قطعة من هذا الوجود الكونى لا تنفصل عنه ولا تملك إيصاد أجهزة الاستقبال فيها دون إيقاعاته . كما أنه يواجه هذه الكينونة بعلامات استفهام ضخمة ، لا تجيب عنها كل النظريات والمذاهب التى تصدت للإجابة على غير أساس من وجود إله ، قادر ، مريد ، مختار ، فعال لما يريد ، خالق ، مدبر ، مهيمن ، عليم ، حكيم :

« أم خُلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون » . .

(الطور : ٣٥ـ٣٦)

وإن الإنسان ليدهش حقًا ، وهو يراجع كل التمحلات التى حاول بها « الماديون » و « الداروينيون » . . . وأمثالهم . . . تفسير الوجود الكونى ، وتفسير الحياة ونشأتها أو سيرتها . . على أساسها . ويعجب : ما الذى يجعل هذه الخلائق تتمحل كل هذا التمحل ، الذى يصطدم فى كل خطوة ، ويتعثر ، ويقصر عن الإتيان بدليل واحد مسلّم ، أو ببرهان واحد غير ظاهر الإحالة ؟ ! لولا أن يذكر الإنسان مأساة الكنيسة الأوربية مع « العلم البشرى » . وشرود الناس من الكنيسة ، وإله الكنيسة ، الذى تستطيل باسمه على الناس ، ورغبتهم فى إلغاء هذا « الإله » بأى شكل وبأى صورة . سواء أسعفهم الدليل المقنع أم اعتسفوا القول اعتسافا ! وعودتهم مذعورين من كل درب ، لأنهم يجدون الله هناك ، وهم منه هاربون ! [1] .

مساكين . . !!

ونرجو أن نفصل القول فى الفصول الآتية فى أثناء عرض « حقيقة الكون » و « حقيقة الحياة » و « حقيقة الإنسان » ، عن شهادة هذه الحقائق ودلالتها على « حقيقة الألوهية » وخصائصها ، ، وزيف التصورات التى تعمدت أن تتنكب طريق الحق الذى تهتف به الفطرة ، فى مواجهتها لبدائع الصنعة ودلائل القدرة ، وأن تفسر وجود الكون ووجود الحياة تفسيرًا لا يستند إلى وجود الله . .

---

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

أما الآن فنمضى ـ فى هذا الفصل ـ خطوة أخرى فى الحديث عن المنهج القرآنى فى التعريف « بحقيقة الألوهية » :

* * *

إن المنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الوجود كله معرضًا رائعًا تتجلى فيه هذه الحقيقة ـ كما أسلفنا ـ إنها تتجلى تارة فى آثار المشيئة الإلهية المبدعة فى الكون والحياة عامة ، الشاهدة بالوحدانية والفاعلية والعلم والحكمة ، والتدبير والإحاطة والهيمنة والكفالة ، والتقدير فى كل خلق وفى كل حركة وفى كل حال . . وتارة فى أحداث الحياة الإنسانية وأطوارها وبخاصة فى نشأة الإنسان ، ومنحه خصائصه ، وفى نعمة الله عليه وأفضاله ، وفى نشأة الأمم ودثورها ، وفى إحاطة قدر الله وعلمه بالناس فى كل حال . وفى المعركة بين الحق والباطل على مدار الزمان . . .

وكما تتجلى هذه الحقيقة بآثارها المبدعة فى الكون والنفس ، وفى الحياة والتاريخ ، وفى تقلب الأحوال بالناس وهم يتعرضون لسنة الله ، ويتحركون بقدر الله ، فى هذه الحياة الدنيا . . كذلك تتجلى فى « يوم الدين » ، وفى تفرد الله ـ سبحانه ـ بالملك والحكم فى ذلك اليوم المشهود ، حيث يتبين الضالون والمخدوعون ، والمستكبرون والمستضعفون ، هذه الحقيقة التى ضلوا عنها فى الحياة الدنيا ، وهى معروضة للبصائر والأبصار ، فى كتاب الكون المفتوح ، وفى كتاب النفس المكنون ، وفى سنن الله الماضية فى الأحياء والأشياء ، والأحداث والأحوال .

كذلك يتمثل التعريف بحقيقة الألوهية ـ فى المنهج القرآنى ـ فى عرض هذه الحقيقة كما تتجلى فى نفوس أولياء الله من الملائكة والنبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، وفى إحساسهم بها وتعاملهم معها . . ومشهد هذه الحقيقة فى نفوس الصفوة المختارة من عبادة الله ، مشهد رائع باهر ، تبدو فيه هذه الحقيقة فى أصفى صورها وأصدقها وأعمقها .

ولكن المنهج القرآنى لا يفصل هذه المجالات المتعددة المتنوعة التى تتجلى فيها هذه الحقيقة فى السياق القرآنى بعضها عن بعض . فالسياق القرآنى الواحد قد يتضمن هذه المجالات كلها ، أو الكثير منها ، فتبدو فيه هذه الحقيقة ـ إذن ـ أجمل وأكمل . بل تبدو فى صورتها الوحيدة الكاملة الجميلة . . والصعوبة البالغة إنما تنشأ من محاولتنا البشرية

لفصل هذه المجالات بعضها عن بعض ، وعرض هذه الحقيقة فى كل منها على حدة ، لإبراز كل منها على حدة !

والنماذج التى عرضناها فى مطالع هذا الفصل وفى فصل « مقومات التصور الإسلامى » تصور طبيعة المنهج القرآنى أصدق تصوير ، كما أنها تكفى للتمييز بين طبيعة المنهج الربانى وطبيعة المنهج البشرى فى عرض هذه الحقيقة .

ولنأخذ واحدًا من تلك النماذج نعيد عرضه هنا ، لنجده شاملاً لكل هذه المجالات التى ذكرنا أن المنهج القرآنى يعرض « حقيقة الألوهية » فيها :

١ ـ « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

٢ ـ « هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون » .

٣ ـ « وهو الله فى السموات وفى الأرض . يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون» .

٤ ـ « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشانا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل : سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

٥ ـ « قل : لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » .

٦ ـ « قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف ـ إن عصيت ربى ـ عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين .

٧ ـ « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير » .

٨ ـ « قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون » . .

فهذا سياق واحد ـ يعد قطاعًا صغيرًا من سورة كاملة ، كلها تتعرض لتجلية حقيقة الألوهية . وبعد هذا هو موضوعها الرئيسي [1] ـ وهذا السياق كبقية السورة ، يعرض تجليات الحقيقة الإلهية في مجالات شتى :

١ ـ يعرضها في الفقرة الأولى متجلية في خلق السموات والأرض ـ بعد إعلان الحمد لله على بدائعه وصنائعه الآتية في السياق ـ متجلية كذلك في ظاهرتي الظلمات والنور الكونيتين . مشيرًا كذلك من طرف خفي ، إلى الظلمات والنور في العقول والقلوب ، وفي التصورات والعقائد ! وتعدد الظلمات الحسية والمعنوية ، وتوحد النور كذلك . . وفي مواجهة شهادة الخلق بوحدانية الخالق ، يعرّض ويندد بالشرك الذي يزاوله الكافرون ، إذ يجعلون لله أندادًا يعدلونهم به سبحانه ـ وهم لا يخلقون ، وهو وجده الذي خلق السموات والأرض . وجعل الظلمات والنور !

٢ ـ ويعرضها في الفقرة الثانية متجلية في خلق الإنسان من طين ، وفي تقدير آجال الناس في الأرض ، وفي تقدير الأجل المسمى عند الله للبعث . ثم يعقب على هذه الشهادة بالتعجيب من الشاكّين الذين يمترون ، في مواجهة برهان الخلق المتجلي في أنفسهم وفي حياتهم الإنسانية ، وفي تقدير الآجال المشهود !

٣ ـ ويعرضها في الفقرة الثالثة متجلية في تفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية في السموات والأرض ، حيث يحيط علما بالسر والجهر ، وبالكسب من خير ومن شر . هذا العلم الشامل الكامل ، الذي هو مقتضى ألوهيته ـ سبحانه ـ في السموات والأرض ، واحدًا بلا منازع ، متفردًا بلا شريك .

٤ ـ ويعرضها في الفقرة الرابعة متجلية في المعركة بين الحق والباطل ، حيث يأخذ الله

---

(١) يراجع التعريف بسورة الأنعام وتفسيرها في ظلال القرآن ص ١٠٠٤ ـ ص ١٠٢٩ من المجلد الثاني من طبعة دار الشروق .

المكذبين بعد تمكينهم فى الأرض ، وإرسال السماء عليهم مدرارًا ، وإجراء الأنهار من تحتهم ، وتسخير هذه الطاقات والمدخرات الكونية لهم . . مع توجيه أنظار المكذبين وقلوبهم إلى آثار هذه القدرة فى مصارع الغابرين ، وإلى تدبر سنة الله فى نشأة الأمم ودثورها ، والنظر فى أسباب التمكين وأسباب التدمير .

٥ ـ ويعرضها فى الفقرة الخامسة متجلية فى ملكية الله ـ وحده ـ لما فى السموات والأرض ، وفى سلطانه المتجلى فى جمع الناس للآخرة ، وفى رحمته فى تأجيلهم لليوم الموعود وفى إجراء العدل بينهم فيه . كما يعرضها فى ملكيته ـ سبحانه ـ لما سكن فى الليل والنهار، من الأشياء والأحياء . ويعقب بتقرير صفتى السمع والعلم لما لهما من صلة بالملكية والرقابة والجمع والجزاء .

٦ ـ ويعرضها فى الفقرة السادسة متجلية فى ضمير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليواجه بها المشركين . مستنكرًا أن يتخذ له وليا غير الله ، فاطر السموات والأرض، كافل من فى السموات والأرض ، الغنى عن جميع الخلق « وهو يطعم ولا يطعم » . معلنا أن اتخاذه غير الله وليا لا يجوز ولا يكون ، فهو مناقض لما أمر به من أن يكون أول من يسلم لله وحده ، وألا يشرك به أحدًا من خلقه . خائفًا ـ إن هو عصى ربه ـ « عذاب يوم أعظم ، من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين»!

٧ ـ ويعرضها فى الفقرة السابعة متجلية فى سلطان الله المطلق فى الضر والخير . لا كاشف لما يمس به عباده من ضر ، ولا راد لما يريده بهم من خير . فهو على كل شىء قدير ، ولا سلطان لأحد من عباده « وهو القاهر فوق عباده » . . « وهو الحكيم الخبير » . . تتجلى حكمته فى تقدير الضر والخير ، كما تتجلى خبرته ـ سبحانه ـ فى كل فعل وكل أمر .

٨ ـ ويعرضها فى الفقرة الثامنة متجلية فى حس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصوره واعتقاده ، وإعلانه التوحيد المطلق فى وجه المشركين الذين يشهدون أن مع الله الهة أخرى ، وتبرّئه منهم ومن شركهم ، ومفاصلته لهم على العقيدة ، وإشهاد الله عليهم أنه بَلَّغَ ، وأنذرهم بهذا القرآن الذى أوحى إليه لينذرهم به وينذر به كل من يبلغه . .
وهكذا يبدو السياق الواحد ، وهو يضم هذه المجالات كلها لتجلى حقيقة الألوهية ، ويبدو فيه الطابع القرآنى المتفرد ، الذى لا يملك الأسلوب البشرى مجاراته فى إشباع

جوانب الكينونة البشرية جملة ، وفى أخذها من أقطارها فى السياق الواحد ، لمواجهة هذه الحقيقة الكبيرة فى مجالاتها الهائلة البعيدة .

ومع ذلك فسنحاول أن نبرز هذه المجالات المتنوعة ـ منفردة ـ فى مقتطفات متنوعة . . مع التنبيه المتكرر بأن هذه المحاولات لا تغنى غناء المنهج القرآنى . . ولكنها قد تساعد على تتبع السياق القرآنى .

* * *

تتجلى حقيقة الألوهية فى الكون والحياة عامة ، باعتبارها معرضا لدلالة الصنعة على الصانع ، حيث يخاطب القرآن الوجدان البشرى بعظمة الصبغة الإلّهية وجمالها وكمالها وتناسقها فى هذا الوجود المشهود .

إن هذا الكون الهائل الجميل المتناسق : سماواته وأرضه . شمسه وقمره . ليله ونهاره . وما فى السموات والأرض من خلائق . ومن أمم . ومن سنن . ومن طير وحيوان ونبات . كلها يجرى على تلك السنن .

إن هذا الليل الطامى السادل الشامل ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح ، وهذا الفجر المتفتح فى سدف الليل كابتسامة الوليد الراضى . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح ، فيدب النشاط فى الحياة والأحياء . وهذه الظلال السارية يحسبها الرائى ساكنة وهى تدب فى لطف . وهذا الطير الغادى الرائح القافز . الواثب السابح فى الهواء . وهذا النبت المتطلع أبدًا إلى النماء والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام التى تدفع ، والقبور التى تبلع ، والحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله .

إن هذا الحشد من الصور والظلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والغدو والرواح والتجدد والدثور ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل المتناسق ، التى لاتنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . . إن هذا كله هو الذى يجعل منه المنهج القرآنى معرضا موحيا تتجلى فيه حقيقة الألوهية ، فى مثل هذه النماذج التى نسوقها الآن :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ! ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ، إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت

فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون » .

(الأعراف : ٥٤ ـ ٥٧)

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . .

(الرعد : ٢ ـ ٤)

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسىّ كثيرا » . . .

(الفرقان : ٤٥ ـ ٤٩)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » . . .

(ق : ٦ ـ ١١)

وهكذا . . وهكذا . . تتجلى حقيقة الألوهية ـ بآثارها ـ فى الكون والحياة . ويعرضها المنهج القرآنى فى هذا النسق الموحى ، الذى يعتمد على أجهزة الفطرة فى كل نفس مهما يكن علمها قليلا بطبيعة الكون وطبيعة الحياة . فأما حين يتقدم العلم ، وتتسع المعرفة ، فإن هذه الحقيقة تزداد تجليا ، ويتسع مجال رؤيتها وتدبرها ولا ينقص مداه .

* * *

وعلى هذا النحو يعرض المنهج القرآنى حقيقة الألوهية متجلية فى الحياة الإنسانية وأطوارها ، ووقائعها وأحداثها . . يعرضها مؤثرة فاعلة ، فى كل وضع وفى كل حال .

حيث يرى القلب البشرى يد الله سبحانه ، تخلق كل حادث ، وتدبر كل حركة ، ويرى قدر الله متعلقا بكل ظاهرة وخافية فى هذه الحياة ، تعلقه بكل شىء وكل فى هذا الوجود الذى لا يدرك الإنسان مداه .

إن هذه الحقيقة تتجلى ابتداء فى النشأة الإنسانية الأولى ، ثم فى النشأة الإنسانية المتكررة ، القائمة على الزوجية ، التى يتجدد بها الوجود الإنسانى ، فى نظام واضح فيه التقدير والتدبير (على نحو ما سنفصل القول عند تناول « حقيقة الحياة » و « حقيقة الإنسان ») .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . . .

(المؤمنون : ١٢ ـ ١٨)

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ! نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكّرون ! » . . .

فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ » . . .

(القيامة : ٣٦ ـ ٤٠)

« لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما . إنه عليم قدير » . . .

(الشورى : ٤٩ ـ ٥٠)

« وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » . . .

(الفرقان : ٥٤)

ثم تتجلى هذه الحقيقة ـ بعد ذلك ـ فيما أودع الله هذا الإنسان من خصائص تميزه عن سائر الأحياء ـ مع التقائه معها فى أصل النشأة ـ لأن وظيفته فى الحياة تقتضى تميزه بهذه الخصائص . الأمر الذى يشهد بالتدبير فى الخلق والتقدير ، وفق مشيئة تجرى بالمقادير (ونحن نكتفى هنا بمجرد سرد النصوص ، ومجرد الإشارات السريعة إلى دلالتها ، حتى نفصلها فى الفصول التالية فى مواضعها) :

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير» . . .

(النور : ٤٥)

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » . . .

(الأنعام : ٣٨)

« فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا » . . .

(الشورى : ١١)

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . . .

(الإسراء : ٧٠)

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . . . » الخ .

(البقرة : ٣٠ـ٣٣)

ثم تتجلى حقيقة الألوهية فى آلاء الله التى لا تحصى على هذا الكائن المتفرد بهذه الخصائص ـ وهذه الخصائص ذاتها هى بعض آلائه سبحانه ـ هذه الآلاء الفائضة من عظمة الخالق وكرمه ،بلا مقابل من جهد الإنسان وشكره . فلو حاسب الله الناس على جهدهم وشكرهم ما نالهم شىء من هذه الآلاء . ولو حاسبهم كذلك على جحودهم وكفرهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة . ولكنه فضل الله وكرمه . . . وعندئذ يخاطب المنهج القرآنى القلب البشرى بعظمة النعمة والمنة ، كما خاطبه من قبل بعظمة الخلق والصنعة ، ويستجيش فى الوجدان البشرى عاطفة الولاء لله والحب ، كما استجاش الإجلال والمهابة .

إن آلاء الله تتجلى ابتداء فى هبة الإحسان فى الصنع والتجميل ، وهبة الهداية إلى إدراك غاية الوجود :

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركّبك » . . .

(الانفطار : ٦ ـ ٨)

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . . . »

(التين : ٤)

« اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . . .

(العلق : ٣ ـ ٥)

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » . . .

(الرحمن : ١ ـ ٤)

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . . .

(النحل : ٧٨)

كذلك تتجلى آلاء الله فى تسخير الطاقات والمقدرات والأرزاق والأقوات ، التى لا تنفذ، والتى يعجز البشر عن عدها وإحصائها . فضلا على حمدها وشكرها ، والتى لا يقتصر الأمر فيها على إشباع الضرورات والحاجات ، بل يتجاوز هذا القدر إلى الاستمتاع بالزينة والجمال :

« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج من الثمرات رزقا لكم، وسخرلكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . . .

(إبراهيم : ٣٢ـ٣٤)

« والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . .

(الرحمن : ١٠ ـ ١٣)

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون؟» . . .

(يس : ٣٣ـ٣٥)

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون » . . .
(النحل : ٥ـ٨)

« أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ! » . . .
(النمل : ٦٠)

ثم تتجلى آلاء الله فى رحمته بهذا الكائن ، وفى غفرانه لضعفه وخطئه وخطاياه ـ حين يتوب ـ وفى الإنعام عليه بالهداية والهداة ، وفى إمهاله وعدم أخذه العاجل بذنبه وكفره ، وفى الاستجابة لدعائه وتضرعه ، وفى مضاعفة الحسنة له ومجازاته بالسيئة بمثلها أو مغفرتها له ، أو تبديلها له حسنة إذا حسنت توبته بعدها وسيرته . . . الخ . . .

« وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً » . . .

(الكهف : ٥٨)

إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما» . . .
(النساء : ٣١)

« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » .

. . . (النساء : ٢٦ـ٢٨)

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

. . . (الأنبياء : ١٠٧)

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون»

. . . (الأنعام : ١٦٠)

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما »

. . . (الفرقان : ٧٠)

« قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »

. . . (الزمر : ٥٣)

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما »

. . . (النساء : ١٧)

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكّرون » .

. . . (النمل : ٦٢)

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم ؟ »

. . . (الحديد : ١١)

ولا نملك أن نمضى فى عرض النماذج القرآنية التى يجلّى فيها المنهج القرآنى حقيقة الألوهية فى مجال النعم الإلهية والفيوض الربانية . فهذه النماذج من الكثرة والتنوع ، بحيث لا يغنى فيها إلا مراجعة القرآن كله !

ثم تتجلى حقيقة الألوهية فى أحداث الحياة الإنسانية . . فى نشأة الأمم واندثارها ، وفق سنة الله ، بمقتضى قدر الله . وفى التمكين فى الأرض والتدمير . وفى سعة الملك ونقصه ، ومنحه وسلبه . وفى بسط الرزق وتقديره . وفى منح الأجل وتقديره . . . حيث يتجلى التقدير الإلهى والتدبير ، فى النشأة والدثور ، وفى المبدأ والمصير . وفى تقليب الأمور:

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »

. . . (يونس ١٣ ـ ١٤)

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

. . . (النحل : ١١٢)

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوما آخرين »

. . . (الأنبياء : ١١)

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ، أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ » .

. . . (الأنبياء : ٤٤)

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » .

. . . (آل عمران : ٢٦)

ثم تتجلى حقيقة الألوهية فى الإحاطة بالناس ، فى حركتهم وفى سكونهم . وفى علانيتهم وفى سرهم . فى صحوهم وفى نومهم . فى حياتهم وفى مماتهم . فى كل شأن من شئونهم . تتجلى فى علمه المحيط . وفى تدبيره المحيط . وفى رعايته المحيطة . وفى قهره المحيط . . بلا معقب على أمره ولا شريك :

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم »

. . . (المجادلة : ٧)

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »

. . . (يونس : ٦١)

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه ـ يحفظونه ـ من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال »

. . . (الرعد : ٨ـ١١)

« ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان

الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟ » .

. . . (الإسراء : ٦٦ ـ ٦٩)

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ، وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم ، وهو أسرع الحسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون »

. . . (الأنعام : ٥٩ ـ ٦٥)

وكما تتجلى حقيقة الألوهية فى الحياة الإنسانية عامة ، فإنهاتتجلى بصفة خاصة فى المعركة بين الحق والباطل ، بين الأمة المسلمة والجاهلية ، على مدار القرون والأجيال ، تدير المعركة ، وتقدر العاقبة ، وتدبر الأمر كله من البدء للنهاية . . حتى الأحداث التى يبدو أن لها أسبابا ظاهرة ، ينحى المنهج القرآنى هذه الأسباب الظاهرة ، ليبرز من ورائها المشيئة المدبرة ، والقدر النافذ ، والألوهية ذات المشيئة المدبرة وذات القدر النافذمن وراء الأسباب الظاهرة .

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابى ونذر ؟ » .

. . . (القمر ٩ ـ ١٦)

● « كذبت عاد ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ » . .

(القمر : ١٨ ـ ٢١)

● « كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا واحدًا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسُعُر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم ، فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابى ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » . .

(القمر : ٢٣ ـ ٣١)

« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا ، إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر » . . .

(القمر : ٣٣ ـ ٣٩)

« . . قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين . قلنا : يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين». . .

(الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٣)

« . . . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ! » .

(هود : ٩٤ ـ ٩٥)

« . . . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ! إن معى

ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » . . .

(الشعراء : ٦١ ـ ٦٧)

« . . . فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله : يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » . . .

(آل عمران : ٥٢ ـ ٥٥)

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . . .

(التوبة : ٤٠)

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . . .

(آل عمران : ١٢٣ ـ ١٢٦)

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعدما أراكم ماتحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، ، والله ذو فضل على المؤمنين » . . . .

(آل عمران : ١٥٢)

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف

فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار» . . .

(الحشر : ٢)

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شىء قديراً » . . .

(الفتح : ٢٠ـ٢١)

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم . ذلكم ، وأن الله موهن كيد الكافرين » . . .

(الأنفال : ١٧ـ١٨)

. . . وغيرها كثير . .

إن قدر الله هو الذى تنشأ به الأحداث ، كما أنه هو الذى تنشأ به الأشياء ، وإن مشيئة الله هى التى تصرف أمر الناس كله فى هذه الحياة . وإن الحقيقة الإلهية لتتجلى ـ بآثارها ـ فى الحياة الإنسانية جملة وتفصيلا . على النحو الذى يعرضه ذلك المنهج القرآنى الفريد ، فى بساطة ويسر ، وفى توكيد وعمق ، وفى إحاطة وشمول .

* * *

وكما تتجلى حقيقة الألوهية ـ فى المنهج القرآنى ـ بآثارها المبدعة فى الكون والنفس ، وفى الحياة والتاريخ ، وفى تقلب الأحوال بالناس وهم يتعرضون لسنة الله ، ويتحركون بقدر الله فى هذه الحياة الدنيا . . كذلك تتجلى هذه الحقيقة فى « يوم الدين » . وفى ظهور تفرد الله سبحانه بالملك والحكم فى ذلك اليوم المشهود . .

وهذا المجال من أوسع المجالات التى يعرضها المنهج القرآنى ، وهو يتصدى لبناء العقيدة الصحيحة فى الأرواح والضمائر ، وإنشاء التصور الصحيح فى القلوب والعقول ، وتجلية حقيقة الألوهية تجلية مثيرة تتشابك فيها مشاعر الرجاء ، وتتوافى فيها مشاعر الرهبة والهيبةوالجلال مع مشاعر القرب والود والأنس ، على نحو لايملك البيان البشرى أن يلاحقه فى مجرد الاستعراض !

ولسنا نستعرض هنا مشاهد القيامة فى القرآن ، ولا نتحدث عن حقيقة الآخرة فى

التصور الإسلامى ـ فلهذا مكانه [1] ـ ولكننا نتحدث فقط عن تجلى « حقيقة الألوهية » فى يوم الدين ، وظهور تفرد الله ـ سبحانه ـ بالربوبية وبالملك والسلطان فى اليوم المشهود .

وجريا على منهج هذا البحث ، فى أن تكون النصوص القرآنية هى صلب مادة الكتاب ، وأن تؤدى هى بذاتها التعبير عن موضوعه ، فإننا ندع بعض النماذج القرآنية تجلّى لنا حقيقة الألوهية فى يوم الدين :

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كَرّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » . . .

(البقرة : ١٦٥ ـ ١٦٧)

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون ! » . . .

(الأنعام : ٢٧ ـ ٣١)

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا . مكانكم أنتم وشركاؤكم . فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق . وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . .

(يونس : ٢٨ ـ ٣٠)

« وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات

---

(١) من أراد التوسع يراجع فى هذا الموضوع كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » .

بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ـ إلا من شاء الله ـ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون. ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم ، فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » . . .

(الزمر : ٦٧ ـ ٧٥)

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاقى . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم. إن الله سريع الحساب » . . .

(غافر : ١٤ ـ ١٧)

وفى هذا القدر كفاية .

* * *

ثم نصل أخيرا إلى المشهد الرائع الذى تتجلى فيه « حقيقة الألوهية » فى نفوس أولياء الله من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . إنه أروع مشهد تتجلى فيه هذه الحقيقة . . مشهدها فى صفوة القلوب المؤمنة .

إنها تتجلى فى اللمسة اللدنية من الألوهية لقلوب هؤلاء الأولياء . واستجابة هذه القلوب المصفاة من شوائب الشرك كله لهذه اللمسة المباشرة . وفى التصور الصادق الوضىء من هذه القلوب لربها . وفى شعورها بحقيقته وشعورها بلمسته وشعورها بجلاله

وهيبته مع شعورها بأنسه ومودته . وفى تعبيرها عن هذا كله كما يحكى عنها القرآن الكريم.

وما وقفت أتملى هذه الحقيقة فى الوجود كله ، كما وقفت أتأملها فى قلوب هذه الصفوة من أولياء الله وعباده . وهى . . الحقيقة . . تتجلى فى كمال روعتها ، وفى جمال تألقها ، وفى عظمة الشعور بها وعظمة التعبير عنها . . .

ويحسن أن نسلك هنا مسلكنا فى ترك السياق القرآنى ذاته يعبر عن محتوياته .

ونقف مع تجلى هذه الحقيقة أول وقفة مع أبوى البشر : آدم وزوجه . بعد الابتلاء والفتنة . وبعد النسيان والخطيئة :

« . . . ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوآتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» . . .

(الأعراف : ١٩ ـ ٢٣)

إنها الإنابة الكاملة إلى ربهما ، والاعتراف بظلم النفس فى المخالفة عن أمره ، والخسارة فى الخروج عن طاعته ، واليقين بأنه لا ملجأ لهما إلا رحمته ، ولا منقذ مما ظلما أنفسهما إلا مغفرته . والاستسلام الناشئ من المعرفة الواضحة واليقين العميق بحقيقة الألوهية التى لا ملجأ منها إلا إليها . . .

ونقف مع هذه الحقيقة وهى تتجلى فى نفس نوح عليه السلام :

وهى تتجلى فى ندائه لقومه :

« ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . .

(هود : ٢٦)

وقومه يكذبون أنه مرسل ويرذلون من معه ممن آمن ، ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب الذى يتهددهم به ، وهو يرد على التكذيب والترذيل بالحقيقة التى تتجلى فى قلبه عن ربه الكبير، وبالخوف منه ، والتوكل عليه ، والتجرد من كل ادعاء ورد الأمر كله إليه ، والثقة به والاعتزاز بسلطانه :

« قال يا قوم : أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعمّيت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكّرون ؟ ولا أقول لكم : عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين . قالوا : يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله ـ إن شاء ـ وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم . هو ربكم وإليه ترجعون » . . .

(هود : ٢٨ ـ ٣٤)

ثم وهو يتحدى قومه أن يجمعوا أمرهم ويواجهوه وحده ـ ومعه ربه ـ فى قوة الواثق وطمأنينة الوصول :

« واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين . . .

(يونس : ٧١ ـ ٧٢)

ثم وهو يلتجىء إلى الحِمى الذى يعلم أنه عزيز ، يعلن هناك لربه ـ وحده ـ أنه مغلوب ، ويدع له إذن أن ينتصر ـ وحده ـ وهو واثق أنه مستجيب :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا ، جزاء لمن كان كُفِر» . . .

(القمر ٩ ـ ١٤)

ثم وهو ينادى ابنه والطوفان يطغى ، محاولا أن ينقل إلى قلبه الكافر حقيقة ما يعلمه هو من ربه :

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه ـ وكان فى معزل ـ يابنى اركب معنا ،

ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء! قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين » . . .

(هود : ٤٢ ـ ٤٣)

ثم وهو يستنجز ربه وعده أن ينجيه وأهله . . وهو يحسب أن ابنه هذا من أهله . . ثم كيف يتلقى تعليم ربه له فى هذه القضية ، بالارتجاف والإنابة والاستغفار :

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » . . .

(هود ٤٥ ـ ٤٧)

ونقف مع هود ـ عليه السلام ـ وقفة قصيرة ، وهو يدعو قومه إلى الحقيقة الكبرى التى يجدها فى نفسه ، وهو يحدثهم عن آثار هذه الحقيقة فى حياتهم وفى الكون من حولهم ، وهو يتحداهم فى النهاية تحدى الواثق المطمئن فى وجه القوة المتجمعة ، وهو فرد وحيد ، وما هو من ربه بوحيد :

« وإلى عاد أخاهم هودا . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون. ياقوم لاأسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولاتتولوا مجرمين . قالوا : ياهود ماجئتنا ببينة ، ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، ومانحن لك بمؤمنين. إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ! قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ » . . .

(هود : ٥٠ ـ ٥٧)

ونقف مع صالح ـ عليه السلام ـ وقفة مثلها ، لنرى طمأنينة قلبه لبينة ربه فى هذا القلب ، وتعريفه لربه بما يعلمه من قدره ، وخوفه منه مع قربه إليه :

« وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم

من الأرض ، واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب . قالوا : ياصالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا ! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ، قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ؟ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير . . » .

(هود : ٦١ـ٦٣)

وشعيب ـ عليه السلام ـ وهو يدعو قومه إلى ما يعرفه عن ربه من الوحدانية ، ومن العزة والقوة ، ومن الرحمة والود ، فيتهددونه بالقتل ، لولا أنهم يخشون رهطه وأهله . . ولكن شعيبًا لا يسره أن يكون رهطه عزيزًا ، يسره أن قومه يخشون رهطه فلا يقتلونه لقد كانت تقر عينه لو أن قومه يخشون ربه ، ولو أنهم يشعرون ببأس الله ويقدرونه قدره . إن ربه لأعز فى نفسه ، وأحب إلى قلبه ، من رهطه وأهله :

« وإلى مدين أخاهم شعيبًا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقًا حسنًا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود . قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول ، إنا لنراك فينا ضعيفًا، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟ واتخذتموه وراءكم ظهريًّا ؟ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب » . . .

(هود : ٨٤ـ٩٣)

ونخلص إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومواقف إبراهيم مع ربه كثيرة منوعة ، وتجلى تلك الحقيقة فيها رائع باهر ، ولا نملك هنا أن نتقصاها فى القرآن الكريم ، فحسبنا منها نماذج :

وأول هذه المشاهد . . المشهد الذى تتجلى فيه لإبراهيم ـ أول مرة ـ حقيقة ربه ، التى طال عنها سؤاله وبحثه ، ثم إذا هى تشرق عليه من مطلعها القريب العجيب . . فى قلبه . . وإذا هو يجد اللمسة اللدنية المباشرة . واليد الرحيمة الهادية . . فى قلبه كذلك . .

« . . . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى . هذا أكبر . فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا ، وما أنا من المشركين . وحاجة قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ـ إلا أن يشاء ربى شيئًا وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون ؟ » . . .

(الأنعام : ٧٨ ـ ٨١)

ثم نراه وهو يشتاق ـ بعد إذ وجد ربه فى قلبه وفى الوجود من حوله ـ أن يلامس قدر الله وهو يعمل فى هذا الوجود ، ويلابسه بالحس المشهود ، ليطمئن قلبه بهذه الملابسة وتلك الملامسة بعد الإيمان بالغيب والإدراك بالقلب :

« وإذا قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير فصُرْهن[1] إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » . . . وفعل إبراهيم ، واطمأن قلبه ، وهو يرى جريان قدر الله ويلابسه فى طمأنينة الشاهد القريب !

ثم نراه وهو يواجه أباه وقومه بحقيقة ما هم عليه ، وبحقيقة ربه التى يجدها فى قلبه وفى الوجود من حوله . حيث تتجلى هذه الحقيقة فى صورة رائقة رائعة شفيفة لطيفة :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين ! قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ! قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى ـ إلا رب العالمين ـ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .

---

(١) أى فأملهن إليك وقربهن .

واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » . . .

(الشعراء : ٦٩ ـ ٨٩)

ثم نراه وهو يواجه الملك ، ليعلمه لمن الملك والحكم ، أو لمن الربوبية التى يدعيها الملك بادعائه لحق الحاكمية ، وليقول له : إن الحاكمية فى أمر العباد لا تكون إلا لمن له الحاكمية فى أمر الكون وفى تصريفه بسلطانه كما يشاء ، وهناك نشهد « حقيقة الألوهية» فى نفس إبراهيم فى هذا المجال :

ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله المُلك ؟ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت . قال : أنا أحيى وأميت ! قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ! فبهت الذى كفر ! والله لا يهدى القوم الظالمين » . . .

(البقرة : ٢٥٨)

ثم نقف مع إبراهيم ، وهو يودع فلذة كبده جوار بيت الله الحرام ، ويدعه فى كنف ربه ، وهو يناجى ربه هذا النجاء :

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ـ ربنا ليقيموا الصلاة ـ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن . وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم الحساب » . . .

(إبراهيم : ٣٥ـ ٤١)

ثم نقف مع إبراهيم ـ ومعه إسماعيل ـ عليهما السلام فى الموقف الفريد ، الذى تتجلى فيه قلبيهما « حقيقة الألوهية » فى بهائها الرائع ، وفى تلألئها الباهر ، حتى ما يبقى غيرها ، وحتى ما يتجلى سواها . . نقف مع إبراهيم وقد صدع بكلمة الحق فى مواجهة أبيه وقومه وملكهم الذى حاج إبراهيم فى ربه . وقد حطم أصنامهم وعبث بها . وقد أجمعوا أمرهم على قتله فألقوه فى النار فأنجاه الله منها . . ثم إذا هو يعزلهم ويهاجر عنهم ، ويمضى

وحيدًا غريبًا ، ثم إذا ربه يؤنس وحشته بغلام عليم . حتى إذا أنس به ، وبلغ معه السعى ، إذا ربه ـ فى رؤيا يراها ـ يطلب إليه أن يذبحه ! . . وهنا تشرق تلك الحقيقة من قلب إبراهيم عليه السلام إشراقتها الرائعة الهائلة العجيبة الجميلة . وتشرق كذلك فى قلب إسماعيل :

« . . . وإن من شيعته[1] لإبراهيم ، إذا جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهةً دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ فنظر نظرة فى النجوم . فقال : إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطلقون ؟ ! فراغ عليهم ضربًا باليمن . فأقبلوا إليه يزفّون[2]. قال : أتعبدون ما تنحتون؟ والله خلقكم وما تعملون ؟ قالوا : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين . وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا[3] ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين[4]» . . .

(الصافات : ٨٣ ـ ١١١)

ونختم هذه المشاهد من حياة إبراهيم مع ربه ، وتجلى تلك الحقيقة فى قلبه ، بمشهده هو وإسماعيل يقيمان بيت الله العتيق ويدعوانه ذلك الدعاء العميق :

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا . إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » .

(البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩)

---

(١) من شيعة نوح . وقد جاء ذكره من قبل فى السياق .

(٢) أى يسرعون لهم زفيف فى حركتهم نحوه .

(٣) أى حققت الرؤيا بالفعل باستسلامك الكامل لإشارة ربك .

(٤) يراجع تفسير هذا الموقف الرائع فى « ظلال القرآن » المجلد الخامس من ص ٢٩٩٤ ـ ص ٢٩٩٧ . طبعة دار الشروق .

ثم بآخر لحظة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، والأمر الذى يهمه وهو يغادر هذه الحياة ، هو أمر هذه الحقيقة ، التى يريد أن يطمئن عليها فى قلوب أبنائه قبل الوفاة :

« إذا قال له ربه : أسلم قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

(البقرة : ١٣١ ـ ١٣٢)

« وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »

(الزخرف : ٢٨)

ومن إبراهيم وبنيه ـ إسماعيل وإسحاق ـ إلى حفيده يعقوب ـ عليهم السلام ـ وقد كانت آخر وصيته لبنيه ، كآخر وصية جده لبنيه : هى هذه الحقيقة كما فى آية البقرة السابقة . . فأما فى حياته فإننا نشهد هذه الحقيقة فى قلبه كلما تحرك حركة ، وكلما حزبه أمر ، وكلما أصابه هم ، وكلما تحققت له نبوءة ، وكلما انفرجت الشدة ، وكلما أنعم الله عليه وعلى بنيه . . إن هذه الحقيقة حاضرة فى قلبه أبدًا لا تغيب :

إنه يعرف نعمة ربه عليه وعلى آبائه ويذكرها ويشكرها ، عندما قص عليه يوسف رؤياه المبشرة وهو صبى صغير :

« وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » . . .

(يوسف : ٦)

وهو يركن إلى ربه ، وقد فقد ولده الحبيب :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا . فصبر جميل . والله المستعان على ماتصفون» . . .

(يوسف : ١٨)

وهو يستودع أبناءه ولده الثانى الحبيب الباقى له بعد يوسف ، وقد علم أنهم أضاعوا من قبل يوسف . ولكنه إنما يستودعه ربه ، وهو يعلم منه ما يعلم سبحانه :

« قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين » . .

(يوسف : ٦٤)

وهو يشهد الله على أبنائه ويأخذ منهم ميثاقه :

«قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله : لتأتننى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل » . . .

(يوسف : ٦٦)

وهو يوصى أبناءه ألا يدخلوا من باب واحد . مسلمًا أمره وأمرهم إلى الله ، عالمًا أن الأسباب ليست هى التى تنتج النتائج ، إنما هى مشيئة الله وقدره النافذ :

« وقال : يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنكم من الله من شيء . إن الحكم إلا لله . عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » . . .

(يوسف : ٦٧)

وهو يتلقى الصدمة الثانية فى ولده الحبيب الثانى ، فيركن إلى الصبر وإلى الأمل فى ربه الذى لا يغيب :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا . فصبر جميل . عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا . إنه هو العليم الحكيم » . . .

(يوسف : ٨٣)

وهو يتلقى تقريع أبنائه له على شدة حزنه على يوسف بعد الأمد الطويل ، فيشير إليهم إشارة من بعيد أن يتركوه لربه ، فإنه يعلم منه ما لا يعلمون :

« قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين ؟ قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » . . .

(يوسف : ٨٥ـ٨٦)

وهو لا ييأس من روح الله ـ بعد هذا كله ـ وهو يوصى أبناءه ألا ييأسوا :

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . . .

(يوسف : ٨٧)

ثم . . وهو يتلقى جزاء صبره ، وتعلقه بربه ، ورجائه الذى لا ينقطع فيه . . وهو يبشرَّ بيوسف وأخيه ومع البشرى يعود إليه بصره الذى فقده حتى رده إليه ربه مع البشرى بولده :

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرًا . قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » . . .

(يوسف : ٩٦)

. . لقد كان من ربه على يقين . .

ومن يعقوب إلى يوسف ـ عليهما السلام ـ لنرى هذه الحقيقة تتجلى فى قلبه وامرأة العزيز تراوده عن نفسه :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون » . . .

(يوسف : ٢٣)

والنسوة يكدن له وهو يحس بضعفه والحاجة إلى عونه فليجأ إليه وهو يختار السجن على معصيته :

« قال : رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه . وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم» . .

(يوسف : ٣٣ـ٣٤)

وفى السجن يزاول الدعوة إلى هذه الحقيقة المستقرة فى قلبه :

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

(يوسف : ٣٩ـ٤٠)

وبعد أن مكن الله له فى الأرض ، وقد كشف لإخوته فى رحلتهم الثانية عن نفسه . . فلنسمعه يعترف بنعمة الله ويتحدث بها ويشكر عليها ، ويعرف حقيقة ربه ويتحدث عنها :

« قالوا : أإنك لأنت يوسف ؟ ! قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منّ الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

(يوسف : ٩٠)

وأخيرًا نرى يوسف فى ذلك المشهد الرائع ، وتلك الحقيقة تتجلى وحدها . وهو فى أبهة الملك ، ونشوة الفرحة بتحقيق رؤياه وبلقاء أبويه وأهله . . ولكنه يدع هذا كله ، ويتجه بكليته إلى ربه يشكره ويدعوه أن يتوفاه مسلمًا وأن يلحقه بالصالحين . . إنه مشهد رائع لتجلى تلك الحقيقة الكبيرة :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ـ وخروا له سجدًا ـ وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًا . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء . إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض . أنت وليى فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين » . . .

(يوسف : ٩٩ ـ ١٠١)

ونقف وقفات سريعة أمام مشاهد هذه الحقيقة فى نفس موسى ـ عليه السلام ـ وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا فى القرآن ، ولكننا لا نملك هنا إلا أن نختار بعض المواقف ـ لا كلها ـ وإلا أن نواجهها مواجهة سريعة :

ها هو ذا خارجا من مصر وقد أنبأه الرجل المؤمن من آل فرعون أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه[1] ، خائفًا يترقب . . وها هو ذا فى كل لفتة وفى كل حركة يلتجئ إلى ربه ويجده حاضرًا فى قلبه :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفًا يترقب قال : رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يُصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير . . . » . . .

(القصص : ٢٠ ـ ٢٤)

والآن ها هو ذا عائدًا إلى مصر ، بعد سنوات عشر ، ومعه أهله ، وها هو ذا فى الطريق يلتقى بربه ! يلتقى به ـ سبحانه ـ ذلك اللقاء المفاجئ الرائع الرهيب الجليل :

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارًا ، فقال لأهله امكثوا ، إنى آنست نارًا ، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى : يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله

---

(١) نرجح من سياق القصة أنه نفس الرجل الذى قام يدافع عنه بعد عودته بالرسالة أمام فرعون وملئه .

لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية ـ أكاد أخفيها ـ لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى . قال : ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال : خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى قال : رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرًا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا . إنك كنت بنا بصيرًا. قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى . . . » . . .

(طه : ٩ ـ ٣٦)

ثم ها هو ذا ـ مع أخيه هارون ـ يواجه فرعون بالحقيقة التى تملأ قلبه وعقله وحياته وماضيه وحاضره ومستقبله :

« إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى . قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى » . . .

(طه : ٤٧ ـ ٥٢)

ومرة أخرى نجده يجادل فرعون وملأه ويصدع بهذه الحقيقة التى تملأ نفسه وحياته وتملأ عليه الوجود من حوله :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ! قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» . . .

(الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨)

والآن يبهرنا لألاء هذه الحقيقة فى نفس موسى عليه السلام ، وهو وبنو إسرائيل فى الموقف الذى تزيغ فيه الأبصار ، وتزلزل فيه القلوب . . البحر أمامهم وفرعون وجنوده من ورائهم ، ولا منفذ يلوح للنظر ، ولا مهرب يلوح لِلفكَر . . ولكن قلب موسى الموصول بربه هادئ ساكن واثق من ربه ثقة اليقين :

« وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكمم متَّبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . . . » . . .

(الشعراء : ٥٢ ـ ٥٦)

« فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا إنَّ معى ربى سيهدين . . . » . . .

(الشعراء : ٦٠ ـ ٦٢)

كيف ؟ لم يسأل موسى نفسه : كيف ؟ إنه واثق أن معه ربه . وواثق أن ربه سيهديه . ومستيقن أن ربه سيحميه . وهو لا يعرف الطريق . ولا يعرف الطريقة . ولكن ماذا يهم ! ماذا يهم وهو فى هذه الصحبة ؟ وهو من حقيقة ربه على يقين ؟

وصدقه ربه ، وصنع له ما لم يكن هو يدريه :

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا [1] ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين» . . .

(الشعراء : ٦٣ ـ ٦٦)

ونكتفى بهذه اللمحات من مشاهد تلك الحقيقة فى قلب موسى ـ عليه السلام ـ ولكنا قبل أن نغادر هذا المجال نقف وقفة الدهش والعجب والروعة والإعجاب أمام مشهد هذه الحقيقة فى قلوب السحرة ، وقد لمستهم لمسة المفاجأة ، فإذا هى تخلقهم خلقًا جديدًا ، وتنشئهم نشأة أخرى عجيبة . .

لقد جمع فرعون السحرة ؛ ليواجه بهم موسى . وجاء هؤلاء وهم يمنون أنفسهم بنعمة ينالونها من فرعون وحظوة . . ثم إذا الحقيقة الهائلة تلمس قلوبهم لمسة واحدة مفاجئة ! . . ثم إذا هم خلق آخر ، يقف أمام فرعون الطاغية الجبار ، فى قمة عظمته ، وفى ذروة قوته ، وفى موكب الملأ من قومه وقفة العزيز الكريم ، الذى يصدع بكلمة الحق ، لا يخشى بأس فرعون وسطوته ، ولا يخاف بطشه وقوته ، ولا يبالى ملكه وطاغوته . . إنه مشهد رائع ؛ لتجلى هذه الحقيقة فى قلوب هذا الرهط من المؤمنين . . وإنها لمعجزة الإيمان الباهرة تتجلى فى المشهد الذى لا يصوره إلا السياق القرآنى ذاته :

---

(١) يعنى : وقرّبنا .

« فجُمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أإن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين ! قال : نعم وإنكم إذن لمن المقربين . قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم . وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ! فلسوف تعلمون ! لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . . .

(الشعراء : ٣٨ـ٥١)

أجل . . لا ضير . . مع هذا الخير الجزيل . .

وفى سياق آخر يرد تفصيل أكثر لمقالة هذا الرهط الكريم . فيه ما فيه من الاستهانة بشأن فرعون ، ومن استصغار المدى والمجال اللذين يدخلان فى سلطانه ، بالقياس إلى ما هم مقدمون عليه من حقيقة الله سبحانه وسلطانه :

« . . . فألقى السحرة سجدًا قالوا : آمنا برب هارون وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ! إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأ قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا . فاقض ما أنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » . . .

(طه : ٧٠ـ ٧٦)

هكذا . . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات . ولن نؤثرك على الذى فطرنا . . فاقض ما أنت قاضٍ ! وماذا تملك لنا ؟ إن قضاءك لا مجال له إلا هذه الحياة الدنيا . . وهانت الحياة الدنيا ، بالقياس إلى ما نستقبل من أمرنا مع ربنا « إنا امنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر » . . « والله خير وأبقى » . . فماذا تكون أنت وقضاؤك ودنياك وعطاياك أو عذابك الذى تملكه لنا ؟ ! ماذا يكون عذابك بالقياس إلى عذاب الله : « إنه

من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » . . وماذا تكون عطاياك بالقياس إلى ما عند الله : « ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى : جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » . .

إنها الرؤية الواضحة الكاملة للحقيقة الرائعة الهائلة . . وفى لمسة واحدة . . مفاجئة مباشرة . .

ونقف مع عيسى ـ عليه السلام ـ وقفة واحدة ، وقلبه يفيض بهذه الحقيقة ، فى اليوم العظيم المشهود :

« وإذْ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت الناس اتخذونى وأمى إلّهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلتُه فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ! أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم ، فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . . .

(المائدة : ١١٦ ـ ١١٨)

كذلك نختار من تجليات هذه الحقيقة فى نفس محمد ـ خاتم النبيين ـ مشهدًا واحدًا من حياة كاملة كلها تجليات لهذه الحقيقة فى صدقها الباهر الفريد . .

نختار مشهد هذه الحقيقة فى هذه النفس الزكية ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عائد من الطائف . وقد ذهب إليها يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبى طالب ، وزوجه خديجة ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة . وقد ردته ثقيف ردًا قبيحًا ، وأغرت به السفهاء والأطفال يقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو يتوجه إلى ربه بهذا الابتهال المؤثر العميق الكريم :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى . ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

* * *

ولا نملك أن نمضى أبعد من هذا فى متابعة المشاهد الباهرة التى تتجلى فيها « حقيقة

الألوهية » فى نفوس أولياء الله . . هذه الصفوة المختارة من عباده . . من الملائكة والنبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين . . والسياق القرآنى حافل بهذه المشاهد ، ولم نعرض هنا شيئًا منها لا فى نفوس الملائكة . ولا فى نفوس الشهداء . ولا فى نفوس الكثيرين من الصديقين والصالحين مما يحفل به القرآن الكريم . . وفيما عرضناه منها ما يشير إلى سائرها . وما يكفى فى هذا البحث الذى لا يتخصص فيها .

لقد عرض القرآن « حقيقة الألوهية » فى قلوب هذه الصفوة المختارة ، وجلاها فى أبهى صورة وأصفاها ، إلى جانب مشاهدها فى الكون والنفس ، وفى الحياة والتاريخ . . فى عالم الغيب وعالم الشهود . . وعرف الناس بربهم هذا التعريف الفريد . . ومن هنا ـ وفى هذا المعهد الربانى العظيم ـ نشأت تلك العصبة المسلمة التى غيرت وجه التاريخ ، والتى صنع الله بها ما صنع فى الأرض مما يريد . والتى كانت ستارا لقدر الله ومظهرا لقدرته كذلك . والتى انساحت أمامها الحواجز المعهودة فى حساب البشر ، وبطلب المألوفات التى يقيس بها الناس الأحداث والأشياء . كما بطلت المقررات التى كان الناس يحكمونها فى الأوضاع والأحداث !

ومن هنا ـ وفى هذا المعهد الربانى العظيم ـ ولد الإنسان الجديد . . الإنسان الذى يعبد الله وحده فيتحرر من كل عبودية للعبيد . . من هنا وبهذه الحقيقة الهائلة . . لا بغيرها من تطورات المادة ، ولا بغيرها من حتميات التاريخ[1] !

* * *

وبعد فما الذى يخلص لنا فى النهاية من العرض القرآنى لحقيقة الألوهية فى التصور الإسلامى ؟

ويجب أن نبادر إلى القول بأن هذه الحقيقة لا تتجلى فى قول قائل كما تتجلى فى العرض القرآنى . وهذا القول قد قلناه من قبل مرارا . ولكنه هنا ـ وقبل أن نحاول تلخيص هذه الحقيقة ـ ألزم ما يكون ! فالذى ينبغى أن يستجلى هذه الحقيقة كاملة ، ليس أمامه إلا أن يقرأ القرآن !

إنه فى هذا المصدر وحده يمكن أن يستجلى هذه الحقيقة كما هى فى جمالها الباهر ، وكمالها الرائع ، وإشراقها وجلالها وشمولها وإحاطتها . .

---

(١) هنا تراجع الصفحات الأولى من هذا الفصل قبل الانتقال إلى الفقرة التالية فيه !

ولقد عرضنا نماذج من المنهج القرآنى ، وهو يجلو هذه الحقيقة فى مجاليها . . ولكن ما عرضناه فيها تقدم ليس إلا « نماذج » . . وما نملك فى كتاب أن نعرضها فى القرآن كله . . ولكننا نملك أن نلح على طلاب هذه الحقيقة أن يلتمسوها فى القرآن كله . .

* * *

يخلص لنا من استعراض المنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية ، أن التركيز فى هذا المنهج ليس منصبا على إثبات « الوجود الإلهى » فهذا « الوجود » إنما من بديهيات الفطرة ، لا تنطمس فى الكيان البشرى إلا إذا فسد بجملته فسادا لا يجدى معه البرهان الخارجى ، لتعطل أجهزه الاستقبال والتلقى الفطرية فى هذا الكيان ، فهو بحاجة إلى عملية إحياء لا تتم إلا بإرادة من الله . . وهى الحالة التى تشير إليها بعض النصوص القرآنية ، كقوله تعالى :

« وما يستوى الأحياء ولا الأموات . إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير » . . .

(فاطر : ٢٢ـ٢٣)

« فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

(الروم : ٥٢ـ٥٣)

« أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين؟» . . .

(الزخرف : ٤٠)

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » . . .

(الحجر : ١٤ـ١٥)

« ولو نزّلنا عليك كتاب فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » . . .

(الأنعام : ٧)

وحالة تعطل أجهزة الاستقبال والتلقى الفطرية فى الكيان البشرى ـ أو حالة الموت والصمم والعمى ـ هى التى تتلبس بالمنكرين للوجود الإلهى فى العصر الحديث . وهى التى تفسر ما عليه « الماديون » على اختلاف المذاهب والنظريات . وهى حالة غير سوية

بالنسبة للخلْق البشرى ، ومصيرها إلى الفناء ككل الحالات غير السوية التى لا يمكن أن تكتب لها الحياة كما فصلت من قبل .

التركيز فى المنهج القرآنى ليس منصبًا على إثبات الوجود الإلّهى . ولكنه منصب على وصف هذا الوجود بصفته الحقيقة ، وتعريفه بحقيقته للناس ، وتصحيح ما علق به فى تصوراتهم من انحرافات وتشويهات وأوهام وأضاليل ، باعتبار أن فطرتهم ببديهتها تعترف ابتداء بوجود إلّهى ، ولكن تصوراتهم تخطئ فى معرفة حقيقة هذا الوجود وصفاته وعلاقته بهم وبالكون كله من حولهم .

ومما يلاحظ بدهش وعجب أن هذا التصحيح لا يتناول فقط كل الانحرافات والتشويهات والأوهام والأضاليل التى أصابت تصورات البشر عن « حقيقة الألوهية » قبل نزول القرآن ، إنما يتناول كذلك كل الانحرافات والتشويهات والأوهام والأضاليل التى أصابت تلك التصورات أيضًا فى العصور التالية ـ بما فيها تصورات العصر الحديث ـ مع الإلمام السريع ـ وليس التركيز ـ بأوهام الماديين المنكرين للوجود الإلّهى إطلاقًا !

وكما أن ذلك التصحيح تناول التعدد والتثنية ، وتأليه النجوم والكواكب والظواهر الكونية ، وتأليه الأرواح الخيرة والشريرة ، وما إلى ذلك من التصورات التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية وفيما حولها ، فإنه كذلك قد تناول عقيدة الأكوان والأدهار الهندوكية ، و «سلبية » أرسطو وأفلوطين ، و « مثل » أفلاطون وامتدادها فى فلسفة شوبنهور فى العصر الحديث ، و « وسائط » أفلوطين وامتدادها فى ما سمى خطأ « بالفلسفة الإسلامية » عند ابن رشد ، والفارابى ، و « عبثية » الوجودية الحديثة ، و « ثنائية » ديكارت و « حيوية » برجسون ، ثم مادية برامنيدس قديمًا وكارل ماركس حديثًا . . . كما سنبين ذلك فيما بعد تفصيلاً . .

* * *

التركيز فى المنهج القرآنى ابتداء على « التوحيد » لا على الوجود . . توجد الذات الإلّهية . . فالله سبحانه ذات واحدة لا تتعدد ، ولا تتبعض ، ، ولا تندمج معها ذوات أخرى ولا تتلبس بها فى صورة من صور الاندماج أو التلبس . . هذه الذات الواحدة متصفة بصفات تتفرد بها كذلك فلا يشاركها فيها أحد . . ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير فى الكون وما فيه ومن فيه : وحدانية الخلق والإنشاء . ووحدانية الملك والرزق والقوامة والتدبير . ووحدانية الهيمنة والسلطان فى

الدنيا وفى الآخرة سواء . . . ويبلغ المنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية على هذا النحو ، وشمول هذا التعريف ودقته ووضوحه ما لا يبلغه منهج آخر على الإطلاق . .

إن الله سبحانه ذات واحدة متفردة الصفات لا نظير لها ولا شبيه :

« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد » . .

(الإخلاص)

«ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » . . .

(النحل : ٦٠)

« فلا تضربوا لله الأمثال . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . .

(النحل : ٧٤)

« ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » . . .

(الشورى : ١١)

« رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته . هل تعلم له سميا » . . .

(مريم : ٦٥)

ذات واحدة لا تتعدد ولا تتبعض ، ولا تندمج معها ذوات أخرى ولا تلتبس بها فى صورة من صور الأندماج والتلبس :

« وقال الله : لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون » . . .

(النحل : ٥١)

« لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . . .

(الأنبياء : ٢٣)

« قل : لو كان معه الهة كما يقولون إذاً لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » . . .

(الإسراء : ٤٢ـ٤٤)

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد . . . » . . .

(المائدة : ٧٣)

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا » . . .

(المائدة : ١٧)

وكما أن الله سبحانه هو « الإله » وحده ، فهو وحده « الحى » الذى لا يدركه سبحانه فناء ولا نوم .

« هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين »

(غافر : ٦٥)

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم » . . .

(البقرة : ٢٥٥)

« وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده » . . .

(الفرقان : ٥٨)

« لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه » . . .

(القصص : ٨٨)

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . . .

(الرحمن : ٢٦ـ٢٧)

وهو « العالم » وحده واليه وحده العلم المطلق :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . . .

(الأنعام : ٥٩)

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . . . » . . .

(الجن : ٢٦)

« قل : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » . . .

(النمل : ٦٥)

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . .

(البقرة : ٢١٦)

« قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » . . .

(البقرة : ٣٠)

وهو وحده القادر ، القاهر فوق عباده ، الفعال لما يريد ، المطلق المشيئة بلا حدود ولا قيود ، الذى إليه الحكم وحده فى السماء والأرض ، وفى الدنيا والآخرة ، بلا معقب ولا شريك :

« قل : أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » . . .

(الأنعام : ١٤ ـ ١٨)

« قل : من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل : فأنى تسحرون ؟ » . . .

(المؤمنون : ٨٨ ـ ٨٩)

« أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » . . .

(الرعد : ٤١)

« رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منه شىء ، لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ، إن الله هو السميع البصير » . . .

(غافر : ١٥ ـ ٢٠)

« قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن ، فيكون » . . .

(آل عمران : ٤٧)

* * *

وهكذا يمضى المنهج القرآنى فى توحيد الذات الإلهية ، وفى تفردها بصفاتها كذلك . والقرآن كله معرض لهذا التوحيد والتفرد فلا نملك نحن المضى فى الاستشهاد به على كل صفة من صفات الله سبحانه ، ولكننا نقتصر على مواضع التركيز فى هذا المنهج ، التركيز على خصائص بعينها ، أراد الله سبحانه أن يبرزها ، وهو يعرّف عباده بذاته وصفاته ، لأن فى معرفتهم بها على هذا النحو المؤكد البارز الدقيق الواضح ، مصلحة لهم فى دنياهم وآخرتهم على السواء .

إن التركيز واضح على خصائص : الخلق والإحياء . والرزق والكفالة . والتدبير والقوامة والعلم والإحاطة . والهيمنة والسلطان . والبعث والجزاء . . ومن ثم على إفراد صاحب هذه الخصائص بالألوهية والربوبية بلا شريك . .

إن الإشارة إلى تفرد الله سبحانه بالخلق وبالإحياء تتكرر وتتأكد فى القرآن كله بشكل ظاهر بارز ملحوظ ، ولكنها لا تجىء لإثبات وجود الله ـ سبحانه ـ كما وقع فى اللاهوت المسيحى وعلم الكلام الإسلامى وبعض الفلسفات والمذاهب . . فالوجود الإلهى فى المنهج القرآنى بديهية من بديهيات الفطرة ـ كما أسلفنا ـ إنما تجىء الإشارة إلى تفرد الله سبحانه بالخلق وبالإحياء فى معرض تفرده سبحانه بالألوهية والربوبية . فما أنه هو الخالق المتفرد بالخلق ، المحيى المتفرد بالإحياء ـ كما أنه هو الرازق الكافل المتفرد بالرزق والكفالة ، وهو القيم المدبر المتفرد بالتدبير والقوامة ، وهو العالم المحيط المتفرد بالعلم والإحاطة ، وهو القادر القاهر المتفرد بالقدرة والسلطان . . . الخ ـ فيجب إذن أن يكون هو « الإله » المتفرد بالألوهية الذى يتوجّه إليه عباده وحده بالعبودية والعبادة ، وأن يكون هو « الرب » المتفرد بالربوبية الذى يتوجه إليه عباده وحده بالطاعة والاتباع لحكمه وشرعه . . فالمنهج القرآنى فى هذا متفرد بطابعه ووجهته ، ومن هنا يبدو علم التوحيد ، أو علم الكلام الإسلامى غريبًا عن المنهج القرآنى الإسلامى الصحيح ، متأثرًا بمنطق أرسطو وبجدل اللاهوت وبتجريد الفلسفة أكثر من تأثره بالمنهج القرآنى ! وكذلك ما سمى بالفلسفة الإسلامية !

إن الله سبحانه هو خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . أنشأه إنشاء بعد أن لم يكن ، كما أنه هو سبحانه الذى أنشأ الحياة والأحياء ، وبثها فى الموات . وهو الذى يغير ويبدل ويطوّر ويعدل فى الكائنات وفى الأحياء . وهو الذى يمسك ويحفظ هذا الكون ، ويرزق ويكفل ما فيه من أحياء ، ويدبر الأمر كله بمشيئته الطليقة ـ من وراء السنن الثابتة ـ وهو

الذى يميت ويهلك ، كما أنه هو الذى يحيى ويبعث كما يشاء . . وكل حادث يحدث من هذا كله إنما يحدث بقدر خاص يتعلق به ، وفق المشيئة الإلهية الطليقة التى تنشئ السنن الكونية التى تحكم هذا الكون وما فيه ومن فيه ، ولكن هذه السنن لا تقيدها ولا تحسبها فى إطارها ، كما أن هذه السنن لا تتحقق بذاتها فى حتمية آلية ، إنما تتحقق فى كل مرة بقدر من الله خاص ، يجرى على علم محيط وحكمة مراعاة .

هذا مجمل عن تصوير المنهج القرآنى لعلاقة هذا الكون بالله سبحانه ، ولعمل مشيئته وقدره فيه . وهو مجمل غير واف وفاء النصوص القرآنية التى تصور هذه الحقيقة الكبيرة تصويرًا لا تتطلع إليه محاولات البشر فى التعبير عنها . . لذلك ندع النصوص القرآنية بذاتها تعبر عن هذه الحقيقة الكبيرة تعبيرها المتفرد . وبعض هذه النصوص قد يتكرر الاستشهاد به فى هذا البحث ، وذلك لتتعدد دلالاتها وتنوعها ، وذلك هو الطابع البارز للنصوص القرآنية كافة . بحيث تبدو أصيلة فى كل موضع من مواضع الاستشهاد المتنوعة :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ، ، ثم قضى أجلاً ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » . . .

(الأنعام : ١ ـ ٦)

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحىَّ من الميّت ومُخرِجُ الميت من الحى . ذلكم الله ، فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء . فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرًا . نخرج منه حبًا متراكبًا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره

إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . . .

(الأنعام : ٩٥ ـ ١٠٣)

« الله الذى رفع السموات بغير عَمَد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض ، وجعل فيها رواسىَ وأنهارًا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صِنْوان وغير صِنوانٍ يُسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . .

(الرعد : ٢ ـ ٤)

« قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أمّا يشركون ؟ أمّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإلّه مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإلّه مع الله ؟ قليلاً ما تذكّرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشرًا بين يدىْ رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عمّا يشركون . أمنّ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . . .

(النمل : ٥٩ ـ ٦٤)

« فسبحان الله حين تُمْسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . . .

(الروم : ١٧ ـ ٢٧)

« يا حسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون . وإن كل لما جميع لدينا محضرون . واية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون . وآيه لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . . .

(يس : ٣٠ ـ ٤٤)

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن ؟ أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجًا ، فلولا تشكرون ! أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » . . .

(الواقعة : ٥٧ ـ ٧٤)

« ولقد جعلنا فى السماء بروجا ، وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان

رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى . وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم . ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . . . »

(الحجر : ١٦ ـ ٢٩)

« ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون . قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين . ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . . .

(الأحقاف : ٣ ـ ٦)

« خلق السموات بغير عَمَد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين » . . .

(لقمان : ١٠ ـ ١١)

ونكتفى من المنهج القرآنى بهذه النصوص العشرة ، ثم نحاول أن نرى كيف تصحح طائفة من التصورات المنحرفة عن حقيقة الألوهية وعلاقة هذا الكون بها . سواء فى ذلك القديم والحديث منها :

إن الله ـ سبحانه ـ كما تقرر هذه النصوص ـ خلق هذا الكون وما فيه ومن فيه . خلقه خلقًا وأنشأه إنشاء ـ سواء فى ذلك مادته أو صورته ـ فهذا الكون ليس موجودًا بذاته ، كما كانت المادية الحديثة متابعة فى الحقيقة تلك الوثنيات القديمة وتصوراتها التى لا ترتكن على أى أساس علمى ! وتصور وجود الكون بذاته ـ فوق أنه لا يستند إلى أى أساس علمى ـ فإن العقل البشرى ذاته يرفضه ويدفعه بحكم منطقه الذاتى ، الذى يقوم على أساس أن

هذا الكائن المتناسق المتوافق لابد له من موجد مريد يعمد إلى إيجاده بهذه الصورة . والكون ليس مريدًا ، فلابد له من موجد مريد . وهذا الذى يقبله المنطق الذاتى للعقل البشرى هو الذى تقرره النصوص القرآنية ويتكئ عليه المنهج القرآنى . .

والله ـ سبحانه ـ خلق هذا الكون مريدًا أن يخلقه على الصورة التى أنشأه عليها . وليس الأمر كما يقول أرسطو : إن الله لم يرد إيجاد هذا الكون ، لأنه مستغن بذاته ، فلا حاجة به إلى خلق ما لا حاجة به إلى خلقه ، لأن خلقه لا يزيد فى كماله ، وإلا لكان كمال الله ناقصًا قبل خلق الكون ، كما أنه إذا لم يكن خلقه يكمل هذا الكمال فإنه يكون عبثًا ! وإنما هذا الكون كان ممكن الوجود ، فتحرك بشوق منه نحو واجب الوجود ـ وهو الله ـ فانتقل من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود !

إن هذا الذى يقوله أرسطو ـ أكبر الفلاسفة ـ ليس إلا تصورات ذهن بشرى لا ترتكن إلى أى أساس صحيح ، وهو يقيس الله ـ سبحانه ـ وتصرفه إلى البشر وتصرفاتهم . وخلق الله للكون لا يقتضى حتمًا أن يكون لنقص فى كماله سبحانه ، حتى ينفيه عنه أرسطو ! كما أنه لا يمكن أن يكون عبثًا . إنما الله هو الذى يقدر حكمة خلقه . كما أنه يقال لأرسطو : إذا كان هذا الكون ـ قبل وجوده بالفعل ـ ليس موجودًا ، فكيف تحرك من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود الفعلى ؟ ما الذى تحرك فيه وهو ليس بشىء ؟ وهذا الشوق الذى حركه نحو واجب الوجود أين كان مقره فى شىء لا وجود له ؟ ثم من الذى أودع شوقا فى شىء لا وجود له ؟ ! إنها تصورات واهنة يعجب الإنسان كيف تصدر عن ذهن أكبر الفلاسفة ، لولا أن يتذكر أن الذهن البشرى حين يقحم نفسه فى غير مجاله على نحو ما تصنع الفلسفة بجملتها ، وهى تتحدث عن ذات الله وصفاته وأفعاله من عند نفسها ، لا يمكن أن يأتى بغير هذه التصورات الواهنة !

كذلك بث الله الحياة فى الموات ، وأنشأ الأحياء من الأموات . فالحياة ليست حالة أو خاصية ملازمة لمادة الكون أو كامنة فيها بطبيعتها ، كما تزعم جميع المذاهب المادية على اختلاف نزعاتها ـ بما فيها مذهب دارون ـ بغير دليل يقبله حتى العقل البشرى ! وإلا فكيف أمكن لخاصية فى مادة الكون أن تظل كامنة ما لا يحصى من ملايين السنين ـ على اعتبار أن الكون قديم موجود بذاته كما تقول هذه المذاهب ـ فلا تتحوك لتظهر إلا منذ كذا مليون سنة فيما يقدرون ؟ ودون أن تكون هناك إرادة قاصدة فى كمونها أو فى ظهورها ؟ ! إن العقل البشرى بمنطقه الذاتى يرفض هذا التصور . .

إن دارون وهو يرفض وجود عامل غيبى وراء ظهور الحياة لم يكن يستند إلى أى دليل علمى ، بل كان يجاوز منطقة بحثه الذى أقام عليه مذهبه فى تطور الأحياء . إذ أن منطقة هذا البحث إنما تبدأ من بعد ظهور الحياة ! فعلام كان يستند ؟ ومالذى زج به وراء منطقة بحثه وعلمه ؟ لولا الرغبة الكامنة فى الهروب من الكنيسة وسلطانها الغاشم بالهروب من الله ؟ !

وكذلك صنع كارل ماركس ، وهو يحاول أن يعطى مذهبه الاقتصادى صورة المذهب العلمى الذى يستند إلى أصل كونى ! وإلا فكيف يمكن تعليل ظهور الحياة فى المادة بغير عامل وراء المادة ووراء الحياة جميعًا ؟

ونظرًا لوهن التصورات المادية ـ بما فيها تصورات دارون وماركس معًا ـ وتهافت تعليلها لظهور الحياة فى المادة ، حاول (ول ديورانت) المتفلسف الامريكى المعاصر أن يثبت الحياة للمادة ابتداء ، وأن يعتبر ذبذبات الإلكترونات فى الذرة نوعًا من الحياة ، ثم تصرفات بعض الأملاح التى يبدو فيها نوع من الحركة ، ثم ترقى إلى الحياة الإنسانية العليا! . . ولكن علامة الاستفهام التى ترسمها الحياة تظل قائمة ـ فضلاً على علامة الاستفهام الأولى التى يرسمها وجود الكون ذاته ـ فإنه إذا كانت الحياة خاصية من خواص المادة ، فكيف توزعت مراتبها ودرجاتها وأنواعها هذا التوزيع بدون إرادة واعية وراءها ؟ ولماذا تتجلى فى الذرة مجرد ذبذبات ؟ وفى بعض الأملاح ـ دون بعضها ـ مجرد تحركات ؟ وفى الأميبا حياة ساذجة ؟ وفى الإنسان حياة مركبة ؟ ما الذى ومن الذى ينوعها هكذا ويرتبها ويوزعها على أجزاء المادة ؟ والمفروض طبعًا أنها كلها مادة لا إرادة لها ولا قصد ! وليس وراءها ـ فى زعمهم ـ إرادة ولا قصد ؟ !

كذلك فإن الحياة ذاتها ليست خالقًا مريدًا ، كما يريد برجسون فيلسوف الحيوية أن يصورها ، فيهتف له أعداء المادية بوصفه فيلسوف الروحية ! ويبلغ من بعض المسلمين الذين يريدون أن يدفعوا تيار المادية أن يهتفوا له كذلك . وهو يجعل من الحياة إلهًا !!!

إن برجسون يهيم فى تصورات معتسفة لا تستند إلى أى أساس علمى أو عقلى أو فطرى، وهو يتحدث عن الحياة ، وسيرها الروتينى ، ووثباتها المبدعة ! ودين السكون ودين الحركة ، وأخلاق السكون وأخلاق الحركة . . . الخ . . .

إن الحياة تبدو من خلال تصوراته كما لو كانت كائنًا أزليا سرمديًّا قادرًا مريدًا . . فهى تبدع فى المادة فتتجلى أولاً فى كائنات غريزية . تبلغ أقصى كمالها فى النمل والنحل . وعندما

تصل كائناتها هذه إلى درب مسدود ، ليس وراءه زيادة لمستزيد فى الكمال الغريزى ، فإنها لا تستمر فى سيرها التطورى كما يقول دارون ـ إذ أنه ليس للتطور هنا مجال ـ وإنما تثب وثبة مبدعة إلى كائنات أعلى . . وقد كانت القردة العليا نهاية الوثبة المبدعة التى تجلت فيها الحياة فى الفقاريات ، ثم وقفت عند نهاية درب مسدود . ووثبت الحياة وثبة مبدعة جديدة فتجلت فى « الإنسان » ! ثم سارت فى الإنسان ذاته مثل هذه السيرة لا فى تركيبه الجثمانى . ولكن فى تركيبه الروحى ، فوكلته أولاً إلى غريزته للمحافظة على حياته ووجوده ، فأنشأت الغريزة علاقات اجتماعية تساعدها فى عملها وأخلاقها مناسبة لها . ولكن الحياة دون حساب للعواقب ودون دراية بهذه العواقب ـ منحت الإنسان العقل ، كأداة ترقّى هذا الإنسان . إلا أن العقل بحكم طبيعته التجريدية الطليقة أخذ يصبح خطرًا على وجود الإنسان ذاته ، لأنه أخذ يسأل أسئلة محرجة تضعف من سلطان الغريزة ، منها مثلاً : ما غاية الحياة وما قيمة الحياة إذا كنا نموت ؟ وما ضرورة النسل إذا كان الموت غاية كل حى ؟ . . . وهكذا أخذ العقل يحطم الروابط والدوافع والعلاقات الاجتماعية التى أنشأتها الغريزة للمحافظة على مجرد وجود الإنسان . . . وهنا أحست الحياة بخطر هذا العقل الذى منحته للإنسان لترقّيه ، فإذا هو يهدد وجوده من أساسه . فاستدارت تدرأ هذا الخطر بصياغة دين وخلق من نوع الغريزة ! إلا أن الإنسان كان قد ترقى بالعقل، فلم يعد منطق الغريزة يقنعه ، ولم يكن بد للحياة أن تخلع سمات تمويهية على هذا الدين ، وهذا الخلق ، عليها طابع العقل المموه ليصبحا مقبولين عند هذا الكائن الذى ترقى ! ولكن الحياة ـ كما هى طبيعتها ـ لم ترض أن تقف أمام الدرب المسدود فوثبت وثبة مبدعة وراء الغريزة ووراء العقل ووراء دين السكون وخلق السكون ، وتجلت فى دين الحركة وأخلاق الحركة متمثلة فى المسيح وفى الصادقين من رجال التصوف بعده !

وقبل أن ننسى ! فإن المسيح نبى ـ إسرائيلى ـ كما يبرز برجسون ـ وبرجسون يهودى ! وهكذا تستخدم الفلسفة فى الدعاية العلمية لليهود فى صورة بريئة كل البراءة كما ترى ! حتى لينخدع بها بعض دعاة الحركات الإسلامية ، فيهتفون لبرجسون فيلسوف الروحية ضد المادية !

ما علينا ! فلننظر فى هذه « الحياة » التى يقيم عليها برجسون بناء فلسفته . .

هذه الحياة ما هى حتى تكون هى بذاتها مبدعة فى عالم المادة ؟ متجلية فى صورها هذه؟ دائرة فترة فى فلك دائرى عند درب مسدود ، واثبة بعد ذلك خارج مدارها الساكن ؟ . .

ما هى ؟ وأين كانت قبل أن تبدع هذه البدائع فى عالم المادة ؟ وقبل أن تتجلى فى تلك الصور الساكنة أو المتحركة ؟

أسئلة لا جواب عليها عند برجسون ، ولا عند غيره من البشر . . لأن هذه المقولات ليست سوى تصورات غير مستندة إلى شىء إلا التصورات !

« إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . . .

* * *

لقد خلق الله ـ سبحانه ـ كل شىء وكل حى بإرادته ، وجرى قدره وفق مشيئته بخلق الأشياء والأحياء ، دون وسائط من خلقه ولا معونة ! فهو خالق كل شىء خلقًا مباشرًا بكلمته :

« إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن ، فيكون » . . .

(النحل : ٤٠)

لم يخلق الله العقل ، فيخلق العقل النفس ، فتخلق النفس المادة (أو الهيولى) كما يزعم أفلوطين ، وكما يتابعه من يسمون خطأ « فلاسفة الإسلام » فيزيدون فى هذه الوسائط أن العقل بعد خلقه النفس الكلية ، وهذه خلقت النفوس الفردية . . إلى آخر ما ذهبت إليه تصوراتهم عن النفس المفارقة والنفوس المصاحبة !

ولم يكن له ـ سبحانه ـ معين من خلقه كما أنه لم يكن له شريك فى خلقه ولا فى ملكه :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » . . .

ـ (الكهف : ٥١)

« قل : ادعو الذين زعمتم من دون الله ، ولا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير » . . .

(سبأ : ٢٢)

وخلق كل شىء وكل حى كما أراده فى الصورة التى قدرها ، وعلى الهيئة التى قدرها . . لم تعاكس المادة إرادته سبحانه فتجىء الصورة المنفذة ناقصة عن الصورة المرادة ، فيكون هناك « مثال » كامل و « صورة » ناقصة كما يقول أفلاطون . أو تكون هناك « خيرية مطلقة » فى واجب الوجود و « شرية مطلقة » فى الهيولى ، فتجىء الخلائق وفيها الخير من الله ، والشر من الهيولى كما يقول أفلاطين ! وليس الكون « فكرة » و « إرادة » كما يقول شوبنهور . الفكرة كاملة والإرادة ناقصة !

إن المادة من خلق الله سبحانه ، والصورة التى تظهر فيها من خلق الله سبحانه كذلك . وهذه كتلك طوع إرادته ، يتحقق وجودها بقدره كما أرادها وشاءها :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» . . .

(طه : ٤٩ ـ ٥٠)

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوَّى . والذى قدر فهدى » . . .

(الأعلى : ١ ـ ٣)

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » . . .

(الانفطار : ٦ ـ ٨)

« وربك يخلق ما يشاء ويختار » . . .

(القصص : ٦٨)

« إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد » . . .

(البروج : ١٣ ـ ١٦)

وخلق كل شيء وكل حى عن إرادة وقصد ، وتحقق خلقه ووجوده بقدر من الله خاص . فلا مكان للمصادفة العمياء فى هذا الكون كما أنه لا مكان للحتمية الالية على السواء . . .

لا مكان للمصادفة لأن كل حادث يحدث إنما يتم بقدر من الله خاص :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » . .

(القمر : ٤٩ ـ ٥٠)

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » . . .

(الحديد : ٢٢)

« وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين » . . .

(يس : ١٢)

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . . .

(التوبة : ٥١)

« ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله » . . .

(التغابن : ١١)

وتسقط بذلك كل المقولات « الفلسفية » ، أو « العلمية » التى تزعم مثلاً أن الأرض وجدت مصادفة . وأن الحياة وجدت مصادفة ، وأنها غريبة على الكون ، ليس محسوبًا حسابها فى تصميمه (وسنوفى القول فى هذا عند الكلام عن « حقيقة الكون » و « حقيقة الحياة ») أو أنها وجدت وسارت خبط عشواء ، تقع منها أغلاط كثيرة فى خط سيرها ، وإسراف وتعثرات لا ضرورة لها !

كذلك تسقط كل التصورات التى تنسب الآثار للمصادفات فى حياة البشر ، أو لقوى أو خلائق أخرى غير إرادة الله وقدره . فما يقع فى هذا الكون ما حدث إلا بإذنه وقدره .

وكما أنه لا مكان للمصادفة العمياء ، فإنه لا مكان كذلك للحتمية الآلية . حقيقة أن هناك سننا كونية أودعها الله تركيب هذا الكون ليسير على وفقها . ولكن هذه السنن ـ أو ما يسمونه القوانين الطبيعية أو الكونية ـ لا تتحقق بذاتها ، إنما تتحقق فى كل مرة تتحقق فيها بقدر من الله خاص بهذه المرة . وإذا كان الله لا يبدل سنن الكون فإنما هو يريد هذا ، ولكن إرادته لا تتقيد بهذه السنن الثابتة ، وعندما يريد ـ لحكمة خاصة أن يوقف فعل هذه السنن فهو يوقفها ويجرى سننا أخرى ـ والمعجزات كلها نماذج لهذه الحقيقة ـ كما أنه يوقف هذه السنن يوم القيامة ويجرى سننا غيرها :

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت » . . . الخ .

وبذلك تسقط كل المقولات التى تنسب الآثار نسبة مباشرة إلى أسباب غير مشيئة الله وقدره فالاحتراق ليس بسبب النار ولكن بسبب إرادة الله أن تكون النار حارقة ، وبسبب جريان قدره فى كل مرة بأن تنشئ هذه السنة أثرها بالحرق . فلما أراد ألا تنشئ هذه السنة أثرها لم يحترق إبراهيم بالنار . . . وهكذا سائر السنن والقوانين الكونية وفعلها فى الكون وفى الناس .

فمن رحمة الله بعباده أن يجعل للكون سننا ثابتة وقوانين دائمة يستطيعون كشفها وإدراكها والتعامل معها تعاملاً ثابتا . ولكن من رحمته بهم كذلك ألا يجعلهم عبيدًا لحتميات آلية فى نظام الكون ، إنما يعلق قلوبهم بإرادته هو وقدره مباشرة ، وينقذ أرواحهم من العبودية لغيره . حتى ولو كانت السنن الكونية من خلقه . . فما بال الذين يقولون بالحتمية الآلية فى نظام الكون ، وفى نظام الحياة ، وفى نظام المجتمع ، دون أن يكون هناك وراء هذه الحتميات الآلية كلها إلّه ؟ ! إنهم يسلمون « الإنسان » لأحط عبودية يتصورها خيال !

ولقد أخذت طلائع « العلم الحديث » فى القرن العشرين تتخلص من فكرة « الحتمية الآلية » فى نظام الكون وفكرة « المصادفة العمياء » على السواء . إذ أخذ يتجلى للبحث العلمى ذاته أن هناك حالات كثيرة غير خاضعة للحتمية ، كما أن للمصادفة ذاتها قانونًا : (راجع : « الكون الغامض » لسير جيمس جينز . و « العلم يدعو للإيمان » لكريسى موريسون) ولكن الذين يتحدثون باسم « العلمية » فى الشرق العربى عندنا لا يزالون يقتاتون فتات موائد القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وهم ينفون « الغيب » باسم «العلم » ويسخرون من القدر ـ وهو من الغيب ـ باسم التفكير العلمى !

إن « التصور الإسلامى » الذى ينشئه المنهج القرآنى فى إدراك المسلم بتقرير هذه الحقيقة تصور جميل فوق أنه صحيح . . . إن شعور الإنسان بأن كل حدث يحدث فى هذا الكون هو حدث جديد ، يتحقق بقدر خاص ، لينفى عنه بلادة الرتابة الآلية ، كما ينفى عنه شعور العبودية لغير الله ، وشعور التعليق بغير مشيئته سبحانه وقدره . .

إن الشمس تشرق من الشرق وتغرب بالنسبة لسكان الأرض . لأن الله ـ سبحانه ـ ركب الكون بحيث تقع هذه الظاهرة كسنة كونية من سنته . ولكن الشمس لا تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب بحتمية آلية ، إنما تشرق وتغرب فى كل مرة بقدر من الله خاص بهذه المرة . ويمكن ألا تشرق هكذا ولا تغرب هكذا فى ذات يوم يريده الله ويجرى به قدره . . . أى جمال فى هذا التصور ؟ وأى تجدد ، وأى طلاقة ؟ وأى استقبال حى لظاهرة شروق الشمس وغروبها فى كل مرة ؟ وأى اتصال بالله وتذكر لقدرته عند كل مطلع شمس وكل مغرب ؟

وهكذا كل ظاهرة كونية وكل حادثة فردية . . .

إن هذا ليس معناه إطلاق الفوضى فى نظام الكون ، ولا الكف عن كشف السنن والقوانين الكونية والتعامل معها والانتفاع بها فى تنمية الحياة وترقيتها ، فالتصور الإسلامى يقوم فى الوقت نفسه على أساس أن الله أودع الكون والحياة سننًا ثابتة وقوانين دائمة . ولكنه فقط ينقذ روح الإنسان من بلادة الرتابة ومن عبودية الحتمية الآلية ، فيكسب الحسنيين ولا يخسر شيئًا !

وكذلك يمضى المنهج القرآنى يبرز مشيئة الله وقدره فى كل ظاهرة وكل حادثة ، وينفى الأسباب الأخرى الظاهرة ، أو يردها إلى مشيئة الله وقدره :

« أفرأيتم ما تُمْنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحنُ قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدِّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون ! أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حُطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون! أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » . . .

(الواقعة : ٥٨ ـ ٧٤)

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليُبلى المؤمنين منه بلاء حسنًا ، إن الله سميع عليم » . . .

(الأنفال : ١٧)

« إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنَة نُعَاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » . . .

(آل عمران : ١٥٣ ـ ١٥٤)

« قل : لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . .

(التوبة : ٥١)

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليمًا حكيمًا »

(الإنسان : ٣٠)

إن وراء كل نجم يبزغ ، أو يأفل ، وكل برعم يترعرع ، أو يذبل ، وكل ورقة تنبثق ، أو تسقط ، وكل نبع يترقرق ، أو يغيض ، وكل حى يولد ، أو يموت . . .

إن وراء كل نبضة قلب ، وكل خلجة عين ، وكل بسمة شفة ، وكل نطق لسان . وكل رقة نسمة ، وكل خفق جناح . وكل صفقة ريح ، وكل ومضة برق ، وكل هدير موجة ، وكل إدرار سحاب . . .

إن وراء كل رغبة تجيش فى صدر ، وكل نية تكمن فى قلب ، وكل رجل تدب على الأرض ، وكل يد تمتد إلى قطاف . . .

إن وراء كل حركة وكل نأمة ، فى هذا الكون العريض ، على مدى الأبد الأبيد . . يد الله تدفعها ، وقدر الله يوُقِعها . ولولاه ما كان شىء ولا يكون . .

أى انطلاق ورفرفة ؟ وأى جمال ومتعة ؟ وأى تطلع ونشاط ؟ . . يطلقها فى قلب المؤمن هذا التصور وهذا الشعور ؟

أى تقوى وطهارة ؟ وأى أنس وبشاشة ؟ وأى رضى وطمأنينة ؟ يسكبها فى القلب المؤمن تمثل هذه الحقيقة ؟

هذه الرؤية ليد الله ، وهى تزجى كل حادث فى هذا الكون ، وكل حركة ، وهذه الملابسة لقدر الله وهو يمضى مشيئته وينفذ قضاءه ؟

إنه المتاع الجميل . . فوق أنه الإدراك الصحيح . . وصدق الله العظيم :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . . .
(الإسراء : ٨٢)

* * *

والله ـ سبحانه ـ لم يخلق الكون ويتركه وشأنه ، ولم يخلق الحياة ويدعها لشأنها ، ولم يخلق الأحياء ويدعهم لشأنهم . . إن « أرسطو » يفترض أن الكون هو الذى تحرك بشوق كامن فيه نحو واجب الوجود . وبذلك انتقل من مرتبة إمكان الوجود ـ أو الوجود حكماً ـ إلى مرتبة الوجود ـ أو الوجود فعلاً ـ وأن واجب الوجود لا يفكر إلا فى أشرف موجود . وهو أشرف موجود ، فهو لا يفكر إلا فى ذاته ، ولا يعنى أية عناية بالتفكير فى هذا الكون وما فيه ومن فيه ! ويرى أن هذا هو الكمال اللائق بواجب الوجود ! . . ويتابعه « أفلوطين » فيغرق فيما يحسبه تنزيها لواجب الوجود ـ الأحد ـ فيجرده من كل صفة الخير ، باعتبار أن هذا « الأحد » هو نفسه « الخير » . ويتخيله هائماً مع ذاته لا يرى ولا يحس ولا يعنيه شىء وراءها !

ولكن الله ـ سبحانه ـ يصف ذاته بصفات الفاعلية والتأثير ، سواء فى خلق هذا الكون وإنشائه إنشاء من العدم ، ثم فى بث الحياة فيه ، أو فى متابعة بعد ذلك وتصريفه وتدبير أمره فى كل كبيرة وفى كل صغيرة من أحداثه وأحداث ما فيه ومن فيه .

« ومن أصدق من الله حديثًا ؟ » . . .

(النساء : ٨٧)

لقد خلق الله كل شيء ، وهو مقيمه وحافظه . ولقد خلق الله كل حي وهو كافله ورازقه ولقد خلق الله الإنسان وهو رقيب عليه ، متابع له بعلمه وحفظه ، ورعايته وفضله، ورحمته وبره ، وسلطانه كذلك وقهره . وندع المنهج القرآنى يعرض هذه الحقيقة بطريقة القرآن الفريدة :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليمًا غفورًا » . . .

(فاطر : ٤١)

« ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . . .

(النحل : ٧٩)

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » . . .

(هود : ٦)

« وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » . . .

(العنكبوت : ٦٠)

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم . إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا» . . .

(الإسراء : ٣١)

إن رعاية الله ورقابته تتابع خلائقه ، ،إن كل حدث يقع إنما يقع بقدر خاص ، كما أسلفنا فليس هناك شيء ولا حى متروك للمصادفة العمياء ، ولا للحتمية الآلية ، ولا لنفسه هو وهواه .

* * *

وفيما يتعلق بالإنسان خاصة يفيض المنهج القرآنى فى مسألة الرزق والكفالة ، ومسألة إحاطة علم الله به ، ومسألة هيمنته عليه . وتحتاج كل واحدة منها أن نتابعها فى هذا المنهج بشيء من التفصيل :

إن رزق الإنسان ـ كرزق كل حى ـ معقود بالله وحده . هو الذى ييسر أسبابه ، وهو الذى يبسط ويقدر فيه ، وهو الذى يمسكه أو يفتح أبوابه :

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ . . . » . . .

(فاطر : ٢ـ٣)

« أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجُّوا فى عتو ونفور » . . .

(الملك : ٢١)

« له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم» . . .

(الشورى : ١٢)

وكلمة الرزق أوسع مدى ، وألطف مدخلاً ، وأدق دلالة من ظاهرها الذى يتبادر إلى أذهان الناس عادة عندما تذكر . فهى لا تقتصر على المال والطعام والشراب واللباس والسكن وهذا المتاع المادى ، إنما تشمل كل ما يرزقه المرء من صحة وهناء ، وولد ، ومن توفيق للخير فى الدنيا ، أو فى الآخرة بنية ، أو عمل ، أو عبادة ـ أو عكس ذلك كله ! ـ كما أنها لا تقتصر على صورة الرزق الفردى الذى يصل فى نهاية المطاف إلى حى بعينه ، إنما تتجاوز هذا المدلول إلى أصل الرزق العام من مصادره الكونية التى ليس للإنسان عليها من سلطان ، إلا أن يسخرها الله له ، ويعلمه كيف ينتفع بها بمعرفة سننها وقوانينها ، وبالتوفيق إلى حسن استخدامها بعد معرفتها . . .

إن المنهج القرآنى حين يتحدث عن الرزق يكثر من الإشارة إلى المصادر الكونية للرزق ، وإلى الأسباب الكونية له ، وهى تشمل خلق السموات والأرض على النحو الذى خلقها عليه ، وخلق الإنسان بخصائصه هذه ومقدراته وملكاته التى وهبها له ، وتسخير الأسباب الكونية وتيسيرها له . . كل ذلك قبل أن يتحدث عن الأرزاق الشخصية التى تتعلق بتوزيع تلك الأرزاق الكونية . والواقع أن إنبات حبة واحدة من القمح يقتضى خلق الكون على هذا النحو ، لتتوافر لها تربة الأرض التى تنبت فيها . وتغتذى منها ، وليتوافر لها الماء الذى تنبت به وتحيا ، وليتوافر لها الأكسجين والنتروجين اللذان تقتاتهما ، وليتوافر لها الدفء المناسب والصحو من أشعة الشمس والراحة المناسبة كذلك فى فترة

الظلام ! . . وعشرات العوامل والموافقات الكامنة فى تركيب الكون وظواهره الطبيعية كما أسلفنا فى فصل : « ألوهية وعبودية » إجمالاً ، وكما سنفصل القول فى فصلى « حقيقة الكون » ، و «حقيقة الحياة » .

والمنهج القرآنى يشير إلى تلك الأسباب والموافقات الكونية فى خلقة الكون وخلقة الإنسان إشارات موحية وهو يتحدث عن رزق الله لعباده وكفالتهم جميعًا :

« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخرلكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . . . .

(إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤)

● « أمّن خلق السموات والأرض . وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى عما يشركون . أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . . .

(النمل : ٦٠ ـ ٦٤)

« خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين . وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار

والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفًا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارًا وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » . . .

(النحل : ٣ ـ ١٨)

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبًا ؟ فستعلمون كيف نذير . ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ؟ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير . أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور . أمّن الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجّوا فى عتو ونفور . أفمن يمشى مكبًا على وجهه أهدى ؟ أمّن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ قل : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون . قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض ، وإليه تحشرون » . . .

(الملك : ١٥ ـ ٢٤)

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام . فبأى الاء ربكما تكذبان ؟ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن . فبأى الاء ربكما تكذبان » . . .

(الرحمن : ١ ـ ٣٠)

بعد ذلك يتفاضل الناس فى الرزق المادى بالأسباب الخيرة فى المجتمعات الخيرة ، وبالأسباب الشريرة فى المجتمعات التى لا تتبع هدى الله . . ولكن مبدأ التفاوت فى الرزق يتبع دائماً سنة ثابتة ! فقد خلق الله الناس متفاوتين فى استعدادتهم ومداركهم واهتماماتهم ووظائفهم ، فمنهم من هو موهوب فى جمع المال وتنميته ، ومنهم من هو موهوب فى غير ذلك ، وقد لا يحفل بالمال ولا جمعه . فإذا اتبع المجتمع هدى الله ، كان لكل فرد فيه نصيبه مما يوجه اهتمامه إليه وسعيه من أنواع الرزق . وإذا فسد المجتمع واتبع هواه اختل توزيع الأنصبة من أنواع الرزق . . والتفاوت قائم فى جميع الأحوال . ومرد الأمر كله فى النهاية إلى قدر الله الذى تتحقق به الأحداث والأفعال ، وحكمته فى توزيع الأرزاق والأموال :

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا . ورحمة ربك خير مما يجمعون » . . .

(الزخرف : ٣١ـ٣٢)

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » . . .

(النحل : ٧١)

« قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » . . .

(سبأ : ٢٩)

ثم تتنوع حكمة الله وتتوزع من وراء البسط والقبض فى الرزق . فقد يكون البسط للصالحين ليشكروا ، ويكون القبض ليصبروا . وقد يكون البسط للظالمين ليبطروا ويكون القبض ليتذكروا ، أو ليكفروا . . فهى الفتنة والابتلاء والاختبار والإنذار ، كل ذلك فى إطار مشيئة الله وقدره وتسخيره وتدبيره .

« من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء ـ لمن نريد ـ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ـ وهو مؤمن ـ فأولئك كان سعيهم مشكورًا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورًا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض . وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » . . .

(الإسراء : ١٨ ـ ٢١)

« كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . . .

(الأنبياء : ٣٥)

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . . .

(البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧)

« ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » . . .

(الأنعام : ٤٢ ـ ٤٥)

« وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا ، لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدًا » . . .

(الجن : ١٦ ـ ١٧)

ولكن البركة تكون دائمًا مع الصلاح . سواء مع قبض الرزق ، أو بسطه . والبركة شيء غير الكثرة . فقد تكون مع القليل ، وقد لا تكون مع الكثير ، إنما هي حسن المتاع بالرزق والطمأنينة واليسر والصلاح في الحياة :

« وأن استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله » . . .

(هود : ٣)

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » . . .

(الأعراف : ٩٦)

« قل لا يستوي الخبيث والطيب . ولو أعجبك كثرة الخبيث . فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون » . . .

(المائدة : ١٠٠)

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » . . .

(التوبة : ٥٥)

وهكذا تصبح قضية الرزق حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية . تنشئ فى إدراك المؤمن تصورًا خاصًا يطمئن له عقله وقلبه ، ويتصل به بالله ربه ، تصورًا يجعله شاكرًا ذاكرًا ليد الله عليه كلما أصابته نعمة ، وكلما مسه الضر . كلما بسط الله له فى الرزق ووسع، وكلما قدر له فى الرزق وضيق . كما يجعله مطمئنًا لا يخشى العباد على رزقه ، وفى الوقت ذاته متيقظًا كيلاً يفتتن بالنعمة ويبطر . . وذلك فوق الإدراك الصحيح للحقيقة كما يقررها الحكيم الخبير .

وكما يفيض المنهج القرآنى فى تقرير قضية الرزق . يفيض كذلك في تصوير إحاطة الله بالإنسان ـ وبالكون ـ علمًا ورقابة ، وإحاطة به وبكل شىء قدره وهيمنة . إنه رقيب عليه، مطلع على سره وجهره ، وهو معه أينما كان وحيثما ذهب . . ولكن مالنا نقول عن هذه الحقيقة بأسلوبنا البشرى القاصر ؟ ! ومالنا لا ندع القرآن بأسلوبه المعجز المتفرد ؟ !

« وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . . .

(يونس : ٦١)

« ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » . . .

(المجادلة : ٧)

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » . . .

(الحديد : ٣ـ٦)

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » . . .

(هود : ٥)

وكما أنه ـ سبحانه ـ رقيب مطلع عليم ، فهو كذلك قاهر قادر مهيمن محيط ، فى الدنيا وفى الآخرة . فلا مهرب ولا فوت هنا أو هناك .

« قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم . قل : إنى أمرت أنى أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، ذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » . . .

(الأنعام : ١٤ ـ ١٨)

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعًا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » . . .

(الأنعام : ٥٩ ـ ٦٥)

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شىء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسّر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ من أمر الله ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب

الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » . . .

(الرعد : ٨ـ١٣)

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . . .

(آل عمران : ٢٦ـ٢٧)

« ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » . . .

(البقرة : ١٦٥ـ١٦٧)

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب » . . .

(سبأ : ٥١ـ٥٤)

ونكتفى بهذا القدر من النصوص فى تصوير إحاطة العلم الإلهى والقهر الإلهى بالعباد، فى معرض بيان حقيقة المتابعة والقوامة ، والرزق والكفالة ، والهيمنة والإحاطة بكل شىء وبكل حى فى هذا الوجود . وتصحيح كل التصورات المنحرفة عن حقيقة الألوهية فى هذه القضية وعلاقتها بهذا الوجود .

* * *

والله خلق كل شىء وكل حى إلى أجل . فليس شىء وليس حى مما خلق وممن خلق بالأبدى الدائم ، كما أنه ليس شىء وليس حىّ مما خلق بالأزلى القديم . . هذه كتلك حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية ، ومقوم من مقومات التصور الإسلامى الذى تنشئه حقائق هذه العقيدة فى الإدراك البشرى :

« كل شىء هالك إلا وجهه » . . .

(القصص : ٨٨)

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . . .

(الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧)

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت . ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . .

(الأنبياء : ٣٤ ـ ٣٥)

« ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . . .

(الأعراف : ٣٤)

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمواتُ وبرزوا لله الواحد القهار » . . .

(إبراهيم : ٤٨)

« إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » . . .

(الانفطار : ١ ـ ٥)

« يوم تكون السماء كالمُهْل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميمًا » . . .

(المعارج : ٨ ـ ١٠)

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا » . . .

(طه : ١٠٥ ـ ١٠٧)

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا » . . .

(الكهف : ٤٧)

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » . . .

(القيامة : ٧ ـ ١٠)

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سُجِّرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت » . . .

(التكوير : ١ ـ ١٤)

وكل شىء يتبدل ، أو يهلك ، وكل إنسان يموت ، أو يبعث بإرادة الله ، وقدر الله . . وليست هى دورات حياة وهلاك للأكوان بمعنى الأدهار كما تزعم العقائد الهندية الوثنية ، التى تتصور أنه على مدى أدهار معدودة تهلك الأكوان والآلهة ثم تتجدد فى دورة جديدة ،

هكذا منذ الأزل إلى الأبد بلا انقطاع . إما بفعل الدهر ، و إما بفعل « الكارما » . والكارما ليست ذاتا عاقلة مريدة و إنما هى « ما ينبغى أن يكون » .

ولعل الذين حكى عنهم القرآن من مشركى العرب قولهم :

« ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . . .

(الجاثية : ٢٤)

إنما كانوا ملتقطين فتاتا من عقائد الهنود فى أثناء رحلة لهم إلى الشواطئ الهندية فى تجارة

إن الله ـ سبحانه ـ هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده فى أجل مسمى ، وفق حكمة مقصودة . فيما يختص بالبشر عليها نصا : وهى ابتلاؤهم واختبارهم ، ثم حسابهم وجزاؤهم . فالحياة ابتلاء فى الدنيا وجزاء فى الآخرة . والموت أجل ، والهلاك عقاب معجل . . وكل واحدة منها بقدر . .

« تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور »

(الملك : ١ ـ٢)

« إليه مرجعكم جميعًا ـ وعد الله حقًا ـ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . . .

(يونس : ٤)

« أو لم يروا كيف يُبْدِئ الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » . . .

(العنكبوت : ١٩ ـ ٢٢)

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » . . .

(يونس : ١٣ ـ ١٤)

« وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، أو معذبوها عذابا شديدًا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورًا » . .

(الإسراء : ٥٨)

وهكذا يستقر فى حس المؤمن أنه ليس مخلوقًا عبثا ، وليس متروكًا سدى . وأن كل شىء وكل حى ، إنما ينشأ لحكمة ، ويهلك لحكمة . كما أنه ينشأ بقدر ، ويهلك بقدر . وأن إرادة الله وحكمته وقدره من وراء كل ما يفنى وكل ما يكون . .

* * *

والبشر ليسوا مهيئين لرؤية ذات الله سبحانه فى الحياة الدنيا ، وليسوا مهيئين لإدراكها، ولا إدراك كيفيات أفعاله كذلك ، بما أنهم إنما يدركون ما يرون ، أو ما يقيسونه على ما يرون ، والله ليس كمثله شىء . فلا ذاته ، ولا كيفيات أفعاله مما يملك البشر أن يدركوه :

« لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . .

(الأنعام : ١٠٣)

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه علىّ حكيم » . . .

(الشورى : ٥١)

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخرّ موسى صَعِقًا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » . . .

(الأعراف : ١٤٣)

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ! لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا . يوم يرون الملائكة لا بُشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجرًا محجورًا » . . .

(الفرقان : ٢١ـ٢٢)

ولما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد المعراج : هل رأيت ربك ؟ قال : «نور . أنّى أراه ؟ » أى كيف أراه ؟

ولكن البشر مهيأون بفطرتهم ـ أى بتركيبهم وتكوينهم الذاتى الذى فطرهم الله عليه ـ أن يدركوا وجود الله وربوبيته لهم ـ سبحانه ـ كما أنهم مهيأون بمداركهم الواعية أن يدركوا وجوده وربوبيته من آثار أفعاله فى الكون وفى أنفسهم . وهم لا يضلون عن ذلك الإدراك الفطرى وهذا الإدراك الواعى إلا بفعل مؤثرات مضللة . كما أنهم لا يصلون إلى درجة

إنكار الوجود الإلٓهى أصلاً إلا لفساد فى كيانهم ، وتعطل فى أجهزة الاتصال والتلقى والاستجابة فى هذا الكيان . .

وإدراك الفطرة ، يعبر عنه القرآن الكريم فى مثل هذه النصوص :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » . . .

(الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٣)

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة ، إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » . . .

(الروم : ٣٣ ـ ٣٤)

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع بكفرك قليلاً ، إنك من أصحاب النار ، أمّن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » . .

(الزمر : ٨ ـ ٩)

« ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورًا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبًا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا ؟ » . . .

(الإسراء : ٦٦ ـ ٦٩)

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » . . .

(يونس : ٢٢ ـ ٢٣)

وفى النص الأول من هذه النصوص يتجلى اعتراف الفطرة ـ وهى فى حالة كينونتها الساذجة الخالصة التى لم تتأثر بأى مؤثر من مؤثرات الحياة الواقعية ـ بربوبية الله وحده دون شريك .

وفى النصين الثانى والثالث يتجلى اعتراف الفطرة كذلك بربوبية الله وحده عندما تتعرى فى مواجهة الضر والخطر من كل المؤثرات التى ضللتها عن توحيد الله والإنابة إليه وحده ، ثم عودتها إلى الشرك بعد النجاة بفعل تلك المؤثرات المضللة .

وفى النصين الرابع والخامس نموذج بعينه من هذا الضر وهذا الخطر الذى تتعرى الفطرة تجاهه من كل خدعة ، وكل مؤثر ، وكل ضلالة . . ثم تعود بعد النجاة منه إلى الضلالة ، إلا من يرزق الإخلاص والإنابة وهو الذى يعلم . فالعلم الحق هو الذى يقود إلى خلوص النظرة من الشوائب والمؤثرات المضللة . . .

وكنموذج لبحث الفطرة عن ربها الحق ، وعدم ارتياحها للآلهة والأرباب الأخرى ، وحيرتها بين ماتحسه فى كيانها من حقيقة الألوهية وما تراه مألوفا فى بيئة من البيئات من انحراف عن هذه الحقيقة . . ثم وقوع التماسّ بينها وبين تلك الحقيقة ، وانبثاق النور الكاشف فيها عند وقوع هذا التماسّ ، ورؤيتها الواضحة للحقيقة التى تبحث عنها ، واطمئنانها من ثم لهذه الحقيقة ، وثقتها بها ، ونفض كل ما عداها ، والاستهانة بكل قوة أخرى غير قوتها كنموذج لهذه التجربة الحاسمة يضرب المنهج القرآنى إبراهيم مثلاً :

« وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين . وحاجّه قومُه ، قال : أتحاجّونّى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا ؟ فأى الفريقين أحقّ بالأمن ، إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك

حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » . . .

(الأنعام : ٧٤ـ٨٣)

ففطرة إبراهيم لم تسترح ابتداء لعبادة الأصنام ، ونفرت منها واستنكرتها ، مع نشأته فى ظل عبادتها وعبادة النجوم والكواكب كذلك . فاتجهت إلى العبادة الأخرى المألوفة السائدة فى البيئة . ولكنها ليلة بعد ليلة وتجربة بعد تجربة لم تطمئن إلى عبادة النجوم والكواكب الآفلة . إذ أن شعورها الفطرى بالله الحق ينافى عندها الغيبة والأفول . وتغير الأحوال وتبدلها ! وعندما أفلت الشمس ـ وهى أكبر ما تراه العين ـ وقع التَّماسّ الداخلى بين هذه الفطرة النقية والحقيقة الكبرى فقال : « يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين » . . فلما حاجه قومه كانت حجته هى ذلك البرهان الداخلى الذى مسّ فطرته : « قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ » فهذه اللمسة الآلهية لضميره ، حقيقة فى كيانه لا يملك ألا يحسها ، وهى حقيقة بارزة ومؤكدة وواضحة فى كيانه بحيث يواجه بها محاجة قومه كحقيقة يلمسها ويراها ! ويتحدى بها تخويفهم له من آلهتهم : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟» . . . إن هذه الحقيقة لمست فطرته فانبثق منها ذلك النور الذى رأى على هداه هذه الحقيقة بكل روعتها . . وإنه لنموذج رائع لالتقاء الفطرة بربها الحق من وراء كل الغشاوات والمؤثرات الأخرى !

فأما الإدراك الواعى لهذه الحقيقة فيكله المنهج القرآنى إلى تأمل آثار القدرةالإلهية فى الأنفس والآفاق ، ورؤية البرهان الناطق فيها ، فى مثل هذه النصوص :

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . .

(الذاريات : ٢٠ـ٢١)

« قل : انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» . . .

(يونس : ١٠١)

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من

السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » . . .

(البقرة : ١٦٣ ـ ١٦٤)

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . .

(الروم ٢٠ ـ ٢٤)

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . .

(الرعد : ٢ ـ ٤)

وأمثال هذه التوجيهات كثير ، لإيقاظ أجهزة الاستقبال والتلقى فى الكيان الإنسانى كله ، لتدبر آثار القدرة فى الأنفس والآفاق ؛ لتقوم شهادة الإدراك الواعى إلى جانب شهادة الفطرة ولتقاوم النفس البشرية المؤثرات المضللة التى تنحرف إليها البيئات البشرية مرة بعد مرة على مدار التاريخ الإنسانى !

ومع وضوح الدلائل ، وقوة البرهان ، ووثاقة الفطرة ، فإن الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بعباده ، لم يشأ أن يكلهم إلى فطرتهم وحدها ، ولا إلى وعيهم وحده ، ولا إلى خطاب الدلائل الكونية لفطرتهم ووعيهم ، ولم يشأ أن يجعل حسابهم مرتكنا إلى هذه الوثائق بذاتها، فأرسل إليهم رسلاً يذكرونهم ، ويوقظون فطرتهم ، وينبهون وعيهم إلى تلك الشهادات والدلائل المبثوثة فى شتى مجالى الكون والنفس ، ذلك أنه ـ سبحانه ـ يعلم أن

الفطرة قد تغشى عليها الغواشى ، وأن العقل قد تنحرف به النزوات والشهوات ، وشتى المؤثرات ، فجعل حجته على عباده فى الرسل والنذارات .

« رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزًا حكيمًا » . . .

(النساء : ١٦٥)

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » . . .

(الإسراء : ١٥)

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرًا ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدًا » . . .

(النساء : ١١٥ـ١١٦)

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » . . .

(القصص : ٥٩)

وتكفل ـ سبحانه ـ بهداية من يجتهد ويرغب بجد فى الهدى ، كما تكفل بألا يُضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقونه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . . .

(العنكبوت : ٦٩)

« وما كان الله ليضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شىء عليم » . . .

(التوبة : ١١٥)

وليس وراء ذلك عدل ، وليس بعد ذلك رحمة فى معاملة العبيد . .

ومن شأن هذه الحقيقة ـ حقيقة أن الله جعل حجته على عباده فى الرسل والنذارات ، ولم يجعلها فى شهادة الفطرة ولا حكم العقل ـ أن تجعل الذين يريدون أن يجعلوا من «العقل» حكما على « النص » وفيصلاً فى « الشريعة » . . يطامنون من غلوائهم ، فلا يتخذون من « العقل » آلها ! فهو يخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدى ، ويتأثر بشتى

المؤثرات والضغوط . فلا بد أن يكون « النص » لا « العقل » هو الحكم ، وأن يكون دور العقل هو تفهم النص والتقيد به ، لا الحكم على مدلوله بالصحة أو عدم الصحة ، أو الحكم بقبوله أو رفضه أو تعديله ، فإن هذا لله وحده وليس لأحد من خلقه ! والعقل البشرى من خلقه !

* * *

وكذلك تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله ـ سبحانه ـ وهى التى اتجه إليها علماء التوحيد ـ بتأثير منطق أرسطو ـ والتى تعتمد على المقولات العقلية وحدها ، بعيدة فى منهجها وغريبة على المنهج الإسلامى ، وهذا المنهج القرآنى ، لأنها أضعف أنواع البرهان فى هذا المجال ، وأدعاها للجدل والمراء . . .

ولقد أبعد المعتزلة وهم ينفون الصفات عن الله ـ سبحانه ـ لئلا يتعدد القدماء ، لأن هذه الصفات إن كانت قديمة كذات الله تعدد القدماء ! فهذا قياس ذهنى بحت لا يتعامل مع الواقع ، ولا مع المنهج القرآنى . فالله ـ سبحانه ـ قد وصف نفسه بصفاته . ومن هذه الصفات ما يقرر وحدانيته وأزليته وأبديته وإحاطته ـ سبحانه ـ بكل شىء . . إلى آخر أسمائه الحسنى :

« سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » . . .

(الحديد : ١ ـ ٣)

« هو الله الذى لا آله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا آله إلا هو الملك ، القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » . . .

(الحشر : ٢٢ ـ ٢٤)

إنما تابع المعتزلة منطق أرسطو الذهنى وتجريدات « أفلوطين » المهوّمة ! ولم يتابعوا المنهج القرآنى ، وهو المنهج الإسلامى الأصيل . وكذلك فعلوا فيما عرف فى تاريخ الفكر الإسلامى بعنوان : « فتنة خلق القرآن » لئلا يكون القرآن قديما فيتعدد القدماء . والبحث على هذا النحو بجملته غريب على الفكر الإسلامى ، وعلى المنهج الإسلامى ، فالقرآن وحى الله وكلامه وكفى . . .

إن لله ـ سبحانه ـ صفاته ، أو أسماءه الحسنى ، ولكن البشر لا يملكون إدراك «كيفية» هذه الصفات ، فهو سبحانه سميع يسمع ، بصير يرى ، عليم يعلم . . ولكن البشر لا يدركون كيفية شيء من ذلك بالقياس إليه سبحانه . فالله ليس كمثله شيء ، فلا يمكن أن يدرك البشر إذن كيفيات صفاته ، ولا كيفيات أفعاله ، وليس لهم أن يقيموا شيئًا من ذلك كله على ما يعرفونه من أنفسهم ، أو من سواهم من خلق الله .

ولذلك كان الجواب الآلهى على كل من سأل عن كيفية فعله ، هو : « كذلك الله يفعل ما يشاء » ولم يكن بيانا لهذه الكيفية ، لأنه سبحانه يعلم أن البشر بتكوينهم الذى فطرهم عليه لا يملكون إدراك هذه الكيفية :

« . . . هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء » . . .

(آل عمران : ٣٨ ـ ٤٠)

« إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن فيكون » . . .

(آل عمران : ٤٥ ـ ٤٧)

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون» . . .

(آل عمران : ٥٩)

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يومًا أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا ، فلما تبين له ، قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير » . . .

(البقرة : ٢٥٩)

« وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير ، فَصُرْهُنَّ إليك . ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » . . .

(البقرة : ٢٦٠)

وواضح أنه لا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولا الذى مر على القرية ، قد أدرك « كيفية » فعل الله فى الإحياء . إنما هو رأى مثلاً بارزًا على عملية الإحياء ، دون أن يعرف « كيف » وقع هذا ، لأنه ـ وهو بشر ـ لا يملك أن يدرك هذه « الكيفية » على الإطلاق .

ومن ثم فإن كل محاولة لتصوير كيفيات فعل الله بقياسها إلى كيفيات أفعال الخلق ، أو بالتصورات الذهنية ، باءت بالفشل ، واضطر أصحابها إلى الخبط فى التيه بلا دليل .

وقد حسم المنهج القرآنى هذه المسألة بقوله : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون » وهو يسوق برهان الخلق كدليل على البعث :

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا ، فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن ، فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » . . .

(يس : ٧٧ ـ ٨٣)

* * *

وفى مقابل تقرير المنهج القرآنى لعجز البشر عن إدراك ذات الله ـ سبحانه ـ أو إدراك كيفيات أفعاله فى الكون وفيهم ، يقرر أن الله سبحانه ـ منهم ، سميع لهم ، مجيب لدعائهم ، رحيم بهم ودود . فعجزهم ذاك لا يحرمهم الصلة الكاملة بربهم ، فقد تكفل هو بوصلهم به ، فهم يجدونه فى فطرتهم ، وهم يرون اثار قدرته فى الكون وفيهم ، ثم هو لا يدعهم ولا ينساهم .

ولا حاجة إلى ما ذهبت إليه أوهام المسيحية الكنسية من اتصال الناسوت باللاهوت عن طريق بنوة عيسى ـ عليه السلام ـ لله ، ولا إلى ما ذهبت إليه أوهام الجاهلية العربية

من نسبة بنوة الملائكة له ـ سبحانه ـ وعبادتهم هم لبنات الله ـ الملائكة ـ ليكنّ شفعاء لهم عند أبيهن ! فالأمر أيسر من كل هذه الأوهام :

« و إذاسألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . . .

(البقرة : ١٨٦)

« وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . . .

(غافر : ٦٠)

« أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أآله مع الله؟ قليلاً ما تذكّرون » . . .

(النمل : ٦٢)

« واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » . . .

(هود : ٩٠)

« و إلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب » . . .

(هود : ٦١)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

(مريم : ٩٦)

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا لهّ ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين » . . .

(الأنبياء : ٨٣ـ٨٤)

« وذا النون إذ ذهب مغاضبا ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا آله إلا أنت ، سبحانك ! إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين . وزكريا اذ نادى ربه : رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات . ويدعوننا رغبا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين » . . .

(الأنبياء : ٨٧ـ٩٠)

وغيرها كثير . . مما يطمئن القلب المؤمن ، ويصله بربه صلة الود والرعاية والاستجابة ، من أيسر سبيل ، ودون ما حاجة الى التجديف والتخليط . . .

* * *

وبما أن الله ـ سبحانه ـ هو وحده الخالق ، وهو وحده الرازق ، وهو وحده الكافل ، وهو وحده المدبر وهو وحده العليم المحيط ، وهو وحده القادر القاهر ، وهو وحده الذى يبدئ الخلق ثم يعيده ، ويحاسب ويجازى . . فيجب إذن أن يكون هو وحده « الآله » وأن يكون هو وحده « الرب » وأن تخلص الدينونة والعبودية له وحده بلا شريك ، فى عالم الضمير ، وفى عالم الواقع ، على السواء . . وهذه هى القضية الكبرى التى يستهدفها المنهج القرآنى بتلك التقريرات السابقة جميعًا . .

إن الله غنى عن العالمين . وليس يزيد فى ملكه شيئا أن يفرده البشر بالألوهية والربوبية ، وأن يخلصوا له الدينونة والعبودية ، وليس ينقص من ملكه شيئا أن يكفروا بألوهيته ، أو يشركوا معه آلهة مدعاة ، أو يدينوا لأرباب متفرقة من واقع الحياة . . ولكن البشر هم أنفسهم لا تستقيم ضمائرهم وأخلاقهم ، ولا يصلح واقعهم وحياتهم ، إلا أن يفردوا الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية ، وإلا أن يخلصوا له الدينونة والعبودية . . فرحمة من الله بعباده يتجه المنهج القرآنى بهم هذا الاتجاه ، ويبين لهم على هذا النحو المتفرد حقيقة الألوهية ليعرفوا الله ، الذى ينبغى أن يكون هو وحده الرب والآله .

إن الله وحده الآله الذى ينبغى أن يعتقد العباد الوهيته ، وأن يتجهوا اليه بالشعائر والدعاء ، وأن يتعلق به الخوف والرجاء ، وأن يحب ويُخشى ، وأن يكون اليه الملجأ والمآب . .

إنه آله واحد وليس كما تقول العقائد الفارسية آلهين اثنين : «هرمز » آله الخير والنور و «أهريمان » آله الشر والظلام ، أو كما تقول العقائد المصرية القديمة : « أوزريس » آله الخير و«سيت » آله الشر :

« وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو آله واحد فإياى فارهبون » . . .

(النحل : ٥١)

إنه آله واحد ، وليس كما تقول الكنائس المسيحية ـ على اختلاف بينها فى التفصيلات ـ ثلاثة أقانيم ، أو كما يؤله بعضهاالمسيح ، أو كما يؤله بعضها روح القدس . وليس المسيح

ابنه ، ولا العزير ابنه كما زعم بعض اليهود ولا الملائكة بناته كما زعم مشركو العرب :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله آله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . . .

(النساء ١٧١ : ١٧٣)

« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون »

(التوبة : ٣٠)

إنه آله واحد وليس كما تقول الوثنيات الجاهلية كلها ـ ومنها الوثنية العربية ـ آلهة متعددة ، تتمثل فى النجوم والكواكب ، أو فيها وفى الأرواح الخفية من ملائكة وشياطين وأرواح الأقدمين . سواء اتخذت آلهة ، أو اتخذت شفعاء عند الله تعبد ليرضى :

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولاللقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون »

(فصلت : ٣٧ـ٣٨)

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ، ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، فى ظلمات

ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا آله إلا هو ، فأنّى تصرفون ، إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور » . . .

(الزمر : ٢ ـ ٧)

« فاستفتهم ، ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون » . . .

(الصافات : ١٤٩ ـ ١٥٩)

« ويوم يحشرهم جميعا ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولاضرا ، ونقول للذين ظلموا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » . . .

(سبأ : ٤٠ ـ ٤٢)

« وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آله « إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسأل عما يفعل ، وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا آله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ! بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولايشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى آله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » . . .

(الأنبياء : ١٩ ـ ٢٩)

« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون » . . .

(النحل : ٢٠ ـ ٢١)

إن كل مادعاه البشر فى جاهلياتهم آلهة ، لايخلقون ، ولايرزقون ، ولاينفعون أويضرون ، ولا ينصرون عبادهم من الله ولا أنفسهم ينصرون ، ولايحيون ولايميتون ، ولايبعثون ولاينشرون ولايحاسبون ولايجزون . . وإذن فليسوا آلهة لأن الآله هو الذى يخلق ويرزق ، ويضر وينفع ويحيى ويميت ، ويبعث ويجزى . . .

وهذه هى حجة الله الكبرى على عباده . وهذه الحجة هى التى يؤكد عليها المنهج القرآنى بصدد توحيد الألوهية ، وهى كذلك التى يؤكد عليها ويكرر بصدد توحيد الربوبية . . إن الآله الذى يخلق ويرزق ، ويحفظ ويكفل ، ويضر وينفع ، ويحيى ويميت ، ويبعث ويجزى ، ويتحكم بقدرته وقدره فى نظام الكون ، وفى إنشاء الحياة . . هو الذى ينبغى أن تكون له وحده الربوبية والقوامة كذلك على حياة البشر ونظام حياتهم ، وشريعة مجتمعهم وقيمهم وأخلاقهم ، وتقاليدهم وعاداتهم . . . وأن تكون شريعته وحدها هى مرجعهم فى هذا كله . فبهذا وحده يكونون قد وحدوا الألوهية والربوبية ، وأخلصوا دينهم لله . . . وخصوه سبحانه بدينونتهم وعبودتهم ، وإلا فقد اتخذوا من دونه أربابا متفرقة ، وأشركوا معه هذه الأرباب .

ولارتباط الألوهية والربوبيه ـ فى المنهج القرآنى وفى حقيقة الواقع ـ بالخلق والرزق والتصريف والتدبير والملك والهيمنة والضر والنفع ، والإماتة والإحياء ، والبعث والجزاء . . فإن الحديث عنها فى القرآن يجيء غالبا مرتبطا بهذه الخصائص فى السياق الواحد :

« تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ، ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا » . .

(الفرقان : ١ ـ ٣)

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورًا . لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسى كثيرًا . ولقد صرفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورًا . ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرًا . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا . وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات وهذا ملح

أجاج، وجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورًا . وهو الذى خلق من الماء بشرًا ، فجعله نسبًا وصهرًا ، وكان ربك قديرًا . ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرًا » . . .

(الفرقان : ٥٤ ـ ٥٥)

« والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئًا ، إن الله عليم قدير . والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادّى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون ؟ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات، أفبا لباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئًا ولا يستطيعون . فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . .

(النحل : ٧٠ ـ ٧٤)

« قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمّن يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلاتتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ؟ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون . قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع؟ أم من لا يهدِّى إلا أن يُهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون ؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئًا ، إن الله عليم بما يفعلون » . . .

(يونس : ٣١ ـ ٣٦)

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعًا وخفية ، إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفًا وطمعًا ، إن رحمة الله قريب من المحسنين. وهو الذى يرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى

لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدًا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . . . » . . .

(الأعراف : ٥٤ ـ ٥٩ إلى ٩٣)

ولما حاج الملكُ إبراهيم فى ربه مدعيا أنه هو الرب الذى يحكم بالحياة والموت على من يشاء رده إبراهيم إلى حجة الله على عباده . وهى أن الذى يملك التصرف فى نظام الكون هو الذى يحق له التصرف فى رقاب العباد ، وهو الرب كما أنه هو الآله .

« ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ، ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » . . .

(البقرة : ٢٥٨)

ولما حاج فرعون موسى فى ربه ، رده كذلك إلى الحجة نفسها ، وهى أن الذى تحق له الربوبية والتحكم فى حياة العباد ، هو الذى . خلق . وهو الذى يملك السموات والأرض ، ويملك المشرق والمغرب . فلم يجد فرعون حجة إلا التهديد :

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض ، وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين ! » . . .

(الشعراء : ٢٣ ـ ٢٩)

ولما أراد يوسف أن يقول لصاحبى السجن : إن العبودية والدينونة والاتباع هى حق الله وحده على العباد ، وأنهم فى مصر بدينونتهم وعبوديتهم واتباعهم لغير الله إنما يقيمون غيره أربابا ، قال لهما : إن الله لم ينزل بهذه الأرباب برهانًا ، ولا جعل بها سلطانا ، وأن الحكم لله وحده لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده :

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

(يوسف : ٣٩ ـ ٤٠)

ولما خاطب القرآن العرب ؛ ليرجعوا فى كل أمر إلى حكم الله وشرعه ، لا إلى ما ورثوه عن آبائهم ، أو ما جرى عليه عرفهم . ذكرهم بأن الله هو الخالق الرازق المتصرف الذى بيده مقاليد السموات والأرض :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب. فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم » . . .

(الشورى : ١٠ ـ ١٢)

ولما أمرهم الله ألا يحللوا إلا ما أحله ، ولا يحرموا إلا ما حرمه ، ولا يتبعوا فى هذا شرع أحد غيره ، ذكرهم بأنه هو الآله الواحد ، وأنه الخالق المتصرف ، وأنه صاحب السلطان فى الآخرة وأنه لا مهرب من حكمه هناك :

« وإلهكم آله واحد ، لا آله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا ـ إذ يرون العذاب ـ أن القوة لله جميعًا ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار . يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون . يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » . . . .

(البقرة : ١٦٣ ـ ١٧٣)

فالارتباط وثيق ـ فى المنهج القرآنى وفى حقيقة الواقع ـ بين الألوهية والربوبية وبين خصائص : الخلق والرزق والملك والهيمنة ، والتصرف والتدبير ، والبعث والجزاء . ومن ثم يربط المنهج القرآنى بينها ربطا وثيقًا ، وهو يعرّف الناس بربهم الحق ، الذى يجب أن يخلصوا له دينونتهم وعبوديتهم وطاعتهم واتباعهم . وهو يعرفهم بحقيقة الألوهية لاستقامة ضمائرهم وأخلاقهم ، وصلاح واقعهم وحياتهم ... والله غنى عن العالمين ... (يراجع بتوسع فصل ألوهية وعبودية) . .

هذه محاولة لتقريب حقيقة الألوهية كما يصورها المنهج القرآنى . ولكنها تظل مجرد محاولة بشرية قاصرة لا تفى وفاء المنهج القرآنى ولا تغنى . ومع ما أكثرنا من إيراد النصوص القرآنية لتتحدث هى بذاتها عن تلك الحقيقة ، فإنه تبقى هنالك فجوة كبيرة بين هذه المحاولة البشرية وبين الصورة الحقيقية التى يعرضها القرآن الكريم . فجوة ناشئة أولاً من عدم استيعاب هذه المحاولة لكل النصوص القرآنية التى تصور تلك الحقيقة ، إذ لا يمكن استيعاب كل النصوص . فهى من الكثرة بحيث لا يمكن إيرادها كلها (حتى لقد خطر لى أن أجمعها بذاتها فى كراسة بعنوان : مع الحقيقة الآلهية فى القرآن الكريم) ثم يبقى بعد ذلك أن جمع هذه النصوص لا يفى هو كذلك وفاء المنهج القرآنى ! فإن انتزاعها من سياقها ، وفصلها عما قبلها وعما بعدها فى السياق ، وهى مرتبطة به ارتباطا وثيقا وجميلاً . . إن هذا يفقدها الكثير من دلالتها ومن جمالها ومن وقعها النفسى الذى تؤديه فى السياق القرآنى ! فلابد من رؤية تلك الحقيقة الكبرى كما وردت فى السياق القرآنى !

وعلى الرغم من قصور هذه المحاولة ـ لهذين السببين اللذين أسلفتهما ـ فإنى أحسب أنها تشير إلى تلك الحقيقة وفيها أريج من الجو القرآنى ، بحيث يستطيع قارئها أن يرى على مدى الإشارة كمال تلك الحقيقة وجمالها ، وأن يتنسم من خلالها ذلك الجو القرآنى . وهذا هو الدافع الأول للإكثار من النصوص القرآنية فيها . .

ولا يتم تمام القول فى « حقيقة الألوهية » حتى نشير إلى قيمة بيانها على هذا النحو الذى صورها القرآن به القيمة العقلية ، والقيمة النفسية ، والقيمة الأخلاقية . وتأثيرها فى عقول الناس ونفوسهم وأخلاقهم وواقع حياتهم ، فلهذا بينها الله لهم ، رحمة بهم ، وإلا فإن الله غنى عن العالمين . .

* * *

إن « حقيقة الألوهية) فى هذه الصورة الناصعة المستقيمة الواضحة الدقيقة لذات أثر

قوى فى تقويم العقل البشرى ، وإنقاذه من ركام الأوهام والخرافات التى راكمتها شتى الوثنيات وإنقاذه كذلك من شتى التخبطات التى ضلت فيها الفلسفات ، قديمها وحديثها على السواء ، وهى تخبط فى التيه بلا دليل ، تاركة الدليل الوحيد الهادى إلى هذه الحقيقة ـ وهو دليل الوحى ـ معتمدة على العقل البشرى وحده ، فى أرض لم يهيأ لارتيادها إلا معه هذا الدليل ! ومن ثم جاءت تلك التخليطات التى أشرنا إلى شىء منها . وهى تخليطات تفسد استقامة العقل البشرى ، وتعوده أن يخبط فى التيه بلا دليل ! وليست ـ كما يتصور المشتغلون بالفلسفة ـ مما يحرر هذا العقل وينوره ، ويدربه على ارتياد هذه الآفاق ! والذى يراجع الخط التاريخى للفلسفة يجد أن التخليطات الأولى منذ أيام أفلاطون وأرسطو ظلت تقيم العراقيل فى وجه العقل ذاته ، بما أنشأته وراكمته من فروض وتصورات عن الحقيقة الآلهية ، ثم من منهج للتفكير فى هذه القضية بحيث يلمح الإنسان اثار العثرات حقبة بعد حقبة ، وعصرا بعد عصر ، ويرى الانحرافات الفكرية العجيبة الناشئة من اجترار الخط الفلسفى الطويل ! والتى ما كانت لتظل لو لم يوجد هذا التراث القائم على الخبط فى التيه بلا دليل ! . . ومتابعة هذا الخط ، ورؤية ما فيه من وراثات وتأثرات وامتداد ليست من همنا فى هذا البحث . وهى صالحة لأن تكون موضوع بحث مستقل فبحسبنا هنا الإشارة إلى قيمة المنهج القرآنى فى تصحيح كل التصورات السابقة واللاحقة عن « حقيقة الألوهية » . ومن ثم قيمته العقلية فى تصحيح منهج الفكر ، بتصحيح صورة هذه الحقيقة ، وتصحيح طريقة البحث عنها .

إن المنهج القرآنى ينحى على إتباع الظن فى هذه القضية . إذ أن كل ما ينشئه العقل البشرى من عند نفسه عن هذه الحقيقة ، إنما هو ظن وخرْص . فهو لم ير الله ، ولا يمكن أن يراه فى الحياة الدنيا . والحقيقة الآلهية أكبر من هذا العقل ، ومن هذا الكون . فلا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق ما يعرّفنا صاحبها ـ سبحانه وتعالى ـ فى حدود ما يعلم هو أن العقل البشرى قادر على تصوره وإدراكه . . والظن لا يغنى من الحق شيئًا . .

« أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى .

وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا » . . .

(النجم : ١٩ ـ ٢٨)

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه من لدُنّا ، إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا آله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ! بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقوق ، ومن يقل منه : إنى آله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » . . .

(الأنبياء : ١٦ ـ ٢٩)

وإذا كانت أوهام الجاهلية وأساطيرها عن « حقيقة الألوهية » ليست إلا ظنًا لا برهان عليه ، فمثلها ولا شك أوهام أفلاطون ، وأرسطو ، وأفلوطين . والفارابى . وابن رشد . وبرجسون ، وديكارت . . . إلى آخر من يخبطون فى التيه بلا دليل !

إن القرآن ، وهو يصحح صورة الألوهية فى عقول البشر ، كان يصحح فى الوقت ذاته منهج التفكير العقلى بجملته ، ويعلم الإنسان كيف يفكر تفكيرًا صحيحًا ، فيعتمد على عقله فيما هو من شئون هذا العقل ، ويستصحب دليل الوحى فيما وراء ذلك ليهتدى العقل بهذا الدليل القطعى ، ولا يعتمد على الظن فى قضية كبرى كهذه القضية :

« قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » . . .

(الأنبياء : ٢٤)

« قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . . .

(الأحقاف : ٤)

« ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على

البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » . . .

(الصافات : ١٥١ ـ ١٥٧)

فهذه القضية ـ قضية الألوهية ـ الدليل الوحيد الهادى فيها هو دليل الوحى . وما لم يستصحبه العقل ، فهو عرضة للأوهام والتخليطات بين الصحيح فيها وغير الصحيح . مما يفسد العقل ذاته ويفسد استقامته على الطريق . . .

* * *

والقيمة النفسية ليست بأقل من القيمة العقلية . فرؤية « حقيقة الألوهية » فى صورتها الكاملة الجميلة المريحة التى يجلوها المنهج القرآنى ، تنشئ فى القلب طمأنينة إليها ، وأنسًا بها ، كما تنشئ وضوحًا فى الاتجاه واستقامة ، وتنقذ النفس من الحيرة بين شتى الالهة والأرباب المختلفة النزعات والاتجاهات ، وتريحها من الكد فى إرضاء كل آله وكل رب على حدة ، واتقاء غضبه ، ومن تكاليف هذا الجهد المضنى بين نزعات ورغبات شتى الالهة والأرباب !

إن الإنسان فى الإسلام يعرف له سيدًا واحدًا يتجه إليه ، ويتبع أمره وشرعه ، وينتهى عما ينهاه عنه ، فيضمن بذلك رضاه ويتقى غضبه ، ويعرف أن هذا السيد عادل رحيم كريم لطيف بعباده ، كما يعرف أنه قادر قاهر فعال لما يريد ، بيده مقاليد كل شىء ، يجير ولا يجار عليه ، فمتى أرضاه فقد أرضى من عداه وما عداه . . وهذا بلا شك ينشئ طمأنينة وثقة واستقامة نفسية وراحة بال ، كما أنه يجمع الطاقة كلها فى اتجاه واحد محدد صريح واضح دقيق . . وليس العبد الذى يخدم سيدًا واحدًا ، ويتجه إليه ، ويتبعه ، كالعبد الذى يتنازعه شتى الأسياد والأرباب . وليس الكون الذى يدبره رب واحد كالكون الذى تتنازعه وتتنازع فيه شتى الأرباب ! والمنهج القرآنى يتكئ على هذا المعنى ويؤكد ويكرره فى مواضع منه شتى ، وفى صور كذلك منوعة :

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون . ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سَلَمًا لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . . .

(الزمر : ٢٧ ـ ٢٩)

« يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من

دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

(يوسف : ٣٩ـ٤٠)

« قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله ، قل : أفلا تتقون؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : فأنى تسحرون ! بل أتيناهم بالحق ، وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله ، إذًا لذهب كل آله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » . . .

(المؤمنون : ٨٤ـ٩٢)

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . . .

(الأنبياء : ٢٢)

وليس بمريح للنفس البشرية أن تحس أن ليس فى هذا الكون آله ! فهذه أتعس من تعدد الالهة والأرباب ! فالإنسان مهما بلغت قوته ضعيف إزاء القوى الكونية ، وسيظل ضعيفا مهما بلغ من العلم والقوة . أين هو من قوى الزلازل والبراكين والصواعق والطوفانات التى ما تزال تجتاح عالمه ؟ وأين هو من المجهول الذى يحيط به ، وهو لا يدرى ما يقع له فى اللحظة التالية ؟! . . إن الملحدين الماديين يعزون تدين الإنسان إلى ضعفه أمام الظواهر الكونية وأمام قوى المجهول ويرون أن الإنسان قد تخلص من ضعفه هذا وذاك ، ومن ثم لم تعد للدين عنده ضرورة ، ولم يعد للآله فى عالمه وظيفة ! . . كذلك يقولون . . بينما الإنسان لا يزال فى ضعفه هذا وذاك بعد كل ما علم . وبعد كل ما سخر له من قوى الكون وطاقاته ! وإن هى إلا دعاوى جوفاء ! . . . ثم إنهم إلى ماذا يسلمونه بعد تخليصه ـ كما يزعمون ـ من سلطان الله ! إنهم يسلمونه إلى حتميات مادية فى تركيب الكون . وإلى حتميات اقتصادية فى تاريخ المجتمع . حتميات لا يملك إزاءها إلا التبعية والعبودية والخضوع والاستسلام ! فسبحان الله :

« آلله خير ؟ أمّا يشركون » . . .

(النمل : ٥٩)

إن الطمأنينة إلى الله ، بعد معرفته بصفاته كما يعرضها القرآن ، لا تعدلها طمأنينة ، ولا يعدلها شيء من أشياء هذه الدنيا . وإنه لتمر بالإنسان أحداث ولحظات يشعر فيها بقيمة هذه المعرفة شعورًا كاملاً واضحًا عميقًا ، ولكنه قد ينسى ، أو يغفل حتى تذكره تلك اللحظات والأحداث ! وإن الرضى والأنس والبشاشة والتوجه والطمأنينة والثقة والراحة التي تسكبها تلك المعرفة في النفس البشرية لأمور تذاق ولا توصف ، وأقرب ما يصورها المنهج القرآني في مثل تلك الإشارات :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . . .

(الرعد : ٢٨)

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . . .

(طه : ١٣٠)

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ، ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون » . .

(السجدة : ١٥ ـ ١٧)

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون » . . .

(الأنفال : ٢)

إنها الغنى والزاد والسعادة . إنها الأمن والثقة والطمأنينة . إنها الأنس والود والبشاشة . إنها العزة والاستعلاء والطلاقة . إنها التحرر من العبودية لغير الله ، وما ينشئه هذا التحرر من كرامة ورفعة وزكاة (يراجع بتوسع فصل « ألوهية وعبودية ») .

* * *

وتبقى وراء ذلك كله القيمة الأخلاقية لرؤية « حقيقة الألوهية » كما هي في العقيدة الإسلامية ، وكما يعرضها المنهج القرآني . . وقبل أن نتحدث عن ارتكان القيم الأخلاقية في الإسلام إلى تلك الحقيقة ، نحب أن نذكر لمحة مجملة عن مدلول مصطلح « الأخلاق » في الإسلام ، فهو أوسع مدى ، وأعمق وأدق من المدلول المتعارف عليه عند علماء الأخلاق .

إن الأخلاق فى الإسلام ليست عددًا من الفضائل المبعثرة ، كل على حدة ، كالصدق والأمانة والعفة والوفاء . . الخ . . . إنما هى نظام متكامل لحياة شاملة . نظام يوجه ويضبط كلَ النشاط الإنسانى فى شتى جوانب الحياة . وكل نشاط خيّر بناء هادف هو نشاط أخلاقى . . والنية عنصر أصيل فى تقويم كل نشاط . .

إن الصدق خلق ، ومثله الجهاد فى سبيل الله لتحرير البشر من العبودية لسواه . والأمانة خلق ، ومثلها عمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها فى حدود ما شرع الله ، ابتغاء رضوان الله ، والعفة خلق ، ومثلها تطهير عقول الناس من الوهم والخرافة والضلال . والوفاء خلق ، ومثله القيام على حدود الله ، والإيجابية وعدم السلبية فى حياة الجماعة . . . وهكذا يتبين مدى شمول مدلول « الأخلاق » فى الإسلام ، وسعة مداه ، حتى يشمل كل نشاط فى الحياة .

والمهم فى تصوير مدلول « الأخلاق » فى الإسلام هو ألا تتناثر مفردات الأخلاق ، وألا تؤخذ تفاريق ، كل منها على حدة ، فهى متداخلة متكاملة متعاونة ، وهى فى مجموعها تؤلف نظامًا متكاملاً لحياة شاملة ، يوجه ويضبط النشاط الإنسانى بجملته فى السر والعلانية . وهذا ما يعطيها أهميتها الواقعية الإيجابية فى الحياة البشرية .

إنها توجه وتضبط علاقة الفرد بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بزوجه وولده ، وعلاقته بأهله وعشيرته ، وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وعلاقة الشعب بالدولة وعلاقة الدولة بالشعب ، وعلاقة الأمة كلها بغيرها من الأمم ، وعلاقة الجنس البشرى بغيره من الأحياء فى هذا الكون ، وبالكون كله ، وبخالق الكون والأحياء . . .

وعندما سئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : « كان خلقه القرآن » . . . والقرآن لا يمثل فضائل متناثرة ، ولكنه يعرض ويفرض نظامًا كاملاً شاملاً للحياة البشرية ، تدخل فيه عمارة الأرض ، والعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية ، كما يدخل فيه تنظيم الحياة النفسية والعقلية والجسدية على أسس مما شرع الله . . . وهذا على وجه الإجمال هو مدلول مصطلح الأخلاق فى الإسلام . .

ثم إن « الأخلاق » دوافع وضوابط . وليست مجرد ضوابط كابحة كما يتبادر إلى الأذهان عندما تذكر كلمة « الأخلاق » . « دوافع » إيجابية إلى الخير والنماء فى واقع الحياة ، كما هى « ضوابط » عن الشر والتدمير والتعويض لنمو الحياة . . إنها ليست مجرد مشاعر سلبية فى

الضمير ، أو سلوك فردى نظيف . . إنها كذلك ولكن على سعة وشمول لكل العلاقات البشرية فى كل صورها الفردية والجماعية على السواء . .

. . وهى بجملتها فى الإسلام ترتكن إلى ما يحبه الله ويرضاه . .

إنها لا ترتكن إلى مجرد اختيار العقل البشرى واستحسانه - كما يقول أرسطو ، أو كما يقول المعتزلة من مفكرى المسلمين - ولا ترتكن إلى مجرد ما يتواضع عليه المجتمع فيفرضه على الأفراد كما يقول أصحاب نظرية « العقل الجمعى » وعلى رأسهم « دركايم » ، أو أصحاب التحليل النفسى وعلى رأسهم « فرويد » . ولا ترتكن إلى مجرد « المنفعة » كما يقول « بنتام » . ولا ترتكن إلى مجرد « اللذة » كما يقول الرواقيون . كما أنها لا ترتكن إلى مصلحة الطبقة كما يقول الماركسيون .

إنها لا ترتكن إلى هذه الموازين المتأرجحة مع الأهواء ، المتقلبة مع التصورات . . إنما ترتكن إلى ميزان ثابت مضبوط ، لا يتغير بتغير الزمان ، ولا البيئات ، ولا الحكام ، ولا الأفراد . . ميزان الله . . ومن ثم فهى قيم ثابتة ؛ لأنها تمثل إرادة لا تتغير ولا تتأثر ، كما أنها تهدف إلى تثبيت قيم بعينها فى الحياة البشرية ، وحفظها من التأثر والاهتزاز بالأهواء والشهوات والرغبات . . هذه القيم التى يعلم الله أن الحياة البشرية لا تصلح بغيرها فى أى زمان أو مكان .

* * *

هذه القيم الأخلاقية - بوصفها ذاك - ترتكن بجملتها - كما قلنا - إلى ما يحبه الله ويرضاه ومن ثم تتجلى قيمة « حقيقة الألوهية » كما يصورها المنهج القرآنى فى إعطاء هذه القيم إلزامها وإيجابيتها وفاعليتها . . فهى موكولة إلى ما يحبه ويرضاه آله واحد ، متفرد بالألوهية والربوبية ، خالق رازق ، مدبر كافل ، عالم محيط بالسر والنجوى ، مطلع على الخفى والظاهر ، رءوف بالإنسان رحيم ، لا يحب له إلا الخير ولا ينهاه إلا عن الشر ، وهو فى الوقت ذاته قادر قاهر ، مهيمن متصرف ، فعال لما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب على قضائه ، ولا مهرب منه ولا فوت فى الدنيا ولا فى الآخرة . وهو يجزى على الحسنة وعلى السيئة ، لم يخلق الناس عبثا ، ولم يتركهم سدى .

ومن هذه الحقيقة الكبرى تستمد الأخلاق فى الإسلام إلزامها لضمير الفرد اعتقادًا ، ولسلوكه عملاً . كما تستمد ثباتها وعدم خضوعها لأية تصورات أو مقولات غير ربانية . . ولهذا وذاك قيمته الإيجابية الكبرى فى فاعليتها فى واقع الحياة .

إن الالتزام الأخلاقى فى الإسلام إنما ينبع من التزام ضمير المسلم بما يحبه الله ويرضاه . والتزام ضمير المسلم بما يحبه الله ويرضاه إنما ينبع بدوره من تصور المسلم لحقيقة الألوهية ، ذلك التصور الذى يبلغ كماله برؤية هذه الحقيقة الكبرى كما يجلوها المنهج القرآنى المتفرد ، حيث لا يملك منهج آخر أن يجلوها فى مثل هذا البهاء ، وهذا الكمال ، وهذا الجمال ، وهذه الإيجابية الفاعلة والواقعية المؤثرة .

إن الله ـ سبحانه ـ هو الخالق الرازق الكافل الحافظ المنعم المتفضل القريب المجيب الرحيم الودود . فحياء منه واعترافًا بفضله، وشكرًا لنعمته يلتزم ضمير المسلم بما يحبه ويرضاه . .

إن الله ـ سبحانه ـ هو الجليل العلى الكبير العظيم . . فتوقيرًا لجلاله ، وخشوعًا لعظمته ، وإنابة لوجهه ، يلتزم ضمير المسلم بما يحبه ويرضاه . .

إن الله ـ سبحانه ـ هو العليم المحيط المطلع على سر العبد ونجواه ، الخبير بظواهره وخفاياه ، المصاحب له فى كل ما هجس فى خاطره ، وفى كل ما كسبت يداه . . وهو فى الوقت ذاته القادر القاهر المهيمن المتجبر ، الذى لا مهرب منه ولا فوت ، ولا مجير عليه ولا راد لحكمه . . كما أنه هو الحسيب الذى يجزى على السيئة بالعدل ، ويجزى على الحسنة بالفضل . . فخشية لجبروته ، وطمعا فى ثوابه ، وخوفًا من عقابه ، يلتزم ضمير المسلم بما يحبه ويرضاه .

ومن الضمائر ما يذوب خجلاً وحياء أن يطلع منه الخالق الرازق الكافل الحافظ المنعم المتفضل القريب المجيب الرحيم الودود . . على مالا يحبه ويرضاه .

ومنها ما يرتعد توقيرًا لجلال الله العلى الكبير العظيم الجليل ، أن يطلع منه على ما لا يحبه ويرضاه . .

ومنها ما يمنعه الخوف من العقاب والطمع فى الثواب أن يقدم على ما لا يحبه منه ويرضاه .

وكلها إنما تلتزم هذا الالتزام نتيجة للمعرفة الصحيحة بحقيقة الألوهية ، وبخاصة حين تستقى هذه المعرفة من نبعها الرائق المتفرد ، نبع المنهج القرآنى الفريد .

إن الذين يكلون الإنسان إلى قوانين وضعية يشرعها الناس للناس ، إنما يهدون الالتزام الأخلاقى فى الحياة . . إن ضمائر الناس لا تلتزم مثل هذا الالتزام بالقوانين الوضعية . فالقوانين الوضعية لا تحكم إلا جانبًا ضئيلاً محدودًا من الحياة . وحتى هذا الجانب الذى

تحكمه ، يحتال الناس عليه ، لأنه موكول إلى رقابة السلطات البشرية المحدودة الاطلاع . . إن القوانين الوضعية لا تحكم سرائر الناس وضمائرهم ، إنما تحكم ظواهرهم وعلانيتهم . . إن السلطات القائمة عليها ليست منعمة متفضلة ، وليست عليمة خبيرة ، كما أنها غير عادلة عدل الله ، لأن عدلها إنما يعتمد فى أحسن الحالات على الظواهر والقرائن القابلة للخطأ والصواب . . ذلك فضلاً على أنها لا تتجاوز هذه الحياة الدنيا فى أضيق الحدود والمجالات . . لذلك لا يمكن أن ينبع الالتزام الأخلاقى من شريعة يضعها الناس للناس!

والذين يكلون الإنسان إلى « المادة » بوصفها أزلية أبدية ، تحكمها قوانين حتمية آلية . . إنما يهدرون الالتزام الأخلاقى جملة ، ويمنعون قيامه من الأساس . فلا مكان للأخلاق فى عالم تحكمه حتميات آلية ، منشؤها طبيعة مادية ، لا هدف لها ولا غاية ، ولا شعور لها ولا ضمير ، ولا رقابة لها ولا حساب ، ولا ثواب لها ولا عقاب ! وهم من ثم يعللون ذلك القدر الضئيل الذى يبقى من الالتزام الأخلاقى الذى لا تقوم الحياة الإنسانية إلا به حتى فى مثل المجتمع الشيوعى ! بأنه من مقتضيات الطور الاجتماعى الذى يمر به مجتمع من المجتمعات . ومن هنا ينفون بشدة مسألة ثبات القيم الأخلاقية على الإطلاق . . فالعفة مثلاً إنما هى خلق « برجوازى » أو إقطاعى . لأن الرجل فى هذا المجتمع هو السيد ، وهو الذى ينفق ، فأما فى المجتمع الشيوعى ، أو الاشتراكى ـ كما يسمونه ! ـ فالمرأة مساوية للرجل ، وهى تشاركه الإنفاق ، فلا ضرورة للعفة على الإطلاق . وتسقط العفة كخلق . . وهكذا كثير من الأخلاق . . أما فى الإسلام فالعفة خلق يحبه الله ويرضاه ، لا علاقة له بالطور الاجتماعى الذى يجتازه المجتمع ، ولا علاقة له بسيادة الرجل وإنفاقه . لذلك هو مفروض على الرجل كما هو مفروض على المرأة سواء بسواء ! هو التزام « إنسانى » لا « رجالى » ولا « نسائى » وكذلك هو لا « طبقى » على الإطلاق !

والذين يكلون الأخلاق إلى اصطلاح المجتمع ، يجعلون الأخلاق عنصرا غريبًا على طبيعة الفرد ، بل يجعلونه قيدًا كابحًا لوجوده الفردى . . ومن هذه النقطة تتفرع مذاهب كثيرة . . مذهب « العقل الجمعى » بقيادة « دركايم » ، ومذهب « العقد النفسية » بقيادة « فرويد » ، ومذهب « الوجودية » بقيادة « سارتر » . . وكلها تلتقى عند قهر الفرد وكبته وضياعه تحت ثقل مصطلحات المجتمع ، وتصوُّر المجتمع كما لو كان غولا يدمر الوجود الفردى للإنسان ! ومع أن هذا ليس صحيحًا من الناحية العلمية والواقعية ، فإنه ليس من موضوعات بحثنا هذا (يراجع بتوسع فصل « اليهود الثلاثة » فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » (لمحمدقطب) والذى يهمنا ـ فوق الإشارة إلى فساد تلك

المذاهب ابتداء ـ أنه على أساسها تصبح الأخلاق بجملتها موكولة إلى الرؤية القاصرة لمجتمع بشرى محدود الرؤية ، محدود الأجل ، متغير التصورات بتغير الأحوال والأوضاع . فهى نظرة قريبة جدًا فى نتائجها الأخيرة من نتائج النظرة « المادية » مع اختلافهما فى المنبع والأساس .

والذين يكلون الأخلاق إلى « المصلحة » إنما يكلونها إلى ميزان عائم غير محدد الماهية . . فمصلحة من هى ؟ مصلحة الفرد أم المجتمع ؟ ومصلحة أية طبقة فى المجتمع ؟ ومصلحة أية أمة بين الأمم ؟ إن هذه المصالح المتعددة تتعارض وتتضارب . مصلحة الفرد تجاه مصالح الأفراد . ومصلحة الطبقة تجاه مصالح الطبقات . ومصلحة الأمة تجاه مصالح الأمم الأخرى . . ثم إن رؤية المصلحة ليست بهذا القدر من السهولة من بشر علمهم محدود . . فهو ميزان أولاً غير مضبوط ، ثانيًا غير معتمد على علم وثيق . . إن الأخلاق فى الإسلام موكولة إلى ما يحبه الله ويرضاه . . وهذا ميزان دقيق لأنه مبين ومحدد فيه ما يحبه الله ويرضاه . . ومن الناحية الأخرى لا تتعارض فيه مصالح الناس ، لأن ربهم الذى خلقهم والذى هو عليم بما يحقق مصالحهم هو الذى قرره وارتضاه .

والذى يكلون الأخلاق إلى « العقل » إنما يكلونها إلى أداة قيمة . نعم . ولكنها أداة قاصرة الرؤية من جهة ، وقابلة للتأثر بشتى الضغوط من جهة أخرى . . فضلاً على أنها لاتملك صفة « الإلزام » إلا عند الندرة النادرة من البشر ، والأخلاق إنما هى نظام يحكم الحياة كلها ، ولابد لقيامه وفاعليته من أن تكون له صفة الإلزام لدى جموع البشر . . وهذا لا يكون إلا لله بحقيقته الإلهية كما يصورها القرآن .

والذين يكلون الأخلاق إلى « اللذة » هم فلاسفة قريبون فى منبعهم من الفلاسفة الذين يكلونها إلى « العقل » . فهم يفترضون أن البشر يبلغ من صفائهم ونقائهم ورفعتهم أن تصبح الأخلاق عندهم « لذة » بل كبرى اللذائذ . . وهذه أحلام جميلة . . ولكن حياة البشر الواقعية لا تقوم على الأحلام !

* * *

إنه لابد من العقيدة الدينية لقيام « الألتزام الأخلاقى » على أساسه الوحيد الثابت المتين . . وليست مطلق العقيدة الدينية . فهناك عقائد تميع هذا الالتزام ، وتكله إلى «محسوبية » عند الله ، أو شفاعة من الشفاعات . وهى أخطر العقائد على الأخلاق . .

فالعقائد الجاهلية التى كانت تزعم أن الملائكة بنات الله ؛ وتعبدهم تقربا إلى الله وشفاعة عنده ، كانت تميع الالتزام الأخلاقى من أساسه ، لأنها تكل رضى الله إلى رضى بناته ، وتكل رضى بناته إلى التقرب لها بالشعائر والنسك والذبائح والقرابين المادية من

الثمار والأنعام والأرواح فى بعض الأحيان . . فكان التوكيد شديدًا فى القرآن على نفى بنوتها، ونفى شفاعتها ، ورجع الأمر فى الثواب والعقاب إلى العدل والحق وصلاح النية والعمل أو فسادهما . لا إلى تلك الأوهام وتلك الشفاعات :

« وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا . فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى » . . .

(النجم : ٢٦ ـ ٣٢)

ومثل العقائد الجاهلية ـ فى هذا الصدد ـ العقائد المحرفة لأهل الكتاب كعقيدة اليهود فى أنهم هم شعب الله المختار ، وأنه من أجل هذا لا يحاسبهم على ذنوبهم ـ وخاصة مع غير اليهود من الأمم الأخرى ! ـ وإذا حاسبهم على ذنوبهم بعضهم مع بعض فإنه يحاسبهم حسابا خفيفًا ، ولا يعذبهم إلا أياما معدودة ! وكذلك زَعَمَ النصارى . فرد الله ـ سبحانه ـ زعمهم هذا وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتحداهم ويتحدى هذا الزعم بحقيقة الألوهية الناصعة كما جلاّها فى كتابه :

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . .

(البقرة : ١١١ ـ ١١٢)

« وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل : أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . . .

(البقرة : ٨٠ ـ ٨٢)

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟

بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » . . .

(المائدة : ١٨)

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » . . .

(آل عمران : ٧٥ـ٧٧)

ولقد أدت عقائد النصارى فى بنوة المسيح لله ، أن أصبح للمسيح حق المغفرة ، وبالتالى أصبح لكنيسة المسيح حق المغفرة ، ومن هنا نشأت مهزلة « صكوك الغفران » التى بها سقط « الالتزام الأخلاقى » نهائيًا ، وأصبح المعول فى دخول ملكوت الرب على إرضاء الكنيسة بأية صورة . . ويكفى فى الحديث عن هذا إثبات صورة صك من صكوك الغفران التى أصدرتها كنيسة الرب :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان . ويحلك باستحقاقات الآمه الكلية القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وأيضًا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة . وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر ، وأردك حديثًا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين . أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح . وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس »[1] .

ومثل ما قال أهل الكتاب قديماً ، يقول اليوم ناس يقولون إنهم مسلمون ! معتمدين على أنهم ماداموا يقولون : إنهم مسلمون . . ولو لم يعملوا بشىء من تعاليم الإسلام ، فإن

---

(١) عن كتاب « محاضرات فى النصرانية » لأستاذ محمد أبو زهرة ص ٢٠٤ من الطبعة الثالثة .

لهم شفيعًا عند الله من قولهم ، وإنهم لن يعذبوا إلا أياما معدودة ! والله يقول لهؤلاء وهؤلاء :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءًا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرًا » . . .

(النساء : ١٢٣ ـ ١٢٤)

إنه لابد من عقيدة صحيحة ، ليقوم عليها التزام أخلاقى صحيح . وعقيدة الإسلام هى هذه العقيدة الصحيحة ، التى تعلق الالتزام الأخلاقى بما يحبه الله ويرضاه ، على أساس من « حقيقة الألوهية » التى لا مجال عندها للمحاباة ، والتى تجعل « الحق » هو صفة الله التى قام بها « الخلق » والتى يتعلق بها الجزاء ، وتجعل الله هو « الحق » الذى لا حق سواه فى الأرض ولا فى السماء .

« ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ، ثم بُغى عليه ، لينصرنه الله ، إن الله لعفو غفور . ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير» . . .

(الحج : ٦٠ ـ ٦٢)

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » . . .

(الجاثية : ٢١ ـ ٢٢)

« إليه مرجعكم جميعا ـ وعد الله حقا ـ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . .

(يونس : ٤)

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر

كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ، إن الله هو السميع البصير» . . .

(غافر : ١٤ـ٢٠)

« ولله ملك السموات والأرض ، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . . .

(الجاثية : ٢٧ـ٢٩)

على هذا الأساس الثابت الواضح المستقيم ، يقوم الالتزام الأخلاقى فى الإسلام . ومن هذا النبع المحدد الصافى البين ينبع . ومن « حقيقة الألوهية » يستمد باعثه وسنده وسلطانه . . والمنهج القرآنى من ثم يعلق هذا الالتزام دائمًا بما يحبه الله ويرضاه ، بعد بيان حقيقة الألوهية وبعد ذكر الله . وكثيرًا ما يربط فى سياق واحد بين توحيد الله وبين مجموعة من التوجيهات الأخلاقية ، وفى كل مرة يشير إلى حب الله ورضاه ، أو إلى خشيته وتقواه :

فهذه مجموعة من التوجيهات تبدأ وتختم بتوحيد الله ، ويتخللها ذكره ، والإشارة إلى علمه بالسرائر والخفايا ، وما يحبه من الناس وما يكرهه :

« لا تجعل مع الله إلهًا آخر فتقعد مذمومًا مخذولاً . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانًا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورًا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرًا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورًا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسورًا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملومًا محسورًا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرًا بصيرًا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا . ولا تقربوا الزنى ، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرفْ فى القتل ، إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولاً . وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً .

ولا تمش فى الأرض مرحًا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملومًا مدحورًا » . . .

(الإسراء : ٢٢ ـ ٣٩)

وهذه مجموعة أخرى وردت على لسان لقمان يعظ بها ابنه ترتبط بتوحيد الله وكونه المنعم المتفضل ، العليم الخبير الذى لا تفوته فائتة :

« ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهْنا على وهْن ، وفصاله فى عامين : أن اشكر لى ولوالديك ، إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ، ثم إلىّ مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة ، وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدّك للناس ولا تمش فى الأرض مرحًا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير . ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات والأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ؟ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . . .

(لقمان : ١٢ ـ ٢٠)

ومجموعة ثالثة ترتكز على تقوى الله من ناحية والتذكير برحمته من ناحية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن ، إن بعد الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . .

(الحجرات : ١١ ـ ١٢)

والأخلاق التى يحبها الله ويرضاها بينة واضحة ، فهو يحب الصلاح ويكره الفساد على وجه التعميم والإجمال ، وجماع الصلاح أن يسلم الناس أنفسهم لله وأمره وشرعه ، وجماع

الفساد أن ينقضوا عهدهم معه بأن يكون لهم ربا وبأن يكونوا له عبيدًا ، وأن يستقلوا بأمرهم بعيدًا عن ربوبيته وقوامته وشرعه وحكمته ، متبعين شياطينهم وأهواءهم :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد . ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد . يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم ـ من بعد ما جاءتكم البينات ـ فاعلموا أن الله عزيز حكيم » . . .

(البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٩)

« أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . . .

(الرعد : ١٩ ـ ٢٥)

ومن هذه الفضيلة الكبرى ـ فضيلة الوفاء بعهد الله على الناس أن يكونوا له عبادًا طائعين وأن يكون لهم ربا مطاعا ـ تنبع سائر الفضائل الأخرى . فمن ألوهيته وربوبيته تستمد الأخلاق الإسلامية قوتها وإلزامها كما أسلفنا ـ فالوفاء بعهد الناس فرع من الوفاء بعهد الله ـ ولا يجوز أن تكون « المصلحة » سببا فى نقض عهود الناس :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون . ولاتتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما

صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولاتشتروا بعهد الله ثمنًا قليلا ، إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ، ماعندكم ينفد وماعند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » . . .

(النحل : ٩٠ ـ ٩٦)

فحتى ما يسمى بمصلحة الدولة لايجوز أن يكون ذريعة لنقض عهد ، فالعهد يكفله الله :

« تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » . . .

والله يحب الأمانة والعدل ، ويكره الخيانة والبغى . وينبغى أن تعامل الأمة المسلمة ـ حتى أعدائها ـ بالأمانة والعدل :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا »

(النساء : ٥٨)

« ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، إن الله خبير بما تعملون » . . .

(المائدة : ٨)

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لايحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » . . .

(النساء : ١٠٥ ـ ١١١)

ولا تعرف قيمة التوجيهات التى يتضمنها هذا النص القرآنى حتى يعرف سبب نزول هذه الايات . . لقد نزلت لتبرئة يهودى تآمر جماعة من الداخلين فى الإسلام على اتهامه بسرقة درع . ليبرئوا واحدًا منهم هو الذى سرقها ، وشهدوا لدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى كاد يحكم على اليهودى ، فأنزل الله هذه الايات ليبرئ اليهودى ، ويعلن كراهيته للمتآمرين الخائنين ـ الذى يبيتون ما لا يرضى من القول ـ وكان ذلك فى فترة اشتد

كيد اليهود فيها للنبى والمسلمين . ولكن العدل هو العدل . وهو الخلق الذى يرضاه الله للمؤمنين . . وألامانة هى الأمانة ، وهى الخلق الذى يحبه الله للمسلمين .

والله لايحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . ولايحب الجهر بالسوء من القول . ولايحب الخيلاء والعجب . ولايحب الاستكبار فى الأرض والعلو . ولايحب التآمر بالإثم والعدوان . ويكره الكذب ويحب الصدق فى القول والعمل . ويحب العزة والانتصار من البغى . كما يحب السماحة والصفح والعفو . ويحب التوبة والطهارة . . إلى آخر مابينه وحدده للناس :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . . .

(النور : ١٩)

« لايحب الله الجهر بالسوء من القول من ظلم ، وكان الله سميعا عليما » . . .

(النساء : ١٤٨)

« إن الله لايحب من كان مختالا فخورا » . . .

(النساء : ٣٦)

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولافسادا ، والعاقبة للمتقين » . . .

(القصص : ٨٣)

« يا أيها الذين آمنوا إذ تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون » . . .

(المجادلة : ٩)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » . . .

(التوبة : ١١٩)

« إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » . . .

(النحل : ١٠٥)

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . . .

(الصف : ٢ ـ ٤)

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . . .

(الشورى : ٣٩)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . . .

(آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٤)

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . . .

(البقرة : ٢٢٢)

وحسبنا هذا القدر من الأمثلة ، فنحن لسنا بصدد بحث عن « الأخلاق فى الإسلام » . إنما نريد فقط بيان وجه ارتباط الالتزام الأخلاقى فى الإسلام بحقيقة الألوهية . وهو الهدف الذى نتوخاه هنا فى هذا الفصل . وفى هذا القدر كفاية لهذا البيان .

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى أنه من الضرورى أن نقف وقفات سريعة أمام بعض النصوص القرآنية التى تصور « حقيقة الألوهية » والتى سردناها مجرد سرد فى أثناء هذا الفصل ، ذلك أن هذه النصوص من الروعة والبهاء فى تصوير هذه الحقيقة بحيث تجبرنا إجبارًا على الوقوف أمامها لحظات . ولقد كان هذا من حق جميع النصوص القرآنية التى أوردناها هنا ، ولكن هذا كان سيخرج بهذا البحث عن طبيعته ، ويحوله عرضا وتفسيرًا للنصوص القرآنية ، ويضخم الكتاب تضخيمًا لا تحتمله طبيعته ، فنكتفى بالوقوف أمام بعض النماذج وقفات سريعة كما قلنا (ويمكن أن تراجع سائر النصوص بتوسع فى ظلال القرآن) .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردُّوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرّعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شِيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون » . . .

إن الآية الأولى فى هذا النص تصور « العلم الإلٓهى » بما يجرى فى هذا الكون تصويرًا لا يخطر بطبيعته على الإدراك البشرى ، وهو يدل بذاته على مصدر هذا القرآن . إنه تصوير إلٓهى للعلم الإلٓهى ، فى مطارح وآماد لا يتجه إليها خيال البشر إذا خطر لهم أن يصوروا شمول العلم الإلٓهى . تتجلى هذه الحقيقة حين نتابع مطارح العلم الإلٓهى فى هذه الصورة بشىء من التأمل :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » . .

فتصور أن للغيب مفاتح ، وأن هذه المفاتح عند الله ، وهو وحده الذى يطلع منها على ما وراءها من الغيب المكنون الملفوف المستور . . هو تصور غير مسبوق فى كل التعبيرات البشرية المألوفة عن عالم الغيب المجهول . وهى لمحة تفتح للتصور البشرى امادًا وعوالم وأبعادًا وأعماقًا فى مجاهيل الكون المغيبة عن البشر ، وأقربها إليهم اللحظة التآلية التى يحول بينها وبينهم ستر الغيب المسدل ، وهم يقفون أمامه عاجزين عن استشفاف ما وراءه مما يقع لهم . وهى لحظة واحدة من الزمان !

ثم مطارح العلم الإلٓهى التى تفصّل الفقرات التآلية فى الآية شيئًا منها . .

« ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . .

إن الخيال البشرى لا يتجه بطبيعة تكوينه هذا الاتجاه فى تصور العلم الشامل . . كل ورقة تسقط من شجرة فى هذه الأرض . وكل حبة مخبوءة فى ظلماتها . وكل رطب وكل يابس . هذه المتابعة لكل ورقة ساقطة . وكل حبة مخبوءة . وكل رطب وكل يابس فى البر والبحر . . إن مجرد تأمل هذه الصور واستحضارها فى الخيال يعجز هذا الخيال ! وليجرب من يريد أن يجرب أن يغمض عينيه ، ليتتبع بخياله كل ورقة تسقط من شجرة . وكل حبة مخبوءة فى ظلمة . فى لحظة واحدة من لحظات الزمان ! . . إن علم الله ـ سبحانه ـ يتابع هذه الأوراق التى يعجز عن تصورها الخيال ! إن علم الله سبحانه يتابع كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض . . الأرض كلها ، لا حديقة من حدائقها ، ولا حقلاً من حقولها ، ولا غابة من غاباتها التى لم تطأها قدم إنسان . فأين هو الخيال الإنسانى الذى يطيق أن يزرع الأرض كلها فى لمحة ، يتتبع كل ورقة ساقطة تذروها الرياح ، وكل حبة مخبوءة فى الظلمات ، وكل رطب وكل يابس فى هذه المطارح الشاسعات ؟ !

ومن المتابعة لكل غيب مستور ، وكل ورقة تسقط ، وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يا بس فى هذا الكون العريض . . إلى المتابعة لهذا الإنسان . كل فرد من هذا الجنس فى كل مكان وفى كل زمان . . والإحاطة بسره وجهره وحاضره ومآله :

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » . . .

إن الناس جميعًا فى قبضته سبحانه . يلمهم بالليل ويتوفاهم بالنعاس . إن النوم يلفهم ويطويهم فى قبضة الله ، وهو يبعثهم من هذا النوم ـ أو من هذه الوفاة ـ بالنهار ليستوفوا الأجل الذى أجله ، ولكنهم غير مفلتين ، فإن علمه يتابعهم فى كل ما تمتد إليه جوارحهم . حتى النظرة واللفتة واقعة تحت هذا العلم المتابع المحيط . حتى إذا انتهى الأجل توفاهم إليه . فلم يعودوا يستيقظون كما كانوا يستيقظون فى كل صباح ! إلا أن يأتى الأجل الآخر فيبعثهم هو من مرقدهم الطويل لينبئهم بما كانوا يعملون ، وليجزيهم عليه هناك . . أى شعور يغمر القلب وهو يتأمل هذه الحقائق فى الصورة بشىء من الأناة ؟ ! أى شعور بالرهبة والجلال والروعة والانبهار ، وهو يتصور هذه الخلائق كلها من أطفال وشيوخ وشباب وكهول ، ورجال ونساء ، من شتى الأجناس والألوان ، فى شتى البقاع والأركان يلفهم النعاس فى قبضة الرحمن ، فإذا بعثهم من رقادهم تابعتهم رقابته فى السر والعلن ، فإذا انقضى الأجل طواهم الرقاد الطويل ، فإذا جاء الأجل بعثهم كرة أخرى للحساب والجزاء .

إنه الحق . . ثم إنه الإبداع والإعجاز ! !

ثم يفصّل كيف تتابعهم رقابة الله وهيمنته وقهره . وكيف يتوفون ، وكيف يرجعون إليه فى نهاية المطاف :

« وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظةً ، حتى إذا جاء أحدكم الموتُ تَوفّته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكمُ ، وهو أسرع الحاسبين » . . .

إنه ـ سبحانه ـ القاهر فوق العباد جميعًا . قويهم وضعيفهم . صغيرهم وكبيرهم المستضعفين منهم والمستكبرين . المتسلطين منهم والمقهورين . الغالبين منهم والمغلوبين . . إن كل فرد منهم كالآخر مقهور لله ، تتابعه وتراقبه حفظة من عند الله يحصون عليه أنفاسه ، فإذا جاء الأجل ، وحُمَّ القضاء ، توفاه هؤلاء الحفظة من جند الله لا يفرطون فى نَفْس ولا فى نفَس . ثم رد الجميع إلى « مولاهم الحق » وربهم الصحيح ، وسيدهم الوحيد . فالحكم والسلطان له وحده ، والحساب والجزاء له وحده « وهو أسرع الحاسبين » . .

وفى ظل هذا القهر الإلهى للعباد يبدو البشر بجملتهم ضعافا مقهورين مملوكين محصورين . . هم بجملتهم . . ويبدو سلطان البشر وتسلطهم بعضهم على بعض ،

وصراعاتهم ، ونزاعاتهم بعضهم مع بعض . . ضئيلة قزمة صغيرة . . ويطامن الإنسان من كبريائه فى الأرض ، ويطامن المستكبرون المتجبرون فى الأرض من استكبارهم وتجبرهم فهم ـ كالآخرين ـ مقهورون لمولاهم الحق ، الذى له الكبرياء وحده ، وله الجبروت وحده ، وله القهر وحده فوق عباده جميعًا . . وهم مردودون إليه ، محاسبون بين يديه . وهم لا يملكون أن يمنحوا أنفسهم ولا أن ينقصوا غيرهم نفسا من أنفاس الحياة . فهناك أجل الله القاهر فوق عباده ، وهناك الحفظة الذين لا يفرطون ولا يهملون ولا يغفلون !

أى شعور بالتواضع والخشية والتقوى والوجل ، تصبه هذه الكلمات فى نفوس المتجبرين المستكبرين المتعالين ؟ ! وأى شعور بالعزة والثقة والطمأنينة والراحة تسكبه فى قلوب المقهورين المستضعفين المظلومين ؟ ! وأى شعور بالمساواة فى العبودية للقاهر الواحد تشيعه فى نفوس هؤلاء وهؤلاء على السواء ؟ !

ثم يذكرهم بمنطق فطرتهم حين يعريها الخطر من الزيف والضلال ، ويقفهم وجها لوجه أمام هذا المنطق الذى يتنكرون له وهو كامن فى فطرتهم أصيل :

« قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعًا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون ! » . . .

إنها تجربة واقعية يمر بها الكثيرون من الناس ، تجربة التعرض للخطر فى ظلمات البر والبحر . . والظلمات كثيرة ، ، الظلمات المادية وظلمات الأحداث والمشاعر ، فى مضايق الحياة وعثراتها وأزماتها . . حيث تتعرى فطرة البشر من كل ما يغشى عليها من الضلالات والأوهام والتصورات ، وحين تحس وتشعر وتستيقن فى أعماقها ألا ملجأ لها إلا الله ، وأنه ليس لها من دون الله كاشفة . . وعندئذ تتجه إليه وحده متجردة من كل سند آخر ومن كل سبب : « تدعونه تضرعًا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » . .

إنها تجربة لا يكاد فرد من الناس ألا يكون قد مرّ بها فى وقت من الأوقات . . وهى شهادة من الفطرة بمعرفتها بحقيقة الألوهية . ولكن البشر تغشى فطرتهم الغواشى ، وتغلب عليهم الغوايات : « قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون » . . بعضهم يشرك الشرك الظاهر الغليظ الساذج ، كشرك الجاهلية الأولى ، وبعضهم يشرك الشرك الخفى المستتر المعقد ، فيثقل فى حسه سلطان العبيد على سلطان الله ، ويخشى الناس على حياته ورزقه ومكانته ومصالحه . والله أحق أن يخشاه ! إلا أن يعيش الناس مع هذا القرآن ، وإلا أن يعيشوا به ، فيظل يعرى فطرتهم ويوقظها ويذكرها بالحقيقة كما صنع بالجيل الأول من المسلمين ، الذى عاش مع هذا القرآن ، وعاش بهذا القرآن !

وفى ختام هذا النص يرد أولئك الذين يشركون بعد زوال الخطر ، وينسون منطق فطرتهم فى ثناياه . . يردهم إلى الحقيقة التى لا تتبدل : وهى أنهم فى قبضة الله ، سواء كانوا فى الخطر أم تجاوزوه ، وأن النجاة من الخطر مرة لا تعنى أنهم أفلتوا من قبضة الله :

« قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعًا ، ويذيق بعضكم بأس بعضٍ ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون» . .

إن الإفلات من الخطر فى ظلمات البر والبحر لا يجوز أن ينسى الناس أن الذى نجاهم منه قادر على أن يعيدهم فيه . قادر على أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، من السماء أو من الأرض . عذابا لا يفصله ولا يحدد نوعه ، ليدع له رهبته ووقعه وغموضه وجهلهم به وبمصدره ومداه ، ولتظل فطرتهم صاحية واعية مترقبة متطلعة ، تخشى عذاب الله وترجو رحمته ، وتتقى غضبه وترجو رضاه . . كما أنه هو القادر أن يسلط عليكم أنواعًا أخرى من العذاب ، لا من الأرض ولا من السماء ، ولكن من ذات أنفسكم ، ينبع منكم ويرتد إليكم ويفيض عليكم ! إنه قادر على أن يسلط بعضكم على بعض ، وأنتم مختلطون ملتبسون بعضكم ببعض ، لا يجلو لكم الحق ، ولكن يدع باطلكم يأكل بعضه بعضًا ، ويصارع بعضه بعضا ، وينازع بعضه بعضا ، وينهش بعضه بعضا ، ويدعكم تعانون من ويلات أنفسكم ، ومن تعذيب بعضكم لبعض فى صراع كله باطل ! أليس هذا عذابا أقسى ، وأطول أمدا من عذاب الصواعق والخسف والطوفانات والفيضانات والأوبئة ؟ عذاب المجازر البشرية التى يذوق فيها بعض الناس بأس بعض ؟ بلى ! وقد جربت البشرية ـ وما تزال تجرب ـ هذه الألوان القاسية من العذاب !!!

أى تصور لحقيقة الألوهية ترسمه هذه الكلمات فى ضمير المؤمن ؟ وأى توجس وتطلع تطلقه فى شعوره ؟

إنه تصور حى مؤثر فاعل محرك ، فوق أنه تصور صحيح ، وفوق أنه تصور كذلك جميل ومريح !

* * *

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب النهار . له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ من أمر الله ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له ،

وما لهم من دونه من والٍ . هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا ، وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال » . . .

وهذا نص آخرمن النصوص القرآنية التى تصور « حقيقة الألوهية » . . تصور علم الله الشامل الدقيق المحيط ، وتصور رقابته كذلك الشاملة المحيطة ، وتصور قهره وسلطانه وهيمنته ، فى مجال كونى يشمل الناس والملائكة والأرض والسماء . . ويرسم صورة لهذه الحقيقة فيها من الحق والصدق ، بقدر ما فيها من الجمال والبهاء . .

والمجال الذى يتخذه النص معرضًا لشمول العلم الإلّهى هو كذلك مما لا يخطر على بال البشر فى مألوف تعبيراتهم عن شمول العلم . فهو بذاته يدل على المصدر الإلّهى لهذا القرآن :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ،وكل شىء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » . .

إن هذا الاتجاه فى تصور شمول العلم ليس اتجاها بشريا بحال . . إن بال البشر لا يتجه فى تصور شمول العلم إلى « ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد » . . إن خاطر البشر لا يتجه هذا المتجه ، وأمامنا مألوف التعبير البشرى من قبل ومن بعد القرآن ، ليس فيه مثل هذا الاتجاه إلا أن يكون متأثرًا بقول ربانى فى هذا المجال .

وإن وقفة تدبر وتأمل فى مفردات هذه الصورة وفى مجالاتها الشاسعة لتملأ القلب بالروعة والوهلة والانبهار . . ما تحمل كل أنثى . . كم أنثى ؟ كم أنثى من عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم الطير ، وعالم الحشرات ؟ كم أنثى فى البر وفى البحر وفى الجو كذلك من هذه الأحياء ؟ وكلها تحمل نوعا من الحمل تتضمنه هذه الإشارة المختصرة الشاملة البعيدة الآماد والأرجاء . . وعلم الله عليها هناك . . .

وهذه اللفتة : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » . . وكم من رحم فى ذوات الأرحام ؟ وكم من غيض وكم من فيض ؟ غيض وفيض من الدم . وغيض وفيض من النسل والبيض سواء ! ! !

ألا إنه شىء يدير الرءوس أن تتخيله ، وأن تتبعه ، وأن تتملاه ! وكله فى إطار علم الله فى إطار علمه لا جملة ولا تعميما . ولكن « وكل شىء عنده بمقدار » . . إن كل قطرة دم تغيض أو تفيض فى رحم من هذه الأرحام ، وكل حمل يتخلق وينمو ويولد ، أو يضمر

ويتعوق ، ويجهض ، وكل ذكر وأنثى يصير إليه ذلك الحمل فى تلك الأرحام . . . إن كل واحدة من هذه على حدة محسوبة وحدها « بمقدار » !

ألا جلّ جلال الله ! ألا جلّ علم الله ! ألا جلّ قول الله !

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . .

عالم الغيب والشهادة . . وما كل ما سبق مما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . . إلا جانب صغير من عالم الغيب والشهادة . . ووراءه من أمثاله جوانب أخرى كثيرة فى الأرض والسماء . فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل سواء .

ألا تعالى الله . . الكبير المتعال . . الكبير وحده ، فكل ما عداه ومن عداه ضئيل صغير . . المتعالى وحده ، فكل من عداه وما عداه خاضع مقهور . . والبشر . . ظاهرهم وخافيهم ساكنهم ومتحركهم . سرهم وجهرهم . . كله مكشوف لله :

« سواء منك من أسّر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» . .

أى شعور يخالج الإنسان ، وهو يسر كلمة فى ضميره لا يسمعها حتى بأذنيه ، ولا يلفظها حتى بلسانه . . أى شعور يخالجه وهو يشعر أن الله سامع هذه الكلمة التى أسر ، مطلّع منه على هذا السّر اطلاعه على الجهر ؟ أى حياء أن يكون فى هذه الكلمة ما يخدش؟ أى وجل أن يكون فى هذه الكلمة ما يسوء ؟

أى شعور يخالج الإنسان وهو خاف بالليل عن العيون يلفه الظلام ويستره ، بينما عين الله عليه فى هذا الظلام تكشف سره وجهره كما هو ظاهر بالنهار ؟ !

أى أدب يمكن أن تحدثه هذه الكلمات فى نفس المؤمن بها ، وأى حياء ، وأى تورع ؟ وأية طهارة ونظافة لنيته وعمله على السواء؟

ثم يمضى السياق القرآنى يحدث الناس كيف هم مراقبون فى كل وضع وفى كل آن :

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ـ من أمر الله ـ » . .

إن هناك من يتعقبه . هناك الحفظة الذين يتعقبونه من بين يديه ومن خلفه ، ويحصون عليه نيته وعمله ، وما يكسب ضميره وما تكسب جوارحه ، وما يسره وما يجهر به . حفظة من أمر الله ، يتعقبونه بأمر الله وإذنه ، فلا تفلت منهم شاردة ولا واردة . وقد سلطهم الله عليه ووكلهم به بالليل والنهار . .

أية يقظة تطلقها هذه الصورة فى ضمير المؤمن ؟ أية يقظة لكل ما يصدر عنه من حركة، ولكل ما يهجس فى باله من خاطر ؟ أية استقامة فى الشعور والخلق والسلوك تنشئها هذه الصورة المؤثرة الحية فى ضمائر الناس ؟

« إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال » . .

إن فعل الله بهم متعلق بما يكونون عليه فى أنفسهم . فإن صلحت نواياهم وجوارحهم رتب الله على صلاحها الخير فى واقعهم وفى حياتهم . أما إذا كانت الأخرى فأراد بهم السوء بنيتهم وعملهم فلا مرد له ، ولا معقب عليه ، وما لهم من دونه من وال . .

أى شعور بالتبعة ـ والناس هم الذين بـأيديهم يستجلبون على أنفسهم غضب الله ، أو رضاه ، كما يستجلبون الخير والسوء لأنفسهم فى واقع الحياة ، بإذن الله وقدره ، المترتب على تغييرهم ما بأنفسهم لأى اتجاه ؟ !

وأية استقامة يمكن أن ينشئها وضوح طبيعة العلاقة بين الناس وربهم ، وطبيعة العلاقة بين فعله بهم وفعلهم بأنفسهم ؟ وهو جانب من جوانب وضوح حقيقة «الألوهية» فى نفوسهم ومعرفتهم أن لا محسوبية عند الله ولا محاباة ؟ !

ثم يأخذ السياق القرآنى بالناس إلى رحاب الكون من حولهم ، حيث تتجلى فى الظواهر الكونية التى يرونها ويلابسونها يد الله وقدرته ، وإرادته وقدره ، وحيث يبدو جدالهم فى الله شيئًا غريبًا مستنكرًا أمام هذه الدلائل والبينات :

« هو الذى يريكم البرق ـ خوفًا وطمعًا ـ وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال » .

إن البرق والرعد والصواعق ظواهر كونية يراها كل الناس ، وبعضهم فى جاهلياتهم كان يعبدها ولا يزال ، شعورًا من عبادها بأن وراءها قوة تخشى . ولكنهم كانوا يخطئون فى تحديد ماهية هذه القوة وطبيعة علاقتها بهم وعلاقتهم بها . . فالمنهج القرآنى يبين لهم أن هذه الظواهر إنما هى من فعل الله ، خالق هذا الكون ومنشئ ظواهره ، وأنه هو الذى يريهم هذه الظواهر بما وهبهم من البصر والسمع والإدراك ، وإلا فقد كان يمكن أن تقع هذه الظواهر كلها دون أن يروها ، أو يسمعوها ، أو يدركوها ، كالكثير من المرئيات التى لا تدركها أبصارهم ، والأصوات التى لا تدركها آذانهم ، والأسرار التى لا تدركها عقولهم . . وهى تملأ جنبات الكون من حولهم . فإن البصر الإنسانى محدود لا يرى إلا أنواعًا معينة من المرئيات ، والسمع الإنسانى محدود لا يسمع إلا أنواعًا معينة من الأصوات ، والإدراك الإنسانى محدود لا يدرك إلا أنواعًا معينة من المدركات والمجاهيل والأسرار . . ووراء ذلك كله كثير مما لا يراه الإنسان ولا يسمعه ولا يدركه على الإطلاق !

وهو يريهم البرق فيثير فى حسهم الخوف من أن يكون معه الصواعق ، أو الفيضانات المدمرة ـ كما يقع فى بعض الأحيان ـ كما يثير فى حسهم الطمع فى أن يكون معه المطر المحيى والخير والثمار ـ كما يقع كذلك فى بعض الأحيان ـ وهو ينشئ السحاب المثقلة بالماء أو المثقلة بالشحنات الكهربائية سواء ! وهى ظاهرة مصاحبة ومتصلة اتصالاً وثيقًا بالبرق والرعد والصواعق المذكورة فى السياق .

إن هذه الظواهر لا تقع بحتمية آلية فى تركيب الكون ، وإن كانت تقع متناسقة وطبيعية مع تركيب الكون . والمنهج القرآنى حريص على تخليص الحس الإسلامى من ضغط الحتميات الآلية ، وربطه مباشرة بقدرة الله وقدره ومشيئته ، كيما يرى يد الله فى كل ظاهرة من الظواهر الكونية ، وفى كل حادثة من الحوادث الفردية ، وكيما يتذكر الله ويرجوه ويخشاه كلما امتد بصره أو سمعه أو عقله إلى ظاهرة من ظواهر الكون أو ظواهر الحياة . . ومن هنا يجىء التعبير هكذا : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشئ السحاب الثقال » . . لتبرز هذه الحقيقة فى حس المسلم وتتضح وتتقرر . . وكذلك الصواعق . . فهى لا تنشأ بحتمية آلية ، ولا تصيب من تصيب خبط عشواء . . إنما هى مرسلة ومصيبة بمشيئة الله وبقدر الله . وهذا لا يتعارض ولا يتناقض ولكنه يتكامل ويتناسق مع الحقيقة الأخرى ، وهى أن الله خلق الكون بحيث تقع هذه الظواهر فيه وقوعًا طبيعيًا متناسقًا مع طبيعة خلقه وتركيبه . . إن الذين يرون أن هناك تناقضًا بين أن تكون للكون قوانين وسنن ثابتة ، وأن تكون مشيئة الله هى التى تحقق هذه القوانين والسنن بقدر منه فى كل مرة . . إن هؤلاء إنما يتعسفون فيرون التناقض فى المتناسقات ! أما الحس السليم البرىء الخالص من العقابيل والعقبات فلا يرى إلا التناسق والتكامل بين جزئى هذه الحقيقة الكبيرة .

ثم يطلع الله الناس على بعض ما يعلمه هو من طبيعة هذا الكون ، وعلاقته بخالقه وحافظه ومدبره . . إنه كون عابد مسبح لمولاه . إنه يسبح بحمد ربه كما يسبح الملائكة من خيفته .

« ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » . . .

وهى حقيقة يرتعش لها وجدان المؤمن ، وتهزه من الأعماق . . وإن الشعور بأن هذا الكون الذى يحسبه الناس جامدًا ، عابد لربه مسبح بحمده ـ كما تسبح الملائكة من خيفته ـ ليشيع فى أعطاف الناس أنسًا بهذا الكون الذى يلتقى معهم فى تسبيح الله وحمده ، فى الوقت الذى يستجيش مشاعرهم كلها للالتقاء بهذا الكون وظواهره فى محراب الله . . وإن الشعور بأن الملائكة الأبرياء الأطهار يسبحون ربهم خوفًا وخشية ، وهم لا يذنبون ولا

يخطئون ، ليستجيش كذلك مشاعر بنى آدم الخطائين المذنبين للتقوى والخشية والتوبة والاستغفار .

وفى ظل هذه الظواهر ، وهذه المشاعر ، يبدو الجدال فى الله ، على أى وجه من الوجوه مستنكرًا غريبًا لا يستسيغه عقل ولا قلب فى هذا المجال .

إن هذه الإيقاعات القرآنية ، فى مثل هذه النصوص ، لا يملك قلب حى أن يثبت لها وصدق الله العظيم :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله » . . .

(الحشر : ٢١)

* * *

« سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » . .

إن هذا النص الثالث الذى نقف أمامه وقفة قصيرة ، وهى الوقفة الأخيرة ، ليجلو من « حقيقة الألوهية » جوانب عميقة فى إيقاعات عميقة . . وبعضها مما يصعب أو يتعذر شرحه بأكثر مما يوحيه اللفظ القرآنى ويشعه . . فلنحاول بتوفيق الله ما نستطيعه . .

إن الإيقاع الأول فى هذا النص ينبعث من تجاوب التسبيح لله فى جنبات الكون من كل « ما » فى الكون :

« سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » . .

وهو مشهد ـ ولا شك ـ مؤثر ومثير ، حين يتملاه القلب البشرى ، محاولا أن يتصور كل شىء : من حى وجامد . من نجم وكوكب . من شجر ومدر . من إنس وجن وملائكة . من بهيمة وطير وهامة وزاحفة . فى البر والبحر والجو . فى السموات والأرض . . . كل هذا الحشد يسبح لله العزيز الحكيم . .

إنه كون مؤمن . كون مسلم . كون عابد . كون حامد . . . إنه يتفرق ما يتفرق أنواعًا وأجناسًا ، أممًا وأفرادًا ، متحركًا وجامدًا ، صائتًا وصامتًا ، منظورًا ومستورًا ، معلومًا

ومجهولاً . . ولكنه يلتقى بعد ذلك فى محراب الله مسبحًا عابدًا حامدًا . . هذه هى علاقته بربه العزيز الحكيم . علاقة الحمد والعبادة والتسليم . . .

إنه يعرف حقيقة ربه ، ويستسلم له لأنه بعض ملكه :

« له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » . .

وهذا هو الإيقاع الثانى فى هذا النص العجيب . .

إن كل شىء يسبح له . لأن كل شىء مملوك له ، خاضع لسلطانه ، داخل فى ملكوته . . إنه هو ـ سبحانه ـ فاعل الموت والحياة فى الموتى والأحياء . إنه هو منشئ الجامد الميت ، كما أنه هو منشئ الحياة فى الموات ، وهو الذى يسلبها حين يشاء . . وهذا كله مظهر من مظاهر قدرته ، فهو على كل شىء قدير . والموت والحياة شيئان من كل شىء ، وقدرته أوسع منهما وأبعد أمادًا . .

ثم يجىء الإيقاع الثالث الشامل المحيط :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » . .

هو الأول الأزلى القديم فليس قبله شىء ، وليس له سبحانه بدء ! كما لكل شىء مما خلق . .

والآخر الأبدى الدائم ، فليس له ـ سبحانه ـ انتهاء كما لكل شىء مما خلق . .

والظاهر الذى ليس وراءه شىء . . .

والباطن الذى ليس دونه شىء .

إنه ـ سبحانه ـ هو الموجود الحق ، الذى ليس لوجوده بدء ، ولا نهاية ولا قبل ولا بعد وليس وراءه شىء وليس دونه شىء . هل عبرت شيئًا ؟ هل فسّرت شيئًا ؟ هل صوّرت شيئًا ؟ لا؛ لأن هذه الصفات مما يتعذر على البيان البشرى شرحه بأكثر مما يوحيه ويشعه لفظه . . إن فى حسى تصورًا توحيه وتشعه هذه الكلمات ، ولكنى لا أملك نقله عن طريق الألفاظ ! ولا أريد أن أدخل بتعبيرى فى معميات . فحسبى هذه الإشارات !

« وهو بكل شىء عليم » . . فمن طبيعة أنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، أن يكون كل شىء فى محيط علمه المحيط . .

ثم يفصّل شيئًا من قدرته ، وشيئًا من علمه ، وشيئًا من إحاطته فى مجال الأنفس والآفاق :

« هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما

يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

وخَلْقُ السموات والأرض فى ستة أيام يتكرر ذكره فى القرآن ، ولا يمكن أن يكون المقصود هو ستة أيام من أيام هذه الأرض أو من أيام أى نجم أو كوكب ـ ويوم بعض النجوم قد يعدل الآفًا من سنى هذه الأرض ، ويوم بعض الكواكب قد يكون أقصر من يوم هذه الأرض ـ فأيام الأرض والنجوم والكواكب ، إنما هى أثر من اثار خلقها ، وتابع فى الوجود لخلقها . . ومن ثم فلابد من التوقف فى تفسيرها ، وترك علمها لله وحده . فقد يكون المقصود بها ستة أطوار مرت بها حتى انتهت إلى هيئاتها الأخيرة ، أو ستة أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها ، أو أى مدلول آخر غير أن تكون ستة أيام من أيام هذه الأرض أو سواها من الكواكب أو النجوم . . وكذلك الاستواء على العرش . فكل كلام عن العرش ما هو ، وكل كلام عن المقصود بالاستواء على العرش . . هو دخول فى متاهة لا دليل فيها ، فلابد من الاكتفاء باللفظ القرآنى ، وما يوحيه من الهيمنة والتسلط والسلطان والقهر والعلم والإحاطة بشئون السموات والأرض . وهذا أسلم منهج فى مواجهة هذه الكيفيات التى لم يوهب الإدراك البشرى علمها ، ولو علم الله أن فى إدراكها خيرًا للإنسان لأقدره عليه ، ولوهبه له . .

ونخلص من هذا إلى حقيقة العلم الإلّهى ، الشامل لملكه الذى استوى على عرشه :

« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيّها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

إننا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام التصوير الإلّهى المتفرد للعلم الإلّهى الشامل . هذا التصوير الذى سبق أن قلنا عن مثله : إنه لا يخطر عادة على بال البشر ، وليس مألوفا فى تعبيراتهم عن شمول العلم . . « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » وما يلج فى الأرض وما يخرج منها فى لحظة واحدة من الزمان شىء لا يحصيه البشر ولا يملكون متابعته فضلاً على إحصائه . . فقط : كم بذرة تلج فى الأرض وكم نبتة تنبثق ؟ كم دودة تحفر وتختبئ وكم حشرة تحفر وتنطلق ؟ كم قبرًا يبتلع وكم قبرًا ينتثر ما فيه من رفات وعظام ؟ كم قطرة ماء تتسرب إلى باطن الأرض وكم نبعًا يتفجر ؟ كم جذر نبات يسوخ فى الأرض وكم ساقًا تنطلق فى الهواء ؟ . . . كم وكم . . . من كل ما يلج فى الأرض وما يخرج منها مما يراه الناس ومما لا يرونه سواء ؟

وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . هو الآخر حشد يدير الرءوس أن تتصوره جملة فضلاً على أن تحصيه عدا وتعلمه تفصيلاً . . فقط كم قطرة ماء تسقط وكم قطرة تتبخر وتصعد ؟ كم شهابا يتناثر وكم هباء يتصاعد ؟ كم ملكًا من ملائكة الرحمن يهبط ويصعد بأوامره وأقضيته فى الأنفس والآفاق ؟ كم عملاً صالحًا يرفع إلى الله وكم دعوة تفتح لها أبواب السموات وتنزل بها الاستجابات ؟ . . . إنه شيء هائل لا يتجه إليه خاطر البشر عادة وهم يعبرون عن شمول العلم بأسلوبهم البشرى المعهود . .

« وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

أية رهبة وخشية ؟ وأى أنس كذلك وبشاشة ؟ يطلقها الشعور بوجود الله وحضوره ـ سبحانه ـ مع الناس أينما كان الناس ؟ « وهو معكم أينما كنتم » . . وهو ـ سبحانه ـ يطلع على كل ما يدور بينهم ، وعلي كل ما يدور فى نفوسهم ، ويرى كل ما تأتيه جوارحهم وكل ما تأتيه قلوبهم ، ولا ستر لهم من دونه ، ولا حجاب بينهم وبينه : « والله بما تعملون بصير » . .

ومن حقيقة العلم الشامل إلى حقيقة المِلك الشامل والقدرة والهيمنة والسلطان :

« له ملك السموات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور » . .

إنه الخالق . ومن ثم فهو المالك . المالك الملك المهيمن الشامل . الذى إليه يرجع كل أمر ، وينتهى كل حكم ، ولا يند عن ملكه شيء كما لاينِد عن سلطانه أمر . . ليس هنالك شريك فى خلق ولا فى ملك ولا فى سلطان . وليس هنالك شريك فى تدبير أو تصريف أو حكم أو توجيه . فإليه وحده الملك ، وإليه وحده ترجع الأمور . .

هذا السلطان لا يقتصر على تصريف حياة البشر ، إنما هو شامل للكون ، وما يبدو للبشر فيه من ظواهر :

« يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وهو عليم بذات الصدور » . .

إنه فى كل يوم إما أن يطول الليل ويقصر النهار ، فيدخل الليل فى النهار ويمتد . وإما أ يطول النهار ويقصر الليل فيدخل النهار فى الليل ويمتد . . إنهما ظاهرتان كونيتان دائبتان . ولكنهما لا تقعان بحتمية آلية ، إنما تقعان بإجراء سنة إلهية تجرى بقدر خاص من الله وقصد وإرادة . إن يد الله هى التى تدفع بالليل فتولجه فى النهار فيطول ، أو تدفع بالنهار وتولجه فى الليل فيطول ، وشكل الأرض الكروى ووضعها المائل على محورها ، وموقعها من الشمس ودورتها حول نفسها وحول الشمس . . كل هذه سنن أنشأها الله كما

أنشأ الأرض والشمس والسموات جميعًا ، وهى سنن تتحقق اثارها ـ ومنها هاتان الظاهرتان *ـ بقدر من الله ، وهناك توافق وتناسق بين خلقة الكون ومجرى هذه السنن وجريان هذه الأقدار . . والمنهج القرآنى يوقظ القلب لرؤية يد الله وهى تُجرى هذه السنن فى كل دورة يومية ، وللتعلق بقدر الله وتعليق الرجاء به كذلك . . وهى يقظة تخلع على الكون وظواهره جدة وحيوية ، وتستنقذ الحس البشرى من بلادة الرتابة ، كما تنقذ القلب البشرى من ضغط الحتمية الآلية ! وبذلك يبدو كل يوم وكأنه حدث جديد ، ومشهد جديد ، تتملاه العين ، ويتأمله القلب ، ويذكر الله ويشكره على جريان قدره به ! فلو شاء ـ سبحانه ـ ما قصر ليل ولا طال ، وما قصر نهار ولا طال . ولو شاء لجعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة ، ولو شاء لجعل النهار سرمدًا إلى يوم القيامة ، كما جعل ذلك فى كواكب أخرى غير هذا الكوكب الأرضى ! وهو ـ سبحانه ـ يذكر البشر بهذا فى مواضع من كتابه :

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة ، من إلّه غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة ، من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . . .

(القصص : ٧١ـ٧٢)

فهى منته ورحمته التى يوقظ لها قلوب عباده ؛ ليذكروه ويشكروه :

« وهو عليم بذات الصدور » . .

عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التى لم تفارقها ولم تغادرها ، ولم يكشف عنها أصحابها لأحد ، لأنها ملاصقة لصدورهم لم تبرحها . .

أية مشاعر تشيعها مثل هذه الإيقاعات المتوآلية فى مثل هذا النص القرآنى ؟ أية رؤية واضحة لحقيقة الألوهية ، وحقيقة ما يجرى فى الكون وفى الأنفس كذلك ؟ أية تقوى وطهارة ونظافة تعمر القلوب وتغمرها ؟ أى صلاح فى ضمائر البشر وفى حياتهم يمكن أن تنشئه مثل هذه الإيقاعات المؤثرة العميقة ؟ ثم أية استقامة فى العقل ومعرفة ونور . تلقيه هذه الأضواء الكاشفة لحقيقة الألوهية وعلاقة الكون والناس بها فى الصغيرة وفى الكبيرة ؟

* * *

وحسبنا هذه الوقفات كنماذج لاستجلاء الحقائق التى يعرضها المنهج القرآنى فى النصوص الكثيرة . . وقد كان من حق كل نص أن نقف أمامه مثل هذه الوقفات القصيرة، ولكنا لا نملك هذا فى البحث ـ كما قلنا ـ لأن هذا يخرج به عن طبيعته . وقد سبق أن قمنا بهذا العمل فى كتاب : « فى ظلال القرآن » حيث كان هناك مجاله :

إن « حقيقة الألوهية » ـ كما يجلوها المنهج القرآنى ـ ذات أثر إيجابى فى ضمائر المؤمنين وعقولهم ، وفى واقعهم وحياتهم ، بقدر ما هى فى ذاتها حق ، وبقدر ما هى ذات بهاء وجمال وكمال .

إن الضمير البشرى لا يستقيم بغير هذه الحقيقة .

إن العقل البشرى لا يستقيم بغير هذه الحقيقة .

إن الحياة البشرية لا تستقيم بغير هذه الحقيقة .

ولئن امتنّ الله على عباده أنه خلقهم ، ورزقهم ، وكفلهم . . . فإن جلاء حقيقة الألوهية فى القرآن على هذا النحو ـ وجلاء سائر الحقائق الأخرى ـ لهو المنة الكبرى التى تعدل بل ترجح كل تلك المنن . . لا عجب أن يذكر الله ـ سبحانه ـ فى مقدمة الالاء فى سورة الرحمن ، التى عدد فيها آلاءه فى الأنفس والآفاق وفى الدنيا والآخرة ، نعمة تعليم القرآن :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحُسْبان . والنجم والشجرُ يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ . . . » . . .

(سورة الرحمن : ١ ـ ١٣)

. . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . .

حقيقـــة الكـــون

إن حقائق العقيدة الإسلامية - كما يقررها ويعرضها المنهج القرآنى - من شأنها أن تنشئ فى إدراك المؤمن تصورًا واضحًا لحقيقة هذا الكون ولعلاقته بربه ، وعلاقته بالحياة والأحياء - بما فيها الإنسان - وأن تقر فى ضمير المؤمن الطمأنينة لتلك الحقيقة ، كما تقر فى عقله الراحة والقبول والاستقامة .

ذلك مع أن المنهج القرآنى لا يفرد فصلاً مستقلاً لتصوير « حقيقة الكون » ، فكل ما ورد عن هذه الحقيقة إنما جاء فى سياق تقرير « حقيقة الألوهية » - وكذلك الشأن فى «حقيقة الحياة » وفى « حقيقة الإنسان » - فكلها جاءت فى سياق « حقيقة الألوهية » وآيات الله فى الأنفس والآفاق ، مما جعلنا نتطرق إلى الإلمام بها فى فصل « حقيقة الألوهية » .

ولقد كان فى الإمكان أن نتوسع فى الإشارات التى وردت فى فصل « حقيقة الألوهية » وفى فصل « ألوهية وعبودية » عن تلك الحقائق الأخرى الثلاث ، ونكتفى بذلك التوسع فى بيان تلك الحقائق ، لولا أننا جرينا فى هذا البحث على فصلها ، وجعلها حقائق - أو مقوّمات - للتصور الإسلامى ، إلى جانب « حقيقة الألوهية » . ذلك أنها أخذت فى تاريخ المعتقدات والفلسفات والمذاهب والنظريات البشرية مكانًا عريضًا ، ووقع فيها الضلال والخطأ والتخبط فى التيه ، كما وقع فى « حقيقة الألوهية » ، وبسببٍ من الضلال والخطأ والتخبط فى التيه فى « حقيقة الألوهية » ، مما يجعل من الأفضل إفرادها ببيان مستقل عن كل منها .

وبسبب الارتباط القوى بين هذه الحقائق وحقيقة الألوهية - فى الواقع وفى المنهج القرآنى - فإننا سنضطر إلى شىء من التكرار والعودة إلى ما سبق تقريره عن « حقيقة الألوهية » فى أثناء عرض كل حقيقة من هذه الحقائق ، وهى ضرورة من ضرورات هذا البحث ، ناشئة عن طبيعة الحقائق - أو المقومات - التى يتوخاها .

* * *

إن هذا الكون - كما يقرر المنهج القرآنى - كون مخلوق حادث ، وليس بالقديم الأزلى ،

كما أنه لم ينشأ من ذات نفسه . . لقد خلقه الله ـ سبحانه ـ خلقًا ، وأنشأه إنشاء ، بعد أن لم يكن ، سواء فى ذلك مادة بنائه الأساسية أو الصورة التى ظهرت فيها . ولم يشارك الله ـ سبحانه ـ أحد فى خلق هذا الكون ، ولا فى خلق شىء منه . سواء فى ذلك مادته أو صورته إن الله سبحانه هو الذى أعطى كل شىء خلقه ، وأعطى كل شىء صورته ، وأعطى كل شىء وظيفته :

« خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون » . . .

(النحل : ٣)

« الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » . . .

(الزمر : ٦٢)

« الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . . .

(طه : ٥٠)

« أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون » . . .

(الطور : ٣٥ـ٣٦)

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . . .

(الكهف : ٥١)

وفى النصوص القرآنية التى تتحدث عن نشأة الكون بعض التفصيلات عن تركيب هذا الكون ، وعن مراحل نشأته . فهناك ذكر لعدد السموات وعدد الأرضين . وذكر لأيام الخلق . وذكر لمادة الكون فى بعض مراحل نشأته . وذكر لبعض الأطوار والتحولات التى تمت فيه . وأكثرها تفصيلاً هى هذه النصوص :

« قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادًا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء ـ وهى دخان ـ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » . . .

(فصلت : ٩ـ١٢)

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظًا ، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » . . .

(الأنبياء : ٣٠ـ٣٣)

« الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » . . .

(الطلاق : ١٢)

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتًا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا . والله جعل لكم الأرض بساطًا ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجا » . . .

(نوح : ١٥ ـ ٢٠)

« أأنتم أشد خلقًا أم السماء ؟ بناها . رفع سَمْكها فسوَّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعًا لكم ولأنعامكم » . . .

(النازعات : ٢٧ ـ ٣٣)

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعًا لكم ولأنعامكم » . . .

(عبس : ٢٤ـ٣٢)

« خلق السموات والأرض بالحق ، يكوّر الليل على النهار ، ويكوّر النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار » . . .

(الزمر : ٥)

« خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . . . .

(لقمان : ١٠)

إن هذه النصوص تتضمن ـ بلا شك ـ حقائق كلية عن نشأة هذا الكون ، وتتحدث

عن أحداث كونية وقعت فيه . ولكننا نحتاج إلى طبيعة المنهج القرآنى ، حين يشير إلى مثل هذه الحقائق الكونية . . والذى يدعونا إلى هذا التقرير أنه قد وجدت فى هذا العصر فتنة بالنظريات والبحوث والكشوف العلمية ، جعلت بعض المهزومين أمام فتوحات العلم الحديث ، يحاولون أن يتلمسوا الموافقات بين النصوص القرآنية التى تشير إلى بعض الحقائق الكونية وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة ؛ ليتخذوا منها سندًا لهذا القرآن ولهذا الدين ! وهو اتجاه خاطئ وخطر كذلك من الناحية الاعتقادية ، وذلك فوق خطئه من الناحية المنهجية العلمية . . لذلك نؤثر قبل التحدث عن تلك النصوص القرآنية ودلالتها ، أن نقول كلمة مجملة عن تلك الفتنة !.

إن النصوص القرآنية قطعية الدلالة ، ومطلقة الدلالة كذلك ، ونهائية فى تقرير الحقيقة التى تقررها . ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بقول آخر إلا من جنسها ، ومن مستواها من حيث قطعية الدلالة ونهائيتها المطلقة . وقول البشر ـ ومنه كل ما يقررونه سواء من الحقائق العلمية ، أو النظريات العلمية ـ ليس من جنس تلك النصوص ، ولا هو فى مستواها حتى يستشهد به على صدقها ، وفى هذا يتجلى الخطأ الاعتقادى والخطأ المنهجى معًا فى الاستشهاد بتقريرات البشر « العلمية » على صحة أو صدق النصوص القرآنية . فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها . . والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر ، فيستشهد به على صدقها وصحتها !

. . هذه واحدة . .

ثم إن ما تعارف البشر على أنه « نظريات علمية » وما تعارفوا كذلك على أنه « حقائق علمية » كلاهما ليس قطعى الدلالة ولا مطلق الدلالة . . فهو علم ظنى فى أحسن الأحوال . .

فأما « النظريات العلمية » فمعروف عند العلماء المحدثين أنفسهم أنها ليست سوى «فروض راجحة » . . فروض علمية لتفسير ظاهرة ، أو ظواهر كونية . وتظل النظرية قائمة ومعتبرة إلى أن يوجد فرض علمى آخر ، يفسر تلك الظاهرة ـ أو الظواهر ـ تفسيرًا أوضح ، أو أصح ، أو يفسر عددًا أكبر من الظواهر تفسيرًا متناسقًا . وهى عرضة دائمًا للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء . . فأين يذهب النص القرآنى إذا نحن فسرناه بإحدى تلك النظريات وعلقناه بها ؟ أين يذهب عندما يظهر خطأ تلك النظرية ، أو عندما تعدل فى بعض أجزائها ، أو عندما يضاف إليها جديد ؟ . . إننا سنضطر أن نحمله ونجرى به

وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه ! وهكذا لا نكف عن حمله والجرى به . فالنظريات العلمية لا تكاد تستقر . . وهو عناء أغنانا الله عنه ، فلا ينبغى أن نتكبده ، وأن نعرّض قول الله لمثله !

وأما « الحقائق العلمية » فهى - كما يقرر العلماء المحدثون كذلك - مجرد احتمالات راجحة . وليست قطعية الدلالة ، ولا مطلقة الدلالة . إنها حقائق ظنية - بما أنها احتمالات راجحة - وطبيعة المنهج العلمى التجريبى لا تسمح بغير هذا . فالإنسان هو الذى يقوم بالتجربة . ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية ، وإنما يعتمد على نتائج قياسية . . يجرى تجاربه على عدد محدود - مهما كثر - من المادة التى هى موضوع التجربة . ثم ما لم تتناوله تجاربه على ما تناولته هذه التجارب . لأن كل أجزاء المادة - موضوع التجربة - ليست فى يده ، ولا تحت سلطانه البشرى المحدود . وكذلك ليست جميع الظروف والعوارض خاضعة لسلطانه ولا داخلة فى علمه . ولأن عمره - لا الفردى ولكن الإنسانى - محدود كذلك لا يملك فيه إجراء التجربة على كل جزء من أجزاء المادة موضوع التجربة ، والإحاطة بجميع الظروف والعوامل . فهو مضطر اضطرارًا أن يتخذ البرهان القياسى ، لا البرهان الإحصائى . ومن المسلّم به سواء فى المنطق العقلى أو فى العرف العلمى ، أن البرهان القياسى هو برهان ظنى لا قطعى ، وهو برهان مقيد الدلالة كذلك . . وذلك فضلاً على عامل « النسبية » الذى يتدخل فى الموقف ، ويجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة « نسبية » لا مطلقة . فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله - سبحانه - بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون كله ، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان ، وبحكم أنه سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . وهى الصفات اللازمة لعلم الحقيقة القطعية المطلقة . . وهى الحقيقة التى يقص منها فى كتابه ما يشاء . . ومن ثم لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ، ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشىء من الحقائق الظنية النسبية المقيدة . لا من الناحية الاعتقادية وحدها ولكن كذلك من الناحية المنهجية العلمية !

. . وهذه أخرى . .

ثم . . إنه لابد من إدراك طبيعة المنهج القرآنى . فهو منهج هداية . هداية للضمير البشرى وللعقل البشرى معًا ؛ ليستقيما على منهج واضح ثابت مستقر فى القواعد الكلية الأساسية . ثم هو منهج هداية كذلك لنظام الحياة البشرية . كى يصبح واقع الحياة

متناسقا مع استقامة الضمير والعقل ، وبحيث يسمح هذا الواقع للضمير والعقل أن يسلكا طريقهما فى سلام واستقامة إلى ما يحبه ويرضاه . . وحين يستقيم نظام الحياة المادية الاجتماعية الاقتصادية السياسية الخلقية ، ويستقيم الضمير والعقل ، فإن الله ـ سبحانه ـ يدع للإدراك البشرى أن يبحث وأن ينقب عن سُنن الكون وقوانينه ، وأن يعرف منها ما هو مقدر له أن يعرف ؛ لينتفع به فى تنمية الحياة وترقيتها ، وليقوم بوظيفته الأساسية ، وهى الخلافة فى الأرض ، لتعميرها وتنميتها وترقيتها . . فالحقائق العلمية الكونية متروكة تفصيلاتها للإدراك البشرى ، وبحثه وكده ، وتجربته ، وصوابه وخطئه ، ولم يتكفل المنهج القرآنى ببيان تفصيلاتها له ، لأنها داخلة فى طوقه بالقدر الذى يلزم له فى أداء وظيفته . إنما تَكَفّل الله له ببيان أصول عقيدته ونظام حياته ، لأن علمه المحدود لا يكفى فى هذا المجال الأساسى ، الذى تقوم عليه حياته .

لم ينزل القرآن إذن ؛ ليكون كتاب علوم فلكية ، أو طبيعية ، أو بيولوجية ، أو فسيولوجية، أو طبية . . والحقائق التى وردت فيه عن مثل هذه المسائل ، إنما وردت فى صورة الإشارات الكلية ، فى معرض الهداية الاعتقادية . ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الاعتقادية التى أحاطت بهذه المسائل ، وبالقدر الذى يكفى لتصحيح العقيدة . . فلا ينبغى إخراج المنهج القرآنى عن طبيعته فى هذا الصدد . فإن قيمة هذا المنهج لا تحتاج إلى مزيد من التفصيلات العلمية ! وهو قطعى الدلالة ومطلق الدلالة فى موضوعه ، فلا يجوز حمله على دلالات ظنية غير قطعية ولا مطلقة ولا نهائية .

إن هذا لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من « الحقائق العلمية » ـ وليس « النظريات العلمية » قط ـ فى توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية . ونضرب لذلك أمثلة للمنهج المأمون فى الانتفاع بالكشوف العلمية فى هذا المجال :

حين يقول الله سبحانه : « وخلق كل شىء فقدره تقديرًا » . . « وكل شىء عنده بمقدار » . . « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . . الخ ، فإنه يجوز لنا أن ننتفع بما تكشفه البحوث العلمية من دقةالنظام الكونى ، ومن الموافقات الكثيرة فى تركيبه لضمان التناسق المطلق بين أجزائه ، ومن الضبط المطلق فى حركته وفى ظواهره ، سواء فى المجال الفلكى أو الطبيعى ، أو الحيوى . . لتوسعة مدى الرؤية البشرية لدلالة هذه النصوص .

كذلك حين يقول الله سبحانه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . . فإنه يجوز لنا أن ننتفع بالكشوف العلمية المستحدثة ، فيما تكشف عنه من الدقة الباهرة والتعقيد المدهش فى أجهزة السمع والبصر ، وفى الإدراك العقلى للإنسان ، لتوسيع مدى الرؤية البشرية لحقيقة هذا الذى يمتن الله به على عباده من الأجهزة الباهرة الفائقة ، التى لا يقاس إليها بشىء كل ما صنعه البشر من الأجهزة والمعامل !

ولكن حين يقول الله سبحانه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناها » . . فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها . . فهذه ليست سوى نظرية . . أى مجرد فرض ظنى . . وليست نهائية فى موضوعها . بل إن هنالك الان نظريات أخرى تعادلها وترجح عليها !

كذلك حين يقوم سبحانه : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . . فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية السديم . فالسديم ليس إلا مجرد نظرية . ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون التى لم يشهدها أحد من البشر ولا غيرهم من خلق الله : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » . .

ولعل هذه الأمثلة أن توضح المنهج الصحيح المأمون فى التعامل بين الإشارات القرآنية والنظريات والحقائق العلمية البشرية . وفى هذا القدر كفاية ، لنخلص منه ـ على بصيرة ـ إلى النظر فى تلك الإشارات الواردة فى النصوص القرآنية التى نحن بصددها :

نحن ـ كما أسلفنا ـ لا نملك تحديد مدلول الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . ولكنها قطعًا غير أيام هذه الأرض ، أو أيام أى كوكب أو نجم . فأيام الأرض وأيام الكواكب والنجوم الأخرى ، إنما وجدت بعد وجود تلك الكواكب والنجوم ، ونتيجة لدورتها .

والذى نأخذه من هذه النصوص القرآنية الأخيرة أن نشأة الأرض ، وإعدادها لا ستقبال الحياة والأحياء ، وتزويدها بأقوات هذه الأحياء تم فى أربعة أيام . وأن نشأة السموات و إعطاءها مداراتها وأفلاكها وهيئاتها ونظامها تم فى يومين من هذه الأيام الستة ، التى لا نملك تحديد مدلولها .

وأن السماء فى فترة من فترات نشأتها كانت دخانا . . ولا نملك نحن تحديد الهيئة التى كانت عليها وهى دخان . ولا نحب أن نحدد مدلول هذا النص بنظرية السديم ، التى

تقول : إن هذه الكواكب والنجوم قبل تجمعها هكذا فى كتل ، كانت سديما . فمدلول السديم ذاته غير محدد علميًا فى هذه النظرية . وليس هنالك استقرار علمى حتى اليوم على طبيعة مادة الكون الأساسية . فبعد أن تبين سذاجة التصورات الفلسفية الأولى التى كانت ترجع الكون إلى العناصر الأربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، اتجه التفكير إلى السديم الغامض ، ثم إلى الذرة ، حتى تبين أن الذرة ليست أصغر عنصر ، وأنها مركبة من إلكترونات وبروتونات ، وأن هذه حين تنطلق بتحطيم الذرة فإنها لا تسلك سلوكًا موحدًا ، فهى تارة تتصرف كما لو كانت حزمة من الأشعة ، وتارة تتصرف كما لو كانت وابلا من قذائف ! ومن يدرى غدا ماذا يتكشف وراء الإلكترونات والبروتونات ؟ كذلك قد تفيد كلمة (دخان) الحالة الغازية ، وأن السماء كانت مجرد غازات . ولكن لا يجوز تقييدها بهذا المعنى على وجه التحديد . . والذى يخلص لنا من وراء هذا كله أن هناك نشأة للسموات كانت فيها غير ما انتهت إليه .

ولكن ما السموات ؟

إن النصوص القرآنية تقول : إنها سبع سماوات طباق ، وأنها قائمة على غير عمد . وأن السماء الدنيا ـ أى القريبة من الأرض ـ مزينة بمصابيح . فما معنى هذا ؟ ما معنى السموات ؟ وما معنى أنها طباق ؟ هل معناها أنها طباق بعضها فوق بعض ، وأن منها سماء قريبة من الأرض يظهر فيها نور الكواكب ، أما الأخرى فبعيدة ، أو ليس لها جو تنتقل فيه الأشعة ، ومن ثم لا يرى أهل الأرض نورها ، كما يرون نور الكواكب الذى يخترق جو كوكبهم ويُرى فيه ؟ أو هل يعنى أنها مطابقة بعضها لبعض من ناحية التركيب والتكوين ؟ وهذا العدد (سبع) ماذا يعنى على وجه التحديد ؟ من المتعذر القطع بشىء فى هذا الشأن . وكل ما يمكن القطع به هو أن هناك سبع كائنات ، كل منها سماء ، وأن واحدة منها هى التى نراها قريبة منا . . وقد يكون الكون الذى نتصوره نحن بتقديراتنا العلمية وبكل أجهزتنا ومراصدنا ، والذى يحتوى ملايين المجرات ، كل مجرة منها تحتوى ملايين النجوم كشمسنا هذه القريبة ، وأكبر منها . . قد يكون هذا كله مجرد سماء واحدة من هذه السموات السبع ، هى السماء الدنيا . أما الأكوان الستة الأخرى فلا سبيل لنا إلى كشف شىء منها . أما أنها بغير عمد فظاهر أن النجوم والكواكب معلقة فى فضاء لا يعرف الناس سعته ، وأنها قائمة هناك بقدرة الله ، وهو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .

كذلك يقول نص من النصوص : « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن» . . فما الأرض المقصودة هنا ؟ هل هناك سبع أرضين فى كوننا هذا القريب ؟ أم إن هناك أرضا فى كل كون من الأكوان السبعة ؟ كلاهما جائز ، وغيرهما جائز كذلك . وما يزال علمنا بالكون حولنا محدودًا ـ على سعته ـ وما يزال هناك مجال لكشف شىء من أسرار هذا الكون الغامض الفسيح المجهول .

أما أرضنا هذه فتشير النصوص إلى أنها فى مرحلة من مراحل النشأة كانت هى والسماء «رتقا » ـ أى ملتصقتين ـ « ففتقناهما » ـ أى فصلناهما . . وقد سارع بعضهم فحمل هذا النص على نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس . ثم انفصلت عنها هى والكواكب التسعة الأخرى . . ولكن هذه النظرية ـ كما قلنا ـ ليست قطعية ولا نهائية ، وهناك اليوم نظريات أخرى تقابلها وترفضها ، وليست بأقل وزنًا منها فى عالم النظريات الفلكية . . فالأولى لنا والأجدر بنا أن نبعد بقرآننا عن صراع النظريات ـ التى لا تزيد على كونها مجرد فروض لمحاولة تفسير الظواهر الكونية ـ وأن نلتزم المدلول العام الإجمالى لهذا النص القطعى النهائى ، وهو أن السماء والأرض كانتا فى وقت من الأوقات ملتصقتين ، ثم فصلهما الله ـ بطريقة غير محددة لنا ـ فصار بينهما هذا المدى . . وبخاصة أن مدلول كلمة (السماء) غير محدد لنا تماما كما أسلفنا . وفى اللغة : كل ما علا رأسك فهو سماء . .

ومعنى هذا أن نشأة السموات والأرض ـ إلى أن صارتا إلى أوضاعها الحالية ـ تمت فى مراحل ، تغيرت فيها هيئاتها . . ثم ليمض البحث العلمى يحاول أن يصل إلى شىء صحيح فى حدود هذا المدلول العام الإجمالى ، فإن كل ما سيصل إليه إذن سيظل فى إطار تلك الحقيقة القطعية النهائية ولا يتعداه . وتظل الحقيقة القرآنية حاكمة لا محكومة ، ومهيمنة على كل النتائج الصحيحة التى يتاح للبحث العلمى الوصول إليها بوسائله الخاصة .

كذلك تشير تلك النصوص إلى أن نشأة الأرض بعد انفصالها قد مرت بأطوار كونية أخرى ، ونشأة السماء كذلك قد مرت بأطوار . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

« أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها . رفع سَمْكها فسوّاها . وأغْطَش ليلَها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دَحَاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعًا لكم ولأنعامكم » . .

ويفيدنا هنا هذا التحديد : « والأرض بعد ذلك دحاها . . . » فقد كان هذا بعد نشأة

السماء ، وبنائها هذا البناء الذى هى عليه ، وبعد انتظامها فى مداراتها ، وإظلام ليلها وإشراق نهارها . . فبعد ذلك دحيت الأرض ، ولفظ دحاها يحتمل أحد مدلولين : إمَّا جَعْل شكلها كالدحية ـ أى البيضة ـ وإما تمهيد سطحها لاستقبال الحياة والأحياء وبسط هذا السطح . فإن لفظ دحا يعنى هذا المدلول . وهو أقرب من المدلول الأول من حيث الدلالة اللغوية . ولا حاجة بنا للإصرار على أن المقصود هو جعلها كالبيضة ، لكى نلهث وراء كروية الأرض . كذلك فإن هذا المدلول الأخير ، فوق قوته من ناحية اللغة أقرب إلى الواقع ، لأن سطح الأرض مفرود ومفروش ومسطح : « والله جعل لكم الأرض بساطًا » ـ وإن كانت هى كروية ـ لتمكن الحياة عليه للأحياء بشكلهم الواقع !

وهناك نص آخر أصرح فى تقرير كروية الأرض ، ولا يحتاج إلى تأويل : وهو قوله تعالى: « خلق السموات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل» . . فإن الليل والنهار لا يكوّران إلا على جسم كروى ! وفى هذا النص كفاية !

والنص الأول يقرر أن الله ـ سبحانه ـ دحا الأرض ، فأخرج منها ماءها ومرعاها وقريب جدًا فى الاحتمال أن تكون هذه إشارة إلى مرحلة إعداد الأرض لاستقبال الحياة والأحياء بعد انفصالها عن السماء . وذلك بتمهيد سطحها وجوها وبتكوين الماء فيه . والماء يحتمل أن يكون قد تكوّن من اتحادغَازىَّ الأكسيجين والأيدروجين عندما كانا طليقين فى جو الأرض، وكانت الظروف المحيطة تسمح بعملية الاتحاد . وانصباب هذا الماء على سطح الأرض يكون قد كوّن هذه التربة الصالحة لإخراج النبات وكفالة الحياة . كما أنها هى فترة استقرار سطح الأرض وتكوّن الجبال والتضاريس فيه .

نقول : إن هذا محتمل . لأن هناك نصًا آخر يساعد على هذا الاحتمال . وهو قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعًا لكم ولأنعامكم » .

فإن صب الماء صبا ، وشق الأرض شقا ، غالبًا ما يشيران إلى أحداث كونية كبرى . وقد تكون هذه الأحداث قد وقعت فى فترة استقرار الأرض على شكلها النهائى ، وفترة تكون الماء من اتحاد ذينك العنصرين من عناصر هوائها ، ثم انصبابه على السطح ، وتأثيره فيه وتكوين التربة الطينية . . وإن كنا لا نحب أن نقيد مدلول النص القرآنى بفروض ونظريات وتخمينات فلكية وطبيعية . إنما هذا مجرد احتمال . ثم يبقى النص القرآنى طليقا

يدل على معناه الإجمالى العام ، وتنطلق البحوث العلمية فتصل إلى أى قرار صحيح ، فى داخل هذا الإطار .

إن معرفة البشر بهذا الكون ما تزال فى أوائلها ، وما تزال محدودة جدًا ـ على سعتها ـ ولقد كانت فرحة البشر بالخروج من نطاق الجاذبية الأرضية وعودتهم إليها أشبه شىء بفرحة الطفل الريفى ، وهو يستطيع لأول مرة مجاوزة عتبة داره والعودة إلى هذه الدار ! فأرضنا هذه لا تبلغ أن تكون هباءة سابحة فى مجرتنا ـ المسماة سكة التبانة ـ وهى تحتوى على مئات الملايين من الشموس ، منها ما هو أضعاف أضعاف شمسنا هذه الكبيرة . ووراء مجرتنا مئات الملايين من المجرات أمثالها . وهذا ما كشفته مراصدنا المحدودة بأجهزتها المحدودة . . ومن المحتمل أن يكون هذا الذى كشفناه من المجرات وما سنكشفه منها حتى النهاية كونًا واحدًا من أكوان سبعة ، أو سماء واحدة من سبع سماوات !

لذلك ينبغى ألا نسارع إلى تعليق مدلولات النصوص القرآنية بما وصل إليه علم البشر، أو ما سيصل إليه علمهم فى المستقبل . . إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه من علم البشر أن يصلوا إلى بعض الحقائق التى تتفق مع الحقائق القطعية النهائية المطلقة التى حدّث بها خالق الكون العليم الخبير .

لقد كان الخطر كل الخطر على الكنيسة فى أوربا أن التقطت النظريات والمعلومات التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، وفسرت بها الكتاب المقدس ، وجعلتها نظريات ومعلومات مقدسة ! فلما تبين خطأ تلك النظريات والمعلومات انهارت ، وانهارت معها الكنيسة والدين الكنسى والعقائد الكنسية !

والذين يحملون النصوص القرآنية اليوم ويلهثون بها وراء النظريات والمعلومات السائدة فى عصرنا ، إنما يسلكون سبيل الكنيسة فى القرون الوسطى من حيث لا يشعرون . . إنه يحدوهم حسن النية فى تقديم القرآن للناس فى ثياب عصرية ، وتدعيم حجته بالكشوف العلمية الحديثة . . ولكن هذا القرآن غنى بذاته عن صبغة البشر بصبغة الله ، غنى بحجة الله فيه عن حجج البشر . فلا يجوز تعريضه لما تعرض له دين الكنيسة فى العصور الوسطى ، بقصد تزيينه للناس وهدايتهم به :

« قل : فَلِلَّهِ الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » . . .

(الأنعام : ١٤٩)

* * *

ثم نمضى مع بقية الحقائق التى يعرضها المنهج القرآنى عن الكون ، وعلى أساسها يقوم التصور الإسلامى لحقيقة الكون .

إنه كون هالك فانٍ ، كما أنه مخلوق حادث . فهو مخلوق لأجل مسمى ، فإذا انتهى أجله هلك وذهب . . هذا هو مصيره الأخير الذى ينص عليه قول الله سبحانه :

« كل شىء هالك إلا وجهه » . .

(القصص : ٨٨)

ويشير إليه قوله : « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى» . . .

(الروم : ٨)

ولكن هناك نصوصًا أخرى تفصل شيئًا مما يقع فيه من التحولات قبل فنائه . وهى تشير إلى تغير وتبدل فى نظامه الذى يحكمه ، وفى هيئته وشكله ، وفى مادته وصورته . فهذه السماء القائمة بقوة ، المتماسكة الوثيقة ، ستنهار وتتمزق وتنحل روابطها وينطفئ نورها وتعتم . وهذه النجوم المشعة ستنطمس وتخبو . وهذه الكواكب المنيرة ستتكدر وتظلم . وهذه المدارات المتباعدة التى لا تلتقى فى الفضاء الوسيع ستتقارب وتتجاوز . وقد تكف النجوم والكواكب عن الدوران والحركة فيها . . وهذا ما تشير إليه النصوص قرب يوم القيامة وفى يوم القيامة . وكذلك ستحدث فى الأرض أحداث جسام :

« إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجّرت . وإذا القبور بعُثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » . . .

(الانفطار : ١ ـ ٥)

« إذا الشمس كوّرت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سُيّرت . وإذا العِشار عُطّلت . وإذا الوحوش حُشرت ، وإذا البحار سُجّرت . وإذا النفوس زوّجت . وإذا الموءودة سُئلت . بأى ذنب قُتِلت . وإذا الصحف نُشِرت . وإذا السماء كُشِطت . وإذا الجحيم سُعّرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت » . . .

(التكوير : ١ ـ ١٤)

« يوم تمور السماء مَوْرًا ، وتَسير الجبال سيرًا ، فويل يومئذ للمكذبين » . . .

(الطور : ٩ ـ ١١)

« يوم تكون السماء كالمُهل . وتكون الجبال كَالعِهن ، ولا يَسئل حميم حميًا » . . .

(المعارج : ٨ ـ ١٠)

« فإذا انشقت السماء فكانت وَرْدَةً كالدِّهان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » . . . .

(الرحمن : ٣٧ ـ ٤١)

« فإذا نفخ فى الصُّور نفخةٌ واحدة . وحُملت الأرضُ والجبالُ فدكّتا دَكّة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والمَلَك على أرجائها » . . . .

(الحاقة : ١٣ ـ ١٧)

« فإذا بَرِق البصر . وخَسَف القمر . وجُمع الشمسُ والقمرُ . يقول الإنسان يومئذ : أين المفر » . . . .

(القيامة : ٧ ـ ١٠)

« يوم نطوى السماء كَطَى السِّجِلِّ للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وَعْدا علينا إنا كنا فاعلين » . . . .

(الأنبياء : ١٠٤)

« إذا رُجّت الأرضُ رجًا . وبُسّت الجبال بسًا . فكانت هباء مُنبَثًّا » . . .

(الواقعة : ٤ ـ ٦)

فهذه أحداث كونية يضطرب فيها كل هذا المعهود من نظام الكون ، ومن هيئته وطبيعته ، ودورته ، حينما يجرى بذلك كله قدر الله . وهى تقطع بأن نظام هذا الكون لا يمضى وفق حتميات آلية ، إنما يمضى وفق سنن تجرى بمشيئة الله ، وتتحقق بقدره ، فإذا شاء أن تتبدل هذه السنن ، وأن يتغير هذا النظام جرى قَدَرُه بما شاء ، وكانت هذه الأحداث الضخام التى ربما تكون هى مدلول نص آخر :

« يومَ تُبدّل الأرضُ غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتَغشى وجوههم النار » . . . .

(إبراهيم : ٤٨ ـ ٥٠)

كما أن مدلول هذا النص قد يكون شيئًا آخر ، فقد يكون إشارة إلى نشأة كون آخر غير

هذا الكون بعد هلاكه وفنائه . فإننا - نحن البشر - لا ندرى ماذا سيكون بعد فناء هذا الكون الحاضر ! وبخاصة حين نستصحب النصوص التى تقرر أن الجنة التى ستكون مصير الطيبين الخيرين المؤمنين العاملين المتقين ، عرضها كعرض السماء والأرض ، فهى قطعًا كائنة فى غير السموات والأرض من ملك الله الذى لا يحيط به البشر . وكذلك جهنم التى لا تمتلئ أبدا مهما ألقى فيها من الناس والجن والحجارة :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . . . .

(الحديد : ٢١)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين» . . . .

(ال عمران : ١٣٣)

« يا أيها الذين امنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة » . . . .

(التحريم : ٦)

« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » . . . .

(الصافات : ٢٢-٢٣)

« فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون » . . . .

(الشعراء : ٩٤-٩٥)

« قال فالحق ، والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تَبِعك منهم أجمعين » . . . .

(ص : ٨٤-٨٥)

« يوم نقول لجهنم : هل امتلأت وتقول هل من مزيد » . . . .

(ق : ٣٠)

أما أين هى الجنة ؟ وأين هى النار ؟ فهذه وتلك من الأكوان المغيبة فى عالم الغيب . والله وحده هو عالم الغيب والشهادة . ولكن تصور المسلم للكون يتسع فيدرك أن هناك عوالم مغيبة غير عالم الشهادة ، وغير هذا الكون الذى يشهد وجوده ، وإن كان لم يشهد منه حتى اليوم إلا زاوية صغيرة محدودة !

* * *

وهو كون مقدر مدبر ، ومسخر مسير . . إن كل شيء فيه مخلوق بمقدار . وكل شيء مخلوق بحكمة ، ومخلوق لغاية . وإن كل شيء فيه محسوب بحساب ليؤدى وظيفته ، ويحقق الغاية من خلقه . كذلك كل حركة فيه محسوبة بحساب دقيق ، وموزونة بميزان لا يخطئ . كذلك هو مسخر مسير بأمر الله فى الكبيرة والصغيرة . وكل حركة فيه موجهة ومتحققة بقدر من الله خاص ، لحكمة خاصة ، وغاية معلومة . . إنه لم ينشأ عبثا ، ولم يترك سدى ، وهو لا يخضع فى حركاته وظواهره لحتمية آلية ، ولكنه يخضع لمشيئة وقدر . . والظواهر الكونية ـ ولو أنها ناشئة من طبيعة تركيب هذا الكون ـ إلا أنها هى الأخرى مدبرة مقدرة ، ومسيرة مسخرة ، تتحقق بقدر الله ، وتتوجه وفق مشيئته . . والنصوص التى تتضمن هذه الحقائق كثيرة ومتنوعة ، منها المجمل ومنها المفصل ، وهى تتناول كل مفردات هذه الحقائق فى صور شتى . . نذكر منها :

« وخلق كل شيء فقدره تقديرًا » . . .

(الفرقان : ٢)

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » . . .

(القمر : ٤٩)

« وكل شيء عنده بمقدار » . . .

(الرعد : ٨)

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » . . .

(الحجر : ٢١)

« الشمس والقمر بحسبان » . . .

(الرحمن : ٥)

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . . .

(يس : ٣٨ـ ٤٠)

والظواهر الكونية من ليل ونهار ، ورعد وبرق ، وسحاب ومطر ، وريح وصاعقة ، هى كذلك مقدرة مدبرة ، ومسيرة مسخرة ، تنشأ لغايـة ، وتتجه لوجهة ، وتؤمر فتؤدى ما أمرت به :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون » . . .

(يس : ٣٧)

« هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . . .

(يونس : ٦٧)

« هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال » . . .

(الرعد : ١٢)

« والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها » . . .

(فاطر : ٩)

« ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . . .

(النور : ٤٣ ـ ٤٤)

« إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » . . .

(القمر : ١٩ ـ ٢٠)

« فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها » . . .

(الأحقاف : ٢٤ ـ ٢٥)

« ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » . . .

(الرعد : ١٣)

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا » . . .

(الفرقان : ٤٥)

ولا مجافاة بين أن تكون تلك الظواهر الكونية ناشئة من طبيعة تركيب الكون ، وطبيعة حركته ، وبين أن يكون نشوءها وتوجهها بمشيئة الله وقدره ، وأن تكون موجهة تؤدى

غايات عامة ، أو خاصة . فالتقدير الإلّهى شامل وغير مقيد بزمان . فالكون وظواهره والغايات التى يؤديها بوجوده وحركته ، والتى تؤديها ظواهره عامة وخاصة . . كلها تقدر معًا بعلم الله الذى لا يتجزأ ، وفى تقديره الذى لا يتجزأ كذلك .

والمصطلحات : « قبل » و « بعد » و «الان » . . أو « الماضى » و « المستقبل » و«الحاضر » إنما هى مصطلحات بشرية ، تعبر عن تصورات بشرية ، محكومة بطبيعة الإنسان ، وموقعه من الكون ، ورؤيته المحدودة بحكم طبيعته وحكم موقعه واحتجاب الأشياء والانات عنه . أما بالقياس إلى الله سبحانه فلا وجود لها . فلا زمان ولا مكان بالقياس إليه ـ سبحانه ـ ومن ثم فلا حجاب ولا حجاز بين الأشياء والوقائع ، ولا فواصل بين خلق الشىء وأدائه لوظيفته ، ولا بين ما ينشأ عن طبيعة تكوينه وما يؤديه من غاية مقصودة من حركته فى اتجاهه .

وحين نستحضر هذه الحقيقة تتلاشى فى حسنا كل علامات الاستفهام المصطنعة ، وتزول كل الاعتراضات الموهومة . فلا نسأل : إذا كان الليل والنهار ناشئين نشوءا طبيعيًا عن طبيعة شكل الأرض ودورتها اليومية حول الشمس ، فكيف يكون تداولها هكذا متحققًا بقدر من الله خاص ؟ ثم كيف تكون هناك غاية محدودة وراء هذه القدر ؟! . . إذا كانت الريح إنما تهب وفق عوامل فلكية وطبيعة فى تكوين الأرض وطبيعة جوها وطبيعة دورتها ، فكيف يكون هبوبها بقدر من الله خاص ؟ ثم كيف توجه إلى قوم وتصرف عن قوم . . وكذلك سائر الظواهر . . إن هذه الأسئلة والاعتراضات كلها تتذاوب وتتلاشى إذا نحن استحضرنا تلك الحقيقة : حقيقة شمول التقدير الإلّهى وعدم تقيده بزمان أو مكان ، ومن ثم عدم تجزئه . . لقد قدر الله أن ريحا عقيما تهب فتصيب قوم هود عندما قدّر خلق السموات والأرض بهذه الطبيعة وبهذا التركيب ، وعندما قدر أن لا تعارض هذه الطبيعة وهذا التركيب هبوب تلك الريح وهبوب غيرها من أنواع الرياح المحملة بالماء المحيى ، الذى يساق إلى بلد ميت . . وهكذا . . فلا تعارض ولا تناقض ولا تصادم فى التصور الإسلامى الصحيح الواضح المريح ! « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » . . .

(الحديد : ٢٢)

ونعود إلى دقة التقدير والحساب فى خلق هذا الكون ، وفى ضبط حركته ، وفى تناسقه وتناسق حركته . . هذه الدقة التى لاحظ البشر جوانب منها منذ أقدم العصور ،

ولا يزالون يتعرفون على بعض جوانبها كلما ترقت عقولهم ، وترقت وسائلهم فى الرصد والتسجيل . .

لقد لاحظ الأقدمون ثبات الدورة الشمسية والدورة القمرية ، وحسبوا على أساسها السنة الشمسية والسنة القمرية ـ على خلاف بينهما ـ والخطأ الذى وقعوا فيه وصححوه لم يكن خطأ فى الدورات الفلكية ، إنما كان خطأ فى حساب البشر ، ثم تداركه البشر !

كذلك اهتدى الناس منذ القدم فى أسفارهم فى البحر وفى البر بالنجوم ، ومواقعها ودوراتها . . وكان ذلك كله قبل أن يعرفوا شيئًا حقيقيًا عن طبيعة النجوم والكواكب ، ومداراتها وأفلاكها . . فالملاحظة وحدها كانت كافية لإدراك مدى الانتظام والدقة . . والانتفاع بها فى حساب الزرع والسفر وغيره مما يحتاج إلى حساب دقيق مضبوط . . إن توازن كتل الأجرام السماوية فى مواقعها قد مكن من كشف موقع الكوكب « أورانوس » والكوكب « نبتون » قبل رؤيتهما . فقد قدر الفلكى الذى كشف عن « أورانوس » عن طريق الحساب وحده ، أن التوازن بين الأجرام والجاذبية بين كواكب المجموعة الشمسية يقتضى أن يكون هناك كوكب فى موقع « أورانوس » وصح حدسه ـ أو حسابه ـ حين رصده فى الموقع الذى قدر أن التوازن يقتضيه فوجده هناك فعلاً ! ولكن بعد تقدير حجمه وكتلته وجاذبيته رئى أنه لابد أن يكون هناك كوكب اخر لم يكشف فى موقع محدد . فلما رصد ظهر « نبتون » كذلك بنفس الطريقة !

إن حجم الأرض وكتلتها وميلها على محورها وموقعها من الشمس ومن القمر ، وانتظام دورتها حول نفسها وحول الشمس ودورة القمر حولها . . . إن هذا كله محسوب حسابا دقيقًا لصلاحيتها للحياة ! وتداول الليل والنهار وتداول الفصول بالقدر المطلوب للحياة عليها ، وتوازن الحرارة والبرودة فيها بالقدر المطلوب .

إن مساحة المحيطات الملحة ، ومساحة الأرض اليابسة . محسوبة بدقة لحفظ جو الأرض غير آسن ، وغير جاف ، بحيث تصلح للحياة وتظل صالحة لها !

إن توزيع عناصر الجو بين النتروجين (الأزوت) بمقدار ٧٨٪ ، والأكسجين بمقدار ٢١٪ ، والغازات الأخرى الصغيرة ، وثبات حجم الأكسجين ، على الرغم من استهلاك الأحياء له ، وذلك عن طريق النبات الذى يفصل الأكسجين عن الكربون من ثانى أكسيد الكربون الناشئ من الاحتراق فى الأحياء ، فيتغذى بالكربون ويطرد الأكسجين . .

إن هذا كله محسوب حسابا دقيقًا لا يخطئ . فهذه النسبة من الأكسجين هى اللازمة بالضبط لحفظ هذا النوع من الحياة !

إن احتواء جو الأرض على الأزوت هو الذى يكفل للنبات غذاءه ، ويكفل بالتالى للأحياء على الأرض قوتهم حيث يذوب جزء منه بالبرق وينزل مع المطر ، فيغذى التربة . . إن أقوات الأحياء مكفولة : « وقدر فيها أقواتها » وحينما تنبأ « مالتوس » بعجز الأرض عن كفالة الأحياء المتزايدة ، وهداه تفكيره البشرى العاجز إلى ضرورة الحد من النسل البشرى ، وقتل الشيوخ والعجزة والمرضى ! قدر الله أن يكشف للإنسان عن الطرق الصناعية لاستنزال النتروجين من الجو ، وصناعة « السماد » لزيادة غلات الأرض . وتم هذا الكشف فى نفس التاريخ الذى تنبأ فيه « مالتوس » بعدم كفاية الأقوات وبالمجاعة وبقتل ملايين الأبرياء ! . . وإذا كانت هناك مجاعات فى بعض البلاد فليس هذا نتيجة لعجز الأرض عن كفالتهم ، ونقص أقواتها عنهم ، إنما ذلك نتيجة سوء التوزيع ، ونتيجة الأنظمة الأرضية النابعة من الهوى البشرى لا من هداية الله . فهناك فائض فى الغلات فى جهات أخرى لا يدرى أصحابه أين يذهبون به ! حتى لقد بلغ بهم السفه أن يحرقوا البن فى البرازيل مثلاً محافظة على مستوى أسعاره ! إننا نشكو فى مصر عدم كفاية الغلة للنسل المتزايد ، بينما أقرب البلاد إلينا ـ السودان ـ فى حاجة على الأقل إلى عشرين مليونًا من البشر فوق سكانه ؛ ليستغلوا خاماته ، وليزرعوا المساحات الشاسعة فيه ، بعد إقامة بضعة مشروعات مائية ! إن الثمار المتساقطة من الأشجار فى شوارع المدن فى الولايات المتحدة تكوّن بركة صغيرة حول كل شجرة من الثمار المتعفنة كانت تسقط فيها أرجلنا إلى الركبة ، وهى مغطاة بأوراق الأشجار ! بينما ملايين البشر فى بقاع أخرى من الأرض يتشهون ثمرة واحدة من هذه الثمار التى لا تجد من يلتقطها ! . . كلا ! إن الأرض لم تعجز عن كفالة أبنائها ، ولكنه سوء التوزيع والهوى البشرى الذى يحكم ، لا الهدى الإلهى !

لو كانت الشمس أكبر حجمًا مما هى ، أو أشد حرارة ، أو أقرب إلى الأرض ، لاحترق كل ما على وجه الأرض ، ولتعذرت الحياة عليها . وكذلك لو كانت أصغر ، أو أقل حرارة ، أو أبعد مما هى لبردت الأرض وتعذرت الحياة أيضًا !

لو كانت دورة الأرض حول نفسها ، أو حول الشمس ، أسرع أو أبطأ . . لحدث هذا أو ذلك كذلك !

لو كان القمر أقرب إلى الأرض ، أو أكبر حجماً مما هو ، لارتفع المد الذى يحدثه فى مياه المحيطات ، بحيث يغمر اليابسة كل يوم مرتين .

وهكذا آلاف الموافقات فى تصميم الكون ، وفى حركة أجرامه . لا نملك هنا استعراضها أما الموافقات والموازنات فى الحياة ، وبين الأحياء على الأرض ، فندع الحديث عنها إلى فصل : « حقيقة الحياة » . . وكل تلك الموافقات والموازنات تشهد بدقة الصنعة وكمالها وتناسقها ، كما تشهد باليد المبدعة التى أبدعت هذا الكون وأودعته سننه هذه وقوانينه . . تشهد بالتدبير والتقدير ، كما تشهد بالتسخير والتسيير . وتنفى خرافة المصادفة ، وخرافة التلقائية ، كما تنفى الحتمية الآلية سواء . . إن هناك قصدًا وغاية ، كما أن هناك قدرًا ومشيئة . .

وهو كون جميل باهر ، لا يقف التناسق والتوافق فيه عند حدود الدقة والانتظام والضبط ، ولكن التوافق والتناسق فيه يتجهان إلى الكمال والجمال والحسن والزينة . . والمنهج القرآنى يوجه أنظار البشر ومشاعرهم إلى ما فى الكون حولهم من هذه البدائع ، إلى جانب ما يوجههم إلى إدراك ما فيه من خير ونعمة ومصلحة وكفاية لحاجاتهم .

إن عنصر الجمال مقصود قصدًا فى بناء الكون ، وفى ظواهره ، وفى الحياة المبثوثة فيه ، وإيقاظ حاسة الجمال فى البشر مقصود كذلك قصدًا فى المنهج القرآنى ، وفى التربية الإسلامية بهذا المنهج . . إن هذا الإنسان مخلوق فائق على الحيوان ، فمطالبه الأساسية ليست هى مجرد الكفاية الحيوانية من الطعام والشراب والجنس ـ كما تقول الماركسية ! ـ فمن مطالبه الأساسية كذلك أن يستمتع بالجمال فى شتى صوره . جمال المناظر وجمال المشاعر . من أجل هذا تتكفل عقيدته الصحيحة الرفيعة فى الإسلام ، أن توقظ مشاعره إلى الجمال فى الكون وفى الحياة المبثوثة فيه ، وإلى بدائع صنع الله فى الكون والحياة . فالله ـ سبحانه ـ جعل الجمال عنصرا من عناصر بناء الكون والحياة ، والكمال فى صنعته الباهرة يحقق هذا الجمال . .

إن المنهج القرآنى يوجه أنظار البشر إلى « المنفعة » الحاصلة لهم من خلقة هذا الكون وطبيعته ، وإلى دلالة هذا الخلق على خالقه . . يقول لهم :

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الايات لقوم يعلمون » . . .

(يونس : ٥)

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . . .

(الأنعام : ٩٧)

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» . . .

(القصص : ٧٣)

« وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا ، وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدىْ رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورًا ، لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسى كثيرًا » . . .

(الفرقان : ٤٧ ـ ٤٩)

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم مِن قبله لمبلسين . فانظر إلى اثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير » . . .

(الروم : ٤٨ ـ ٥٠)

وإلى هنا فالتوجيه هو إلى المنفعة والمصلحة فى حدود الحاجة والضرورة . . ولكن المنهج القرآنى يتجاوز بالإنسان حدود المنفعة والضرورة ، فيوجه نظره ومشاعره إلى الكمال والجمال والتناسق والتوافق والحسن والزينة ، والمنظر والبهجة . . هذه اللفتات التى يتميز بها الإنسان على الحيوان ، ويرتفع ويترقى ، ويرفرف وينطلق . . يقول له :

« الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًاوهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجومًا للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير» . . .

(الملك : ٣ ـ ٥)

فيوجه نظره إلى ما فى بناء الكون كله من توافق وتناسق وكمال وجمال وزينة تبلغ ذلك الحد الباهر ، الذى يرجع البصر منه حسيرًا ، لا يجد نقصًا ولا يجد ثغرة ، ولا يملك التطلع إلى شىء وراءه . بل لا يملك استيعابه . . وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة ،

فالجمال الكونى حين يتطلع الإنسان إلى السماء ، يبهر النظر الإنسانى بحيث لا يشبع منه، وبحيث لا يستوعبه حسه كذلك إنها حالة العجز عن استيعاب كل هذا الجمال الفائض الباهر!

كذلك يوجه الحس الإنسانى إلى جمال الحركة اللطيف فى بعض مشاهد الكون :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . . .

(الفرقان : ٤٥ ـ ٤٦)

وجمال الظلال ، وجمال الحركة الوئيدة للظل ، لون فائق من ألوان الجمال اللطيفة ، لايدركه إلا الحس المرهف اللطيف . وإلى هذا المستوى المرفرف يتجه المنهج القرآنى بالحس الإنسانى فى تصوره لحقيقة الكون من حوله .

كما يوجهه إلى مشهد الليل ، ومشهد النهار ، بمثل هذه اللمسة المبدعة :

« والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » . . .

(التكوير : ١٧ ـ ١٨)

« والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسْرِ » . . .

(الفجر : ١ ـ ٤)

فإذا الليل والصبح كائنان تدب فيهما الحياة : الليل يعسعس ـ أو يسرى ـ والصبح يتنفس .

ويريه النجوم وهى تغيب وتتوارى . كما لو كانت عرائس أو غزلانا تخنس وتختبئ فى كناسها :

« فلا أقسم بالخنس . الجوارى الكنَّس » . . .

(التكوير : ١٥ ـ ١٦)

وهى لمسات جمآلية يعجز البيان البشرى أن يزيدها عرضا ،أو إيقاعًا . . ويهدف المنهج القرآنى إلى رفع الإنسان إليها. وإطلاق مشاعره تجاهها ، وهو يحدثه عن «حقيقةالكون » من حوله ، ليتملى ما فيه من جمال ، إلى جانب ما فيه من منفعة له ومصلحة ، وإلى جانب ما فيه من ضبط ودقة .

ويوجهه إلى تنوع الألوان وجمال هذا التنوع ، وتوزعه بين الجوامد والأحياء سواء :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال

جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور » . . .

(فاطر : ٢٧ ـ ٢٨)

وهى لفتة موحية إلى جمال الألوان وتنوعها وتوزعها بين الجوامد والأحياء سواء .

وبالمثل يوجهه إلى الجمال فى الأحياء ـ إلى جانب المنفعة المادية وزائدًا على المنفعة المادية ـ لتلبية الحاجة الإنسانية إلى الجمال ، ولإيقاظ مشاعره ، وإطلاقها من قيد الضرورة والحاجة فى اتجاه الجمال والمتعة . .

يحدثه عن الجمال فى الحيوان إلى جانب المنفعة :

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لاتعلمون » . . .

(النحل : ٥ ـ ٨)

ويحدثه عن الجمال فى الزروع والثمار :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خَضِرًا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . . . .

(الأنعام : ٩٩)

فالتوجيه هنا إلى النظر والاستمتاع بجمال الثمار وازدهائها وينعها ، لا إلى طعومها ولا إلى أكلها ! كما يوجههم إلى تملى بهجتها فى قوله :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . . .

(ق : ٧)

ثم يحدث البشر عن الأكوان المغيبة . . عن الجنة التى يعد المتقين بها ، ويرغب البشر فيها فيحدثهم عن الجمال الفائق الرائق فيها بكل أنواعه وألوانه ، إلى جانب المتاع الحسى فيها . فهذا وذلك كلاهما « حاجة » و « مطلب أساسى » بالقياس إلى الإنسان فى الحياتين على السواء :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها

تفجيرًا ، يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مستطيرا . ويطعمون الطعام ـ على حبه مسكنا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا . إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلاً . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلاً . عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا . وإذا رأيت ـ ثم ـ رأيت نعيماً وملكًا كبيرًا . عاليهم ثيابُ سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شرابا طهورًا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا » . . .

(الإنسان : ٥ ـ ٢٢)

« وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة» . . .

(الغاشية : ٨ ـ ١٦)

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » . . .

(القيامة : ٢٢ ـ ٢٣)

« والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الاخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاءً بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا : سلاما سلامًا » . . .

(الواقعة : ١٠ ـ ٢٦)

« ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذّبان ، فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان . فبأى الآء ربكما تكذبان ؟ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء

ربكما تكذبان ؟ كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . . .

(الرحمن : ٤٦ ـ ٦٠)

وهكذا تجتمع كل صنوف الجمال وألوانه فى ذلك الكون المغيب ، حيث يضاف إلى جمال المناظر ، جمال المشاعر فى أعلى مستوى يعز على الخيال البشرى أن يتمناه !

إنه كون جميل ذلك الكون الظاهر المشهود . وكون أجمل ذلك الكون المغيب الموعود ، وكلاهما يتسع له تصور المسلم للكون ، كما يصفه خالق هذا الكون ، الذى جمله وزينه ، لأنه هو ـ سبحانه ـ يحب الجمال ، ويجعله عنصرًا أساسيًا فى الخلق ، يرفع الإنسان إلى مستوى تأمله وتمليه ، ويوقظ فطرته ومشاعره إلى مجاليه ، كما يوقظها لتدبر الدقة والنظام والتوافق والتناسق سواء .

* * *

ثم هو كون صديق للحياة والأحياء ، مأنوس للإنسان بوجه خاص . . إنه ليس عدوا للحياة . كما يقول بعض العلماء الطبيعيين . إن الحياة لم تنشأ فى الأرض فلتة عابرة ليس لها من سند فى نظام الكون ! وإلا فكيف نشأت فى كون معاد ، والكون أكبر منها وأقوى . . وبخاصة أنهم يفترضون أن ليس وراء الكون ووراء الحياة إله ، ولا إرادة إلهية أنشأت الكون وأنشأت الحياة ! إن نشأة الحياة فى هذا الكون تكذب هذا الزعم ، كما تكذب أن الكون عدو للحياة .

كلا ! إنه كون صديق مأنوس ، أعده خالقه لاستقبال الحياة وحضانتها وكفالتها وإقاتتها وسخره لهذا كله ، وأمره فأطاع ! والنصوص القرآنية التى تصور هذه الحقيقة كثيرة ومتنوعة ، ودالة على أن هذا الكون بتصميمه الأولى ، وبظواهره الكونية مستعد لاستقبال الحياة ولكفالة الأحياء . . نختار منها بعضها :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادًا ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين » .

(فصلت : ٩ ـ ١١)

فأقوات الأرض مقدرة فيها منذ خلقها ، وفيها الكفاية ـ كما أسلفنا فى فقرة سابقة ـ وهى أقوات مدخرة فى تربتها الغنية العجيبة التى ننسى لطول الألفة مدى مافيها من

عجب . . إن هذه التربة تنبت باستمرار . . وعلى مدار العام . . وما إن تبذر فيها البذور، أو تغرس فيها الأغراس ، وينالها الماء حتى تنبت وتعطى . ولا تكف عن الإنبات والعطاء! وحين يتأمل الإنسان قطعة صغيرة من الأرض ، فلا يجد إلا كمية من التراب ، ثم يجد هذا التراب ماينى ينبت ، كلما طلب منه الإنبات . . إنها عجيبة تذهب الألفة بجدتها وطرافتها . فأى شيء من صنع غير الله يمكن أن يعطى هذا العطاء ، ولايكف عن العطاء ؟

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير » . . . .

(الحج : ٥ ـ ٦)

حقا . . ذلك يكون بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وإلا فما يمكن أن تكون هذه العجيبة إلا وهذا هو شأن الله .

وأقوات الأرض مدخرة فى جوها . ففيه الاكسجين اللازم للحياة كى تتنفس وتعيش ، وفيه النتروجين الذى يذوب جزء منه مع الماء الهاطل من السماء ـ وكل ماعلا الرأس فهو سماء ـ وهو المادة الأساسية لغذاء النبات ، وفيه ثانى أكسيد الكربون الذى تنتجه الأحياء، فيفصل النبات منه عنصر الكربون ليكون منه قوامه ، ويرد الأكسجين للأحياء المتكافلة بإذن الله .

وأقوات الأرض مدخرة فى جوفها : معادنها وبترولها وفحمها وغازها ومياهها الجوفية ، وما يزال البشر عيالا على هذه المدخرات يكشفون منها كل يوم جديدا .

إن الأرض بمدخراتها تقوت أبناءها بإذن الله . .

وليس الكون عدوا لهذه الحياة التى تكفلها الأرض بإذن الله ، وهو لا يطارد هذه الحياة إنما يمدها ـ بتسخير الله له ـ بكل ما يمد فى عمرها ويقويها . .

إن الشمس تمد هذه الحياة بالنور والحرارة بالقدر المطلوب بالضبط بلا زيادة ولا نقصان. ودورة الأرض حول نفسها وحول الشمس ينشأ عنها الليل والنهار ، وتنشأ عنها الفصول . وكل منها موافق للحياة . ولو كان أحدها سرمدا لهلكت الحياة ! كما أن ميلها على محورها بهذا القدر تنشأ عنه المناطق المختلفة الحرارة لتصلح لإنبات جميع أنواع النبات ولحياة جميع أنواع الأحياء . . والقمر كذلك له دوره . .

ومن ثم تشير النصوص القرآنية تلك الإشارات المتكررة الكثيرة المتنوعة إلى إعداد

الأرض وإلى تسخير الشمس والقمر والنجوم والظواهر الكونية كلها لإعانة الحياة والأحياء، والبشر قمة الأحياء :

« ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا » . . .

(النبأ : ٦ـ١٦)

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا »

(نوح : ١٥ـ٢٠)

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . . .

(الجاثية : ١٢ـ١٣)

« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . . .

(إبراهيم : ٣٢ـ٣٤)

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارًا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . . .

(النحل : ١٠ـ١٦)

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» . . .

(الملك : ١٥)

« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» . . .

(طه : ٥٣ـ٥٤)

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون » . . .

(الأعراف : ١٠)

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » . . .

(الحجر : ١٩ـ٢٠)

وهكذا يجد المسلم نفسه مع كون صديق مساعد ، أليف ، خلقه الذى خلقه ، ويسر له مايكفله ويقوته ويعينه . . وليس هذا فحسب ، بل إن بينه وبينه لحمة قرابة ونسب عريق ! إن الأرض كانت رتقا مع السماء . ومن الأرض نشأ هو وإليها يعود ! فهو مع الأرض مع الكون كله ذو نسب عريق ، وهناك وحدة فى أصل الخلق ، ووحدة فى نظام الخلق ، تزيد هذا النسب عراقة :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يبصرون » . . .

(الأنبياء : ٣٠)

« منها خلقناكم . وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » . . . (طه : ٥٥)

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير» . . .

(النور : ٤٥)

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . . .

(الذاريات : ٤٩)

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . . .

(يس : ٣٦)

إنه من شأن كل هذه الحقائق أن توحى إلى قلب المؤمن بالاطمئنان إلى هذا الكون الذى يعيش فيه ، وبالسلام معه ومع الأحياء ، فلا يجيش فيه القلق لشيء من الظواهر الكونية ، كما كانت الوثنية توحى إلى أهلها فى الجاهليات الأولى ، ولا يجيش فى نفسه الصراع مع الكون كما اندس فى حس ورثة هذه الوثنيات ، بحيث يعد كل كشف لقانون من قوانين الكون ، وكل تسخير لطاقة من طاقاته المذخورة « انتصارًا على الطبيعة » . كما يعبر ورثة الوثنية الإغريقية والرومانية فى أوربا وأمريكا ! فيلتقط المسلمون المهزومون هذا التعبير الذى تكمن وراءه تلك الرواسب الوثنية ، ويصبح اصطلاحا عندهم ، كما هو عند ورثة تلك الوثنيات ، التى كانت أساطيرها تصور البشر فى صراع دائم مع الآلهة ! وتصور الالهة فى صراع دائم بعضها مع بعض ، وكلها مع البشر ! وترمز لهذه الالهة بأجرام كونية أو بظواهر، أو تجعل كل إله موكلا بنجم أو كوكب أو ظاهرة من الظواهر الكونية الكثيرة !

إن الشعور بالسلام بين الكون وظواهره ، وبين الحياة والأحياء ، مسألة ذات قيمة شعورية كبيرة ، وذات أثر فى حياة الإنسان الواقعية كذلك . . إن الإنسان يستطيع - مع هذا الشعور - أن يمضى فى طريقه مطمئنًا ، يحاول كشف سنن هذا الكون بروح من يتعرف إلى هذا الكون لا من يتصارع معه ! وكلما كشف سنة من سننه جعلها للخير واتجه بها إليه، لأن كشفها لم يجئ نتيجة معركة ، إنما جاء نتيجة صداقة ! ولأنها من صنع الله الذى يدعوه إلى الخير والبر ، وينهاه عن الشر والفُجر .

إن السلام الروحى ضرورى للإنسان . وأولى مراحل السلام الروحى وأكبرها ، هى السلام مع الكون الذى يعيش فيه ، والتعامل معه ومع كل شيء فيه بروح الصداقة والود والقرابة . . لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب هذا الكون كله ، ويتعامل معه بروح المودة الصافية . . كان يرى الهلال فيستقبله بفرح وهو يقول : « ربى وربك الله». وكان يستقبل قطرات المطر بفرح ، ويقول : إنها قريبة عهد بالله . وكذلك كان يستقبل كل مولود ولد ، ويقول عن الوليد : « قريب عهد بالله » . . واستعدت روحه لتلقى الوحى بالأيام ذوات العدد التى كان يتحنث فيها فى غار حراء . . فى الجبل . .

حيث الفضاء والسماء والنجوم والكواكب ، والليل والنهار والإصباح والإمساء ، والأصائل والأسحار . . ولا شيء إلا هذا الكون الصامت ، الناطق فى صمته لذوى الأرواح ! بذلك كان يقول عن أُحُد وهو يدلله تدليل الصديق : « هذا جُبيل يحبنا ونحبه » فيخلع عليه الحياة ، ويشعر بالحب منه كما يشعر بالحب له : « يحبنا ونحبه » . وهذا هو الشعور الإسلامى الصحيح اللطيف الجميل لهذا الكون وما فيه . وهو لا ينشأ فى القلب إلا بالمعرفة الصحيحة لحقيقة الكون كما يعرضها المنهج القرآنى المتفرد الجميل .

* * *

وأخيرا فهو كون مسلم طائع لربه ، ومؤمن عابد لمولاه . . إنه كون ذو روح تعرف ربها الحق ، فتستسلم له طائعة ، وتسجد له خاشعة ، وتسبح له عابدة ، وتغار على جلاله ، وتنتفض لمهابته ، وتغضب للشرك به من بعض البشر والجهال ! . . وهذا ما تقرره النصوص الكثيرة المتنوعة فى القرآن :

« . . . ثم استوى إلى السماء ـ وهى دخان ـ فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين » . . .

(فصلت : ١١)

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال ، والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » . . .

(الحج : ١٨)

« أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات والأرض من دابة والملائكة ، وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » . . .

(النحل : ٤٨ ـ ٥٠)

« ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » . .

(الرعد : ١٥)

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنه كان حليماً غفوراً » . . . . .

(الإسراء : ٤٤)

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ، والطير صافآت ، كلٌّ قد عَلِم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » . .

(النور : ٤١)

« ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » . . .

(الرعد : ١٣)

« يسبح لله ما فى السموات والأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير» . .

(التغابن : ١)

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . . .

(الروم : ١٧ ـ ١٨)

« فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب » . . .

(ص : ٣٦)

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورةً كُلٌّ له أوّاب » . .

(ص : ١٨ ـ ١٩)

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئًا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا » . . . .

(مريم : ٨٨ ـ ٩٥)

« تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » . . .

(الشورى : ٥)

فأما الاستسلام والطاعة فإن أثرهما ظاهر واضح فى قيام هذا الكون كله بأمر الله ، لا يخرج عن السنن والقوانين التى أودعها إياه ، ولايني ولا يتخلف ولا يحيد لحظة واحدة عن التحرك وفقها ، كما هو مشهود ومعلوم من انتظام حركته ودقتها الفائقة . . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق

النهار . يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا . والله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا . والريح العقيم تدمر كل شىء بأمر ربها والاستسلام والطاعة ظاهران فى كل حركة وكل ظاهرة .

إن الشمس وهى تجرى ـ ومعها كواكبها وتوابع هذه الكواكب ـ إلى جهة الغرب فى اتجاه نجم هرقل ـ أو الجبار ـ بسرعة مذهلة مخيفة ، لو تصورها الإنسان ! على عكس ما كان الفلكيون يتصورونها ثابتة إلى عهد قريب . . إن الشمس مثلاً لم تقل لنفسها ولتوابعها : لقد جربنا كثيراً فى هذا الاتجاه فلنجرب الجرى فى الاتجاه الاخر ! أو فلنكف لحظة عن هذا المشوار ! . . إنها تجرى وستظل تجرى فى هذا الاتجاه حتى يأمرها ربها بالكف والاستقرار .

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » . . . .

(يس : ٣٨)

إن الأرض مثلاً لا تقول لنفسها ولتابعها القمر : لقد درنا طويلاً حول الشمس وحول نفسنا . فلنكف هذه السنة ، أو هذه الليلة ، أو هذه اللحظة عن الدوران !

« يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » . . . .

(الأعراف : ٥٤)

إن القمر مثلاً يواجه الشمس بوجه واحد ، فيبقى نصفه فى نهار دائم . ونصفه فى ليل دائم . . إنه لم يقل لنفسه ذات يوم : فلأ واجه الشمس بوجهى الآخر لحظة من نهار !

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . . . .

(يس : ٣٩)

وكذلك كل نجم ، وكل كوكب ، وكل تابع . . . وكل شىء فى هذا الكون الذى لا يعلم سعته ولا مداه إلا الله . .

الإنسان وحده هو الذى منحه الله حرية الاختيار فى شطر من حياته . . شطر واحد ، أما الشطر الاخر فهو مسير فيه مسخر كبقية ما فى الكون من أجرام وظواهر وحركات . .

إنه يجىء إلى هذه الحياة على غير إرادة ولا اختيار . وكذلك يغادر هذه الحياة على غير إرادة منه ولا اختيار !

إن قلبه ينبض بدون إرادة منه . إن دمه يجرى فى عروقه بدون اختياره . إن رئتيه تتحركان دون استشارته . إن معدته تشبع وتجوع وتهضم الطعام بدون إذنه . إن كبده وطحاله وكليتيه تؤدى عملها بدون أمره . إن أمعاءه تمثل الطعام وتمتص عصاراته ثم تطرد الفضلات على غير اختيار منه ولا إرادة . إن عقله ذاته لا يكف عن العمل أراد هو أم لم

يرد . . إن كل أجهزته الأساسية مسخرة مسيرة تتبع إرادة غير إرادته ، ولا إرادة له فيها ولا اختيار . إن آلاف العمليات الكيماوية والميكانيكية تتم فى داخل كيانه بدون قصد منه وبدون تدخل وبدون إرادة . .

ولكن الله منحه حرية اختيار الإيمان أو الكفر ، والهدى ، أو الضلال ، واتباع شريعة الله أو اتباع هواه ، والصلاح ، أو الفساد فى الحياة . . وذلك للابتلاء والاختبار ، ثم الجزاء بالجنة أو النار . .

إن قانون الله يحكم الشطر العريض منه ومن حياته بدون اختيار منه ، وهو من ثم لا يصلح ، ولا يسعد ، ولا يطمئن ولا يستريح ، إلا حين يتناسق شطره الاختيارى مع شطره الإجبارى ، فيخضعان معا لقانون واحد يشرعه الله . وهو نفسه القانون الإلهى الذى يحكم الكون والحياة .

فأما سجود الكون وتسبيحه وحمده لربه ، وإيمانه بربوبيته ، وغيرته على جلاله ، وغضبه على المشركين الجهّال من الناس . . فهذه كلها حقائق يحدثنا الله عنها ، والقلوب المؤمنة هى التى تستشعرها وتحسها . وعلى أساسها يقوم التصور الإسلامى لحقيقة هذا الكون . وهو تصور من شأنه أن يزيد من البشاشة والصداقة والود بين النفس المؤمنة وهذا الكون . . إنه يتجه إلى المعبود الذى تتجه إليه . . إنه يشاركها إيمانها وتسبيحها وصلاتها وحمدها للخالق المنعم المتفضل القوى القهار الجبار . . إنها منه . وإنه منها كذلك فى الاتجاه إلى الله . . إنها لا تقلق منه ولا تخشاه . . إنها لا تؤلهه ولا تؤله شيئًا فيه فهو عبد من عباد الله . . إنها لا تصارعه ولا يصارعها ، فهو مؤمن بالله وهى مؤمنة بالله . .

إنه تصور جميل . فوق أنه تصور مريح ، وفوق أنه تصور صحيح . .

* * *

وبعد . . فهذه هى الحقائق الأساسية التى يقوم عليها التصور الإسلامى لحقيقة الكون. وهى تقوّم وتصحح كل الانحرافات والتخبطات التى انحرف إليها الفكر البشرى، وهو يعالج مثل هذه القضية ، دون أن يستصحب معه الدليل الوحيد الهادى. . دليل الوحى . . سواء فى ذلك الأساطير والتصورات الوثنية ، أو المقولات والتصورات الفلسفية، أو النظريات والمذاهب التى تحمل اسم « العلمية » . وهى حين تجاوز نطاق التجربة والمشاهدات تتجاوز مجال « العلم » إلى مجال التخمينات والتخرصات التى لا تقوم

على أساس علمى ، ولا يجوز أن تحمل حينئذ ذلك الوصف ، ولا أن توصف بأنها «علمية» ! .

أما الأساطير والتصورات الوثنية فقد يبدو لنا اليوم أنها انتهت وانقضت . ولم تعد ذات موضوع يعالجه هذا التصور الإسلامى الصحيح . ولكن الحقيقة غير ذلك . فما يزال مئات الملايين من البشر فى الهند واليابان والتبت وسيلان والفلبين ومساحات شاسعة فى إفريقية، وقبائل متفرقة فى أستراليا وأمريكا . . ما تزال هذه المئات من الملايين البشرية غارقة فى أساطير الوثنية وتصوراتها عن « حقيقة الألوهية » وعن « حقيقة الكون » تبعا لذلك . وما يزال أمام التصور الإسلامى الصحيح لهذه الحقائق الأساسية مجال عمل مفتوح .

إن بعض العقائد الهندية تتصور ـ كما أسلفنا فى فصل حقيقة الألوهية ـ أن هذا الكون يفنى ويتجدد فى أدهار معلومة ، وذلك بفعل « الكارما » أو « ما ينبغى أن يكون » وذلك مع اعتقادها بوجود إلهى له حالات ثلاث لكل حالة منها اسم : « فشنو » و « سيفا » و «كرشنا » .

كما أن بعضها يرى أن هذا الكون المادى « عدم » لا وجود له ، ولكن الوجود الإلهى وهو الوجود الحقيقى حين « يحل » فى هذا العدم ، فإنه يتجلى فى الصورة المادية ، ومن ثم فكل ما نرى فى الكون ، إنما هو من أثر « حلول » الوجود الإلهى فى هذا العدم !

ولقد اختفت من السطح آلهة الإغريق الوثنية التى كانت تتوزع اختصاصاتها فى النجوم والكواكب ، والقوى الطبيعية والظواهر الكونية . فإله للشمس ، وربة للقمر ، ، وربة للغدران والعيون ، وإله للرعى ، وإله للحب ، وآلهة للنسل . . . الخ . . ولكن هذه الآلهة ما تزال كامنة فى عقل الأوربيين والأمريكان ـ ورثة الوثنية الإغريقية والرومانية ـ وما تزال تلون تصوراتهم الأدبية فى شعرهم وقصصهم ، ثم تلون نظرتهم إلى الكون وشعورهم تجاهه فاصطلاح « الانتصار على الطبيعة » هو اصطلاح وثنى ناشئ من تلك التصورات القديمة وهو أعمق فى مشاعرهم من التصورات المسيحية الطارئة عليهم ، وبخاصة بعد عصر النهضة التى اعتمدت على التراث الإغريقى الرومانى أكثر مما اعتمدت على المسيحية .

ومما يؤسف له أن هذه التصورات الوثنية تتسرب إلينا ـ نحن المسلمين ـ مع الأدب

الغربى ومع الفلسفة الغربية ، وتندس فى عقولنا ، وتظهر فى تعبيراتنا وآدابنا ، كما لو كانت أصيلة فينا . وإذا كان الأوربى معذورا فى هذا ، لأنه وريث تلك الوثنية فهو على الأقل « أصيل » فى ذلك التراث الوثنى . . أما نحن . . فماذا ؟!

كذلك ما يزال للوثنيات الشرقية جذورها الكامنة وراء الرسالات السماوية . بل إن بعض الحركات ـ كحركة الحزب القومى السورى ـ تقوم على أساسها ، وتحاول استحياءها واستحياء تصوراتها . فالوثنية الفينيقية هى قاعدة تصورات هذا الحزب ، وبها يتغنى فى أدبه وفى خطته السياسية كذلك . إنه يتغنى « بعشتروت » و « آدونيس » وبقية الالهة الوثنية القديمة !

وفى وقت من الأوقات حاول بعضهم فى مصر استحياء الوثنية الفرعونية ، وكان سلامة موسى على رأس هذه المحاولة ، ولكنها أخفقت . لأنها حركة ضد الخط التاريخى ! ولكنها تتخفى الان لتظهر فى صور أخرى فى حركة « الفولكلور » واستحياء التصورات الشعبية القديمة المستندة إلى التصورات الفرعونية الوثنية ! وأصلها حركة خبيثة للتغطية على الإسلام ونوره !

فالوثنية لم تنته ولم تنقض ، ولم تصبح غير ذات موضوع فى بقاع كثيرة . .

وأما المقولات والتصورات الفلسفية فكثير منها تظهر الآن سذاجته أو تخبطه عن «حقيقة الألوهية » وعن « حقيقة الكون » . فمقولة « أرسطو » عن نشأة الكون مثلاً ، أو مقولة « أفلوطين » أو مقولات ابن رشد والفارابى تبدو غير ذات موضوع . . ولكن رواسب هذه المقولات فى الخط التاريخى للتفكير الفلسفى ما تزال ماثلة . . فضلاً على أن الفلسفات الحديثة ما تزال هى الأخرى تخبط فى التيه . وقد أشرنا فى أثناء فصل « حقيقة الألوهية » إلى بعض تصورات برجسون عن إبداع الحياة فى عالم المادة ، وتصورات غيره من الفلاسفة .

ونشير الان إلى أحد المذاهب الفلسفية التى لا يمكن أن توصف بأنها مادية ، ولا أنها روحية . . وهو « مذهب الانبثاق » ومن فلاسفته « الماريشال سمطس » الذى توفى حديثًا . فهو يتصور أن الكون المادى موجود قديم ، وهو بذاته يحتوى استعدادًا كامنًا فيه لانبثاق «العقل » وترقّيه . وأن الوجود الإلّهى هو أحد هذه الانبثاقات ، وأن العقل الإلّهى الذى انبثق من هذا الكون يترقى !

إن أمام التصور الإسلامى الصحيح المستمد من « الحقائق » التى أشرنا إليها فيما سبق،

مجالاً فسيحا للعمل لتصحيح هذه المقولات التى لا تستند إلا لمجرد التصورات !

وتبقى النظريات والمذاهب التى يطلق عليها وصف « العلمية » . .

إن العلماء قد ابتعدوا بمجال بحثهم عن دائرة الفلسفة . فلم يعودوا يعنون أصلا ببحث « ما وراء الطبيعة » ، وبالتالى لم يعد يعنيهم أصل نشأة الكون . وقنعوا بالبحث عن « القوانين الطبيعية » واستخدامها من الناحية العملية . وهذا لاغبار عليه ، فهو ضرورى ومفيد ، لولا أن بعضهم يقحم نفسه بين الحين والحين فى ما وراء الطبيعة ، فينفى أن وراء الكون المادى خالقًا له ، أو أن هناك قوة تتدخل فى ميكانيكية حركته . . وهذا القول بدون شك يتجاوز منطقة البحث العلمى و إمكانياته . وهو تقحم لا سند له من العلم ، فلا يجوز أن يوصف بأنه « نظرية علمية » ولا أنه « رأى علمى » !

إن القول بأن هذا الكون نشأ بذاته ، يرفضه العقل ابتداء . فالذين يريدون الآن أن يلحدوا فى الله لا يقولون : إن لهذا الكون نشأة ، ولكنهم يقولون : إنه قديم ، وإنه لا داعى لافتراض عدم وجوده ، ثم افتراض وجوده ، ويقولون : إن تصور نشأته بعد أن لم يكن ، وتصور قوة وراءه أنشأته ، إنما هو عادة عقلية ؛ لأن العقل البشرى اعتاد أن يرى الأشياء يصنعها صانع !

ولسنا ندرى إلى ماذا يستندون هم إذن فى مقولتهم . إذا كان العقل البشرى بطبيعته يتجه هذا الاتجاه ، والدين يقول قوله المعروف ، فإلام يستندون هم ؟ وهم لا يستندون لا إلى الدين ولا إلى العقل أيضًا ؟!

إن العقل يرفض أن يتصور نشأة كون بهذا النظام الدقيق ، وبكل هذه الموافقات التى لا تحصى ، نشأة ذاتية ليس وراءها إرادة مدبرة ، وكذلك يرفض أن يكون كون بهذا النظام، وهو مادة لا عقل لها ولا إرادة ! فأى سند لهم وراء العقل ووراء الدين جميعًا ؟!

على أن هذه النزعة ، إنما كانت نزعة القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر ! ولكنها بدأت تخفت وتتوارى منذ مطالع القرن العشرين ، وأخذ العلم المادى يواجه المجهول فى طبيعة هذا الكون ، فيطامن من كبريائه ! فالأسرار المجهولة ما تزال أكبر بكثير من المعلوم الذى وصل إليه . . ثم إن ما وصل إليه من المعلوم بدأ يهديه إلى أن هناك نظاما ما ، وموافقات يتعذر تعليلها بغير افتراض إرادة واعية وراء هذا الكون المادى . كما أن قوانين الحركة التى كشفها العلم ذاته أخذت تشير بشدة إلى أن لهذا الكون نشأة ، وأن له كذلك نهاية . . وبما أن له نشأة وله نهاية فلابد أن تكون وراءه قوة ليس لها بدء وليس لها نهاية . .

إن الكثيرين الان من علماء الطبيعة والفلك والحياة ، يتسرب إليهم الإيمان بوجود خالق مريد مدبر وراء الكون ووراء الحياة . إن الحقائق التي يواجهونها تردهم إلى الحقيقة الكبيرة .

وتريهم أن هذا الكون ليس قديماً ، كما أنه لا يمكن أن ينشأ نشأة ذاتية . . وصدق الله العظيم :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » . . . .

(فصلت : ٥٣)

أما الذين يلحدون في الله عندنا ، ويتشبثون بالنظريات المادية التي تنفي وجود إله وراء مادة الكون ، فهم يقتاتون فتات موائد القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر ، ويرفضون مائدة القرن العشرين ! ثم يصفون أنفسهم ـ مع ذلك ـ بأنهم « تقدميون » ! ولله في خلقه شئون !

أما أصحاب التصور الإسلامي ، فهم في غنى بهداية ربهم ، وفي غنى بحقائق عقيدتهم ، وفي غنى بمنهج قرآنهم ، عن هؤلاء وهؤلاء في هذه القضية . . إنهم يتلقون حقيقتها من الله . . « ومن أصدق من الله حديثا » ؟ .

حقيقة الحياة وحقيقة الإنسان

أشرنا فى المقدمة إلى أن هناك فصلين ناقصين فى نهاية الكتاب ، هما « حقيقة الحياة » و«حقيقة الإنسان » . كما أشرنا إلى أن الشقيق كان يعد مسودة بالنقاط الرئيسية التى يريد أن يتناولها فى كل فصل ، قبل الكتابة فيه .

وفيما يلى النقاط التى أثبتها فى المسودة عن كل من الفصلين الغائبين ، ننشرها على صورتها التى كتبها بها ، كما وعدنا فى مقدمة الكتاب ، لعلها تعطى القارئ فكرة عامة عن موضوع كل من الفصلين ، إلى جانب ما ورد عن موضوعيهما من قبل فى فصل « ألوهية وعبودية » وفصل « حقيقة الألوهية » .

حقيقة الحياة

١ ـ الحياة ليست إلّها ! ليست قوة مدبرة فى ذاتها تنشأ وتنشئ إرادتها المستقلة ! كذلك هى ليست تلقائية . وجدت مصادفة وتمضى خبط عشواء ! إنما هى خليفة أنشأها الله ـ سبحانه ـ بقدر ، وتمضى كذلك وفق قدر ، وهى مودعة خصائصها الذاتية التى تفرقها من الموات ، أعطاها هذه الخصائص الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . والذى يخرج الحى من الميت . ويخرج الميت من الحى . والذى يتوفى الأنفس حين موتها . والذى خلق الموت والحياة والذى يبدأ الخلق ثم يعيده . . .

٢ ـ كذلك الطبيعة ليست إلّها . ليست هى التى خلقت الحياة ، كما أنها ليست هى التى خلقت نفسها ! إنما الله ـ سبحانه ـ هو خالق كل شىء ، هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . هو الذى خلق الطبيعة مناسبة لظهور الحياة ، وهيأ الأرض لهذا النوع من الحياة الذى نشأ فيها . وجعل التناسق بين الطبيعة والحياة ، وبين الأحياء بعضها وبعض ، هو الأصل والقاعدة . وأودع فى الأرض أقواتها وأرزاقها ، وجعل الكون كله مسخرًا ومساعدًا . وهذه الموافقات التى لا تحصى ما كانت لتجىء مصادفة ، وما كانت لتنشئها قوة غير واعية مريدة مدبرة حكيمة .

٣ ـ كما أن الحياة صادرة عن إرادة واحدة ـ إرادة الله سبحانه ـ حادثة بقدره ، كذلك هى ناشئة ـ بتلك الإرادة وهذا القدر ـ من أصل واحد . . الماء . . « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . . « والله خلق كل دابة من ماء » أما كيف تسلسلت ، وهل تطورت أم نشأت هكذا أنواعا ، فهو مما لم يتعرض القرآن له . . فمجال الدراسة فيه مفتوح . غير أن افتراضات العلم ذاته توحى بأنها لم تكن على النحو الذى يجزم به دارون ، ذلك أن تعاون عالم النبات وعالم الحيوان . ووجودهما فى وقت واحد يبدو ضروريا لبقاء الحياة ، على الأقل فى مثل جو الأرض الذى نعرفه بتركيباته التى نعرفها . حيث يقوم النبات بفصل الأكسوجين من ثانى أكسيد الكربون ، وأخذ الكربون ليتغذى به ، وإطلاق الأكسوجين ليتنفس به الحيوان . ثم يقوم الحيوان برد هذا الجميل فيتنفس الأكسوجين ويطلق ثانى

أكسيد الكربون . ولو انفرد أحدهما لهلك بعد استنفاد غذائه الذى لا يتجدد إلا بوجود الآخر . . ذلك إلى أن اكتشاف الجينات التى تكمن فيها الصفات الوراثية يضع عقبة أمام افتراض دارون تطور الأنواع . ثم ظاهرة تفرد الإنسان التى تواجه النظرية الان بأكبر اعتراض !

٤ ـ هذه الحياة مقدرة أقواتها فى بنية الأرض ، وفى نظام الكون . . وهى حقيقة واقعة تكذب كل ادعاء اخر ، وتسخر من نظريات المتشائمين والداعين إلى تحديد النسل (ظرية مالتوس . .) فهناك موافقات فى كيان الحياة ذاته ، وفى الظروف المحيطة بها ، تجعل حقيقة تقديرالأقوات أوسع من مادة الأقوات ذاتها . . وتمد محيطها إلى ما فى بنية الكون من طاقات ومدخرات ، وما فى تكامل الاحياء من عمليات تعويض ، وما فى ضوابط الحياة من ضمانات للتناسق بين بعض الأحياء وبعض ، وبين الأحياء جميعًا والأقوات المدخرة .

٥ ـ كل ما يدب على الأرض من أحياء ، أمم ذات تنظيمات كأمة الإنسان . فهى كلها من أصل واحد ، وهى كلها تخضع لتنظيمات . . والخالق المدبر هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وهو الذى أودع هذه الأمم فطرتها وضوابطها . والإنسان هو قمة هذه الدواب ، وهى مسخرة له : الحيوان والطير والنحل . . ولكنه إنما يرتفع إلى مقامه هذا باحتفاظه بسبب امتيازه ، وهو اتصال روحه بمصدر امتيازه . فإذا فارق هذا المقام صار أضل من الحيوان !

٦ ـ كما تقوم الحياة على قاعدة النشأة من الماء ، وعلى قاعدة الأمة المنظمة ، كذلك تقوم على قاعدة الزوجية ، التى لا تشمل الأحياء فقط ، ولكنها كذلك تشمل الأشياء : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . . وتقدير الزوجية هذا ، واشتمال الحياة على الضمانات التى تجددها وتكثرها عن طريق هذه الزوجية ، وتوافر الجنسين فى كل نوع بالنسبة الكافية للبقاء والتكاثر دليل على القصد والتدبير ، يكرر القرآن ذكره . وهو دليل لا يواجهه المنكرون إلا بالتمحل أو الهروب فى كل حال . .

٧ ـ الأحياء مكفولون برزق الله : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » . . محاطون بعلم الله ورعايته : « ويعلم مستقرها ومستودعها » . . خاضعة لسلطان الله « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » . .

٨ ـ الأحياء كلهم فى عبادة . . « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » . .

٩ ـ هنالك عوالم أخرى من الأحياء ـ غير دواب الأرض التى تشمل الإنسان ـ وهى عوالم أخبرنا الله بوجودها ، وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها ، هى الملائكة والجن . ومن الجن الشياطين ، وإبليس على رأس الشياطين ! والإنسان يتعامل مع هذين الخلقين ، ويتأثر بهما فى الدنيا والآخرة .

وقد وصف الله هذين الخلقين ، وأخبرنا عن طبيعتهما ، وعن علاقتهما بالإنسان ، بالقدر الذى يهدى الإنسان منهج التعامل القويم مع كليهما . وجعل الإيمان بالملائكة قاعدة من قواعد الإيمان لما للملائكة من علاقة بالوحى والرسالة . وإخبار الله عن وجود الجن والشياطين يجعل الاعتقاد بوجود هذا الخلق على النحو الذى وصفه الله به ضرورة اعتقادية . وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وتكذيب للقرآن . . معناه الكفر طبعًا !

والملائكة والجن ، والشياطين وإبليس ، من عالم الغيب الذى أخبرنا الله به ، فالتصديق بها ينشأ ابتداء من هذا الإخبار . أما إنكار المنكرين لهذين الخلقين فعجيب ! إذ أنه إلام يستند ؟ هل يستند مثلاً إلى أن علم الناس بوسائلهم وأدواتهم لا يتمكن من رؤية هذين الخلقين أو إلى معرفتهما ؟ ولكن ! هل وصل علمهم إلى معرفة كل حى ، أو كل موجود فى العالم المشهود ؟ وما الذى يعلمونه من الأحياء والأشياء ؟! أم إنه يستند إلى عدم استطاعة الإدراك البشرى أن يتصور كيف يتعامل الإنسان مع هذين الخلقين ، وكيف يؤثران فيه وهما ليسا من جنسه ؟! ولكن ! هل وصل هذا الإدراك إلى معرفة كيف يؤثر إنسان على إنسان فى التنويم المغنطيسى ؟ أو فى التخاطر عن بعد ، وهى حقائق واقعة؟ . . فلماذا فقط يستبعد تأثير ملك أو شيطان فى إنسان ؟ ألا أنه قول الله ، وهم هاربون من الله ؟!

حقيقة الإنسان

١ ـ إن القرآن يعرض أنماطا من نماذج النفوس البشرية على نطاق واسع . يشمل كل أنماط النفوس البشرية فى أصالتها الفطرية . وفى حالاتها المنحرفة كذلك . فى هداها وفى ضلالها . فى رشدها وفى غيها . فى استقامتها وفى إعراضها . فى ارتفاعها وفى هبوطها . فى قوتها وفى ضعفها . فى سرها وفى علانيتها . فى فرديتها وفى جماعتيها . فى شتى صورها وأشكالها ، وأوضاعها وأحوالها . . يعرض ذلك كله فى حيز من التعبير يستحيل ـ لو لم يكن من عند الله ـ أن يسع هذا الحشد الكبير من الأنماط والنماذج ، والأحوال والأطوار ، وأن يصوره فى دقة وعمق لا يبلغهما الأسلوب البشرى ولا فى أضعاف أضعاف هذا الحيز من التعبير !

٢ ـ هذا المنهج لا يعرض « النفس الإنسانية » فى صورة مذهب . ولكنه يعرضها فى صورة حقيقة ، ويعرض الحقائق الكلية من خلال النماذج الفردية ، كما أنه يعرض السنة الثابتة من خلال الحدث العارض . . ويتفرد فى هذا الأسلوب كما يتفرد فى النتائج التى ينتهى إليها من خلاله على السواء . . إن عرض النفس فى صورة « مذهب » ـ ككل منهج مذهبى اخر ـ يجعل الكاتب يختار من الحقائق والملاحظات والوقائع والصور ما يستقيم مع خط المذهب واتجاهه ، ويميل إلى إغفال الحقائق والملاحظات والوقائع والصور التى تعارض خطه المذهبى ـ أو لا ينتظمها هذا الخط ـ أو تجريدها من أهميتها . ومن ثم جوانب شتى من الحقيقة الأساسية . وهذا هو المنهج البشرى ـ على الإطلاق ! ـ فأما المنهج القرآنى فيعرض النفس الإنسانية كما هى فى حقيقتها على النطاق الواسع الشامل ، لأن العمود الأساسى فى العرض هو حقيقة النفس الإنسانية فى شتى حالاتها ، لا مذهب معين فى النظر إليها .

٣ ـ الإنسان مخلوق خاص ، ذو كيان متميز ، تميزه فى ازدواج عناصر تكوينه ، مستخلف فى الأرض ، مزود بخصائص الخلافة ، وأولى هذه الخصائص : الاستعداد للمعرفه النامية المتجددة . ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها ، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركى للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير فى مادة هذا الكون وطاقاته . . للنهوض بوظيفة الخلافة .

٤ ـ وهو كائن كريم على الله ، ذو مركز عظيم فى تصميم الوجود ـ على الرغم من كل ما فى طبيعته من استعداد للضعف والخطأ ، والقصور والتردى ـ ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة ، ولحمل أمانة الاهتداء ، وللتبعة ، يجعله كائنًا فريدًا ، يستحق تكريم الله له ، واختصاصه بمقام الخلافة فى الأرض عنه ـ سبحانه ـ وقبول توبته ، كما يستحق تلك العناية الإلهية به بإرسال رسله ورسالاته . . وهو أكرم من كل ما هو مادى ، لأن كل ما هو مادى مخلوق له .

٥ ـ وهو كائن يتعامل مع الكون كله ومن فيه وما فيه . . وهو يتعامل مع ربه كما يتعامل مع الملأ الأعلى من الملائكة ، ومع الجن والشياطين ، ومع نفسه واستعداداته المتنوعة ، ومع سائر الأحياء الكونية ، ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية ، ومع مادة هذا الكون وأشيائه . . والكون مهيأ للتعامل معه ، كما أنه هو مجهز بوسائل التعامل مع الكون ، ومع رب الكون ، بما ركب فيه من روح وعقل وحواس وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه .

٦ ـ وهو مستعد حسب تكوينه الذاتى ـ لأن يرتفع إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين ، كما هو مستعد لأن ينحط إلى أدنى من درجات الحيوان البهيم . وذلك حسب ما يبذل هو من جهد فى تزكية نفسه أو تدسيتها ، وحسبما يلتقى من عون من الله وهداية ورعاية ، مرجعها ما يبذل من جهد ورغبة واتجاه ومحاولة فى الارتباط ببارئه ومنهجه وتوجيهه . . فهو ـ من ثم ـ أعجب كائن وأغرب جهاز ، يحتوى هذه الاستعدادات المتباعدة الآماد . ولا نعرف أن هناك كائنًا اخر له هذه الخصائص ! سواء الملائكة أو الشياطين ، أو صنوف الحيوان ، أو عناصر المادة وأجهزتها .

٧ ـ وهو مصمم على قاعدة الزوجية التى هى خاصية كونية وحيوية . وعلى قاعدة التكامل بين الزوجين ، لا التماثل ـ وهى كذلك خاصية كونية وحيوية ـ وقبل ذلك : على أساس التناسق مع الكون والقريبى فى الماهية المادية ، بزيادة ذلك العنصر الفريد فيه ـ من روح الله ـ وهى أمر غير مجرد الحياة الحيوانية . . وهو العنصر الذى خط له طريقه الخاص الذى يعترف الان بخصوصيته حتى أصحاب المذهب الداروينى . .

٨ ـ وآصرة التجمع الكبرى بين أفراد هذا الكائن هى « العقيدة » ذلك أنها هى العنصر المتعلق بالعنصر الفريد فيه ، والذى به صار إنسانا واختط طريقه الخاص . . ومن هنا يتسق التصور الإسلامى ويقوم بناؤه الدقيق العميق ، ويتجلى التناسق التركيبى فى مفهومه الكلى . وجميع الأواصر والوشائج الأخرى بما فى ذلك آصرة الدم واللغة والجنس والجوار ،

والمصالح الاقتصادية . . . وسائر الأواصر . . . تصبح معطلة أو ملغاة ، إذا تعطلت أو ألغيت تلك الوشيجة الأولى . . ويحرم الولاء إذا انقطعت هذه الآصرة الأساسية الأولى .

٩ ـ والإسلام يستبقى فى حس المسلم شعوره بالأخوة الإنسانية ، فيما يتعلق بالمشاعر والمعاملة الشخصية والعدل والقسط والبر ببنى آدم جميعًا ، بل بالأحياء جميعًا . ولكنه يشدد فى نفى آصرة الولاء والتناصر مع غير المسلم ، حتى إن المسلمين المقيمين فى دار الحرب ليس للمسلمين فى دار الإسلام من ولايتهم شىء حتى يهاجروا . . ومع أن هذه مسألة تنظيمية فإن التصور الإسلامى يجعلها مسألة إيمانية اعتقادية ، ويلحق من يتولى اليهود والنصارى من المسلمين بمن تولوهم ، ويجعلها مسألة ارتداد عن الإسلام ! (البقرة ـ النساء ـ المائدة ـ التوبة ـ الممتحنة) .

١٠ ـ وخلافة هذا الكائن فى الأرض مشروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه : أن يستقيم هذا الكائن على هداه ومنهجه وشريعته . وأن يخلص العبودية له ، وألا يدعى شيئًا من خصائص الألوهية ، وأن يجعل سعيه كله لله الذى استخلفه فى هذا الملك العريض ، وأن يحكم منهج الله فى ذاته وفى حياته . . وإلا تعرضت حياته كلها للفساد ، وتعرضت أعماله كلها للبطلان ، وتعرض لعذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعًا .

١١ ـ إن الفردوس الأخروى ـ فى التصور الإسلامى ـ هو الجزاء الإلٓهى على إصلاح الحياة الأرضية ، والإحسان فى القيام بالخلافة . وإصلاح الحياة الأرضية يبدأ من إصلاح النفس . وينتهى بإصلاح حال المجتمع كله وإقامة أمره على منهج الله . وإحسان القيام بالخلافة يبدأ من كشف النواميس والأرزاق والمدخرات التى أودعها الله هذا الكوكب يوم خلق الأرض وقدر فيها أقواتها ، وينتهى إلى تسخير هذا كله فى تنمية الحياة وترقيتها ، وتوزيعه بالعدل الذى قرره الله . .

وحين يتقرر أن الفردوس الأخروى هو الجزاء الإلٓهى على إصلاح الأرضية والإحسان فى القيام بالخلافة ، يتبين انفراد الإسلام ـ كعقيدة ومنهج للحياة ـ عن سائر المعتقدات والمذاهب سواءً منها ما يعتزل الحياة الدنيا ليبلغ فردوس الآخرة ، وينكر ملكوت الأرض ليتطلع إلى ملكوت السماء ، وما ينكر ملكوت السماء ويخلد إلى الأرض ويتبع هواه فى تصريف الحياة !

كذلك يتقرر أن الترقى فى الوجدان الدينى ـ فى الإسلام ـ يصبح هو الضمان الأول والحافز العميق للترقى فى الحضارة المادية واستخدام الطاقات والقوى والأرزاق والمدخرات الكونية فى نطاق المنهج الربانى للتصور والحركة . وتلتئم غاية الوجود الإنسانى ـ وهى

الحياة ـ مع تنمية الحياة وترقيتها . بل تصبح تنمية الحياة وترقيتها هى العبادة ، وهى جواز المرور إلى الفردوس الأخروى وإلى رضوان الله . .

وكذلك تنتهى قصة « الفصام النكد » بين الدين والحياة .

١٢ ـ وفطرة هذا الكائن تكمن فيها الحاجة إلى معرفة بارئها والالتجاء إليه ، وتوحيده ، فإذا غشت عليها الشهوات ، وغطى عليها الركام ، وأفسدها الترف وطول العهد والنسيان . . فإنها تنتفض من هذا كله ، وتتجلى كما خرجت من يد بارئها ، عند مواجهة الخطر الذى لا طاقة للإنسان به ، ولا حيلة له فيه . وترجع إلى ربها مخلصة له الدين . . فهى بذاتها تحمل الدليل على حاجتها الطبيعية إلى معرفة الله وتوحيده ، والالتجاء إليه ، والدينونة له .

١٣ ـ والفطرة الإنسانية مؤمنة ، والإيمان حاجة فطرية . كما أنه حاجة عقلية لا يملك الإنسان أن يستغنى عنها ، وهى مركوزة فى كينونته وهو مفطور عليها . وإلى هذه الحقيقة تشير الآية : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . . » .

والإنسان يواجه أحوالا فى حياته فى هذا الكون لابد له فيها أن يلجأ إلى قوة أكبر من قوة الإنسان ـ بالغة ما بلغت ـ إذا أنها أكبر من كل ما هو مهيأ لبنى الإنسان من القوة والعلم . كذلك فإن هذا الكون بوجود ذاته وبتناسقه يرسم علامات استفهام لا يملك العقل البشرى أن يجب عليها بدون الالتجاء إلى تصور وجود إله قادر مدبر .

ونظرة الإسلام أن الفطرة لا تحتاج إلى مجرد وجود إله . بل إنها تحتاج إلى وحدانية هذا الإله ، وتلجأ إلى هذه الوحدانية التجاءً بدافع ذاتى فيها فى المواقف التى تهز كيانها وتنفض عنها الركام وتردها إلى الاستقامة . سواء فى ذلك مواقف الشدة والحاجة ، أو مواقف التدبر لهذا الكون وموافقاته ، وعلامات الاستفهام الملحة على الفطرة فيه .

والقرآن الكريم يصور النفس البشرية حين تتعرى فطرتها أمام الهول الذى يجاوز طاقتها، ويهز أعماقها ، وينفض الركام عنها ، ويردها إلى الاستقامة ووضوح الرؤية فى مثل هذه الآيات :

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكون من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » .

(يونس : ٢٢ ـ ٢٣)

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » .

(الأنعام : ٤٠ ـ ٤١)

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

(يونس : ١٢)

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون » .

(الروم : ٣٣)

« وكم من قرية أهلكناها فجاءهم بأسنا بياتا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين » .

(الأعراف : ٤ ـ ٥)

كذلك يصور الفطرة المستقيمة حين تواجه الكون ، وتحس بالحاجة الملحة إلى تفسير وجوده ، وإلى دلالة هذا الوجود ، وحتمية الموجد فى مثل الآيات :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ، فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . . . » .

(آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٣)

« وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجة قومه ، قال أتحاجّونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأىُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم

يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » .

(الأنعام : ٧٤ ـ ٨٣)

وفى هذه القصة يشير إبراهيم إلى البرهان الداخلى الذى وجده فى نفسه . برهان وجود الله الذى وجده ، وتلقى علامة وجوده واستيقنها فى فطرته . .

١٤ ـ وأفراد هذا الجنس متساوون ابتداءً فى عبوديتهم لله . والمؤمنون بالله هم الذين يرضاهم الله بين عباده ، وأقربهم إليه وأعلاهم مكانا عنده أتقاهم . وهذه هى القيمة العليا . والتقوى كما تتجلى فى المشاعر والشعائر تتجلى فى العمل والحركة . ومواضع ذكر التقوى فى القرآن تدل شمولها لمجال الحياة كله ، وجوانب النشاط الإنسانى كافة . وأكثر ما يرد ذكرها فى مواضع التعامل والحركة والنشاط ومجالات الخلافة . . ومن ثم كانت قيمة عامة ، كما أنها قيمة ثابتة ، يوزن بها أفراد هذا الجنس فى ميزان الله ـ سبحانه ـ (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

١٥ ـ والإنسان مبتلى فى هذه الأرض بالحياة والموت ، والخير والشر ، والسراء والضراء والعطاء والحرمان ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والنصر والهزيمة ، والسعة والضيق ، والغنى والفقر . . ومجازى على استجاباته كلها ، ومطالب بأن تكون هذه الاستجابات وفق ما بين الله له ، وذلك بتحكيم شريعة الله ومنهجه فى نشاطه كله . . وهذا الجزاء قد يكون فى الدنيا ، وقد يكون فى الآخرة ، وقد يكون فيهما معا . ولكنه لا يتخلف أبدا .

١٦ ـ والإنسان ذو فاعلية إيجابية فى مصيره كله ـ فى إطار المشيئة الإلهية ـ فاعلية فى نفسه، وفاعلية فيما حوله . ومن حوله ، وفاعلية فى حاضره وفى ماله . . والعلاقة بين مشيئته فى هذا كله وبين قدر الله علاقة قائمة على أساس ألا يناله الظلم أبدا . ومهما يكن فى هذه العلاقة من جوانب يصعب إدراكها على وجه الدقة والتفصيل ، فإن المقطوع به منها هو النصيب المقرر للإنسان من الفاعلية الإيجابية ، والعدالة المطلقة فيما يترتب عليها من جزاء فى الدنيا أو فى الآخرة . .

١٧ ـ والذاتية الفردية هى التى تتلقى التبعة والجزاء . وهى ممتدة لا تنقطع بالموت . تبدأ من عالم الذر وتمتد إلى دار البقاء . . وتتهيأ بحسب عملها فى الحياة الدنيا لاستقبال حياة الجنة أو حياة النار .

١٨ ـ ويرتقى المؤمن فى الحياة الدنيا حتى يصبح قدرًا من قدر الله ، يحقق مشيئة الله ـ من خلال حركته الذاتية ـ فى نفسه وفيمن حوله وفيما حوله . وفى هذه الحالة تتجلى على

يديه مظاهر من قدرة الله ـ سبحانه ـ وليست هذه وقفا على معجزات الرسل . إنما هى درجة يرتقى إليها المسلم ويتهيأ بها لحياة الجنة . . وما يظهر من خوارق التحول فى النفس أو فى الدنيا الإنسانية العامة منشؤه هو هذا الالتقاء . أو هذه الصلاحية لتقمص قدر الله .

١٩ ـ وواجب المؤمن أن يسلم . فيدخل فى السلم كافة ، ويُحكّم منهج الله فى أمره كله . ثم أن يدعو ويبلغ ، ولا يكتم من دين الله شيئًا . ثم أن يعمل لتحقيق منهج الله فى الخلافة . ثم أن يجاهد لتقرير منهج الله وسلطانه وألوهيته وحاكميته . . وهذا وحده هو الذى ينجيه ويخلصه من ربه . .

٢٠ ـ ولكى يبلّغ ويجاهد ويمكّن لمنهج الله فى الأرض ، هو مكلف بالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، ومنهى عن الولاء للشيطان والطغاة وغير المؤمنين . وهو على وعد من الله ـ حينئذ ـ بالفلاح والنصر والتمكين . . وكل القوى الخيرة ـ والملائكة ـ تكون فى صفه ونصرته ، ووعد الله فى هذا قاطع : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

٢١ ـ ويرسم القرآن صورًا للإنسان فى شتى نماذجه . وشتى حالاته وشتى استجاباته . . ويبرز قيمة الإيمان فى تكييف وتقويم وضبط استعداداته واستجاباته . يبدو معها أن الإنسان يكون فى أحسن حالاته وأقومها حين يكون فى حالات الإيمان ، فلا عجب ينشئ وينتج خيرًا كثيرًا لذاته ولخلافته . ويكون فى أسوأ حالاته وأشدها اختلالا حين ينحرف عن محوره الفطرى ومداره الكونى ـ الإيمان ـ حيث يفسد كيانه وتفسد حياته ، وينتشر الفساد من حوله بفعله . .

٢٢ ـ كما يصور المعركة بينه وبين الشيطان ، بوصفها المعركة الأولى والأخيرة ، والمعركة الشاملة لكل الجوانب . . فى نفسه وفيما حوله . . ومن ثنايا العرض يبدو أن الإنسان مزود بسلاح المعركة ، وأنه لا يُغلب فيها إلا إذا غفل عن سلاحه ـ وإن كان من شأنه أن يغفل ثم يذكر ـ فإذا ذكر استعاد سلاحه وقوته ، وضمن النجاة والغلب فى معركته !

٢٣ ـ بشرية الرسل قاعدة من قواعد التصور الإيمانى ، وفيها ما فيها من التكريم للجنس الإنسانى كله ، على عكس ما تظنه الوثنيات والجاهليات . والرسل كلهم جاءوا برسالة واحدة . وعناصر الإيمان هى : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

٢٤ ـ خصائص الإنسان وطاقاته واستعدادته كلها ملحوظه فيها وظيفته . . وظيفة الخلافة فى الأرض . . ومقدرة بقدرها . ومحدودة بمقتضياتها . ومن ثم وُهب له من هذه الخصائص والاستعدادات والطاقات عن سعة ، ويبذل له فيها فيض من العون والرعاية ،

وزويت عنه الجوانب التى لا تخص تلك الوظيفة . فالغيب محجوب عنه ، والساعة مجهولة الموعد . والعوالم الأخرى معلومة له بالقدر الضرورى . والعلم اليقينى لا يجيئه ـ فى هذه الأمور ـ إلا من عند الله . وما سوى ذلك خرص وظن .

٢٥ ـ النفس البشرية ذات استعداد للخير والشر . وعمل الإنسان هو الذى يرجح فيها أحد الاستعدادين . . عمله الفردى ، وعمله الجماعى . . ومن ثم يتضمن منهج الحركة الإسلامية ضرورة إقامة الوسط الخير ، الذى يساعد على تنمية الفضائل ، ويعمل على كبح الرذائل . لأن فى هذا ضمانا لترجيح استعدادات الخير ويصبح هو المعروف ، وكبح استعدادات الشر فيصبح هو المنكر . .

٢٦ ـ والإنسان ـ كما تقدم فى فقرة ٦ ـ يتحرك فى مجال واسع جدا . يرتفع فإذا هو أرفع مقاما من الملائكة ، وينحط فإذا هو أحط مقاما من البهيمة . . وتاريخه كله من هذه الناحية سلسلة من الارتفاعات والانحطاطات ، وليست خطا واحدا صاعدا مع الزمن . إن خبراته العلمية وتجاربه فى عالم المادة ، وانتفاعه بالنواميس المسخرة فى الكون قد تسير فى خط صاعد . ولكن إنسانيته لا تسير فى هذا الخط ، وإنما هى تتبع اهتداء فطرته إلى أصح أوضاعها ـ وهى العبودية لله وحده والتحرر من العبودية للعباد ـ أو انحرافها عن هذا الوضع الصحيح . . ولا عبرة بخط العلم الصاعد ، وخط التيسيرات الحضارية المادية الصاعد كذلك . لأنها كلها تصبح جواذب انحطاط وعوامل تردٍّ إلى أسفل سافلين حين تنفصل عن خط السمو الصحيح ! « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . » .

٢٧ ـ وسنة الله التى لا تتخلف هى التمكين فى الأرض لأوليائه ، المستقيمين على منهجه . وهى التدمير على أعدائه المخالفين عن سنته . وقد يطول الأمر ـ بالقياس إلى عمر الفرد البشرى القصير ـ ولكن السنة لا تتخلف . وحين ننظر إلى الماضى نرى هذه السنة واضحة . بينما قد تخفى معالمها علينا حين ننظر إليها فى المدى القريب . وتتضافر الشواهد القرآنية والشواهد التاريخية على تقرير هذه الحقيقة . التى تعتبر قاعدة أساسية من قواعد التفسير الإسلامى للتاريخ .

٢٨ ـ إن الإسلام يسمح إلى أقصى حد بنمو النماذج والأنماط المتعددة فى إطاره ، كما يسمح إلى أقصى حد بالتناسق والتوافق بين هذه الأنماط والنماذج بحيث تعيش كلها داخل إطاره ، وتتعامل بأقل قدر ممكن من الاحتكاك والتناقض . . وحين نراجع نماذج الرجال والطبائع والمواهب والاتجاهات التى عاشت فى ظلال الفترة الأولى نعجب للتنوع ، ونعجب للثراء . ونعجب كذلك للتوافق والتناسق . . هنالك نجد أبا بكر وعمر . ونجد

أبا ذر وعمرو بن العاص . ونجد خالد بن الوليد وجليبيب . . . وكلها وعشرات أمثالها من الطبائع والنماذج المتقابلة ، عاشت فى إطار هذه العقيدة ، وفى إطار هذا المجتمع ، متعاونة ذلك التعاون الفريد المجيد .

٢٩ ـ كما يسمح الإسلام باختلاف النماذج والأنماط للطبائع الإنسانية فى إطارة ، كذلك يسمح للوسائل وأنماط الحركة فى خط سيره ، وفى أشكال الأوضاع الاجتماعية للحياة فى إطاره . . المبادئ والأسس هى التى تحمل طابع الثبات والفرضية . فى حين تتحرر الوسائل ، وتتنوع الأشكال لأوضاع الحياة العملية . . غير أن هذا لا يعنى على الإطلاق تحرر الوسيلة من المبدأ ، أو تحرر الشكل من القاعدة . والقاعدة هى قيام وضع الإنسان على أساس العبودية المطلقة لله ، والتجرد من خصائص الألوهية . والمبدأ هو نظافة وطهارة الوسيلة بقدر نظافة وطهارة الغاية سواء .

٣٠ ـ بين التصور الإسلامى وبين فطرة الكائن الإنسانى وشائج عميقة واستجابات كثيرة :

(أ) العبودية لله تلبى حاجة الفطرة البشرية إلى إله (تراجع الفقرة رقم ١٣) .

(ب) الغيب يلبى حاجة الفطرة البشرية إلى مجهول . والمجهول يحيط بها حيثما اتجهت ، وفيها هى الاستجابة لمواجهة هذا المجهول . . وفيها الرغبة الفطرية فى الخروج من قيد الحس الذى يقف عنده الحيوان ، ويتجاوزه الإنسان لينطلق مع خصائصه التى تفرقه عن الحيوان .

(جـ) الدار الآخرة تلبى حاجة الفطرة إلى العدل المطلق ، وإلى البقاء الطويل على السواء . ثم هى النهاية الطبيعية اللائقة بخليقة ممتازة كالإنسان ، تمتد كينونته ولا تنقطع ، وترتقى حتى تصل إلى مستوى الجنة ، حين يمضى فى الخط الصاعد إلى ذلك الأفق الكريم .

(د) الاعتراف بطهارة الطاقات البشرية فى ذاتها ، وإعطاؤها المجال الذى تتحرك فيه ، فلا تكبت طاقة واحدة فطرية باسم أنها نجسة أو قذرة ، وبخاصة طاقة الإنسال والامتداد . كما تحاول المسيحية الكنسية والبوذية والفلسفة المتشائمة .

(هـ) حتى القيود التى يفرضها الإسلام هى قيود من الفطرة ذاتها . فهو حين يكف الطاقات الإنسانية دون الإسراف ، يقيها العطب والتلف ، ويتناسق فى هذا مع الفطرة ويلبيها .

٣١ ـ فى التصور الإسلامى ليست هنالك خطيئة موروثة . إنما هناك تبعة فردية ومعصية وتوبة بابها مفتوح على الدوام . . والقاعدة التى قامت عليها الخطيئة الموروثة فى

المسيحية وهى الأكل من الشجرة باعتبارها عندهم رمزا للمباشرة الجنسية ، ليست هكذا فى حس الإسلام . إنما هى وظيفة فطرية ، يناط بها امتداد الحياة وارتقاء الحياة ، والقيام بالخلافة فى الأرض . وتحاط بالضمانات ، ويرسم لها المنهج الذى تؤتى فيه ثمارها طيبة نقية طاهرة بلا كبت لها وبلا إفراط . .

٣٢ ـ القيم الأساسية التى يحرص الإسلام على توفيرها فى المجتمع الذى ينبثق من التصور الإسلامى ، تتمثل فى المسائل التى تتناولها أقصى العقوبات ، للمحافظة عليها فى حياة الجماعة . وهى التى تتناول : المرتدين والقتلة والزناة والمفسدين فى الأرض والسراق وشاربى الخمر والمرابين . . فهذه تمثل معالم السياج الذى يريد الإسلام أن يحرس الحياة . . ومن الواضح أن هذه العقوبات مقررة من الله ـ سبحانه ـ فلا مجال للمماحكة فيها ، أو الاعتراض عليها باعتراض ما . فالاعتراض على الله . اعتراض على ألوهيته . يدخل فى نطاق الردة عن دين الله كله بلا مراء .

٣٣ ـ إن الله ـ سبحانه ـ تولى عن الإنسان تقرير التصور الأساسى للوجود . وهو الذى يتعامل به المسلم مع الله سبحانه ، ومع الكون من حوله ـ عالم الغيب وعالم الشهادة ـ بما فى ذلك الأحياء والأشياء . ووظيفة العقل البشرى هى تلقى هذا التصور من الأصل الإلّهى الذى جاء به الرسول ـ صلى الله عليه ـ وسلم ـ لا من أي مصدر اخر . وكذلك تلقى المبادئ الأساسية (أو المقومات) التى يتألف منها هذا التصور ، أو التى تنبثق منه . ومهمته بعد التلقى هى تطبيق هذه المبادئ الأساسية على الحالات المتجددة المتنوعة التى لا تقع تحت حصر ، والتى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة البشرية . . وليس من وظيفة هذا العقل ـ على وجه الحزم والحسم ـ أن يقرر أصول التصور الإسلامى أو مبادئه الأساسية ، ولا أن يحور فيها ، أو يغير . ولا أن يخرج فى تطبيقها على الحالات المتجددة عن مقتضاها . . والذين يحاولون أن يأخذوا من قضية أن الإسلام يخاطب العقل ولا يتجاهله ولا يقسره بالخوارق المادية . . الخ أن للعقل البشرى أن ينطلق بذاته ؛ ليقرر كل شىء فى أمر العقيدة ، وفى أمر المبادئ الأساسية للحياة البشرية ، إنما يخلطون حقا بباطل ، ويتجاوزون بالعقل البشرى حدود طبيعته . وحدود اختصاصه . والذين يفهمون أن مهمة العقيدة هى مجرد ضبط العقل البشرى وتقويمه ؛ لينطلق بعد ذلك يقرر هذا كله ، وأن العقيدة لا يتجاوز دورها هذا الضبط والتقويم ، إنما يخطئون فهم طبيعة العقيدة فى الإسلام ـ وهو وحده الدين الذى يقبله الله وبعده الدين (إن الدين عند الله الإسلام) (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) . . فالعقيدة تتناول تقرير مقومات التصور كلها، والمبادئ الأساسية التى تحكم الحياة البشرية ، كما تتضمن الشريعة التى تتناول

الأصول وكثيرًا من التطبيقات . . وقبول الشريعة واعتبارها المصدر الوحيد لتنظيم الحياة البشرية ، ورفض كل مصدر آخر سواها . . كل ذلك من العقيدة . بل هو أصل العقيدة . . فلا مجال لتجاوز العقل البشرى حدوده فى التصور الإسلامى ، سواء فى صورته الاعتقادية أم فى آثاره الحركية . .

٣٤ ـ يزاول الإنسان فى حالته السوية كل نشاطه على طريقة الإنسان . وهو يكون فى أشد حالاته استواء حين يلبىّ كل هواتف فطرته . ومنها هاتف العقيدة والإيمان . فإذا انحرف عن هذا السواء فإنه يزاول ألوان نشاطه على طريقة الحيوان : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . . ومهما بدا من التشابه و التماثل فى كيماويات وطبيعيات بعض العمليات بين الإنسان والحيوان ، كما يحدث فى هضم الطعام وتمثيله وتوليد الحرارة واستنشاق الأكسوجين وطرد ثانى أكسيد الكربون . . . الخ فإنه يبقى الفارق الأساسى بين الإنسان ـ فى حالته السوية ـ والحيوان فى هذه العمليات ذاتها ، من حيث الدافع ، والمشاعر المصاحبة ، والتصورات ، ومن حيث نوع النشاط الذى تصرف فيه الطاقة الناشئة من الطعام . . فلا يماثل الإنسان الحيوان فى عملية الطعام ذاتها إلا حين ينحرف عن سواء الفطرة بالكفر والغفلة عن فطرة الإنسان .

٣٥ ـ من إعداد الإنسان لوظيفته أن نوازع التجمع فيه فطرة . كنوازع الفردية سواء بسواء ونوازع التجمع تبدى نفسها فى شتى المستويات وفى شتى الأنواع :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» .

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . .

والتقاء الجنسين على هذا المستوى فيه تلبية التجمع بقدر ما فيه من تلبية لنوازع لحاجات الكينونة الفردية .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وفطرية التجمع واضحة فى الآية الأولى . وهى بنفس الدرجة فى الآية الثانية ولكن بصورة أخرى . . فالتدافع لون من ألوان التجمع كالتوافق . إنها صورة الاحتكاك الاجتماعى الذى يعدل أوضاع التجمع ويمنع الفساد فيه .

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

وفى هاتين الآيتين الأخيرتين تتجلى فطرة التجمع شاملة للإنسان والأحياء والأشياء .

سواء على مستوى الزوجية أو على مستوى الشعبية . ويبدو الإنسان فى خضم الفطرة كلها متناسقًا مع سائر الخلائق فى هذه النوازع . . والمسألة فى هذا الوضع أعمق وأشد توكيدا لتلك الحقيقة .

والأمر إذن ليس كما يقول دور كايم ـ والمدرسة الفرنسية بوجه عام ـ من أن العقل الجمعى شيء مخالف فى أصله للعقل الفردى ، سواء فى طبيعته ، أو فى اتجاهه . .

٣٦ ـ نحن لا نملك أن ندرك حقيقة الإنسان إدراكا واضحا حتى ندرك وظيفته الأساسية أو غاية وجوده الإنسانى . .

ولقد يبدو هذا ـ للوهلة الأولى ـ قلبا للأوضاع ، أو قد يبدو هذا المنهج فى النظر مخالفا للاتجاه الموضوعى . . إذا ربما يلوح أن هذا الاتجاه يقتضى أن نبحث عن الحقيقة الموضوعية للكائن المسمى بالإنسان ، بغض النظر عما يكون له من وظيفة ، وبغض النظر عما نفترض من غاية وجوده الإنسانى ، ولا نكل تحديد الحقيقة الإنسانية إلى تأويلاتنا لغاية وجوده ووظيفته ، ذلك أننا قد نخطئ فى تقدير وظيفته أو تقدير غاية وجوده . فقد لا تكون هناك « غاية » أصلا : ـ كما يزعم أصحاب نظريات المصادفة فى نشأة الحياة ذاتها فضلاً عن نشأة وترقيه ـ وعندئذ يسوقنا هذا الخطأ إلى الخطأ كذلك فى إدراك حقيقته ، طالما نحن نوقف هذه على تلك فى منهجنا . . فأما إذا نحن عمدنا مباشرة إلى محاولة البحث عن الحقيقة الموضوعية لهذا الكائن ، فإنه لا يضيرنا بعد ذلك أن نخطئ أو نصيب فى تقدير وظيفته وغاية وجوده . .

وهذا كله ليس صحيحا :

أولا : لأن الإنسان بنية حية متحركة . وهو يتحرك لأداء وظيفة ، وتحقيق غاية . فما لم نفهم طبيعة الوظيفة وكنه الغاية ، لم نفهم طبيعة الحركة . . وإذا لم نفهم طبيعة حركة الإنسان ، فإننا لن نفهم طبيعة هذا الإنسان ، إذا أنه ليس مجرد مادة خامدة تحلل لمعرفة حقيقتها ذاتيا !

وثانيا ـ وهذا الأهم ـ أننا فى المنهج الإسلامى لا نعتمد على حدسنا وتقديرنا ـ نحن البشر ـ فى تحديد وظيفة الإنسان وغاية وجوده ، حتى يكون هناك مجال للخطأ والتشويه ، ينشأ عنهما خطأ وتشويه لحقيقته . إنما نحن نتلقى علم هذه الوظيفة وعلم تلك الحقيقة من المصدر الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، المحيط بالإنسان : وظيفته وحقيقته على السواء . فإذا نحن عرفنا وظيفته من هذا المصدر ، كان ذلك يقينا لا مجال فيه للخطأ . . ومن ثم نعرف كذلك حقيقته المبنية على وظيفته ، معرفة متدرجة منطقية متناسقة . . وهذه هى كل قيمة البدء بمعرفة وظيفة الإنسان وغاية وجوده . .

إن غاية الحياة الإنسانية كما يقررها الله ـ سبحانه ـ هى عبادة الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . هذه العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى تتمثل فى وظيفته التى خلق لها ، وهى الخلافة عن الله فى هذه الأرض بهدى الله : « وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . . الخ » .

وما تتطلبه الخلافة ـ على هذا المستوى وفى هذه الحدود ـ من تركيب خاص ، ومن طاقات وقوى خاصة ، ومن ملامح وسمات ، وخصائص واستعدادات . . وهو الذى يمثل حقيقة الإنسان . فهذه الحقيقة هى مقتضى الوظيفة غاية الوجود الإنسانى .

والإنسان ـ فى هذه الخلافة ، على ذلك المستوى ، وفى هذه الحدود ـ يتعامل مع الوجود كله ، ومع خالق الوجود ابتداء :

يتعامل مع الله سبحانه .

ويتعامل مع الملائكة . .

ويتعامل مع الشياطين . .

ويتعامل مع الأحياء فى هذه الأرض من نبات وحيوان . .

ويتعامل مع الكون المادى . .

ويتعامل مع عالم الغيب كله إلى جانب عالم الشهادة . .

وهو لكى يتعامل مع هذه العوالم كلها ، ليؤدى بهذا التعامل وظيفته ، وليحقق غاية وجوده . . يحتاج إلى تكوين خاص صالح للتعامل مع هذه الأبعاد والآماد فى كل اتجاه . .

وكذلك ندرك حقيقة الإنسان من إدراكنا لوظيفته وغاية وجوده .

٣٧ ـ إن ما يجمع بين الناس ، أو يفرق ـ فى التصور الإسلامى ـ هو العقيدة (التجمع على أمر يملك الفرد أن يصير إليه بإرادته) . هو هذه الوشيجة الأولى التى منها تنبع سائر الوشائج ؛ لأنها تتعلق بالسمة التى بها صار الإنسان إنسانا . سمة النفخة من روح الله المميزة لهذا الكائن الإنسانى عن سائر الخلائق ، والتى بها يصبح أهلا لهذه العقيدة . ومن هذه الوشيجة وعليها تقوم سائر الوشائج . فالأسرة ابتداء تقوم عليها . وعلاقة النسب من ثم تستمد منها . وكذلك وشيجة الأمة . فالأمة فى الاصطلاح الإسلامى هى جماعة المؤمنين بهذه العقيدة فى كل أرض ، وفى كل زمان كذلك . وأجيال المؤمنين فى جميع الأرضين هى التى تؤلف سلالة الأمة المسلمة . حيث لا تقوم وشيجة النسب والقرب ، ولا وشيجة القوم والجنس ، ولا وشيجة الأرض بذاتها رابطة تقوم عليها الأمة ، إذا انعدمت وشيجة العقيدة .

وتجب التفرقة بين هذا الاعتبار الحاسم ، وبين توجيهات الإسلام للرحمة العامة للناس، والبر بهم جميعًا ، والعدل حتى مع الشنآن . . فهذا كله شيء ، والولاء الذى ترتبط به الأمة المسلمة شيء اخر . إن هذا الولاء خاص ومقصور على الأمة المسلمة . حتى إنه لينقطع بين هذه الأمة وبين المسلمين الذين يبقون فى دار الحرب والكفر وهم قادرون على اللحاق بالأمة المسلمة فى دار الإسلام (ودار الإسلام هى كل بلد تحكمها شريعة الله ، ودار الحرب هى كل بلد تحكم بغير شريعة الله) ، فإذا بقى جماعة من المسلمين فى دار الكفر والحرب بمعناها هذا ، وهم قادرون على اللحاق بالأمة المسلمة فى دار الإسلام ، لم يقم بين هذه الجماعة البعيدة والأمة المسلمة ولاء . . « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » . .

نقول : تجب التفرقة بين اعتبار الأمة فى التصور الإسلامى ، وتلك التوجيهات بالرحمة بالناس كافة ، والبر بهم ما لم يحاربوا الله ورسوله ، والعدل لهم حتى من الشنآن . . فهذه تكاليف الإسلام للأمة المسلمة تجاه البشرية كلها . بوصف أن الأمة المسلمة يجب أن تكون هى المسيطرة المهيمنة ، التى تقيم القسط بين الناس فى كل حالة ، وترحمهم وتبرهم ما لم يعتدوا عليها ولا تتجلى الرحمة والبر بالبشرية كما تتجلى فى محاولة هدايتها إلى هذا الدين ، وتمتيعها بهذا التصور المستقيم .

فلا يتخذ أحد من هذا التكليف الإسلامى للأمة المسلمة وسيلة لتمييع الاعتبارات الإسلامية ، من إقامة الولاء بينها على أساس العقيدة وحدها ، واعتبار العقيدة المقوم الأول والأساس لقيام الأمة ، وتحريم الولاء بين هذه الأمة وبين مخالفيها فى العقيدة . . والولاء كما قلنا شيء ، والرحمة والبر والعدل شيء آخر . . فلا يلتبسان . .

٣٨ ـ إن الإسلام على كل رفعته ونظافته وأخلاقيته ـ الناشئة من ربانيته ـ لا يجانب الواقع فى تصوره لحقيقة الإنسان . . إنه هو هذا الكائن البشرى الذى يعيش على سطح هذه الأرض بفطرته وطاقاته واستعداداته ، وقوته وضعفه . . إن ظن الإسلام لا يسوء بهذا الكائن ، ولا يحتقر دوره الإيجابى فى الأرض وفى دورة الحياة ، ولا يهدر قيمته فى صورة من صور حياته ، سواء وهو فرد أو وهو عضو فى الجماعة . ولا يتصور كذلك أن كل دوافع فطرته سطحية ، يسهل تغييرها بجرة قلم ، أو بتغيير وضعه الاجتماعى بقوة القانون ! وعلى القانون ! وعلى وجه خاص لا يخرف فى شأنه تخريف الماركسية ، حين تعتقد أنه بمجرد تحطيم الطبقات البرجوازية وقيام ديكتاتورية الصعاليك يتحول الناس إلى ملائكة أطهار أبرار ، يعمل كل فرد منهم بأقصى طاقته ، ويتناول من الإنتاج بقدر حاجته ، بدون حاجة إلى حكومة تتولى الإدارة والتوزيع !

الإنسان فى التصور الإسلامى ، هو هذا الكائن بعينه ، الذى يدب على هذه الأرض . بفرديته العميقة ، وجماعيته العميقة كذلك . بحوافزه الفردية التى لابد أن تراعى وأن تلبى ، وحوافزه الجماعية التى لابد أن تراعى وأن تلبى . . بكينونته هذه المزدوجة الممتزجة المتنوعة الطاقات ، والاستعدادات الجسمية العقلية الروحية التى لا تنفصل ، ولا يتوارى عنصر من عناصرها الممتزجة المركبة ، والتى لابد أن تراعى جميعها وأن تلبى ، وأن يعمل حساب الفارق العميق بينها وبين الآلة والحيوان . . . ومن هذه القاعدة يأخذ الإسلام بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ، ويحترم ذاته وفطرته وكينونته الفريدة ، ويضع له المناهج التى تعامل هذا الإنسان وهو فرد ، وتعامله وهو عضو فى جماعة ، كما تعامله وهو هذه الكينونة المزدوجة الممتزجة المركبة . . ومع اعتبار الإسلام لإنسانية الإنسان هذه من جميع الوجوه ، ومعاملته بمنهاج ملحوظ فيه هذه الإنسانية كاملة ، فقد استطاع أن يصل بالناس فى فترة من الفترات إلى مستوى لم يبلغ إليه البشرية قط . وصاغ منه نماذج كأنما لتتطلع إليها البشرية فى جميع الأجيال . وحقق نموذجا من الحياة الواقعية تسوده قيم وتصورات فردية جماعية ، عميقة فى تكوين الضمير الفردى ، عمقها فى علاقات المجتمع الواقعية ، بصورة لم يسبقها ولم يلحقها نظير .

٣٩ ـ إن هذا المقام الذى أعطاه الله للإنسان كما يبدو من خلال التصور الإسلامى للمجال الذى يتحرك فيه الإنسان ، وتتجلى فيه شخصيته ووجوده وفاعليته . . المجال الذى يتعامل فيه مع تلك الآفاق المتنوعة المتعددة : حيث يتعامل مع الله ذى الجلال ، ومع الملأ الأعلى من ملائكة الرحمن ، ومع عالم الجن والشياطين ، ومع هذا الكون المشهود، ومع الأحياء بجملتهم فى هذه الأرض . . والمجال الذى من بينه خلافة الأرض ، والتعامل من خلال هذه الخلافة مع كل تلك الآفاق ، والمجال الذى تمتد فيه كينونته ووجوده من الأرض إلى السماء ، ومن الدنيا إلى الآخرة . .

إن هذا المقام الذى تجلوه هذه الإشارات ، والذى أعطاه الله لهذا الكائن ، لم تعطه إياه كل فلسفة عصر التنوير ، التى ألهت الإنسان ، ولم تعطه إياه الماجنا كارتا ، ولا مبادئ الثورة الفرنسية ، ولا إعلان حقوق الإنسان ، ولا كل أولئك الذين لا يعطونه ما أعطوه إلا ليتخذوا من ذلك ستارا للشرود من ألوهية الله . إنهم لم يعطوه إلا ما يفسده ويجافى فطرته ، بحرمانه من حاجة فطرته إلى العبودية لله . . هذه العبودية التى تهبه كل هذا المجال العريض ، وتمنحه كل هذا المجال الكريم ، فى جناب الله . .

٤٠ ـ نظرية المعرفة التى تقاتلت حولها الفلسفات فى حرب بهيجة خلال ثلاثة قرون ،

ثم ذهبت البهجة وبقيت الحرب ! (كما يقول ديورانت) يبسطها القرآن بسطا مشرقًا عميقًا دقيقًا .

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نُصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أُوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل . ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، ولو شاء رَبك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون. ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون. أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

صدق الله العظيم

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٩٣/٤٣٦٩
I.S.B.N: 977- 09 - 0147 - 4

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



في ظلال القرآن
مقومات التصور الإسلامي
خصائص التصور الإسلامي
العدالة الاجتماعية في الإسلام
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
دراسات إسلامية
نحو مجتمع إسلامي
معركتنا مع اليهود
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
تفسير آيات الربا
تفسير سورة الشورى
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين

